الدكتور أبو القاسم سعد الله

تاريخ الجزائر الثقافي

الجزء العاشر

1954 - 1962

عاصمة الثقافة العربية

دار البصائر
الجزائر

طبعة خاصة

دار البصـــائـر

2007

ردمك : 5 - 29 - 887 - 9961 - 978

الايداع القانوني : 2007 - 3314

دار البصـــــائـــــر

للنشر والتوزيــــع

50 شارع طرابلس – حسين داي - الجزائـــــر

الهاتف/فاكس : 27/25 – 36 – 77- 021

تاريخ الجزائر الثقافي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

هذا المجلد يواصل مسيرة مجلدات تاريخ الجزائر الثقافي التي توقفت عند سنة 1954، وبذلك تكتمل السلسلة بنهاية المرحلة الاستعمارية سنة 1962. ذلك أن عهد الثورة يمثل مرحلة انتقالية أو مخضرمة لابدّ من اجتيازها ليبدأ مؤرخو الثقافة عندنا بداية جديدة وهي مرحلة الاستقلال. وقد كانت تغطية مرحلة الثورة من أهداف المجلدات السابقة ولكن مادتها الوثائقية لم تكن متوفرة عندئذ.

ومع ذلك فإن كثيرا من مادة المجلد الجديد عاصرناها كما عاصرنا مؤلفيها وصناعها. فنصوص الثورة، وصحفها، وتنظيماتها، وشعراؤها وفنانوها وكتابات أنصارها وأعدائها عشنا معها خلال الخمسينات وبداية الستينات، واطلعنا عليها أو سمعنا بها في وقتها، ولكن لم يتح لنا رصدها وتصنيفها كما أتيح لنا خلال السنوات الأخيرة. ثم إن عددا من المذكرات والوثائق والدراسات والتفاعلات ظهرت منذ استقلال الجزائر، وكلها تصب في خدمة تاريخ الثورة، مما أتاح لنا الإطلاع على مادة وآراء جديدة وأغرانا الآن بالكتابة عن عهد يعتبر بمختلف المقاييس قد انتهى.

ومنذ حوالي ثلاث سنوات رجعت إلى الوطن بعد غربة طويلة وكنت

أحمل مشروع مواصلة البحث في التاريخ الثقافي أثناء الثورة. وحين عرضت المشروع على المركز الوطني للبحوث والدراسات في تاريخ الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، سارع بالترحيب به وتعاقدنا على إنجازه. فشمرت على ساعد الجد وبذلت الجهد إلى أن وفقني الله بإكمال الكتاب على الوجه الذي هو عليه الآن.

يتميز هذا المجلد عن إخوته بأنه كتب بناء على عقد محدود الزمان، وبأن جزءا منه قد كتب مباشرة على الحاسوب، بينما لم يسبق لي أن فعلت ذلك من قبل، فقد تعودت أن أكتب بحرية زمنية بحيث لا أحس بأي ضغط، مادي أو نفسي، رغم أن الطرف المتعاقد معي لم يتدخل مطلقا ليشعرني بالوقت. كما تعودت أن أكتب وأصحح على الورق بالطريقة التقليدية، قبل أن أسلم عملي إلى الراقن أو الطابع ليكمل مهمته. أما مع هذا الكتاب فقد حررت وصححت على الحاسوب، بالإضافة والحذف والتقديم والتأخير... ومع ذلك فهناك فصول وفقرات كتبتها خارج الجزائر وبالطريقة التقليدية، كما اعتدت أن أفعل في الماضي.

إلى الآن ما زلت عند رأيي في الكتابة عن تاريخ الثورة، فما زلت أرى أن الوقت لم يحن بعد للكتابة عن تاريخها المفصل، ولاسيما تاريخها السياسي والعسكري والدبلوماسي. أما تاريخها الثقافي فهو في نظري متاح، ومع ذلك فليس من السهل الخوض فيه. إنه قد يبدو للبعض أنه لا يعرض الكاتب للتبعات والأحكام المسبقة ولما قد يعتبره البعض محرما أو مضرا بالآخرين. ولكني أرى أن التاريخ الثقافي أيضا محفوف بكل الأخطار فهو يتعرض للأشخاص، بل لفئة معينة محسوبة على النخبة الاجتماعية التي قد ترى في الأحكام الصادرة عنها خطراً عليها أو تزكية لغيرها. والمثقفون والفنانون وأمثالهم يريدون ـ ربما أكثر من السياسيين- أن يستفيدوا أيضا من الثورة، فيقال عنهم إنهم ساهموا في خدمتها وعانوا من أجلها حتى ولو لم يشاركوا فيها من قريب أو من بعيد، بل حتى ولو وقفوا منها موقفا غير مشرف.

وكما نشاهد اليوم في المجال السياسي سباقا لدى المواطنين للانتساب للثورة، جهويا وإقليميا ووطنيا، فكذلك نشهد سباقا ربما أشد منه في المجال الثقافي. فكل عشيرة أو بلدة أو مدينة تحاول أن تتبنى عالما أو شاعرا أو فنانا أو روائيا على أنه أحد أبنائها، فتخرجه من قبر العصور، (إذا كان قديم العهد)، وتنفض عنه غبار الإهمال (إذا كان حديث العهد)، وتقدمه للناس وللإعلام على أنه علم الأعلام ومصباح الظلام في مهرجانات "ثقافية" ترصد لها الأموال الطائلة والتفاخر الفارغ، دون تسجيل أو طبع ما يلقى في المهرجان حتى يبقى الباب مفتوحا لتكرار التوسل إلى الناس والإعلام مرات ومرات.

إذن، لم يكن تناول التاريخ الثقافي قضية سهلة كما قد يتخيل البعض، ولعل أبرز قضية تواجه الباحث في هذا الخصوص هي مدى وفاء المثقفين للثوابت الوطنية، تلك الثوابت التي حصنت الجزائر عبر العهد الاستعماري من الذوبان والتحلل في البوتقة الأجنبية، ونعني بها الإسلام واللغة العربية والانتماء الحضاري للعروبة. فقد لاحظنا أن الشعارات والرموز والمطالب العامة كانت لا تخرج في البداية عن هذه الثوابت. ولكن هذا الالتزام لم يبق على حميته الأولى بل أخذ يضعف بالتدرج وحلت محله لغة التشكيك والمساءلة والعلمانية المفرطة التي وصلت في نهاية المطاف إلى تبني الاشتراكية العلمية، كما جسدتها الوثائق والنصوص تحت تأثير الصراع الإيديولوجي بين الشرق الاشتراكي والغرب الاستعماري الرأسمالي، وتأثير الجيل الجديد المتعلم في المدارس الغربية ولا سيما الفرنسية، وهو الجيل الذي "استولى" على مقاليد أمور الثورة في الخارج أولا ثم أمور البلاد كلها في الداخل منذ الاستقلال. هذا الجيل كان في الواقع يجهل الثوابت الوطنية لأنه لم يتعلمها في مدرسة ولا في حزب وطني، فتغلبت عليه الأنانية حين رأى أنه هو وحده الذي يمثل النخبة القائدة في البلاد وأنه أقرب ثقافيا إلى الفرنسيين منه إلى مواطنيه الجزائريين.

ومن جهة أخرى فإن نصوص الثورة نفسها أخذت تتنكر للثوابت الوطنية.

وستعرف من هذه الدراسة أن القائمين على الثورة، ولاسيما منذ 1956 قد مالوا عن هذه الثوابت وانفتحوا على ما يشبه (العولمة) اليسارية، فهبت على الثورة رياح عديدة مع الجيل الجديد المنضم للثورة ومع "الأصدقاء" الذين أرادوا أن يجربوا في الثورة الجزائرية ما فشلوا في تحقيقه في نقاط أخرى من العالم، أي أرادوا تدويل الأفكار التي يؤمنون بها، لاسيما وأن في الثورة الجزائرية مجالا للشعبية غير المتاحة في الثورات الأخرى، ما عدا ربما في الثورة الفيتنامية. ويظهر تخلي الثورة عن الثوابت في النصوص الصادرة عنها مثل البرامج والاتفاقات والتصريحات. وفي بعض الأحيان كان هناك وجهان للثورة: وجه تعيش به في الداخل ووجه تتحدث به في الخارج. وعندما حاول الخارج فرض مفاهيمه على الداخل سنة 1962 حدث تناقض كبير، ولكن الغلبة كانت لمفاهيم الخارج كما أشرنا.

إن هذا المجلد ليس دراسة فلسفية عن الظاهرة الثقافية للثورة الجزائرية. فلو أردنا ذلك لاكتفينا بالانتقاء والتركيز على نماذج معينة صغناها في أفكار وقوالب نظرية، ولكن هدفنا هو متابعة التطور الثقافي للجزائر خلال الثورة، وهذا المنهج اقتضى منا أن نجمع الإنتاج، سمينه وغثة، وتدوينه وتصنفيه حفاظا عليه من التلاشي، لذلك وسعنا من دائرة مفهوم الثقافة لتشمل حتى الإعلام والقضاء والصحة. وتناولنا الجانب النظري في النصوص والأعمال الفكرية مثل أفكار مالك بن نبي ومصطفى الأشراف وفرانز فانون، بالإضافة إلى العناوين المتعارف عليها في الثقافة مثل التعليم والسينما والمسرح والرسم والموسيقى. وتجب الملاحظة أن بعض العناوين لم نستطع تغطيتها كما رجونا لعدم توفر مادتها حاليا مثل المكتبات والمتاحف والمؤسسات التعليمية كالجامعة ومعاهدها.

لذلك اختلفت مادة هذا المجلد عن باقي المجلدات السابقة في بعض التفاصيل. فهو مثل سابقيه يجمع مفهوم الثقافة في كونها "جزائرية" بقطع النظر عن كون العمل الثقافي أنتجه جزائريون ثائرون على الاستعمار أو عاملون في

إدارته ومؤسساته، وسواء كتبوا إنتاجهم بلغتهم الوطنية أو بلغة المستعمر، وسواء كانوا يعيشون داخل الجزائر أو خارجها. وتبعا لهذا المسلك اضطررنا إلى أن يواصل هذا المجلد ما توقف عنده في أخواته، وأحيانا وجدنا معلومات على فترة عالجناها سابقا فأضفناها إلى هذا، استكمالا للمعلومة، أما ما كنا متأكدين من أنه انتهى بزمنه فلم نرجع إليه.

ولكن هذا المجلد ليس كاملا من جميع النواحي، ولا يدعى أن يكون كذلك، لأن الكمال العلمي والإحاطة الدقيقة مستحيلان علميا وعمليا. فلن يجد كل أديب وكل فنان وكل مفكر نفسه فيه، ولن يدعي الإحاطة بكل فكرة أو وثيقة أو رأي، بل على الباحثين أن يطوروا منه ما شاءوا من آراء وأفكار، وعلى آخرين أن يبحثوا انطلاقا منه على مؤلفين وفنانين ومنتجين آخرين. فهذا الكتاب لا يزعم أنه جمع فأوعى أو أنه قطع الطريق على كل الباحثين.

وقبل أن أضع القلم يجب أن أنوه بجهود كل الذين ساهموا في تسهيل مهمتي العلمية لإنجاز الكتاب. فأنا مدين لهم جميعا بالشكر والتقدير.

أغتنم هذه الفرصة لأشكر كل الذين أمدوني بآرائهم في بعض قضايا هذا الكتاب، وأخص بالذكر الأستاذين الكريمين الأمين بشيشي وعبد الحميد مهري.

فقد أجريت مقابلة مع الأستاذ بشيشي في المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، يوم 09 يناير 2005 صباحاً، ودامت المقابلة حوالي ساعتين ونصف.

أما الأستاذ مهري فقد استقبلني في بيته: 30 شارع سعيد حمدين بحيدرة، يوم الأحد 12 جوان، 2005 على الساعة العاشرة، ودامت المقابلة ساعتين.

أ.د/ أبو القاسم سعد الله

الجزائر (ابن عكنون) في 2006/02/12/

الفصل الأول

عشيـة الثـورة

عرفت الجزائر تجربة الأحزاب والانتخابات مبكرا إذا ما قورنت بالمنطقة العربية، رغم أن ميلاد الأحزاب فيها كان عسيرا وإجراء الانتخابات كان نموذجا للتزوير. فلم تظهر الأحزاب أو بالأحرى التجمعات إلا منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، مع ظهور تنظيم (الأخوة الإسلامية) للأمير خالد في الجزائر، ونجم شمال إفريقيا في فرنسا، وكلاهما كان شكلا بدائيا للحزبية، ومثلهما هيئة النواب وتجمّع ابن جلول وأحباب البيان في الجزائر، وحزب الشعب في فرنسا. ويمكن القول إن التنظيم الحزبي الحقيقي لم يظهر إلا على يد حزب الشعب والحزب الشيوعي ثم حزب البيان.

أما الانتخابات النيابية فقد بدأت في الجزائر منذ 1848 ولكنها لم تطبق إلا على الفرنسيين عند قيام الجمهورية الثانية في فرنسا. وأما الجزائريون فلم يكن لهم أي دور في هذه الانتخابات بحيث كان لهم نواب في المجالس المحلية ولكن بالتعيين من قبل الإدارة الفرنسية نفسها بعد أن تتأكد من سيرة كل معين ومن ولائه. وأول انتخابات شارك فيها الجزائريون جرت سنة 1920 وهي التي شارك وفاز فيها الأمير خالد وقائمته من أجل مقاعد في بلدية مدينة الجزائر. فكانت هذه الانتخابات البلدية أول تجربة خاضها الجزائريون، ثم استمرت وتوسعت ولكنها ظلت دائما تجري تحت نظر الإدارة التي تنجح فيها من تشاء وتبعد عنها من تشاء إلى اندلاع الثورة، وتلك الطريقة في التدخل في الرقابة والاختيار هي التي أصبحت معروفة عند الجزائريين بالانتخابات المزورة أو

الانتخابات على الطريقة النيجلانية، نسبة إلى الحاكم العام مارسيل نيجلان (1948–1952) الذي كان يشرف عليها شخصيا.

دعنا نقل كلمة عن الحالة العامة عشية الثورة حتى ترتبط فعاليات النشاط الثقافي بالوضع العام في الجزائر.

الحالة الاقتصادية والإدارية والسياسية

الحالة الاقتصادية

يقول الدارسون لاقتصاد الجزائر إنها عاشت أزمة اقتصادية حادة منذ الحرب العالمية الأولى ولم تبدأ في الخروج منها إلا أوائل الخمسينات، وكان الخروج منها يعود إلى الأداء الذي عاشه الاقتصاد الفرنسي بعد الحرب من جهة وبفضل الاستثمارات التي تولدت عن خطة أو برنامج السنوات الأربع ابتداء من 1949، ولكن النمو والعافية لم يؤثرا في كل القطاعات الاقتصادية بدرجة متساوية. مثلا بين 1930–1955 تطورت القطاعات الاقتصادية كما يلي[1]:

القطاع	1930	1955	النسبة
الزراعة	194	210	٪ 30
المناجم	14	19	٪ 1.2
المصنوعات والطاقة	33	104	٪ 4.6
البناء والأشغال العمومية	13	47	٪ 5.4
النقل والأعمال والخدمات	169	269	٪ 109
الإدارة المدنية	36	80	٪ 3.3
فيكون إجمالي الإنتاج المحلي	**460**	**730**	**٪ 8.1**

(1) المصدر: جون رودي، الجزائر الحديثة، نقلا عن سمير أمين: اقتصاد المغرب، ج1، ص186.

لقد كانت الزراعة والمناجم في وضع راكد. أما النمو الجزئي الذي عرفه القطاع الزراعي فقد كان في المجال الحديث حيث كان المستفيدون منه هم الكولون - المستوطنون. أما في المجال الزراعي التقليدي حيث الزراعة هي أساس الاقتصاد لأغلبية السكان فقد استمر التراجع فيه حتى عاد إلى ما كان عليه منذ ستين سنة خلت. فإنتاج الحبوب مثلا لم يتقدم تقريبا منذ فاتح القرن العشرين. أما الإنتاج الحيواني فقد انكمش بشكل ملحوظ. وفي سنة 1953 ربح الكولون 34.000 فرنك عن معدل الهكتار المزروع بينما الفلاح الجزائري لم يربح سوى 6.400 فرنك. لقد كان الدخل السنوي للفلاحين، (وعددهم 5.840.000 نسمة) هو 19.200 فرنك، أما الطبقة الوسطى (منها 92٪ أوروبيون) فكان دخلهم السنوي هو 227.000 فرنك. وأما دخل الطبقة العالية (البرجوازية) فكان 1.500.000 فرنك[1].

ولاحظ مصدر خبير بالحياة الاقتصادية والبطالة والتعليم عشية الثورة بأن 11٪ فقط من اليد العاملة للسكان المسلمين، بينما 42٪ للكولون في كل الأعمال ذات الصلة بالصناعة. ثم إن 92٪ من الأنشطة الصناعية والتجارية كانت في أيدي الأوروبيين. وأما في ميدان التوظيف فهناك 19٪ فقط من الموظفين في القطاعات الاقتصادية المؤممة كانوا مسلمين. وبالنسبة للتعليم الذي سنتناوله في فصل لاحق، لاحظ الباحثون أن طفلا واحدا مسلما من كل عشرة أطفال كان يذهب إلى المدرسة، بينما كل الأطفال الأوروبيين تقريبا كانوا يدرسون. أما الأمية فقد بلغت 94٪ في الرجال المسلمين و98٪ في النساء المسلمات. ولم يدخل التعليم الثانوي من المسلمين سوى 7000 تلميذ، ولا التعليم العالي سوى 685 طالبا. ومن حيث التجهيزات كانت مزارع الأوروبيين مجهزة بـ 19509 من الجرارات بينما المسلمون ليس لهم سوى 418 جرار.

(1) المصدر: جون رودي، مرجع سابق، ص 186 .

لذلك كان قطاع الأروبيين ينتج 9.74 قنطارا، أما قطاع المسلمين فلا ينتج سوى 4.65 قنطارا.

وكانت 73٪ من الأرض التي يملكها المسلمون مقسمة إلى أقل من عشرة هكتارات. أما الأراضي التي يملكها الكولون فكان 80٪ منها مقسما إلى أكثر من 100 هكتار. وكانت ملكية الأرض تلفت الانتباه وتتحدث عن نفسها. فالأوروبيون يملكون 7.2 مليون هكتار، بينما يملك المسلمون 3.7 مليون هكتار، غير أن الأوروبيين يملكون أكثر الأراضي خصوبة وغنى[1].

الحالة الإدارية والسياسية

بالنسبة للوضع القانوني والإداري للجزائريين عشية الثورة نلاحظ أيضا مجموعة من الاستثناءات، فهذا المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون يقول إن الجزائريين المسلمين كانوا من الناحية القانونية رعايا فرنسيين منذ 1834، 1865 وليسوا مواطنين.

ولم يعطهم القانون حق إرسال نواب عنهم إلى البرلمان الفرنسي إلا سنة 1944. أما دستور سبتمبر 1947 المعروف بقانون الجزائر فقد منحهم المواطنة الفرنسية الكاملة، حسب قوله، اعتمادا على التصور الإسلامي لحكم أهل الذمة(!) ولكن مع إبقائهم على أحوالهم الشخصية الإسلامية. ونتيجة للقانون الأخير (الدستور) ألغيت القيود على الهجرة العمالية إلى فرنسا، وتم منح العلاوات والتقاعد لقدماء المحاربين الجزائريين بالمساواة مع الفرنسيين، وفرضت الخدمة العسكرية الإجبارية على جميع الاحتياطيين[2].

أما من الناحية الإدارية فقد كانت الجزائر مقسمة إلى ثلاثة أقاليم على رأس كل إقليم وال، وله نواب. وكل ولاية مقسمة إلى دوائر، وكل دائرة إلى

(1) ديفد غوردن، نهاية الجزائر الفرنسية، لندن 1966، ص 51-52.
(2) لويس ماسينيون، حولية العالم الإسلامي، 1954، باريس، 1955، ص 230.

بلديات إما كاملة الصلاحيات وإما مختلطة. هذا في شمال البلاد، أما في جنوبها، فهناك أربع مقاطعات عشية الثورة، وهي: عين الصفراء، والواحات الصحراوية، وغرداية، وتقرت، بالإضافة إلى عشر بلديات مختلطة، وتسع ملحقات، إضافة إلى تيديكلت وجانت والهقار، وهي مناطق تابعة للملحقات. وهناك قانونان مهمان في هذا المجال أولهما قانون أول أغسطس 1918 الذي استرجع العمل بنظام "الجماعة" الريفية المنتخبة أو المعينة محليا في البلديات كاملة الصلاحيات، وثانيهما قانون 6 فبراير 1919 الذي عممها ونظمها (أي الجماعة) في كل الدواوير (البلديات). فقد كانت هذه الجماعات موجودة في الماضي واسترجعت الآن صلاحياتها، وهي تتداول في تسيير شؤون القرية مثل ملكية الأرض العروشية (التابعة للعشيرة أو العرش) والتصرف في المال العام[1].

فإذا انتقلنا إلى الجانب السياسي وجدنا الحكم في يد الوالي العام الممثل للحكومة الفرنسية في الجزائر والمعين من قبلها، وهو يتبع رسميا وزارة الداخلية باعتبار أن الحكم في الجزائر مدني، وكان اسم الحاكم عند اندلاع الثورة هو (روجي ليونار). والحاكم يبقى عادة في ولايته بين ثلاث وأربع سنوات. وهو يسير شؤون الجزائر إداريا وسياسيا وعسكريا واقتصاديا، وتحته مجموعة من المصالح والإدارات والقطاعات العسكرية والمؤسسات الاقتصادية. وقد جرب الجزائريون عددا كبيرا من هؤلاء الولاة فوجدوهم غالبا خاضعين لضغط أصحاب المصالح الاقتصادية والسياسية من الكولون. وقد تدعم موقف هؤلاء منذ أصبحت الميزانية تناقش في الجزائر ثم ترفع إلى الحكومة والبرلمان الفرنسي للموافقة عليها. ولم يكن للجزائريين أدنى سلطة ضغط لأنهم لم يكونوا يتمتعون بالحقوق السياسية والحريات المدنية من جهة، ولأنهم لم يكونوا ممثلين في البرلمان الفرنسي حيث تناقش الميزانية من قبل ممثلي الكولون ثم

(1) ماسينيون، مرجع سابق، ص 234.

تتم الموافقة عليها في غياب كامل للجزائريين.

وهذا هو ما يجرنا إلى الحديث عن مسألة التمثيل النيابي. بناء على قانون 1947 أصبح للجزائر مجلس محلي (برلمان) يسمى المجلس الجزائري، صلاحياته تنتهي عند مناقشة ما يعرضه عليه الوالي من مسائل، فهو مجلس استشاري وحسب. ولكن تركيبته هي الأهم. فهو يتألف من 120 عضوا، نصفهم جزائريون ونصفهم فرنسيون (رغم فارق عدد السكان)، ومدته ست سنوات، لكن نصفه ينتخب كل ثلاث سنوات. والغريب في أمر هذا المجلس أن له هيئتين انتخابيتين وليس هيئة واحدة (مسلمون وأوروبيون) فالقسم الأوروبي (الفرنسي) يتمتع أعضاؤه بكامل حقوق المواطنة القانونية حسب القانون المدني الفرنسي. وأما القسم الثاني [الثاني ليس في الترتيب فقط ولكن في الاعتبار أيضا] فهو القسم الأهلي الذي يتكون أعضاؤه من مواطني الحالة الإسلامية.

عند اقتراب الثورة كان أغلب أعضاء القسم الأول في المجلس من الراديكاليين المستقلين (بالتعريف الفرنسي)، أما أعضاء القسم الثاني فأغلبهم (51 منهم) من المستقلين. وكل هيئة في المجلس يمثلها ستون عضوا. وعبارة "مستقلين"، بالنسبة للجزائريين تعني أن الإدارة هي التي أوعزت لهم بالترشح وضمنت لهم النجاح حتى تقطع الطريق أمام مرشحي الأحزاب الوطنية واليسارية، مثل حزب الشعب (حركة الانتصار) وحزب البيان، والحزب الشيوعي. أما جمعية العلماء فرغم أنها تعتبر قائدة لتيار إصلاحي قوي فإن رجالها لا يترشحون في الانتخابات لأنها جمعية دينية ثقافية وليست حزبا سياسيا[1].

---

(1) ماسينيون، مرجع سابق، ص 233. والملفت للنظر أن ماسينيون ذكر " الأحزاب السياسية الإسلامية الكبيرة" : حركة الانتصار وحزب الشعب، وحزب البيان، وحزب العلماء المصلحين(كذا) وأهمل ذكر الحزب الشيوعي، ربما لأن من بين أعضائه فرنسيين.

وفيما يلي سنتحدث باختصار عن هذه الأحزاب وقادتها، وسنركز على حزب الشعب (حركة الانتصار) باعتباره المخطط للثورة وكون القيادات الأولى برزت من صفوفه، ثم نركز على جمعية العلماء باعتبارها جمعية ثقافية أعدت الجماهير روحيا ودينيا لتحتضن الثورة، وباعتبار عملنا هذا يتناول الجانب الثقافي.

جبهة الدفاع عن الحرية ومسألة الاتحاد

عندما أصبح تزوير الانتخابات مسألة مكشوفة تمارسها الإدارة دون وجه حق ولا غطاء شرعي، وعندما تكاثرت الاعتداءات على الحريات المدنية والسياسية بالاعتقال ومصادرة الصحف وإغلاق المدارس تجاوبت الأحزاب المذكورة، بالإضافة إلى جمعية العلماء والشخصيات المستقلة والتأمت في العاصمة لتكوين "جبهة للدفاع عن الحرية واحترامها". هكذا ولدت هذه الجبهة في أغسطس 1951 على يد زعماء الأحزاب وجمعية العلماء. ورغم الخطب والإعلان عن برنامج جذاب وفي الصميم فإن الجبهة سرعان ما تفتتت وتخلت عن مواصلة الاجتماعات والعمل المشترك. وبذلك انتصرت الإدارة التي واصلت سياستها القمعية وانتخاباتها المزورة.

وقد طرحت بعد ذلك جريدة (المنار) استفتاء على الاتحاد، وتعني به اتحاد القوى الوطنية لمواجهة الإدارة الماضية في سياستها القمعية فاستجاب الكتّاب لفكرة الاتحاد قادة وأتباعا، سياسيين ومثقفين من كل الفئات. فكانت حملة إعلامية، ملأت الفراغ بعض الوقت بعد أن أصبح عامة الناس متضايقين منه أمام فشل الأحزاب في تحقيق الآمال الوطنية، بل وانشغال بعض الأحزاب بانشقاقات داخلية.

انشقاق في حزب الشعب

من هذه الأحزاب التي كانت تعاني الانشقاق في وقت عصيب حزب

الشعب الذي كان بزعامة مصالي الحاج. هذا الحزب الذي تأسس سنة 1937 ظل هو العمود الفقري في سياسة المطالبة باستقلال الجزائر والعمل على تحقيق ذلك بكافة الوسائل ومنها السلاح. وفي مرحلة قريبة من بداية الثورة جرى داخل الحزب بعض الخلاف حول الطرق المؤدية للاستقلال: هل هي مقاطعة العمل السياسي داخل النظام أو التعامل مع النظام بوجهين: وجه ظاهري تمثله المشاركة في الانتخابات ووجه باطني أو سري وهو الإعداد لثورة مسلحة. وقد استقر الرأي على ذلك المنهج فأصبحت (حركة الانتصار) هي الوجه السياسي الظاهري و(المنظمة الخاصة) هي النواة لتحضير الثورة في السرية. بينما بقي حزب الشعب الذي حلته السلطة الفرنسية واعتبرته خطرا على أمن الدولة ومصير الجزائر الفرنسية، هو التنظيم الذي يغطي الاثنين وهو المرجع في السياسة وفي العمل المسلح.

ولابدّ من القول إن الحزب قد تضخم وتجدد ودخلته عناصر مثقفة، مارست السياسة وحركتها الحياة في السجون، وأصبحت لها آراؤها في وضع الإستراتيجية المناسبة للمرحلة. لذلك برزت شخصيات قائدة في كل تنظيم سواء في المنظمة الخاصة أو حركة الانتصار، وأصبح هناك قادة عسكريون وقادة سياسيون، وفيهم النواب في الجزائر وفرنسا، وفيهم الصحفيون والصيادلة والأطباء والمعلمون. وقد حدث انشقاق بين "الحرس" القديم والقيادة الجديدة، أو بين المحافظين على زعامة الحزب كما هي بقيادة مصالي الحاج وبين " اللجنة المركزية" التي أصبحت بالتدرج تضم جيلا جديدا من السياسيين الميدانيين. وقد ظهرت التسمية الجديدة بعد قطع الجسر بين أنصار مصالي وخصومه داخل الحزب، وبعد أن فشلت جهود التوفيق بينهما على يد بعض العناصر من المنظمة الخاصة.

لماذا لم يعد مصالي الحاج محل ثقة أعضاء الحزب؟ إن مصالي ظل يملأ الساحة السياسية لحزبه وأنصاره منذ 1927، فهو المرجع السياسي الوطني عندما كان العمل السياسي مرتكزا في فرنسا، وهو كذلك المرجع عند ما انتقل

العمل السياسي إلى الجزائر وانتشرت خلايا الحزب في مختلف جهات الوطن. بني مصالي الحاج شخصية ذات هالة (كاريزمتية) عند أتباعه، وحتى على المستوى الشعبي، فكان له مظهر الزعيم ممسكا بزمام الحزب، رغم أن خصومه ينتقدون مستواه الفكري وقدرته في الذكاء. وكان يقال إن عقيدته كانت وطنية يسارية (ماركسية) لتأثره بمبادى الحزب الشيوعي الفرنسي ولكون زوجته الفرنسية كانت شيوعية صريحة، ولكن عقيدته تحولت إلى عربية إسلامية تبعا للتيار القومي والإسلامي الذي كان ينشط في المشرق خلال الثلاثينات. كان البعض من أتباعه قد اتهمه بالفردية والاستبداد بالرأي ونشر "عبادة" الفرد، وهذا ما أخذته عليه اللجنة المركزية عشية الثورة حين بلغ الخلاف بينهما أشده، وأقصى كل منهما الآخر. وكان من نتيجة هذا الخلاف تأخير إعلان الثورة حوالي سنتين. ومن نتائجه أيضا أن الثورة قد أعلنت بدون مصالى وبدون خصومه المركزيين، فقد أعلنها فريق ثالث من الحزب ذاته منبثق عن المنظمة الخاصة ليجعل المتخاصمين أمام الأمر الواقع ويجبرهما على الانضمام إلى الثورة بدل الجدال العقيم حول الزعامة.

ولعل من المأساة أن يعيش المرء عيشة مصالي، فقد ظل فترة طويلة في السجون الفرنسية (في الجزائر، وفرنسا، وإفريقيا) بينما كان الحزب ينمو ويكبر عددا وفكرا. ومع السن والمسافة لم يعد مصالي قادرا على متابعة الأحداث وفهم ذهنية الأجيال إلا بواسطة وذلك لا يكفي، فالاستعمار الفرنسي يقتل بعض الزعماء قتلا بطيئا بينما يصنع الفرص لآخرين حتى ينتفخوا ويصيروا زعماء. ورغم شهرته فإن مصالي لم يخرج عن فرنسا وسويسرا (أو أدغال إفريقيا) ولم يزر المشرق العربي سوى مرة واحدة عندما أدى فريضة الحج، ولم يمر على تونس أو ليبيا أو سوريا لأن الرخصة التي أعطيت له للحج صيف 1951 اشترطت عليه السفر جوا.

ومع ذلك فإن مصالي نزل مصر بعد أداء الحج، وكانت له فيها أنشطة شملت الأزهر والجامعة العربية ومكتب المغرب العربي. ويبدو أنه أقام في مصر

بضع أسابيع ظهر فيها محل تقدير وتكريم، فنحن نجده في إحدى الصور بلباسه الأوروبي مع الطربوش واللحية الطويلة وهو يتبادل الحديث مع بعض الأعيان كالدكتور منصور فهمي والشيخ عبد اللطيف دراز شيخ الأزهر، ومفتى فلسطين الحاج أمين الحسيني، ورئيس الجمعية الملكية الفلاحية فؤاد أباظة. ويبدو من المؤكد أنه التقى عبد الرحمن عزام الأمين العام للجامعة العربية. وفي هذه الأثناء اتخذت اللجنة السياسية للجامعة العربية قرارا برفع القضية المراكشية إلى هيئة الأمم المتحدة. وقد ذكرت جريدة (منبر الشرق) نبذة عن حياة مصالي وأفكاره السياسية ونشاطه في جنيف مع صديقه علي الغاياتي وغيره. وصرح للصحفي عبد الكريم محمد الذي يعرفه من قديم بأن البلاد العربية المسلمة لن ينقذها إلا العودة إلى تعاليم الإسلام ووحدة العرب والمسلمين حول الإسلام[1].

ويبدو أن أتباع مصالي في الجزائر وفرنسا كانوا يعتقدون أنه سيغتنم فرصة وجوده في المشرق لأول مرة ويوسع من دائرة التعريف بالقضية الجزائر وربما نصحوه بأن يختار الإقامة هناك، كما فعل الأمير الخطابي وغيره، بدل البقاء في السجون الفرنسية، ولكن مصالي فاجأ الجميع بالرجوع إلى أوروبا، والحلول بسويسرا بدعوى التعريف بالقضية الجزائرية في الأمم المتحف التي كان مقرها عندئذ في جنيف. وقد أقام مصالي مأدبة في أوائل ديسمبر 1951 للوفود العربية والإسلامية بهيئة الأمم في جنيف. ومن الذين حضروا المأدبة عبد الرحمن عزام وأحمد الشقيري ورؤساء وفود الدول العربية والإسلامية[2].

ومما يلفت النظر أن مصالي ألقى فيهم خطابا نوه فيه بالكرم الذي حظي به لدى الحكومات والشعوب العربية والإسلامية أيام إقامته في المملكة العربية السعودية ومصر، ووعدهم بأن الشعب الجزائري سيحقق آمالهم. وبعد حوالي شهرين ونصف قامت السلطات الفرنسية باعتقال مصالي وهو متجه إلى بوردو

(1) المنار، 15، 22 أكتوبر 1951.

(2) المنار، 11، 8 ديسمبر 1951

(فرنسا)[1].

وهكذا دخل مصالي القفص من جديد وظل الحزب بدون زعيم يعيش قضاياه ويحس بصوت الشعب عن قرب إلى أن انفجرت الأزمة التي أشرنا إليها والتي استعصت عن الحل، ولم ينهها إلا دوي الثورة.

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

في اجتماع الجمعية الذي انعقد في سينما دنيا زاد في سبتمبر 1951 تحت رئاسة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي قدمت التقارير المالية والأدبية استعرض فيه نشاط الجمعية منذ سنة 1943، وخلاصة ذلك أنه أصبح للجمعية 123 مدرسة ذات هندسة منسجمة مع تاريخ العمران الإسلامي (الأندلسي) وذلك أمر مقصود من الجمعية لتحافظ على الطراز التاريخي والذوق الفني، ولتفهم الأجيال تراث الأجداد، والعدد المذكور من المدارس لا يدخل فيه المعطل بسبب الإدارة الفرنسية أو بسبب العجز. أما عدد المعلمين فقد بلغ 175 معلما وهم يتقاضون أجورا متدنية لا تكاد تسد الرمق، وقد بلغت ميزانية المعلمين في الجمعية 37 مليون فرنكا سنويا، والمعلمون عرضة دائما للقمع الإداري والتغريم والمحاكمة والسجن مع المجرمين.

من الأعمال التي أعلن عنها في هذا الاجتماع أيضا أن الجمعية أنشأت لجنة عليا للتعليم والتفتيش، وكانت ما تزال تحت التجربة. ولم تتقدم في نشاطها للنقص في التمويل، وقد بلغت نفقاتها خلال السنة التجريبية مليون فرنك. والمعروف أن هذه اللجنة قد تطورت ونمت وعاشت إلى سنة 1956 على الأقل رغم الخطوات المتعثرة التي بدأت بها.

كما أنشأت الجمعية معهد عبد الحميد بن باديس في قسنطينة، وكان إنشاؤه وفاء لرئيسها ابن باديس، وقد أصبح المعهد يضم حوالي 700 تلميذ

(1) المنار، 16، 15 فبراير 1952.

واثني عشر معلما، والدراسة فيه تعتبر جسرا للتعليم الثانوي، فهو يوصل لشهادة الأهلية ثم ينتقل تلاميذه إلى الزيتونة للحصول على شهادة التحصيل أو الثانوية العامة. وكانت الجمعية تخطط لإنشاء كلية في قسنطينة أيضا للطلبة المتخرجين من جامع الزيتونة والمعاهد الإسلامية الأخرى.

كما عادت البصائر للظهور، وهي جريدة- كما ستعرف- كانت مقروءة في المغرب العربي والمشرق وحتى في الأمريكيتين. وقد قال عنها الإبراهيمي، رئيس تحريرها وصاحب امتيازها ". إنها سيف من سيوف الإسلام، وقبس من روحانية الشرق" حملت على الاستعمار، وشاركت في قضية فلسطين وانتقدت العرب المتخاذلين، ومنعت من دخول المغرب الأقصى لأنها تبنت قضيته الوطنية ونددت بتصرف الاستعمار فيه، وأضاف الإبراهيمي أن البصائر "استردت للجزائر ما كانت مغبونة فيه من حسن السمعة".

ومن جهة أخرى بسطت الجمعية وجريدتها القول في قضية فصل الدين عن الدولة، وقدمت بشأنها مقترحات إلى النواب بالمجلس الجزائري، وعالجها الإبراهيمي في عدة مقالات متصلة الحلقات.

وفي نفس الاجتماع تحدث الإبراهيمي عن نشاط الجمعية في فرنسا ولماذا اختارت أن ترسل مندوبا عنها إلى الجالية الجزائرية هناك، وهي الجالية التي بلغت أكثر من مائة ألف نسمة، ولها أطفال بلغوا العشرين ألفا وكلهم يقضون مضاجع الجمعية الحريصة على توصيل رسالة الإسلام واللغة العربية إلى هذه الجالية وتعتبر نفسها مسؤولة على رعاية الجالية دينيا وأخلاقيا في بلاد الغربة. لذلك أرسلت وفدا من الشيوخ منهم الفضيل الورتلاني، وسعيد صالحي وعبد الرحمن اليعلاوي، ثم الربيع بوشامة وسعيد البيباني. وذكر الإبراهيمي أن الثلاثة الأوائل حاولوا الحصول على محل (مكتب) دائم للجمعية في باريس، فلم ينجحوا، ولكنهم بذلوا جهودا في فتح نوادي تهذيبية، والمقصود بها محلات لتعليم الدين والأخلاق واللغة العربية وإلقاء دروس الوعظ والإرشاد بما يربط

الجالية بوطنها ودينها خوفا عليها من الضياع في الحياة الفرنسية. وبينما فشلت الجمعية في الحصول على مركز في باريس حتى بعد سفر الإبراهيمي إليها فإنها، نجحت في الحصول على مكتب في القاهرة بفضل جهود ثلاثة رجال لم يذكر الإبراهيمي أسماءهم، وهم أنفسهم قاموا بتدبير بعثات طلابية للجزائريين من قبل حكومة مصر وباكستان، ولا شك أن أحد هؤلاء الرجال هو الفضيل الورتلاني.

وبنهاية الاجتماع قرأ الشيخ إبراهيم مزهودي تقريرا عن نشاط الجمعية في فرنسا، وألقى الشاعر أحمد سحنون قصيدة، وشاركت الأحزاب السياسية المدعوة بالحضور وإلقاء الكلمات، فقد تحدث العربي دماغ العتروس (وهو نائب عن حزب الشعب في المجلس الجزائري) باسم حركة الانتصار، وتكلم عبد الحميد بن سالم باسم حزب البيان، ويونس كوش عن الحزب الشيوعي، وأحمد توفيق المدني عن الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحرية، وختم الشيخ العربي التبسي الاجتماع بخطبة ناقش فيها من يقول إن الجمعية لا تتدخل بالسياسة، ففي نظره أن جمعية العلماء هي جمعية لكل الجزائريين بحكم مبادئها، وما دامت السياسة قد تدخلت في الدين (يقصد الحكومة الفرنسية وسيطرتها على شؤون الدين الإسلامي) فإن الجمعية تقف مع الديمقراطية وحقوق الإنسان لأن الإسلام والاستعمار لا يلتقيان[1].

على هذا المنوال سارت جمعية العلماء في الجزائر، لكن حدثت أحداث جعلتها في الواجهة أحيانا أو كما قال الشيخ التبسي لا تستطيع ألا تتدخل في السياسة لأن هذه تدخلت في شؤون الدين الإسلامي. ففي يناير 1952 غادر الإبراهيمي الجزائر عبر فرنسا متجها إلى المشرق لكي يحضر مؤتمرا إسلاميا في باكستان ويدبّر منحا لطلبة المعهد ثم يرجع، ولكنه لم يرجع لحدوث الثورة وانقطاع السبل بأمثاله. وأثناء ذلك وقعت تغييرات في الجمعية أصبح بها النائبان

(1) المنار، أكتوبر، 1951.

(الشيخ التبسي والشيخ محمد خير الدين) يتنافسان على إدارة الجمعية، وأصبح أحمد توفيق المدني هو الكاتب العام ورئيس تحرير البصائر، ووقع بعض التمرد من الطلبة في القاهرة ضد سلطة مكتب الجمعية، وخصوصا ضغط الشيخ الورتلاني الذي كان يعمل-كما قيل- على إدخال الطلبة في حركة الإخوان المسلمين، بينما كان مكتب المغرب العربي في القاهرة الذي يسيطر عليه حزب الشعب الجزائري، يعمل على جذب الطلاب إليه، وكان لهذه التطورات ارتدادتها في الجزائر لدى أولياء الطلبة والأساتذة، ولذلك طلب المجلس الإداري للجمعية في اجتماعه، سبتمبر 1954، بعودة الشيخ الإبراهيمي لإعطاء تفسير واضح عما حدث مع الطلبة، مع تقديم بيانات عن تأزم الوضع في الجزائر وحرج الجمعية من اتخاذ مواقف في غيابه[1].

ويرى بعض الباحثين أن العلماء خدموا التعليم الحر واللغة العربية، وقاموا بالوعظ والإرشاد في المساجد الحرة عندما لم تسلم لهم الإدارة الشؤون الدينية التي ظلت تشرف عليها، كل ذلك في ظرف قصير بين 1947 و1954. ومن جهتها قامت فرنسا بحل اللجان الاستشارية للديانة الإسلامية التي كان يشترك فيها موظفون فرنسيون، بتاريخ الثالث من أغسطس 1944، وهو إجراء رأى فيه العلماء انتصارا لهم لأنه سيمكنهم من الإشراف على الشؤون الإسلامية ويحقق ما سعوا إليه طويلا وهو فصل الدين الإسلامي عن الدولة الفرنسية أسوة بما حدث مع النصرانية واليهودية، لكن الإدارة لم تسلم لهم الشؤون الإسلامية وفتحت في المجلس الجزائري نقاشا لا طائل تحته مما أتاح لها (الإدارة) الإبقاء في يدها على تعيين ممثلي الديانة الإسلامية رغم الوعد بالفصل الذي جاء في قانون (دستور) 1947.

وهكذا أبقى المجلس الجزائري شؤون الدين الإسلامي في أيدي رجال

(1) محضر اجتماع جمعية العلماء بنصبه في كتابنا أبحاث وآراء، ج2، ط 4، بيروت، 2005.

تعينهم الإدارة وتحدد لهم اختصاصاتهم بدل أن يكونوا مستقلين. أما العلماء فكانوا يرون تسليم الشؤون الإسلامية إلى جماعة المسلمين لأنها وحدها الكفيلة والمؤهلة لإدارتها، رافضين أي تدخل فيها من الإدارة، كما كانوا يطالبون الإدارة بإعادة الأوقاف (الأحباس) إلى جماعة المسلمين أيضا، وهي الأوقاف التي استولت عليها فرنسا منذ الاحتلال، وطالب العلماء منذ مايو 1950 بإنشاء مجلس إسلامي أعلى مؤقت يتكفل (بالتعاون مع رؤساء الجمعيات الدينية الجديدة المنتخبين) بإدارة الأوقاف والموارد الرئيسية الضرورية لأجور الموظفين الدينيين. وقد ظلت هذه القضية تراوح مكانها إلى اندلاع الثورة. وكانت من القضايا التي زادت في بعد المسافة بين العلماء والإدارة. ومهما كان الأمر فإن العلماء لجأوا بعد فشلهم إلى إنشاء المساجد الحرة التي انطلقوا منها في دروس الوعظ والإرشاد وهي مشيدة بأموال أنصارهم، وقد نجحوا في ذلك نجاحا كبيرا[1].

أما المجال الآخر الذي نشط فيه العلماء ونجحوا فيه فهو نشر اللغة العربية والدفاع عنها، بالإضافة إلى أنهم طوروا الصحافة العربية وأسهموا في حركة الطباعة العربية، وكلها كانت مظاهر لنهضة تعليمية وأدبية واضحة. وإليك بعض الإحصاءات الأخرى عن عدد المدارس والتلاميذ الذين تشرف عليهم جمعية العلماء ابتداء من 1947. ففي هذا التاريخ كان عدد التلاميذ حوالي عشرين ألفا وعدد المدارس حوالي تسعين مدرسة. وفي التاريخ المذكور افتتحوا، كما سبق، معهد ابن باديس الذي كان يضم حوالي 700 تلميذ يتأهلون فيه للالتحاق بجامع الزيتونة.

وفي سنة 1954 أعلنت الجمعية قائمة بمدارسها فإذا هي 124 مدرسة وعدد معلميها 274 معلما، ولكنها في سنة 1954 أعطت رقم أربعين (40) ألف تلميذ، بينما الإدارة الفرنسية تضع الرقم في حدود 22000 تلميذ، أما في

---

(1) شارل روبير آجرون، تاريخ الجزائر المعاصرة، ج2، ص 581-582.

سنة 1955 فقد كان العلماء يملكون 181 مدرسة منها 58 مدرسة ذات تعليم راق ولكن عدد التلاميذ انخفض إلى 11000 تلميذ. وكان برنامج التعليم عند العلماء يكاد ينحصر في مواد اللغة العربية والدينية، بينما أهملت تقريبا المواد العلمية، ومن فضل هذا التعليم أنه يكوّن شبابا طليق اللسان والقلم في اللغة العربية واستعمال ما سماه آجرون باللغة العربية الحديثة[1].

عرج الشيخ الإبراهيمي على فرنسا في طريقه إلى المشرق سنة 1952. وبالإضافة إلى ما أعلن عن اتصالاته بالقادة العرب وحضور نشاط ثقافي كانت تقوم به منظمة اليونسكو فإن تفقد أنشطة الجمعية في باريس كان على رأس أولوياته. وربما كان العلاج من بينها أيضا. كان الإبراهيمي قد أشار في خطبته في سينما دنيا زاد في نوفمبر سنة 1951 إلى أن نشاط الجمعية في فرنسا ليس على ما يرام. ذلك أن أكثر من مائة ألف مسلم كانوا يعيشون بدون إسلام ولا عروبة. ولم يسافر الإبراهيمي إلى فرنسا وحده بل صحبه إليها نائبه أيضا فوجدا استعدادا من الجالية. وقد مهدا الطريق لشراء مركز للجمعية في باريس ولكننا لا نعرف عن دوره الكثير[2].

الحالة الاجتماعية

جاء في دراسة عن مستوى الحياة في الجزائر سنة 1954 أن عدد سكان القطر وصل إلى تسعة ملايين و528 ساكنا، منهم مليون و 42.000 أروبي. ويمثل السكان الأوروبيون 10 في المائة من مجموع السكان. وأن نمو هؤلاء يتماثل مع نمو سكان فرنسا نفسها. أما هجرة الجزائريين فالتقارير الرسمية تشير إلى أن في فرنسا حاليا 300.000 جزائري نصفهم من القبائل. كما لاحظ التقرير أن مليونا ونصفا من السكان يعيشون في الجزائر من النقود التي يرسلها العمال من فرنسا، وأن خمسة وثلاثين مليارا من الفرنكات أرسلت من فرنسا

(1) آجرون، نفس المرجع، ص582.
(2) أنظر سابقا.

إلى الجزائر في شكل حوالات سنة 1954[1]..

الكشافة الإسلامية

قبل الثورة كانت الكشافة الإسلامية نشطة ولها انتشار واسع فيما يبدو، وكانت تمثل توجها وطنيا تعبر عنه في بياناتها وآراء قادتها والأناشيد التي كانت تلقنها لأعضائها. وقد وجدنا اهتماما بها من قبل الصحافة الوطنية مثل البصائر والمنار اللتين كانتا تنقلان أخبار الكشافة بتعاطف واضح، بما في ذلك نشر البيانات وأسماء الأفواج والقادة. وابتداء من سنة 1948 أصبح هناك جناحان للكشافة وهما الكشافة الإسلامية الجزائرية الوفية لمبادى مؤسسها بوراس، والأخرى شبيبة الكشافة الإسلامية الجزائرية التي انطلقت منذ السنة المذكورة والتي يبدو أنها ذات ميول سياسية معاصرة.

تاريخيا، ينسب تأسيس الكشافة الإسلامية إلى محمد بوراس الذي قيل عنه إنه كان يخطط لاتخاذ الكشافة وسيلة لعمل عسكري سياسي ضد الاحتلال الفرنسي. وقد انتهى به الأمر إلى الحكم عليه بالإعدام سنة 1941. ولد بوراس بمليانة في 1908. ولا نعرف الكثير عن تعلمه وأولياته، ولا كيف انتقل إلى العاصمة وسكن ضاحية (بولوغين)، ولكننا نعرف أنه اشتغل ضاربا على الآلة الكاتبة، وأنه كان متزوجا وله أولاد. اتهمه الفرنسيون بالاتصال مع الألمان أثناء الحرب العالمية والمساس بأمن الدولة رغم أن فرنسا ساعة محاكمته وإعدامه كانت تحت حكم فيشي، أي تحت الاحتلال الألماني، ولكن الجزائر عندئذ كانت تعيش وضعا خاصا. وكانت محاكمة بوراس سرية، كما بقي تنفيذ الحكم فيه سرا أيضا مدة طويلة. وقد حوكم معه آخرون، منهم محمد بوشارب من مليانة أيضا ومحمد محمودي (المدية) وأحمد فكراش (بني راتن). وكانت المحكمة عسكرية برئاسة العقيد (دوماسيل) وبحضور المكلف بالشرطة

(1) الأرشيف الوطني، علبة 31، تقرير مرقون من ثلاث صفحات بعنوان دراسة عن مستوى الحياة في الجزائر سنة 1954

(أشياري) المشهور في وقته بالوحشية في التعامل مع الجزائريين، سيما أثناء أحداث 8 مايو 1945[1]..

في أكتوبر 1950 أصدرت (جامعة الكشافة الإسلامية الجزائرية) بلاغا تقول إنها عقدت اجتماعا في مدرسة الثبات بالحراش وإنها درست عدة مسائل منها ربط العلاقات بجمعيات الكشافة في الخارج وتعميم الإرشاد الديني، كما ناقشت الميزانية ووسائل النشر والتأمين ضد الحوادث، وأخيرا قررت إرسال وفود للدعاية في داخل القطر.

ومن جهة أخرى أقامت جمعية العلماء وحزب البيان حفلة للكشافة المذكورة في نفس المدرسة، وهي المدرسة التي كان يشرف عليها الشاعر الشهيد الربيع بوشامة. وفي هذه الحفلة أنشدت الأناشيد وألقيت كلمات من قبل الشيخ الربيع بوشامة والتومي بوعلام رئيس جمعية المدرسة وبعض أعضاء حزب البيان وغيرهم من الرياضيين، كما ألقى بوشامة قصيدة بالمناسبة. ومن الملاحظ أن القائد العام لجامعة الكشافة عندئذ هو الطاهر التجيني[2].

وأصدر القائد العام (للكشافة الإسلامية الجزائرية) السيد محفوظ قداش بلاغا يذكر فيه بالاجتماع الذي حصل بتاريخ 28 أكتوبر سنة 1950 بالعاصمة والذي عين المسؤولين في اللجنة المسيرة للكشافة وهم : محمود بوزوزو رئيسا وعمر الآغة نائبا له، ومحفوظ قداش كاتبا عاما، وحمدان بن عبد الوهاب أمينا للمال، وصالح الونشي قائدا للجوالة. وقد حددوا نشاطهم ليكون خلال عيد الميلاد وعيد الفصح والصيف. ومما يلفت النظر بشكل خاص أن البلاغ نص على أن الكشافة تعمل على "تكوين شباب مسلم شهم ذي وعي تام".

وبمناسبة عطلة الربيع (الفصح) التقى حوالي 400 شاب في مختلف

---

(1) هذه المعلومات أدلى بها الشيخ بوعمران ومحمد جيجلي، ونشرت في جريدة الشروق اليومي 31 أكتوبر، 2005.

(2) البصائر، 134، أول نوفمبر، 1950.

مخيمات القطر (العاصمة وقسنطينة، ومغنية). وفي مغنية التابعة لولاية وهران خصص يوم 25 مارس 1951 للمساعدة على بناء مدرسة حرة. وفي الليل كان الفتيان يقضون أوقاتهم في السمر بالأناشيد وتمثيل الروايات. أما في قسنطينة فقد انتهى المخيم بحفلة مسرحية ساعد على إحيائها الفوج الكشفي المحلي. وكان الهدف من هذا النشاط هو تكوين شباب واع مخلص لدينه ووطنه، حسب تعبير الجريدة[1].

ومن جهة أخرى شاركت وفود من الكشافة الإسلامية الجزائرية في مخيمات عالمية شملت عددا من العواصم الأوروبية مثل برلين وإسبانيا ولوكسمبورغ وإيطاليا وفرنسا. وقد أخبرت المنار أن المشرف على مخيم لوكسمبورغ كشاف جزائري مسلم هو القائد حمدان بن عبد الوهاب. وسبق لوفود الكشافة أن زارت في وقت سابق مدنا في أوروبا الشرقية وهي براغ وبودابست، ولاحظت المنار أن وفود الكشافة تشرّف "الجزائر العربية المسلمة"[2].

وكان للكشافة الإسلامية نشرات شهرية بالفرنسية هي: الشبل وهي نشرة خاصة بالأطفال، وصوت الكشاف التي تصدر باللغتين، والجوال، وهي نشرة خاصة بالشبان، وأخيرا النشرة الإخبارية الخاصة بالقادة. كما قررت الحركة الكشفية إصدار نشرة للعموم مرة أو مرتين في السنة لكي تطلعهم عما تم إنجازه من أعمال[3].

وفي السنة الموالية نجد الكشافة نشطة بمناسبة عطلة الربيع أيضا، وشمل نشاطها إقامة مخيمات في تلمسان والأوراس وغيرهما. وأخبرت المنار أن هناك مفاوضات بين الكشافة واتحاد الشبيبة الديموقراطية الجزائرية(؟) وهو اتحاد ربما يرجع إلى بعض الأحزاب والمنظمات اليسارية. والهدف من المفاوضات

---

(1) المنار، 3، 4 مايو 1951.
(2) المنار 6، 30 يوليو، 1951.
(3) المنار 7، 15 أغسطس، 1951.

هو تكوين جبهة وطنية للشبيبة الجزائرية. وقد ذكرت جمعية الكشافة أنها تعتزم إصدار جريدة باسم صوت الشباب وهي جريدة تربوية إخبارية تهتم بمشاكل الشباب الجزائري. هذا وقد صدر العدد الأول من صوت الشباب فعلا دون أن نعرف بأية لغة، وهي جريدة أصدرها قسم الجوالة في الكشافة الإسلامية[1].

وفي نفس الشهر أقامت الكشافة حفلا في سيدي بلعباس في مدرسة التربية والتعليم التي تديرها جمعية العلماء. وقد خطب فيهم الشيخ محمد القباطي والحبيب بناسي. وصادف ذلك حلول ذكرى وفاة الشيخ ابن باديس فأحيوا هذه المناسبة. وفي خطبتيهما حث الشيخان الشباب على التعلق بالوطن وقالا إن الجزائر بخير ما دام هذا الشباب يؤمن بها، ونوها بالعروبة والإسلام وبمجد الجزائر[2].

وقامت (جمعية الكشافة الإسلامية الجزائرية الحرة) أيضا بأعمال البر والإحسان. فقد وجدنا أحد أفواجها وهو فوج القطب يطعم حوالي 300 فقير، كما قام فوجا الاجتهاد والفلاح بإطعام حوالي 200 فقير آخرين. ونلاحظ هنا كلمة "الحرة" في هذه الجمعية، فهل كان هناك جمعيتان للكشافة؟ يبدو ذلك[3].

ويبدو أن جمعية الكشافة كانت تتعرض للقمع والاضطهاد من قبل سلطة الاحتلال. ففي ربيع 1954 هاجمت الشرطة مقر الكشافة الإسلامية الجزائرية وفتشت أوراقها وأخذت آلتين راقنتين وناسخة دون ترك وصل لحارس المحل. وبعد هذا الحادث اجتمعت الهيئة وأصدرت احتجاجا باعتبارها "منظمة قانونية وتربوية تمثل آلاف الكشفيين وآباءهم وأولياءهم." وطالبت بإرجاع ما أخذته الشرطة من المقر[4].

---

(1) المنار 1، 11 أبريل، 1952.
(2) المنار 3، 9 مايو، 1952.
(3) المنار 50، 11 ديسمبر، 1953.
(4) البصائر 271، وقع الحادث في 30 أبريل، 1954.

ومع بداية الثورة وتغير العلاقات مع السلطة الاستعمارية وجدنا الكشافة الإسلامية تتخذ موقفا يمكن وصفه بالمتشدد. فقد نددت بالدعوة التي خرج بها اجتماع شيوخ المدن (رؤساء البلديات) الفرنسيين ورؤساء الغرف الفلاحية والمنظمات "الرجعية"... ودعوا فيه إلى القمع ضد الجزائريين. لذلك خرجت الكشافة بعد اجتماع عقدته في سطيف خلال شهر يوليو للتنديد بموقف السلطة التي لم تضع حدا لهذه الحملة. واعتبرت الكشافة موقف الشيوخ وزملائهم قد أملاه الحقد العنصري الذي يوسع شقة الخلاف بين عناصر "الأمة الواحدة" (كذا). وفي الأخير دعا بيان الكشافة جميع العناصر النظيفة في الشعب، وخصوصا الشباب، إلى رفض جميع المناورات الرجعية... والواقع أن هذا بيان سياسي إلى حد كبير. فقد استنكر التفرقة بين عناصر الأمة الواحدة، والمقصود بذلك هم المسلمون والأوروبيون معا، ودعا البيان إلى عزل العناصر الرجعية، وهذه كلها تعبيرات غامضة ستتحول إلى (هُم / نحن) بعد أن فقدت هذه الدعوة معناها لأنها لم تجد آذانا صاغية من الطرف الآخر.

ومن الملفت للنظر أن نجد الكشافة تدعو إلى التمسك بمبادى الإسلام ونبذ الإلحاد وإلى التحذير من الانحراف الديني ونشر الأفكار الهدامة بين عناصر أمة تدين بالإسلام السمح. وهي في الواقع تقف ضد القوانين الوضعية أصلا.

فقد صدر بلاغ عن هيئة الكشافة هاجم الإلحاد وانتقد ترك البنات يخرجن بدون مرافق، وحذر الأمة من "الهدامين الذين يعملون على وأد معنويات هذه الأمة" ودعاها إلى موقف حازم لصد تيار الإلحاد ونشر الأفكار السيئة بين عناصر أمة تدين بالإسلام وتمجد الأخلاق وتقتدي بالرسول (ﷺ). ذلك أن إرسال الفتيان والفتيات إلى الخارج بدون مرافق يحرسهم ويحافظ على أخلاقهم وعاداتهم القومية يعد جريمة في نظر الكشافة الإسلامية الجزائرية. وبشر البيان الأمة بأن "عهدا جديدا للإسلام فوق تراب هذا الوطن سيسود التعاليم الوضعية الأرضية... لا محالة." وهذا بالطبع تعريض واضح بالقوانين الفرنسية بل ربما

بالوجود الفرنسي[1].

جمعيات رياضية وطلابية

كانت جمعية الطلبة المسلمين تقوم بأنشطة رياضية وغيرها. ويبدو أن هناك فرقا عديدة مسؤولة على هذه الأنشطة التي تهدف إلى التعارف وجمع كلمة الشباب لأهداف وطنية بعيدة. فقد اشتركت الفرق الإسلامية المشهورة على حد تعبير جريدة المنار، وهي المولودية الجزائرية، والاتحاد الرياضي الإسلامي البليدي، والاتحاد السطيفي، والمولودية القسنطينية في تنظيم دورة كروية كانت نتيجتها إحراز الاتحاد الرياضي الكأس الذي سلمه له الصيدلي عبد الله بن احبيلس. وهذا يدل على تعاون الشباب مع الجيل السابق لهم كما يدل على التعاون بين الشباب والنخبة.

وهناك أنشطة أخرى فنية ورياضية تدل على الانسجام الذي كان بين الطلبة والكشافة والشعب. كما تدل على التوجه الوطني والقومي والإسلامي لهذه المنظمات. فقد أقيمت حفلة شاي اشترك فيها بعض العامة وألقى فيها رئيس جمعية الرياضيين بنادي المولودية السيد عبد السلام كلمة شكر فيها الحاضرين على مساهمتهم في نشاط الطلبة. كان هذا في مدينة الجزائر، أما في البليدة فقد أقيمت حفلة أسهم فيها الطلبة بتقديم مسرحية عن (غزوة بدر). وقد سمتها الجريدة "الرواية المشهورة"، ونفهم من ذلك أن الرواية قد مثلت من قبل وأنها معروفة للجمهور. والمهم هو أن الرواية قد لاقت نجاحا كبيرا ربما لموضوعها، وهو تاريخ الإسلام والسيرة النبوية الشريفة والربط بين الماضي الحاضر، بين مجاهدة الكفار ومقاومة الاستعمار.

وفي نفس المناسبة أو الحفلة شارك أحد الشبان، ويدعى زينات، رئيس الفرقة الكشفية، بمحاورة فكاهية. كما اشتركت فيها الفرقة الموسيقية للمسرح

---

(1) البصائر 329، 29 يوليو، 1955.

البلدي ببعض الأغاني الشرقية. وتلفت نظرنا هنا كلمة "الشرقية" وهي بدون شك تعني العربية مما يدل على شعور الناس بالتوجه الحضاري للشباب الجزائري المتشبع بالروح الوطنية. وفي هذا الحفل ظهر اسم الشاب عبد السلام سابق الذكر والذي حث الشعب على تقديم المساعدة للطلبة الذين سينهضون حسب رأيه، بالأمة في المستقبل. كما خطب طلاب آخرون داعين إلى نفس الفكرة. ولا ندري إن كان الشاب عبد السلام هو نفسه عبد السلام بلعيد الذي سيرد اسمه بعد قليل أو هو شخص آخر[1].

ومهما كان الأمر فإن جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا بالجزائر قد جددت مكتبها في 6 ديسمبر 1953، فكان فيه عدد من الأسماء التي سيظهر أصحابها على الساحة السياسية والثقافية والنضالية. فكانت التشكيلة على النحو التالي: صابر صادق الشريف - رئيسا، مراد علي - كاتبا عاما، إسكندر نور الدين وبلحاج محي الدين ـ نائبين له، زرهوني الطاهر- أمينا للمال. وقد اتفقوا على تعيين الرئيس السابق للجمعية، وهو عبد السلام بلعيد رئيسا شرفيا[2].

كان الوعي الوطني والإسلامي كبيرا بين فئة الطلبة المغاربة عموما والجزائريين خصوصا للظروف التي أحاطت بقضيتهم بعد تطور الأحداث في كل من تونس والمغرب. وبعد جمعية الطلبة في الجزائر وجمعية طلبة شمال إفريقيا في فرنسا نقرأ عن تكوين تنظيم جديد للطلبة المغاربة في الجزائر يبدو أنه كان يضم من كانوا يدرسون في جامعة الجزائر. وكان الدافع إلى تكوين هذا التنظيم هو تعدد الهيئات الطلابية وتشتتها وتكاثر عدد الطلبة المسلمين(المغاربة؟) وظهور مشاكل كان على الطلبة مواجهتها باعتبارهم الفئة الواعية. ولعل المقصود بالمشاكل هنا هو المشاكل السياسية وتجاذب الأحزاب لعناصر الطلبة والضغط على هؤلاء لاتخاذ قرار بشأن مستقبل أوطانهم. والقائمة التي تحمل

(1) المنار 18، 14 مارس، 1953.
(2) البصائر، التاريخ والرقم منزوعان، ربما في أعداد شهر ديسمبر 1953 أو يناير 1954.

أسماء المنظمين لهذا التجمع لا تدل على مشاركة طلبة من المغرب أو من تونس وإنما الأسماء كلها فيما يبدو جزائرية.

ومهما كان الأمر فإن التنظيم الجديد قد نشأ في عاصمة الجزائر وأطلق عليه اسم (الاتحاد الإسلامي للطلبة المغاربة). ونلاحظ هنا أن جميع التنظيمات التي تجمع الطلبة تحمل كلمة "الإسلامي" والإسلامية في عنوانها. وكان رئيس التنظيم الجديد هو محمد أمير الذي هو في نفس الوقت رئيس طلبة شمال إفريقيا المسلمين بباريس. وقد ذكر أن مركز الاتحاد هو 23 جادة روبيرتسو، الجزائر. أما الحاضرون فهم: محمد أمير من جمعية طلبة شمال إفريقيا بباريس، معيزة الطاهر من نفس الجمعية في طولون. رزيق قاسم عن جمعة الطلبة الجزائريين الزيتونيين بتونس، الطرش محمد عن جمعية الطلبة الجزائريين القرويين بفاس، قائد الطاهر عن تلاميذ سائر المدارس الثانوية بالجزائر، الضيف عبد الحميد عن تلاميذ سائر المدارس الثانوية بقسنطينة[1].

حقيقة أننا لم نقرأ عن نشاط هذا التنظيم ولكنه يدل على خطوة متقدمة من أجل تجميع القوى الطلابية لصالح الحركة الوطنية، ولعل الدافع لتكوين التنظيم هو حزب الشعب/ حركة الانتصار الذي كان يعمل على تأطير النخبة الجديدة في صفوفه. وربما لأول مرة يتكون تنظيم من طلبة يدرسون في المدارس الفرنسية في الجزائر وفرنسا مع طلبة يدرسون في المغرب (القرويين) وتونس (الزيتونة). ومن الملاحظ أنه لا يوجد من يمثل ثانويات وهران. ومهما كان الأمر فإن هذا التنظيم يعتبر خطوة جريئة نحو تكوين الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين بعد ثلاث سنوات.

جمعيات جزائرية في تونس

تكونت في تونس جمعيات طلابية غير التي أشرنا إليها. وكانت في شكل

(1) المنار 9، 15 أغسطس، 1952.

بعثات يشرف عليها شيوخ من بني ميزاب، أمثال أبي اليقظان ومحمد علي دبوز. وهذه البعثات جاءت بنتائج باهرة إذ تخرج منها عدد هام من الطلبة الذين توجه كثير منهم للتعليم في المدارس الحرة ومنهم من توجه إلى الاقتصاد والسياسة.

ويهمنا من هذه الجمعيات تلك التي تكونت سنة 1934 في تونس والتي تولاها الشاذلي المكي في فترة حافلة بالأحداث في القطرين وزيارة ابن باديس لتونس ثلاث مرات في هذا العهد وإلقاء محاضرات وعقد لقاءات عن مستقبل القطرين. وهذه الجمعية هي التي أصدرت نشرة بعنوان (الثمرة الأولى) ظهر عليها الطابع الوطني والإسلامي. وقد اشترك في الكتابة فيها الشيخ أبو يعلى الزواوي واعتذر لهم عن الكتابة الشيخ مبارك الميلي والشاعر مفدي زكرياء. بينما كتب فيها أحمد حماني ومحمد الشبوكي والأخضر السائحي...

وإذا كانت الحرب العالمية الثانية قد جمدت نشاط هذه الجمعية كما تقلص خلالها عدد الطلبة الدارسين في الزيتونة فإن الجمعية عادت إلى نشاطها بعد الحرب. وبعد أن تولتها قيادة تنتمي إلى جمعية العلماء مثل أحمد بوروح وعبد الرحمن شيبان آلت إلى قيادة موالية لحزب الشعب/ حركة الانتصار على رأسها محمد مرازقة وعمار النجار. وقد أصدرت القيادة الجديدة نشرة (الثمرة الثانية). ومن الملاحظ أن الذي كتب لها التصدير هذه المرة هو مصالي الحاج زعيم حزب الشعب، وقد دفع بكلمته الطلبة نحو السياسة باعتبارهم نخبة مثقفة هي التي عليها أن تقود البلاد في المستقبل، وهو اتجاه كان الحزب قد بدأ في تطبيقه في الجزائر أيضا. والملاحظ أيضا أن مصالي تحدث عن "دور شبيبتنا المثقفة في تكوين الحركة الوطنية بمغربنا". أي أن كلامه يصدق على الجزائر وغيرها وكأنه كان ما يزال يتحدث بلغة نجم شمال إفريقيا. وفي هذا النطاق دعاهم إلى قيادة الجماهير مستقبلا باعتبارهم نخبة مثقفة.. بعد أن تكون قد تشبعت بروح الحضارة العربية. وهذا الكلام إذا قرى على أنه من قلم زعيم فإنه يدل على قناعته بمشروع فكري للمستقبل.

وهكذا نلاحظ أن جمعية الطلبة في تونس كانت في مرحلتها الأولى وطنية باديسية الاتجاه وفي مرحلتها الثانية وطنية مصالية الاتجاه.

ولذلك لا نستغرب أن يتمسك كل فريق باتجاهه بعد ذلك وأن تنشأ في تونس جمعيتان للطلبة الجزائريين في فاتح الخمسينات من القرن العشرين: جمعية الطلبة وهو الاسم القديم وجمعية البعثة وهو الاسم الجديد، والأخيرة هي التي عادت بأتباعها إلى الاتجاه الباديسي باعتباره هو الاتجاه الأصلي. وبين 1948 و1954 خف نشاط جمعية الطلبة ربما لميول الطلبة نحو الدراسة بدل السياسة وربما للأزمة التي عرفها حزب الشعب وهي الأزمة التي كادت تصيب نشاط خلايا الحزب بالشلل.

وقد عشت شخصيا هذه الفترة بتونس وعرفت بعض مجرياتها وقادتها. ومما يذكر أن جمعية العلماء قد عينتني سنة 1952 مسؤولا على جمعية البعثة التي حلت محل جمعية الطلبة في شارع عبد الوهاب برحبة الغنم بينما بحثت جمعية الطلبة عن مكان آخر لها لأن مركز شارع عبد الوهاب كان حسبما فهمت عندئذ مؤجرا من قبل جمعية العلماء من السيد علالة.

ومهما كان الأمر فإنني أذكر أن من بين الأنشطة التي قامت بها جمعية البعثة شتاء سنة 1952 تمثيل رواية (الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز) بإشراف السيد محمد الحبيب التونسي. فقد سافرنا بها إلى الجزائر ومثلناها في عدد من المدن (قسنطينة، جيجل، باتنة. . .) وجمعنا منها تبرعات مالية للقيام بنشاطنا في تونس. وكانت تلك الجولة قد جعلتني أكتشف مناطق هامة من الجزائر في وقت مبكر من حياتي. ومن الأنشطة التي قامت بها جمعية البعثة إجراؤها مسابقة بين الطلبة الجزائريين عنوانها (أملك في مستقبل بلاذك)، وقد اشترك فيها عدد من الطلبة وتكونت لها لجنة تحكيم من أساتذة جامع الزيتونة، وفازت فيها مجموعة من الطلبة منهم عبد الله ركيبي ومحمد الدريدي ومحمد بغدادي، وقد نشرت أعمالهم مع صورهم في جريدة

البصائر[1].

كما تكونت في تونس جمعيات تضم الجاليات الجزائرية التي شعرت بضرورة التضامن مع بعضها للتنسيق من أجل القضية الوطنية أو القضايا الاجتماعية. فبالإضافة إلى ما ذكرنا تكونت جمعية الوفاق التي أسسها طلبة وادي ميزاب وأعلنت أن مهمتها الاحتفال بالعلماء وعظماء البلاد والإسلام وتخليد المآثر والذكريات، وهي جمعية تجمع بين النشاط الطلابي والنشاط الاجتماعي[2].

وهناك جمعية الودادية الجزائرية الإسلامية، وهي جمعية قديمة ترجع إلى سنة 1937 ولكننا لا نعرف كم استمرت في نشاطها. وكانت برئاسة السيد قاش الزين. كما ظهرت جمعية أخرى للعمال الجزائريين[3].

من الجاليات الجزائرية الهامة في تونس جالية السوافة أو أهل سوف. وكان فيهم العمال والطلبة. وقد أسس هؤلاء جمعيات بأسماء بلداتهم الأصلية أو باسم منطقة سوف. وقد وجدت في جريدة (المغرب العربي) اسم جمعية الرابطة القمارية الثقافية (من قمار) واسم كاتبها العام هو التجاني زغودة الذي كتب مقالة طويلة بهذه المناسبة حول الحكم العسكري في منطقة سوف وعن حكم القياد والأغوات، ومنهم آغا قمار[4].

---

(1) عن هذه الخلفية انظر الجابري، النشاط العلمي . . . ص 102-106. وكانت البصائر في الخمسينات تنشر أنشطة البعثة في شكل تقارير مني أو من محمد الدريدي وغيره عن الطلبة المتخرجين من الزيتونة في كل دورة وعن الأنشطة الأخرى التي تقوم بها الجمعية.

(2) انظر الجابري، النشاط العلمي. . ص 338.

(3) قد أشار إلى الودادية الجابري، المرجع السابق ص 122

(4) المغرب العربي 26 سبتمبر، 1947. وقد التقيت السيد زغودة في قمار يوم 28 أكتوبر سنة 2002 فاستفسرته عن الجمعيات الجزائرية في تونس فلم يتذكر إلا رابطة القماريين (هكذا أسماها). ثم حدثني عن نشاطه أثناء الثورة في تونس والتبرع لها باعتباره صاحب مكتبة الفتح في سوق البلاط، كما فعل الشيخ الثميني صاحب مكتبة الاستقامة. وكان=

كانت الجمعيات والأحزاب التونسية مفتوحة أمام الجزائريين. وقد اشترك فيها البعض بكل نشاط وإيمان بالمصير المشترك، وكانت بالنسبة للبعض مدرسة في العلم وفي السياسة والثقافة والإعلام. فكان رجل مثل زغودة يشارك في تحرير جريدة الزهو وجريدة الزهرة. ووجد رجل آخر مثل عبد الله شريط طريقه في تونس في ميدان التعليم والصحافة. وسنتحدث عن نشاط نخبة من الجزائريين أيام الثورة في تونس.

من التنظيمات التي شاركت في إنشائها شخصيا مع إخوان تونسيين وجزائريين (رابطة القلم الجديد) التي تأسست في نباير سنة 1952. وكان رئيسها زميلنا الشاعر والدبلوماسي الشاذلي زوكار، ومن أعضائها التونسيين منور صمادح ومحمد الشابي ونور الدين صمود ومحمد بلحسن. أما من الجزائر فكانت تضم محمد العيد الخطراوي ومحمد علي كرام والجنيدي خليفة. . كانت الرابطة مفتوحة لكل أبناء المغرب العربي. وقد تولى رئاستها الجنيدي خليفة سنة 1954 قبل إلقاء القبض عليه، وكان الجنيدي ناقدا، كما كان كرام قصاصا، والخطراوي شاعرا. وكانت الرابطة تربط بين الأدب والحياة والوطنية، وكان شعارها (نريد أدبا تريده الحياة)، وكان طموح الشباب والآمال السياسية والنهضة الثقافية هي الدافع لنا في هذا المضمار. وقد بقيت عضوا في هذه الرابطة إلى أن تخرجت من الزيتونة ورجعت للجزائر سنة 1954[1].

= للشيخ زغودة قبل الثورة نشاط في الحزب الدستوري القديم ثم الجديد وفي جمعية صوت الطالب الزيتوني التونسية التي ظهرت في أوائل الخمسينات وقادت حركة تجديدية في جامع الزيتونة.

(1) عن تفاصيل نشأة الرابطة ومبادئها وأعضائها ونشاطها انظر الحوار الذي أجراه عز الدين المدني مع أول رئيس لها وهو الشاذلي زوكار في جريدة العمل التونسية، الجمعة 17 أبريل 1970. وقد تأسست الرابطة في المدرسة العرفانية الواقعة قرب المدرسة الخلدونية بتونس. وكان أعضاؤها يجتمعون كل خميس في أماكن مختلفة ثم استقروا على الاجتماع في المدرسة الهلالية - برحبة الغنم.

ونحن نلاحظ أن هناك تجاوبا بين طلبة الجزائر وطلبة المغرب وتونس ربما لم تعهده المنطقة من قبل. فقد تضامن الطلبة الجزائريون في المغرب وتونس مع إخوانهم في كلا البلدين، وكان من نتيجة هذا التضامن الاضطهاد والسجن والتعذيب، حسب جريدة المنار. وقد علقت الجريدة على ذلك بقولها إن الفرنسيين لم يكتفوا باضطهاد الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر بل اضطهدوا من يرغب في دراستها في معاهد تونس والمغرب. فقد داهمت الشرطة في هذين البلدين بيوت الطلبة الجزائريين الذين خرجوا للتضامن مع إخوانهم وزجت بهم في السجن وقادتهم إلى مخافر التحقيق وسلطت عليهم التعذيب. واعتبرت أن ذلك يكشف عن حقد الفرنسيين على الثقافة العربية الإسلامية ورجالها[1].

كانت جمعية الطلبة الجزائريين في تونس نشطة وعدد أفرادها كثْر، كما كانوا يتعاطون السياسة في أغلبهم. وقد تكاثر عددهم منذ بدأ الشيخ ابن باديس يرسل منهم أو يوجههم للدراسة في الزيتونة. ومن نشاطهم إصدار نشرة وتنظيم محاضرات واستقبال كبار رجال العلم الجزائريين الذين يزورون تونس أو يمرون بها والكتابة في الصحف عن إحياء المناسبات والذكريات الدينية والوطنية. وفي كل عام كانت تتخرج دفعات جديدة من جامع الزيتونة وتعود إلى الجزائر لتمارس التعليم تحت مسؤولية جمعية العلماء أو حزب الشعب. والمعروف أن عددا من الطلبة الجزائريين انضموا أيضا إلى الأحزاب التونسية وأصبحوا قادة فيها، خصوصا خلال العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين كالأخضر السائحي ومفدي زكرياء ومحمد العريبي، ومحمد العيد الجباري، وإبراهيم أطفيش والشاذلي المكي وأحمد حماني[2]. . .

---

(1) المنار 19، 28 مارس، 1952 .

(2) كان المكتب الإداري لجمعية الطلبة بتونس يتجدد دوريا. ففي 6 فبراير 1952 مثلا جدد المكتب على النحو التالي: قاسم رزيق - رئيسا. عيواز محمد -نائبا . خضارة محمد الصالح - نائبا ثانيا. الدريدي الحارث - كاتبا عاما. ابن رابح البشير - نابا له. عبد =

ومما يلاحظ أن من مهام جمعية الطلبة هذه تقويم المنحرفين من الطلبة ومراقبة سيرهم، وإعانتهم، وقد وصفت نفسها بأنها جمعية ثقافية.

وبعد حوالي سنة جدد مكتب جمعية الطلبة فوجدنا فيه أسماء جديدة وأخرى قديمة مما يدل على أن بعض القدماء على الأقل قد تخرجوا والتحقوا بمهامهم في التعليم أو بمواصلة الدراسة في المشرق. جدد المكتب في شهر فبراير سنة 1953، وجاءت تشكيلته على النحو التالي: قاسم رزيق - رئيسا، ونائباه خضارة محمد الصالح وأحمد عواق، ودخل عبد الحميد بن هدوقة كاتبا عاما ونائبه هو البشير بن رابح، وعين علي كافي وموسى زغلاش مراقبين بينما أصبح أمين المال هو محمد بوصبيعات ونائبه هو عبد القادر عيساوي، ودخل عضوان جديدان هما رشيد سحري ومحمد السعيد موالكي[1].

ويلاحظ أن عدد الطلبة الخريجين من جامع الزيتونة في ازدياد كل سنة. ففي سنة 1952 وحدها تخرج ثمانية وثلاثون (38) طالبا، 23 منهم في الدورة الأولى و15 في الدورة الثانية. وهذا العدد يدل على الإقبال على التعلم بصفة عامة في الجزائر بعد الحرب العالمية الثانية، كما يدل على انتشار المدارس الحرة التي تنشر الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر تحديا لعملية الفرنسة التي تقوم بها السلطة الاستعمارية وهي المدارس التي كانت تستوعب الخريجين كإطارات تعليم فيها[2].

كانت في جامعة الجزائر جمعية طلابية تسمى جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين. وقد جددت مكتبها أيضا بنهاية سنة 1951 في قاعة الأفراح

= الرحمن بن سالم ـ أمينا للمال. حفيان مصطفى - نائبا له. علي شكيري - مراقبا عاما. معافة العربي - نابا له. أما المستشارون فهم كافي علي، زعلاش موسى، حرباوي علي، بوصبيعات محمد. المنار 17، 29 فبراير، 1952.

(1) المنار 18، 27 فبراير، 1953.

(2) المنار 10، 24 أكتوبر 1952.

بالعاصمة. وبعد تقديم التقرير الأدبي والإداري صوت الطلبة على عدة لوائح احتجوا في واحدة منها على طرد الكثير من دار الجامعة، وعلى نظام السجون اللاإنساني سواء في وهران أو الأصنام أو الأغواط، وأعلنوا تضامنهم مع ضحايا القمع. فإذا كان هذا يشير إلى الضحايا من الطلبة فمعنى ذلك أن الطلبة كانوا يتعاطون السياسة مبكرا خلافا للشائع عنهم. وكانت الجمعية -كما يدل اسمها- تشمل الطلبة الجزائريين وغيرهم من طلبة المغرب العربي. كما أعلنوا عن ترحيبهم بفتح مصر معهدا للدراسات العربية في الجزائر[1].

جمعيات أخرى

وبالإضافة إلى ما ذكرنا ظهرت جمعيات نسائية تقوم بأعمال خيرية وتحتفل بالأعياد الدينية ونحو ذلك من الأنشطة الاجتماعية. فقد احتفلت جمعية النساء المسلمات الجزائريات بالمولد النبوي الشريف في البليدة بتوزيع الملابس والحلويات على عدد من الأطفال المحرومين، وكان عددهم حوالي مائة وخمسين طفلا. وكانت الحفلة من تنشيط نساء يبدو أنهن من العائلات السياسية في المجتمع مثل السيدة تامزالي التي ترأست الحفلة والسيدة شنتوف والسيدة ابن ونيش والسيدة حمود. وكان للفن دور في إحياء الحفلة بالمدائح النبوية على يد المطرب الصاعد عبد الرحمن عزيز[2].

من الجمعيات التي ظلت نشطة إلى بداية الثورة جمعية المزهر القسنطيني التي أنشأها الأديب أحمد رضا حوحو وبقي يديرها بين 1949 و 1954. وكانت تقدم حفلات موسيقية ومسرحيات من تأليف حوحو نفسه. وكانت الجمعية ذات جناحين موسيقي ومسرحي. وقدمت أعمالا ناجحة في قسنطينة

---

(1) المنار 12، 21 يناير، 1952، كان المجلس الإداري المنتخب بهذه المناسبة يضم الأسماء التالية: عبد السلام رئيسا، الجويني وهجرس تجاني نائبين له، وآيت خالد كاتبا عاما، والجنيدي وخان (الأمين؟) نائبين له، وبوجمعة أمينا للمال.

(2) المنار 49، 20 نوفمبر، 1953

والمدن المجاورة وحتى البعيدة نسبيا مثل بسكرة. بل قامت برحلة تمثيلية في فرنسا. وفي بعض الحفلات كان شباك التذاكر يغلق قبل رفع الستارة لكثرة الجمهور. ووصل عدد الممثلين في بعضها إلى الأربعين فردا. وكانت المسرحيات تستوحي التاريخ كما تستوحي الواقع[1].

الشؤون الإسلامية

رجال الدين والمساجد

واصلت فرنسا سياستها الدينية في الجزائر. فالمؤسسات بقيت تحت سلطتها وتعيين رجال "الديانة" الإسلامية كان يتم بقرارات منها، والأوقاف والقضاء والإفتاء والجمعيات الخيرية الإسلامية كلها كانت تابعة لإدارة الشؤون الأهلية بالولاية العامة.

وكانت القضية التي أثارت الرأي العام الإسلامي في الجزائر وأسالت حبرا غزيرا حوله هي قضية فصل الدين الإسلامي عن الدولة الفرنسية اللائكية. وهذه القضية ربما لم تكن مفهومة إلا للفرنسيين وبعض المسلمين العلمانيين وأنصار الاندماج، أما عامة الناس فلم يكونوا يفهمون أبعادها الحقيقة. ويطول بنا العرض لو رجعنا إلى الموضوع من جميع جوانبه، لذلك نكتفي بالتذكير بما درسناه في كتابنا السابق بأن الليبرالية الفرنسية توصلت سنة 1905 إلى فصل الدين عن الدولة ولكنها في الجزائر طبقته على الديانتين المسيحية واليهودية واستثنت منه الإسلام. فأعادت شؤون الديانتين إلى المؤمنين بهما ولكنها شؤون الإسلام تحت الإدارة الاستعمارية ولم تسلمها للمسلمين. ودعواها في ذلك أن الإسلام دين ودولة، وما دامت فرنسا هي الدولة التي تقوم مقام دولة الإسلام فإنها حافظت على شؤونه تحت جناحيها. وعندما أكثر القادة المسلون من المطالبة بتسليم شؤون دينهم إلى هيئة منهم أظهر الفرنسيون دعوى جديدة وهي

(1) انظر أحمد منور، مسرح الفرجة والنضال في الجزائر، دار هومة، 2005، ص61-63

غياب الجهة التي يسلمون إليها المقاليد الإسلامية. وقد تنازعت في ذلك جمعية العلماء وجهات أخرى في المجلس الجزائري وتيار المرابطين والعلماء الرسميين، وكان ذلك التنازع (الذي كانت تغذيه الإدارة نفسها) بردا وسلاما على الفرنسيين لأنه برر لهم الاحتفاظ بشؤون الديانة الإسلامية تحت أيديهم.

ويبدو أن أتباع حركة الإخوان المسلمين في الجزائر اعتقدوا (مثل غيرهم) أن ثورة الجزائر هي ثورة جهادية بالمعنى الديني للكلمة فاستبشروا بها خيرا ودعموها عن قرب وعن بعد. فانضم إليها من استطاع في الجزائر باسم الجهاد في سبيل الله، وطلب الشهادة. ولكن ذلك كان موقفا غير شامل ولا حاسم. فجمعية العلماء مثلا قد تريثت في الدعوة إلى الجهاد جهارا من الجزائر لأنها كانت تعرف أنها جمعية غير سياسية ولها رسالة محددة، ولم يكن الجهاد والثورة والعمل السياسي المباشر داخلا في برنامجها. ومن جهة أخرى كان دعاة الثورة غير معروفين للجمعية. أما رئيسها (الشيخ الإبراهيمي) فقد أعلن من القاهرة تأييده للثورة والجهاد دون ذكر دعاتها. وأما رجال الدين الرسميون وهم الموظفون لدى الإدارة الفرنسية، فلا حول لهم ولا قوة لأنهم كانوا يأتمرون بأوامر الإدارة، فهم غير مستقلين بأي قرار جماعي.

أما الصنف الثالث من رجال الدين فهم أهل الزوايا والطرق الصوفية. وقد كانوا أيضا مشتتين وليس لهم مؤسسة تجمعهم ولا صوت ينطق باسمهم، وإذا كان هناك صوت منهم فهو صوت صنعته الإدارة نفسها لينطق باسمها وقت الحاجة كاتحاد الزوايا الذي ظهر في الثلاثينات من القرن العشرين لدعم فرنسا في الحرب ضد ألمانيا وإيطاليا.

فكان على مختلف هذه الفئات الدينية أن تتصرف، كل على حدة، بما تراه مناسبا. ولعل صنف الإخوان (وعددهم قليل) كان أكثرهم حيوية وتحررا وأكثرهم وضوحا في رؤية المستقبل. ومنهم الشيخ أبو بكر جابر الذي سبق أن هاجر إلى الحجاز في نهاية الأربعينات أو بداية الخمسينات من القرن العشرين

بعد أن حاول ممارسة السياسة في الجزائر دون جدوى.

ومن المدينة المنورة حيث كان يدرس في المسجد النبوي بعث الشيخ أبو بكر جابر برسالة إلى السيد محمد خيضر (ممثل جبهة التحرير بالقاهرة) مبديا استعداده الشخصي للمشاركة في معركة التحرير. إلى أي حد كان ملتزما بما قال؟ ذلك لا نعرفه إلا من خلال المراسلات التي تمت بينه وبين محمد خيضر وغيره، وربما من خطبه ودروسه. ويبدو أن جبهة التحرير لم تكن في حاجة إلى حماسة ومواعظ الشيخ جابر وإنما كانت في حاجة إلى مال السعودية وبنادق روسيا ودعم الغرب والشرق على السواء ضد الاستعمار الفرنسي، دون إعطاء الثورة في الخارج أي طابع جهادي أو ديني[1].

أبقى الفرنسيون على بعض المساجد الرسمية في مختلف المدن الجزائرية. وجعلوا على كل مسجد رسمي هيئة تتمثل في الإمام وأحيانا المدرس والقيم والمؤذن وبعض الأعوان الذين يقومون بحاجة المسجد من غلق وفتح ونظافة وصيانة، وأحيانا إقراء القرآن الكريم. وإلى جانب هذه المساجد الرسمية هناك مساجد شعبية بناها الشعب من حر ماله وأوقف عليها ما يلزمها من الأوقاف (الأحباس). وفي عهد الحركة الإصلاحية ظهرت مساجد حرة كثيرة غير تابعة لا للدولة الفرنسية ولا للزوايا والطرق الصوفية، ولكنها مساجد بناها المتأثرون بالحركة الإصلاحية للصلاة ودروس الوعظ والإرشاد والإصلاح والوطنية. وهكذا يمكن الحديث عن مساجد رسمية ومساجد شعبية. والمساجد الأخيرة تكثر في الأرياف والقرى والمدن الصغيرة.

أما المساجد الرسمية فموجودة في المدن الكبيرة على الخصوص. وقد ذكرنا في مؤلفنا السابق ما فعلته الإدارة الفرنسية بهذه المساجد وكيف استولت

---

(1) عن مراسلة الشيخ جابر مع خيضر أنظر الأرشيف الوطني، رسالة رقم 25، في سلسلة 2، علبة 1-20. وليس هناك رد من خيضر على هذه الرسالة، حسب علمنا، عن هذا الموضوع أنظر أيضا الفصل الأخير من هذا الكتاب. (لم ينجز بعد)

على أغلبها وضمت أوقافها إلى أملاك الدولة. وهكذا لم يبق في العاصمة مثلا سوى ستة مساجد بينما اختفى الباقي (وكان عددها الإجمالي عند الاحتلال يفوق المائة). وكانت هناك رقابة دائمة على كل المساجد خوفا من أن تكون بؤرة لأفكار وطنية معادية للسلطة الفرنسية(1).

وفي كل ولاية (وهي ثلاث) كان هناك مفت معين من قبل مصلحة الشؤون الأهلية في الإدارة الفرنسية. كما كان الشيخ إبراهيم بيوض في بني ميزاب هو صاحب السلطة الروحية المعترف بها رسميا رغم أنه كان غير معين من الفرنسيين وإنما انتخبته المجالس المحلية.

الزوايا والتعليم والمحافظة على السند

الزوايا مؤسسات دينية وتعليمية معترف بها، فهي بيوت للعبادة والعلم واستقبال الغرباء، وكثير منها كان يقوم بالتعليم وإقراء القرآن. ومعظم الزوايا التي كانت تقوم بهذا الدور كانت في الأرياف والمناطق النائية، وهي التي كانت تقدم الغذاء الروحي للشعب أمام الجفاف الذي عانت منه التربية والتعليم طبقا للثقافة العربية الإسلامية، وهي التي حافظت على مصادر التراث الوطني كالمخطوطات، وكانت تستقبل أفواج التلاميذ الذين لم يجدوا مكانا لهم في المدارس الأهلية (فرنكو-ميزولمان) أو الذين لم يرغب آباؤهم في إرسالهم إلى هذه المدارس. أما الغذاء الروحي المحض فقد كانت الزوايا تقوم به باستقبال "المقدمين" والمريدين وإنشاد الأذكار وإقامة الحضرة و"الزردات" (الولائم) التي هي تجمعات للتعارف والإعلام والتجنيد والتمويل. كما كانت الزوايا تقوم

(1) عن المساجد الباقية إلى وقت الثورة في العاصمة انظر مقالة السيد زهير في مجلة هنا الجزائر، عدد 35، مايو، 1955 وهي مقالة بالعربية والفرنسية استعرض فيها سيرة وصور المساجد الستة الباقية، أما عن مساجد قسنطينة فانظر كتاب المهدي بن شغيب: أم الحواضر في الماضي والحاضر. عن تفصيل الشؤون الإسلامية زمن الثورة، انظر لاحقا.

بدور اجتماعي هام وهو الإصلاح بين الناس والمحافظة على الاستقرار الذي هو شيء أساسي للسلم الاجتماعي والإنتاج الاقتصادي. وقد صدق من أسماها "حراس الظل" لأنها حافظت على الهوية والثقافة الوطنية دون ضجيج ولا ادعاء(1).

حقيقة أن الفرنسيين حاولوا توظيف الزاوية لتحقيق مآرب سياسية خاصة بهم، ولكن الزاوية كانت أيضا تستفيد منهم المحافظة على دورها الاجتماعي والعلمي والاقتصادي. وقد بقيت الزوايا مؤسسات فاعلة طيلة عهد الثورة ولعب بعضها دورا إيجابيا لصالح الثورة رجعت به إلى سالف عهدها في المقاومة، ولذلك عانت التخريب والاضطهاد، واضطر بعض زعمائها إلى الاغتراب وانضم مريدوها إلى الثورة وأبلوا فيها البلاء الحسن(2).

كان لبعض الزوايا دور بارز في الحفاظ على سند القراءات. والمقصود بالسند هنا سلسلة الرواة المتصلة بالحفظ والتواتر إلى القارى الأول وكيفية النطق بالحروف والآيات، أي تجويد القرآن الكريم بقراءة مخصوصة. (انظر لاحقا) فقد حافظت زوايا القبائل وزاوية الهامل وزاوية طولقة وبعض الزوايا في غرب البلاد على التعليم القرآني والعلوم الدينية واللغوية والتاريخ. وهناك زوايا لها سجلات ومدونات واكتسبت شهرة واسعة بين الناس تسير بها الركبان دون سجلات ولا مدونات.

وقد قام محمد السعيد أبوزار بدراسة مفيدة عن أحوال الزوايا في القبائل، وهي زوايا معظمها ترجع إلى الطريقة الرحمانية التي اشتهرت بالعلم والمقاومة. فدرس أحوال زاوية سيدي منصور وزاوية عبد الرحمن اليلولي وغيرهما. كما درس السند الذي اشتهرت به القبائل في القراءات وقواعد تجويد القرآن الكريم.

---

(1) الصادق هجرس في الثقافة والاستقلال والثورة في الجزائر، باريس/ الجزائر، 1980ص 17.

(2) حول دور الزوايا أنظر لاحقا.

يقول الشيخ أبوزار إن على طالب العلم أن يصحب معه قلما ودواة ودفترا يسجل فيه شهادات شيوخه له بالحضور في الدرس الذي تلقاه مع زملائه عن شيوخهم مع ذكر اسم كل منهم. والمراد بالسند هنا هو سند تجويد القرآن أو فن الرواية، وهو من أهم العلوم التي عني بها علماء القراءات. وأكمل سند عثر عليه الشيخ أبوزار هو سند الشيخ أبي القاسم البوجليلي.

فقد ذكر الشيخ البوجليلي نفسه في كتابه (التبصرة في القراءات العشر) أن سند قراءته يبدأ بافتتاحه قراءة القرآن على والده ثم على الشيخ العربي بن الجودي الأخداشي اليتورغي بزاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي سنة 1261 هجرية، ثم على الشيخ الطاهر الجنادي. وقد أخذ الجنادي روايته على الشيخ ابن صالح الوزقاني كما أخذ اليراتني عن الشيخ محمد بن يحيى اليراتني بالزاوية اليلولية، وعن محمد بن علي ابن مالك التقابي المتوفى سنة 1282. وقد أخذ اليراتني عن الشيخ محمد بن سبع، وهو عن الشيخ عبد الله بن خراط المتوفى سنة 1265. وأخذ ابن خراط وابن يذير اليعلاوي وابن تريغت عن ابن قري عن محمد بن عنتر من أولاد علي حرزون، عرش أولاد علي حرزون، عرش أولاد بترون.

ونسخ ابن عنتر بيده تسعا وتسعين نسخة من المصحف الشريف ولكنه لم يكمل المائة. ووزعها على مختلف الأماكن. وتميزت نساخته للقرآن بجمال الخط ودقة النقل وصحة الرسم. واجتهد أن تكون النسخة الأخيرة هي المرجع، ولكنه توفي قبل إتمامها. وأخذ هو عن شيخه عبد الرحمن اليلولي، وتوفي سنة1105 ودفن ابن عنتر بجوار شيخه اليلولي. وأخذ اليلولي عن شيخه سيدي محمد السعدي دفين غابة مزانة بين دلس وتيقزرت. وهو عن شيخه عبد الرحمن ابن القاضي الفاسي شارح درر ابن بري، وهو عن شيخه عبد الواحد بن عاشر، شارح منظومة مورد الظمآن في رسم القرآن[1].

(1) هنا الجزائر 53، فبراير، 1953.

يظهر أن الشيخ محمد السعيد أبوزار من المتمكنين في تراث الزوايا والطرق الصوفية بالزواوة (القبائل). وقد أسهم بعدة مقالات عن التعليم والقراءات والزوايا والمساجد والشيوخ ونظام الطلبة في هذه العلوم والمراكز العلمية . . . ومنها زاوية سيدي منصور. فبعد التعريف بالزاوية عموما (وهي كما قال بيت للعبادة والذكر من جهة وبيت للعلم والقرآن من جهة أخرى) ركز على كون سيدي منصور هذا شخصية غير معروفة جاء من الساقية الحمراء حسب التقاليد الشعبية، أي أنه من الأشراف العلويين القاطنين في تافيلالت. وبعد تجواله في الزواوة استقر في بني جناد دائرة أزفون البحرية. كان ذلك أوائل القرن التاسع الهجري، وقد أخذ الشيخ سيدي منصور ينشر القرآن الكريم والعلم الشريف في زاوية أسسها لهذا الغرض، وبتوالي الأيام أصبحت زاويته معهدا علميا له سمعة وشأن. وقد تكلم الشيخ أبوزار عن الزاوية من حيث موقعها ومؤسسها وتمويلها، وشيوخها. . . ولو جمعت بحوثه لجاءت في كتاب لا غنى عنه للمتطلعين للمعرفة.

الأوقـــاف

رغم مرور قرن وربع على الاحتلال فإن الجزائريين أبقوا على مسألة الأوقاف حية في وجدانهم وكتاباتهم. ففي سنة 1952 تحدثت جريدة المنار عن (حرية الدين) في الجزائر ولاحظ أحد كتابها، ويدعى ابن عمار، أن فرنسا تعهدت باحترام الدين الإسلامي عند الاحتلال ومع ذلك لم تف بوعدها. فقد استولت على المساجد الكثيرة وحولتها إلى غير ما أنشئت من أجله كما استولت على الأوقاف. وضرب الكاتب على ذلك مثلا بأوقاف الجامع الكبير بالعاصمة التي كانت تشمل 125 دارا و39 حانوتا، وثلاثة مخابز، وتسعة عشر بستانا. أما أوقاف جامع سيدي بومدين بتلمسان فقد كانت تشمل تسع حدائق، وقطعتي أرض، وأربعة بساتين، ومنزلين، ومطحنتين وحماما، وقطعة أرض للحراثة تبلغ 300 هكتار. كما لاحظ الكاتب أن فرنسا بعد استيلائها على الأوقاف

استعملت مداخيلها سلاحا لنشر الجهل وضرب الدين نفسه. ثم تساءل أين كل ذلك اليوم؟ [1].

وقد أثيرت قضية الأوقاف وفقراء المسلمين أيضا على إثر انطلاق الثورة. وسندرس في فصل لاحق تفاصيل هذا الموضوع كما تناولته صحف الثورة نفسها. وكأن الذين أثاروا هذا الموضوع عندئذ أرادوا تذكير الجزائريين بتراثهم المغتصب لمحاسبة الفرنسيين على ما ارتكبوه من جناية باستيلائهم على الأوقاف الإسلامية وحرمان آلاف المسلمين من ثمارها. بل إننا قد نفهم من إثارتها في ذلك الوقت نوعا من تعبئة الرأي العام ضد الاستعمار الذي اعتدى على حرمة الوقف وقدسية الدين.

القضـــاء

رغم أننا سنتعرض إلى القضاء في فصل آخر فإننا نقول في الفصل الذي نمهد به لدراستنا إنه كان بالجزائر أنواع من الأقضية وأنواع من المحاكم. فقد أنشأ الفرنسيون محاكم جنائية ومحاكم مدنية ومحاكم صلحية... وأخرى تجارية... وتعددت المحاكم بتعدد المناطق عسكرية ومدنية، وبتعدد المناطق شرعية وعرفية... ثم إن هناك محاكم شرعية يحتكم إليها المسلمون في بعض قضاياهم وأخرى فرنسية مدنية يحتكم إليها سكان الجزائر سواء كانوا مسلمين أو أوروبيين.

وهكذا نخرج بنتيجة وهي تعدد القضاء، ولكن رغم تعدده فهو موحد ويصب في خانة القانون الفرنسي ويخدم الدولة الفرنسية.

كان القضاء الإسلامي في الجزائر عشية الثورة لا يخرج عن الأحوال الشخصية بين المسلمين، ذلك أن أنواع القضاء الأخرى قد انتزعت منه كالجنائي والتجاري والصلحي (من الصلح) والعسكري، وبالطبع كل ما يتصل

---

(1) المنار 7، 19 يوليو، 1952.

بالاستئناف. فالقاضي المسلم الذي تعطيه الشريعة حق الحكم في جميع أنواع الأحكام قد جرده القانون الفرنسي من كل الصلاحيات ما عدا البت في قضايا الزواج والطلاق والحضانة والميراث والنفقة وما شابهها.

في المحاكم الإسلامية تسجل جميع العقود الشرعية في سجلات خاصة بالأحوال الشخصية، كما أن هذه المحاكم تقوم بتنفيذ الأحكام التي تصدرها المحاكم الفرنسية في المسائل المدنية. وهذه المحاكم الإسلامية توجد في مختلف مدن الولايات الثلاث وهي قسنطينة ووهران والعاصمة. والقضاة المسلمون تعينهم السلطات الفرنسية وهم مسؤولون لديها.

وبالإضافة إلى المحاكم الشرعية هناك المحاكم العرفية التي تحكم بمقتضى العرف في القبائل فقط منذ السبعينات من القرن التاسع عشر. وقبل هذا التاريخ كانت القبائل تحكم بمقتضى الشريعة الإسلامية مثلها مثل بقية مناطق الجزائر، ولكن ثورة 1871 وتدشين السياسة الطائفية الهادفة إلى تفريق الجزائريين وفصلهم عن بعضهم خوفا من وحدتهم ضد المستعمرين جعلت فرنسا تفرض على محاكم القبائل العمل بالعرف وليس بالشريعة الإسلامية. ونحن نقول "تفرض" لأن أهل القبائل أنفسهم احتجوا على القضاء العرفي وطالبوا ببقائهم ضمن المحاكم الشرعية باعتبارهم مسلمين، وعندما فشلوا رفع بعضهم قضاياهم أمام محاكم مناطق أخرى في البلاد تحكم طبقا للشريعة الإسلامية. وقد ادعت فرنسا أن القبائل أنفسهم يريدون الاحتكام إلى أعرافهم بدل القرآن. ومن هذا العرف عدم توريث المرأة. وقد استنكر بعض الكتاب مثل الشيخ أبي يعلى الزواوي عدم توريث المرأة مما يعتبر مخالفا للشريعة الإسلامية. وإمعانا في هذا الموقف أنشأ الفرنسيون كرسيا خاصا بدراسة العرف القبائلي في جامعة الجزائر.

وتنفيذا للعرف القبائلي نشأت خطة القاضي الموثق، ومهمته تسجيل الوثائق الخاصة بالمعاملات، وهذا القاضي لا يصدر أحكاما وإنما ينفذ أحكام

المحاكم الفرنسية. وهناك عدة مراكز لقضاة التوثيق في القبائل، منها العاصمة وتيزي وزو وبجاية.

كما كان للأباضيين قضاء مستقل ولهم محاكمهم الشرعية طبقا لمذهب عبد الله بن أباض. ومركز المذهب هو وادي ميزاب في جنوب الجزائر، وتوجد أيضا محاكم أباضية في شمال البلاد حيث جالية أباضية في العاصمة وقسنطينة ومعسكر.

هذا هو وضع القضاء في المناطق الشمالية وهي المناطق المسماة بالمدنية. أما في الجنوب حيث الحكم العسكري هو السائد فالقضاة لهم صلاحيات واسعة سواء في المسائل الدينية أو المدنية بين المسلمين. لأنه لا توجد جالية أوروبية في الجنوب. وللقاضي في الجنوب سلطات واسعة كما قلنا خلافا لقضاة الشمال الذين لا يتدخلون في غير الأحوال الشخصية بينما القاضي في الجنوب له سلطة القاضي الشرعي (المسلم) وسلطة قاضي الصلح (الفرنسي)[1].

الحالة الثقافية

التعليم

ولنتحدث الآن باختصار عن أنواع التعليم عشية الثورة. فالتعليم الابتدائي الرسمي كان منتشرا إلى حد ما في أغلب المدن الكبيرة والصغيرة، حيث يتلقى التلاميذ في المدارس أوليات العلوم ويتأهلون منها للشهادة الابتدائية. وهي أساسا مدارس للتلاميذ الأوروبيين وبرنامجها فرنسي، ولكن يمكن لأبناء المسلمين أن يدخلوها إذا وجدوا فيها مكانا. وتضم سنة 1952 ثلاثين ألف تلميذ أوروبي وتسعين ألف تلميذ مسلم، كما توجد مدارس فرنسية عربية على

(1) عن موضوع القضاء عشية الثورة انظر أحمد توفيق المدني، جغرافية القطر الجزائري، ط2، 1952، ص 101–104. وكذلك أحمد سفطة (القضاء الشرعي في الجزائر)، مجلة المناظر (تصدر في فرنسا)، فبراير 1961، ص 6–11. والمقال مصور.

مستوى الابتدائي موجهة إلى أبناء الجزائريين وعددها حوالي ألفي مدرسة (2000) ولها برنامج يشبه برنامج المدارس التي يتردد عليها أبناء الفرنسيين بحيث لا وجود فيها للغة العربية ولا للعلوم الإسلامية. بالإضافة إلى مدارس لتخريج المدرسين والمدرسات في التعليم الابتدائي[1].

كذلك كان التعليم الثانوي مجانيا أيضا، وله مؤسساته الخاصة وهي الثانويات (الليسيات) الموزعة على الولايات الثلاث: الجزائر ووهران وقسنطينة. وله برنامج فرنسي أيضا. وهناك معاهد (كوليجات) منتشرة في عدد من المدن ولها برنامجها الخاص القائم على اللغة الفرنسية. إضافة إلى ثلاث ليسيات خاصة بالبنات. وكل المدارس الثانوية تؤهل التلاميذ للحصول على شهادة الباكلوريا التي هي المفتاح لدخول التعليم العالي. ولكن يمكن لطلبة المدارس الثانوية أن يختاروا اللغة العربية الفصحى أو الدارجة كلغة أولى أو كلغة ثانية. وتوجد في الثانويات سنة 1952 عشرة آلاف طالب وخمسة آلاف طالبة. أما المعاهد فتشمل ستة آلف طالب وأربع آلاف طالبة. وأكثر هؤلاء الطلبة أوروبيون.

وهكذا نلاحظ أن التعليم الثانوي يشمل 25 ألف طالب وطالبة، أغلبهم فرنسيون. أما عدد المسلمين الذين يزاولون دراستهم الثانوية سنة 1950 فكان لا يتجاوز الألف طالب.

فإذا انتقلنا إلى التعليم العالي الذي تمثله جامعة الجزائر الوحيدة فإنه يقدم البرهان على وجود سياسة مدروسة لتجهيل شباب الجزائر. فالجامعة التي كانت تضم أربع كليات (الحقوق، والآداب، والطب والصيدلة، والعلوم) وفيها معهد للدراسات العربية حديث العهد- كانت لا تضم سوى حوالي أربعة آلاف (4130) طالب معظمهم من الأوروبيين "لغفلة الآباء أو لعجزهم عن القيام بتكاليف التعليم العالي" حسب تعبير الشيخ المدني. ولكن هذه الملاحظة ليست

---

(1) المدني، جغرافية القطر الجزائري، ص 106.

كلها صحيحة، لأن خطوة الدخول إلى الجامعة تبدأ من الباكالوريا ولأن شروط القبول في الجامعة شروط تعجيزية وعنصرية[1].

تباشير نهضة تعليمية

تحدث محمود بوزوزو عن اضطهاد التعليم العربي الحر والانبعاث الإسلامي في الجزائر. ولاحظ أن هذا التعليم قائم على كاهل الشعب. وأنه لا يتعدى التعليم الابتدائي وله برنامج بسيط يشمل قواعد الدين وقواعد اللغة وبعض الجغرافيا والتاريخ الإسلامي. ثم إن الأطفال الذين يتلقونه هم الذين تركتهم المدرسة الفرنسية في الشارع فإذا تخرجوا منه فإنه ليس لهم وظيفة تنتظرهم، بل حتى الذين واصلوا الدراسة بعده في المعاهد الإسلامية خارج الوطن وعادوا بشهادات ليس لهم مكان في الوظيفة.

ولاحظ بوزوزو أن الحاكم العام عندئذ (شوطان) قد منع تدريس التاريخ والجغرافيا والحساب في المدارس العربية الحرة. وهناك اضطهادات للمدارس الحرة ولمعلميها سبق الحديث، عنها بدعوى عدم الاستظهار برخصة أو عدم ملاءمة المكان للدراسة، وغير ذلك من التعلات.

ومن رأي بوزوزو أن النهضة الإسلامية قد بدأت في الشرق (باكستان، اندونيسيا، مصر...) وأن الجزائر تسير على طريق الحياة الحديثة والنهضة أيضا، وأن هناك قيما إسلامية أو ما سماه انبعاثا، وأن للإسلام وقيمه حافظا لا ينام وهو الله سبحانه، وما يجري من انبعاث إسلامي في الشرق إنما هو عبرة للجميع، ولن يوقف تياره في الجزائر أحد[2].

وفي نطاق هذا الانبعاث الملحوظ نوهت الجريدة بتدشين معلمين وهما

(1) المدني، جغرافية... ص 107- 108. هناك إحصاءات أخرى عن التعليم ستتضح بها الصورة أكثر مما سقناه حتى الآن، أنظر لاحقا.

(2) المنار 15، 9 يناير، 1953.

مسجد بلكور بالعاصمة ودار الطلبة في قسنطينة. بالنسبة للمسجد رسمت له المنار صورة مجسمة واعتبرته برهانا على حرص المسلمين على دينهم، ونوهت بالمتبرعين لبناء المسجد ووعدت بالكتابة عنه تحت عنوان الإسلام بين الحرص والإهمال[1].

أما دار الطلبة فقد افتتحت في 8 نوفمبر من نفس السنة، وقد أوردت الجريدة وصفا حيا للاحتفال الشعبي الذي حضرته شخصيات علمية واجتماعية، كما وصفت التنظيم والكلمات التي ألقيت في الحفل، وحضور بعض الضيوف كوفد تونس الذي كان برئاسة الشيخ علي النيفر الذي عددا من علماء الزيتونة، وكان مقدم الحفل هو الشيخ أحمد توفيق المدني. وقد تبارى الشعراء في هذا الحفل، ومنهم محمد العيد وأحمد سحنون ومفدي زكرياء، وكانت قصائدهم إذا قرئت قراءة مستقبلية نجدها إرهاصات بالثورة المظفرة. كان خطيب الحفل الرسمي هو الشيخ محمد خير الدين النائب الثاني لرئيس جمعية العلماء. ويبدو أن النائب الأول وهو الشيخ العربي التبسي، كان غائبا ربما يؤدي فريضة الحج. كما أن الشيخ الإبراهيمي كان في القاهرة عندئذ، ولذلك أرسل كلمة سمعها الحاضرون من تسجيل صوتي مع مقدمة من قبل الشيخ الفضيل الورتلاني الذي كان أيضا في القاهرة. ولكن صوت الإبراهيمي كان غير واضح في التسجيل، ومع ذلك استمر الحاضرون في الاستماع إليه دون فهم. وبعد الخطب والشعر طلب مقدم الحفل، الشيخ المدني، التبرع بالمال فجمع في ظرف ساعة نحو عشرة ملايين فرنك[2].

التعليم العربي الرسمي

التعليم الابتدائي العربي الرسمي ليس له مدارس خاصة به، كما أن اللغة العربية لا تعلم في المدارس الابتدائية الفرنسية، كما أشرنا. أما "المدرسون"

(1) المنار 48، 6 نوفمبر، 1953.

(2) المنار 49، 20 نوفمبر، 1953.

فهم عادة موظفون رسميون معينون من قبل إدارة التعليم، مع مباركة الحاكم العام، وعددهم حوالي خمسين مدرسا موزعين على المساجد في المدن، ومهمتهم إقراء من يرغب في علوم الدين واللغة كالتوحيد والفقه والنحو، وليس لهؤلاء برنامج مسطر يسيرون علي هداه.

أما التعليم الثانوي العربي الرسمي فله مدرستان إحداهما في تلمسان والثانية في قسنطينة، وكلتاهما تعلم الفقه والأدب العربي واللغة الفرنسية والتاريخ الطبيعي وبعض المواد العلمية. والناجحون من هاتين المدرستين يواصلون دراستهم في المدرسة الثعالبية بالجزائر (العاصمة)، وهي مدرسة عليا تغير نظامها منذ سنة 1951 فأصبحت تدعى الكوليج الفرنسي- الإسلامي، ومنها يتخرج القضاة الشرعيون ووكلاء المحاكم الشرعية وكذلك المدرسون الرسميون الذين أشرنا إليهم. كما أن الناجحين في الامتحان النهائي في هذه المدرسة العليا يمكنهم أن يدخلوا معهد الدراسات العربية التابع للجامعة حيث يقضون سنتين يحصلون بعدهما على دبلوم. وحوالي 1953 خصصت الثعالبية للبنات المسلمات وانتقل الطلبة إلى الثانوية الفرنسية-الإسلامية الجديدة في بن عكنون التي تدعى اليوم عمارة رشيد.

التعليم العربي الحر

أمام هذا الإهمال للغة العربية، رغم اعتراف دستور 1947 بها، تنادى الجزائريون لإحياء لغتهم فأسسوا لها المدارس الحرة في مختلف المدن، كما سبق. وهي مدارس تتوفر في أغلبها على شروط التدريس الحديث مع برامج تربوية وطنية. وقد نجح المشروع رغم العراقيل، بإقبال الشعب عليه، وهو المشروع الذي بدأت الحركة الإصلاحية في تطبيقه منذ العشرينات من القرن العشرين بقيادة الشيخ عبد الحميد بن باديس. كما كانت الكتاتيب القرآنية العتيقة تقوم بتحفيظ القرآن وتعليم قواعد اللغة ومبادى الدين الإسلامي، وإلى جانبها عدد من الزوايا التعليمية التي أخذت على عاتقها انتشال الناشئة من حمأة الجهل.

وفي سنة 1952 أصبح هناك حوالي ثلاثمائة مدرسة حرة لتعليم القرآن الكريم واللغة العربية ومبادى العلوم العصرية. ولكن ليس كل المدارس كانت على مستوى واحد من النظام والتطوير. وكانت جمعية العلماء بالأساس هي التي تشرف على هذا النوع من المدارس الحرة في حوالي 140 مدرسة من الثلاثمائة المذكورة، وكانت تسير بها حسب برنامج موحد ومنظم. وهي تضم حوالي خمسة وثلاثين ألف تلميذ، أي في المدارس المائة والأربعين[1].

وفي سنة 1953 تحولت المدرسة الثعالبية التي كانت في قلب القصبة إلى مدرسة حديثة تقع في ضاحية ابن عكنون (ثانوية عمارة رشيد حاليا) وأصبح اسمها المدرسة الفرنسية-الإسلامية وهي خاصة بالذكور. وقد تولى إدارتها الشيخ أحمد بن زكري. ومن شيوخها السيد محمد الحاج صادق الباحث والمترجم أيضا. أما البنات فقد خصصت لهن مدرسة جديدة بالقبة (حسيبة بنت بوعلي حاليا) ابتداء من سنة 1959. ومن شيوخها: ولد رويس، وعويسي المشري، ونور الدين عبد القادر. وقد عاصرنا بعضهم يوم انتقلوا للتدريس في الجامعة بعد الاستقلال. أما معهد الدراسات العربية فقد كان موقعه جهة جامع كتشاوة بساحة الشهداء، وكان تحت إدارة المستشرق هنري بيريز إلى عشية الاستقلال[2].

إن التعليم العربي الحر، كما لاحظنا، كان مقصورا على التعليم الابتدائي، غير أنه يمكن القول إن هناك ما يشبه التعليم الثانوي الحر أيضا. وهذا النوع كانت تقوم به بعض الزوايا مثل زاوية الهامل وزاوية اليلولي وزاوية ابن الحملاوي ومعهد الحياة في ميزاب ومساجد الجنوب عموما. فهذه

---

(1) المدني، جغرافية، ط2، 1952، ص 109-110. أنظر أيضا ما كتبناه عن جمعية العلماء في أول هذا الفصل.

(2) أبّنت مجلة هنا الجزائر الشيخ أحمد بن زكري وحضر جنازته أعيان من المسلمين والفرنسيين. وقد أكد البعض أنه مات مقتولا.

المؤسسات كانت تعلم العلوم الإسلامية والفقه وعلوم اللغة ومختلف المواد المكملة لثقافة عربية إسلامية متينة.

وفي هذا المجال نشير إلى أن معهد عبد الحميد بن باديس الذي أسسته جمعية العلماء بقسنطينة قد أصبح فرعا من فروع جامع الزيتونة يحتذي حذوه في البرنامج والشيوخ، فكانت امتحانات المعهد تجري بحضور لجنة زيتونية هي التي تعتمد النتائج. ويحق لطلبة المعهد بعد ذلك الالتحاق بجامع الزيتونة إذا أرادوا. ونفس الإجراءات خضع لها أيضا المعهد الكتاني وطلبته في قسنطينة. وقد بلغ الذين كانوا يزاولون تعليمهم باللغة العربية في الزوايا والمعاهد نحو ثلاثة آلاف طالب، وهو عدد ضئيل بالنسبة لشعب تعداده قرابة تسعة ملايين ويعتبر اللغة العربية إحدى عناصر هويته الوطنية.

أما التعليم العالي الحر فلا وجود له. لذلك اكتفى الطلبة الراغبون في مواصلة تعليمهم العالي بلغتهم العربية بالتوجه إلى جامع الزيتونة لتعلم الدين والثقافة، وقد تجاوز عددهم فيه الألف والستمائة طالب في بعض الأوقات، وهم يتحملون المشقة الشديدة من أجل تحصيل العلم ودراسة التراث الإسلامي. كما اتجه بعضهم صوب جامعات المشرق العربي. وهذا الخلل في التعليم الوطني هو الذي جعل جمعية العلماء مثلا تسعى إلى إرسال بعثات طلابية إلى الأزهر الشريف وإلى غيره من المعاهد الإسلامية في المشرق، كما سترى[1].

معلمو جمعية العلماء

كان معلمو المدارس الحرة التابعة لجمعية العلماء يعانون مختلف المشاكل لأنهم هدف لاضطهاد الاستعمار وقمعه. فقد كانوا يتعرضون للحبس والتغريم والمحاكمة كالمجرمين، وكانوا يحبسون مع هؤلاء حتى أنه في

---

(1) المدني، مرجع سابق، ص 110.

مجلس واحد - حسب الشيخ الإبراهيمي - ينادي المنادي على المتهم بالسرقة وبفتح مدرسة بدون رخصة يوم الجمعة بطريقة يقصد بها الإهانة والإذلال[1].

ففي مغنية مثلا مدرسة ابتدائية حرة اسمها التقدم، تعرضت لمهاجمة الشرطة التي جاءت تبحث وتعتقل عددا من التلاميذ بحجة أن آباءهم أو مدير المدرسة قد أعطاهم مناشير يعلقونها على الجدران، وهو محمد أدراعو وأسماء التلاميذ المعتقلين وسنهم التي كانت تتراوح بين ست وعشر سنوات. كانت هذه المدرسة قد بدأت التعليم سنة 1949، وبعد ثلاث سوات طلب من القائمين عليها رخصة فتحها. ولم تذكر الجريدة ما إذا كانت هذه المدرسة الحرة تابعة لجمعية العلماء أو لحزب الشعب.

كما أن السلطات الفرنسية في مستغانم اعتقلت الشيخ ابن الدين المعلم في المدرسة الحرة وأودعته السجن أربع سنوات بدعوى أنه قد علم التلاميذ أناشيد ثورية. وقد علقت الجريدة على ذلك بقولها إنه على كل حال لم يدع إلى حمل السلاح وإنما كان يعلمهم تعاليم الإسلام، وأن ما حدث لهذا المعلم يمثل صورة صادقة لما يجرى في الجزائر وطن العروبة والإسلام. كما اعتقل الشيخ الزروقي أحد معلمي المدرسة الحرة بمستغانم لأنه كان يعلم الأطفال الأناشيد أيضا، وحكم عليه بأربع سنوات سجنا وبغرامة مالية قدرت بـ 250.000 فرنك[2].

ومن جهة أخرى أغلقت السلطات الفرنسية مدرسة بلفور الحرة الواقعة بضاحية الحراش في العاصمة بعد عامين من فتحها، وكانت هذه المدرسة تحت إشراف جمعية تهذيبية شعبية. وكان إغلاقها قد تم بناء على أمر صادر من الوالي العام نفسه، وحجته في ذلك هي أن المدرسة لا تمتلك رخصة قانونية[3].

---

(1) المنار، 24 أكتوبر 1952.

(2) المنار، 28 نوفمبر 1952، و12 ديسمبر، 1952، و23 يناير 1953.

(3) المنار، 28 مارس، 1952.

تلك نماذج فقط لما كان يحدث لمعلمي المدارس الحرة سواء كانت تابعة لجمعية العلماء، وهو الأغلب، أو كانت تابعة لحزب الشعب. والمقصود بالمعاملة السيئة التي يخضع لها المعلمون هو منع مقنع لتعليم اللغة العربية وقمع واضح لتيار الوعي الوطني حتى لا يتجذر في الشباب فيستيقظ ويعمل على استقلال بلاده.

بعثات جمعية العلماء

سنت جمعية العلماء سنة حميدة وهي إرسال بعثات طلابية للدراسة في معاهد الشرق العربي والإسلامي. ويبدو أن تمويل هذا المشروع كان بمساع قام بها الفضيل الورتلاني وآخرون ثم جهود الشيخ البشير الإبراهيمي، مسايرة للنهضة العربية الإسلامية. وكان التمويل قد انطلق من مصر وباكستان والسعودية، ثم توسع إلى دول عربية أخرى كالعراق وسورية والكويت. وكان الإبراهيمي قد سافر إلى المشرق في فاتح عام 1952 من أجل إجراء اتصالات شخصية لتدبير المنح للطلبة المبعوثين أو الذين تعتزم الجمعية إرسالهم، بالإضافة إلى حضور مؤتمر في باكستان، والتعريف بالحركة الإصلاحية في الجزائر. كان ذلك هو ظاهر الأمور من سفره.

وفي نوفمبر 1953 أعلن الشيخ محمد خير الدين في حفل افتتاح دار الطلبة أن بعثات الجمعية قد بلغت ستين طالبا، وأنها ستصل إلى ثلاثمائة (300) طالب. ووعد سامعيه بأن الجمعية تخطط لإرسال طالبات أيضا إلى المشرق، وأنها تتوقع أن يكون لها اختصاصيون في مختلف المجالات العلمية[1].

لا نعرف بالضبط عدد الطلبة الجزائريين في مصر قبل شروع جمعية العلماء في إرسال بعثاتها. كان القسم العام في الأزهر الشريف هو الجهة

---

(1) المنار، 20 نوفمبر، 1953.

الوحيدة تقريبا في المشرق التي تستقبل الطلبة الجزائريين الذين تقطعت بهم سبل الدراسة. وتشير بعض الوثائق إلى وجود طلبة جزائريين في مصر قبل بعثات الجمعية وإن كنا لا نعرف عددهم بالضبط. فقد نشرت المنار مراسلة من قاسم الجزائري (ربما هو قاسم زيدون) ذكر فيها تضامن الطلبة الجزائريين، جامعيين ومدرسيين وأزهريين، حسب تعبيره، مع مصر في يوم الشهداء. ولكن المراسل لم يذكر عدد ولا أسماء المشاركين في المظاهرة التي جرت في القاهرة[1].

نشرت البصائر لسان حال جمعية العلماء شروط المشاركة في بعثات جمعية العلماء. ومن أولها أن يكون الطالب قد تخرج من مدارس الجمعية أو من معهد عبد الحميد بن باديس، وأن يكون حاصلا على الشهادة الابتدائية وأن لا يتجاوز عمره ست عشر سنة. كما يمكن أن يلتحق بخريج مدارس الجمعية تلاميذ السنتين الأولى والثانية في المعهد. وحدد خريج المعهد بأنه هو الحاصل على الشهادة الأهلية ولم يتجاوز عمره العشرين سنة. وآخر الشروط أن يوفر الطالب تسعين ألف فرنك وجواز سفر.

بهذه الشروط استطاعت الجمعية أن ترسل عددا من الطلبة وهم في سن المراهقة، وهي سن لا تؤهله للغربة الطويلة والبعيدة عن الأهل والوطن. وفي ذلك مغامرة جنت منها العائلات والطلبة والجمعية نفسها مشاكل كثيرة رغم الهدف النبيل الذي كان وراء إرسال البعثات ورغم الاحتياطات التي اتخذتها الجمعية ليكون الطلبة تحت أنظار صارمة ورعاية حكيمة. ويبدو أنه حدث تهافت على الالتحاق بالبعثات من كل من يمت للجمعية بصلة في محاولة للالتفاف على الشروط المعلنة. وقد حاولت أنا من موقعي في تونس كمسؤول على جمعية البعثة الزيتونية التابعة لجمعية العلماء أن أستفيد من الاشتراك في البعثات ولكني لم أنجح لأني لم أكن من الذين درسوا في معهد ابن باديس.

(1) المنار، 11 ديسمبر، 1951.

وأعرف أن خالي الحفناوي هالي والشيخ الطاهر التليلي حاولا إشراك ابنيهما في البعثات باعتبارهما من معلمي الجمعية ولكنهما لم ينجحا لقيام الثورة وتوقف البعثات إلى المشرق من جهة ولوقوع مشاكل بين الطلبة والمشرفين عليهم في المشرق أدت إلى فصل بعض الطلبة من جهة أخرى. وقد أحدث فصل بعض الطلبة من البعثة ضجة في أوساط الجمعية والعائلات بالجزائر بينما كان الشيخ الإبراهيمي في المشرق وقد حالت ظروف الثورة دون التواصل الواضح بهذا الشأن. ومهما كان الأمر فإن الطلبة الذين فصلوا قد نشرت أسماؤهم في جريدة البصائر وعددهم عشرة، من مصر والكويت والعراق[1].

ومهما يكن من أمر فإننا إذا عدنا إلى أوليات النشاط الطلابي نجده يتمثل في طلبة سوريا والكويت، ثم تأتي القاهرة، والعراق والسعودية. والمعروف أن جمعية العلماء أخذت في إرسال البعثات إلى المشرق العربي منذ فاتح الخمسينات. وقد التحق الشيخ الإبراهيمي نفسه بالمشرق في فاتح 1952. وكانت البعثات بين عشرة طلاب وأكثر أو أقل إلى كل العواصم العربية (بغداد، دمشق، القاهرة، الكويت. . .)[2]

اللغة العربية

رغم أن قانون (دستور) الجزائر سنة 1947 قد نص على ترسيم اللغة العربية فإن تطبيقه ظل حبرا على ورق. وكانت الأحزاب والجمعيات تطالب بتطبيقه واحترام اللغة العربية في المدارس الحرة والاعتراف بشهادات الخريجين من جامع الزيتونة والقرويين والأزهر الشريف وغيرها من المعاهد

(1) انظر أزمة جمعية العلماء في كتابنا أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2. وكذلك البصائر، عدد سبتمبر أو أول أكتوبر 1954، وهو العدد الذي كتب فيه الشيخ الإبراهيمي تبريرا لفصل المجموعة، والعدد الذي اطلعنا عليه مبتور.

(2) رابح تركي، البصائر 262، 12 مارس 1954، والأصالة 8، 5 يونيو، 1972.

الإسلامية. وقد ذكر فرحات عباس أن البيان الذي صاغه سنة 1943 جعل الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية كالفرنسية من المطالب الأساسية. كما طالب البيان بالتعليم المجاني والإجباري لجميع الأطفال[1].

واتهم بعض الكتاب فرنسا بالتناقض في موقفها من العربية. فقال إن فرنسا تدافع عن التعليم والثقافة في منظمة اليونسكو ولكنها تضطهد اللغة العربية ومدارسها وثقافتها في الجزائر. كما اتهمها بمحاربة الدين الإسلامي واللغة العربية "اللغة القومية" مع أن المدارس الحرة لا تطلب من فرنسا سوى رفع يدها وترك الشعب يتعلم لغته كما يريد. ومن الإجحاف في نظره أن يطالب الجزائري بالاستظهار بالرخصة حسب قانون 1938 ولكنه عندما يتقدم لطلبها يؤجل الجواب إلى ما بعد تقارير الشرطة. كما أن فرنسا لا تعترف بالشهادات العلمية الصادرة من المعاهد الإسلامية[2].

وتحت عنوان "واجبنا نحو لغة الضاد" تحدث نفس الكاتب (المطالع) عن الجهود التي تبذلها باكستان نحو اللغة العربية بينما هي مضطهدة في الجزائر. كما لاحظ أن التعلم باللغة العربية يتراجع في الأوساط الموسرة التي تقبل بدلا منها على تعلم اللغة الفرنسية. أما الطبقات الفقيرة فلها عذرها في عدم إرسال أبنائها إلى المدارس العربية التي لا مجانية فيها في الوقت الحاضر. وقد عزا الكاتب ذلك إلى كون السلطة الفرنسية قد وضعت يدها على شؤون البلاد (يقصد الأوقاف التي كانت تمول التعليم).

وقد استمر الكاتب في التعليق على موقف الطبقة الغنية والطبقة الفقيرة من التعليم بالعربية. فاتهم الطبقة الأولى التي سماها المستنيرة بالاعتزاز باللغة الفرنسية على حساب العربية رغم أن أبرز ما يتميز به الفرنسيون هو الاعتزاز بلغتهم القومية. ومن رأيه أن نشر اللغة العربية يتوقف على عاملين: الأول

---

(1) فرحات عباس، ليل الاستعمار، ص 170.

(2) المنار 1، 11 أبريل، 1952.

الإكثار من المدارس الحرة، والثاني الإكثار من الصحافة العربية وتنشيط حركة التأليف وتهذيب لغة المسرح وتعريب لغة المجالس والمسامرات في النوادي الأدبية والسياسية وبث روح الاعتزاز باللغة العربية وتنظيم حملة واسعة لمكافحة الأمية بها. وهي اقتراحات في جوهرها بناءة وواقعية وتدل على أن (المطالع) رجل ذو خبرة واسعة بأوضاع الجزائر(1).

وقد كتب الشيخ علي مرحوم عما أسماه " محنة العربية" في الجزائر. والمقالة كتبها في البصائر وتعرض فيها لحال معلمي ومتعلمي اللغة العربية أمام محاولات الفرنسيين منع تدريسها وتعلمها، ودور المعلمين في المدارس الفرنسية الذين اتهمهم بالعمل على منع التلاميذ من تعلم العربية في مدارس جمعية العلماء ناقلا عن بعضهم قوله: "يجب ألا يوجد في الجزائر سوى لغة واحدة وشريعة واحدة." وفسر الشيخ مرحوم ذلك بأنه يعني القضاء نهائيا على العربية والإسلام، واتهم أولئك المعلمين بالمكر والتعصب واعتبر موقفهم حربا معلنة. ودليله في ذلك اضطهاد مدارس جمعية العلماء(2).

وفي هذا النطاق أعلنت جريدة المنار من أول عدد شعارها الوطني والقومي، وهو الشعار الذي يذكرنا بشعار الحركة الإصلاحية: (الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا). لم تذكر المنار من هو صاحب الأبيات الثلاثة التي ازينت بها. وعنوان الأبيات هو (لمن تعيش؟) والجواب:

عـش للجـزائـر كـوكبـا يجلـي الـديـاجـي نيـرا
عـش للعروبـة صارمـا يحمـي حماهـا مُشْهَـرا
ولتغـــد لـلإســـلام حجتـه إذا اشتد المـرَا(3).

والغريب في هذا المجال هو أن أحد أعمدة المسرح منذ العشرينات من

(1) المنار، 25 أبريل، 1952.
(2) البصائر، عدد 306.
(3) المنار، 29 مارس، 1951

القرن العشرين وهو محيي الدين باش تارزي، قد اعتز بالثقافة الفرنسية بدل العربية واعتبر نفسه وسيطا ثقافيا بين قومه والفرنسيين، بل عبر عن موقف إنسان مستلب الهوية. فقد حاوره صحفي فرنسي من مجلة (الوثائق الجزائرية) اسمه أندريه صاروي Sarrouy فقال له: إذا كنت مرتبطا بالثقافة الفرنسية الكلاسيكية فلأني على يقين أن مبادرتي تجد هوى وتفهما لدى الأوساط الإسلامية. إن إخواني في الدين الذين يعودون إلى أصول متواضعة ومتطورة أصبحوا اليوم متشبعين بالثقافة الفرنسية، عن طريق اتصالهم المتواصل بالأوروبيين. فأصبحت لديهم عقلية فرنسية. إنهم يفكرون ويشعرون بالفرنسية. وهم معجبون بالأسماء اللامعة في تاريخكم وأدبكم، وليس هناك أعز لدى تلميذ في المدرسة العربية - الفرنسية من أن يعرف عن ظهر قلب قصة لافونتين»[1].

إن مثل هذه الآراء ما تزال تعشش بيننا اليوم، وليس هناك من سبيل للتخلص منها سوى تطبيق مبادى الثورة وعزل أصحاب هذه الآراء التي لا تعبر إلا على تذبذب وحيرة أصحابها. ولعل باش تارزي كان فقط يجامل ذلك الصحفي الفرنسي، أو أنه قد غير رأيه بعد سنوات الكفاح الطويلة من أجل إقرار هوية الشعب الجزائري القائمة فعلا على الدين الإسلامي والعروبة الثقافية والوطن الجزائري، وهي العناصر التي بنيت عليها ثقافة الشعب الجديدة منذ الفتح عبر المسيرة الحضارية الطويلة التي اشتركت فيها الرموز السياسية والثقافية (الملوك والعلماء)، كل في مجاله.

من قضايا الثقافة والأدب

إذا حكمنا من القضايا التي كانت تداولتها الصحافة فإن الجزائر كانت عشية الثورة تعيش زخما ثقافيا مبشرا بانطلاقة جديدة. حقيقة أن حركة النشر بالعربية تكاد تكون معدومة والكتب التي طبعت خلال العشرية 1945-1954

(1) لطفي محرزي، السينما الجزائرية، الجزائر، 1980.

تعد على الأصابع. ولا تختلف حركة النشر بالفرنسية كثيرا عنها بالعربية. ولا نعرف أن هناك مطابع جديدة نشأت بعد مطبعة البصائر، ولا دور نشر جديدة. أما الصحف فقد ظهر بعضها عشية الثورة مثل المنار وهنا الجزائر، وكلتاهما قامت بدور هام في الحركة الثقافية رغم اختلاف اتجاههما.

والصحف التي تناولت بالنقاش قضايا ثقافية وأدبية هي البصائر وهنا الجزائر والمنار على الخصوص. كان أحمد رضا حوحو يثير من وقت لآخر زوبعة في نقاشه مع بعض الكتاب والنقاد سيما منذ ظهر كتابه (مع حمار الحكيم) الذي تناوله بالنقد أو التعريف أكثر من واحد. فكان حوحو يتأفف من النقاد ويدافع عن وجهة نظره وأصالة فكره. وقد كتب أيضا عمن أسماهم " أدباء المظهر". ففي العدد 301 من البصائر قال حوحو عن مولود الطياب الذي انتقده في كتابه مع حمار الحكيم: إنه لا يعرف النقد وإنه غير موهوب فيه. وقد كنت أيضا من بين من تناول كتاب حوحو في البصائر.

وظهرت ردود مختلفة من الكتاب على صفحات البصائر حول المقالة التي كتبها الشيخ عبد الوهاب بن منصور بعنوان (ما لهم لا ينطقون). وهو يعني بهم الأدباء والمثقفين الذين ليس لهم دور فيما يجري من حولهم من قضايا الفكر والثقافة والمجتمع. وقد نطق أكثر من كاتب لمناقشة هذا الموضوع الذي يحمل في طياته تهمة بالسكوت على المنكر. والجدير بالذكر أنني كنت أيضا من بين الناطقين. كما دار بيني وبين المرحوم رابح بونار نقاش في البصائر حول إرهاصات النهضة في الجزائر ودور المثقفين. وكان الشيخ البشير الإبراهيمي يثير في افتتاحيات البصائر قضايا ذات بعد كبير مثل قضية فصل الدين عن الدولة، والعدالة تحت الاستعمار، وعلاقة الطرق الصوفية والعلماء الرسميين بالإدارة الفرنسية. كما أثارت المنار قضية هامة وهي الوحدة الوطنية وعوامل تحقيقها. فاشترك عدد كبير من المثقفين والسياسيين ورجال الدين بالكتابة حول تحقيق الوحدة بحيث عبر كل منهم عما رآه الطريق الأمثل لتحقيقها.

ومن الذين أجابوا على استفتاء الوحدة مالك بن نبي، فقال إن جوابه على السؤال موجود في كتابه (شروط النهضة)، ومع ذلك شارك قائلا إن الذي يهمنا هنا هو إدراك الدستور الذي من شأنه أن يرفع نصب الحياة من الحضيض الذي نشاهده إلى المستوى الذي يطمح إليه الفرد أو المجتمع بطبيعة الشيء المسطر في غريزة بني الإنسان. وفي نظره أن المشكل في الجزائر إنما هو قبل كل شيء عائد إلى أصول اجتماعية عامة لا تخص طورا من الحياة البشرية دون الأطوار الأخرى ولا عنصرا منها دون العناصر الأخرى بل تشملها في جميع مراحلها، تارة من حضيض إلى حظ وتارة من حظ إلى حضيض[1].

ومن جهته حدد الشيخ العربي التبسي إجابته على أسئلة المنار حول الوحدة فقال إن الاتحاد ضروري لأنه هو المنقذ في الوقت الحاضر ويعني به تكتل الشعب بأسره. وإن في بقاء الأحزاب إطالة لعمر الاستعمار، وكان قد نادي بالاتحاد الشعبي لا الحزبي منذ سنة 1945. أما الوسائل فتتمثل عنده في إلغاء التنظيمات السياسية القديمة، بما في ذلك المؤسسات التي تحمل اسم "الفرنسية المسلمة" ووضع مبادى تتسع لجميع سكان الجزائر، وإخراج العناوين الدينية من الحياة السياسية، فلا قال "مسلم فرنسي" وإنما يقال "جزائري"، ودعا الشيخ إلى عقد مؤتمر عام تعلن فيه الوحدة الشعبية[2].

ومن جهته كان الشيخ الحفناوي هالي يكتب في زاوية من البصائر عن موضوعات عديدة تحت عنوان (ندوتي)، بينما يشاركه أو يخالفه الرأي بعض المتتبعين للحركة الثقافية مثل العلاقة الأدبية بين المشرق والمغرب والإصلاح الاجتماعي.

وفي البصائر أيضا كان عبد المجيد الشافعي وعمار النجار ومحمد منيع وغيرهم يتطرقون إلى مواضيع تثير بدورها ردود أفعال بين الكتاب بل بين

(1) المنار 17، 6 فبراير 1953.

(2) المنار 17، 6 فبراير 1953.

أصحاب المكتبات والمطابع. فطاب الشافعي بطبع كتب المثقفين الجزائريين في الجزائر بدل الاعتماد على الكتب المشرقية ولا سيما الكتب التعليمية، منتقدا عناية أصحاب المكتبات بجلب كتب المشارقة وإهمال كتب الأدباء الجزائريين.

وهاجمت البصائر مجلة هنا الجزائر لإهانتها الدين الإسلامي مرة بطريقة مباشرة وأخرى غير مباشرة. فتحت عنوان (الإذاعة تهين الدين) قالت البصائر إن الإذاعة مثلت رواية (أيوب) بصوته. وإنها تلقت احتجاجات من المواطنين على ذلك، وإنها تدعمهم وتستنكر عمل الإذاعة معهم. أما الإهانة غير المباشرة فحين قدمت الإذاعة رواية سخيفة (ولم تسمها) لأحد المنبوذين ممن لا يدرون ما العلم وما الفن، فالإذاعة بذلك قد أهانت الذوق والفن.

عرف عبد المجيد الشافعي بقصصه التي بدأها بـ (الطالب المنكوب). فكان ظهوره واهتمامه بهذا الفن مبكرا. ولم يكتف بالتعبير عن ذلك بمقالة أو بقصة وإنما تابعه في سلسلة من الأعمال، انتهت حسب علمنا وسط الخمسينات. ولكن الشافعي لم يتطور كثيرا أثناء رحلته الأدبية، شأن بعض رفاقه في الدرب. ومن أعماله قصة (ضحايا الجهل في بلادنا)، وهي قصة فتاة كانت تدرس في المدرسة، وكانت في غاية الحسن والجمال والذكاء والمثابرة وفجأة أمرها والدها أن تلازم البيت رغم أنها على وشك الحصول على الشهادة الابتدائية، فاعتمدت على نفسها في الدراسة في البيت لكي تحقق أملها، ولكن قواها تراجعت وتراجع معها الأمل من تحقيق هدفها، وبقيت بين التشاؤم والتفاؤل إلى أن بشرتها أمها بأنها ستزف إلى رجل غني قريبا وقد ختم الشافعي قصته بطلاق الفتاة وضياع عمرها، فتأست بصاحباتها اللائي لم يدرسن أصلا. وللشافعي ألوان أخرى من هذا النمط القصصي الاجتماعي الذي يستوحي المدرسة والمجتمع. والشافعي هو أيضا صاحب (خواطر مجموعة) التي علق عليها بعض الكتاب عند ظهورها قبل الثورة[1].

(1) البصائر عدد 361.

بينما كتب محمد فيلالي عن عقم الأديب مقالة قال فيها إن الأديب الجزائري يكرر نفسه وليس مبدعا، وأنه لفظي وحشوي. ولاحظ أن القراء لا يشتركون في النقد[1].

وبين سنتي 1951-1952 تعرضت المنار إلى وجوب الاهتمام بالمناهج التربوية وتعليم التاريخ والجغرافيا مما يجعل التربية مستوحاة من تعاليم الإسلام والتراث والشخصية الوطنية.

كما فتحت مجلة هنا الجزائر بابا دائما عنوانه (حديث الكتب والمجلات) كان مولود الطياب يتناول فيه الكتب الصادرة حديثا سواء كانت جزائرية أو غيرها. ويهمنا الآن منه ما تناوله الطياب قبل الثورة. فقد تناول حسب علمنا، كتاب القول المأثور من كلام الشيخ عبد الرحمن المجذوب، واعتبره وثيقة عن حياة أهل شمال إفريقيا في القرن العاشر الهجري. كما عرّف بالخواطر المجموعة لعب المجيد الشافعي وبكتب حوحو وغيره من الإنتاج الجزائري[2].

ففي العدد 285 من البصائر مقالة وصفية لحفل افتتاح مدرسة باتنة الجديدة باعتبارها معقلا جديدا للعروبة والإسلام، وهي مقالة مصورة لمن حضر الحفلة من العلماء والشعراء والأعيان، والشعر والخطب التي ألقيت. وفي العدد 258 مقالة نقدية تضايق فيها حوحو من النقاد الذين تناولوا كتابه (مع حمار الحكيم) عنوانها " آه من هؤلاء النقاد ". وفي نظره أن نقدهم لم يكن في المستوى لأنهم يلجأون إلى الألفاظ الرنانة والأفكار المجترة. وقد رد على بعضهم بعبارات ساخرة لكونه لا يحب توفيق الحكيم ولا يقرأ له، قائلا إن موضوعاته هو جزائرية محض وهي تختلف عن موضوعات الحكيم.

وفي نفس العدد من البصائر (285) مقالة نقدية لي من حلقتين بعنوان (أرض الملاحم)، وهي المقالة التي نشرت أيضا في مجلة الآداب اللبنانية،

(1) البصائر، عدد 306، وعدد 307.

(2) هنا الجزائر، 26، يوليو، 1954.

وفيها نماذج من الشعر الملحمي ودعوة إلى كتابة الشعر الواقعي.

اهتمت هنا الجزائر وكذلك البصائر بالتعريف بالتراث والعائلات، كما اهتمتا بالمدن والعلاقة الحضارية مع الشرق والمواسم الدينية والتراجم التي تذكر الأمة بأمجادها وتاريخها رغم أن هنا الجزائر كانت دورية رسمية، وكانت لا تكتب عن هذه الرموز من وجهة نظر وطنية ولكن معرفية فقط. فقد حقق أحمد الأكحل في نسب الشيخ عبد القادر المجاوي الذي يسمونه شيخ الجماعة، وانتهى إلى أنه من أشراف ترارة وأن أصلهم من نواحي تطوان.

وتناول غيره (ربما هو عبد الرحمن الجيلالي) زيارة الشيخ محمد عبده للجزائر سنة 1903 وجاء بمعلومة جديدة عن هذه الزيارة، وهي أن لقاء الشيخ أبي القاسم الحفناوي والشيخ عبده في السفينة بمرسيليا كان صدفة فقط بينما الرواية الأخرى تذهب إلى أنه كان لقاء مرتبا من قبل السلطة الفرنسية. كما أن الحفناوي سأل عبده عن بعض مسائل التفسير وتلقى الإجابة عليها، وأن الحفناوي كرر زيارة عبده في الجزائر وهو أمر تنفيه الرواية الأخرى، وأن عبده كان معجبا بالحفناوي، وأن من الذين حضروا الاجتماع مع الشيخ عبده في مسجد المحسن مصطفى الأكحل: يوسف بن سماية، وعبد الرزاق الأشرف، ومفتي المالكية محمد بن زاكور، و مفتي الحنفية محمد بوقندورة، والمدرس بجامع سفير محمد قايد علي. وإثارة موضوع كهذا في هذه السنة له دلالة خاصة لأننا أشرنا إلى أن التركيز كان واضحا على علاقات الجزائر بالمشرق[1].

أما البصائر فكانت تتحدث وبالصور، عن الثورة المصرية واستقبالات رجال الجمعية من قبل قيادة هذه الثورة، وظهرت عدة مقالات وصور لشخصيات بارزة من حركة الإخوان المسلمين، أبرزها مقالات سيد قطب. وظهر شيوخ الأزهر بجلابيبهم على صفحاتها وصفحات وليدتها (الشاب المسلم) التي تصدر بالفرنسية. وكتب الإبراهيمي بعض مقالاته بعنوان من

(1) هنا الجزائر، 29 نوفمبر، 1954.

نفحات الشرق، وأصدرت البصائر عددا خاصا (ممتازا) عن مصر أثناء صدامها مع الأنجليز. كما اهتمت بتطور السعودية وتحدثت عن الملك عبد العزيز بإعجاب ورثته بعد وفاته. وكذلك اهتمت بأحداث المغرب ونفي سلطانه، ثم عودته ظافرا إلى وطنه، ونقلت أخبار وصور وفد جمعية العلماء الذي توجه إلى المغرب لتحية وتهنئة السلطان.

من ذلك رثاء محمد العيد للملك عبد العزيز آل سعود وقد نشرها في المنار في أول يناير 1954، ومطلع القصيدة:

لك الويل من نعي به هتف البرق   فريع له الإسلام واضطرب الشرق[1].

حاول محمد منيع إنشاء رابطة باسم (الرابطة القلمية)، ولكنه لم يوفق. وكان قد وعد بوضع قانونها الأساسي بنصيحة من أحمد توفيق المدني. ولكن الأدباء كما قيل، تقاعسوا عن المساندة. وقد كتب منيع كلمة بعنوان (صرخة في واد) وأهداها إلى أبي القاسم سعد الله تحسر فيها على مشروعه الذي لم ير النور[2].

الأدب وجبهة الدفاع عن الحرية

نشرت المنار شعرا للصادق نساخ في تحية جبهة الدفاع عن الحرية، وكان نساخ من تلاميذ محمد العيد، وكان متفائلا بالجبهة التي رأى أنها ستوحد الشعب من حولها فجعل عنوان شعره (اجمعوا الشعب حولكم). كما نظم قطعة (يا نجم) التي تذكرنا بقصيدة شيخه محمد العيد (يا ليل) معنى ووزنا.

أما محمد العيد فقد نظم في نفس المناسبة قصيدته السياسية المبشرة بالثورة والتي عنوانها (يا قوم هبوا). وقد جاء فيها:

---

(1) نعلم أن الشاعر نفسه نشر قصيدة في جريدة الأسبوع التونسية في أكتوبر 1953، ولكننا لا نعرف عنوانها ولا غرضها. أنظر الجابري، النشاط العلمي...

(2) البصائر، 23 ديسمبر، 1955.

يا قوم هبوا لاغتـنام حياتـكم   فالعمر ساعـات تمر عجـالى
الأسر طال بكم فطال عنـاؤكم   فكوا القيود وحطموا الأغلالا
لا أمن إلا في ظـلال مرفـرف   حـر لنـا عـال ينـيـر هــلالا

كما نظم محمد العيد قطعة جميلة وهادفة دعا فيها أهل وهران إلى الثقافة، بدأها بقوله:

العصر عصر ثقافة الأذهـان   فإلى الثقافة يا بني وهـران[1]

كما توجد في المنار قطع شعرية وطنية وصفية صاغها شعراء متحمسون للنضال السياسي والتحرر الوطني رأوا في اجتماع جبهة الدفاع عن الحرية أملا في الوحدة والخلاص من الاستعمار. وقد شارك في هذه "الحملة" الشعرية أيضا أحمد بوعدو وأبو بكر بن رحمون الذي علق أملا عريضا على الجبهة فقال:

إرفـع لـواء الفـاتحـين   واهتف بعزم المؤمـنين[2]

ومن الكتب التي ظهرت في هذه الأثناء (فارس العقيدة) للشريف ساحلي. وهو كتاب يتناول حياة الأمير عبد القادر الذي اعتبره المؤلف مغمورا رغم ما كتبه عنه الأجانب، سيما في الجزائر التي دافع عنها ولأن قوة الحديد والنار هي التي وضعت حدا لعمله العظيم. ولاحظ الساحلي أن قليلا من الجزائريين فقط كتبوا عن الأمير والأقل منهم من درس حياته وفهمها حق الفهم، فجاء كتابه في وقت تحتاج البلاد إلى معرفة هذا البطل المغوار. ينقسم فارس العقيدة إلى قسمين الأول يدرس الأمير مفكرا والثاني يدرسه إنسانا. ولا يحاول المؤلف أن يقدم ترجمة كاملة للأمير وإنما قدمه في مختلف ألوانه وظلاله ومختلف جوانبه، كما درس بعض الأحداث فحللها بدقة. وتمنى المراجع أن يترجم الكتاب إلى

---

(1) المنار 9، 5 أكتوبر 1951، في هذه الأثناء نشر عمر البسكري أيضا قصيدة في المنار عن تلمسان.

(2) المنار 8 مايو، 1952.

العربية[1].

ومن الأمثلة على مشاركة الشعر في الحياة الجديدة عشية الثورة افتتاح مدرسة باتنة سنة 1953، وتدشين دار الطلبة بقسنطينة في نفس السنة. فعندما نشرت البصائر الخبر جعلته تحت عنوان (باتنة تشيد معقلا للعروبة والإسلام). وقد ظهر في المقال المصور زعماء الحركة الإصلاحية عندئذ: خير الدين وأحمد توفيق المدني وأحمد السرحاني ومحمد العيد والشيخ نعيم النعيمي والطاهر الحركاتي، كما ظهر عدد من أنصار الإصلاح من السياسيين والمحسنين والنواب. وأذكر أن الشيخ الإبراهيمي قد أرسل تسجيلا صوتيا خاطب فيه جمهور باتنة وهنأه بالمدرسة وطلب منه المزيد من البذل والسخاء في سبيل الإسلام واللغة العربية والجزائر. وبهذه المناسبة ألقى محمد العيد رائعته التي جاء فيها بإرهاصات ثورية ساخنة:

وما التسجيل للآثار إلا ... ببذل المال أو بذل الضحايا

حذار من الشقاق فإن أقمتم ... عليه عصاكم انفلقت شظايا[2]

كما نشير إلى تدشين دار الطلبة بقسنطينة. وهي الدار التي بنيت تحت إشراف جمعية العلماء لتكون إقامة لطلبة معهد عبد الحميد بن باديس بعد أن تكاثر عددهم. حضر حفل الافتتاح رجال الجمعية ووفد من علماء جامع الزيتونة وأنصار الإصلاح. وقد ألقيت قصائد معبرة عن الفكر الإصلاحي والمشاعر الوطنية والدعوة إلى الاتحاد بين الأحزاب والنهضة الإسلامية.

من شعراء هذا الحفل مفدي زكرياء الذي ظهر بعد غياب طويل وألقى قصيدته المؤثرة التي عبر فيها عن خيبة أمله في الأحزاب والسياسة وأعلن فيها دعمه لمنهج جمعية العلماء. وقد جاء فيها:

---

(1) المنار 20، 27 مارس 1953. والكتاب من مطبوعات مكتبة النهضة بالجزائر.

(2) البصائر، عدد 285.

وما الزعامة أقوال وشقشقة إن الزعامة إصلاح وتشييد
وما النضال احتجاجات على ورق إن النضال كفاءات ومجهود
وما الجهاد (جدار أنت تكتبه) إن الجدار كبعض الناس جلمود
هذي المدارس كالأعلام قائمة للعلم يحرسها قوم مناجيد
وهذه بعثات العلم شاخصة للشرق يكلأها في الشرق تأييد
جاء (البشير) فزكاها وأرسلها فصائلا كلها عزم وتأكيد
جمعية العلماء المسلمين ومن للمسلمين سواك اليوم منشود؟
خاب الرجآ في سواك اليوم فاضطلعي بالعبء مذ فر دجال ورعديد
سيروا ولا تهنوا فالشعب يرقبكم وجاهدوا فلواء النصر معقود
أمانة الشعب قد شدت بعاتقكم فما لغيركم تلقى المقاليد
فابنوا المدارس في عرض البلاد فما غير المدارس للتحرير تمهيد

أما زميله الشاعر محمد العيد فهذا الميدان ليس غريبا عنه فطالما خب فيه وأوضع كما يقولون. ولكن قصيدته كانت من أنجح شعره الإصلاحي خصوصا وقد جاءت بعد سكوت دام أيضا طويلا وبعد ابتعاد عن الحفلات والأضواء والتوجه بدلا منها نحو المحراب الصوفي والحياة الروحية. وهذه طالعة القصيدة:

هات البشائر للجزائر هاتها إن الجزائر أبصرت غاياتها

سنذكر نموذجا للشاعر الديني والإصلاحي أحمد سحنون من قصيدتيه إلى المعلم ثم إلى التلميذ. ولكن هذا النمط من الشعر أخذ يختفي بعد قيام الثورة ودخول الشعر السياسي ساحة المعركة.

الفصل الثاني

الثقافة في نصوص الثورة

قضايا الهوية عالجتها وثائق الحركة الوطنية بإسهاب في مختلف مراحلها، ومن العبث أن نكررها هنا، فمن عهد الأمير عبد القادر إلى عهد الأحزاب السياسية تحدث الجزائريون عن تراثهم ومكوناتهم الفكرية واللغوية والدينية كعناصر وحدة منصهرة في التاريخ لا انفصام لها. وكان ذلك واضحا في كل عمل جماعي قاموا به، بما في ذلك نخبة المدن في القرن التاسع عشر إلى برنامج النجم وحزب الشعب والمؤتمر الإسلامي وجمعية العلماء وأحباب البيان والحرية وحزب البيان... إلى المؤتمر الثاني لحزب الشعب الذي انعقد عشية الثورة (1953) والذي نص على أن ثقافة الجزائر ثقافة وطنية مرتبطة بالثقافة العربية الإسلامية وأن التربية الوطنية في الجمهورية الجزائرية ستكون مرتبطة بالثقافة العربية الإسلامية. ومن ثمة فإنه من المؤكد أن بيان أول نوفمبر كانت له مرجعية واضحة لو أراد محرروه العودة إليها واستلهامها. ولكن هل فعلوا؟

يقر مصطفى الأشرف الذي قام ببحوث مكثفة في تاريخ الجزائر أثناء الثورة بأن الحركة الوطنية (القومية) لم تتمخض على مذهب عقائدي يؤسس للمستقبل، لأن مهمتها قد انحصرت منذ نشأتها في تحرير التراب الوطني، ولا يجوز أن نطالبها بشيء آخر. فهل هذا الحكم ينسجم مع ما أشرنا إليه من تحديد الحركة الوطنية لمعالم عقيدتها منذ عهد الأمير عبد القادر؟ لعل الأشرف يريد بالعقيدة هنا الإيديولوجية الاشتراكية التي أسس لها برنامج طرابلس الذي كان

الأشرف أحد صناعه على الورق ولكنه لم يستطع تطبيقه على أرض الواقع.

ومن جهة أخرى يقر الأشرف بأن فكرة الثورة لم تنبع من الريف الذي اكتفى بالمحافظة على الأرض انطلاقا من غريزة حب البقاء، وأن المجتمع الريفي أصبح هيكلا خاليا من أية ثقافة ومن أي وعي سياسي، بل هو مجرد هيكل للمحافظة على العادات والتقاليد، ولكنه هو العمدة في تحرير البلاد. أما فكرة الثورة فقد نبعت من المدينة. ولعل الأشرف كان يقيس وضع الجزائر في القرن التاسع عشر بوضع فرنسا في القرن السادس عشر عند ظهور الوعي القومي السياسي على أنقاض الإقطاع الريفي. كما أنه لم يراع المسألة الثقافية، ولو تمعن لتأكد أن خميرة الثقافة الوطنية التي هي منطلق هويتنا قد بقيت في الريف وليس في المدينة[1].

الثقافة في بيان أول نوفمبر

تناول بيان أول نوفمبر بالشرح والتعليق عدد من الكتاب والمؤرخين فرأى فيه البعض وثيقة كاملة تتضمن كل ما يعبر عن الجزائر في ثورتها وما هو أبعد من ثورتها. ورأى فيه آخرون وثيقة ظرفية الهدف منها توضيح الأسباب الداعية إلى تفجير الثورة وشروط الصلح ووقف القتال مع العدو والهدف من الثورة وهو استرجاع الاستقلال الذي اغتصبه المحتلون سنة 1830. فهل تعرض البيان إلى المسألة الثقافية؟ وهل كان صائغوه مؤهلين للحديث عن ماضي وحاضر ومستقبل الجزائر الثقافي؟ إلى أي حد كان بيان أول نوفمبر معبرا عن الهوية الثقافية للجزائر؟ إن الذين تناولوه بالتحليل معظمهم من المتعاطفين مع أصحابه وبالتالي رأوا فيه وثيقة كاملة تتضمن كل هموم الجزائر ومشروع مجتمعها أثناء الثورة وما بعد الاستقلال. ولكن الذين انتقدوه رأوا فيه وثيقة كتبت على عجل وبقلم بسيط وفكر ساذج، وكان همها الوحيد انطلاق الثورة وليس بناء المستقبل.

(1) مصطفى الأشرف، الجزائر: أمة ومجتمع، 1983، ص 457

جاء في البيان(1) أن "على فرنسا أن تعترف رسميا بالقومية الجزائرية وبإعلان صريح رسمي تلغي بمقتضاه جميع القوانين والقرارات والمراسيم التي جعلت الجزائر أرضا فرنسية رغم تاريخ الشعب الجزائري ورغم التاريخ والجغرافية واللغة والديانة والعادات". كما نص البيان على ضرورة إجراء مفاوضات مع الممثلين الحقيقيين للشعب الجزائري على أساس احترام السيادة الجزائرية التي هي جزء لا يتجزأ... "ومن جهتنا نتعهد بضمان المصالح الفرنسية الثقافية والاقتصادية.."

واضح من هذا النص أن البيان يتحدث عن "القومية" (الوطنية) الجزائرية وأن مقومات هذه القومية هي التاريخ والجغرافيا واللغة والديانة والعادات المشتركة. ومن المفهوم، وليس بالتصريح، أن اللغة المقصودة هي اللغة العربية، وأن الديانة المقصودة هي الإسلام، وأن التاريخ يعني هنا التاريخ الجزائري المرتبط بالتاريخ العربي الإسلامي لأن تاريخ الجزائر منذ الفتح هو جزء من هذا التاريخ العربي الإسلامي.

ولكن لماذا لا يعبر البيان عن ذلك صراحة؟ إن البعض يرون أن التصريح بهذه المقومات القومية، لو أعلن، قد تعزل الأقليات الأوروبية عن دعم الثورة، كما يرى البعض أن محرري البيان أنفسهم كانوا مترددين في موضوع اللغة والإسلام والتاريخ لأن تكوينهم لم يكن يتضمن هذه المقومات، وهم كوطنيين يساريين ربما يريدون تفادي التمسك بمبادى تعتبر رجعية في حينها. ثم من

---

(1) اعتمدنا على ترجمة البيان المنشورة ضمن النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني، وأول منشور للجبهة، أنظر لاحقا. جاء في كتاب ميكال كلارك، الجزائر المضطربة، ط.2، ص 114 أن محمد العيشاوي مدير مكتب حركة الانتصار بالعاصمة، هو الذي طبع جريدة(الباتريوت)، وكذلك بيان جبهة التحرير على آلة الميموغراف التابعة لحسين الأحول. وقد ظهر العددان الثاني والثالثمن الباتريوت، في شهر مايو 1954. وهي مطبوعة على الحجر (ميميوغراف). أما العدد الأول فقد ظهر مع ظهور اللجنة الثورية للوحدة للعمل (.C.R.U.A) .

منهم كان قد درس تاريخ الجزائر (خارج العهد الاستعماري) القديم والوسيط والحديث، وعرف ما تراث الجزائر خلال هذه العهود الطويلة؟ ثم إن المسألة ليست مسألة لغة ودين وتاريخ. . . ولكنها مسألة حضارة متكاملة، وليس في ذلك النفر من المناضلين من كان دارسا أو ملمّا بجوانب الحضارة العربية الإسلامية ودور الجزائر فيها؟

عند الحديث عن السند الخارجي ميز البيان بين الدعم المضمون والدعم المحتمل. أما الدعم المضمون فهو من "إخواننا العرب والمسلمين". وهذا واضح من أنه يعبر عن الشعور بالانتماء الحضاري. وهذا يمثل الدائرة الأوسع للجزائر. كما أن هدف الثورة المعلن هو إخراج الحركة الوطنية من التردي الذي وقعت فيه إلى " المعركة الحقيقية الثورية إلى جانب إخواننا المغاربة والتونسيين". وهذه هي الدائرة الأقرب للجزائر. فقد كان محررو البيان يدركون أن أول من يتوقعون منه الدعم هم العرب والمسلمون سواء كانوا في المشرق أو في المغرب، وأن واجب النضال يقتضي اللحاق بركب الثورة في البلدين الجارين وتوسيع رقعة المعركة لصالح الجميع مع توقع الدعم القادم من "الاخوة" الأقارب والأباعد.

برنامج أول نوفمبر

أما النقطة التي دار حولها كثير من الجدل وما يزال يدور، فتتمثل في برنامج الثورة، فهل هو إقامة دولة اشتراكية أو إسلامية أو ليبرالية. ويبدو أن محرري البيان كانوا "اشتراكيين" في توجههم، ولكنهم مع ذلك ومراعاة ربما للجماهير، ألحوا على أن الهدف من البرنامج سياسيا هو تحقيق الاستقلال وإقامة دولة ديموقراطية اجتماعية . . . "في إطار المبادى الإسلامية". فلماذا هذا الغموض؟ إن عبارة ديموقراطية اجتماعية تعني أن النظام الذي ستنشئه الجزائر سيكون شيوعيا أو اشتراكيا وليس نظاما اجتماعيا عادلا كما فهمه البعض، فأصحاب البيان كانوا يقفون إلى يسار الخط الإيديولوجي الاشتراكي،

وربما لم يمنعهم من الإعلان عن الشيوعية سوى الخوف من معارضة بعض زملائهم لهذا التوجه أو من معارضة جماهير الشعب السابحة في البحر الإسلامي منذ قرون. ولا شك أن تعبير "دولة ديموقراطية اجتماعية" يعني تقليد النظم التي تدور في فلك المعسكر الاشتراكي وبعض الجمهوريات الشيوعية ذات النظام الديموقراطي الاجتماعي في آسيا. فماذا بقي للمبادى الإسلامية؟ وما معناها؟ وما المقصود من عبارة إطار؟

يبدو أن هذه التعابيركلها غامضة في أذهان أصحابها أو أنهم صاغوها بطريقة غامضة عن قصد حتى تبقى محل احتمالات وأخذ ورد. وهي فعلا بقيت غامضة في أذهاننا نحن اليوم أيضا، وهو السبب في أن كل طرف يحاول تفسيرها على هواه أو كما تنسجم مع عقيدته السياسية وقناعته الثقافية. فلا المبادى واضحة ولا الإطار كذلك واضح. ولكن لو طلبنا من أي مسلم متعلم عندئذ أن يحدد مفهوم المبادى الإسلامية لأجاب بأنها جوهر الشريعة وما تحتويه من عبادات ومعاملات. أما "الإطار" فمفهومه أن الدولة الجزائرية المستقلة لن تخرج عن تعاليم الإسلام في الحلال والحرام والشورى وإقامة الحدود... فمن كان يفكر في ذلك ممن صاغوا البيان؟ بينما في المبادى الأخرى العلمانية نجد البيان واضحا لا غبار عليه. فهو يصرح بوجوب" احترام جميع الحريات الأساسية دون تمييز عرقي أو ديني"، وهو نداء يقترب فيه البيان من الأقليات الأوروبية في الجزائر ويكشف فيه عن هوية الثورة بالنسبة للرأي العام الخارجي. كما طالب بوجوب "إعادة الحركة الوطنية إلى نهجها الحقيقي" في نطاق الدعوة إلى لملمة أطراف الحركة الذين اختلفوا حول أولويات النهج الثوري أو السياسي، بل كان البيان واضحا أيضا في توجيه الدعوة إلى الأطراف الوطنية الأخرى غير المنخرطة في حزب الشعب لأن العمل الآن أصبح يتمثل في تجميع وتنظيم جميع الطاقات الشعبية للتخلص من الاستعمار تحت لواء وطني واحد يدعى (جبهة التحرير الوطني).

كما كان البيان أكثر وضوحا فيما يتعلق بوحدة المغرب العربي. فالثورة

ستعمل على وحدة شمال إفريقيا "داخل إطارها الطبيعي العربي والإسلامي" بينما كلمة "طبيعي" لم ترد في المبادى الإسلامية ولا في تحديد مفهوم القومية القائم على التاريخ والجغرافيا واللغة والدين والعادات المشار إليه. ومرة أخرى يشير البيان إلى مسألة الانتماء العربي الإسلامي للجزائر في نطاق المغرب العربي، وللمغرب العربي في الإطار العربي الإسلامي. وكلمة "الطبيعي" كلمة مهمة هنا، فهي تعبر عن علاقة لم يفرضها غزو ولا احتلال وإنما فرضها واقع جغرافي وسياسي وثقافي تشكل عبر القرون فانصهر فيه الشعب بجميع مكوناته، فأصبح هو من هو في التاريخ. كما كان البيان واضحا في إصراره على أن الجزائر وحدة لا تتجزأ، وعلى السيادة الكاملة، وعلى ضمان المصالح الفرنسية "بما فيها الثقافية"، وعلى حق الفرنسيين الذين يختارون البقاء في الجزائر تحت مظلة الجنسية الأصلية (الفرنسية) أو الجنسية الجزائرية الجديدة[1].

وقد اختلفت الآراء حول أهمية بيان أول نوفمبر من الناحية الإيديولوجية، فمنها الذي يعطيه قيمة كبيرة لذاته، ومنها الذي يقول بأنه فاتحة للعهد ومعْلَمْ في الطريق إلى بيانات وبرامج أخرى تتبلور مع تقدم الثورة نفسها ومع وجود مثقفين قادرين على صياغة مفاهيم حقيقية لثورة في حجم الثورة الجزائرية. يقول فرحات عباس عن البيان" نستطيع أن نقول دون محاباة ولا مغالاة بأن هذا النداء يعتبر عقد ازدياد الجزائر الجديدة"وهي الجزائر التي برزت إلى الوجود في غرة نوفمبر، 1954[2]..

لغة البيان ومضمونه

كتب البيان باللغة الفرنسية من قبل شخص أو أشخاص لهم صلة ضعيفة

---

(1) لنصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني، 1979، ص9-10. وأيضا "أول منشور للجبهة : الوثيقة التاريخية لميلاد ثورتنا" جريدة المجاهد، أول نوفمبر، 1959، عدد خاص.

(2) ليل الاستعمار، ص272.

جدا بالثقافة العربية والإسلامية. فلم يكن معروفا عنهم لدى زملائهم أنهم تلقوا أي قدر من ثقافة الزوايا أو الكتاتيب القرآنية، فما بالك بالمعاهد الإسلامية كالزيتونة والقرويين. ولو كان المشرف على بيان أول نوفمبر رجالا من أمثال الأمير عبد القادر أو الحاج محمد المقراني أو الشيخ الحداد أو الصادق بن الحاج ... لاختلفت صياغته بالتأكيد واتضحت فيه الإيديولوجية الثقافية والانتماء الحضاري. صحيح أن الزمن قد اختلف واختلفت معه العقليات والاهتمامات ولكن الأصل ظل قائما. وبدون أن نذهب بعيدا، فلو أن الذي صاغ البيان هو ابن باديس أو أحد تلاميذه لكان له توجه آخر وقوة لغوية واضحة.

إن هذا البيان كان في الواقع نتاج مرحلة سياسية محددة أدت إلى أن يصوغه وطنيون ذوو ثقافة ماركسية علمانية بعيدين كل البعد عن التراث الثقافي لوطنهم مما أبعدهم عن هويتهم- ما عدا الروح الوطنية والولاء للجزائر التاريخية والجغرافية-لأن السياسة الاستعمارية التي دامت قرنا من الزمن قد أبعدتهم عن حقيقة أنفسهم حتى أصبحوا يفكرون بحقيقة الغير، بل أصبحوا لا يرون في الوطنية إلا في إطار المبادى العلمانية التي تلقوها من ثقافة المحتل أو قرأوها في الصحافة المعاصرة، أو اكتسبوها من ممارسة النشاط السياسي على أرض الواقع، وهي التاريخ والجغرافيا واللغة والدين والعادات، وكلها تعبيرات مجردة غير مرتبطة بالتراث الثقافي الصميم.

وحتى بعد أن تقدمت الثورة لم تنضج عند قادتها فكرة الانتماء الحضاري ولا العمق الثقافي، فلم يتداركوا في كتاباتهم ما فات محررو البيان. فقد كتب كريم بلقاسم وفرحات عباس وابن المهيدي وغيرهم في (المجاهد) عن التحضير للثورة واتخاذ القرارات الأولى وما حصل في الاجتماعات ومسار الثورة في الداخل والخارج... ومع ذلك لا نجدهم يذكرون البعد الفلسفي أو الروحي أو الإسلامي أو العقائدي للثورة، فهم يكتفون بسرد أحداثها وحصول الاجتماعات حولها والقرارات التي اتخذت بشأنها ومسارها ومناضليها "البسطاء". انظر مثلا

كلمة كريم بلقاسم في العدد الخاص من المجاهد، أول نوفمبر 1959، وهي كلمة مفيدة لأنها تلقي الضوء على طريقة التحضير للثورة من وجهة نظره.

قلنا إن البيان كتب بالفرنسية ومر على بعض المناضلين ليعطوا فيه الرأي بالتنقيح والتعديل. ثم أعطي إلى من صاغه صياغة مقروءة صحفيا وأدبيا ثم سحب في مكان سري في عدة من النسخ لا ندري عددها ثم وزع في داخل البلاد. أما على المستوى الخارجي فقد حمل منه محمد بوضياف نسخة بخط اليد حسب البعض (ومرقونة ومسحوبة حسب البعض الآخر)، وسافر بالنسخة إلى فرنسا فسويسرا. وكانت الخطة هي أن يواصل سفره إلى القاهرة ولكن السفر تعطل دون أن نعرف التفاصيل؟ ومع ذلك وصلت النسخة إلى القاهرة دون أن نعرف التفاصيل أيضا، فترجم البيان إلى العربية وأذيع في الوقت المناسب من إذاعة صوت العرب، أي عند التأكد من وقوع الأحداث في الجزائر. ثم نشرته الصحف المصرية كاملا أو مختصرا. ولا شك أن بعض النسخ من البيان قد وصلت إلى فرنسا عن طريق بوضياف. هذه رواية السيد أحمد سعيد مدير إذاعة صوت العرب عندئذ، كما رواها لي بالقاهرة، مارس 2004.

أما محمد يزيد فيروي أن فريقا آخر (غير مصالح صوت العرب) قام بترجمة البيان إلى العربية في القاهرة دون أن يخبرنا محمد يزيد عن كيف وصلت نسخة من البيان بالفرنسية. وهذا الفريق يتكون من بعض الساسة التونسيين والمراكشيين الذين كانوا في القاهرة، وهم الرشيد إدريس (كتب خطأ : الرئيس) و(الحبيب؟) بولعراس وإبراهيم طوبال (وكلهم من تونس)، وعبد الكريم غلاب وعبد المجيد بن جلون وابن امليح (وكلهم من مراكش). قال يزيد ذلك أثناء حديثه عن وفود المغرب العربي في القاهرة عشية الثورة أو غداة اندلاعها، فقال عن محمد خيضر إنه قد وصل حديثا إلى القاهرة وأن الشاذلي المكي قد تكتل مع الشيخ الإبراهيمي بشأن تمثيل الجزائر. وأشاد يزيد بالاعتراف الذي حصل عليه ممثلو الجبهة من حزب الاستقلال المراكشي وحزب الدستور التونسي كممثلين للجزائر الثائرة ولم يعترفوا بالآخرين (يعني الشاذلي المكي والشيخ

الإبراهيمي...)، وقال إنهم كانوا يحضرون كل الوثائق مع حزبي الدستور والاستقلال. وإذا ثبت ما قاله أحمد سعيد وما رواه يزيد فإنه يكون لدينا على الأقل ترجمتان متزامنتان بالعربية البيان أول نوفمبر (الترجمة المصرية والترجمة المغاربية)(1). غير أن يزيد لم يقلما إذا كانت نسختهم هي التي أذيعت من صوت العرب.

الثقافة في مؤتمر الصومام

انعقد مؤتمر الصومام بعد سنتين من قيام الثورة وفي ظروف تختلف عن ظروف أول نوفمبر. فقد نضجت الثورة بعد حوالي سنتين من التجربة القاسية، ومرت بعشرين أوت 1955 بعد مرور قرابة السنة على اندلاعها، وشهدت الساحة الدولية انعقاد مؤتمر باندونغ وعرض قضية الجزائر على الأمم المتحدة. ونظر البعض إلى استقلال تونس والمغرب (مارس 1956) على أنه عامل معرقل لمسيرة الثورة، ولكن آخرين نظروا إليه على أنه عامل مساعد لها. كما انعقد مؤتمر الصومام بعد إضراب الطلبة عن الدراسة (مايو 1956) في الجامعات الفرنسية، بما فيها جامعة الجزائر. وقد انضم كثير منهم بعد ذلك إلى الثورة مما أعطى لها دفعا جديدا تميز بطاقة شابة ومثقفة. وسيكون لهذا التطور عواقب على مسيرة الثورة على المدى البعيد. ومن جهة أخرى انعقد مؤتمر الصومام بعد انضمام الأحزاب والجمعيات إلى الثورة فأعلن حزب البيان عن حل نفسه وانضمام أعضائه إلى الثورة، وكذلك فعل أعضاء جمعية العلماء. وقد التحق زعماء هؤلاء وأولئك بالوفد الخارجي بينما التحقت أفواج من المعلمين والسياسيين والتلاميذ بالجبال. وفي نفس الوقت تكونت منظمات جماهيرية ومهنية موالية لجبهة التحرير كاتحاد العمال الجزائريين واتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين واتحاد النساء الجزائريات، إضافة إلى جمعية الكشافة الإسلامية

---

(1) كتاب جيش التحرير المغاربي 1948-1955 في أعمال ملتقى مؤسسة محمد بوضياف، الجزائر، 2004. ص 117. هناك ترجمات أخرى للبيان قد نعرف لها.

والشباب، واتحاد التجار.

أما الحزب الشيوعي فقد أبى قادته أن يحلوا حزبهم بأيديهم وينضموا فرادى إلى جبهة التحرير. لذلك كونوا فرقة أطلقوا عليها (مكافحو الحرية) انحصرت مساحة نشاطها في منطقة واحدة تقريبا هي الشلف وفي بعض المدن كالعاصمة. وكان مناضلو هذا الحزب يجمعون بين العرب والفرنسيين باعتبار الحزب كان مفتوحا لعضوية الطائفتين. ومهما كان الأمر فإن الشيوعيين لم يحضروا مؤتمر الصومام، وقد دام هذا الوضع بضعة أشهر أخرى ثم انضم الجنود العرب (الجزائريون) إلى صفوف جيش التحرير بينما ظل القادة على موقفهم يحاولون مفاوضة جبهة التحرير لعلهم ينالون، عند المفاوضة مع فرنسا، قطعة من الكعكة. ويجب أن نتذكر هنا بأن كاتب جلسات المؤتمر هو عمار أوزقان أحد أقطاب الحزب الشيوعي السابقين، والكاتب العام له، فلا غرابة عندئذ أن يصطبغ محضر المؤتمر باللون اليساري والعلماني، وهو الأمر الذي اعتبره بعض قادة الثورة الأوائل "انحرافا" خطيرا عن روح بيان أول نوفمبر وروح الانتماء الحضاري للجزائر[1].

فكيف عالج مؤتمر الصومام المسألة الثقافية بعد أن أصبحت صفوف الثورة متراصة بهذه العينات من الكهول والشباب؟ وهل اختلفت نظرته ومرجعيته عن نظرة ومرجعية بيان أول نوفمبر؟ الواقع أن المؤتمر عالج موضوعات ثقافية هامة ولكن كيف عالجها؟ لقد تحدث عن مقومات الأمة من تاريخ ولغة واحدة ودين وعادات. وتحدث عن انتماء الشعب الجزائري الحضاري، وعن فيدرالية المغرب العربي (وليس شمال إفريقيا خلافا لبيان أول نوفمبر)، وركز على الدعم العربي (وليس الإسلامي) للثورة الجزائرية مؤكدا

---

(1) ترجمنا فصلا من كتاب مايكل كلارك، الجزائر المضطربة، الجزائر، يوليو2005، وقد ظهر كتاب كلارك سنة 1961، وتحدث في الفصل الذي ترجمناه عن العلاقة بين جبهة التحرير والشيوعيين.

ومنتقدا. ولكن وثائق المؤتمر المعلنة لا تشير إلى أية إيديولوجية خاصة بالثورة كما لا تشير إلى الانتماء العربي الإسلامي أو الارتباط بالتراث أو مرجعية التاريخ الجزائري.

دعنا نتتبع هذه الأمور بشيء من التفصيل. لأول مرة تتردد في محضر المؤتمر عبارة " المغرب العربي"، وبالضبط عند ذكر تونس ومراكش وعند ذكر "الأقطار الثلاثة" ووحدة كفاحها، مع العلم أن كلا من تونس ومراكش قد حصلتا على الاستقلال قبل المؤتمر بأقل من خمسة أشهر. وكانت العبارة تتردد في البلدين ولا سيما على لسان الرئيس التونسي الذي كان ربما يفضل استعمال عبارة "المغرب الكبير" بدلا منها. ومما جاء في نص الصومام " أن ما يميز الوضعية السياسية للمغرب العربي هو أن المشكل الجزائري مندمج ومتداخل في مشكلتي المغرب وتونس بحيث لا تمثل في مجموعها إلا مشكلة واحدة". ولم يشر المحضر إلى أن من بين أهداف "المشكلة" في الجزائر تحقيق هدف ثقافي أو استرجاع هوية ثقافية، كما لم ينص على أن من شروط وقف القتال شرط ثقافي وإنما التأكيد على التخلص من الجزائر الفرنسية و"الاعتراف بالأمة الجزائرية التي لا تتجزأ". وهناك حديث طويل في المحضر عن الأقلية الفرنسية، والتركيز على اليهود الفرنسيين ومحاولة جلبهم إلى الصف المساند للثورة وفصلهم عن بقية الفرنسيين لأنهم في الأصل "جزائريون".

كذلك يوجد تركيز مقصود (نظرا للظرف الخاص عندئذ) على " فيدرالية إفريقيا الشمالية" التي تؤلف في نظر المؤتمرين كلا واحدا "نظرا للجغرافية والتاريخ واللغة والحضارة والمصير". وهذه الفيدرالية ستتولى " إقامة تعليم وتبادل في الإطارات الفنية وتحقيق التبادل الثقافي".

فيما يتعلق بإضراب الطلبة عن الدراسة الذي كان قريب العهد رحب المؤتمر بالمثقفين الشباب واعتبر انضمامهم إلى الثورة وإلى الوطنية الجزائرية فشلا لسياسة "الفرنسة" التي حاولت خنق الوعي الوطني لدى الشباب المثقف،

وها قد تخلى الشباب عن المواقف المثالية الفردية أو الإصلاحية مما يدل على وجود اتجاه سياسي سليم لدى هذا الشباب. ولذلك دعا المؤتمر إلى تكوين لجان عمل تضم المثقفين الوطنيين وتأطيرهم، وعلى جبهة التحرير أن توضح مجالات العمل لهؤلاء الطلبة والطالبات، وهي المجالات السياسية والإدارية والثقافية والصحية والاقتصادية.

بالنسبة للأقلية الأوروبية (الفرنسية) التي نعتتها النصوص بالليبرالية وقف المؤتمر موقفا لينّا حتى ليكاد يسميها "ضحية" جهل الأحزاب السياسية حين لم تضع خطة استراتيجية تجعل الأوروبيين على قدم المساواة مع المسلمين في الجزائر. ودعا المؤتمر كذلك إلى التقرب من هذه الأقلية خلافا لساسة الأحزاب القديمة. فقد أنحى باللائمة على الأحزاب لأنها لم تهتم بالأقلية الأوروبية بينما اهتمت بالرأي العام الإسلامي فقط مما جعل الدعاية الاستعمارية تستغل الوضع وتتهم الحكومة الفرنسية بالتخلي عن "الأقلية الجنسية غير المسلمة وتركها عرضة للبربرية العربية والحرب المقدسة". وفي هذا دعوة لجبهة التحرير لكي تتخلى عن دعاية الأحزاب القديمة التي تخيف الأقلية الأوروبية بإلحاحها على استرجاع الهوية العربية المتوحشة تحت راية الجهاد. ومن رأي المؤتمرين أنه من الخطأ غير المغتفر وضع كل الأوروبيين واليهود في سلة واحدة. وقد ألح محضر المؤتمر على أن الثورة الجزائرية ليست حربا أهلية بين الأقلية الأوروبية والأغلبية المسلمة ولا حربا دينية أو جهادا بين الإسلام والمسيحية.

لقد أفاض المحضر في الحديث عن الجالية اليهودية بالخصوص وأعطاها اهتماما دون السكان الآخرين. ربما لأنها كانت من السكان الذين وجدهم الاحتلال الفرنسي في الجزائر مثلهم مثل "الأندجين" الآخرين، وعاملهم كما عامل بقية "الأهالي"، ثم فرض عليهم الجنسية الفرنسية منذ 1870 دون استشارتهم. وأكد المحضر على أن النزاع العربي- اليهودي(كذا) في المشرق لم يكن له أصداء خطيرة في الجزائر كما هو الحال في المشرق. ولو كان له تلك الأصداء لاغتبط له أعداء الشعب الجزائري. فلم يكن المؤتمرون يدركون ربما

أن النزاع بين العرب والصهاينة وليس بينهم وبين اليهود، أو كانوا يريدون تجاهل تلك الحقيقة تزلفا للجالية اليهودية. والمعنى الذي يهدف إليه النص أنه لو كان هناك صدى عميق للنزاع لما كان يجري في فلسطين لاستغله الناقمون على الثورة ووظفوا الحركة الصهيونية العالمية ضدها. ولذلك يجب استغلال ضعف التجاوب الجزائري مع النزاع العربي اليهودي لصالح الثورة، وذلك بالتقرب إلى اليهود الفرنسيين وتجنيدهم لصالحها. وطالبت الوثيقة كذلك بالقيام بدعاية قوية للتأثير على الليبراليين الأوروبيين واليهود بتمثيل مسرحيات تمجد النضال الوطني "المشترك؟"، أي أن الوثيقة تعترف بوجود نضال مشترك بين العرب واليهود في الجزائر، ولكن ضد من؟

والغريب أن المؤتمر لم يوجه خطابه إلى البلاد العربية التي كانت وحدها تدعم الثورة الجزائرية حتى ذلك الحين. بل وجه خطابه لدول مؤتمر باندونغ، فهي التي شكرها وطلب منها الدعم.

أما بخصوص الجنسية والذاتية اللغوية فقد ألح المؤتمر على أن الجزائريين في الماضي لم يقبلوا أبدا بالفرنسة ورضوا بالعيش في وطنهم بدرجة أقل حرية من الأجانب، بينما عمد المستعمر إلى "خنق اللغة الوطنية التي تتكلمها الأغلبية الساحقة من المواطنين، أي اللغة العربية." وعبارة المواطنين هنا غامضة وتحتمل عدة معاني، منها كل السكان بمن فيهم الأوروبيون فتكون اللغة العربية لغة الأغلبية المطلقة لسكان الجزائر. وقد تعني الأغلبية من السكان المسلمين، وبذلك تخرج أقلية أهلية لا تتكلم هذه اللغة، وفي ذلك مشكل من نوع جديد للهوية الثقافية الوطنية. ومهما كان الأمر فالظاهر أن المؤتمرين عنوا بذلك التعبير كل سكان الجزائر لأن الوثيقة تحدثت عن اختفاء التعليم العالي باللغة العربية منذ بداية الغزو الفرنسي الذي شتت أساتذة وتلاميذ اللغة العربية وأوصد أبواب الجامعات في وجوههم وهدم المكتبات واغتصب التبرعات (الأوقاف) الدينية. كما دنس الدين الإسلامي وأخضع رجاله فأصبحت الإدارة الاستعمارية هي التي تختارهم وهي التي تمنحهم أجورهم.

في عبارات لا تصدر إلا عن إيديولوجية يسارية أدانت وثيقة الصومام محاربة الإدارة للحركة التقدمية التي كانت تمثلها جمعية العلماء. فهي تصف الحركة الإصلاحية التي قامت بها الجمعية بالتقدمية كما تصف حركة المرابطين والصلحاء بالرجعية. وبالطبع كان هناك عدم تفاهم بين جهود العلماء وجهود المرابطين في خدمة الثوابت الوطنية ولا سيما التعليم العربي وإحياء التاريخ والتراث والنهوض الاجتماعي بنبذ البدع والخرافات والعودة إلى الإسلام الصحيح والسلف الصالح. ومن ثمة قالت وثيقة الصومام بأن "الإمبريالية الفرنسية وفرت كل الدعم لخرافات الأولياء المرابطين الذين سخرتهم عن طريق إرشاء بعض رؤساء الطوائف" (ربما تعني بالطوائف الطرق الصوفية). وتساءلت الوثيقة: "ألا يعتبر العقاب القاسي الذي يناله رجال الدين الخونة داخل المساجد نفسها أحسن دليل؟" وهذه العبارات تعتبر اعترافا وتهديدا في نفس الوقت. وقد نددت الوثيقة بالدعاية التي بثها حاكما الجزائر (لاكوست) و(سوستيل) والكاردنال (فلتان) التي زعمت أن المقاومة الجزائرية "حركة دينية متعصبة تصب في خدمة الحركة الوحدوية الإسلامية". وتكذيبا لهذا الادعاء أعلن المؤتمر أن الثورة قد أنزلت العقاب الصارم بالخونة من رجال الدين حتى في حرم المساجد. ومعنى ذلك أن الثورة الجزائرية لا علاقة لها بالحركة الإسلامية الوحدوية ولا هي ثورة ذات طابع ديني.

بالنسبة لموقف الدول العربية من الثورة انتقدت الوثيقة هذه الدول، وخصت بالذكر مصر التي كان المتوقع أن يشيد المؤتمرون بدعمها للثورة كما حدث فعلا أو على الأقل من الناحية الدبلوماسية. فقد اتهمتها الوثيقة بالتخلي عن نقاش القضية الجزائرية في الجمعية العامة للأمم المتحدة لإرضاء فرنسا. واعتبرت ذلك الموقف من الدول العربية عموما جبنا، وانتقدتها على دورها المحدود في دعم نضال الشعب الجزائري، خضوعا لاعتبارات سياسية ودبلوماسية مع فرنسا. ولكي تعبر عن الاستقلالية قالت الوثيقة إن علاقات الثورة مع البلدان الشقيقة هي "اتصالات تحالف وليست اتصالات عمالة" وأن

الثورة يجب أن تحافظ على استقلالها وصيانة نفسها. والواقع أن هذا المبدأ لا ينازعها فيه أحد، فلولا الاستقلالية لما حافظت الثورة على وحدتها وقرارها الجماعي. ولكن السؤال هو من أجل ماذا " تتحالف" الثورة مع الدول العربية، هل هناك قضية أو مصير مشترك؟ ولماذا لا يكون التحالف مع الدول الاشتراكية مثلا؟ ومن الملاحظ أن الوثيقة تتحدث عن الدول العربية التي تتأثر عادة بعلاقاتها مع الدول الأخرى حسب المصالح الآنية أحيانا، ولا تتحدث عن الشعوب العربية التي كانت تدعم الثورة الجزائرية دعما مطلقا وتشعر أنها ثورتها هي أيضا.

ومن الملفت للنظر أن المؤتمر وجه عنايته، بدلا من الدول والشعوب العربية، إلى المهاجرين العرب في أمريكا اللاتينية لأن ذلك في نظر المؤتمرين، يدعم الوفد الخارجي للثورة. ودعت الوثيقة إلى الاعتماد على النفس في نشر الدعاية المكتوبة كإنشاء المكاتب الصحفية وطبع التقارير(المناشير؟)، والصور والأفلام. . . "[1].

ومما يذكر أن البرنامج السياسي لمؤتمر الصومام قد حرره عمار أوزقان الذي لم يكن من المندوبين، ولكنه كان - كما أشرنا - الكاتب العام السابق للحزب الشيوعي الجزائري. لذا فإن عبارات القومية والشعبوية والنزعة الاجتماعية المحافظة قد ظهرت في وثيقة المؤتمر بلغة ماركسية واضحة[2].

ونلاحظ في النهاية أن برنامج الصومام لم يخرج بخطة ثقافية للمستقبل. حقيقة أنه انتقد معاملة الاحتلال لمقومات الثقافة الوطنية (التي لم يحددها بوضوح) كاللغة والإسلام والتعليم. . . ولكنه لم يعلن عن برنامج ما بعد الاستقلال. وبقدر ما لام الدول العربية على انتهازيتها وتخاذلها بدل الإشادة بدعم شعوبها للثورة، بقدر ما انفتح على المثقفين الأوروبيين، وعلى

(1) ميثاق مؤتمر الصومام، نشر آفاق عربية، عدد 18، 1971.
(2) حمد حربي، جبهة التحرير، ص 150.

الديموقراطيين الأحرار والرأي العام الديموقراطي في فرنسا. ومن الخطأ في نظره المساواة بين الأوروبيين في هذا المجال، ولا سيما اليهود الذين حاولت الوثيقة فصلهم عن بقية الفرنسيين مطمئنا لهم بأن مكانهم محفوظ في الجزائر المستقلة. واعتبر ضعف المشاركة (حسب دعواه) في النزاع العربي اليهودي فضيلة يمكن للثورة أن تستفيد منها. وألح على أن الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الاجتماعية القادمة لن تقصي أحدا وأنها تضمن المساواة للجميع (والإشارة هنا للأوروبيين بمن فيهم اليهود). وهكذا يمكن أن نخرج بخلاصة وهي أن الخطاب العربي والهوية الثقافية يكاد يكون غائبا في برنامج مؤتمر الصومام[1].

الثقافة والحكومة المؤقتة

منذ تأسست الحكومة المؤقتة هيكلت نفسها على التعامل باللغة الفرنسية، فكانت إدارتها كالإدارة الفرنسية، هذا بناء على الأرشيف الصادر عنها والموجود اليوم. حتى الوزراء المحسوبين على اللغة العربية كان عليهم أن يتعاملوا بالفرنسية مثل أحمد توفيق المدني وعبد الحميد مهري. وكل المراسلات التي كانت تصل إلى مقر الحكومة بالعربية كانت تترجم إلى الفرنسية وليس العكس كالرسالة التي تتحدث عن الدخل المالي من الفريق الرياضي في المشرق، لكي يصب في حساب الداخلية[2].

لم يتعرض بيان الحكومة المؤقتة الأول إلى مشكلة الثقافة في الجزائر بطريقة مباشرة، ولم يجعل منها قضية في الكفاح من أجل الحرية والاستقلال. وكان تعيين الرئيس فرحات عباس نفسه على رأس الحكومة برهانا آخر على عدم الاهتمام بالثقافة والهوية. فالرجل- رغم أنه سياسي ماهر وغير متنطع- معروف بأنه صاحب ثقافة غربية (فرنسية) وشديد الحماس لها. وكان برنامج حزبه وبعض تصريحاته قبل الثورة تصب في خدمة اللغة العربية وثقافتها بل وتعتز

(1) لنصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني، مرجع سابق.
(2) الأرشيف الوطني علبة 21- 50.

بالثقافة الإسلامية للجزائر، ولكن ذلك ليس برنامجا مشروطا لسياسة فرحات عباس أو منهاجا يسير عليه في التعامل مع السلطة الفرنسية، شأن جمعية العلماء أو الأحزاب المحافظة في البلدان الأخرى مثل حزب الاستقلال في المغرب وحزب الدستور القديم في تونس. ولا ندري ما النقاش الذي دار في المجلس الوطني ولجنة التنسيق والتنفيذ عندما تقرر تعيين السيد فرحات عباس على رأس الحكومة المؤقتة: من اقترحه، ومن عارض تعيينه، وعلى أي أساس؟ ومهما كان الأمر فإن الأصداء التي بلغتنا عندئذ ونحن طلاب تقول بأن فرحات عباس قد اختير للحكومة إفحاما لفرنسا والغرب بأن الثورة ليست معادية للحضارة الغربية ولا للثقافة الفرنسية بدليل أن عباس من المعجبين بهذه الحضارة ومن المعتدلين وغير شيوعي، كما أنه شخصية سياسية معروفة.

ومهما كان الأمر فلا شك أن ردود الفعل في محافل الثورة والرأي العام الجزائري كانت متنوعة. وكان بعضها يتساءل عن مصير الثقافة في الجزائر إذا كان فرحات عباس هو قائد سفينتها وهو رمزها. وقد يؤخذ ذلك على أن الثورة عندئذ لم يكن يهمها الشأن الثقافي على الإطلاق، وإنما الذي كان يهمها هو الشأن السياسي والعسكري. أما الثقافة فقد أسندت إلى الشيخ أحمد توفيق المدني، وهو من جمعية العلماء في الطيف الفكري الذي انبثق عن مؤتمر الصومام. وبالإضافة إلى ذلك فالشيخ المدني من جامع الزيتونة ومن المدرسة الخلدونية حيث ازدهرت الثقافة العربية والعلوم الإسلامية. فما الذي يمنعه من بناء الثقافة الوطنية في عهد الثورة على قاعدة صلبة طابعها ويسمها بميسم الأصالة والتقدم؟ ولكن هناك موانع ومثبطات.

فبالرغم من عمق قناعة الشيخ المدني بالانتماء العربي الإسلامي للجزائر وحرارة إيمانه بتاريخها ولغتها فإن شخصيته وماضيه لا تجعلان منه ذلك المدافع الصامد عن هذا الاتجاه. فقد كان هناك من ينظر إليه على أنه "تونسي" منفي في الجزائر، وبهذه الصفة كان عليه أن ينفذ ما يتفق عليه لا أن يبادر أو يفرض رأيه في الشأن الثقافي الجزائري. وقد دأب الجزائريون عامة أيام الثورة على

إسناد الشؤون الثقافية إلى رجل متكون في المعاهد العربية الإسلامية مما قد يفهم منه احترام الانتماء الثقافي أو يفهم منه عدم الاهتمام أصلا بقضية الثقافة. وهكذا فحين تجددت الحكومة المؤقتة عين السيد عبد الحميد مهري وزيرا للشؤون الثقافية، وهو رجل متخرج من جامع الزيتونة وعميق الإيمان بالثقافة العربية كما أنه من عائلة متدينة. وأذكر أن فروع اتحاد الطلبة في الخارج كانت تسند النشاط الثقافي أيضا إلى أحد الطلاب المتخرجين من معهد عربي إسلامي، كلما أمكن ذلك.

ويخبرنا أحمد توفيق المدني في مذكراته أن المصريين كانوا يعارضون تعيين فرحات عباس على رأس الحكومة المؤقتة، لأنهم كانوا لا يثقون فيه، كما أنه كان لا يثق فيهم. فهم يرون الذين قاموا بالثورة أول مرة أحق منه بهذه المهمة، وينظرون إليه على أنه مندس من أجل تحويل مسار الثورة نحو الغرب وليس نحو المشرق والعروبة. ومن رأي المدني أن المصريين قد أخفقوا في معارضتهم تعيين فرحات عباس.

قام المدني نفسه بتعريب بيان الحكومة المؤقتة يوم 19 سبتمبر 1958 ووزعه على الصحفيين العرب والسفارات العربية والسلطات المصرية. واعترفت الجمهورية العربية المتحدة والعراق وباكستان وليبيا واليمن بالحكومة المؤقتة. ولا يتحدث البيان الحكومي عن هوية الجزائر على الإطلاق. وهو أمر يثير الدهشة بالنسبة لثورة تكافح من أجل استعادة الاستقلال الذي يعني استعادة الأصالة والهوية الوطنية. ثم وجه فرحات عباس إلى جمال عبد الناصر رسالة خاصة قام المدني بتعريبها أيضا، كما وجه عباس رسائل أخرى إلى رؤساء وملوك العرب. وكانت الرسالة مرفقة بمذكرة قانونية صاغها القانوني محمد البجاوي مع قائمة بأسماء الوزراء. وقد جاءت في هذه الرسالة عبارات غامضة مثل إن استقلال الجزائر سيكون عامل استقرار في المغرب العربي وفي البلدان العربية كلها " التي نعتبرها وحدة لا تتجزأ". وفي هذه الرسالة طلب أو رجاء أن تكون الجمهورية العربية المتحدة أول من يعترف بهذه الجمهورية (الجزائرية)

الفتية التي نشأت في الجهاد وآمنت بمستقبل العروبة الخالد، كما آمنت باستقلال الشعوب وبالسلام العالمي" . وكل هذه عبارات سياسية ودبلوماسية لا شأن للغة المشتركة فيها ولا خيار الجزائر الثقافي وسط المد الثوري الذي تصنعه حركات التحرير في العالم.

وعند أول اجتماع للحكومة المؤقتة (1958/09/20) طالب احمد توفيق المدني بوقف إضراب الطلبة عن الدروس في جامعة الجزائر لأن الجبهة هي التي أمرت به وأن الاتحاد صادق عليه، وأن الجبهة هي التي أمرت الطلبة بالالتحاق بجيش التحرير. وبعد المناقشة وافقت الحكومة على دعوة طلبة جامعة الجزائر لاستئناف دراستهم[1] وربما يعتبر ذلك من أهم قرارات الحكومة المؤقتة بشأن مظهر من مظاهر الثقافة وهو التعليم[2].

أعلنت الحكومة المؤقتة في أول تصريح بعض توجهاتها الفكرية وتحدثت عن الروابط الحضارية بين الجزائر والشعوب العربية. كان التصريح واضحا هذه المرة في أنه يؤسس لعلاقات جديدة ويذكر بعلاقات قديمة. فمن حيث البناء الإيديولوجي قال التصريح إن الشعب الجزائري يريد إقامة جمهورية ديموقراطية واجتماعية تأسيسا على ما جاء في بينان أول نوفمبر. وعن شعوب تونس والمغرب والجزائر قال إن لها مصيرا مشتركا عبر العصور وإن الجزائر جزء لا يتجزأ من المغرب العربي... وهي تتقاسم مع شعوبه "التراث الرائع للحضارة العربية الإسلامية" .. وأضاف التصريح أن الشعب الجزائري "المتعلق بحضارته ينتمي إلى الوطن العربي. **فهذا الوطن واحد ومن الخطأ السياسي محاولة تقسيمه**"، وأضاف أن التضامن العربي ليس كلمة جوفاء. ونوه بفضل الشعوب الشقيقة وحكوماتها وما قامت به نحو الشعب الجزائري حتى أصبح

---

(1) بعد أن كان طلبة الثانويان والجامعات الفرنسية الأخرى قد استأنفوها في أكتوبر 1957 بأمر من لجنة التنسيق والتنفيذ.

(2) أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، ج3، الجزائر، 403، 405.

قريبا من بلوغ هدفه. . ومن ثمة فإن الشعب الجزائري يعترف بدينه الكبير لجميل الشعوب العربية. . . ونحن إذا تأملنا في النصوص المختلفة التي تحدثت عن الثقافة والروابط الحضارية ربما نجد النص الذي أوردناه الآن أكثر النصوص صراحة ووضوحا[1].

وفي رسالة وجهتها الجبهة إلى الفرنسيين قالت إن الثورة ليست حربا دينية بل هي ثورة تحريرية، وتحدثت بلغة دبلوماسية عن أن فرنسا يمكنها الاحتفاظ في العالم الإسلامي بسمعة طيبة إذا ما تخلت عن سياسة القوة في الجزائر. إن على فرنسا أن تنضم إلى سياسة الصداقة والتعاون الحر. . انطلاقا من شرارة الاتصال بين حضارتين. . تلك هي "وجهة المغرب العربي كهمزة وصل بين ثقافتين وبين عالمين". ووعدت الرسالة بأن الجزائر المستقلة ستقيم "علاقات ودية مع القطرين الآخرين في المغرب العربي ومع بلدان المشرق الشقيقة للشعب الجزائري في تقاليده العربية الإسلامية". ونحن هنا أمام التزامات واضحة بتعاون الحضارات وتفاهمها بدل تصادمها. كما أننا أمام مشروع يجعل المغرب العربي صلة وصل بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط كما أنه يفعل ذلك بالتكاتف أيضا مع أشقائه في المشرق العربي الذي ينتمي وإياه لحضارة واحدة هي الحضارة العربية الإسلامية[2].

في افتتاح المؤتمر الرابع للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين الذي عقد في بئر الباي بتونس سنة 1960، ألقى السيد فرحات عباس كلمة الحكومة المؤقتة وعرج فيها على قضايا ثقافية توضح فكر الثورة وهي في معمعانها. فقد رجع بالطلبة إلى سنوات العشرينات من القرن الماضي عندما كان طالبا ولم يسمح لهم كجزائريين بتكوين اتحاد خاص بهم. وروى أنه ترأس سنة 1926

---

(1) النصوص السياسية لجبهة التحرير. . نقلا عن المجاهد، 10، أكتوبر 1958، ص 139.

(2) النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني، مرجع سابق.

جمعية(ودادية) الجزائريين وساهم في تحويلها إلى (جمعية الطلبة المسلمين)، كما شارك في تأسيس جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين بباريس، وقال إنهم واجهوا عندئذ مشاكل عديدة مثل **"مشكلة المحافظة على الثقافة واللغة العربية"**. وأضاف أن الاستعمار قد بذل كل جهوده للقضاء على ثقافتنا القومية قصد إحلال الثقافة واللغة الفرنسية محلها من الناحية النظرية، لأن الاستعمار في الواقع منع الجزائريين من تعلم لغتهم دون أن يعلمهم لغته. والذي يرجع إلى أدبيات العهد الذي يتحدث عنه فرحات عباس يدرك أن المعركة الثقافية كانت تشكل جوهر القضية الوطنية سواء بالنسبة لمن درسوا بالفرنسية أو من درسوا بالعربية. فالسؤال كان دائما: كيف يسترد الشعب الجزائري هويته العربية الإسلامية[1].

وفي نفس المؤتمر ألقى وزير الثقافة عندئذ السيد عبد الحميد مهري كلمة وزارته وتحدث عن المسألة الثقافية أيضا. ومن رأيه أن المثقفين بالثقافة العربية متصلون بالأمة والتراث ولكنهم مفصولون عن العصر، وأن الطلبة المثقفين باللغات الأجنبية متصلون بالعصر ولكنهم مفصولون عن الأمة وتراثها. وهذه معادلة صعبة، فمن هو الأقرب إلى تمثيل هوية الشعب الجزائري: من تمثل حضارته أو من تمثل حاجة العصر؟ لقد وجد الطبيب الشيوعي الصادق هجريس نصف الجواب عندما أطلق على الصنف الأول في المعادلة "حراس الظل" أي حماة التراث العلمي والديني للحضارة العربية الإسلامية[2]. ولا نظن أن هناك اختبارا لهذا الصنف أو ذاك لأن فلاسفة الاحتلال قطعوا المدد عن الاثنين فلم يتركوا الصنف الأول ليطور تراثه ولم يفسحوا المجال للصنف الثاني ليوظف مواهبه. ومهما كان الأمر فإن الوزير مهر قد حث هؤلاء وألئك على استكمال النقص عند كل منهم. ورأى في المؤتمر بادرة لتدارك ذلك النقص، فهو مؤتمر جمع بين طلبة من بلد واحد ويدرسون في بلاد مختلفة، ولكنهم سيصبحون قادة

---

(1) المجاهد، 74، 8 أغسطس، 1960.

(2) انظر سابقا.

لبلد واحد. وقال ردا على ما كان يشيعه أنصار الجزائر الفرنسية: إننا " لا نفكر في بناء الجزائر على أسس عنصرية أو دينية متعصبة. . . بل نبني جمهورية متصلة بماضينا وحاضرنا، ومتصلة بقوميتنا وثقافتنا العربية الإسلامية".

الثقافة في تقرير لجنة صبيح

أثناء المفاوضات في إيفيان بين الوفدين الجزائري والفرنسي تكونت لجنة في الرباط بالمغرب تتألف من ستة أشخاص مهمتها، فيما يبدو، هي وضع تصور للمسألة الثقافية بما فيها المنظومة التربوية، لكي يهتدي بها الوفد الجزائري المفاوض. وكانت اللجنة تتألف من ميسوم صبيح، مقررا، وأحمد الأخضر، ومحمد الليشاني، وعلال سعدون، وعبد القادر بوسلهام، وقادة بوطارين، والأخير هو الذي كان يترأس الجلسات. ولا ندري من عين هذه اللجنة ولكن مهمتها واضحة، وهي اقتراح بروتوكول ثقافي للوفد المفاوض يتضمن مبادى ومعطيات المشروع الثقافي والتعليمي بعد الاستقلال، مستفيدة من تجربة المفاوضات بين المغرب وفرنسا. قسم أعضاء اللجنة هذا البروتوكول إلى قسمين أو فصلين:

- التعليم الوطني
- الأنشطة الثقافية الأخرى.

وحين وصل الحديث إلى الثقافة قالت اللجنة إنها قامت بإجراء مسح للإنجازات الثقافية لفترة مائة واثنين وثلاثين سنة من الاحتلال الفرنسي، واعتذروا عن عدم وجود الأرقام، ولكنهم سجلوا محطات رئيسية. وبذلك قدموا خدمة لمواصلة البحث المعمق في الفترة التالية. لكن تقرير هذه اللجنة لا يحتوى سوى على ثلاث صفحات. ثم إن البروتوكول نفسه غير متوفر في العلبة التي رجعنا إليها. ولم يتحدثوا في التقرير عن اللغة بتاتا، ولا عن نوعية الثقافة ولا عن برنامج التعليم إلا بطريقة عابرة. ولا يتضمن المدخل سوى العنوان وهو (بروتوكول اتفاق ثقافي للفترة الانتقالية). ولعل المقصود بهذه

الفترة هي ما بين وقف إطلاق النار وإجراء الاستفتاء، ولكننا نستبعد ذلك لقصرها وعدم أهميتها بالنسبة لما سيتلو من الأيام. لذلك نرى أن الفترة الانتقالية المقصودة هي المرحلة التي تلي الاستقلال بسنوات. ومهما كان الأمر فإن التقرير بدأ بديباجة وانتهى بمجموعة من الملاحق، وهي:

- نظرة عن الإنجازات التعليمية والثقافية في الجزائر.
- مذكرة عن التعليم في المغرب.
- مذكرة عن التعليم في تونس.
- مذكرة عن المبادى والتكتيك.
- مذكرة عن تسيير وزارة التربية الوطنية[1]...

في 22 مايو 1961 قدمت اللجنة توصيات تتعلق بمشروع الاتفاق الثقافي الفرنسي- الجزائري (كذا) كما يمكن توقيعه بين الحكومتين في إطار المفاوضات إما الآن وإما غداة تقرير المصير. وقد أرفقت اللجنة وثائق داعمة مع تقريرها لتبرير توصياتها ومنها الاتفاق الفرنسي- المراكشي. وقالت إنها استلهمت هذا الاتفاق بتوسع. والواقع أن اللجنة قد درست مشروعين الأول على أساس أنه سيكون هناك تعاون بسيط بين الجزائر وفرنسا في المجال الثقافي، والثاني على أساس الشراكة أو التعاون الوثيق. لكن اللجنة مالت وعملت على أساس الشراكة الثقافية. وفي نهاية المطاف وقع مسؤول البعثة الجزائرية في المغرب على التوصيات النهائية[2].

كتب التقرير السيد ميسوم صبيح مقرر اللجنة الثقافية. وقد قام رئيس بعثة المغرب للخارجية الجزائرية بإرسال التقرير إلى الوفد المفاوض في جنيف. والهدف منه هو مساعدة الوفد على توقيع اتفاق شراكة ثقافية مع فرنسا، وقد خص التقرير خدمة المفاوضات في المرحلة الانتقالية وليس مرحلة الاستقلال

---

(1) الأرشيف الوطني، علبة 27.

(2) لاحظ أن رئيس البعثة في المغرب عندئذ هو الشيخ خير الدين.

على أساس أن الخصم تهمه مصالحه في المرحلة الأخيرة فإذا ضمنها فإنه سيسرع بالمفاوضات وإلا فإنه سيتباطأ فيها. ولكننا لاحظنا أن التقرير يتحدث أيضا عن التعاون والشراكة غداة الاستقلال أيضا. وأشار تقرير البعثة إلى شخصين اعتمد عليهما في صياغة التقرير وهما السيد ميسوم صبيح الذي له خبرة أربع سنوات خدمة في وزارة التربية المغربية حيث كان مكلفا بالشؤون التشريعية. والثاني السيدة ابن تومي التي قدمت دراسة عن وضع الأقليات الأوروبية في الجزائر ومصيرها وكيف يمكنها أن "تساهم عضويا " في الدولة الجزائرية المستقلة، وقد أرسل مسؤول البعثة نسخة من عمل السيدة ابن تومي إلى الوفد دون إدماجه في تقرير اللجنة. وتاريخ التقرير الصادر عن مسؤول البعثة هو 15 مايو، 1961، الرباط، والتقرير مختوم بختم البعثة.

ورغم أهمية تقرير اللجنة فإنه لم يحدد المرجعية الثقافية للشعب الجزائري لينطلق منها في استشراف المستقبل. وسنحاول رصد ما في التقرير المطول من نقاط ثم نعود إليه بالتحليل. يقول التقرير :

- إن مائة وثلاثين سنة من الاحتلال الفرنسي هي المدة التي منع فيها الجزائري من الإبداع ومن النمو، وهي التي تميزت بظهور "الروح" الجزائرية نتيجة القمع. فعلى المفاوض أن يصل إلى بروتوكول خلال المرحلة الانتقالية بإزالة عدم التوازن الموجود حاليا بين اللغتين الفرنسية والعربية.

- فيما يتعلق بالتعليم والتربية الوطنية هناك قسمان وهما التسيير الإداري والتعليم المعروف. فالإدارة يجب أن تكون جزائرية والكف عن كونها مؤسسة تابعة لوزارة فرنسية، بل عليها أن تسمى بوزارة جزائرية للتربية الوطنية، وعلى المفاوض أن يلح بأن يتولى هذه الوزارة جزائري من أهل البلد بلقب وزير أو يتولى الإدارة العامة للتعليم التي ستنشأ والتي ستتولى الإشراف على كل التعليم.

- على المفاوض أن يستوحي مسألة التربية والتعليم من إنشاء تعليم إجباري

باللغة العربية، وهي اللغة الوطنية، بمعدل خمس ساعات في تعليم المستوى الابتدائي وسبع ساعات في تعليم المستوى الثانوي وتوسيعه إلى التعليم العالي. ولتحقيق ذلك يجب إجراء امتحان دخول باللغة العربية إلى كل الامتحانات المهنية للوصول إلى الوظيف العمومي. ويجب ألا تنسى البربرية التي هي اللغة الأم لعدد كبير من المواطنين. فيجب أن يوجد لها مكان في التعليم العالي لكي تحفظ وتتطور. كما يطلب من السلطات الفرنسية تنظيم تعليم اللغة العربية لأطفال وكبار الجزائريين بفرنسا. على أن تكون مصاريف هذا النوع من التعليم في فرنسا من الحكومة الجزائرية أو من الجالية نفسها في حالة ممانعة فرنسا.

- إعطاء الحرية لهذا التعليم في المدارس الخاصة، لا سيما بالنسبة للتعليم الديني. وهذا يعني حرية الدين الإسلامي مما يترتب عليه إعادة الأوقاف للدولة الجزائرية التي صادرتها فرنسا، أو الحصول على تعويض يماثلها، وإعادة فتح المدارس المغلقة منذ 1954 بإجراء إداري، مع إصلاحها وترميمها.

- إعادة النظر في البرامج والكتب سيما المتعلقة بالتاريخ والجغرافيا لتصفيتها من الشوائب والأخطاء وتخليصها من الأفكار المضللة أو المضرة بالمجموعتين الجزائريتين والتي تتعارض مع وحدة السكان، وإدخال تعليم مدني ينسجم مع المثل الأعلى الجزائري(؟)

- التخلص من الأحكام المسبقة التي عانى منها الجزائريون منذ فاتح نوفمبر 1954، وذلك بإعطاء الأولوية في التعليم للذين عانوا من الحرب والسجون والمحتشدات أو الذين كان عليهم مغادرة البلاد إلى الخارج، لكي يندمجوا ويصنفوا ويعوضوا.

كما أوصى التقرير بدمج المَعلمين الذين كانوا في المدارس المغلقة بإجراءات قمعية، في التعليم العام، لكن بشرط أن تجرى لهم دورات تربوية

مناسبة، لكي يعوضوا النقص في المعلمين، وهو أمر ضروري في تعليم سيتوسع باللغة العربية.

وأشار التقرير إلى ضرورة إجراء امتحانات استدراكية لتلاميذ الثانوي والعالي، وهي الامتحانات التي تأخرت نتيجة الثورة، كما يجب زيادة المنح. ونفس هذا الامتياز ينطبق على الطلاب الفرنسيين الذين تبنوا قضية الجزائر.

ومن جهة أخرى تكلم التقرير عن الشباب والحركات الشعبية والرياضية وعن المراكز الاجتماعية ومكافحة الأمية. وعن فتح المجال أمام المراكز الثقافية الأجنبية والسماح لها بإنشاء المعاهد والمكتبات... وعن تنشيط فتح النوادي الجزائرية لتشكيل الإنسان الجزائري الجديد، وتوفير المكتبات، وسحب بعض الكتب من التداول وإضافة أخرى كالتي تعالج الجغرافيا والتاريخ، ومراجعة التشريعات القائمة فيما يتعلق بفتح المقاصف (الملاهي)..

كما ألح على العناية بالفن والفولكلور وحصره في الشعر والأغاني والموسيقى والرقص والمسرح الشعبي والمنمنمات والتصوير والفنون التقليدية ذات الطابع الفني. ووعد بأن هذه الأمور ستجمع تحت إدارة مشتركة تقدم إلى أصحابها كل تشجيع وتعطيهم دفعة جديدة. وتحدث التقرير عن الصحافة والإذاعة والسينما باعتبارها أدوات إعلامية صرف أو باعتبارها ذات تأثير ثقافي. فهذه الوسائل الإعلامية الثلاث تلعب دورا ثقافيا هاما في الحياة العصرية.

وقد أدى هذا باللجنة إلى أن تقترح أن يكون هناك مسؤول جزائري للإعلام تساعده لجنة إدارية تخدم نفس الغرض (السينما، الصحافة، الإذاعة) خلال الفترة الانتقالية.

وأوصى التقرير بمنح الحرية لكل إنتاج أدبي أو فني أو إعلامي أو تربوي أو علمي بشرط ألا يسيء للأخلاق العامة والوحدة الوطنية، وبشرط أن يظل يسير في اتجاه التخلص من الاستعمار... وأن تظل جبهة التحرير هي المؤهلة

للإنتاج المتعلق بالنشر والتوزيع. ودعا إلى رفع الحظر المضروب على المنشورات المطبوعة في الخارج، خصوصا باللغة العربية، بحيث تدخل الجزائر مختلف الأعمال التربوية والمؤلفات والخرائط والأفلام والأقراص والأشرطة...

فيما يتعلق بالإذاعة ذكر التقرير أنه من المحتم إعادة النظر في حجم الساعات وإدخال الجزائريين في خدمتها إلى الحد الأقصى، وتقوية الإرسال ودعم الحصص باللغة العربية وتطويرها. كما طالب بوضع برنامج لتوجيه الحصص الأدبية والعلمية والمسرحية نحو التربية المدنية للجماهير ودعم الروح الوطنية.

واهتم التقرير حتى باللحن المميز للإذاعة فطالب بتغييره وإدخال النشيد الوطني الجزائري في برامج الإذاعة، وإشعار السلطة الفرنسية بعدم التدخل في الحصص الجزائرية. (أثناء المرحلة الانتقالية؟).

وبناء على التقرير فإنه توجد حاليا وكالة الأخبار الفرنسية A.F. P التي تحتكر أحداث الجزائر. وهي معروفة الصلة بالحكومة الفرنسية والدوائر الاستعمارية ... فمن الضروري الحد من نشاطها بتنظيمات جديدة محددة في انتظار إنشاء وكالة جزائرية فريدة مزدوجة اللغة. يقول التقرير ذلك مع أن أصحابه يعرفون أن للجزائر عندئذ وكالة رسمية للأنباء[1].

الثقافة في اتفاقيات إيفيان

بالرجوع إلى نصوص هذه الاتفاقيات نلاحظ أنها:

لم تكتب باللغة العربية ولم تترجم إليها قبل التوقيع عليها وأن الوفد الجزائري المفاوض كان حاضرا وكأنه يمثل بلادا فرنكفونية مثل كندا أو بلجيكا،

---

(1) الأرشيف الوطني، علبة 27، وليس للتقرير تاريخ مذكور معه، ولكن إعلان وقف إطلاق النار يرجع - كما هو معروف - إلى 19 مارس سنة 1962.

فكان يتخاطب مع الفرنسيين ويحرر وثائقه ومعاهداته بلغتهم لا بلغته. فموضوع السيادة اللغوية كان غائبا لدى الوفد.

والغريب أنه لم ينص في الاتفاقيات على أن العربية ستكون لغة الجزائريين في التعليم والإدارة والمعاملات بحيث لم تذكر العربية سوى مرة واحدة. فقد جاء في إعلان المبادى أن المناهج التي تسير عليها المنشآت التعليمية التي تؤسسها كل بلاد في البلد الآخر تعلم لغة الآخر - فالجزائر تعلم العربية في مدارسها بفرنسا وفرنسا تعلم العربية في مدارسها بالجزائر. كما نص على أن كل بلد يشجع دراسة اللغة والتاريخ وكذلك الحضارة الخاصة بالبلد الآخر.

وقد ركزت الاتفاقيات على احترام وتعليم اللغة الفرنسية في الجزائر بالنسبة للفرنسيين الذين كان متوقعا بقاؤهم بعد الاستقلال سواء كانوا من حملة الجنسية الفرنسية أو الذين اختاروا الجنسية الجزائرية، بحيث يمارسون اللغة الفرنسية في الحياة السياسية والإدارية والقضائية والتعليم.

ويفهم من سياق النص وإلحاح الصائغ أن الثقافة الفرنسية، ممثلة في التعاون العلمي والتعليمي والتقني والفني ستكون هي السيدة في الجزائر.

وإليك بعض التفاصيل. فالاتفاقيات نصت على أن تضمن الجزائر مصالح فرنسا والحقوق المكتسبة للأفراد الحقيقيين والمعنويين بالشروط التي تحددها هذه الاتفاقات. فإذا فعلت الجزائر ذلك فإن فرنسا ستقدم إليها المساعدة الفنية والثقافية... وبعد الحديث عن التعاون الاقتصادي والاجتماعي والمالي تقول الاتفاقيات إن فرنسا ستبقى على القوانين واستغلال ثروات الصحراء والتعدين وأنها مع الجزائر ستنقى العلاقات الثقافية بحيث يستطيع كل بلد إنشاء مكتب ثقافي وجامعي في البلد الآخر. وهذه المنشآت ستفتح أمام الجميع، وتتعهد فرنسا بتقديم مساعدتها لإعداد الفنيين الجزائريين وستضع الحكومة الفرنسية موظفين فرنسيين لدى الحكومة الجزائرية، وخاصة المدرسين والفنيين[1] .

---

(1) ابن خدة، اتفاقيات إيفيان، الترجمة العربية، ط. 2002، ديوان المطبوعات الجامعية.

وفيما يتعلق بالمعتقدات وحرية التعليم واللغة الفرنسية نصت الاتفاقيات على ضرورة التقيد بحرية المعتقدات للجزائريين الذين سيخضعون للقانون المدني العام (أي الفرنسيين الذين سيصبحون جزائريين)، وكذلك ضمان حرية إقامتهم للشعائر الكاثوليكية والبروتيستانتية واليهودية، وحرية تنظيم هذه المعتقدات وممارستها وتعلمها وحرمة أماكن العبادة. لقد وردت هذه العبارات رغم أن فرنسا طبقت فصل الدين عن الدولة منذ 1905 على النصرانية واليهودية ولم تطبقه على الإسلام، كما عرفنا. ومما يلاحظ أن الوفد الجزائري لم يحرص على تضمين نصوص مشابهة في الاتفاقيات بالنسبة للجزائريين الذين يعيشون في فرنسا. فهؤلاء الجزائريون ليس لهم ضمانات لإقامة شعائرهم الدينية وحرية بناء المساجد مثلا، وتعلم دينهم ولغتهم، كما حرص الوفد الفرنسي.

كما حرص الوفد الفرنسي على أن النصوص الرسمية التي تصدرها الحكومة الجزائرية المقبلة تنشر أو تبلغ باللغة الفرنسية وباللغة الوطنية (كذا) أيضا (دون تسمية هذه اللغة ولا الحديث عنها من قبل). كما تستخدم اللغة الفرنسية في المعاملات بين المرافق العامة الجزائرية وبين الجزائريين الخاضعين للقانون المدني العام. ولهؤلاء الجزائريين الحق في استخدام اللغة الفرنسية، خاصة في الحياة السياسية والإدارية والقضائية، كما سبق، بمعنى آخر أنهم غير ملزمين بتعلم اللغة العربية ولا باستعمالها في مختلف أنماط حياتهم.

إن الوفد الجزائري قد غض الطرف عن مسألة أخرى هي المنشآت التعليمية. فللفئة الفرنسية الباقية في الجزائر الحق في اختيار منشآت التعليم وأنظمته، كما لها الحق في إنشاء وإدارة المؤسسات التعليمية الخاصة بها. ولها الحق كذلك في الالتحاق بالأقسام الفرنسية التي ستنظمها الجزائر في منشآتها التعليمية طبقا لما جاء في إعلان المبادى الخاصة بالتعاون الثقافي. وإضافة إلى ذلك فإن على الإذاعة والتلفزيون تخصيص جزء من إذاعتها باللغة الفرنسية

يتناسب مع أهمية هذه اللغة في الجزائر (كذا)[1].

وتستمر الاتفاقيات في إعطاء الأولية للغة الفرنسية بقولها إن الرعايا الفرنسيين لهم الحق في استعمال اللغة الفرنسية في جميع علاقاتهم مع القضاة والإدارة. ولهم الحق أيضا في فتح منشآت تعليمية خاصة بهم وأداتها للبحث والتعليم. ومن جهة أخرى على الجزائر أن تفتح لهم أبواب مؤسساتها التعليمية، ولهم الحق أيضا في الالتحاق بالأقسام الفرنسية المذكورة في إعلان المبادى الخاصة بالتعليم المجاني[2].

وإعلان المبادى الذي طالما أشارت إليه الاتفاقيات ينص - في المجال الثقافي - على أن فرنسا ستمد الجزائر بالمدرسين والفنيين والوسائل اللازمة لتطوير التعليم والبحث، بما في ذلك التفتيش وإجراء المسابقات والامتحانات. وللبلدين الحق في إقامة منشآت تعليمية ومعاهد جامعية في البلد الآخر. ولرعايا كل بلد حرية الالتحاق بهذه المنشآت والمعاهد.

وستتضمن هذه المنشآت مناهج تسير على ضوئها في التعليم، بما في ذلك تعليم اللغة العربية في الجزائر واللغة الفرنسية في فرنسا. على أن يشجع كل من البلدين في أرضه دراسة اللغة والتاريخ والحضارة الخاصة بالبلد الآخر[3].

إن مقارنة بسيطة بين نصوص وبرامج الثورة من بيان أول نوفمبر إلى برنامج طرابلس تساعد على تحديد مسار الثورة الفكري. هل كانت تسير وفق استراتيجية واضحة منذ البداية بحيث تقف على أرضية إيديولوجية راسخة محددة المعالم، كما ذهب إلى ذلك ابن خدة وحتى فرحات عباس ومن سار على رأيهما، أو كانت ثورة تحريرية عليها بعد استرجاع الاستقلال فقط أن

(1) نفسه، ص 100.

(2) نفسه، ص 103.

(3) نفسه، ص 117-118.

تتحول إلى ثورة عقائدية كما ذهب إلى ذلك محررو برنامج طرابلس الذي وافق عليه أعضاء مجلس الثورة بالإجماع، وهو البرنامج الذي اختار المذهب الاشتراكي للثورة العقائدية رغم اعترافه بأن الشعب الجزائري كان معتزا بانتمائه إلى الحضارة العربية الإسلامية وأنه عبر عن هذا الاعتزاز والارتباط قبل الثورة حين أنشأ المدارس العربية الحرة التي بناها من تبرعاته وصانها.

والغريب أن يكتفي محررو برنامج طرابلس بهذه الإشارة إلى تعلق الشعب بانتمائه الحضاري دون الرجوع إلى المرجعيات الأساسية المتمثلة في عرائض النخب المدنية خلال القرن التاسع عشر، وهي العرائض المطالبة بالتعليم العربي الإسلامي وإعادة الأوقاف إلى أهلها المسلمين ليوظفوها في التعليم كما كانوا في السابق، ولم يشيروا إلى مقاطعة المدارس الفرنسية في الأرياف، واغتراب الجزائريين من أجل التعلم في المعاهد الإسلامية التي اختفت من بلادهم... ورفض الشعب التخلي عن أحواله الشخصية الإسلامية رغم المغريات بمنح المواطنة الفرنسية والتمتع بجميع الحقوق التابعة لها، كما حصل مع يهود الجزائر.

ولك بعد ذلك أن تقارن بين حرص الوفد الفرنسي على الحصول على امتيازات وضمانات للغة والثقافة الفرنسية في اتفاقيات ايفيان في الجزائر المستقلة وبين تحفظات وتحذيرات اللجنة التي صاغت برنامج طرابلس فيما يتعلق باللغة العربية وموافقة المجلس الوطني عليها.

العلاقة الثقافية بين ما جاء في تقرير صبيح واتفاقيات إيفيان

في التصريح الذي أعلنته الحكومة المؤقتة للشعب الجزائري غداة التوقيع على اتفاقيات إيفيان ووقف إطلاق النار جاء أن الاتفاقيات قد حققت: الوحدة الترابية، واستقلال الجزائر، والاعتراف بوحدة الشعب الجزائري، وتخلي فرنسا عن مفهومها القاضي بأن الجزائر خليط من الجاليات المختلفة، والاعتراف بالشخصية الوطنية للشعب الجزائري صاحب الثقافة العربية الإسلامية التي

التحمت في لهيب المعركة من أجل الاستقلال[1].

وإذا كانت العناصر الأربعة الأولى في هذا التصريح لا تهمنا هنا فإن العنصر الخامس يهمنا لأنه يحتوي على عبارة مفتاحية وهي أن الشعب الجزائري هو صاحب الثقافة العربية الإسلامية وأن هذه الثقافة قد انصهرت عبر الزمن في لهيب المعركة. والمتأمل جيدا في هذه العبارة يلاحظ عليها عدة ملاحظات.

أولا: الاعتراف بأن الشعب الجزائري يمثل الثقافة العربية الإسلامية، ومن ثمة فهو شعب له هوية أقدم من معركة الاستقلال ومن الاحتلال.

ثانيا: أن وحدة الشعب قد التحمت ليس بالإجراءات والتلفيق والتفاهمات ولكن في المعارك الحديثة والقديمة دفاعا عن هويته واستقلاله.

ثالثا: كان المتوقع ألا يتقيد المفاوضون بين الوحدة والثقافة والهوية وبين معركة الاستقلال، ذلك أن الشخصية الوطنية ليست وليدة ثورة نوفمبر وحدها ولكنها ممتدة عبر عصور طويلة.

إلى أي مدى تضمنت اتفاقيات إيفيان محتوى تقرير اللجنة الثقافية التي أسميناها بلجنة ميسوم صبيح؟ إن على المرء أن يعود إلى الاتفاقيات ويقارن بين ما أخذ به الوفد المفاوض وما تركه في الأرشيف. ثم إن الاتفاقيات وما حوته يتعلق بعهد الاستقلال، ونحن إنما ندرس فترة الثورة نفسها.

أما التقرير فقد تضمن تركيزا خاصا على أمور نريد إجمالها فيما يلي:

- التعليم الوطني (الاستعمار منع الجزائريين من التعلم طيلة 130 سنة)
- عدم تحديد المرجعية الثقافية
- ضرورة إدارة جزائرية للتعليم (وزارة) أو إدارة عامة بإشراف جزائري.
- على المفاوض أن يصل مع الطرف الآخر إلى النص على مرحلة انتقالية لسد الخلل الذي تركته 130 سنة بالنسبة للغة العربية والفرنسية.

---

(1) النصوص الأساسية، مرجع سابق، ص 151.

- على المفاوض أيضا أن يستوحي (يوجه) التربية والتعليم من إنشاء تعليم إجباري باللغة العربية، وهي اللغة الوطنية، وذلك بجعلها إجبارية في كل امتحان دخول إلى الوظيف العمومي، دون نسيان اللغة البربرية التي هي اللغة الأم لعدد كبير من المواطنين، فيجب أن يوفر لها مكان في التعليم العالي، لكي تحفظ وتتطور. ويطلب المفاوض الجزائري من فرنسا أيضا تعليم اللغة العربية لأطفال وكبار الجزائريين لفرنسا، على أن تكون مصاريف هذا التعليم على الحكومة الجزائرية أو على الجالية.

- إعطاء الحرية للتعليم الخاص، سيما التعليم الديني، وهذا يعني حرية الدين الإسلامي وهو يعني أيضا إرجاع الأوقاف للدولة الجزائرية أو تعويضها.
- إعادة النظر في كتب التاريخ والجغرافية.
- تعيين مسؤول جزائري في الإعلام خلال المرحلة الانتقالية، (والإعلام هنا يعني الإذاعة، السينما، الأفلام، الفنون الشعبية...).

الثقافة في نصوص الطلبة

إذا كان يهمنا رأي جميع شرائح القيادة الجزائرية في الثقافة الوطنية أثناء الثورة، فمن باب أولى يهمنا رأي الطلبة الذين هم الشريحة الأقرب إلى المسألة الثقافية ماضيا وحاضرا ومستقبلا. وقد قال الطلبة كلمتهم في الثقافة في مناسبات عديدة. ونريد أن رصد بعض آرائهم التي عبروا عنها في لوائحهم وبياناتهم وتصريحات قادتهم، خصوصا وأن بعضهم قد أصبح بعد الاستقلال مسؤولا في الدولة التي ناضل من أجلها وأتيحت له فرصة خدمة أو عرقلة الفكرة التي آمن بها أثناء الثورة.

في اللائحة المتعلقة بالعالم العربي الصادرة عن مؤتمر الطلبة الرابع أن المؤتمر "يؤكد من جديد على تعلقه بالثقافة العربية الإسلامية وبوحدة العالم العربي... لأن الجزائر تعد جزءا لا يتجزأ من العالم العربي بتاريخها وتقاليدها

وثقافتها العربية الإسلامية" (1).

كما وجه اتحاد الطلبة مذكرة إلى هيئة الأمم المتحدة حلل فيها الوضع الثقافي والتعليمي في الجزائر عشية عرض قضيتها على الجمعية العامة. وقد اشتكى الطلبة من الاضطهاد الثقافي:

- فرض الاستعمار مبادى ثقافية وأدخل قيما أجنبية على الشعب بعد تجريده من حضارته.
- صيّر الاستعمار اللغة الوطنية لغة أجنبية، بينما هي الوعاء لحضارته، وهو تصرف يرمي إلى محو الشخصية الجزائرية.
- عند الاحتلال وجدت فرنسا شعبا له حضارته العريقة وقيمه، شعبا متعلما وليس أميا.
- نتيجة الحروب هدمت المدارس والمراكز الثقافية واغتصبت الأوقاف التي كانت في خدمة الثقافة والعبادة.
- التعلم السائد في الجزائر ليس له خصوصية بل هو تعلم مطابق لما هو في فرنسا. فهو يهدف إلى إدماج الجزائريين لأنه تعليم موقوف على الفرنسيين، ولم يستفد منه إلا القليل من الجزائريين.

وبعد ذلك قدمت المذكرة إحصاءات عن التعليم بين المسلمين (الجزائريين) والفرنسيين في المستوى الابتدائي والثانوي والعالي والتعليم العربي الحر. وخلصت المذكرة إلى أن نسبة الأمية في الجزائر بلغت 80٪ (2).

ونختم علاقة الطلبة بموضوع الثقافة الوطنية برأي أحمد طالب الإبراهيمي باعتباره كان أول رئيس لاتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين وباعتبار تعليقه جاء على نتائج المؤتمر الرابع للاتحاد الذي انعقد في تونس (1960) وكان

---

(1) المجاهد 74، 8 أغسطس 1960.

(2) المقاومة الجزائرية 9، 18 مارس 1957. عن المذكرة أنظر فصل التعليم والتنظيمات الطلابية.

الإبراهيمي عندئذ في السجن بفرنسا. فقد كتب إلى رئيس الاتحاد عندئذ وهو مسعود أية شعلال مستغربا كيف لم يتعرض المؤتمر إلى انتساب الجزائر للعروبة والإسلام بينما صرح بذلك كريم بلقاسم أصالة عن الحكومة المؤقتة. وأضاف أنه ليس من حق الاتحاد السكوت على مثل هذه القضية لأن الثقافة هي مجال الاتحاد "ولا مفر من أن يكون لعروبتنا محتوى ثقافي في جوهره"[1].

هذه النصوص كلها تؤكد على انتماء الجزائر الحضاري العربي الإسلامي والإيمان بالوحدة العربية والمصير المشترك، وبأن الجزائر جزء من الأمة العربية الإسلامية. إنها نصوص صيغت في معظمها أيام الكفاح عندما لم يكن هناك مجال للمراوغة والتفلسف البيزنطي. ومع ذلك جاء من يتساءل اليوم عن هوية الجزائر ويثير الشك حول مسألة المواطنة.

للثورة إيديولوجيتها الخاصة؟

كان السيد ابن يوسف بن خدة مصرا على أن للثورة إيديولوجيتها وقد عبر عن ذلك في كتابه شهادات ومواقف. وابن خدة ليس بالرجل العادي فهو الذي ترأس الحكومة المؤقتة سنة 1961 وسار بها المشوار الباقي على الاستقلال والذي تمت في عهده مفاوضات إيفيان وصادق في عهده المجلس الوطني للثورة على برنامج طرابلس. ثم إنه قبل هذا وذاك سياسي مثقف ومناضل من الجيل الثاني في حزب الشعب.

فمن رأيه أن "للثورة الجزائرية استراتيجيتها وأسلوبها الخاص في مجابهة التحديات.. وقد استطاعت أن تكيف مع الزمن وسائل كفاحها حسب مفهومها الخاص النابع من إرادتها والمنسجم مع حجم إمكانياتها، والمنبثق من إيديولوجيتها التي أعلنتها منذ الفاتح من نوفمبر 1954، ألا وهي الكفاح بجميع الوسائل" لتحقيق الهدف المنشود وهو الاستقلال وتكوين دولة جزائرية

---

(1) أحمد طالب، رسائل من السجن، تعريب مصطفى مازيغ، تونس، 1965. عن هذا الكتاب انظر لاحقا.

ديموقراطية اجتماعية ذات سيادة في إطار المبادى الإسلامية. "ولقد ظلت جبهة التحرير وفية - في نظره - لهذا المبدأ طوال سنوات الحرب[1].

لقد وضع ابن خدة خطا واضحا بين عقيدة الجماهير وعقيدة النخبة بالنسبة لهذه الإيديولوجية الثورية. فالجماهير كان حافزها الجهاد دون أن يكون في استطاعتها التعبير عما يحتويه من مفاهيم اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية... أما النخبة، وهو يسميهم قادة المعركة، فقد كانوا في الخارج وكانوا متأثرين بالثقافة الأوروبية ومنها الإيمان بالاشتراكية وفضائلها، ولكن عن حسن نية...

وربما هذا تبسيط ساذج للموضوع خصوصا عندما يدخل حسن النية. فالاشتراكية قناعة وعقيدة وليست تأثرا يمكن التخلص منه أو حلية تلبس ثم تنزع. وابن خدة نفسه يقول إن قادة المعركة بالخارج لم يحللوا الاشتراكية ولم يتعمقوا في معانيها ويقارنوا بينها وبين الإسلام الذي هو أساس هوية الجزائر الثقافية وضميرها الوطني... وهنا انعكس التخلف الثقافي الذي كانت فيه البلاد إبان الاستعمار، مما أحدث فجوة وتناقضا بين القمة والقاعدة داخل الثورة. وقد ربط ابن خدة بين الفجوة خلال الثورة وغداة الاستقلال، فبينما استطاعت الجبهة أن تتفادى الخلافات الفكرية الداخلية أثناء الثورة فإنها لم تستطع أن تمنع تفجرها غداة الاستقلال، عندما تحول الأمر إلى صراع على الحكم، وهو الصراع الذي وصفه ابن خدة نفسه بالانقلاب الذي حطم وحدة جبهة التحرير وفتح الباب أمام الانتهازيين والمغامرين وأصحاب المذاهب الأجنبية اليسارية والماركسية وتسرب أصحابها إلى هياكل الدولة والحزب ومراكز القرار والنفوذ، ومن هنا بدأ انحراف الثورة في نظره عن إيديولوجيتها. والملاحظ أن أمثال ابن خدة قليل في الكتاب والمفكرين الجزائريين الذين تمسكوا بأن للثورة فكرها وفلسفتها النابعة من التراث العربي الإسلامي. ولا

(1) ابن خدة، شهادات ومواقف، دار النعمان، الجزائر، 1425/ 2004، ص 133.

شك أن للتيار اليساري أيضا رأيه في إيديولوجية الثورة، فهي في رأيهم مستمدة من التناقض الطبقي والبورجوازية المدعومة من الاستعمار[1].

الثقافة في الإعلام الرسمي

لعل الحديث عن الثقافة في الإعلام الرسمي لا يتم إلا بربطه بالتعريب، ونعني هنا الإعلام الموجه إلى الشعب الجزائري وإلى جمهور الوطن العربي الذي رأى في الثورة الجزائرية وسيلة الخلاص له من ربقة الاستعمار والإمبريالية فاحتضنها. فكيف عالج إعلام جبهة التحرير المسألة اللغوية مثلا؟ إن النشرات الخبرية في صوت الجزائر كانت. في الجزائر والبلاد العربية باللغة العربية بالأساس سواء في برامجها أو في عدد حصصها. ونقصد هنا العربية الفصحى والعربية الدارجة. وكانت جريدة المجاهد نفسها مزدوجة اللغة (عربية-فرنسية)، كما كانت معظم النشرات الصادرة عن وكالة الأنباء الجزائرية. وكانت البرامج الموجهة من صوت العرب والإذاعة المصرية الدولية باللغتين أيضا[2].

وقد أوضح السيد محمد يزيد وزير الأخبار في الحكومة المؤقتة سنة 1959 عندما كان يتحدث عن نظام الدعاية والتوجيه الموجه إلى الخارج والداخل قائلا: إن الوسائل الدعائية والنفسية والمادية للحكومة الآن محدودة، ولذلك قررت دعم هذه الوسائل وإمدادها بالقوة البشرية اللازمة. وقال إن إعلامنا موجه إلى الخارج ولا سيما الرأي العام الفرنسي. وأن "الشعب الجزائري شعب عربي ولغته (هي) العربية. لذلك تولي وزارة الأخبار عناية خاصة بوسائل تعريب دعايتنا في المنشورات والإذاعات معا." ومما يلاحظ بهذا الصدد أن هذا التصريح كتبته المجاهد بالحرف الكبير مع صورة الوزير.

وفي نظر الوزير يزيد أن لجوء الاستعمار إلى سياسة الاندماج مع طول

---

(1) ابن خدة، شهادات ومواقف، مرجع سابق، ص 106.
(2) انظر ذلك في محله في فصل الإعلام والثورة.

العهد قد أضعفت من الوسائل البشرية في ميدان التعريب. لكن الثورة قد تمكنت من تهيئة الإطارات المعربة الكافية في ميدان الدعاية حتى يكون "باستطاعتنا أن نواجه حاجتنا بعد الاستقلال من الإطارات العربية اللازمة سواء كانت صحافية أو ثقافية[1].

ولكن الحكومة المؤقتة والمسؤولين في الاجتماعات الرسمية كانوا يتناقشون - كما سبق - باللغة الفرنسية أو كما اتفق، وكانت المحاضر تكتب باللغة الفرنسية بما في ذلك محاضر مؤتمر الصومام واجتماعات المجلس الوطني ولجنة التنسيق والتنفيذ واتفاقيات إيفيان وبرنامج طرابلس وبيان أول نوفمبر. ومعظم هذه النصوص الحيوية عرفت العربية عن طريق الترجمة فقط، كما أن اتفاقيات إيفيان لم تكتب إلا باللغة الفرنسية دون الأخذ في الاعتبار مسألة السيادة التي كان قادة الثورة يلحون عليها. وإذا كانت وثائق الثورة الأخرى (بيان أول نوفمبر والصومام وطرابلس. .) قد كتبت أصلا بالفرنسية ثم ترجمت وكانت وثائق جزائرية محض فإن إيفيان كانت عبارة عن تعاهد بين طرفين بل بين حكومتين، ومع ذلك لم تكتب نسخة منها بالعربية التي طالما تحدث قادة الثورة على أنها اللغة الوطنية المضطهدة للشعب الجزائري ولغة تراثه وثقافته الممتدة عبر العصور.

ويبدو أن المكاتب الإعلامية في البلاد العربية كانت تتعامل باللغة العربية مع سلطات البلاد التي هي فيها ولكنها تتراسل بالفرنسية مع رئاسة الوفد الخارجي قبل تأليف الحكومة ثم مع وزراء الحكومة بعد تأليفها، كما يظهر من وثائق هذه الحكومة المتوفرة الآن في الأرشيف الوطني. وأثناء البحث في الوثائق لاحظنا اختلافا حتى في اتخاذ الأختام الرسمية. فبينما كان ختم وزارتي الثقافة والخارجية مكتوبا كله باللغة العربية كان ختم وزارة القوات المسلحة

(1) المجاهد 41، أول مايو 1959.

وختم نائب الرئيس مكتوبين بالفرنسية[1].

ومنذ سنة 1956، أي بعد مؤتمر الصومام أرسل رمضان عبان، باسم لجنة التنسيق والتنفيذ، رسالة إلى "الإخوان في تونس" مؤرخة في 21 نوفمبر تقول إن اللجنة اتصلت من سي إبراهيم مزهودي برسالة مكتوبة بالعربية. وطلب منهم (وهم علي محساس، وإبراهيم مزهودي نفسه، ومصطفى بن عودة، ومولود قائد المعروف رشيد) أن يكتبوا مستقبلا رسائلهم وتقاريرهم بالفرنسية "تفاديا لطلب ترجمة أسرارنا إلى مترجم"[2].

إن المبرر الذي استند عليه رمضان عبان غير مقنع طبعا، لأن نفس المبرر ينطبق أيضا على اللغة الفرنسية بالنسبة لمن لا يعرفها وأيضا على اللغات الأخرى التي قد ترد بها المراسلات. ثم إنه مبرر يتجاهل تماما مسألة الهوية الثقافية الوطنية. بالعكس فقد كان المقاومون القدماء يموهون على العدو بالكتابة بلغتهم العربية التي لا يعرفها الفرنسيون إلا عن طريق الترجمة[3].

الثقافة في برنامج طرابلس

برنامج **طرابلس** يشار به إلى آخر وثيقة أصدرتها الثورة الجزائرية قبل أن يدخل قادتها إلى بلادهم بعد سنين من العيش خارجها. والوثيقة صادرة عن الدورة الرابعة للمجلس الوطني للثورة الجزائرية (البرلمان)، وهو أعلى مؤسسة مخولة للثورة الذي انعقد في **طرابلس** بليبيا. وكان جدول الأعمال في هذه الدورة يتألف من نقطتين أساسيتين:

- صياغة برنامج أو منهج عمل فكري (إيديولوجي) تسير عليه الجزائر المستقلة.
- انتخاب هيئة أو مكتب سياسي على رأس جبهة التحرير الوطني التي ستصبح

(1) الأرشيف الوطني، علبة 21-50.

(2) رسالة مزهودي تاريخها 16 نوفمبر، ورسالة عبان موقعة فقط باسم - رمضان - وهو اسم رمضان عبان. أنظر مبروك بلحسين، بريد الجزائر- القاهرة 1954-1956، ص206.

(3) فيما يتعلق بالترجمة انظر الأجزاء السابقة من تاريخ الجزائر الثقافي.

هي الحزب السياسي الوحيد الذي بيده السلطة في الجزائر.

قبل الاجتماع ببضعة أشهر كانت الحكومة المؤقتة قد عهدت إلى لجنة من المثقفين الخبراء بوضع برنامج يقدم إلى مجلس الثورة عند اجتماعه المتوقع في طرابلس. كانت هذه اللجنة تتألف في أغلبها من عناصر معروفة باتجاهها الاشتراكي الماركسي والعلماني المفتوح ولكنها عناصر مناضلة ساهمت في الثورة في المجالات المحددة لها من الإعلام إلى الديبلوماسية إلى الاتصالات... والأعضاء هم مصطفى الأشرف ومحمد حربي ومحمد الصديق بن يحي ورضا مالك. كان الأشرف كاتبا اجتماعيا ومؤرخا للحركة الوطنية وكان من المخطوفين في الطائرة المغربية مع بعض قادة الثورة سنة 1956. وسبق لحربي أن عمل في جهاز الحكومة المؤقة بالقاهرة. وشارك محمد بن يحي في نفس الجهاز وفي المفاوضات مع الفرنسيين آخرها كانت إيفيان. وكان رضا مالك مسؤولا على جريدة المجاهد بنسختيها العربية والفرنسية في تونس. أما الميلي فكان من مدرسة جمعية العلماء، وكان عندئذ مسؤولا على تحرير الطبعة العربية من المجاهد. وجميعهم تقريبا مارسوا الديبلوماسية قبل اجتماعهم في اللجنة. ومن تشكيلة اللجنة نتوقع ماذا سيصدر عنها من أفكار بشأن تفسيرها للثقافة الجزائرية ورصد مستقبلها.

وبعد عدة أسابيع خرجت اللجنة بمسودة الوثيقة التي أصبحت تسمى (بعد الموافقة عليها من المجلس) ببرنامج طرابلس. وتكاد المصادر تجمع على أن البرنامج لم يكن محل نقاش في المجلس بل تمت الموافقة عليه بسرعة وبالإجماع. أما النقطة التي أثارت الجدل والخلافات الحادة بل والانشقاق فهي تشكيل المكتب السياسي، فهذه المسألة هي التي فجرت الاجتماع وأفاضت الكأس لأن الرفقاء انفضوا دون اتفاق نهائي مما جعلهم يدخلون الجزائر مشتتين لا موحدين. وهكذا بقي البرنامج موحدا والقيادة ممزقة. وهذا فصل من تاريخ الجزائر لا يعنينا هنا.

إنما الذي يعنينا هو المحتوى الثقافي للبرنامج وسرعة الموافقة عليه: هل

كان ذلك دليلا على صحة محتواه أو عدم الاهتمام به أصلا؟ يبدو أن ذلك يشمل الاثنين معا. أولا نلاحظ أن أعضاء اللجنة قد توزعوا المهام فمنهم من كتب الديباجة وتناول الخط التاريخي والفلسفي للمشروع، ومنهم من كتب له الرؤية الاقتصادية، ومنهم من كتب عن الرؤية المستقبلية للثقافة. ثانيا نلاحظ أنه ليس كل أعضاء المجلس كانوا قادرين على فهم ومناقشة وثيقة عميقة الفكر تتحدث عن التجارب المعاصرة في الاقتصاد والفكر وتحيل على مراجع أوروبية قديمة وحديثة. ثالثا ليس كل الأعضاء كانوا مهتمين بالمستقبل بقدر اهتمامهم بالحاضر، كيف سيدخلون الجزائر وما موقعهم في التركيبة السياسية الجديدة. ولذلك فإن الموافقة السريعة على البرنامج ليس دليلا على التوافق والرضا، فمعظم الحاضرين لم يعطوا البرنامج الاهتمام الجدير به. وهكذا بقي البرنامج لا يلزم بالأساس حتى الذين وضعوه.

تحدث البرنامج على التوجه الثقافي للجزائر المستقلة ولكن مرجعيته كانت أوروبية لا عربية إسلامية، فإذا ذكرت الحضارة الإسلامية فإن محرري البرنامج يسارعون إلى وضع النعوت والتحديدات لها حتى لا تفهم على إطلاقها أو أنهم يتبنونها لتسيير الجزائر المستقلة. أما الذي ركز عليه البرنامج بالتعريف والتحليل فهو الميزات الثلاث للثقافة الجزائرية الجديدة وهي **الوطنية والعلمية والثورية**. وقد تكرر وصف العلمية أكثر من مرة مما يفهم منه أن الاشتراكية المبشر بها هي اشتراكية علمية، أي الماركسية رغم أن محرري الوثيقة لا يكتبونها صراحة. ولعل هذا ما جعل ابن خدة يصف أصحاب هذه الاشتراكية بحسن النية. وهو الذي رأى أن الاشتراكية المتفق عليها في طرابلس والتي تبناها مؤتمر الجزائر(سنة 1964) قد تحولت في ميثاق سنة 1976 إلى اشتراكية علمية. أي ماركسية-لينينية، وهي في نظره تختلف تماما عن الإسلام لأنها نظرية مادية محض وتدعو صراحة إلى صراع الطبقات[1].

---

(1) ابن خدة، مرجع سابقا، ص 162.

تقول ديباجة برنامج طرابلس في شيء من الادعاء والزهو الفكري إنه من الضروري خلق فكر سياسي واجتماعي تغذيه مبادى علمية لتحميه من ترهات الفكر. والغالب أن المقصود بهذه الترهات هو الخرافات المنسوبة عادة إلى الفكر الإسلامي في العصور الوسطى. وتلح الديباجة أيضا على أنه من الأهمية بمكان إحداث تصور جديد للثقافة الجزائرية وهو أن تكون وطنية وثورية وعلمية: فهي وطنية باعتبارها تمثل "مرحلة أولى في إعطاء اللغة العربية المعبرة الحقيقية عن القيم الثقافية لبلادنا كرامتها ونجاعتها كلغة حضارة." فهذه اللغة هي التي ستعيد بناء التراث الوطني وتقييمه والتعريف بإنسانيته المزدوجة القديمة والحديثة لإدخالها في الحياة الفكرية وتربية الشعور الوطني. وهي التي ستحارب الهيمنة الثقافية والتأثير الغربي (الفرنسي) اللذين ساهما في تلقين الكثير من الجزائريين احتقار لغتهم وقيمهم الوطنية.

أما بصفتها ثورية فستعمل الثقافة على تحرير شعب يعمل على التخلص من مخلفات الإقطاع والخرافات والعادات الفكرية والتقليدية، إنها ليست ثقافة فئة تسد أبوابها عن التقدم وليست ترفا فكريا، بل هي ثقافة تساعد على تطوير الوعي الثوري في الجماهير.

وأما بصفتها ثقافة علمية فيجب أن يظهر في وسائلها وأبعادها، ومعنى العلمية هنا هو أنها "ثقافة عقلية ذات تجهيزات تقنية"، فهي تشجع على روح البحث المنهجي وتسير على هداه في جميع المستويات، بما في ذلك المستوى اللغوي، لأن "اللغة العربية، باعتبارها وسيلة ثقافية علمية وعصرية، قد تخلفت، ويجب ترقيتها حتى تقوم بدورها في المستقبل بأساليب علمية ومهذبة جدا." وهذا الشرط لتأهيل اللغة العربية قد استمر استعماله إلى الوقت الحاضر. فكلما دعا الداعي إلى استعمال اللغة العربية واجهه أنصار هذا الرأي بهذا الشرط التعجيزي رغم أنهم يدركون أن من شروط ترقية اللغة علميا استعمالها في الميدان.

ومن جهة أخرى ألح البرنامج على نشر التعليم بين الجميع حتى تشيع روح العمل ويرتفع الإنتاج. . . وخاطب الطليعة الثورية بأن عليها إعطاء المثل للشعب. ومن ثمة يجب التنديد بشدة بنزعة جحود المجهود الفكري وعدم تقدير الكفاءات، والتنديد كذلك بالدعوة إلى معاداة المثقفين التي تظهر من وقت إلى آخر.

وقد استدرك البرنامج، كما كان متوقعا، فحذر مما أسماه أخلاقيات البرجوازية الصغيرة ومن توظيف الإسلام لأغراض ديماغوجية، معترفا بالانتماء حقا للحضارة الإسلامية التي أثرت في تاريخ البشرية. لكننا سنسيء إلى هذه الحضارة في نظر واضعي البرنامج، إذا نحن اعتقدنا أن النهوض بها يخضع لصيغ ذاتية بسيطة في السلوك العام وفي ممارسة الشعائر الدينية. ويبدو أن أصحاب البرنامج لم يفرقوا في هذا الصدد بين الإسلام كعقيدة وممارسات ذاتية وبين الحضارة الإسلامية كإنتاج جماعي وإبداع فكري مشترك[1].

ومما يلاحظ أن البرنامج كرر أيضا عبارات الطليعة والطليعة الثورية. وأعطى لها حجما كبيرا في سياق العمل لبناء الجزائر الجديدة. فهي التي ستقود البلاد (عن طريق حزب طليعي) وتضع العقائد وتمهد الطريق أمام العامة، وهي التي ستعلم الفلاحين، وهي التي ستعطي المثل لرفع المستوى الثقافي للمواطن، وتطور الإسلام (كذا) وتخرجه من المفاهيم البالية، وتندد باستعمال الإسلام لأغراض ديماغوجية، موضحة أن الحضارة الإسلامية في الماضي كانت نتاج فكر وعمل، أي ثقافة واقتصاد. وكان في هذه الحضارة استعمال لمنهج البحث العلمي وانفتاح عقلي على الثقافات الأجنبية وعالمية العصر (وهو شعور مبكر بالعولمة)، وكان بينها وبين الحضارات الأخرى تبادل خصب.

وقد ندد البرنامج بالحنين إلى الماضي المرادف في نظر محرريه للعجز والبلبلة. والمقصود هنا في أغلب الظن هم دعاة التمسك بالتراث والمحافظة

(1) نصوص أساسية لجبهة التحرير الوطني، مرجع سابق، ص 41.

عليه لذاته. ومن جهة أخرى دعا محررو البرنامج إلى تخليص الإسلام مما أسموه بالبدع والأوهام التي كبلته ومست جوهره لكي يظهر على حقيقته في الثقافة والشخصية الوطنية، وهي الشخصية المرتبطة بالثقافة الوطنية الثورية والعلمية، تلك الشخصية التي صقلها وأبرزها الكفاح التحريري بعد أن كانت مجهولة والتي ستتقوى مع الأيام لقدرة الشعب الجزائري على" مسايرة العصر دون قطع الصلة بماضيه".

ويبدو أن محرري برنامج طرابلس قد أحسوا بالفراغ العقائدي للثورة، وهو الفراغ الذي كان المثقفون يشيرون إليه عادة في البيئات الخارجية، فأرادوا إبراز هذا الجانب الآن وتبرير الفراغ المشار إليه أثناء الثورة فقالوا إن طابع الثورة كعملية تحرير قد تغلب على الثورة كمشروع عقائدي أيام الكفاح، أي أن العملي قد سبق النظري، أو أن التحرير قد سبق التفكير(كما أشيع فيما بعد) وهو ما يؤكد ما ذهب إليه أكثر من واحد من أن الثورة كانت تسير بدون إيديولوجية، وها قد أراد محررو البرنامج تدارك الأمر بعد الاستقلال وبعد اعترافهم بالفراغ السابق. ومع ذلك فإن كلمة الثورة في نظرهم، كانت تغذي حماس الجماهير وأن هذه الجماهير هي التي أعطتها بالفطرة معنى يتجاوز حرب التحرير نفسها. واعترفوا أيضا أن ما كان ينقص الثورة في الماضي وما يزال ينقصها في الحاضر هو الخط العقائدي الذي لا بد منه. أما الآن وقد توقفت حرب التحرير واستعاد الشعب الاستقلال فإنه لا بد من استمرارية الحرب ولكن على الصعيد العقائدي "إن الكفاح المسلح يجب أن يترك مكانه اليوم للمعركة العقائدية التي تعني الثورة الديموقراطية الشعبية ... التي تعني التشييد الواعي للبلاد في إطار المبادى الاشتراكية ". وبذلك حاول محررو برنامج طرابلس تفسير ما جاء به بيان أول نوفمبر حول "إقامة الدولة الجزائرية الديموقراطية الاجتماعية ذات السيادة ضمن إطار المبادى الإسلامية"[1].

(1) ملفات وثائقية، 24، نصوص أساسية لجبهة التحرير الوطني 1954-1962، أغسطس 1976، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، ص 39.

ولعل هذا الاختيار الاشتراكي الواضح هو الذي جعل رجلا مثل ابن خدة يعترف ولكن بعد عقود بأن برنامج طرابلس كان في الأساس يتنافى مع الإسلام رغم أن التصويت عليه في المجلس كان بالإجماع، ومعترفا أيضا أنه قد صوت لصالحه (عن حسن نية؟) رغم أن البرنامج كان يدور حول محورين هما الاختيار الاشتراكي والحزب الواحد(1).

ولكن برنامج طرابلس لم يهمل الإشارة إلى أن الشعب كان" قبل الثورة متعلقا بالقيم الوطنية التي صيغت في إطار الحضارة العربية الإسلامية"، والدليل على ذلك تأسيسه المدارس العربية الحرة وصيانتها رغم معارضة الإدارة الاستعمارية. كما أشار إلى أمر جديد وهو أن الولايات خلال الثورة بذلت جهودا كبيرة لتجعل الثقافة الوطنية في متناول الشعب. وهذا ينسجم تماما مع ما درسناه من أن جيش التحرير جسد مظاهر عديدة من هذه الثقافة في القضاء والتعليم وممارسة الطقوس الدينية ونحوها.

أما بعد الاستقلال فقد أراد البرنامج الاستمرار في جعل الثقافة في متناول الشعب ولكن في أسلوب جديد. فبعد التحفظات على الممارسات القديمة للثقافة ألح على "استعادة الثقافة الوطنية والتعريب التدريجي للتعليم اعتمادا على أسس علمية"، وهي مهمة تتطلب توفير "وسائل عصرية لا يمكن تحقيقها بالتسرع دون خطر الضحية بأجيال كاملة" وهذه التحفظات(2) هي كلها عقبات ليس من السهل تجاوزها. ولكن البرنامج كان واضحا في الدعوة إلى المحافظة على التراث الوطني أو الثقافة الشعبية، وهي إشارة فيما يبدو إلى الثروة الفولكلورية للهجات المحلية والتقاليد الشعبية. كما كان واضحا في الدعوة إلى

(1) ابن خدة، شهادات ومواقف، مرجع سابق، ص 153-154.

(2) اللجوء إلى التدرج وانتظار الوسائل العصرية والتحذير من التسرع الذي قد يؤدي إلى التضحية بالأجيال، واشتراط العلمية في التعريب...

تعميم وإجبارية التعليم وجزأرة البرامج لتتكيف مع واقع البلاد، واستعمال مختلف الوسائل للتخلص من الأمية في أقرب الآجال[1].

(1) النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني، مرجع سابق، ص92. وكذلك التعليم والثقافة في الجزائر، Enseignement et culture en Algérie ، وزارة الأخبار، الجزائر، 1963.

الفصل الثالث

الهوية الثقافية والأدباء بالفرنسية

نتناول في هذا الفصل تحديد وأبعاد الهوية الثقافية، وحياة وإنتاج المثقفين والأدباء الجزائريين باللغة الفرنسية، ومواقف بعض المثقفين العلمانيين من الثورة، وصراع الأفكار عند بعض القادة المثقفين، واضطهاد وتعذيب واغتيال بعضهم. ثم موقف جريدة المجاهد من اللغة والدين والقومية.

ومنذ البداية نقول بأن تناولنا هذا لن يكون شاملا لأن ذلك غير واقعي، ولكن سندرس الظاهرة ودور أصحابها في الوقوف بصف المدافعين عن تحرير وطنهم بلغة المستعمر نفسه، ومشاعرهم الخاصة في هذه الأثناء، وشعورهم بواجبهم وكيف عبروا عنه. ثم نتناول إنتاجهم نثرا وشعرا كلما أمكن ذلك. ومن هؤلاء، وإلى جانبهم زملاء لهم، كانوا غير أدباء بالمعني الدقيق للكلمة، ولكنهم كانوا ضمن قائمة المثقفين المنتمين أيضا إلى نفس الثقافة والمعبرين بنفس اللغة. فما دور هؤلاء في الثورة وهل استوت نظرتهم ونظرة إخوانهم الأدباء أو اختلفت كما اختلفوا عنهم في ميدان العمل؟

كلما ذكرت الثورة الجزائرية ذكرت معها الثقافة ومشروع المجتمع الذي جاءت به أو بشرت به. البعض يقول إنها ثورة قام بها مناضلون تكونوا في مدرسة حزب الشعب ليكونوا طلائع نضالية وليس لهم تكوين ثقافي ولا شهادات مؤهلة للقيادة الفكرية. وقد درس البعض سير جماعة الواحد والعشرين

ومجموعة الستة فلم يجد من بينهم حاملا لشهادة الثانوية العامة.

صحيح أن الحياة السياسية في الجزائر كانت تربي الشباب على الوعي المبكر بحكم القمع والحرمان ومعاينة الجالية الأوروبية في نمط عيشها مما جعله يكتسب تجربة لا يكتسبها الشباب العادي إلا بعد طول مراس ومطالعة. ومن الخطأ أن نحكم على الثورة من طليعتها فقط، ذلك أن تقدم العمر بالثورة جعلها تكسب شبابا من حملة الشهادات وقادة حنكتهم الحياة السياسية تحت قوانين الإدارة الفرنسية. وقد حصل هذا بالتدرج، فانضم إلى الثورة أولا عناصر من ساسة الحزب نفسه (حزب الشعب) وهم المركزيون، وقد كان فيهم حملة الشهادات العلمية العليا أمثال ابن خدة وحملة الشهادات الثانوية أمثال عبد الحميد مهري ومحمد يزيد وسعد دحلب وعبان رمضان. كما انضم للثورة الدكتور محمد الأمين دباغين ثم فرحات عباس والدكتور أحمد فرنسيس والمحامي أحمد بومنجل ... ثم شيوخ جمعية العلماء. وبالتدرج انضم إلى الثورة عدد من الطلبة المتطوعين والصحافيين والمعلمين والسياسيين في الجزائر وخارجها، فلم يعد القرار في يد المناضلين الأوائل وحدهم.

كان يشاع أثناء الثورة وبعدها أن هناك تيارا ضد المثقفين حسدا لهم أو خوفا منهم. وأشيع وقتها أن هناك " تصفيات " وقعت في صفوف بعض المتطوعين الذين تخلوا عن مقاعد الدراسة والتحقوا بالثورة، فكان الواحد منهم يصفى لأتفه الأسباب أو لا يترك له المجال ليسهم في النضال بأنواعه. وكان السعيد منهم، حسب بعض الروايات، هو من كتب له أن يعود من حيث أتى بنصيحة من زميل له أو من ابن بلدته أو جهته، والأسعد من الجميع هو الذي يقال له عد وواصل تعليمك لأن الوطن سيحتاجك غدا وليس اليوم. وكنا نسمع ونحن طلاب في القاهرة، أن هناك تمييزا بين الطلبة في تونس فمنهم من يوجه إلى الجزائر "ليموت" ومنهم من يرسل سرا أو علنا ليدرس في الشرق أو الغرب ليكون عنصرا فاعلا في الجزائر المستقلة. هذه الروايات وأمثالها قد تكون مبالغا فيها أو لا تمثل إلا تصرفا فرديا ولكنها كانت تروج في أوساط الطلبة (المثقفين)

على كل حال. فإلى أي مدى كانت الوقائع تؤكد ما ذهبت إليه بعض هذه الروايات؟

النظام التربوي والإسلام وتعليم التاريخ

في بحث ترجمته المنار ونشرته ملخصا سنة 1952 تحدث صاحبه عن التوجيه الديني في النظام التربوي. ولم تذكر الجريدة أين نشر نصه الفرنسي ولا لأي غرض نشر ولا من هو صاحب البحث. ومهما كان الأمر فقد تحدث الكاتب عن مكانة الدين وأوضح أنها ما تزال كبيرة في المجتمع الجزائري رغم القول بفصل الدين عن الدولة، وبالإيمان بالتقدم. كان البعض يقول إن الدين كان صالحا في الأزمنة السابقة، وأن الاستعمار يحاربه إذا أحس منه قوة أو يستغله إذا لاحظ في أهله غفلة. وتذهب بعض الآراء إلى أن العالم الإسلامي ما يزال يرزح تحت القوتين المادية والروحية، ولكن حالة الدين الإسلامي ومقتضياته تجعل العالم الإسلامي كتلة بذاتها مختلفة عن الكتلتين الأخريين (المقصود المعسكر الاشتراكي والمعسكر الرأسمالي) لأن التعاليم الإسلامية تقدم نظاما مغايرا، وهو نظام يطمح أيضا إلى العالمية وسيادته من أجل إسعاد البشرية. وتساءل الكاتب المجهول: هل تقف التربية الإسلامية على الحياد أمام القوتين المادية والروحية؟ ثم أجاب بأن الرسول (ﷺ) قد أعلن عن عالمية الإسلام بنزول القرآن على الناس كافة.

وقد ربط الكاتب بين الحركات الإسلامية التي أنشأت دولا مثل (الرابطة الإسلامية) في الهند التي تولدت عنها باكستان، و(الحزب الإسلامي) الذي يعمل على تخليص الملايو من الاستعمار، لأن الاستعمار لا يثبت في بلاد يسودها الإسلام، وأن حركة (الإخوان المسلمين) في مصر وسورية تبذل جهدا ولها آثار محمودة لتخليص الدين من الاضطهاد. ومن الواضح أن صاحب البحث يسير على نهج هذه الحركة التي كانت تملأ الساحة السياسية والفكرية

والإعلامية قبل قيام الثورة المصرية والتصادم مع قادتها[1].

ولذلك رأى الكاتب أنه لا بد من تحديد "الأهداف من التربية والتعليم"، فالشعب الجزائري لم يتوقف عن العطاء الحضاري إلا منذ الابتلاء بالاستعمار، فلم يظهر أي عبقري فيها خلال هذا العهد. ويجب في نظره أن تستوحى الأهداف التربوية من "تعاليم الإسلام وأن تستند إلى تقاليد الوطن التاريخية وتلائم المناهج السياسية لشعب عربي مسلم وأن تساعد على تحقيق أمانيه القومية من وحدة عربية شاملة خالصة لا تشوبها شائبة الامتزاج والاختلاط بالمبادى الاستعمارية"[2].

ذلك هو ما يتصل بالدين في المنظومة التربوية، ولا يكاد يختلف تعليم التاريخ عن تعليم الدين. ونحن وإن كنا سنرجع إلى معالجة التاريخ في مناسبة أخرى فإننا ننقل هنا رأيا جاء في مرحلة سابقة للثورة ويعتبر ممهدا لانفجار الشعور الوطني المعتز بالتاريخ. فما الهدف من تعليم التاريخ للنشء الصاعد؟ إنه إعداد المواطن الصالح وتكوين الشخصية الاجتماعية ومساعدة التلميذ على اكتساب الثقة بنفسه وتكوين الذوق والحس التاريخي المشترك. ذلك أن للتاريخ أثرا كبيرا في تكوين البطولة لدى الفرد وغرس روح التضحية من أجل الوطن. ومن الخطأ أن يعلم المعلم التاريخ للتلاميذ لذاته أي بصفته أحداثا جرت وانتهت ثم يحشو بها عقل التلميذ. بل يجب على المعلم أن يقنع الطالب بأن "الوطن الجزائري مثلا ملك للأمة الجزائرية وممتد في أقدم العصور... وأنه جزء من الوطن العربي الأكبر الممتد من الخليج الفارسي شرقا إلى بوغاز جبل طارق غربا". إن على المعلم أن يكون هدفه من تعليم التاريخ هو إثارة حب التعاون في المتعلم من أجل "الدفاع عن الإرث العظيم" وأن نذكره بالحروب التي خاضها أجداده دفاعا عن الوطن، والتنويه له بالدعائم التي يقوم عليها

(1) المنار 14، 19 جانفي 1952.

(2) المنار 13، 4 يناير 1952.

التراث وهي " اللغة القومية والدين المتبع والعوائد الجارية". بمعنى آخر فالتاريخ يجب أن يكون مادة للتربية الأخلاقية والسياسية والتاريخية وأن يخرج المواطن الصالح الذي يؤثر الدين والوطن واللغة على نفسه، ومن ثمة يكون مستعدا للتضحية في سبيل هذه الأركان التي لا يكون الوطن وطنا إلا بها ولا يكون المواطن صالحا إلا إذا عمل بها.

ومن المهم أيضا عند الحديث عن البرنامج التربوي المقترح أن يذكر المعلم التلميذ بأن المؤسسات الاجتماعية، ومنها المدرسة كانت وسائل فقط لتحقيق هدف وأن هذه الوسائل تتبدل بتبدل الزمن عندما تأتي أهداف جديدة. فالمدرسة إذن عبارة عن آلية. وقد نبهنا الكاتب إلى أن وزارات التربية والتعليم في الدول الواعية لدورها التاريخي تحرص على تحضير منهاج التاريخ بعناية خاصة ولا تعطي التاريخ للأجانب ليدرسوه لأبناء الأمة بل لا تعطيه إلا للمواطن الذي يشعر بمواطنته، بينما يمكن للأجنبي أن يدرس مواد أخرى كالرياضيات. فالمواطن هو الذي يطبع التلميذ بالطابع القومي من خلال التاريخ. وقد أكد الشيخ الإبراهيمي هذه الفكرة في محاضراته بمعهد الدراسات العربية بالقاهرة(1).

وقد نوه كاتب المنار بجمعية العلماء لتكوينها هيئات عليا لتخطيط المناهج وتقديم توجيهات للمعلمين، ولكنه انتقدها لأنها لم تهتم في نظره بإعداد منهاج موحد يوجه التلاميذ توجيها قوميا. فالمعلمون ما يزالون يستعملون منهج حشو رؤوس التلاميذ وتقدم إليهم خلاصات جافة ليس معها توجيه مثالي، وليس هناك اهتمام بتعليم تاريخ الجزائر. وهذا لا يقلل من أهمية تعليم التلاميذ التاريخ الإسلامي الغام الذي لم تغفله الجمعية. ذلك أن حالة الجزائر حالة خاصة لأن تاريخها يعلمه الأجانب (الفرنسيون) بلغة غير اللغة

(1) انظر بحثنا الإبراهيمي مؤرخا في وقائع ندوة الشيخ الإمام الإبراهيمي، الجزائر، مايو، 2005.

القومية، وهؤلاء لا يتوقفون عن الافتراء كقولهم إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان راعيا، كما أنهم يعملون على إماتة روح الاعتزاز بالنفس وزعزعة الثقة في التلاميذ كقولهم إن الفاتحين كانوا يهدفون إلى الحصول على الغنائم والأسلاب[1].

أبعاد الهوية الثقافية

لم تكن مسالة الهوية واضحة في أذهان من خططوا للثورة. كان هدفهم إحداث صدمة نفسية وضربة عسكرية لصخرة الاحتلال الجاثمة على صدر الجزائر. كان بعض القادة أنفسهم قد صرحوا بذلك. فهذا بوضياف وبيطاط وابن طوبال متفقون على أنهم لم يكونوا يتوقعون انتصارا عسكريا، وإنما كانوا يهدفون إلى عملية تحرك الشعب وتوقظه من سباته ومن اللامبالاة التي كان يعيشها سيما بعد أزمة الحركة الوطنية وانشقاقها بين تيارات متصارعة. فهذا ابن طوبال اعتبر انطلاق الثورة "مغامرة". وقد أوضح بوضياف أن الأمر الذي كان متفقا عليه كهدف من القيام بالثورة هو الاستقلال، مع التمسك بمبدأ القيادة الجماعية وأنهم لم يضعوا لما بعد ذلك برنامجا ولا إيديولوجية. أما بعد أن تحولت الفرق الصغيرة من المجاهدين إلى جبهة حقيقية تضم مختلف الأتباع من حركة الانتصار وحزب البيان وجمعية العلماء والطلبة والعمال والتجار فقد تجند الجميع لكسب معركة الاستقلال، ثم انضمت الجماهير بعد ذلك إلى هذه الجبهة بالتدرج[2].

---

(1) المنار 15، أول فبراير، 1952، وصاحب المقال غير مذكور وإنما هناك عبارة (المطالع) فقط. وقد رجع نفس المطالع إلى الموضوع نفسه وهو أهمية التاريخ في مقال بعنوان التاريخ في خدمة القومية. انظر المنار عدد 17، 29 فبراير، 1952. ويبدو أنه مثقف ثقافة سياسية بارعة وله ميول إسلامية وقومية، ولا نستبعد أن يكون هو نفسه محمود بوزوزو.

(2) ديفيد غوردن، نهاية الجزائر الفرنسية، لندن، 1965، ص 57.

من الشخصيات القيادية التي دار النقاش حول موقفها من التعليم والمثقفين العقيد عميروش. يذكر البعض أن عميروش كان ضد المثقفين، مثل أغلب زملائه القادة الميدانيين، بينما يصنفه آخرون أنه كان يقف إلى الجانب الداعم لنشر التعليم واحترام المثقفين. ويستشهد هؤلاء بكون عميروش كان قبل الثورة يجمع بين العضوية في حركة الانتصار وجمعية العلماء ويرى، مثل العديد من أعضاء التنظيمين، أنهما يكملان بعضهما البعض. فالعمل السياسي والعمل الثقافي لا غنى للجزائر المستقلة عنهما. فكان عميروش وهو في باريس قبل الثورة يناضل من أجل تحقيق أهداف الجمعية أيضا ومسؤولا على إحدى شعبها هناك. وقد تعاون عندئذ مع الشاعر الشهيد الربيع بوشامة الذي جاء باريس ممثلا لجمعية العلماء التي كان لها حوالي عشر شعب في باريس وحدها (مع شعب في مناطق أخرى مثل مرسيليا وليون).

كان عميروش يرى - كما قيل - ضرورة المحافظة على القيم العربية الإسلامية ونشر التعليم العربي بين الناشئة، وكان الشاعر بوشامة يؤمن بنفس المبدأ، كما كان صديقا لعميروش الذي أعد للشاعر أوراق الخروج من الجزائر سنة 1957 عندما أحس بالخطر من الإرهابيين الفرنسيين المجندين في وحدات سرية لتصفية النخبة الوطنية. وتذهب هذه الرواية إلى أن العقيد استمر في قناعته بضرورة تعليم الناشئة اللغة العربية والعلوم الإسلامية، وهو الذي أرسل بعض الأفواج من فتيان القبائل ليتعلموا في تونس أو في البلاد العربية الأخرى تحت حماية فرق مرافقة لهم من جيش التحرير. كما قيل إنه خصص مالا لاستكمال بناء مدرسة (قـنـزات) الحرة وتجهيزها عندما حررها[1].

ولا شك أن العقيد عميروش ليس وحده في هذا الموقف. فقد كان في قادة الثورة الأوائل من كان يجمع بين نضال حزب الشعب السياسي وغيرة

---

(1) ديوان الشهيد الربيع بوشامة، تقديم جمال قنان، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1994، ص 17، 23، 27، 29 هامش 1، انظر أيضا لاحقا.

جمعية العلماء على التراث الثقافي، تحت الشعار الثلاثي: الإسلام ديننا - العربية لغتنا- الجزائر وطننا).

ويستشهد البعض على أن عميروش قد وقف مع التعليم والثقافة بكونه أقام في تونس مدرسة خاصة بأبناء الولاية الثالثة بالذات. ويستند هؤلاء إلى ما قاله عميروش لضابط فرنسي اعتقله الثوار "إذا فقدنا الحياة فليس لذلك من أهمية على الإطلاق لأن قوتنا الحقيقية تكمن في شبابنا المثقف وفي النخبة الشابة التي تتعلم حاليا في خارج البلاد"[1].

وقد نسب البعض إلى عميروش أنه عمل على تطوير التعليم في الولاية الثالثة بكل الوسائل بعد تطوع الطلبة سنة 1956 لأنه كان يعرف أهمية التعليم للمستقبل. ويقال إنه بعث برسالة إلى الطلبة أوائل سنة 1958 حثهم فيها على اكتساب العلم[2].

وبصفته العسكرية ذات الرتبة العالية بعث عميروش كلمة إلى الطلبة من موقعه في مجلس الولاية الثالثة في 8 مارس، 1958 حثهم فيها على خدمة الوطن من موقعهم في الجامعات والمدارس الثانوية، كما حثهم على عدم نسيان إخوانهم الذين استشهدوا من أجل القضية الوطنية أو الذين يكافحون في الجبال من أجلها. وأثار نخوتهم بقوله إنهم هم الذين سيكملون "الثورة السياسية التي تحرر الشعب من الاستعمار". وربما جاءت هذه الرسالة بمناسبة استئناف الطلبة لدروسهم والتحلل من الإضراب[3].

وليس هذا الموقف خاصا بالقادة الميدانيين بل إن فرحات عباس، وهو من القادة السياسيين المثقفين قد أعلن للطلبة أثناء انعقاد مؤتمرهم الرابع في تونس سنة 1960 أن الثورة استطاعت أن تكون منهم في ظرف قصير ما لم يكونه

(1) نقل ذلك عمار هلال، نشاط الطلبة... 1986، ص 93.
(2) المجاهد بالفرنسية، ج1، مايو 1958، 456، نقلا عن هلال، نفس المرجع.
(3) انظر مقالة "من أجل جزائر حرة وديموقراطية"، المجاهد 7 مايو 1958، العدد 23.

الاستعمار في ظرف قرن من الزمن. وأذكر أن فرحات عباس نفسه قد حثنا على طلب العلم ونحن طلاب في القاهرة قائلا إن الجزائر المستقلة ستكون في حاجة إليكم لتعليم اللغة العربية[1].

ومع ذلك فهناك من عمم وتحدث عن أن قادة الثورة كانوا لا يرتاحون للمثقفين وبالأخص الطلبة، ولا يحبذون التعامل معهم، وكانوا يخشون منهم على أنفسهم وعلى الثورة. فقد كان الإعلام الفرنسي يتحدث عن هذه الظاهرة ربما لتوسيع الهوة بين الطلبة وقادة الثورة سيما بعد ما شن الطلبة الإضراب وقاطعوا الدراسة. وهناك رواية تتحدث عن أن عجول عجول من الولاية الأولى حكم على شابين في الثورة بالإعدام لأنه سمع أن لهما علاقة صداقة مع تلميذتين زميلتين لهما في الدراسة، ولكن الجندي الذي كلف بالشابين أطلق سراحهما بعد أن عرف منهما القصة وتأكد من الخطاب الذي كان يحمله بشأنهما إلى عباس لغرور. فما كان من عباس لغرور إلا أن مزق الرسالة وعفا عن الشابين[2].

وعندما كنا في القاهرة كانت هذه المفاهيم والأخبار منتشرة بين الطلبة، ولا سيما بعد أن تأكدت باختفاء بعض الطلبة المتطوعين إثر وصولهم إلى تونس. فقد شاعت هذه المفاهيم حتى أصبح من يستدعى إلى تونس يتوقع أنه لن يعود منها، أو لن يبقى على قيد الحياة. وقد تكون التصفيات الجسدية التي وقعت نتيجة لتصرفات أخرى، ولكن الوقائع أثبتت أن بعض الطلبة المتطوعين والمتحمسين للثورة قد اختفوا منذ وصولهم إلى تونس أو منذ عبورهم الحدود إلى الجزائر. وأذكر أن من بين هؤلاء محمد زعروري وعبد

---

(1) انظر كتابنا مسار قلم -يوميات- جزءان في مجلد واحد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005.

(2) مذكرات الرائد عثمان سعدي بن الحاج، دار الأمة، الجزائر، 2000، ص 81-82. انظر أيضا كتاب جي بيرفييه، الطلبة الجزائريون في الجامعات الفرنسية: 1880-1962، باريس، 1984.

الكريم عباس، إضافة إلى علي شكيري ورفاقه الذين قضى عليهم "النظام" بدعوى عصيان أوامر لجنة التنسيق والتنفيذ.

يروي أحمد توفيق المدني وزير الثقافة في الحكومة المؤقتة أنه دخل مرة في مشادة كلامية مع عبد الحفيظ بوصوف وزير المواصلات حول الطلبة في جلسة للحكومة المؤقتة عام 1959. فمن رأي بوصوف أن المدني يحمي الطلبة الفارين من المعركة ويوفر لهم المنح الدراسية، وقد نعتهم بالمتوارين أو المتسترين. ويبدو أن بوصوف قد وجد دعما من زميليه ابن طوبال وزير الداخلية وكريم بلقاسم نائب الرئيس. أما بقية الوزراء فلم نعرف انطباعهم حول هذا الموضوع.

كان رد المدني أن الطلبة في المشرق كانوا موجودين قبل الثورة، وأنهم كانوا من أنصار الثورة بعد قيامها فتطوعوا لها وأصبحوا من دعاتها. ولكن القيادة طلبت منهم مواصلة الدراسة لأنهم كالجنود في ميدان الجهاد ولأنهم -حسب قوله- أعمدة المستقبل. ذلك أن لجنة التنسيق والتنفيذ (قيادة الثورة قبل الحكومة المؤقتة) أصدرت تعليمة في سبتمبر 1957 تأمر بتهيئة الظروف لمواصلة الطلبة دراستهم في الجامعات العربية والغربية، أي الطلبة الذين لم يجندوا وأصبحوا بعد الإضراب بدون أمكنة للدراسة.

وكان بوصوف نفسه عضوا في الحكومة التي أقرت ميزانية الطلبة والمنح المخصصة لهم وأعدت لهم برنامج الالتحاق بالجامعات. كما رد المدني بأن عميروش نفسه قد أنشأ في تونس مدرسة خاصة بطلبة الولاية الثالثة ذات نظام داخلي وأنفق عليها "مالا جزيلا" وأرسل إليها مائتي (200) طالب. وأضاف المدني أن العقيد أوعمران قد طلب تطوع خمسة عشر طالبا من طلبة القاهرة لفرقة فزان فتطوع منهم أكثر من العدد المطلوب حتى اضطر إلى إجراء القرعة بينهم[1].

(1) المدني حياة كفاح 443/ 3.

وعن تعدد مشارب الطلبة في تونس قبل تكوين الحكومة المؤقتة يقول أحمد توفيق المدني، إنهم كانوا بأعداد كبيرة ولكنهم كانوا موزعين من حيث الولاء قبل تأسيس الحكومة. وكانت لهم مدارس مختلفة، فمنهم من كان مواليا لجمعية العلماء ومنهم من كان يتبع عميروش رأسا، ومنهم من كان مستقلا. وبعد تأسيس الحكومة ووجود وزارة للثقافة سلم عميروش مدرسته إلى وزارة الثقافة. وبذلك "زالت الازدواجية"، حسب تعبير المدني. وكان أعوان الوزير في تونس هم محمد العساكر وعبد الرحمن شريط وعلال الثعالبي وأحمد بوضربة، وكان العساكر هو ممثله في تونس، كما كان محمد الفرجاني هو ممثله في المغرب، وبوزيان التلمساني ممثله في القاهرة[1].

تراشق المثقفين

نقصد بهذا العنوان ما كان يدور بين المثقفين من تنابز إيجابي أو سلبي حول أصالة الفكر وعلاقته بالقومية والهوية والوطنية والإسلام والعرق أحيانا. وفي هذا النطاق يدخل نقد مالك بن نبي لبعض معاصريه أمثال فرانز فانون ورمضان عبان، ورأي بعض هؤلاء في الثقافة والمثقفين أيام الثورة.

ابن نبي عن رمضان عبان

والواقع أن الثورة نفسها لم تخل من أعمال العنف والتصفيات، ومن الصعب البحث عن مبررات لهذه التصفيات، ومن الممكن عزوها إلى التنافس الشخصي والاتهامات المشبوهة والمرتجلة، ولكن يصعب لمس الحقيقة في مثل هذه الأحداث. وإذا كان العاملون في الميدان لهم مبرراتهم وحججهم في التخلص من بعضهم البعض باسم الغيرة على مصير الثورة تارة وباسم مطاردة شبح الخيانة تارة أخرى فإن حكم مفكر في مقام مالك بن نبي على سياسي ديناميكي في حجم رمضان عبان يجعل المرء يتساءل بطريقة أكثر إلحاحا

(1) المدني، حياة كفاح 3/ 407، 418-419.

للوصول إلى الحقيقة. ولا شك أن عددا من علامات الاستفهام ستختفي مع أصحابها قبل أن تجد لها جوابا. ومما يزيد الأمر استغرابا بهذا الصدد أنه لا توجد أفكار مشتركة بين ابن نبي وعبان، كما لا نتصور أن بينهما تنافسا على زعامة ما.

يتهم ابن نبي عبان اتهاما لا غبار عليه بأنه كان يخطط لتحويل الثورة عن مسارها، وأنه رجل "مندس" في الثورة وليس منها، وأن دخوله (أو إدخاله) إلى الثورة كان عملا خارجيا، فهو خطأ -كما يقول- "مولد"، وليس خطأ نابعا من تحول ذاتي للثورة، أو اجتهادا شخصيا لتصحيح مسارها، وأن عبان كان لعبة في يد "الحاوي" الذي يرمز به ابن نبي إلى الاستعمار الذي يقدم ألعابه الخادعة إلى الناس في صورة تغيب عنهم معها الحقيقة. وفي نظر ابن نبي أن مصالي قد قام بدوره ربما عن حسن نية رغم أن مخططه كان يخدم الاستعمار لأنه كان متطابقا مع ما يريده (الاستعمار)، وأن مصالي قد كون في "مدرسته حفنة من الزعماء الصغار" فقتلوه وخانوا الثورة، ثم انتهى الأمر بأن تنكر هو نفسه للثورة تكبرا وغطرسة.

أما عبان فإن ابن نبي متأكد من أنه رجل "متواطىء. . . فتصرفاته المريبة لا تترك ظلا من الشك على هذه الحقيقة،" فقد كان حتى آخر لحظة من حياته يرتضي لنفسه لعبة الحاوي (الاستعمار) ليجهز على الثورة ولكي يغتصب سلطتها ويحاول استعمالها ضد الثورة نفسها[1].

وإذا كان عبان من القادة البارزين وفي مسؤولية خطرة تجعله محط أنظار زملائه في الثورة وهدفا للهجمات الخارجية التي تريد أن توجه الثورة وجهة

(1) ابن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر (الجزائر) ودار الفكر (دمشق)، ط 1، 1992، بسام بركة وأحمد شعبو، ص 122، 124. أيضا جريدة الرأي، ديسمبر 2002. انظر ايضا رأي أحمد (علي) محساس في عبان. ولعل من أخطاء عبان أنه كان لا يخفي زعامته الفردية في حين قامت الثورة نفسها على نفي هذا المفهوم.

معينة، فإن تيار "معاداة المثقفين" قد امتد أيام الثورة حتى شمل عددا من العاملين في صفوفها بل حتى إلى الطلبة الذين ظهرت منهم كوكبة أخذت تعمل في داخل الثورة نفسها وفي أجهزتها الخارجية في الإعلام والدبلوماسية والسياسة ضمن الوفد الخارجي لجبهة التحرير أو ضمن المنظمات المساندة للثورة والجبهة مثل اتحاد الطلبة. وكان المسؤولون في الثورة يحتاجون فئة المثقفين وفي نفس الوقت يخشون منها - كما سبق - حاضرا ومستقبلا، ولكن ذلك كان يجري تحت الرماد وقلما طفا على السطح إلا في حالات نادرة.

وفي كتابات فرحات عباس، وهو من أبرز المثقفين زمن الثورة وكان رئيسا لحكومتها المؤقتة، وصف دقيق للصراع الذي كان يدور في لقاءات واجتماعات هيئات الثورة مما لا يدع مجالا للشك في أن الجماعة كانوا، بصفة عامة، في مستوى فكري وثقافي هابط. ولم تكن لدى فرحات عباس أية عقدة من المثقفين ولذلك أعلن بافتخار للطلبة في إحدى الملم المناسبات التي جمعته بهم أن الثورة استطاعت في سنوات قصيرة أن تكون منهم إطارات للجزائر المستقلة أكثر مما كون منهم الاحتلال خلال 130 سنة. وفي كتبه التي ألفها بعد الاستقلال وصف فرحات عباس مجالس وأحاديث زملائه قادة الثورة وصفا لا ينسجم، من الناحية الفكرية والثقافية، مع مسؤولياتهم التاريخية.

ابن نبي عن فانون

ولنبدأ بحديث مالك بن نبي عن فرانز فانون. فقد تعاصر الرجلان، وتشابها في التفكير "الثوري" والانتماء إلى الجزائر الرافعة علم الحرية ولكنهما اختلفا اختلافا بينا في طبيعة الولاء وعمقه والهدف منه، حتى أصبح من الصعب الجمع بينهما على صعيد واحد لأنهما ينتميان روحيا ووطنيا وعمليا إلى مدرستين مختلفتين: مدرسة تنبع فلسفتها من داخل الجزائر ومدرسة تستمد حيويتها من خارج الجزائر. وليس في ذلك غضاضة في التركيب الشخصي والمزاج ولكن في الطبيعة نفسها، فالطبيعة هي التي أنشأت فرانز فانون في

المارتنيك وأنشأت مالك بن نبي في الجزائر، والطبيعة نفسها هي التي رسخت روح المسيحية أو الإلحاد في فانون وروح الإسلام والوحدانية في ابن نبي، وربما لا دخل لأي منهما في ذلك، فكل منهما يمكنه أن يقول مع المعري: " هذا ما جناه أبي عليّ ". هذا التحليل قام به مالك بن نبي نفسه بكل صراحة رغم أنه معني به أيضا.

فقد قارن بين فانون وبين غيره في العلاقة بالجزائر وثورتها وتقاليدها ودينها. وليس هذا "الغير" سوى مالك بن نبي نفسه، كما نظن. يقول ابن نبي: أشير هنا إلى قضية فرانز فانون، مع كل التأثر والتقدير اللذين يستشعرهما كل جزائري عند ذكر فانون. إن عمله سيظل ذا قيمة لا تقدر، ولكنه في نفس الوقت لا يمكنه أن يقود نشيد النضال والعمل للشعب الجزائري لأنه لا يغوص إلى الجذور العميقة في ذاتية هذا الشعب، ولا هو يعانق كلية موضوعيته الاجتماعية والتاريخية. وهذا نقد في غاية الصرامة والوضوح بل وغاية الموضوعية. فمن هو القادر على عزف النشيد الحقيقي للشعب الجزائري، ومن هو القادر على ربط النشيد بالنضال التحرري، والغوص إلى الجذور العميقة في تاريخ الجزائر؟ لقد عرف ابن نبي أولا "النشيد" بأنه هو الذي يقوم بحشد المكثف للشحنة الكهربائية وهو (أي النشيد) بذلك لا يمكنه أن يتشكل على مسجل أجنبي لأن عملية تركيب النشيد تتم داخل روح الشعب أولا. إذن لقد حاول فانون عزف النشيد ولكنه سجله على سجل أجنبي فلم يبلغ مداه رغم أنه قام بحشد المكثف الكهربائي له، ولكن من خارج التركيبة التي لا تتم إلا داخل روح الشعب الجزائري.

وقد ضرب ابن نبي مثلا حيا على ذلك بقصة غاندي ورفاقه الانجليز. فهؤلاء الرفاق الذين ساعدوه على المطالبة بحقوق الهنود المشروعة، هم الذين- في نظر ابن نبي -عزفوا "النشيد العظيم" الذي قاد الأمة الهندية إلى التحرير، ولكن ذلك لا يكفي، فقد بقي الموقف في حاجة إلى من يتقمص روح الهند الأصلية، ومن ثمة كان دور غاندي الحقيقي، فهو الذي جمع جوهر

النشيد وألفه من ذات روحه المفعمة بحمية الهند. وهذا هو دور الزعيم الخارج من رحم الشعب. وقياسا على ذلك فإنه لم يكن أمريكيا ذلك الذي ألف نشيد المارسيلية (المارسييز) أو نشيد تجمع العمال (الدولية) ولا كان شخصا قادما من بلاد أخرى، كما هو الحال مع فرانز فانون[1].

ومع ذلك يعترف ابن نبي بالفضل لفانون لأنه في نظره كان العازف الموسيقي العظيم لأحسن النبرات الثورية المؤلفة من الروح الإفريقية، فهو رافع لواء الحمية الوطنية، وهو مقدم أشجى الألحان الثورية. وهذا اعتراف واضح من ابن نبي لفانون، ولكنه، أي فانون، كان يفتقد، كما يثبت سجله الشخصي (ويقصد به ابن نبي أصوله العرقية ولونه وجغرافيته البشرية) كان يفتقر إلى اللمسة التي تهز الروح الجزائرية التي لها هي أيضا ذاتيتها وخصوصيتها، تلك هي اللمسة التي تربطها-في نظر ابن نبي- بالرعشة المقدسة القادرة على دفع الشعب الجزائري إلى النضال الذي يحرر الشعب من قيوده.

ويصل ابن نبي في نهاية المطاف إلى هدفه وهو تجريد فانون من حق التنظير للثورة الجزائرية، سواء أرادها هو أو أرادها له بعض رفاقه المعجبين به. وقد رأى ابن نبي أنه من الظلم أن نعزو ذلك إلى فانون أو نكلفه ما لا يطيق أو ما لا تسمح به قوانين الطبيعة. فليس فانون بصاحب هذه النظرية الثورية التي أرادها له البعض، ذلك أنه لكي يتكلم الإنسان لغة شعب معين (كالشعب الجزائري) يجب أن يقاسمه معتقداته، فكيف يصح ذلك مع فانون وهو إنسان ملحد(حسب تعبير ابن نبي)؟ أما دوره في بناء "مفهومية إفريقية" فيجب عدم التقليل من شأنه فيه، لأن ذلك سيكون من الظلم له، ولأنه من هذه الناحية يمثل كلا متكاملا لأن فانون يحمل في روحه كل روح إفريقيا، وكل تاريخها، وكل مأساتها[2].

لقد جعلنا طالع الفصل هذا الرأي الحاسم لابن نبي عن فانون، لأن

---

(1) مالك بن نبي، آفاق جزائرية، ص 142.

(2) ابن نبي : آفاق جزائرية، ص 142-144.

موضوع هذا الفصل يقوم على هذا الأساس، فالعلاقة التي سنتكلم عليها فيه هي علاقة بين المثقفين الجزائريين والمثقفين الفرنسيين، بين المثقفين الأصليين المفعمين بمعتقدات الشعب ولغته وروحه وبين المثقفين العلمانيين الذين تخلوا عن المعتقدات وتجردوا من الروح واللغة فأصبحوا كغيرهم ممن لا وطن لعقيدتهم ولا روح لأفكارهم ولا لغة لتعبيراتهم.

إن الجزائري ولو تجرد من الهموم كلها فإنه لا يستطيع أن يتجرد من هم أهله وأسرته وعقيدته. لذلك لا نستغرب أن يقول النقاد إن كتاب الجزائر بالفرنسية، رغم اتفاق اللغة مع الآخر فإنهم لم يستطيعوا أن يتجردوا من تقاليدهم ومعتقداتهم التي ربما يثورون عليها ولكنهم لا يستطيعون التخلص منها، ولذلك كانوا في حالة توتر دائم.

مصطفى الأشرف

وقبل أن نتناول حياة وأعمال بعض هؤلاء المثقفين وأنصارهم من الفرنسيين، نذكر بعض الخطوط العامة عن كتاب وشعراء ظهروا أيام الثورة وتبنوا قضية الشعب بكل وضوح. من هؤلاء مصطفى الأشرف الذي كتب عدة بحوث استمدها من الوثائق الوطنية التاريخية وجعلها مرتكزا لنظرية اجتماعية تساعد الشعب على التحرر وتخرج المستعمر الذي اعتقد أنه دفن الهوية الجزائرية واستراح. كان الأشرف قد بدأ يشارك ببحوثه الاجتماعية قبل الثورة، فنشر في مجلة (المباحث) التونسية مقالتين على الأقل سنة 1945. ومع اندلاع الثورة كتب عدة بحوث دسمة وموثقة في مجلة (الأزمنة الحديثة les temps modernes) التي كان يشرف عليها الفيلسوف جان بول سارتر، كما كتب مسرحية بعنوان (الباب الأخير)، وهي المسرحية التي نشرت ترجمتها العربية مجلة الفكر التونسية سنة 1955 ولا ندري هل ظهرت أيضا بالفرنسية في إحدى الدوريات[1].

(1) عن هذه المسرحية انظر فصل المسرح، وكذلك كتابنا دراسات في الآدب الجزائري =

كذلك نشر الأشرف بحثين هامين في نفس المجلة (الأزمنة الحديثة)، الأول عن الوطنية والأرض في الجزائر، أكتوبر 1955، والثاني عن البطولة في الثورة الجزائرية، نوفمبر 1959. ويبدو أن مجلة (الفكر) قد نشرتهما بترجمة قام بها عبد الله شريط[1]. وله بحث آخر أشارت إليه المجاهد ونشره أيضا في (الأزمنة الحديثة)، سبتمبر 1956، نقل فيه عن كتاب (المرآة) لحمدان خوجة رأيه ضد الاحتلال وموقف المثقفين منه، وكشف فيه الأشرف عن رأي حمدان خوجة عن النفاق والازدواجية في المواقف الفرنسية: فكيف يحتل الفرنسيون الجزائر بينما يساندون استقلال اليونان وبلجيكا وبولندا، ويدعمون في هذه البلدان كيانات قومية مستقلة، أما الجزائر فالفرنسيون قاموا بإلغاء قوميتها واحتلوا أراضيها. وقد نقل الأشرف عن خوجة أيضا أن الجزائريين لا يمكن التغلب عليهم إلا بإحدى وسيلتين: إبادتهم (أو إجلاؤهم)، أو جلاء القوات الفرنسية عن بلادهم. ورأى خوجة، وهو أيضا رأي الأشرف بعد قرن وربع، أنه لا حل للقضية إلا بجلاء قوات الاحتلال إذا كانت فرنسا تريد إدخال الحضارة إلى الجزائر، وفي ذلك نفي لادعاء الفرنسيين أنهم في الجزائر لنشر رسالة حضارية[2].

= الحديث، ط 4، 2005. وكان تعريفنا بالمسرحية قد نشر أولا في مجلة الآداب البيروتية، ومجلة العالم العربي القاهرية. وعن أوليات الأشرف في تونس انظر الجابري، النشاط العلمي... مرجع سابق.

(1) بعد الاتصال الهاتفي الشخصي بعبد الله شريط يوم 28 يناير 2006 أكد لنا أنه ترجم أعمالا لمصطفى الأشرف من مجلة (الأزمنة الحديثة) ولكنه لا يتذكر ما هي الأعمال التي ترجمها له.

(2) المجاهد، 45، 29 يونيو، 1959. عن رأي الأشرف في نشاط حمدان خوجة وأحمد بوضربة انظر مصطفى الأشرف، الجزائر : الأمة والمجتمع، ترجمة حنفي بن عيسى، الجزائر، 1983، ص 201 وما بعدها. عن محتوى كتاب الأشرف انظر فصل كتب وكتابات.

هجرس وابن زين

كان المثقفون باللغة العربية يعيشون وضعا خاصا زمن الاستعمار، فهم يعرفون أن ثقافتهم لها أصول ولها فروع، أما الأصول فهي الثقافة العربية القائمة على اللغة العربية والوعاء الحضاري الإسلامي، ولذلك فإن بقايا المثقفين بالعربية كانوا يعتقدون أنهم هم أصحاب البلاد، فهم الذين حافظوا على التركة الماضية من الاندماج والذوبان في ثقافة الغير. كانوا يعتقدون رغم شعورهم بالموقف الدفاعي- أنهم هم الحصن الذي يحمي الهوية والتراث وأن ثقافة المحتل لا يمكنها أن تمحو ثقافة البلاد المستعمرة مادام هناك تواصل للأجيال داخل الثقافة الأصيلة، ولذلك حرصوا على استمرار تعليم القرآن بدون فهم وحفظ التراث بدون تطوير والتشبث بالماضي اعتمادا على معطيات المستقبل. فالهزيمة وقعت ولكن الانقراض لن يحدث.

أما المثقفون بالفرنسية فقد تقبلوا الواقع واحتملوا التاريخ ورأوا أن الاستعمار له مزايا كما له مساوى، فقد حطم القيم الروحية والكيان السياسي والاقتصادي للجزائر، هذا صحيح، ولكنه فتح أعين البعض على حقيقة التقدم والتخلف، وأنشأ جيلا من العقلانيين والمتعلمين بلغته المنفتحين على الحضارة الأوروبية، مما فتح المجال أمام الاتصال بالآخر، ومعرفة مدى تقدمه والعمل على مشاركته ومعايشته. صحيح أن هناك صراعا بين الأجيال، بين المتعلم بالفرنسية والمتعلم بالعربية. وقد تطور هذا النزاع أثناء حرب التحرير، فقد كانت الضرورة والمعركة الحاسمة ضد الاستعمار قد حتمت لقاء الأجيال على خط واحد وبذلك تحقق تركيب مدهش على الأرض، وقد استسلم الكبار للأمر وفهموا أن الشباب في العهد الجديد لهم الحق في الذهاب إلى الأمام، وهو يكن احتراما كبيرا للقيم القديمة. والحقيقة أن المرء لا يتوقع أكثر من ذلك بين ثقافة فرنسية وثقافة تقليدية، إن الثقافة التقليدية يرجع إليها الفضل في تحصين الجزائر ضد الجهود الاستعمارية لطمس الهوية عند نشر الثقافة الفرنسية بدلها، كما أن عقلانية الثقافة الفرنسية أدت إلى هدم ما كان في ثقافتنا التقليدية من مضادة للعلوم(؟).

هكذا ذهب الصادق هجرس وهو يحلل تطور الوضع الثقافي داخل التجربة الاستعمارية وبالخصوص منذ حرب التحرير. ولكن الأمر لم يبق كما كان سابقا، ذلك أن التطور شمل مسألة اللغة أيضا. وبناء على رأي هذا المناضل الشيوعي فإن هناك مشكلا لغويا من نوع آخر في الجزائر، وهو تعدد استعمال المجال اللغوي، فهناك أطفال لا يتكلمون سوى القبائلية في عائلاتهم، يعبرون بالعربية عندما يخرجون للشارع، ويتعلمون الفرنسية في المدارس، وبعضهم نشر الجرائد بالعربية الفصحى لسان حال منظمات وطنية، والوثائق الرسمية للحكومة المؤقتة كانت بهذه اللغة، ثم إن العربية الدارجة هي في الغالب المستعملة في المسرح والإذاعة رغم أن الفرنسية هي اللغة العلمية التي تربط الجزائريين بالثقافة العالمية.

هذا هو الوضع اللغوي في الجزائر كما صوره الصادق هجرس في الخمسينات. وكان عليه أن يضيف أن اللهجات العربية الدارجة ليست واحدة، كما أن اللهجات البربرية ليست واحدة، وأن الفصحى العصرية هي الوسيلة الوحيدة للحديث الراقي والأدب الرسمي المدون الذي ستفيد منه الأجيال، وهي لغة الكتب والجرائد والخطب والوثائق الرسمية، وأن الفرنسية ليست سوى وسيلة للاتصال بالخارج على مستوى معين ولكنها ليست اللغة العالمية الوحيدة، كما أن وسائل الاتصال الحديثة جعلت العربية لا تقل أهمية كأداة اتصال عن الفرنسية.

إن التناقض اللغوي الذي كان عليه الوضع في الجزائر أثناء الثورة قد خلقه الاستعمار وتعكسه اجتماعات جيش التحرير على مستوى القيادات العليا، فهذه الاجتماعات كانت تجري بالفرنسية بينما الرتب العسكرية وبعض المصطلحات التقنية كانت بالعربية الفصحى وكذلك كانت الاجتماعات على مستوى القيادات الولائية وما دونها بالعربية الفصحى أو الدارجة، وربما كانت تجري ببعض اللهجات المحلية أيضا. أما المداولات والتعاليق السياسية والمناقشات مع القاعدة فقد كانت تجري بالعربية الدارجة، أو بالقبائلية أو غيرهما، وأحيانا

بالفرنسية أيضا[1].

وشبيه بهذا التحليل للوضع اللغوي والثقافي جاء على لسان عبد الحميد بن زين، وهو مثل زميله هجرس في النضال الشيوعي وقت الثورة، فهو الذي كتب المدخل لكتاب هجرس، وفيه مقالتان الأولى نشرها سنة 1960 في عدد يناير من مجلة إيديولوجية تسمى النقد الجديد la nouvelle critique ، ويصدرها الحزب الشيوعي الفرنسي. فهذه المجلة أصدرت عددا خاصا بالثقافة الجزائرية تضمن مقالات هامة حول الأدب والتاريخ والشعر والموسيقى والمسرح في الجزائر. وقد نقح الكتاب بمناسبة الذكرى الـ 25 للثورة ونشر المقالة القديمة مع مقالة أخرى كتبها سنة 1980.

قال ابن زين إن الشيوعيين انتقدوا (ديجول) في مقدمة العدد الخاص من المجلة على نفيه وحدة وسيادة الشعب الجزائري، وإن زميله هجرس قد رجع بأفكاره إلى سنة 1880. وشبه ابن زين المدارس القرآنية والإسلام واللغة العربية واللغة البربرية "بحراس الظل" والحصون الواقية للثقافة الوطنية، فقد حافظت على الشخصية الجزائرية ضد المحتل، بل إن اللغة الفرنسية "العدوة" أصبحت ذراعا ضد الإمبريالية الفرنسية، وفي نظره أن تلك العناصر الثقافية (حراس الظل) أصبحت عناصر بائدة أو عتيقة ومع ذلك فإن لها دورا إيجابيا عبر تاريخ الاستعمار.

كان لهجرس ثلاثون سنة فقط عندما كتب مقالته السابقة، ففي سنة 1955 غادر مختبر البحث الجامعي وتخلى عن الطب الذي مارسه في الحراش حيث يكثر العمال ودخل عالم السرية حيث بقي ست سنوات ونصف داخل الوطن، وقد اشترك عندئذ مع البشير حاج علي وغيره من الشيوعيين الراسخي العقيدة في إدارة المعركة السياسية والعسكرية والمنخرطين في الحرب إلى جانب جبهة

---

(1) الصادق هجرس، الثقافة والاستقلال والثورة في الجزائر، باريس/الجزائر، 1980، ص 54-55.

التحرير. وقد تقابل مع بشير حاج علي عدة مرات سنة 1956 وقابلا معا رمضان عبان وابن خدة للحديث عن وضع الشيوعيين في الثورة وسبيل دمجهم في جيش التحرير. وقبل ذلك كان هجرس رئيسا(لجمعية الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين) وهي تنظيم سبق اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين (لوجيما)، كما كان هجرس عضوا في الكشافة الإسلامية[1].

ولا نرى حاجة الآن إلى الحديث عن عودة الأدباء والشعراء والفنانين إلى حضن المجتمع وإثراء الثقافة بإنتاجهم. ذلك أن الطلبة مثلا سرعان ما سرت فيهم روح الثورة وعبروا بأدبهم عن انشغالاتهم الوطنية مثل بوعلام طايبي (الصديق) الذي كان يدرس الأدب في جامعة الجزائر قبل التحاقه بالثورة ويصبح مسؤولا على الإعلام في الولاية الثالثة. فقد نظم قصيدة في الحرية التي كان جيش التحرير يكافح لاسترجاعها. لقد اختلط الطلبة المثقفون مع الريفيين، أي مع الأجواد رموز الفروسية والنخوة والأصالة، بعد أن درسوا في فرنسا وانقطعوا عن الجذور وعن استعمال اللغة العربية فترة من الزمن. ومن جهته جاء الطالب إلى عالم الريف بالأفكار التقدمية وحاول المواءمة بينها وبين العادات والتقاليد الشعبية. إن كره المثقفين للاستعمار هو الذي جعلهم يختارون النصر أو الاستشهاد، لقد اكتشفوا مجتمعهم الحقيقي في الثورة[2].

حالـة فرانـز فانـون

سبق القول عن فانون في رأي مالك بن نبي. والآن نتناول فانون نفسه في رأي المعجبين به وخصوصا جريدة المجاهد. فقد كتبت عن حياته وعن تركته

---

(1) هجرس: الثقافة والاستقلال... 1980، ص12، انظر أيضا فصل التنظيمات الطلابية من كتابنا هذا. ومما يذكر أن الرجلين بشير حاج علي والصادق هجرس قد وضعا أثناء الفترة الانتقالية - ربيع 1962 - برنامج حزبهما في الجزائر المستقلة، وهو برنامج ثري بالأفكار، وقد ترجم من الفرنسية إلى الإنجليزية، ولا ندري إن كان قد ترجم إلى العربية أيضا.

(2) هلال، نشاط، ص 121-130.

الفكرية حول الجزائر التي اتخذها نموذجا للتحرر. كان الرجل قد فرض نفسه على الأحداث زمن الثورة، فهو قد ثار على الاستعمار واكتشف ذاته في الثورة الجزائرية، كما اكتشف أصوله وجذور الهوية الإفريقية التي كادت أن تضيع، ومنها الهوية الجزائرية، كما فرض فانون نفسه يوم اندمج في الثورة فعالج مرضاها، ودرس شعبها وراقب تطور حركتها الوطنية. كان فانون جزءا من النظام الثوري فجرد قلمه للتعريف بالثورة وبرجالها وبقاعدتها الشعبية، وتبنى الجزائر وطنا وأصبحت الجذور الإفريقية ممثلة عنده في الهوية الجزائرية وأصبحت هزيمة الاستعمار في الجزائر تعني عنده هزيمة الاستعمار في إفريقيا وعودة الأمل إلى ملايين الزنوج الذين شتتتهم السفن الأوروبية في شتى أنحاء العالم وجعلت منهم عبيدا وعمالا في بيئات مختلفة عن بيئاتهم الأصلية.

حين توفي فانون كتبت عنه (المجاهد) مقالا لخصت فيه حياته وفكره وقدمته لقرائها على أنه ابن الجزائر بالتبني وأنه خدمها كما خدمها أحد أبنائها البررة، فقد توفي دون الأربعين سنة من عمره بسبب مرض استعصى علاجه على الأطباء، ورسمت صورته ولكنها لم تذكر تاريخ الوفاة ولا مكانها، ووعدت بالرجوع إليه وإلى تفكيره الثوري، كما وعدت بنشر ترجمة لبعض الفصول من كتابه (معذبو الأرض)، وقد وفت بذلك.

ولد فانون في المارتنيك الخاضعة للاستعمار الفرنسي، وعاش في مدينة ليون الفرنسية، وهو من أب فرنسي وأم مارتنيكية، وتعلم في فرنسا وتخصص في علم النفس وتخرج طبيبا نفسانيا. وقد لاحظ الفرق بين فرنسي وفرنسي نتيجة لونه وأصله، وآمن بالعنف كوسيلة للتخلص من الاستعمار، رغم أن مظهره الهادى لا يدل على اعتناقه مبدأ العنف، وهو شخص -كما قيل- حساس مرهف المشاعر، وكان يعتقد أن الثورة الجزائرية ليست ثورة محلية وإنما هي ثورة لتحرير الإنسان أينما كان من الاستعمار، كما آمن بالاشتراكية كوسيلة للعدالة الاجتماعية، وبالوحدة الإفريقية. كان فانون هادى المزاج أنيق اللباس يتمتع بوظيفة رفيعة قارة، وكان يمكنه أن يعيش عيشة راضية لو أراد، ولكنه

اختار حياة النضال من أجل الإنسان وتحرير الأرض، ورفض الزيف والعنصرية، على حد تعبير جريدة جبهة التحرير.

خدم فانون الثورة الجزائرية بقلمه وبلسانه وبعلمه الواسع، وكان يقيم ويعالج في مدينة البليدة حيث كان مديرا لمستشفى الأمراض العقلية، كما عمل مع مناضلي جبهة التحرير في مداواة الجرحى وحملة السلاح. آوى قادة الجبهة عند تنقلهم، وعمل محررا في جريدة (المقاومة الجزائرية) التي سبقت المجاهد، كما رأس بعثة الحكومة المؤقتة في أكرا عاصمة غانا. ومن أعظم الأعمال التي قدمها فانون للثورة الجزائرية هو التعريف بها في الأوساط الفكرية العالمية. فقد وهبه الله قلما سيالا وفكرا متحررا فقدم خدمة جليلة للثورة في ميدان الإعلام والفكر، وقد أصبح كتابه (السنة الخامسة للثورة الجزائرية) مرجعا لحركات التحرير في العالم، وأما كتابه الثاني (معذبو الأرض) فهو وإن لم يصل إلى درجة الأول في الأهمية إلا أنه كان الكتاب الذي حمل أيديولوجية فانون التي أصبحت ملتصقة باسمه كمثور للشعوب المستعمرة ومزلزل للأرض تحت أقدام المستعمرين[1].

اهتمت بكتاب (السنة الخامسة للثورة الجزائرية) دوائر المثقفين وترجم إلى عدة لغات، وكان المرجع للمثقفين اليساريين في العالم ولقادة حركات التحرير الذين انبهروا بأفكار فانون فيه. ومن الجدير بالذكر هنا أننا عندما كنا طلابا في أمريكا خلال الستينات كنا نقرأ في المجلات ونسمع في الندوات الفكرية والطلابية الإشادة بكتاب فانون والاستشهاد بنصوص منه حول ثورة الجزائر التي كانت النموذج لثورات العالم الثالث، وقد تبنته النخبة الإفريقية بالخصوص سواء كانت تعيش في إفريقيا أو كانت متحدرة من أصول إفريقية. وقد عرف الناس عن الثورة الجزائرية من خلال كتابات فانون عنها أكثر ربما من

(1) المجاهد، 110، 11 ديسمبر 1961. أثناء حياة فانون ظهر كتابه الأول ط، ماسبيرو، باريس، 1959، وسنعود إلى كتابيه في الفصل الخاص بالكتب والكتابات.

جولات وإعلام وفود جبهة التحرير في العالم، لأن الكتاب استطاع أن يغزو المكتبات وموائد المناقشات في الجامعات وغيرها من المراكز البحثية والنخب السياسية ولا سيما حركات السود وحركات التحرير.

ومن جهتها قامت المجاهد بالتعريف بالكتاب وتحليل محتواه وامتدحت صاحبه. ففي مقال لها تناولت العلاقة التي طرأت على المجتمع الجزائري كما حللها فانون في كتابه، ومنها علاقة الابن الأكبر بالأب. ونقرأ من عناوين المقال الفرعية: التناقضات داخل الأسرة والأمة، وأول نوفمبر 1954، والابن والأب، والعلاقة بين الأسرة والثورة، ومسألة المرأة في العهد الثوري، وتطور المجتمع الجزائري نتيجة الثورة، والبنت دائما خلف الولد.. وفي تحليلها قالت المجاهد إن المجتمع الجزائري مثل كل المجتمعات التي تقوم على خدمة الأرض يصبح فيها ميلاد الولد أكثر أهمية من ميلاد البنت، فالأب يرى الطفل رفيقا له في خدمة الأرض وخليفة له على الأرض العائلية، وعندما يموت الأب يصبح الابن هو الحامي (والولي) على أمه وأخواته، أما البنت فتبقى ثانوية لأخيها. وهذا التحليل النفسي للواقع الجزائري سنة 1959 هو الواقع المتولد عن الثورة. ويظهر أن المجاهد نشرت من الكتاب بعض الصفحات عشية صدوره، وهي صفحات تتعلق بالعائلات الجزائرية وهي في أتون الكفاح[1].

وبعد أقل من سنة توفي فانون وترك كتابه الثاني (معذبو الأرض) وهو الكتاب الذي أسمته المجاهد (الكادحون في الأرض). وقد ترجمت منه فصولا ولم تنته منه رغم أنها أعلنت أنها صاحبة الحق في ترجمته، ونعت المؤلف بأنه " فقيدنا العظيم" واصفة مقولته (هيا بنا يا إخواني، يجب أن نخلق إنسانا جديدا) بأنها حديث " ضمنه كل حرارة إيمانه الملتهب وعمق فكره النفاذ وسمو روحه المشرقة وغزارة تجربته الثورية الفذة".

---

(1) المجاهد -بالفرنسية - عدد 53-54، أول نوفمبر 1954.

كان فانون يعرف - حسب الجريدة- منذ أكثر من عام أن الموت يترصده، وكان يشعر أن رسالته الثورية، لن تكتمل إلا إذا توّجها بعمل فكري خالد يجمع خلاصة دراساته وتجاربه في ميدان الكفاح الثوري وبناء المجتمع الجديد، فكتب كتابه (معذبو الأرض). وعبرت الجريدة على لسان الجزائريين إنهم فقدوا فيه أخا ورفيقا ومناضلا ومفكرا عظيما. إن هذه الثروة الفكرية الثمينة ستضيء الدرب للإنسانية الجديدة في العالم الثالث. وتخليدا له قررت ترجمة كتابه (معذبو الأرض) إلى العربية، وهو الكتاب الذي أحدث دويا في أوروبا لم يحدثه كتاب آخر - حسب الجريدة -منذ بيان ماركس وإنجلز. وبالفعل تولت أسرة المجاهد ترجمته، واعتبرت نفسها أول من ترجم الكتاب إلى اللغة العربية، كما تعهدت بترجمته إلى أهم اللغات الأخرى في العالم الثالث الذي عاش فانون حياته النضالية والفكرية من أجل أبنائه، وقد افتتحت الترجمة بمقدمة للكتاب كتبها الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر.

لكن بعد نشر المقدمة والفصل الأول في الأعداد التالية بدأت بنشر الفصل الثاني، ثم توقفت الجريدة عن نشر الترجمة الموعودة. ولا ندري إن كانت قد ظهرت في مكان آخر. ذلك أن آخر عدد ظهرت فيه الترجمة هو 30 أبريل 1962، وظهرت عبارة (يتبع) في نهاية المكتوب ولكنه لم يتبع بأي شيء، فهل كان لتوقيع اتفاقيات إيفيان (18 مارس 1962) تأثير على مواصلة نشر بقية الكتاب؟ إن أسرة تحرير المجاهد هي التي لديها الخبر اليقين[1].

وبعد أن انتهينا من تحرير هذه الفقرة من الفصل اطلعنا على ما كتبه محمد الميلي، وهو يضيء هذه النقطة. فقد قال إن وزير الإعلام في الحكومة المؤقتة، محمد يزيد، قد كلفه بإصدار المجاهد بالجزائر، كما كلف رضا مالك ومصطفى الاشرف بإصدارها بالفرنسية بالجزائر أيضا، على إثر وقف إطلاق النار، أي خلال شهر أفريل 1962. ويضيف الميلي أنه كان الوحيد الذي دخل الجزائر من

---

(1) المجاهد، 25 ديسمبر، 1961، 30 أبريل، 1962.

هيئة تحرير القسم العربي في الجريدة، وكان معه علي علية المكلف بالإخراج. أما الآخرون فلم يلتحقوا خوفا -بناء عليه- من إرهاب منظمة الجيش السري (O.A.S) . [1].

اضطهاد المثقفين

مع ثورة التحرير ازداد اضطهاد المثقفين الجزائريين ضراوة وقوة، وشمل الاضطهاد كل أنواع التعذيب والقمع بل وصل الأمر إلى الاغتيال بطرق شنيعة. وقد حدث ذلك للمناضلين السياسيين والقادة أيضا. وقد شاعت قصص اغتيال الدكتور بن زرجب، والمحامي ولد عودية، والمحامي علي بومنجل، وقاسم زيدون، والأمين العمودي، وأحمد رضا حوحو، والسعيد الزاهري، والعربي التبسي، والربيع بوشامة، وعبد الكريم العقون، ومولود فرعون . . . إن مطاردة المثقفين والقادة كان سياسة منظمة قامت بها عدة أطراف بعد اندلاع الثورة. وقد شملت المطاردة النساء والرجال. فقد ألقي القبض على فتيات في عمر الزهور أمثال زهرة ظريف، ووريدة مداد، وفضيلة سعدان، وقتلت حسيبة بنت بوعلي، وحكم بالإعدام على جميلة بوحيرد وجميلة بوباشا، والسيدة أحريز. . .

عند انطلاقة الثورة عبرت جريدة البصائر الأسبوعية عن الحدث بأسلوبها الخاص فقالت في افتتاحيتها بتاريخ 5 نوفمبر "حوادث الليلة الليلاء. . . فوجئت البلاد الجزائرية بعدد عظيم من الحوادث المزعجة، وقعت كلها ما بين الساعة الواحدة والساعة الخامسة من صبيحة الاثنين غرة نوفمبر، وهو عيد ذكرى الأموات. ولقد بلغ عدد تلك الحوادث ما يزيد عن الثلاثين ما بين الحدود التونسية وشرقي عمالة (مقاطعة) وهران". ثم ذكرت أبرز الأحداث وأماكنها

---

(1) جريدة الشروق اليومي، السبت 22 أكتوبر، 2005، 19 رمضان 1426. ولا شك أن هذه الإضافة تفسر لماذا توقفت الجريدة عن نشر ترجمة كتاب فرانز فانون (معذبو الأرض).

على الصفحة الأولى وأكملتها في الصفحات الداخلية[1]

وفي هذا النص عدد من العبارات الرمزية للتضخيم والتهويل ولكنها لم تصل إلى تسمية ما حدث(ثورة). أو حتى (تمرد)، بل تفادت البصائر العبارات المباشرة ولجأت إلى عبارات التلميح مثل "الليلة الليلاء" بدل الخطب الجلل أو الحدث العظيم. و"العدد العظيم من الحوادث المزعجة" بدل العدد الكبير والحوادث المثيرة. وتحتمل كلمة "المزعجة" عدة معان، من بينها الخطرة. ثم ذكرت زمان ومكان الحوادث. فالخبر في نظرنا غير محايد رغم أن البعض قد فهمه كذلك. والجريدة لم تكتب الافتتاحية إلا ربما في اليوم الثالث للثورة.

وقد اعتادت البصائر أن تنقل لقرائها أخبار الثورة في أسبوع سواء عن المعارك التي جرت أو عن الأشخاص الذين اعتقلوا أو التصريحات السياسية من الجزائريين والفرنسيين حول الثورة. وقد استمرت لهجتها في تصاعد وحدّة إلى أن أعلنت صراحة أنها تدعم الثورة بنشرها بيان المجلس الإداري لجمعية العلماء. ومن بين الحوادث التي كتبت عنها بلهجة حادة: اعتقال الشاعر محمد العيد آل خليفة واعتقال رابح بيطاط أحد قادة الثورة، ومساعده ياسف سعدي، واغتيال الطبيب ابن زرجب، وغيرهم[2].

المعروف أن الفرنسيين كانوا قد خصصوا سجونا معينة لكل فئة اجتماعية. وفي كتاب (أحداث ومواقف) لمحمد صالح بن عتيق و(ذكريات المعتقلين)

---

(1) البصائر، 292، وربيع الأول، 1374، و5 نوفمبر 1954.

(2) عن بيطاط أوردت في عدد أول أبريل، 1955 نبأ اعتقاله ومثوله أمام المحكمة والتهمة الموجهة إليه، وهي كونه مسؤول منطقة ويحمل السلاح، وله واسطة تربطه بكريم بلقاسم. كما أوردت خبر القبض على ياسف سعدي الذي كان البحث جاريا عنه منذ 1950، وقد أطالت النقل عن سعدي من الصحف الفرنسية وجاءت بأخبار عنه لا تكاد تصدق. ومن جهة أخرى أشارت البصائر إلى مثول مولاي مرباح أمام المحكمة لأنه وجه رسالة إلى وزير الداخلية ميتران ونشرها في جريدة صوت الشعب والجزائر الحرة. وقد حوكم معه غيابيا أحمد مزغنة وعيسى عبدلي. للتفصيل انظر البصائر 3 يوليو 1955

لمحمد الطاهر عزوي وغيرهما أخبار مفيدة في هذا الصدد. يقول ابن عتيق إن الفرنسيين نقلوهم من سجن البرواقية إلى سجن بودي ثم ثنية الحد، ثم توجهوا بهم عبر السرسو إلى سوقر، وواصلوا السير إلى آفلو حيث جمع معتقلها نخبة من جمعية العلماء وحزب الشعب وحزب البيان، وكانت إدارة السجن العسكرية تعامل الجميع بالشدة، فكانت تطلق سراح البعض ثم يقتلونهم في الطريق غدرا، كما جاءوا بجماعة من طلبة إحدى زوايا آفلو، ثم نقلوهم منها إلى معتقل آركول إحدى ضواحي وهران، ثم ذكر سجن بوسوي الذي كان يضم حوالي ألف شخص، وقد انضم إليهم معتقلو الشحمي وسان لو، وحين رفضوا تحية العلم الفرنسي عاقبوهم بشدة. وبعد بقاء ابن عتيق ثمانية وعشرين شهرا في معتقل بوسوي غادره متأسفا على فراق بعض زملائه مثل الشيخ عبد القادر الياجوري الذي ودعه (أي الياجوري) بأبيات:

غيض بحر العروض يا ابن عتيق ... ودموعي تسيل سيل العقيق
ليت شعري يفيض مثل دموعي ... فيعيننا على وداع الصديق
ولو أن الدموع تغرق ناري ... فأكون الغريق وسط الحريق
ضاع شعري، وضاع عمري وأنتم ... يا زميلي أدرى بكل رفيق
وسلام عليكم ما أقمتم ... أو ذهبتم سلام داع شفيق[1]

لقد قصدنا ذكر المعتقلات والسجون التي أوردها ابن عتيق في الناحية الغربية، (كما أن عزوي ذكر عددا منها في الناحية الشرقية)، لندرك أن الجزائر خلال الثورة كانت تضم أعدادا كبيرة من السجون، وأن هذه السجون كانت غاصة بالمعتقلين مما جعل السلطات تلجأ إلى إقامة المحتشدات، وكانت السجون مصنفة حسب الفئات التي تقاد إليها، وكانت بعض الأفكار والمناقشات تجري فيها، بالإضافة إلى التعلم لمختلف المعارف والعلوم، ومنها اللغة العربية والدين الإسلامي. فكل من كان يعرف مهنة أو يتقن علما أو لغة كان يتبادله مع

(1) انظر ابن عتيق، أحداث ومواقف ص 136.

زملائه، فكان هناك نظام تعاوني تعليمي حميم، تزيده المحنة المشتركة والآمال الواحدة تلاحما ورضا. كما أننا ذكرنا هذا العدد من السجون لنشير إلى أن عامة الناس كانوا يؤخذون إلى المحتشدات الجماعية وليس إلى هذه السجون المنظمة والمصنفة، وأخيرا نذكر أن الحياة في السجن هي إحدى خطوات العقاب والتعذيب النفسي والبدني.

أما أنواع التعذيب الحقيقي فقد روتها الكتب والشهادات وعاشها الرجال والنساء من أجل استنطاق سجين أو متهم بالانتماء للثورة أو بتقديم المساعدة لها أو أسير أثناء معركة. . . وقد صدرت أيضا كتب وشهادات تستنكر ما ارتكبته الفرق المتخصصة في الجيش والمخابرات والقوات الخاصة من فظائع في حق المعتقلين، وقد فصّل البعض ألوان العذاب الذي صب عليهم أثناء الاستنطاق، وهذه الأنواع هي:

التعذيب بالكهرباء- تشريب الماء- دفن الأحياء- الإجلاس على القناني- تحريش الكلاب الضارية - نزع الأظافر وقلع الأسنان - إطلاق النار وإشهار السلاح - التعليق منكسا - الجلد والركل والضرب بمؤخرات البنادق - الموت البطيء - الإعدام[1].

ومن الكتب التي صدرت في هذا المجال كتاب عنوانه (ضد التعذيب) لهنري سيمون الذي ترجم إلى العربية، وكتاب جول روا (حرب الجزائر) وقد ترجم أيضا إلى العربية وصدر سنة 1961، وكتاب هنري أليغ (الاستجواب) الذي وصف فيه التعذيب كما عاناه شخصيا من جنود المظلات سنة 1958، إضافة إلى قصة موريس أودان الشهيرة. وقد أسهم جان بول سارتر في الموضوع بعارنا في الجزائر، والجلادون (وكلاهما سنة 1958) وسارجان شرايبر (ليطنان في الجزائر) الصادر سنة 1957، وكل هذه الكتب وجدت طريقها إلى

---

(1) أبو القاسم كرو، كتاب البعث: صوت الجزائر، ط.2. مارس، 1958، تونس ص 89-98.

العربية حين صدورها بالفرنسية.

فيما يخص هنري أليغ صاحب كتاب الاستجواب المذكور نشير إلى أنه كان عضوا في الحزب الشيوعي الجزائري ومديرا لجريدة (الجزائر الجمهورية) بين 1950-1955، وهي الجريدة التي منعت من الصدور في سبتمبر من هذه السنة. وفي سنة نوفمبر 1956 دخل أليغ في السرية هروبا من الاعتقال لكن قبض عليه في 12 يونيو 1957 واحتجز في الأبيار مدة شهر، وخلال هذه المدة تعرض لما وصفه في كتابه الاستجواب. وأنهى الكتاب في اللحظة التي كان سينقل فيها إلى معتقل (لودي). ومن هناك سرّب أليغ إلى فرنسا نص الشكوى التي سجلها في آخر يوليو بين يدي المدعي العام بالجزائر وهي الشكوى التي استنكر فيها التعذيب الذي كان هو من ضحاياه. وقد أحدثت الشكوى هزة عنيفة في الأوساط الفرنسية والعالمية. ومنذ ذلك التاريخ راحت الإشاعات تتحدث عن اختفاء أو خطف أو موت هنري أليغ. ثم ظهر في شهر أغسطس وقدّم أمام القاضي. فحم عليه بالسجن المدني بالجزائر.

وقد فتحت محاكمته المجال أمام الآخرين ليقدموا أيضا شكاواهم للمحكمة. ويقول إنه فعل ما فعل دفاعا عن فرنسا لأن اللجوء إلى التعذيب يضر بسمعتها. وقد ذكر من الأشخاص الذين "اختفوا" الشيخ العربي التبسي، والدكتور الشريف الزهار وموريس أودان الذي اعتقل وعذب مثله[1].

في مذكرات محمد الصالح بن عتيق حديث عن "الشيوخ" الذين التقوا في سجن واحد أحيانا وهم: عبد القادر الياجوري، وعلي بن سعد، والسعيد صالحي، ومحمد الشبوكي، وأحمد سحنون، والجيلالي الفارسي، وحمزة بوكوشة، ومصباح الحويذق، وجميعهم أعضاء بارزون في جمعية العلماء،

---

(1) ظهرت الطبعة الأولى من الاستجواب عند مينوي في باريس مع مقدمة لجون بول سارتر، 1958. أما الطبعة الثانية فظهرت عند رحمة في الجزائر 1992، أنظر المقدمة وص 15.

وفيهم الأديب والشاعر والخطيب والواعظ. . . كان ذلك سنوات 1956-1959. وقد ذكر الشيخ ابن عتيق أن هناك شخصيات أخرى سياسية وعلمية مثل: د. رابح كربوس. د. أحمد عروة. د. ابن خليل، د. بوعياد، ود. جناس، ود. ابن عربية، ود. ماطي(أو معطي؟) ود. بلوزادا، والسيد محمود زرطال، والمحامي ابن تومي، والسيد بن ملحة، وأحمد خطاب، وعلاوة السعيد، ومحمد بن تفنة، وعبد القادر عابد، وعلي يحياوي، وسعيد ماموش والعربي رولة. إلى جانب هؤلاء كان هناك مجموعة من طلبة الزوايا قال إنهم كانوا تحت التعذيب يصرخون وهم يعذبون بالماء والكهرباء وقطع الأظافر، فكان صراخهم "تصطك منه الأبدان". وقد فكروا في الهروب عبر قناة. وكانوا على اتصال بالمجاهدين.

وأمام هذه المحن كان الشيوخ وغيرهم يعقدون مجالس يروحون بها عن أنفسهم وعن المعتقلين عموما، وذلك بالقصص والنوادر لكي يخففوا بها من تصرفات الحراس الأجلاف ومزعجات الإدارة[1]. .

وكلما تقدم قطار الثورة اشتدت السلطات الفرنسية في القمع واستعمال وسائل التعذيب للحصول على الأخبار. وسرعان ما بدأت تتكشف الفظائع التي كان يستعملها رجال متخصصون في التعذيب الذي طبق على الطلبة والقادة والشيوخ والشباب المثقف والمواطنين العاديين، بل حتى على النساء والأطفال. وقد صودرت عدة كتب تنعى على "زبانية" الإدارة استعمالهم الوسائل المحرمة، ولكن الضمير العالمي ومنظمات حقوق الإنسان عندئذ كانت في غيبوبة. . . وكأن ما كان يمارس في الجزائر لا يجري على الأرض بل في كوكب آخر. وكانت الأخبار التي لا تكاد تصدق تتسرب من بعض أفراد الجيش الفرنسي الهاربين أو المسرحين، ومنهم أفراد فروا من فرقة اللفيف الأجنبي، وكذلك من بعض الجزائريين الناجين، ومن الذين استيقظت ضمائرهم من رجال

(1) ابن عتيق، ص 158.

الكنيسة وبعض السياسيين الذين كانوا يريدون أن يحتفظوا لهم بمكانة في المجتمع والسياسة. وأخيرا صدرت أخبار التعذيب عن بعض المحامين عن جزائريين وجزائريات في المعتقلات والمحاكم، وبعض المثقفين الذين دفعهم وخز الضمير الإنساني إلى التصريح والاستنكار. وسنذكر بعض هذه المؤلفات والتصريحات التي حاولت الحكومة الفرنسية إخفاءها والسكوت عنها في أول الأمر.

الجرح المتعفن

صدر كتاب سنة 1959 بعنوان (الجرح المتعفن) في باريس احتوى على سرد وقائع التعذيب للطلبة الجزائريين. وقد وصف الكتاب عمليات التعذيب(أنظر سابقا) بدقة، وهي العمليات التي قامت بها الشرطة الفرنسية. وهناك أربعة طلاب هم الذين شهدوا بمحتوى هذا الكتاب. وكانوا من بيين الطلبة الذين أوقفتهم الشرطة في ديسمبر 1958 في باريس، بتهمة المساس بأمن الدولة وهم: البشير بومعزة وموسى قبائلي وابن عيسى سواحي، ومصطفى فرنسيس شقيق أحمد فرنسيس السياسي المعروف. وقامت السلطات بمصادرة الكتاب بعد ظهوره بدعوى أنه يسيء إلى سمعة الشرطة باتهام غير ثابت، وهو الأمر الذي لم يقنع الصحافة الفرنسية فكتبت عنه تعاليق. وقد ظلت المجاهد تنشر تعاليق الصحف الفرنسية حول الكتاب وموقف السلطة منه، على أساس أن التعذيب لا يضر بالمعذب فقط ولكن بالفاعل أيضا، وأشارت إلى أن بومعزة قد نقل إلى سجن مجهول. وفي عدد لاحق أوردت شهادة من بعض الطلبة تؤكد استعمال وسائل التعذيب كما نص عليها الكتاب[1].

وتحت عنوان (وحشية المتمدنين) نقلت المجاهد مقالة لأحد الأطباء الجزائريين كان قد نشرها بالفرنسية في جريدة (الطليعة) المغربية. صور الطبيب

---

(1) المجاهد 45، 29 يونيو، 1959، و46، 13 يوليو 1959، و48، 15 أغسطس 1959، و50، 21 سبتمبر 1959، و51، 21 سبتمبر 1959.

كيف يعذب الفرنسيون المثقفين وغير المثقفين في المعتقلات التي أقاموها لهم. أما المثقف فقد كان يدعى إلى التعاون معهم والبحث له عن مبررات، وبذلك يصبح مجبرا على أداء أحد دورين: التخلي عن الوطنية ومهاجمة قناعاته الفكرية. ويكون المطلوب منه التحدث "بحرية" مع المعارضين للوطنية وتقديم أبحاث عن إنجازات فرنسا وفضائل الاستعمار، وفي هذه الحالة يحيطونه بضباط الشؤون الأهلية (المخابرات) والنفسانيين المختصين. أما الدور الثاني فهو مساءلة أطروحة الثورة والتنكر لوجود أمة جزائرية أو شعب جزائري، وكذلك التنكر للوطنية، ومن ثمة يصبح الثوار أناسا مجرمين في نظره.

بذلك يصبح المثقف أداة في يد السلطة الاستعمارية تستعملها لصالحها ويصبح المثقفون ممثلين مسرحيين بطريقة مقنعة. كما على المثقف في هذه الحالة أن يبرهن بأبحاثه على طريقة مقنعة أيضا. وهو لا يترك وحده بل يكون محاطا بالمستشارين الذين يعطونه نقاطا على أبحاثه وأهميتها، ولا يترك في عزلة بل يكون دائما في جماعة، وقد يعدونه بالخروج من المعتقل إذا أحسن التعامل معهم، ولكنه يواجه وخز الضمير ويصبح متوجسا من نفسه ومن الآخرين: ماذا سيقول عنه إخوانه الذين سيتركهم وراءه يعانون وهو طليق، وقد تراوده أفكار أخرى: ماذا لو التحق بعد ذلك بالمجاهدين، من سيصدقه منهم؟ وما الوصمة التي سيصمونه بها، وهل قام بدور حقيقي أو كان مجرد ممثل؟[1]

كانت وسائل إعلام جبهة التحرير دائمة الحديث عن تعذيب واغتيال المثقفين العاملين في صفوفها. من ذلك ما حدث للمحامي علي بومنجل، والأديب أحمد رضا حوحو، والشيخ العربي التبسي نائب رئيس جمعية العلماء. كما تحدثت عن بلاغات لاتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين حول مسائل سياسية ونقابية تتعلق باضطهاد الطلبة.

وكان اغتيال الدكتور ابن عودة بن زرجب حادثا بارزا في تاريخ اغتيال

(1) المجاهد 81، أول يناير، 1960.

المثقفين مما جعل (البصائر) تقدم العزاء فيه وتنشر الخبر باهتمام كبير وتعلق عليه وتشارك أهالي تلمسان حزنهم عليه، وتشيد بموقفه الوطني. وقد روت ذلك بلهجة متأثرة ومؤثرة فقالت: اغتيل ابن زرجب قريبا من قرية سبدو، حسبما جاء في جريدة (لوموند)، وكان يداوي جرحى الثوار ويمدهم بالأدوية والضمادات. وكان قد اشترى آلة نسخ. ورفضت الرواية الرسمية التي تقول إنه قتل لأنه حاول الفرار واعتبرت ذلك حديث خرافة(1).

وفي العدد الموالي رجعت البصائر إلى الموضوع ففندت نفس الرواية الرسمية وقالت إنه رجل ضعيف الجسم وضعيف النظر ولا يكاد يرى الأوراق من وراء نظاراته السميكة، ولا يسير في الطريق إلا بمشقة لإصابته في حادث سيارة في عهد قريب، فكيف يفلت من قبضة ثلاثة من الدرك ويفر حتى يقتلونه؟(2).

وبعد فترة أصبحنا نملك معلومات وافية عن الطبيب ابن زرجب لم تكن متوفرة عند اغتياله. فهو من مواليد تلمسان في 9 فبراير سنة 1921، ومن عائلة غنية، وكان والده يتاجر في السجائر. وتحصل الابن على الثانوية العامة (الباكلوريا)، وعلى شهادة عليا في الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا، ثم التحق بجامعة الجزائر، ثم بجامعة مونبلييه لدراسة الطب. بدأ نشاطه السياسي الوطني في باريس، عندما أصبح كاتبا عاما لجمعية الطلبة المسلمين بشمال إفريقيا التي كان مقرها 15 شارع سان ميشال، سنة 1942-1943، كما ناضل في اللجنة الفلسطينية العربية. وفي سنة 1945 رجع إلى الجزائر ولكنه لم يلبث أن عاد إلى فرنسا سنة 1948 ليواصل نشاطه الدراسي والسياسي، وقد حصل في نفس السنة على الدكتوراه في الطب في تخصص سرطان الدم. وفتح عيادته في تلمسان.

وبعد اندلاع الثورة انخرط في جبهة التحرير الوطني، فكان يجمع الأدوية

(1) البصائر 351، 27 يناير، 1956.
(2) البصائر، 352، 3 فبراير، 1956.

ويرسلها إلى الثوار. وكان يداوي المرضى ليلا في الجبال المجاورة، وخلال النهار كان يقوم بعلاج مرضاه العاديين في عيادته، وكذلك جرحى الثوار. جرى اتصال بينه وبين هواري بومدين عندما كان هذا مسؤولا على الولاية الخامسة، واتفقا على شراء آلة نسخ (رونيو) بتكليف من جبهة التحرير من أجل طباعة الإعلانات والبلاغات. وكان شراء هذه الآلة ممنوعا إلا برخصة خاصة من الشرطة.

وقدم ابن زرجب وصلا مزيفا بالثمن إلى البائع بوهران ورجعا (هو وبومدين) إلى تلمسان. وافترقا في الرمشي التي تبعد حوالي 25 ك.م شمال تلمسان. كان ذلك يوم 13 يناير 1956، ومنذ ذلك الحين اختفت أخباره. فقد قبض عليه بعد أن وشى به البائع الفرنسي، ثم أطلق سراحه لمعرفة الجهة التي يتعامل معها، وكان تحت الرقابة المشددة، ورافقه ضابطان إلى عيادته. وقد زاره أحد المناضلين (وهو قويدر دالي يوسف) في عيادته وأخبره بالموضوع واستحالة الهروب. لقد أخضعوه للتعذيب فأقر بأن الآلة موجودة في سبدو فنقلوه على متن سيارة (جيب)، وعندما وصلوا إلى دوار ولد حليمة الذي يبعد 4 ك.م من سبدو، حاول الهرب فأطلقت عليه الشرطة النار في 17 يناير 1956. وعندما شاع خبر اغتياله ضج الناس في تلمسان وخرجوا في جنازته بالآلاف (12 ألف حسب التقرير). فكان لحادث اغتياله رد فعل شعبي منقطع النظير، فأفاد الثورة شهيدا كما أفادها طبيبا[1].

أما ولد عودية (واسمه مقران أومقران) فقد تلقى تهديدا بالقتل لأنه كان يحامي على أعضاء جبهة التحرير في فرنسا، وبعد تسعة أيام من اتصاله بالتهديد جرى اغتياله فعلا في باريس في 13 مايو 1959. وقد اتهمت المجاهد منظمة فرنسية إرهابية بقتله لأن القاتل ينتمي إليها. وهذه المنظمة مستعدة في رأيها لاغتيال كل من يحامي على أعضاء الجبهة سواء كانوا جزائريين أو فرنسيين.

---

(1) أنظر مجلة الراصد، العدد الأول، يناير-فبراير، 2002، ص 33.

وقد غطت (المجاهد) حادثة اغتيال ولد عودية وجاءت بأخبار مفصلة عن التعذيب أيضا.

كان ولد عودية عندئذ يحامي على مجموعة من الطلبة اعتقلتهم السلطات الفرنسية(وعددهم خمسة عشر) بتهمة الإضرار بأمن الدولة الخارجي وببعث تنظيم منحل. وكانت محاكمتهم مقررة يوم 23 مايو 1959 في باريس. وعشية المحاكمة وجد المحامي ولد عودية مقتولا عند باب مكتبه. وقد تأجلت المحاكمة شهرا ولكن لم يطلق سراح الطلبة[1].

وقد أخطرت اللجنة التنفيذية لاتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين (UGEMA) المنظمات الطلابية في العالم، فكان للخبر ردود فعل حاضرة مما جعل السلطات الفرنسية تأخذ بعين الاعتبار هذه الاحتجاجات. وقد أوردت (المجاهد) أسماء عدد من هذه المنظمات الطلابية الدولية.

ويمثل اغتيال علي بومنحل ومقران ولد عودية والدكتور ابن زرجب وأمثالهم صفحة من عمليات التصفيات الجسدية التي قامت بها تنظيمات إرهابية أو أجهزة الشرطة والمخابرات الخاصة الفرنسية ضد عناصر المثقفين الجزائريين. وقد أشارت المجاهد (بالفرنسية) في مقالة طويلة إلى ظروف اغتيال ولد عودية وآيت الحسن في بون (ألمانيا)، وظروف اغتيال علي بومنجل في مدينة الجزائر. ولكنها لم تشر ـ حسب علمنا ـ إلى اغتيال الشيخ العربي التبسي ولا أحمد رضا حوحو ولا عبد الكريم العقون ولا الربيع بوشامة وأمثالهم. ولكنها هاجمت الصحافة الفرنسية والطريقة التي عالجت بها موضوع الاغتيالات مثل تسمية ولد عودية بـ"محامي جبهة التحرير". وفي نفس الوقت أشارت المجاهد إلى جميلة بوحيرد وإلى محاميها فيرجيس وإلى المحامية جيزيل حليمي التي حامت عن جميلة بوباشا، وإلى موريس أودان الذي قتل تحت التعذيب لتقديمه خدمات إلى الثورة حسب قناعته الإيديولوجية (الشيوعية). كما

(1) المجاهد 43، أول يونيو، 1959، و48، 10 أغسطس 1959.

أشارت إلى توفيني Thuveny الذي اغتيل في الرباط[1].

إن عمليات الاغتيال ضد المثقفين الجزائريين بلغت مرحلة مكثفة ومعقدة كلما اقترب الاستقلال. ومن أواخر ضحاياها الأديب مولود فرعون. فقد اغتيل مع رفاق له بعد وقف إطلاق النار أثناء اجتماع تربوي في إحدى المدارس. وكانت الدعاوى الفرنسية كثيرة وغير مقنعة، ويظهر أنه كانت هناك انفعالات وسوء تنسيق بين السلطة الرسمية وأجهزتها العاملة في الميدان سواء في الجزائر أو في فرنسا نفسها أو خارجهما.

أدباء اللغة الفرنسية

مقدمات

عندما كنت في القاهرة أيام الثورة سألت الحاج يعلى (محمد يعلى) عن أدباء الجزائر بالفرنسية، وهو نفسه أديب وسياسي، وكان ذلك في منتصف الخمسينات. فقد كنت أسمع عن بعضهم من خلال الدوريات العربية التي أخذت تترجم وتنشر أخبارهم لعلاقة أدبهم بالثورة الجزائرية، ولأن النقاد الفرنسيين كانوا يتحدثون عنهم في شيء من الاعتزاز أحيانا باعتبار أدبهم ما هو إلا نتاج "مدرسة الجزائر" الأدبية الفرنسية، وأحيانا كانت تتحدث عنهم في شيء من الدهشة والاستغراب باعتبار أدبهم أدبا هجينا مركبا من زيجة عربية - فرنسية. وكانت الصحف والدوريات العربية ولوعة بالأدب الأجنبي ولو كان من أتفه الإنتاج إذا كان منتجوه من العرب أنفسهم كحالة الأدب الجزائري الذي اكتشفته تلك الدوريات من خلال اللغة الأجنبية، فكانت "عقدة الخواجة" وراء العناية بأدب محمد ديب وكاتب ياسين ومولود معمري ومولود فرعون ومالك حداد، فانهالوا عليه ترجمة وتعريفا وتنويها بأصحابه الذين كانوا يدافعون عن قضية بلادهم بالقلم لا بالسلاح وبالكلمة لا بالبندقية وبالحوار لا بالعراك،

(1) المجاهد، 43 (بالفرنسية)، 8 يونيو، 1959.

وبصوت المستضعفين لا صوت الثوار الأقوياء، وصوت التسامح والحيرة لا صوت الصمود والثقة في النفس.

سألت حينئذ الحاج يعلى عن جيله من الأدباء فأعطاني قائمة، منها من ذكرتهم سابقا ومضافا إليها: آية جعفر، نور الدين التدافي، الشريف بن حبيلس (أول من كتب القصة في نظره)، وعبد القادر حاج حمو، والشريف الساحلي (الذي تخصص في التاريخ وكتب كتابا بعنوان رسالة يوغرطة وكتابا آخر بعنوان فارس العقيدة عن الأمير عبد القادر)، وسفير البودالي (الذي نظم الشعر وكتب المقالات عن الموسيقى العربية)، وسعد الدين بن شنب (الذي اهتم بالدراسات الأدبية والنقدية ونال شهادة الدكتوراه عن الشعر العربي المعاصر)، وقريبع النبهاني (الذي تخصص في فلسفة الجمال)، وعبد الله نقلي (الذي ألف مسرحية عن الكاهنة)، ومالك واري (الأديب والصحفي). كما نبهني الحاج يعلى أن هناك أدباء فرنسيين من الجزائر وهم ألبير كامو، وإيمانويل روبلس، وجان سيناك.

ولا أدري لماذا لم يذكر لي الحاج يعلى عندئذ مصطفى الأشرف، ربما لأنه ليس شاعرا ولا قصاصا، ولكنه لم يذكر لي بشير حاج علي وهو شاعر وأديب وعضو في الحزب الشيوعي الجزائري، ولا محمد حربي المعروف باتجاهه الماركسي، ولا الصادق هجرس الكاتب والطبيب والعضو أيضا في الحزب الشيوعي الجزائري، ولا عبد الحميد بن زين الأديب الصحفي الاشتراكي أيضا(وهؤلاء جميعا كانوا من أسرة تحرير جريدة -الجزائر الجمهورية- المعروفة باتجاهها اليساري والمشتلة التي نمت فيها معظم الأسماء السابقة، كما لم يذكر لي الحاج يعلى آسيا جبار التي كان نجمها آخذا في الصعود[1].

(1) حديث مع الحاج يعلى في جلسات عديدة في القاهرة سنة 1956 أو 1957.

أما سعد الدين بن شنب فكان من كتاب الدراسات الأدبية والنقدية، كما سبق، وقد نشر عدة مقالات في مجلة (هنا الجزائر) ومجلة (الأديب) البيروتية، و(المجلة الإفريقية)، وبعض الموسوعات. وكان يساهم في الكتابة باللغتين العربية والفرنسية. ومن كتاباته في هذا المجال التي لم يسبق لنا الحديث عنها "كتّاب التعبير الفرنسي" في مجلة الجزائر والصحراء Algérie-Sahara المجلد 2، باريس، وكذلك الموسوعة الاستعمارية والبحرية (موسوعة الإمبراطورية الفرنسية) سنة 1948، ص 252-253، (أما الصفحات من 248-253 فمخصصة للأدب باللغة العربية). وفي فبراير سنة 1957 أصدرت مجلة الجزائر (Algérie) عددا خاصا تضمن أخبارا عن الأدباء والكتاب الآتية أسماؤهم: محمد حربي، مصطفى الأشرف وكاتب ياسين وآخرين من كتاب اللغة الفرنسية، بالإضافة إلى عدد من كتاب اللغة العربية. كما أسهم ابن شنب أيضا في كتاب بعنوان (المدخل إلى معرفة الجزائر) تعاون عليه عدد من الكتاب الفرنسيين، واختص هو بكتابة فصل عن أدباء الجزائر باللغة العربية الفصحى[1].

أنتج كتاب الجزائر بالفرنسية في ميدان الشعر والنثر، لا سيما في القصة والرواية، وفيهم من كتب في النقد الأدبي والدراسة والمقالة الصحفية والفنية. وغلب على بعضهم الشعر كما غلبت على آخرين القصة. وسنتناول أولا بعض القضايا التي اتفقوا فيها والخصائص المشتركة بينهم حين "اكتشف" مثقفو الوطن العربي أن في الجزائر عربا يكتبون أدبهم باللغة الفرنسية فاهتموا بهم وما كادوا يصدقون، وكانت أحداث الثورة تلفت النظر إلى كل ما هو جزائري، وكان الإعلام الفرنسي يسلط الأضواء على مبدعي الأدب الفرنسي في الجزائر معتبرا بعضهم دليلا على نجاح مهمة فرنسا الحضارية التي كانت عنوان احتلالها للجزائر.

وزاد من التركيز على هذا الاهتمام غير المسبوق غياب أي تعريف بالأدب

(1) أنظر جان ديجو، بيبلوغرافيا الجزائر، 1977، ص 15.

العربي خارج الجزائر، ماضيا وحاضرا، فيما عدا الشيخ البشير الإبراهيمي الذي لم يكن يعرفه في المشرق إلا جيل قديم محدود من اللغويين ودعاة السلفية والإصلاح. وهكذا فإن جيلا من المثقفين الفاعلين في المشرق العربي لا يكاد يعرف شيئا عن محمد العيد آل خليفة ولا مفدي زكرياء، ولاحتى ابن باديس صاحب الشهاب والدعوة الإصلاحية التي هزت الجزائر. وبذلك انحصر الاهتمام بالأدب الجزائري في إنتاج جيل من الشباب يكتب بالفرنسية وما تقدمه عنه الصحف الأدبية والنوادي الفرنسية من شهرة ونقد وتعريف وجوائز وتعاليق. وهذا الجيل هو الذي سنقدم بعض أعلامه وإنتاجهم بعد قليل.(عن شعراء هذا الجيل انظر فصل الشعر).

محمد ديب

بلا منازع هو أبو الرواية الجزائرية المعاصرة. هكذا بدأت إحدى البيانات الأجنبية المطبوعة عن محمد ديب. استغرق عهده نصف قرن من العطاء الأدبي. ولد في تلمسان 21 يوليو 1920 من عائلة برجوازية محطمة. تابع دراسته الابتدائية والثانوية في تلمسان ثم في وجدة. بدأ يكتب الشعر ويرسم عندما بلغ خمسة عشر عاما. سمي معلما في وجدة ثم محاسبا في مكاتب الجيش أثناء الحرب العالمية الثانية ومترجما عند جيش الحلفاء. وبعد الحرب رجع إلى تلمسان وأصبح صمما للزرابي. وابتداء من الخمسينات عمل صحفيا في جريدة الجزائر الجمهورية الشيوعية كما كتب في جريدة الحرية، وهي لسان حال الحزب الشيوعي الجزائري. وفي 1952 أصدر أولى رواياته وهي الدار الكبيرة ثم تلتها الحريق ثم النول، وهي ثلاثيته الشهيرة.

بدأ ديب بالقصص والشعر السريالي، وإنما الظروف التي كانت تعيشها الجزائر هي التي دفعته إلى الواقعية، فأصبح روائيا "وطنيا" كما قال (أراغون) الذي اعتبر ذلك من محمد ديب "جرأة" لكونه غامر في دخول عالم الرواية الوطنية الجزائرية. وبعد الاستقلال رجع ديب إلى السريالية والأسطورية

(الميثيولوجيا). وأصبحت روايته أكثر نضجا، فإلى جانب الإلياذة نجد عنده عالم كافكا الجهنمي.

كان ديب كاتبا إنسانيا يستشرف مستقبل الكائن البشري ويشعر بما هو أبعد من الحدود والحواجز. وله أعمال كثيرة وصلت إلى أربعة وعشرين عنوانا بين رواية وقصة وشعر. ومن أعماله المؤلفة بين 1952-1962 الثلاثية المذكورة، وفي المقهى، والظل الحارس (شعر)، ومن يتذكر البحر، وبابا فكران(رواية).

بالقياس إلى زملائه حظي محمد ديب بدراسات تحليلية أكثر وأعمق. فقد ترجمت له جريدة (المجاهد) بعض قصصه ونشرتها في وقت مبكر، واهتم به النقاد الفرنسيون والنقاد العرب على السواء. ففي مقالة كتبها أبو سيف يوسف نشرها في جريدة (المساء) المصرية نقرأ العنوان التالي: (محمد ديب كاتب الجزائر المؤمن بشعبه)، جاء فيها: هناك أدب جزائري فرنسي، وهناك أدب جزائري بالفرنسية. وهو يعني بالتعبير الأول الأدب الذي كتبه مستوطنون فرنسيون في الجزائر، ويعني بالتعبير الثاني موضوع حديثنا وهو الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية. أما الأدب الجزائري العربي أو المكتوب بالعربية فهو غائب في هذه المعادلة.

يقول الكاتب أبو سيف إن الأدب الجزائري بالفرنسية كتبه مسلمون، وهذا هو وجه الدهشة عنده، وهو يمثل أدبا جديدا ويتحدث بصوت قوي وناصع، صوت الحق والبلاد، وهو أدب يبحث عن حلول لمشكلات الشعب. في هذا الجو كتب مولود معمري رواية (التل المنسي) أو (الربوة المنسية) وكتب مولود فرعون رواية (الأرض والدم)، وكتب محمد ديب جزئين من ثلاثيته (الجزائر) وهما البيت الكبير والحريق. إن كتابات هؤلاء ليست صفحات من الدعاية السياسية بل هي أعمال فنية ممتازة يستغرقها شعور وطني دافق" ورغم الفروق بين الأدباء الثلاثة (لاحظ أنه لم يشر إلى كاتب ياسين) فإن محمد ديب يقف على رأس هؤلاء لأنه يمثل الاتجاه الأدبي الجديد "لتفاؤله العميق بمستقبل

شعبه"، وهو يؤمن بالتطور الذي يطرأ على الشعب ليخرج من عبودية الاستعمار إلى الحرية، وهو يعبر عن حياة الغالبية العظمى من الجزائريين، وهم الفلاحون.

لماذا تميز محمد ديب عن زملائه في نظر هذا الكاتب؟ إن نشأته الفقيرة (والواقع أن ديب لم يكن كذلك تماما كما نعرف من سيرته) قد ساعدته على تشكيل تفكيره في المستقبل. فهو أصيل شعبه، وهو يؤمن بأن الشعب "يكافح من أجل حقه في الحياة". ففي الجزء الأول من روايته وهي (البيت الكبير) يصور أسرة أرهقها الجوع، فهناك أرملة معدمة وعليها أن تدبر معاش أولادها لإنقاذهم من الموت. وفي الجزء الثاني(الحريق) يكبر عمر(وهو شخصية ممتدة في أعمال ديب) ويذهب للعمل مع الفلاحين. وهنا تبرز أيضا مشكلة الجوع، لكن الفرنسيين يحرقون أكواخ الفلاحين ويطردون عمر فيرجع إلى أمه التي عليها أن تدبر الخبز لإطعام أبنائها الثلاثة.

لكن الرواية تروي قصة الطفولة الشهيدة في الجزائر، أي مصير الأطفال العرب، وهو الحرمان منذ نعومة أظفارهم. لقد هرب عمر من جحيم البيت لأنه يأكل ما هو لأمه وأختيه، وعمره أحد عشر عاما، وعندما هرب وجد أطفالا مثله يمتلى بهم الشارع وهم يهيمون على وجوههم، يلعبون ثم يكونون مستعدين للهروب أمام الشرطة المدنية... وكانوا يمارسون التسول والنظر في النساء الأوروبيات وأطفالهن المرفهين، ويقارنون بين وضعهم وبين هؤلاء الأطفال، ثم كانوا ينطفئون على إدمان الخمر والسجون. لكن التفاؤل لا يفارق محمد ديب. فقد قال أحد الفلاحين لجاره: إننا نشهد عصرا جديدا... لكن إلى أين؟ فقال له الفلاح الآخر: خيرا يا جارنا محمد، صدقني، لن يكون إلا خيرا، فإن روح شعبنا قد تزلزلت[1].

وكتب الناقد المصري رجاء النقاش مقالة عنوانها (صاحب البيت الكبير) تحدث فيها عن محمد ديب ودوره في الحركة الأدبية رغم أن سنه عندئذ لا

(1) جريدة المساء المصرية، 27 مارس، 1957

تتجاوز السابعة والثلاثين. واعتبره النقاش أبرز كتاب جيله، وأنه بدأ الكتابة بالفرنسية مبكرا، ونظم الشعر وعمره خمس عشرة سنة، وكان يقيم عندئذ في تلمسان بعد أن كان غادرها إلى فرنسا ثم رجع إليها، وقال إن له ثلاثة أولاد لا يعرفون أيضا غير الفرنسية. وهو الأمر الذي جعل ديب حزينا وساخطا على هذا الوضع غير الطبيعي حتى أنه قال لأحد الفرنسيين ذات مرة، وهو يحاوره (وكان هذا الفرنسي متحمسا للاستعمار، واسمه روبير كامب): "هل تظن أنه سواء لدي أن يعرف أولادي لغتهم العربية أو لا يعرفوا سوى اللغة الفرنسية التي بها أكتب"؟ وأضاف النقاش أن لمحمد ديب إنتاجا خصبا، فله رواية كبيرة عن الجزائر تتألف من ثلاثة أجزاء هي: البيت الكبير والحريق و(النول) أو المنسج. كما له مجموعة قصص بعنوان " في المقهى" ، ومقالات وقصائد عديدة. وكان ذلك بالطبع قبل أن ينشر محمد ديب أعمالا أخرى أصبحت الآن معروفة.

وعند رجاء النقاش أن الظاهرة البارزة في أدب محمد ديب هي أن أعماله مصبوغة إلى حد العنف بالمأساة التي تعيشها الجزائر تحت الاستعمار، ونماذجه منتقاة من واقع الحياة التي جربها مع أبناء وطنه. ثم إن الجزائر فريدة في الاستعمار، فكل فرد فيها ذاق وبال الاستعمار بنفسه، والاستعمار هنا ليس قوة عسكرية واقتصادية فقط، ولكنه هو كل ذلك زيادة على القوة الثقافية، واضطهاد الحياة اليومية المتمثل في الإدارة والمدارس والمتاجر. فالجزائري يعيش هذه المواجهة يوميا وفي مختلف المجالات. ورغم القتل والحرق والضحايا فإن ديب احتفظ بمستواه الفني في رواياته إلى الحد الذي وصل به إلى العالمية، كما أن له روحا شعرية خصبة، وهو يتحدث على لسان أبطال واثقين بالنصر رغم المعاناة. وليس هناك غرابة في لغة محمد ديب فقد بدأ حياته بنظم الشعر وله في ذلك ديوان، كما كان أدبه نابعا من حضارة عريقة كانت تمثلها تلمسان التي حافظت على طابعها الحضاري رغم الفقر والحرمان[1].

(1) رجاء النقاش، مجلة الإذاعة المصرية، 29 مارس 1958.

وعلى نفس النسق كتب الأديب والصحفي كامل زهيري أيضا مقالة عن (البيت الكبير: قصة جزائرية للكاتب محمد ديب) مع صورة مرسومة لصاحب القصة، ورسومات أخرى معبرة عن روح صاحب القصة بريشة الفنان حسن فؤاد. وقد حلل زهيري ثلاثية ديبب بأجزائها فقال إن (البيت الكبير) تبدأ قبل الحرب العالمية الثانية وتنتهي بإعلان الحرب، وتصور (الحريق) أيام الحرب، أما النول (المنسج) فتصور الجزائر ما بعد الحرب. أما بطل الثلاثة فهو عمر الذي يظهر في الجزء الأول صبيا يافعا، وفي الجزء الثاني بالغا سن الرشد، وفي الجزء الثالث شابا قويا. ويعتبر البيت الكبير باكورة محمد ديب الذي بلغ عند تأليفه الثلاثين من عمره. وقد تفرغ للأدب، بعد أن مارس مهنا كثيرة، فقد عمل صحفيا، وعامل نسيج، ومحاسبا، ومدرسا ابتدائيا. وتعتبر كتاباته بسيطة إلى حد السذاجة (؟) ولكنها "تخفي دهاء وذكاء وفطنة وفهما عميقا للجزائر والجزائريين"[1].

أما الكاتب الأمريكي جورج جوايو فقد عبر عن رأيه في إنتاج محمد ديب في دراسة قام بها لأدبه وأدب زملائه الجزائريين الذين يكتبون أدبهم باللغة الفرنسية. فقد ألف ديب ثلاثيته وقصصه القصيرة (في المقهى) عندما قام جوايو بدراسته. قال جوايو إن الثلاثية تذكر المرء برواية (أمريكا) لدوس باسوس، فهي لوحة للجزائر عشية الحرب العالمية الثانية، من خلال الأرملة (عيني) وابنها عمر، وهو(أي عمر) يمثل النموذج (البطل؟) والوحدة في الثلاثية بمغامراته.. وتهدف القصة كاملة إلى ميلاد ضمير جزائري متلهف للاعتراف به مع الإصرار عليه. ظهرت البيت الكبير سنة 1952، وفيها وصف لحالة الفقر المدقع في المدينة للعمال الذين لم يقدروا على العيش المحترم أخلاقيا وماديا. فالثلاثية في الواقع ترجمة شخصية (أوتوغرافيا): تشتمل على مغامرات عمرها هو عمر

(1) كامل زهيري، مجلة صباح الخير، 27 فبراير 1958، و6 مارس 1958، وما بعدها ومما يذكر أن البيت الكبير نشرت مسلسلة في المجلة المذكورة.

مغامرات محمد ديب نفسه. كما تمثل الرواية الطبقة العاملة، ورواية الاحتجاج لباسوس وشتاينبك.

أما (الحريق) فقد ظهرت سنة 1954، وفيها نقل محمد ديب فتاه إلى عالم الريف ليكون شاهدا على حالة الفقر لدى الفلاحين أيضا. إن عمر قد شهد في نهاية المطاف بداية الحريق (الثورة) الذي عم البلاد كلها، فالنار قد بدأت ولن تتوقف أبدا. أما (المنسج) فقد ظهرت سنة 1957، وفيها رجع ديب إلى المدينة، وقد أصبح عمر شابا وبدأ يشتغل في نسيج الزرابي. ولكن الحريق انتشر إلى المدينة حيث نزح إليها الفلاحون وهم جائعون عراة. وفي نهاية الثلاثية أصبح عمر رجلا واقفا متمردا يرمز إلى الإنسان الجزائري الجديد، وقد تعلم عمر المعنى الحقيقي للاحترام الإنساني، وقرر ألا يستريح حتى يحقق لنفسه وللبشرية وعيا واحتراما.

لقد ركز ديب على استرجاع الشعب الجزائري حقه في الكرامة أكثر من أي شيء آخر. فهو يقول على لسان الإنسان الجديد: إن الخوف والإهانة والشرف قد أنهكت قوانا، فلم نعد نبدو كبني آدم، وهو يلوم الاستعمار عامة على هذه الحالة، لأن الاستعمار يريد أن يمتلك عمل الفلاح وكذلك ملك الفلاح نفسه، ولابد من إعادة النظر في العلاقة بين المستعمر والمستعمر، فالمسؤول المباشر ليس الأقلية الأوروبية المستوطنة فقط، ولكن الأغلبية المسلمة أيضا لسكوتها، رغم مروءتها، أي أن فرنسا كلها مسؤولة عما حدث[1].

من أعمال محمد ديب الأخرى مجموعة قصص بعنوان (في المقهى)، وقد ترجمها محمد البخاري، ضمن سلسلة كتب ثقافية (الكتاب 13) وتحتوي المجموعة على سبع قصص هي في المقهى، والأرض المحرمة، وابنة العم الصغيرة، وليلة عرس، والصاحب، والانتظار، والوريث السعيد. وسنعود إليها

(1) بحث جورج جوايو مترجم ومنشور في كتابنا: دراسات في الأدب الجزائري الحديث.

بالتعريف والنقد في مناسبة لاحقة[1].

نشرت المجاهد لمحمد ديب عدة قصص عندما كانت الثورة على أشدها. من ذلك قصة التمشيط (راتيساج). وهي تصور عملية قام بها الجيش الفرنسي في تلمسان ونواحيها في بداية الثورة، كما تصور الحياة في تلمسان أثناء العملية، والقصة أخذتها المجاهد من مجموعة (صيف إفريقي) لمحمد ديب. وقد قدمت لها الجريدة بمقدمة طويلة عن الأدب الذي لم يعد صالحا اليوم، و"هو أدب القصور والطبقات المترفة البعيدة عن مشاكل الشعب، لأن العهد الذي يقتصر فيه الأدب على تصور ونقل المشاكل الغريبة... قد انتهى، كما انتهى الترف الفكري والخيالات المريضة... إننا في عهد ثوري أصيل لا يجوز فيه أن يبقى الأدب بمعزل عن حياة الجماهير. لذلك يجب أن تخرج من ثورتنا تجارب تسد هذا النقص".

وهكذا وجهت المجاهد دعوتها إلى الأدباء أن يكتبوا أدبا ملتزما وليس أدب القصور والترف. ودعت إلى أدب يصور حياة الشعب ويعبر عن مطامحه. ومن أجل ذلك أنشأت الجريدة ركنا أسمته (ركن الأدب الثوري) وفتحته لقصص من الصين وأخرى من الفيتنام... وكذلك فعلت مع قصة محمد ديب التي نحن بصددها، إذ جعلتها تحت العنوان نفسه (من الأدب الثوري) بينما نشرت قصائد ابن تومرت (مفدي زكرياء) تحت عنوان آخر قريب منه وهو (من أدب الثورة). ومن الملاحظ أن الجريدةلم تذكر ما إذا قامت بترجمة القصة عن الفرنسية، كما لم تذكر أمامها اسم المترجم. والقصة تصور بدقة حياة الناس في الريف أمام عمليات التفتيش المهينة الدقيقة والمخيفة والقبض على الرجال[2]..

أما قصة (فراق) لمحمد ديب أيضا فقد وضعت لها الجريدة عنوانا فرعيا هو(من الأدب الجزائري). وهي مكتوبة في شكل حوار بين البطل وزوجته.

---

(1) نشر الدار القومية، القاهرة، 1959.

(2) المجاهد، 70، 13 يونيو 1960.

وكان البطل (جمال) مستلقيا على فراشه في دار كبيرة وهو يحلم ويصف السكان كما يظهرون له. وهو يريد أن يتحرر، وأن يفارق هذا النمط من الحياة. وفي مساء يوم حار من شهر أغسطس خرج وشعر بالتحرر وبأنه إنسان. لكن أين ذهب؟ يفهم من الموقف أنه انضم للثورة، ولكن القصة لا تخبرنا بذلك. لقد كان عمر البطل 28 سنة. والملاحظ أن جريدة (المجاهد) لم تقدم للقصة بأية مقدمة تساعد على فهمها وتشير إلى محتواها ورموزها وهدفها[1].

وهناك قصة (مصرع خائن) التي قدمتها المجاهد أيضا لقرائها بمقدمة جاء فيها: هذا هو القسم الثاني والأخير من الفصل الذي عربناه من قصة (صيف إفريقي) التي صدرت بالفرنسية للكاتب الجزائري محمد ديب. وهي قصة تصور كيف فقد باساحلي ابنه وأخذ الفرنسيون آخرين لإعدامهم بسبب "وشاية أوبيع" العياشي لهم. لذلك قتل باساحلي العياشي بمساعدة ابنه (عابد)، ثم رجع إلى مكانه. لقد قتله بفأس في رحبة خاصة بدرس القمح[2].

تناول إذن عدد من الكتاب، العرب والأجانب، حياة محمد أديب وأدبه، وأعجبوا به، ومنهم من انتقده، ورأى فيه آخرون الأديب المتفائل المحب للإنسانية والفقراء، ورأى فيه آخرون الأديب المتشائم الهارب من الحياة. وسنعرض هنا لرأيين آخرين في الموضوع، رأي لويس عوض ورأي أحد الصحفيين الفرنسيين، وسنحاول أن نخرج بصورة واضحة عنه باعتباره أحد رموز هذا الأدب الجزائري المكتوب بلغة المستعمر.

حاول لويس عوض أن يدرس حياة محمد ديب من خلال أعماله لأنه كما قال لم يجد له ترجمة وافية، وكانت أعمال ديب عندئذ خمسة: البيت الكبير والحريق، والمنسج، ومن ذا يذكر البحر وصيف إفريقي. والبيت الكبير هو أشهرها ويأتي بعده في الشهرة : من ذا يذكر البحر؟. أما الأعمال الأخرى

(1) المجاهد 77، 19 سبتمبر 1960.

(2) المجاهد 71، 27 يونيو 1960.

لمحمد ديب وهي في المقهى، وبابا فكران فقد كانت ما تزال بصدد النشر في فرنسا. كما أن لمحمد ديب ديوان شعر بعنوان الظل الحارس. لقد بدأ حياته شاعرا قبل أن يختار القصة ميدانا لنشاطه الأدبي. أما ثقافته فهي فرنسية حيث درس في تلمسان التعليم الابتدائي والثانوي، ومن ثمة كانت كتاباته كلها بالفرنسية.

نشأ محمد ديب في مدينة عريقة هي تلمسان ولكنه عاش طفولة بائسة. أثناء دراسته الابتدائية وقع له حادث وهو مشاهدة طفل فقير في حاجة إلى قطعة خبز، فحز ذلك في نفسه. فأسقط خبزا بالقرب منه وذهب في حال سبيله حتى لا يجرح شعور الطفل بمناولته الخبز. كانت طفولة محمد ديب تعبر عن طفولة كل الأطفال الجزائريين الذين عاشوا حياة البؤس، لذلك فإن الكبار يجدون في روايات محمد ديب ماضيهم وصورة لأنفسهم. وقد واصل ديب تعليمه الثانوي وهو من القلائل الذين أسعفهم الحظ بالدراسة في هذا المستوى. واكتشف وهو في هذه السن اهتمامه بالأدب، فأخذ يقرأ لنوابغ الأدب الفرنسي وغيرهم. واعترف ديب أنه تأثر بروايات (فرجينيا وولف) وبقي تحت تأثيرها إلى بلوغه سن العشرين. وفي الخامسة والعشرين حرر نفسه من تأثير هذه الكاتبة الانجليزية ليستقل بأسلوبه الخاص وبأفكاره. وكان هواه الأول أن يكون شاعرا موهوبا، فأخرج ديوانه (الظل الحارس). ولكنه تحول من الشعر إلى النثر وخصوصا القصة، فكان (البيت الكبير) أول عمل له في هذا الميدان. ثم واصل نشر أعماله الروائية تباعا بعد أن اكتشف نفسه واكتشف فيه النقاد روائيا موهوبا أيضا[1].

كانت مجلة (الليترير فرنسيز) قد طرحت على محمد ديب أسئلة عن قضايا متعددة مثل الحب والمرأة ومستقبل الأدب الجزائري بالفرنسية، فقال عن الحب: إنه بالمعنى الغربي قوة غامضة تمتلك في الإنسان كل جوارحه وهو بهذا

(1) لويس عوض، الأهرام، 16 أغسطس، 1963.

المعنى عاطفة غريبة عن الجزائريين، ولكنها عاطفة بدأت تنبث في تربة بلادهم منذ بدأوا كفاحهم من أجل وطنهم. فكأن ديب بذلك يربط بين الحب والحرية ويجعل بينهما علاقة طردية، حسب تعبير لويس عوض. إن الرجل الذي يستعبد المرأة هو في نفس الوقت غير حر. ويقول ديب إنه بمجرد ما اشتد الكفاح الوطني ولدت روايات الحب الحقيقية في الحياة. . . فالنساء بدأ وجودهن عنده منذ اشتراكهن في المعركة.

وقارن ديب بين شعوره وشعور زملائه الأدباء في موضوع الحب والمرأة. فقال إن كاتب ياسين استشعر (هو وبعض الروائيين الآخرين) موجة دور المرأة قبل حدوثها، أما هو (محمد ديب) ومولود معمري ومولود فرعون فقد كان من المستحيل عليهم التفكير في كتابة رواية غرامية أو التفكير في الكلام عن عاطفة الحب. . . وهو لا يرى في أدب الحب المتوارث منذ قرون تعبيرا صادقا على حد تعبير لويس عوض، فهو مجرد صيغ بلاغية عن الحب والمحبين. ويرى ديب أن شخصية المرأة قوية رغم ما يحيط بها من ظروف تمنع انطلاقها، وأن شخصيتها لا تقل قوة عن شخصية الرجل، بل قد تفوقه. ويبقى ديب يربط دائما بين الرأة ودورها في الكفاح، ويذهب إلى أن الحجاب أعد المرأة الجزائرية إعدادا مسبقا لحياة المقاومة السرية. ولا شك أن بعض الآراء حول الحب والمرأة تمثل هنا وجهة نظر الناقد وليس الكاتب.

أما بالنسبة إلى الأدب الجزائري بالفرنسية فيذهب محمد ديب إلى أنه بعد مرحلة التحرر والدخول في معركة البناء لم يعد أمام هذا الأدب سوى اقتحام مواقع الأدب العالمي. ومن رأيه أن صوت الكاتب سيخفت بعد الاستقلال ولن يبقى هو لسان الحال المعبر لأن الإقبال سيكون على ترتيب البيت وإعادة البناء. وهذه أمور سوف لا تسمح للكاتب بأن يصرخ كما كان يصرخ أغلب كتاب الجزائر. إنهم سيدخلون مرحلة يهتمون فيها بترسيخ وتعميق موضوعات أكثر إنسانية وفردية وستتقلص عندهم الإقليمية. وسيدخل الأدب الجزائري في حركة الفكر العالمي. وهذه الرؤى التي رصدها محمد

ديب قد تحقق الكثير منها بعد الاستقلال. وقد ثنى على رأيه لويس عوض مستشهدا بحركة التاريخ، ذلك أن محمد ديب وأصحابه يعترفون أن أدبهم هو أدب معركة وأدب إقليمي يتعرض لأوضاع لها ما يبررها في زمن معين من أجل إثارة الضمير الإنساني. لكن كتاب الجزائر بالفرنسية -في رأيه- لن يستمروا على هذا المنوال، بل سيصبحون كتابا تهيم أرواحهم بدون جسد تسكنه، أي كتابا عالميين بحكم اللغة التي يكتبون بها[1].

والحقيقة أنه لم يستمر في الكتابة بعد الاستقلال إلا محمد ديب وكاتب ياسين وآسيا جبار، ولكن جيلا جديدا من الكتاب بالفرنسية أخذ في الظهور بعد 1962 أيضا. فإلى أي حد اقتحموا مواقع الأدب العالمي؟ وإلى أي حد ساهموا في ترتيب البيت الداخلي؟ الواقع أنهم وقعوا في حيرة أكبر من التي كانوا فيها بحكم ارتباطهم بالعالمية. فقد ازداد بعضهم بعدا عن شعبهم، وحاول آخرون الاقتراب منه عن طريق العيش داخله كما فعل كاتب ياسين حين استعمل اللغة الدارجة كوسيلة اتصال.

وعلى ذكر الجيل الجديد من الكتاب نشير إلى أن محمد ديب قال عبارة حيرت بعض النقاد، وهي "نحن الجيل الأخير" أي هو وزملاؤه من كتاب اللغة الفرنسية. أما لويس عوض فقد علق على هذه المقولة بأن صاحبها "متشائم" لأنه يعبر ربما عن موقف أناني، وقال إن هؤلاء الكتاب لن يكونوا الجيل الأخير إلا إذا عزلوا أنفسهم عن بيئتهم وقوميتهم واقتلعوا بأيديهم جذورهم، وفروا من معركة الحياة الجديدة، بعد أن صمدوا ضد أخطر عدو للحياة وهو الاستعمار.

والحق أن دراسة مصير جيل محمد ديب تفيد الكثير هنا. فهم قد اضطربوا ووهنت قواهم بعد استقلال بلادهم، وبدلوا آراءهم أو عزلوا أنفسهم عن مجتمعهم. فقد أحس بعضهم أن دوره قد انتهى بعد أن أطلق آخر صيحة.

(1) لويس عوض، مرجع سابق.

وانحرف بعضهم فأصبحوا من دعاة الإقليمية الضيقة والمحلية الجغرافية أو اللغوية وحتى العرقية. وهام بعضهم على وجهه بحثا عن العالمية صعبة الدروب والأشواك. واختفى فرعون لأنه كان ضحية الجرائم الأخيرة للاستعمار. وتأكد مالك حداد بأنه أصبح غريبا في وطنه منفيا في لغة أجنبية فألقى السلاح. ونشط ياسين فترة في معمعة الشيوعية ولكنه اجتهد واستعان بنخبة بلاده اليسارية إلى أن احترق واختفى. واختار محمد ديب المنفي العالمي فكان ربما الوحيد الصادق مع نفسه حين أعلن أنه يمثل الجيل الأخير. أما مولود معمري فقد ارتمى في حبائل الحاقدين على وحدة الجزائر فعزف معهم سمفونية الفصل العرقي واللغوي بين العرب والقبائل، وتحول من أديب رقيق إلى داعية ثقافتين في الجزائر الواحدة وداس على التراث الإسلامي واللغة العربية وحضارة الأجداد من أجل اللغة والثقافة الفرنسية "العالمية".

كاتب ياسين

لعلنا لا نعدو الصواب إذا قلنا إن كاتب ياسين يأتي في الدرجة الثانية في الأهمية الأدبية بعد محمد ديب، رغم أن بعض المعجبين به وأنصاره الإيديولوجيين قد يجعلونه في الدرجة الأولى. فهو في الحقيقة الثاني ظهورا والثاني سنا والثاني سمعة. ولكن الأديبين (ديب وياسين) يلتقيان في الفترة الزمنية (الخمسينات) التي تعتبر فترة اليقظة والثورة والتحرر. وكلاهما تخرج من المدرسة الفرنسية، ونبت في مدينة عريقة من مدن الجزائر التاريخية: محمد ديب من تلمسان عاصمة بني زيان وكاتب ياسين من قسنطينة العاصمة العلمية والمركز السياسي لبني حفص. لكن ديب درس فيما يبدو دراسة منتظمة ونشأ في أسرة مستقرة ولو لم تكن مترفة، بينما ياسين عاش في حالة اضطراب دراسي وشهد وهو فتى أحداث الثامن مايو 1945 التي جرت قريبا من مدينته، وتأثر بالمدرسة اليسارية التي يبدو أن ديب لم يتأثر بها كثيرا، ولكن كليهما كان ناقما على الاستعمار الذي جاء بالتمييز العنصري وبالفقر

والجهل لهما ولمواطنيهم. ولذلك اجتمع الاثنان على الثورة ضد الاستعمار ولكن طريقتهما في ذلك كانت مختلفة. فكان ديب يخاطب العقل والضمير الإنساني ويستعمل طريقة الإيحاء بينما استعمل ياسين العاطفة المشبوبة ولغة الشعر والرمز والأسطورة. وقد حافظ كل منهما على مكانته في المدرسة الأدبية الجزائرية ذات التعبير الفرنسي.

ولد ياسين في السمندو القريبة من مدينة قسنطينة سنة 1929. وبعد الدراسة في هذه المدينة شارك مبكرا في النضال السياسي وعانى من أحداث الثامن مايو، وبدأ نشاطه الأدبي كزميله بالشعر أيضا. وقد نشر في البداية عملا نثريا عن حياة الأمير عبد القادر عبر فيه عن ميوله الوطنية والأدبية المبكرة. ثم نشرت له تمثيلية بعنوان (الجثة المطوقة) أو المحاصرة، ولكنه لم يلفت نظر النقاد والرأي العام الأدبي إلا بروايته الغريبة (نجمة) التي نشرت في فرنسا سنة 1956. فقد اعتبرها النقاد أحسن شاهد على ميلاد الجزائر الجديدة التي كانت تخوض معركة التحرر. ويبدو أن ثقافة ياسين اللغوية كانت محدودة، ولذلك قيل إن محمد ديب هو الذي قرأ نص نجمة وهو الذي صحح لغته المتوترة قبل أن يرى النور في شكل رواية. ومهما كان الأمر فإن النقاد اعتبروا كاتب ياسين عندئذ أحسن من يمثل أدباء شمال إفريقيا من غير الأوروبيين. وكان قد سبقه إلى هذه الشهرة محمد ديب، ومولود معمري، ومولود فرعون ومالك حداد. لقد فهم النقاد أن (نجمة) الهاربة أبدا هي بطلة الرواية الخيالية، وهي تمثل الجزائر المكافحة نفسها كما تصورها ياسين، فهي ابنة امرأة فرنسية وأب جزائري مجهول.

ولنا أن نفهم من هذه الشخصية الغريبة التي اختارها ياسين بطلة لروايته أن ياسين قد تصور الجزائر على غير حقيقتها. فهي ليست امرأة فرنسية إلا إذا اعتبرنا ما كان يشاع من باب التهكم السياسي والدعابة الاجتماعية أن الجزائر "ابنة فرنسا"، وأن مدينة الجزائر هي "باريس الصغرى." وهل نعتبر إذن الاستعمار هو أبو الجزائر؟ من هنا يظهر أن تصور ياسين للجزائر -إذا صح أنه

كان يعنيها بروايته - تصور خاطى من أساسه، وهو تصور يخلخل حقيقة الجزائر التي هي عند السياسيين الوطنيين والمصلحين معلومة الأم والأب ومعروفة الهوية وأن ميلادها لم يبدأ من الاستعمار الفرنسي بل هي أمة قائمة الذات منذ حقب التاريخ، وأن يد الاستعمار قد عملت بالعكس على تشويهها وليس على إعطائها هوية: (أما) فرنسية وأبا جزائريا مجهولين. وقد سئل ياسين نفسه في إحدى المقابلات عن مغزى روايته (نجمة) فأجاب بأنها هي روح الجزائر الممزقة منذ البداية بشتى التوترات الداخلية. فإذا صح هذا النقل عنه فإنه يكون قد تبنى تصور فرحات عباس للأمة الجزائرية حين قال إنه بحث عنها في التاريخ ولم يجدها. أما كاتب ياسين فقد وجدها ولكنها كانت ممزقة ومتوترة ومشوهة لا تكاد تعرف نفسها أو يهتدي إليها الناس.

وقد خاض النقاد في رواية نجمة وتفسير حضورها وغيابها، وفي الأبطال الذين يبحثون عنها فتمرق من بينهم دون أن يظفروا بها. إن الأبطال الأربعة (الأخضر ورشيد ومصطفى ومراد) كانوا يطاردونها فتنفلت منهم. وكانوا يخوضون من أجلها المغامرات للبحث عنها وهي المغامرات التي تشكل إطار الرواية. وبالإضافة إلى الحديث عن هؤلاء وعن نجمة هناك حديث عن الظلم السياسي والاقتصادي في الجزائر ووصف لمعاناة الشعب. ويلوم ياسين الفرنسيين وكذلك أهل بلاده على مصير الجزائر. وقد قلنا إن الرواية كتبت شعرا منثورا. وقد قيل إن كاتب ياسين دخل بذلك إلى مدرسة القصة الجديدة أمثال ناتالي ساروت وميشيل بوثور. . . وتناول الباحث جورج جوايو طريقة ياسين في كتابة الرواية قائلا إنها طريقة ويليام فولكنر الذي اشتهر بالعودة إلى الماضي بصفة متتابعة، اهتماما منه بالمنابع الأولى للإنسان. كما نقل جوايو رأي الناقد الفرنسي موريس نادو الذي سنعود إليه.

ويذهب جوايو أيضا إلى أن أصل الرواية عربي، ويظهر ذلك عنده في مواجهة الإنسان للزمن، أي اختلاط الأزمنة، فالمستقبل يختلط مع الماضي في ديمومة الحاضر. وفي الرواية قدر كبير من الخطابية العربية رغم أن ياسين

يستعمل اللغة الفرنسية كأداة للتعبير. وهو، كما يقول جوايو، يتحدث العربية في حياته اليومية. وهذه إحدى خصائص هذا الأدب الجديد في إفريقيا الشمالية. وقد أوضح جوايو المشكلة الأساسية التي كان يعاني منها أدباء العهد الاستعماري في فرنسا والمتمثلة في كونهم يعيشون في عالمين (العالم الفرنسي والعالم العربي)، لا يريدان أن يفترقا وفي نفس الوقت لا يقران تعاملهما معاملة السيد والعبد. كما أنهم يبحثون على الاعتراف بأدبهم وبشخصيتهم، ويعتبرون أدبهم أدب معاناة لأصحابه لأنهم لا يريدون الانفصال عن العالم الغربي (الفرنسي)[1].

ومن جهتها نشرت مجلة الآداب البيروتية مقالة ترجمتها عن مجلة (إيسبري) الفرنسية، تذهب إلى أن كاتب ياسين جذب إليه الأنظار بنشر تمثيليته (الجثة المحاصرة)، فهو أديب شاب مسلم (جزائري) اقتحم عالم النشر والأدب سنة 1956. ثم نشرت له رواية بعنوان "نجمة" أثارت اهتماما كبيرا ورشحت صاحبها للجوائز الأدبية، سيما وهو يكتب باللغة الفرنسية. ولكنه يختلف عن الكتاب الفرنسيين في تقاليدهم الأدبية، فهو لا يلتقي معهم إلا بوسيلة التعبير ماعدا ذلك، كالأسلوب والإيديولوجية وطريقة علاج القصة فكلها تفصله عنهم. وهو يعرف أنه قدم عملا يتميز به عن غيره من كتاب إفريقيا الشمالية، حتى أنه قال عندما سئل بأنه من الخطأ أن يجمع النقاد هؤلاء الكتاب تحت سقف واحد، فالكتاب الفرنسيون أمثال: ألبير كامو وإمانويل روبليس، وجول روى، يختلفون عن مولود معمري ومولود فرعون ومحمد ديب ومالك واري لأن هؤلاء (الجزائريين) يعبرون بالفرنسية عن مشاعرهم وأفكارهم العربية.

ومن رأي الناقد موريس نادو، أن ياسين قد أدخل قارى نجمة في عالم لا عهد للكتاب الجزائريين بدخوله. إنه عالم غريب وغامض، لذلك يجد فيه

(1) جورج جوايو في كتابنا دراسات في الأدب الجزائري الحديث، مرجع سابق.

القارى الغربي صعوبة كبيرة في الفهم والمتابعة، لأن الرواية تخلو من علاقة الزمان بالمكان، وليس لها شخصيات محددة تعود إلى القصة الموحدة في نهاية المطاف. لقد أهمل ياسين أصول الرواية وجاء بطريقة مغايرة. واليك الصورة التي رأى (نادو) أن ياسين قد بنى عليها روايته، فهو قد بنى عالما كوكبيا أقام في وسطه شمسا هي نجمة يدور حولها عدد من الكواكب الكبيرة والصغيرة، ولكل منها نجمه الخاص. ولئن كانت الشمس ثابتة وكانت تلتمع دائما بالكثافة نفسها فنحن لا نعرفها إلا بانعكاساتها على الكواكب التي تحيط بها والتي تبعدها حركتها أو تقربها من نورها. وكذلك الأمر في شأن النجوم. ولما كانت هذه الكواكب سجينة الحركة نفسها التي تجعلها حاضرة، فإنه ينتج عن ذلك اختلاط تام بين الماضي والحاضر والمستقبل. فهل ذلك هو فعلا ما أراده الكاتب أو هو فقط ما تخليه الناقد؟ وقد رأينا أن إجابة ياسين عندما سئل عن عالمه لا تضيف توضيحا ولا تحدد إطارا حين قال إن نجمة تمثل روح الجزائر[1].

لقد رسمت نجمة على أنها فتاة ثابتة لا تتحرك وإنما تبدو ذات شعر ناري وجمال فتان ونسب خفي أو مجهول، ثم إنها تمثل الأهمية السعيدة أو المنحوسة التي يعلقها عليها الأشخاص الذين يطاردونها. إن الأشخاص الآخرين يمرون بجميع أطوار الحياة، من شباب إلى شيخوخة، ومن طفولة إلى بلوغ، ولكن أربعة من هؤلاء الأشخاص ينتمون إلى جيل واحد، ويعيشون تجارب مختلفة ولكن حبهم لنجمة يجمع بينهم. وهم يطوفون أنحاء الجزائر، وقد جمعتهم المدرسة، ثم طردوا منها وسقطوا في الدرك الأسفل الاجتماعي، ومارسوا الأعمال اليدوية، كما عانوا من التسكع ثم التقوا كعمال في ورشة كان يديرها فرنسي، وكان هذا يهينهم فانتقموا منه، وقتلوا فرنسيا آخر كان يتولى وكالة نقل لأنه أيضا كان يهين المسلمين (الجزائريين) ويتلذذ برؤيتهم يتعذبون.

(1) الآداب، مارس 1957، ص 240، نقلا عن جريدة فرانس أوبسيرفاتور.

فسجنوا، ولكن أحدهم تمكن من الفرار بينما بقي الثلاثة الآخرون في السجن، فكانوا يقضون وقتهم في تذكر نجمة. لقد اكتشفوها بالتدرج ووقعوا في حبها جميعا، وهو الأمر الذي كان يشدهم إلى بعضهم، وكل منهم كان يجتهد في التعرف على نسبها الغامض، فابنة من هي؟ ومن أبوها؟ وهل أمها فرنسية حقا؟ إن عشاقها كثيرون، وإذا كنا قد عرفنا بعضهم، فمن هم الباقون؟ ومن أية سلالة هم؟ ولعل ياسين يشير بذلك إلى ادعاء الفرنسيين أن الغزاة كانوا يتداولون على الجزائر عبر مراحل التاريخ، فهي عشيقة الجميع، وليس لها أب واحد في هذه الحالة[1].

ولكن هذا الرأي لا نجده عند من انتقدوا نجمة. ونحن نرى ذلك قد يكون صحيحا لأن ياسين، بخلاف زملائه الأدباء، كانت له ثقافة تاريخية عبر عنها بكتابه المبكر عن الأمير عبد القادر واستقلال الجزائر.

مولود معمري

لم ينل مولود معمري حظه من الكتابة والتعريف مثلما نال زميلاه محمد ديب وكاتب ياسين، رغم أنه نشر إنتاجه مبكرا وكان أكبر منهما سنا. وهو بالنسبة إليهما من منطقة جبلية من قرية توريرت ميمون البعيدة عن الحواضر. ولد في 2 ديسمبر 1917 وتعلم في قريته، ربما على يدي الآباء البيض الذين كانوا منتشرين في المنطقة، وأدى الخدمة العسكرية الإجبارية في الجيش الفرنسي خلال الحرب العالمية الثانية، فحارب الألمان والإيطاليين. ولا ندري إن كان قد أكمل دراسته الثانوية بطريقة منتظمة ولكننا نعلم أنه تولى التدريس في ثانوية ابن عكنون خلال الأربعينات. وبعد اندلاع الثورة تعرض للاضطهاد، وكاد يقتل لولا تدخل من بعض المثقفين الفرنسيين ومن السلطات نفسها فنفته سنة 1957 أو تركته يذهب إلى المغرب الذي نال استقلاله حديثا حيث عاش في كنف عمه محمد المعمري الوزير المقرب من ملك المغرب. وقد يكون مولود

(1) الآداب، مرجع سابق، ص 241

قد درس أيضا في المغرب أثناء إقامته، وعلى كل حال فنحن لا ندري ما نشاطه الأدبي والسياسي أثناء هذه الإقامة، وهل عمل في مصالح جبهة التحرير هناك.

ومهما كان الأمر فقد رجع إلى الجزائر بعد استقلالها، وتولى قسم الدراسات الإثنية والأنثروبوليجية وتدريس البربرية في جامعة الجزائر متطوعا، ونشط في خدمة الثقافة البربرية حتى أصبح من رموزها المدافعين عنها وعن إحيائها. ومعظم نشاطه كان في مركز البحث الأنثروبولوجي والأثري الذي كان تابعا لوزارة التربية ثم الثقافة، وكان هذا المركز بؤرة يجتمع فيها دعاة وهواة الثقافة البربرية وأنصار الثقافة الفرنسية وأعداء استعادة الهوية العربية الإسلامية للجزائر، بمن فيها بعض الأجانب. وكان إلغاء أو تأجيل إحدى محاضرات معمري في جامعة تيزي وزو سنة 1982 سببا في أزمة بين السلطة وأتباعه. وفي سنة 1989 توفي في حادث وهو عائد من المغرب الأقصى أثناء عاصفة هوجاء. وقد عرفناه خلال الستينات والسبعينات بالجامعة فكان أديبا لبقا رقيق الحاشية كثير الحياء، ولكنه كان لا يرتاح للإسلام الذي يعتبره مسؤولا على تعريب البربر وفصلهم عن أوروبا، كما كان لا يتحدث إلا بالفرنسية رغم دفاعه الظاهر عن البربرية (القبائلية).

لمولود معمري أعمال أدبية قبل وبعد الثورة، ويهمنا هنا ما كتبه عشيتها وأثناءها، فقد نشر أول رواية وهي (الربوة المنسية) في باريس سنة 1953، ثم أردفها برواية (نوم الرجل العادل)، ولا ندري إن كان قد بدأ بقرض الشعر كما فعل زملاؤه، ولا محاولاته الأولى لكتابة القصة. ونعرف من اطلاعنا أن طه حسين كان من أوائل من كتب بالعربية عن الربوة المنسية، وهي القصة التي أثارت ضجتين: الضجة الأولى استقبال النقاد الفرنسيين لها ولصاحبها، خصوصا أنها لا تمس الاستعمار في الصميم وإنما تمس المجتمع الجزائري التقليدي المتمثل في شيخ القرية كرمز للتقاليد وللتراث الإسلامي والمجتمع الجديد المتمثل في الجيل الثائر على الأوضاع وعلى البطالة والأفكار القديمة. ولا ندري إن كان معمري قد اكتفى بذلك أو مس أيضا مسألة المرابطين ومسائل

أخرى حساسة في مجتمع القبائل كالعرف والمرأة والزوايا. ومهما كان الأمر فإن النقاد الفرنسيين رشحوا قصة معمري لجائزة لجان التحكيم الأدبية لسنة 1953 (سنة صدور القصة) احتفاء بهذا اللون من الأدب.

أما الضجة الثانية التي أثارتها رواية معمري فهي موقفه من الوطنية. فقد سببت له هذه الرواية الاتهام بخيانة القضية الوطنية وتلقى عليها العبارات الجارحة لكونه أساء بها في نظر النقاد إلى الوطن وأدان فيها المجتمع الأهلي دون أن يدين فيها الاستعمار الفرنسي. وسنتحدث عن ذلك بعد قليل.

تعرض الأديب والمفكر المصري أنور عبد المالك إلى حادث اختطاف وتغييب مولود معمري في الجزائر سنة 1957. فكتب مقالة في جريدة (المساء) المصرية تحت عنوان (كتاب الجزائر لن يخضعوا لإرهاب الاستعمار: مولود مامري (كذا) من الثورة الفردية إلى الكفاح الشعبي). افتتح مقالته بقوله: منذ أيام قلائل كان مولود معمري (يكتبه مامري) مهددا في حياته. ففي 5 أبريل 1957 هاجمت إحدى الدوريات المسلحة منزله بمدينة الجزائر واختطفته، ولم يعرف مصيره. فاجتمعت لجنة من الكتاب الفرنسيين في فرنسا، وفيها أراغون، وسارتر، وروا وأرسلت برقية احتجاج إلى الحكومة الفرنسية. ثم مرت الأيام، واعتقد الناس أنه قتل . . . ثم وردت الأخبار أنه غادر الجزائر إلى الرباط وأنه هناك يعيش في دار عمه سي معمري الوزير بالحكومة المراكشية. ويرى أنور عبد المالك أن الإبعاد قد يكون تم بقرار من السلطات الفرنسية نفسها. وما يلفت النظر هنا أن الأدباء الفرنسيين والسلطات الفرنسية لم تتحرك حين خطف وقتل، في نفس الفترة، أدباء وعلماء جزائريون آخرون أمثال أحمد رضا حوحو والشيخ العربي التبسي والربيع بوشامة، وعبد الكريم العقون.

ويرى أنور عبد المالك أن مولود معمري قد أتم دراسته في مراكش وباريس، وأصبح مدرسا للأدب في ثانوية ابن عكنون (الجزائر)، وأن روايته (الربوة المنسية) قد عبر فيها عن سخط أبناء الأسر الكبيرة نتيجة أعمال

الاستعمار(؟)، ولكن الرواية لم تتجاوز مجال السخط ولم تصل إلى درجة الثورة أو القيام بعمل إيجابي، إنها تمثل الصراع بين القديم والجديد في القرية وعلى مستواها فقط ولا تتجاوزها إلى الوطن الجزائري. ويمثل النموذج القديم شيخ القرية الذي كان يصرخ دائما في الشباب بأنه جيل ملعون. أما الجديد فيمثله شباب القرية، وفيهم هذه الأسماء التي يبدو أن بعضها غير إسلامي وهي: مدور، ومناخ، ووالي ومقران ورافع وموك. فقد كان هؤلاء كلهم ساخطين على الفقر والضعف والركود، فثاروا على آبائهم. كان هؤلاء الآباء هم المسؤولين على ما حدث لهم وللجزائر من بؤس، وكأن الاستعمار غير موجود في المنطقة ولا يتحمل أية مسؤولية. ويقول عبد المالك إن حدوث الثورة هو الذي فجر الدموع والحزن لدى الأمهات على أولادهن، ثم تنتهي بذلك الرواية نهاية سوداء لأنها ليست رواية ثورية وإنما هي رواية سخط. فقد انفض الشباب وتشتتوا ورضخ مقران لضغط التقاليد فانفصل عن زوجته لأنها لم تنجب له ولدا ذكرا وعاد الغبار إلى القرية.

فكيف يصح هذا الحكم على نهاية الرواية مع أنها نشرت عشية الثورة. هل تنبأت الرواية بحدوث الثورة؟ هل هناك خطأ في تصور الناقد أنور عبد المالك. إن المرجح هو أن هذا الكاتب إنما خلط بين الربوة والرجل العادل أي بعد أن سخط الوطنيون على معمري واتهموه بالانحراف وربما حتى بالخيانة فعاد في (نوم الرجل العادل) ليهاجم الاستعمار مباشرة ويجعله هو المسؤول عما حل بالجزائر من مآس. وبذلك اقترب معمري من الخط الوطني وأدرك أن هناك وطنية جزائرية، وأن الجيل القديم ليس هو المسؤول عما حدث للجزائر. إن هذه الأفكار وما يماثلها موجودة في رواية (نوم الرجل العادل) الصادرة سنة 1957 وليس في الربوة المنسية الصادرة سنة 1953 .

اكتشف معمري -كما قيل- الوطنية الجزائرية إذن في روايته الثانية. وقد جعل أحد أبطاله فيها يجيب كلما سئل عن سبب تصرفاته "أنا جزائري"، كما اكتشف معمري أن الوطن هو وطن الشعب العامل، وليس الراكد الخامل، وان

الأغنياء قد تنكروا للوطن ووالوا الاستعمار، واكتشف أيضا أن الاستعمار يقوم على نظام سياسي مدروس وعلى فلسفة معادية للإنسان والأخلاق، وأن الماضي والحاضر يمثلان خطا واحدا متصلا، وأن الجيل القديم هو الذي مهد الطريق للجيل الجديد وأنه هو الذي ربط بين نضال الأجداد ضد الاحتلال في القرن التاسع عشر وبين الثورة الأخيرة وأن الجميع في سجن كبير يسمى الجزائر. وقد خاطب معمري قومه بأن يضعوا ثقتهم في الكفاح الشعبي لأن شعارات 1789 ما هي إلا شعارات مزيفة.

ولنعد قليلا إلى نوفمبر 1956 فقد بعث معمري برسالة من الرباط إلى أحد أصدقائه يقول فيها: إنه لم يعد يكتب منذ أكثر من سنة وإنه لا يوجد ما يستحق الكتابة عدا المأساة الكبرى والدموع ودم الأبرياء، وقال له إن المجرم الحقيقي والوحيد هو الاستعمار، ولكنه هو لا يدين الرجال وإنما يدين النظام، وإنه يعتبر الرجال الذين يزدهرون في ظل الاستعمار هم المنافقون والخونة[1]. والظاهر أن معمري الذي أصبح تحت حماية عمه في المغرب، وجد الفرصة مواتية ليواصل تعلمه، لأنه عندما رجع إلى الجزائر بعد الاستقلال باشر التعليم في إحدى الثانويات، كما رأينا.

وبعد أكثر من عشر سنوات من نشر الرواية الثانية لمعمري وخمس عشرة سنة من نشر الرواية الأولى، كتب الأديب محمد الصالح دمبري مقالة موثقة بالفرنسية عنوانها (مجادلات حول الربوة المنسية) عن قصة ظهور الربوة المنسية لمولود معمري وردود الفعل الوطنية عليها، والظروف المحيطة بموضوعها. وقد ترجم المقالة إلى العربية حنفي بن عيسى ونشر الترجمة في مجلة الثقافة.

---

(1) هناك خطأ في التواريخ أيضا. فقد سبق لعبد المالك أن قال إن معمري قد نفي إلى الرباط سنة 1957، والآن يتحدث عن مراسلة معمري من الرباط سنة 1956، فكيف نوفق بين هذا وذاك؟ أنور عبد الملك، جريدة المساء المصرية، 12 مايو، 1957.

وبناء على المقالة فإن معمري وقع فيما وقع فيه عبد القادر حاج حمو (الاسم الحقيقي لعبد القادر فكري) حين مجد هو وأمثاله عمل الشاب معمري، وكادت تلك الكتابة (التمجيد) تقضي على مستقبل معمري باتهامه بالخيانة للوطن، إذ وصلته تهديدات وتساؤلات من الأوساط الوطنية الجزائرية[1].

مولود فرعون

ولد مولود فرعون في تيزي هيبل سنة 1913، وهو ابن فلاح فقير، درس في بلدت، ويغلب على الظن أنه درس على الآباء البيض في المنطقة، ثم في مدرسة ترشيح المعلمين ببوزريعة. وقد أهله ذلك لتولي وظيفة مدرس في الأربعاء ناثيراثن وإدارة إكمالية فيها، ثم مديرا لإكمالية بالمدنية في العاصمة. كما تولى وظائف إدارية محلية باعتباره (منتخبا بلديا) بالأربعاء. وقد زار فرنسا عدة مرات، وكان انتماؤه للحركة الوطنية (كانتماء مولود معمري) غير واضح ولا حاسم. ولكنه كان يشعر بإهانة الفرنسيين له وللأهالي عموما رغم أنه درس بلغتهم وكان يتكلمها بطلاقة ويكتب بها.

وفي يومياته تحدث عن شؤون الجزائر العامة كإضراب 1957، وحالة المنتخبين البلديين الذين هددتهم الجبهة بالقتل فاستقالوا، وعن مسألة الاندماج مع الفرنسيين وعن الجزأرة، ووقع على بيان يطالب الجنرال ديجول بوقف إعدام 150 جزائريا. ولكنه كان يعتبر الثورة ضربا من العبث. اختلف مع كامو حول استقلال الجزائر فقد كان كامو يخشى أن تستقل الجزائر فلا يزورها إلا بجواز سفر فقال له فرعون إن المسلم الجزائري كان يسافر إلى فرنسا بجواز سفر، رغم أن المسلم الجزائري لم يعتبر نفسه في يوم من الأيام فرنسيا. اغتيل فرعون من

(1) أنظر المقالة في مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الجزائر، العدد الأول، 1969، ص 166-174. أما ترجمة حنفي بن عيسى فقد نشرت في مجلة الثقافة، 102، 1989.

قبل منظمة الجيش السري، في ضاحية بن عكنون الجزائر، عشية الاستقلال، مع معلمين آخرين[1].

لفرعون أعمال أدبية نشرها أثناء الثورة أو قبلها بقليل، وهو أكبر زملائه الأدباء سنا، ولم يكتسب شهرة كأديب مثل الآخرين. ويبدو أنه كان متفرغا للتعليم وإدارة المدارس والأعمال التربوية أكثر من التفرغ للأدب والنقاش الفكري، خلافا لزملائه. ورغم أنه كان يتردد على فرنسا فإنه لم يستقر فيها وربما لم يدرس فيها أيضا. ومن أعماله الأدبية قصة (الطرق الصاعدة) وهي مترجمة إلى العربية و(الأرض والدم)، بالإضافة إلى اليوميات التي كان يحتفظ بها.

وقد ركز فرعون في أدبه على المحلية مصورا عيشة القبائل، مثل زميله مولود معمري، فلم يتناول الوطن الجزائري ولم تظهر في كتاباته الهوية الوطنية ولا الإيمان بالأمة الجزائرية، وإنما ركز اهتمامه على عادات وتقاليد التي تميزت بها القبائل.

مالك حداد

ولد مالك حداد بقسنطينة في 5 يوليو 1927، ودرس فيها الابتدائي والثانوي ثم تجول كثيرا حول العالم، لاسيما زمن الثورة. سافر إلى فرنسا ليتابع دراسته في القانون (جامعة إيكس) وتونس ونيودلهي وموسكو وسوريا وغيرها. بدأ نشاطه الأدبي بنظم الشعر وصدر له منه ديوان، ثم كتب الرواية أيضا، ولكنه كان غير مكثر. رأيناه واجتمعنا به في عدة مناسبات فكان نعم الإنسان خلقا، وقد جلس إلى جانبي الأيسر في المنصة يوم ألقيت أول محاضرة عامة في قسنطينة سنة 1967. ثم عملنا معا فترة في اتحاد الكتاب يوم أن كان هو رئيسه.

(1) محمد عباس، الشروق اليومي، 7 فبراير 2005، عن يوميات فرعون الصادرة سنة 1962.

ترجمت أعماله إلى العربية على يد حنفي بن عيسى وكذلك ملك أبيض زوجة الشاعر السوري سليمان العيسى.

منذ الاستقلال تخلى مالك حداد عن الكتابة لأنه عانى أزمة نفسية، معتبرا اللغة الفرنسية منفاه، فعاد إلى أحضان الثقافة الوطنية دون أن يبذل جهدا في تعلم اللغة العربية فضلا عن الكتابة بها. وقد انقطع عن الكتابة بالفرنسية منذ الاستقلال. وتولى إدارة الثقافة في وزارة الأخبار في الستينات فقدم خدمات ورؤى للثقافة بالتعاون مع عناصر هامة في الدولة تتفق معه في المشرب والهدف مثل محمد الصديق بن يحي ومصطفى كاتب ومحمد سعيدي، وقد أثرت عليه هو أيضا أحداث 8 مايو 1945 واعتبرها مائة ألف جريمة. أشرف على الصفحة الأدبية في جريدة النصر التي كانت تصدر في قسنطينة بالفرنسية سنوات 1968-1972.

خلافا لبعض زملائه الذين كتبوا باللغة الفرنسية نجد مالك حداد قد عاش الثورة الجزائرية بكل جوارحه ولم يشك أو يطالب بالتفاهم بين الضفتين أو بين الشعبين كما فعلوا، وإنما وقف مع الثورة إلى نهايتها المنتصرة رغم أنه هو القائل : إن وطنه هو الإنسان. بعد اندلاع الثورة تعرض منزله للاعتداء فغادر الجزائر إلى فرنسا وأوروبا وأخذ يدافع عن الجزائر العربية ويدعم الثورة. أدركته الوفاة في الجزائر في شهر يونيو 1978 ونقل جثمانه إلى قسنطينة حيث ووري التراب. توقف عن الكتابة سنة 1961 مفضلا الصمت على الكتابة بلغة يعتبرها منفاه. وقد قيل إنه علم ولده العربية انتقاما من الفرنسية، كما يروى ذلك بعض الأدباء، ولعل مالك حداد بالغ في ذلك الموقف، فلو أنه تعلم العربية وأبقى على الفرنسية كما فعل مالك بن نبي وغيره لكان أجدى على الثقافة والأدب على ما نعتقد[1].

---

(1) أحمد دوغان، شخصيات من الأدب الجزائري المعاصر، ص 69-75، انظر أيضا عبد الحميد بن هدوقة، الجمهورية، 22 جوان 1978.

ولمالك حداد مؤلفات قبل الثورة وأثناءها نذكر منها: الشقاء في خطر (شعر)، واسمع وسأناديك (شعر)، والانطباع الأخير (رواية)، وسأهبك غزالة (رواية)، والتلميذ والدرس (رواية)، ورصيف الأزهار لا يجيب (رواية)، وكلها صدرت بين 1956 و 1960. وله كتاب بعنوان (الحرية ومأساة التعبير لدى كتاب الجزائر)، دمشق 1960.

اعتبر مالك حداد اللغة الفرنسية هي منفاه في وطنه فانقطع عن الكتابة منذ الاستقلال. أما زميله كاتب ياسين فاعتبر اللغة الفرنسية "عصا حرب" واستمر يكتب بها، وكذلك فعل محمد ديب. قد تكون (التلميذ والدرس) أهم أعمال حداد لأن فيها رمزية عن الحياة والحلم ونهاية كل حي. فالبطل قد أضاع حلمه، وقد يكون هو الكاتب يرمز به إلى نفسه. فالرواية نوع من السيرة الذاتية، وربما اعتبر الحياة كلها نوعا من الزيف والحماقة. لقد قال حداد بعد الاستقلال إنه مفصول عن وطنه بالبحر الأبيض المتوسط وباللغة الفرنسية. وهو موقف احترمه من أجله أناس واستخف به آخرون.

اسيا جبار

نوهت هنا الجزائر بالكاتبة الناشئة آسيا جبار، فخصصت لها افتتاحية العدد وتحدثت عن حياتها فقالت إنها تبلغ 22 سنة وإنها متخرجة من مدرسة ترشيح المعلمين (النورمال)، وقارنتها في أدبها الجديد بالكاتبة الفرنسية الصاعدة عندئذ (فرنسوا ساغان)[1]. وفي مقال آخر تعرضت المجلة إلى رواية (العطش) التي نشرتها آسيا جبار عندئذ. كما تحدثت عنها الصحافة الفرنسية الأدبية.

كانت العطش أول رواية جلبت الشهرة لآسيا جبار ونالت بها سمعة مبكرة وتقديرا واستحسانا بين المعاصرين. كتب أحدهم عنها (وهو فرنسي يدعى

(1) هنا الجزائر 70 نوفمبر 1958، ص 48، وأيضا 71، ديسمبر 1958

(F-L.Benos) مقالة نوه فيها بهذه الفتاة البالغة من العمر الثانية والعشرين. وقال إنها درست في شرشال في المدارس الابتدائية والثانوية، وشاركت في مسابقة صعبة في فرنسا، ومع ذلك نجحت فيها وهي المسابقة التي تؤدي إلى دخول مدرسة المعلمات العليا. ونعلم من هذا التنويه أن آسيا جبار كتبت القصة الأولى تحت عنوان (العطش) والثانية بعنوان (المستعجلون). وفي العدد المذكور من المجلة تعريف بروايتها (العطش)[1].

ومهما كان الأمر فإن آسيا جبار ليست هي الأولى من ذلك الجيل الذي أخذ يكتب عن الموضوع نفسه. ففترة الخمسينات فترة حرجة بالنسبة لتطور الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية. فهي فترة ظهور كتّاب الجزائر بالفرنسية الذين لحقت بهم الثورة.

ولدت في شرشال باسم فاطمة الزهراء إيمالين في الرابع من أغسطس سنة 1936، ودرست في مدينتها الأثرية المطلة على البحر، وأظهرت نبوغا مبكرا غير عادي، ودخلت المدرسة العليا للأساتذة ربما لكي تكون أستاذة في التعليم الثانوي. وانتقلت بسكناها إلى البليدة الأقرب إلى العاصمة وإلى المدرسة العليا. والبليدة هي عاصمة سهل متيجة الجميل، وهي واقعة في أسفل الأطلس البحري، وقريبة من القصبة وعمق الحياة العربية الشعبية ومن التاريخ البعيد الذي يرجع إلى عصر المرابطين والعثمانيين والتاريخ القريب حيث أثر الاحتلال الفرنسي بنماذجه الهندسية ومظاهر حضارته ونمط معيشة المستوطنين الأوروبيين الذين ينظرون نظرة دنيا للجزائريين أهل البلاد ويطلقون عليهم اسم (الاندحين) تحقيرا لهم.

في هذا الجو نشأت فاطمة الزهراء إيمالين وبدأت منذ الخمسينات تتعاطى الكتابة باللغة الفرنسية، وهي ما تزال تتردد على المدرسة العليا في الجزائر وفي فرنسا حيث فازت في مسابقة لفتتِ إليها الأنظار.

---

(1) هنا الجزائر 72 يناير 1959.

كان عمرها حوالي اثنتين وعشرين عاما عندما نشرت أول قصة لها، وقد اختارت اسمها القلمي (آسيا جبار) واختارت (العطش) عنوانا لقصتها. ومنذ ذلك التاريخ (1957) والاسم والوصف متلازمان: آسيا جبار والعطش من أجل الأدب والصعود فيه إلى القمة التي بلغتها في نهاية المطاف بفضل مثابرتها وتواضعها واختيارها لموضوعات أهملها الرجال والنساء السابقون وهي الموضوعات المتعلقة بالمرأة والمطبخ والحريم والتقاليد الاجتماعية والأطفال.

وفي الوقت الذي كانت فيه فتيات جزائريات أخريات يقمن بأعمال فدائية في القصبة ومدن الجزائر الأخرى وفي الجبال كانت آسيا جبار تشق طريقها في ميدان الأدب وتبحث في التاريخ حيث سجلت نفسها في جامعة الجزائر. فاستقبل النقاد قصة العطش استقبالا مرحبا فزاد ذلك من دفعها إلى الأمام، وكتبت عنها الصحف. وكانت "نجمة" من نجوم الجزائر الذين ظهروا عندئذ يتقدمهم محمد ديب وكاتب ياسين ومولود فرعون... وعرفت أن مكان الأدب المكتوب بالفرنسية هو باريس فرحلت إليها، وربما ظلت تتردد عليها وعلى عاصمة بلادها طيلة عهد الثورة. وقبل نهاية الثورة تزوجت وأصدرت قصة أخرى هي (فاقدو الصبر) عن بنات جنسها المتعجلات في تغيير واقع الحال الثقافي في الجزائر والطامحات إلى تبني الثقافة الغربية (الفرنسية) بسرعة. وفي سنة 1962 أصدرت قصة جديدة وهي (أطفال العالم الجديد)، وكانت طيلة هذا العهد ما تزال في العشرينات من عمرها، وكانت غير مستعجلة في خطواتها نحو القمة، وربما يمكن القول إنها كانت تعمل في صمت وتأن كأنها تعد مواقع قدميها. وها هي اليوم قد بلغت رواياتها ومسرحياتها حوالي ثلاثة عشر. وفي هذه الأعمال مسرحيات وأشعار، ومنها (أشعار من أجل جزائر سعيدة).

ويهمنا هنا أعمالها المنشورة قبل 1962. يبدو أن آسيا جبار قد تأثرت بالبيئة الاجتماعية والبيئة التاريخية، فأعمالها تتناول تاريخ الجزائر الاجتماعي بشكل جديد، فهي توظف أحداث الماضي، بما في ذلك الأساطير والرموز،

لبناء الحاضر، ولا تتناول ذلك بطريقة مباشرة شأن السياسيين والمؤرخين الأكاديميين، ولكنها تتناول ذلك بالأسلوب الأدبي الشفاف وبطريقة الإيحاء وبعاطفة هادئة لا تجرح ولا تقدح، رغم أنها تضع أصبعها على الجرح، وهي وإن عاشت زمن الثورة، فإنها لم تكتب عن الثورة مباشرة- حسب علمنا- ولكنها وصفت الظروف والأسباب التي أدت إلى الثورة، كما تحدثت عن معاناة المرأة والأطفال، والإنسان الجزائري عامة، نتيجة حرب التحرير، فهي لم تكن غائبة عن المشهد ولكنها كانت تصفه بأسلوبها الخاص، وقد ظهرت معظم أعمالها بعد الاستقلال.

نعم صعدت آسيا جبار "العالمية" بعد الستينات، وحظيت بالجوائز الفرنسية وغيرها، وترجمت أعمالها إلى عدد من اللغات التي منها الإنجليزية، وللأسف لم نعرف حتى الآن أن أعمالها قد ترجمت إلى العربية، رغم أنها تتحدث عن عالم عربي وإنسان عربي وتقدمه للقارى "العالمي" ولاسيما الفرنسي، ولم تبذل هي جهدا في إتقان اللغة العربية والكتابة بها على غرار ما فعل رشيد بوجدرة ومالك بن نبي، وكأنها استمرأت الحياة "الخارجية" مطلقة شعبها وأهلها، غير مبالية بهم فهموا دورها ورسالتها أو لم يفهموا. إنها أديبة ومؤرخة لأناس آخرين وليس لشعبها، وقد أعطاها هذا الخارج ما تريد وأكثر، ربما لأسباب معلومة وأخرى مجهولة، ولكن شعبها بقي يجهلها إلا القليل ممن يلفون لفها ويغزلون غزلها. والغريب أن الأدباء من أمثالها يطيلون ألسنتهم ويبرون أقلامهم للحديث عن "دور الأديب" في مجتمعه وشعبه، ولكنهم عندما يجد الجد نجدهم ينفضون من حوله ويختارون الاختباء وراء العالمية والشهرة ويهربون من التخلف وينسون " التزاماتهم" نحو أنفسهم وبلادهم. ولا نعتقد أن رأينا هذا يعد من باب الخطابية والوطنية الخشبية، بل أنه رأي يدين به أهل البلاد المتقدمة أنفسهم، فهم بالتحديد أدباء بلدانهم وليسوا أدباء بلدان أجنبية. ومن آخر أخبار آسيا جبار أنها انتخبت لعضوية الأكاديمية الفرنسية.

شعراء بغير العربية

حدثت الثورة في وقت كان فيه جيل من الشباب الجزائري يتفتح نحو الأدب باللغة الفرنسية أيضا، سواء في ميدان القصة أو الرواية أو المسرح (وقد درسنا ذلك في محله) أو الشعر، ولذلك عرف عقد الخمسينات بأنه عقد شهد فيه الإنتاج الأدبي خصوبة غير معهودة لاعتبارين الأول أن التعليم المحدود بالفرنسية الذي سمح به الفرنسيون للجزائريين منذ سنة 1945 قد بدأ يؤتي ثماره، كما أن طلاب جمعية العلماء، ولا سيما طلاب معهد ابن باديس، أخذوا يتخرجون وينتجون. أما الاعتبار الثاني فهو وجود الحافز الوطني الذي هو الثورة، فقد فتحت المجال أمام الشباب المثقف/ المتعلم لكي يعبر عن طاقته الأدبية في الحرية والاستقلال، ومن ثمة حدث ذلك التحرك الطلابي الذي عرفته الجزائر منذ 1954 والمتمثل في ميلاد التنظيمات كاتحاد الطلبة ورابطة الطلبة والإضراب عن الدروس والامتحانات ونحوها، وكان الأدب أحد جوانب هذا النشاط، وكان الشعر هو لسان الشباب المتحفز.

ليس غرضنا أن ندرس شعراء الجزائر بالفرنسية حالة بحالة وفردا فردا، والذي يهمنا منهم هو الشعر الذي قالوه في الثورة وليس شعرهم بصفة عامة. والمعروف أن منهم من نشر مجموعات شعرية ومن نشر قصائد في دوريات، ومنهم من جمع أشعارا بالعربية أو البربرية دون أن يكون هو قائلها، ومنهم من قال شعرا ثوريا، ومن اكتفى بالتعبير عن الحرية والطبيعة والمرأة والظواهر الاجتماعية كالفقر والحرمان، ومنهم من يعود شعره إلى الأربعينات ومن تجاوز عهد الخمسينات إلى الستينات وما بعدها.

فهذا السيد محمد بكوشة قد أصدر سنة 1946 مجموعة من الشعر الموزون في تلمسان بعنوان(أشعار حرة)، وهي ذات موضوعات مختلفة، من بينها الاضطهاد الذي عاشه الشعب بعد أحداث 8 مايو 1945، وقد أصدر نفس الشاعر مجموعة بعنوان (آمال) في الرباط، سنة 1958. بينما أصدر أحمد

الشامي (رياح الصحراء) من سعيدة سنة 1951 و(أنشودة الجزائر الشهيدة) 1960 ربما في المغرب، و(الغرق) سنة 1961. ومن جهة أخرى أصدر النبهاني قريبع مجموعات من الأشعار في سنوات مختلفة منها مجموعة (شكاوى العربي) سنة 1954. وأشعار النبهاني تنم عن روح فلسفية إنسانية وليست سياسية. وكان السيد محمد حداد ينشر شعره تحت اسم مستعار، ومنه (النبرة الحادة) سنة 1954 الذي أصدره في مونتكارلو، ونفس الشيء فعله الطاهر باقي الذي نشر تحت اسم مستعار مجموعته (أنا جزائري) وهي تشتمل على أشعار وحكايات، الرباط، 1958، وهو الذي أصدر أيضا (عن الحب والموت) سنة 1959 في الرباط. وقد علق الكاهن جان ديجو على أشعاره وحكاياته بأنها ساذجة.

ومن شعراء هذه المرحلة إسماعيل آية جعفر الذي يبدو أنه كان متقدما في صناعة الشعر، فله (شكوى العرب في القصبة وشكوى الطفلة ياسمينة التي قتلها والدها)، سنة 1951، وقد نشر هذا العمل في الجزائر سنة 1953، وهو الشعر الذي حاز على اهتمام الأدباء والنقاد في لغات أخرى، فنشر في مجلة (الأزمنة الحديثة) الفرنسية، كما ترجم إلى الإنجليزية في أمريكا ونشر سنة 1973، وهو شعر طويل ومثير للحزن والألم نظرا للموضوعات التي تناولها حول القصبة، وحديثه عن الفقر والفقراء. وللشاعر آية جعفر مجموعتان أخريان لم تطبعا وهما (مفترق الشر) و(المخاوف الصغيرة).

ومن هذا الرعيل الهادي فليسي في مجموعته (الرغبة الإنسانية)، باريس 1959، وحسين بوزاهر الذي نشر في باريس أيضا سنة 1960مجموعة بعنوان (أشعار) وهي أشعار عن الثورة وعن الحرية والشعب والمجاهدين، بالإضافة إلى بوعلام خليفة الذي نشر (يقينيات) في باريس 1961، ونور الدين التيدافي الذي غنى لحرب التحرير في مجموعته (الوطن دائما) ونشرها في تونس 1962، ثم محمد حدادي في مجموعته (لا بد من طلوع النهار) سنة 1961.

ولكن هناك شعراء "كبار" ظهروا خلال الخمسينات وارتبطوا بأدب الثورة نثرا وشعرا، منهم مالك حداد، وكاتب ياسين ومحمد ديب. . .فقد نشر مالك حداد ديوانه (الشقاء في خطر) في باريس 1956، تغنى فيه بالمقاومة الوطنية، وقد نوه به النقاد، ويقال إنه تأثر في شعره عندئذ بأدب إيلوار وأراغون. وفي وقت لاحق نشر مالك حداد مجموعة (أستمع إليّ أناديك) في باريس 1961، وقد سبقت أشعاره هذه مقالة عنوانها (الأصفار تصبح مدورة)، وأشعار مالك حداد تعبر عن الجزائر وهي تخوض حرب التحرير وتكافح من أجل الحرية.

أما كاتب ياسين فقد دخل ميدان الأدب بمجموعة شعرية سنة 1946 من عنابة حيث نشر مجموعته (موليلوك). وأعلن مرات عن مجموعات شعرية أخرى ولكنها لم تظهر في الواقع،منها (قصائد الجزائر المضطهدة) 1948، ومجموعة (مائة ألف مخدر) 1958.

ونشر محمد ديب مجموعة شعرية بعنوان (الظل الحارس) في باريس 1961، وهي المجموعة التي كتب له مقدمتها أراغون. وقد أصبحت أشعاره معروفة في عالم الأدباء، وهي تتحدث عن الجزائر الأم وعن المنفى الحديث وعن الغربة الفعلية كما كان يعيشها عندئذ والغربة الرمزية الداخلية، ومحمد ديب تحدث في مجموعته عن ذاته في هذا العالم القلق.

ومن الذين برزوا في ميدان الشعر محمد الحاج يعلى الذي نشرت له (المجاهد) قطعا معبرة عن روح الثورة. فقد احتوت الصفحة الأخيرة من جريدة المجاهد وفي ركن بعنوان (ركن الشعراء المقاومين) قطعة بعنوان (الحرب والتهدئة) وبتوقيع .M.Y الذي قرأناه (محمد يعلى). وقد أهدى هذا الشعر إلى أولئك المعروفين أو المجهولين الذين استشهدوا لكي تعيش الجزائر حرة. وختم القطعة بعبارة الحرية أو الموت. وقد وجدنا للشاعر محمد يعلى قطعا أخرى، واحدة بعنوان (فقراء مدينتي) الذين يقول عنهم إنهم " عند بزوغ كل فجر تراهم على اختلاف أعمارهم يعلو وجوههم الشحوب. . همهم هو

التسكع خلال الديار، بحثا في القمامة، يدفعهم إلى ذلك الإملاق المرسوم على وجوههم. . .أمام كل باب وتحت الأقواس يقضون ليلهم. . .الخالي من الأمل. . . المشحون بالضجر. ما أكثر هؤلاء في مدينتي الجميلة!"

ولمحمد يعلى قطعة أخرى بعنوان (دماء أهل الحق) يقول فيها: "ألواح الحرب القائمة. . .من يقدر على وصفك بالكلمات. . الحرب جحافل من البشر لا يملكون سكنا ولا خبزا، نجوا بمعجزة من الخرائب، وذهبوا ينتظرون الموت على قارعة الطريق. . .الحرب . . .آلاف الزوجات والأمهات يسفحون وابلا من الدموع. . الحرب. .سيل من الدماء! " إن قطعة (فقراء مدينتي) منشورة أيضا في L'Echo بتاريخ 20 أكتوبر 1957. ولمحمد يعلى قطعة أخرى موجودة في أوراقي بالفرنسية عنوانها Aboublie تبدأ هكذا: "قلت لقلبي مع من أتقاسم المرأة غير المخلصة". . . . وهي قصيدة تعود إلى ما قبل الثورة فهي ترجع إلى مايو 1949.

وأثناء وجود محمد يعلى في القاهرة أيام الثورة كنا نلتقي رفقة التارزي الشرفي وحسن الصائم ونتبادل الحديث حول الأدب الجزائري. وأذكر أنني نشرت له قطعة قصيرة في مجلة (الرسالة الجديدة) المصرية بعد أن ترجمتها إلى العربية بمساعدته. وطالما أمدني بمعلومات عن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية. . . ويبدو أنه لم يستمر في التعاطي مع الأدب لأنه غرق في السياسة إلى الأذقان. ولا نشعر بضرورة الترجمة لحياته هنا-على غرار ما فعلناه مع زملائه- لأن الرجل معروف الآن، وقد تولى بعد الاستقلال مسؤوليات كبيرة في الدولة. وهو الآن متقاعد، ونلتقي من وقت لآخر في المناسبات الثقافية.

بالإضافة إلى المجموعات الشعرية المنسوبة لأصحابها أو القصائد الفردية المنشورة في المجلات والجرائد، هناك مجموعات أو مختارات قام غير الشعراء بجمعها وتقديمها للقراء، من ذلك (أشعار بربرية قبائلية) جمعها جان عمروش وطبعت في تونس، 1947. وقد قام مولود فرعون بجمع بعض (أشعار سي

محند) ونشرها في باريس 1960. ولكن مولود معمري هو الذي جمع ديوان سي محند ونشره كله سنة 1969 بعنوان (إيسفرة سي محند)، ولكن جهد معمري خارج عن التاريخ الذي حددناه[1].

وما دمنا نتحدث عن نشر المجاميع فلنشر إلى أن مصطفى الأشرف قد نشر سنة 1953 (أغاني الفتيات العربيات) في باريس، وقد ترجمها من العربية إلى الفرنسية، وهي تتعلق بالحياة اليومية، والغزل، والعمل، مع مقارنة بالشعر الأندلسي. أما دنيس باريه D.Barret فقد نشر مجموعة من الشعر المعاصر تحت عنوان (الأمل والخطاب) Espoir et Parole باريس 1963، وهي وإن ظهرت بعد الاستقلال إلا أنها تحمل تواريخ عهد الثورة وتتعلق بحرب التحرير.

ويجب أن نذكر أنه إلى جانب المجاميع الشعرية (الدواوين) التي نشرها أصحابها هناك القصائد التي نشرت في الدوريات. ومن الذين فعلوا ذلك قبل وأثناء الثورة، نذكر نور الدين عبّه، ورشيد عبد الجليل، ومحمد أبركان، وإسماعيل آية جعفر، وبشير الحاج علي، وقدور محمصاجي ومصطفى الأشرف، ومالك واري. وقد احتوى العدد الخاص من مجلة (النقد الجديد) الصادرة سنة 1960 على مجموعة من الشعر الموضوع والمترجم.

ومن الملفت للنظر في الشعر المكتوب بالفرنسية أن هناك شعراء من الجنس اللطيف بخلاف زميلاتهن اللائي يكتبن بالعربية. ففي الوقت الذي لا نكاد نجد فيه امرأة كتبت شعرا بالعربية في فترة الثورة وجدنا عددا من النساء كتبن الشعر بالفرنسية، وهي ظاهرة تستحق الدراسة من النقاد وعلماء الاجتماع، وإليك بعض الأسماء: ليلى الجبالي، وآسيا جبار، ومليكة أو

---

(1) عرض فيلم (المتمرد) الذي يقدم حياة محند أو محند سنة 2004، وعرضت جريدة الشروق اليومي نبذة وافية عن حياة سي محند (1840-1905) ومغامراته العاطفية والوطنية. أنظر عدد 22 نوفمبر، 2004.

الحسن، وجميلة دبيش، وزهرة زراري.

وأخيرا نشير إلى أن هناك أسماء فرنسية ساهمت في حركة الشعر بالجزائر وارتبطت بعهد الثورة وما بعده وتعتبر مساهمة أصحابها أحيانا مساهمة في حركة التحرير الوطني الجزائري. ومن هؤلاء هنري كريا، وجان سيناك، وجان عمروش، وأنّا غريكي[1].

ومن جهة أخرى نشرت (المجاهد) قطعا شعرية أخرى لجزائريين مجهولين، ولكنها كانت عاطلة من الأسماء. فقد نشرت قطعة لشاعر قالت إنه من ضباط جيش التحرير الشباب، وعنوان قطعته (تحيا الحرية) التي أهداها إلى مقران وعبد المالك وكل الرفاق الذين سقطوا في ميدان الشرف. بالإضافة إلى شاعر شاب آخر من جيش التحرير كتب قطعة عنوانها (الغضب المشروع)، فهو شاعر ضد الظلم، لأن الظلم يقود إلى الغضب. ولعله يقصد بالغضب هنا الحرب ومن ثمة فهو ضد الحرب التي دفع إليها دفعا بسبب القهر والظلم[2].

جريدة المجاهد والقومية العربية

جريدة المجاهد جريدة خبرية وإعلامية وسياسية كانت تدافع عن قضايا الثورة وترد على الإعلام الفرنسي. وكانت إيديولوجيتها هي الإيديولوجية الوطنية الموجهة نحو اليسار. وقد ظلت على هذه الصفة فترة طويلة، ثم أخذت تعالج مسائل الدين والأدب والتاريخ ونحوها ربما باعتبار هذه العناوين جزءا من القيم الوطنية وسلاحا لتعبئة الجماهير وراء الثورة.

وكان الاحتلال الفرنسي قد انتهك الدين الإسلامي فلم يحترم التزاماته

---

(1) رجعنا فيما يتعلق بالشعر بالفرنسية إلى البيبلوغرافيا التي أعدها الكاهن جان ديجو J.Dejeux 1945-19775 ونشرتها الشركة الوطنية... الجزائر، 1979، ص63 وما بعدها.

(2) المجاهد، عدد 2، د.ت.

النصوص عليها في اتفاق يوليو 1830 والمتعلقة بالإسلام والمرأة والممارسات الدينية والأملاك الوقفية والهيئة القضائية ورجال الدين والزهد في مساجدهم وزواياهم. ولكن حين أثار ديجول مشروعا لتعديل القضاء الإسلامي والتشريعات الخاصة بالمرأة تدخلت المجاهد وكتبت عن هذا المشروع الذي سمته حرب ديجول الصليبية في الجزائر. كما تناولت القضاء الإسلامي والسيطرة الفرنسية عليه. وبهذه المناسبة تعرضت المجاهد إلى سجل فرنسا في اضطهاد الإسلام في الجزائر، ودور الكنيسة ورجالها من منظمة الآباء البيض إلى حالة الأيمة المسلمين وكيف تعامل الاستعمار مع الإسلام والأديان الأخرى، ولاسيما موقف فرنسا من قضية فصل الدين عن الدولة[1].

ومما يلفت النظر بهذا الصدد أن عدد 89 من المجاهد بالفرنسية قد احتوى مقالة مطولة (ربما هي مترجمة أيضا في الطبعة العربية) عنوانها (الأمة العربية والثورة الجزائرية)، وللمقالة هامش أحال على دراسات أخرى حول نفس الموضوع. ويلاحظ القارى أن المقالة لا تحمل توقيعا وأن الإحالات هي : الثورة العربية، رقم 27، وعلى طريق الوحدة رقم 28، وغدا، الأمة العربية رقم 29، ثم تطور المجتمع الإسلامي والتجربة الجزائرية رقم 35.

وبالإضافة إلى المسألة القومية كتبت المجاهد عن التاريخ الجزائري برؤية غير تقليدية. ومن ذلك حديثها عن ثورة المقراني وثورة أولاد سيدي الشيخ. ولا يكاد يخلو عدد من المجاهد بالفرنسية من حديث عن الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين ونشاطه النقابي والوطني والقومي[2].

أما المجاهد بالعربية فلم ترجع إلى تاريخ الجزائر البعيد واكتفت بتاريخها مع الاستعمار الفرنسي في أغلب الأحيان. فلم تتناول التاريخ القديم

---

(1) عواطف عبد الرحمن، الصحافة العربية، ص 129-130، انظر أيضا الشؤون الإسلامية في فصل الكتب.

(2) المحاهد - بالفرنسية -، ص 570 من المجلد المطبوع في يوغسلافيا بعد الاستقلال.

ولا الحركة الوطنية الحديثة وإنما تناولت شخصيات من زعماء المقاومة مثل الأمير عبد القادر الذي اهتمت به في عدة مناسبات، وابن باديس، والحاج المقراني، وبوعمامة، وبوشوشة. . . وقد كتبت مرة خلاصة لتاريخ الجزائر منذ العهد العثماني الأخير فتعرضت لتاريخ الأسطول والديون المعروفة بين الجزائر وفرنسا كمقدمة للحديث عن مقاومة الاحتلال الفرنسي، مع صور بريشة فنانين فرنسيين يبدو أنها صور ترجع إلى عهد الأمير عبد القادر. وقد جعلت عنوان المقالة (خصائص النضال الجزائري عبر التاريخ، 1830-1954) وهي تمتد على ثلاث صفحات، ويلاحظ أنها لم تذكر شيئا عن فترة 1900- 1954 ربما حتى لا تأتي على ذكر مصالي الحاج ودوره في الحركة الوطنية[1].

وفي فاتح السنة الأخيرة من عمر الثورة كتبت المجاهد مقالة عنوانها (الثورة الجزائرية والقومية العربية)، وهي مقالة تحليلية طويلة وبدون توقيع. ومن عناوينها الفرعية ما يذكرنا بالمقالة السابقة التي نشرتها المجاهد بالفرنسية، وهي الأمة العربية وحدة لا تتجزأ، وعوامل الوحدة، وعوامل التجزئة وطرق تجاوزها، وطريق الوحدة، ودور الثورة الجزائرية في بناء الوحدة العربية. ونلاحظ أن المقالة كتبت عشية تقدم المفاوضات في إيفيان بين جبهة التحرير والحكومة الفرنسية وتباشير نجاح الثورة التي كانت الجماهير العربية مأخوذة بها. فهذا التناول ينسجم مع الجو المفعم بالآمال في تحقيق الوحدة العربية التي تلعب فيها الجزائر دور المحرك. ذلك أن قارى المقال يلاحظ أن هناك صورة لجيش لتحرير بسلاحه وتحت الصورة كتب: جيش التحرير الوطني الجزائري، مفخرة العروبة[2].

(1) المجاهد، عدد خاص رقم 107 بتاريخ أول نوفمبر 1961.
(2) المجاهد، عدد 113، بتاريخ 22 يناير، 1962.

الفصل الرابع

الإعلام في الثورة

بالإضافة إلى الصحف الفرنسية الناطقة في أغلبها باسم الكولون (الأوربيين) في الجزائر هناك صحف ونشرات كانت ناطقة باسم الأحزاب والهيئات، وأحيانا باسم أشخاص مستقلين أو تابعين لتيار معين. ويهمنا الآن الصحف والمجلات والنشرات التي أصدرها الجزائريون، سواء كانت بالعربية أو بالفرنسية. وننبه إلى أننا كنا تناولنا هذه الصحف في الأجزاء الأخرى من كتابنا في الفترة السابقة للثورة.

الصحافة

صحف جمعية العلماء

أصدرت جمعية **العلماء** جريدة البصائر في سلسلتها الثانية سنة 1947. وهي صحيفة جامعة تعبر عن الاتجاه الإصلاحي السلفي الذي تتبناه الجمعية. وهي تتناول مواضيع ثقافية وعلمية وأدبية وسياسية، وغالبا ما يحمل كل عدد منها افتتاحية بقلم رئيس تحريرها وصاحب امتيازها (الشيخ محمد البشير الإبراهيمي) الذي هو في نفس الوقت رئيس جمعية العلماء. وقد وصفت بأنها كانت محل إعجاب في المشرق والمغرب والأمريكيتين لتنوع مواضيعها ورقي أسلوبها. ووصفها الإبراهيمي وَصفا جامعا فقال إنها "سيف من سيوف الإسلام، وقبس من روح الشرق، ومنبر للعربية، وهي شجى في حلق

الاستعمار، وهي ترجمان أفكار جمعية العلماء". وقد استمرت البصائر في الصدور إلى أبريل سنة 1956، كما سنرى[1].

وفي وقت لاحق (1952) أصدرت جمعية العلماء أيضا جريدة بالفرنسية أسمتها **الشاب المسلم** فكانت صورة لما تنشره البصائر في المواضيع والاتجاه، فاستقطبت نخبة من كتاب الجزائر المتنورين والمتحررين فتناولوا على صفحاتها موضوعات مستقلة ذات اتجاه إصلاحي- تجديدي وطني- أمثال مالك بن نبي، وعمار أوزقان، والشريف ساحلي. وكانت الجمعية تصدرها نصف شهرية من العاصمة وتوجهها إلى الشباب الجزائري المثقف بالفرنسية. وعند صدورها حيتها (المنار) فقالت إنها لسان حال شباب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين باللغة الفرنسية لربط الصلة بين المثقفين بالعربية والمثقفين بالفرنسية. وتمنت لها النجاح "في خدمة التعاليم الإسلامية الخالدة"[2].

وفي سنة 1949 أصدر بعض أعضاء جمعية العلماء جريدة شعبية باسم (الشعلة)، وكان الهدف منها تعرية الفئة الجزائرية المتعاونة مع الفرنسيين ونقدها سواء كانوا من رجال الدين الرسميين أو من الموظفين أو من النواب في المجالس النيابية الفرنسية. صدرت الشعلة بإشراف الأديب أحمد رضا حوحو والشيخ الصادق حماني. وكانت تكتب بأسلوب ساخر وأحيانا بالدارجة وبنبرة حادة ومباشرة تحرك الصخر.

صحف حزب الشعب

كما كان لحزب الشعب/ حركة الانتصار صحفه أيضا، ومنها الجزائر الحرة التي صدرت باللغة الفرنسية بالعاصمة ولكن السلطة الفرنسية صادرتها وهي ما تزال تحت الطبع في عددها الأول، فانتقلت إلى باريس، لأن قانون الصحافة يختلف فيها عن الجزائر. ففي باريس حرية في تعبير لا توجد في

---

(1) المنار 5 أكتوبر، 1951.

(2) المنار 20 يونيو، 1952.

الجزائر، فصدر منها بعض الأعداد، ثم لحقها الأذى هناك أيضا، فتشكلت لجنة للدفاع عن حرية التعبير وأعلنت في المنبر الحر من جريدة (الجزائر الجمهورية) عن استيائها من مضايقة السلطات لجريدة الجزائر الحرة. وعادت الجريدة للصدور بالجزائر مرة أخرى فصدر منها ثلاثة أعداد. ثم تعرضت للمنع من جديد. فاحتجت عن منعها (جبهة الدفاع عن الحرية واحترامها) التي سبق الحديث عنها. وكما هو متوقع فإن مواضيع الجزائر الحرة سياسية في معظمها وتصف حالة الشعب وآماله وتعكس برنامج الحزب في التحرر والاستقلال[1].

وقد رجعت الجريدة إلى باريس مرة أخرى فرارا من الاضطهاد المسلط عليها في الجزائر ولكنها لم تسلم أيضا من المصادرة حين تناولت في أحد أعدادها الشهداء الجزائريين الذين سقطوا يوم 14 يوليو 1953 بمناسبة الاحتفال بعيد الحرية في فرنسا[2].

أما الجريدة الثانية التي أصدرها حزب الشعب/ حركة الانتصار فهي (الجزائر الجديدة)، وهي جريدة صدرت بالعربية بإدارة مصطفى فروخي، النائب عن حركة الانتصار في المجلس الجزائري، وكانت مواضيعها متنوعة.

وبالإضافة إلى الصحيفتين المذكورتين صدرت صحيفتان أخريان قريبتان من حزب الشعب وهما المنار التي ظهرت سنة 1951. وقد كان يرأس تحرير المنار محمود بوزوزو، صاحب القلم الوطني المثقف والفكر النهضوي العربي الإسلامي القريب من تيار جمعية العلماء. وكانت المنار تغطي أخبار الجزائر وتونس والمغرب والمشرق العربي والإسلامي وتكتب عن الأخبار الفنية والاجتماعية، وتتابع أخبار زعيم حزب الشعب مصالي الحاج. وكانت من الجرائد الناجحة ومع ذلك توقفت بسبب الأزمة المالية، فلم يطل عهدها. وهكذا توقفت عن الصدور في فاتح سنة 1954 معلنة عن "أزمة المنار" وقالت

(1) المنار 30 يوليو، 1951 وكذلك 31 أوت، 1951.

(2) المنار 7 أوت، 1953.

إنها احتجبت قبل ذلك مدة شهرين لأسباب مادية، وتأسفت أن للأوروبيين أكثر من عشر صحف يومية وعددهم حوالي مليون بينما الجزائريون ليس لهم صحيفة يومية وعددهم حوالي عشرة ملايين. أما الصحف الأسبوعية -مثل النار- فمهددة بالموت في كل شهر.

أما الصحيفة الأخرى التي دعمت اتجاه حزب الشعب فهي جريدة المغرب العربي التي أدارها الشيخ محمد السعيد الزاهري. وهو أديب واسع الاطلاع تقلب بين عدة تيارات دينية وسياسية. أصدر الجريدة سنة 1948، وكانت جريدة أسبوعية ومساندة لحركة الانتصار، ثم اختفت فترة، وعادت إلى الظهور بالعاصمة في 17 مارس، 1956 ودامت حوالي شهرين، ثم توقفت بعد اغتيال صاحبها في ظروف غامضة[1].

صحافة الحزب الشيوعي وحزب البيان

وكان للحزب الشيوعي جريدة (الجزائر الجمهورية) التي كان لها تأثير بارز على النخبة اليسارية عموما. وكان كتابها من المثقفين المسلمين (الأهالي) والمثقفين الفرنسيين. وقد كتب فيها في بداية حياتهم كل من محمد ديب وكاتب ياسين وألبير كامو... ومن كتابها الجزائريين أيضا الصادق هجرس، والبشير حاج علي، وعبد الحميد بن زين. وكانت صحيفة (الجزائر الجمهورية) أسبوعية ثم يومية، وقد أوقفتها السلطات الفرنسية سنة 1957. كما أصدر الحزب نفسه جريد باسم (الحرية).

وكان لحزب البيان الديموقراطي جريدة (الجمهورية الجزائرية) التي كانت تصدر بالفرنسية، ثم جريدة (الوطن) التي قد تكون باللغة العربية، ولكن لم يصدر منها سوى أعداد قليلة. ومن بين كتاب جريدة الحزب فرحات عباس ونخبة مؤمنة بمبادى الحزب في الحرية والمساواة والاستقلال الذاتي للجزائر في

(1) صالح خرفي، محمد السعيد الزاهري، سلسلة شعراء من الجزائر.

نطاق الاتحاد الفرنسي. كما كان المفكر مالك بن نبي يكتب فيها.

صحف أخرى

واصلت جريدة (النجاح) مسيرتها منذ أوائل العشرينات. وقد بدأت جريدة عربية أسبوعية مستقلة تصدر في قسنطينة برئاسة مامي إسماعيل. ثم تحولت من أسبوعية إلى يومية موالية للإدارة الفرنسية أو محايدة. ولم تتوقف عن الصدور إلا سنة 1956 [1]

مجلة هنا الجزائر

ظهرت مجلة (هنا الجزائر) في مايو سنة 1952 واستمرت على الأقل إلى سنة 1960 إذ اطلعنا منها على عدد 89 وهو صادر في مايو من السنة الأخيرة. ولا ندري إن كانت قد استمرت بعد ذلك فنحن لم نطلع على ما بعد التاريخ المذكور. وكانت تصدر شهريا في قسمين (عربي/ فرنسي) في مجلد واحد، وكل قسم فيها مستقل عن الآخر ولكن بعض المواد من هذا أو ذاك كانت تترجم أو تلخص في القسم الآخر. وكان الغلاف يحمل عادة صورا تراثية أو فنية أو صورة لمدينة جزائرية معينة أو منظرا طبيعيا من إحدى جهات الجزائر، وليس بالضرورة أن يكون في الغلاف المقابل نفس المنظر بل ربما العكس هو الصحيح فكل جهة من الغلاف مستقلة عادة بصورها. وبعد دخول (الصحراء) كعامل في الحرب بين الجزائر وفرنسا أضافت المجلة هذه الكلمة إلى تعريف نفسها فأصبح التعريف ابتداء من أول يناير 1960 هكذا: (هنا الجزائر، مجلة الراديو والتلفزيون الفرنسية بالجزائر والصحراء للقسمين العربي والقبائلي). والملاحظ أن هذا العنوان الطويل غير موجود في الغلاف الفرنسي من المجلة.

حين صدرت مجلة هنا الجزائر أعلنت عن خطتها فقالت إنها تهتم بنشرات الأخبار والمحاضرات والمسامرات العلمية والأدبية والفنية والمنوعات الثقافية

(1) عن خلفيات الصحف المذكورة أنظر أيضا كتابنا تاريخ الجزائر الثقافي.

والأخلاقية والاجتماعية والطبية والفلاحية والرياضية. كما تهتم بإذاعة المسرحيات والحصص الفكاهية والحفلات الغنائية. ووعدت قراءها بأن صبغتها أدبية، ولذلك أخبرت أنها تعنى بتقديم فصول من الأدب العربي عامة والجزائر خاصة وألوان جديدة من الأدب الغربي "بما يعربه الأدباء من إنتاج الكتاب والشعراء الفرنسيين"، وهي تغطي شؤون الحضارة الإسلامية وما يحدث في العالم من تيارات أدبية واتجاهات فكرية. كما اهتمت بنشاط المسرح والموسيقى والسينما والغناء والرياضة، كما سترى[1].

صدرت مجلة (هنا الجزائر) باللغتين العربية والفرنسية عن مؤسسة الإذاعة والتلفزة الفرنسية. وقد تولى رئاسة تحريرها الشاعر المزدوج الثقافة الطاهر البوشوشي، وكان يحررها نخبة من المثقفين الدائمين منهم عبد القادر نور الدين والأخضر السائحي وأحمد بن ذياب والمولود الطياب وأحمد الأكحل. وكانت مجلة جامعة تهتم بالأدب والشعر والعلم والترجمة والتراجم والتاريخ والفن والدين... كما كانت تهتم بأعلام الأدب العربي في مختلف العصور، ولا سيما أعلام العصر الحديث. فأنت تجد فيها أخبار وترجمات جبران خليل جبران وعبد القادر المازني وميخائيل نعيمة وأحمد زكي أبو شادي وعلي محمود طه... وهي تعرف نفسها بأنها "مجلة الإذاعتين العربية والقبائلية للراديو والتلفزيون الفرنسية بالجزائر، أسست لنشر العلوم والآداب والفنون". ونلاحظ أنها لم تذكر شيئا عن اللغة الفرنسية التي تشكل القسم الثاني منها. كما نلاحظ أنها توحي بأنها مجلة ذات رسالة حضارية[2].

جريدة الباتريوت (الوطني)

وعشية الثورة أيضا ظهرت نشرة بعنوان الوطني أو (الباتريوت) المنسوبة

---

(1) هنا الجزائر، مايو 1960، من الافتتاحية. ورغم أنني رجعت إلى كل الأعداد المتوفرة من هذه المجلة فإني لم ألاحظ أنها تعرضت للثورة بطريقة مباشرة.

(2) مقرها 10 نهج هوش، الجزائر. انظر عدد 87 من المجلة، مايو 1960.

للجنة الثورية للوحدة والعمل. وقد قيل إن محمد بوضياف هو الذي كان يشرف عليها. وذكر أحد الكتاب أن (الباتريوت) كان يطبعها محمد العيشاوي مدير مكتب حركة الانتصار في العاصمة. وظهر منها عددان (الثاني والثالث) في شهر مايو، 1954. وكانت تطبع على الحجر (ميموغراف). أما العدد الأول منها فقد ظهر مع ظهور اللجنة الثورية للوحدة والعمل[1].

جريدة الجزائر العربية

في ربيع سنة 1955 ظهر السيد مسعود مجاهد في مراسلتين تتعلقان بإنشاء جريدة عربية لصالح الثورة، المراسلة الأولى إلى الرئيس جمال عبد الناصر والمراسلة الثانية إلى محمد خيضر مدير المكتب السياسي لجبهة التحرير في القاهرة. واسم الجريدة الذي اقترحه مسعود مجاهد هو (الجزائر) أو (الجزائر العربية). وقد عرّف نفسه بأنه عضو جمعية أحباس الحرمين الشريفين، والقاضي الشرفي بقسنطينة، وحامل وسام الاحترام المراكشي من رتبة فارس، ووسام الاحترام التونسي من رتبة ضابط كبير، ومدير جريدة الجزائر العربية التي مقرها في نهج نافاران رقم 8، باريس، القسم التاسع.

في رسالته إلى الرئيس عبد الناصر (مؤرخة في الخامس من أبريل سنة 1955 وتقع في صفحتين كبيرتين) إشادة بزعامته منذ مؤتمر باندونج، وحديث عن تبعية المغرب العربي لمصر وعن علاقة الجزائر بمصر منذ حملة نابليون ومعركة نافارينو، وعن سياسة فرنسا في التدجين والتجهيل وشنها حربا على خيضر وابن بلة وآيت أحمد وزائدي (كذا، ولعله يقصد محمد يزيد) والأحول. وتحدثت الرسالة أيضا عن أن الثورة عملية شعبية من أجل الاستقلال التام وليس الاستقلال الذاتي الذي يشبه التجنس. وقال مسعود مجاهد إن لجنة تحرير الجزائر (لعله يقصد جبهة التحرير؟) طلبت منه التخلي عن منصبه فامتثل وإنه أنشأ جريدة (الجزائر العربية) التي أصدرها في باريس ثم حولها إلى طرابلس

---

(1) ميكال كلارك: الجزائر المضطربة، ط2، 1961، ص 114.

بعد أن حصل على الإذن بذلك من سلطانها (كذا). وكان سيطلب من عبد الناصر الإذن بإصدارها من مصر ولكن وجودها بطرابلس في رأيه سيجعلها أقرب إلى المغرب العربي. وقد أيد هذا المشروع (وهو إنشاء الجريدة) في رأيه زعماء العرب في مصر، ومنهم شيخ الأزهر ووزير الأوقاف والشعب المصري ونبغاء القاهرة. وهو لا يطلب من عبد الناصر أكثر من الدعاء له لأنه مستجاب الدعاء لشبهه بعمر بن الخطاب.

أما الأمر الثاني الذي يطلبه من عبد الناصر فهو أن يهديه صورته ليضعها في مكتب إدارة الجريدة حاملا علم مصر باليد اليمنى قبل أن يحمل علم الجزائر باليسرى. وكتب اسمه هكذا: مجاهد مسعود رئيس مجلس قضاء الجزائر، ومدير جريدة الجزائر العربية، طرابلس، ليبيا، مع الختمين المذكورين لاحقا. وكتب عليها بخط يده "نسخة للجنة تحرير المغرب العربي"[1].

أما رسالته إلى محمد خيضر (المؤرخة في 21 يونيو 1955)، فبدأها بالحمد لله وحده، وخاطبه بالأخ خيدر (كذا)، والإخوة المكلفين بإدارة شؤون لجنة التحرير (جبهة التحرير؟) بالقطر الجزائري العزيز، السلام عليكم.. وهو يعلن له وظائفه وأوسمته التي أشرنا إليها التي حصل عليها من مراكش وتونس. وتحمل الرسالة ختمين، الأول بالعربية وعليه المجاهد مسعود، قاضي محكمة الخروب سنة 1911 (هكذا قرأناه)، أما الختم المكتوب بالفرنسية فهو عبارة "الجمهورية الفرنسية، قاضي محكمة الخروب. أما الختم الثاني فمكتوب فقط بالفرنسية؟ وعليه عبارة إدارة الجريدة العربية "الجزائر".

وتقول الرسالة لخيضر إنهم إذا وافقوا فإنه يريد أن يصدر الجريدة في طرابلس لقربها من المشرق والمغرب، وإنه قابل لأي مكان آخر. فهو يريد إنشاء جريدة لحساب الحركة أي الجبهة، وقد سماها "عربية" لأنها ليست "فرنسية"، وهي تخدم القضية الوطنية "والأمر يكون لكم لا لي".

(1) الأرشيف الوطني، علبة 2.

والرسالة مرفقة بمذكرة قصيرة بالفرنسية عليها الختمان أيضا لكن الختم الفرنسي شطبت منه الكلمة الفرنسية من (الجمهورية الفرنسية) واستبدلت بالجزائرية فأصبحت العبارة "الجمهورية الجزائرية"، وتفول المذكرة لخيضر إن جريدة (الجزائر العربية) ستكون تحت تصرفهم بشكل كامل، مع توقيعه على أنه(مجاهد) المدير، وفي أعلى الورقة "مجاهد مسعود، عضو جمعية الأحباس والرئيس الأول للمحكمة الإسلامية بالخروب (شرفي)، ومدير جريدة (الجزائر)، دون إضافة كلمة العربية[1].

الصحافة المدرسية

ظهرت أيضا صحافة من نوع خاص، وهي الصحافة المدرسية التي تصدر عادة عن مدارس جمعية العلماء، وربما يعود ظهورها إلى ما سبقت الإشارة إليه من أن الجزائريين رغم كثرتهم لا يستطيعون إنشاء الصحف والاستمرار فيها لضعف حالتهم المادية، فعوضوها بالصحافة المدرسية. ولكن هذه الصحافة لا تهتم إلا بشؤون التلاميذ والمعلمين والتربية والأخلاق والتوجيه العام والمحيط، ولا تهتم بأخبار العالم ولا بالأحداث السياسية والاقتصادية.

تنتشر أخبار الصحافة المدرسية في الصحف العادية، ولكن الذي اهتم بها وجمع المعلومات عنها هو الشيخ محمد الحسن فضلاء في كتابه عن معلمي المدارس الحرة[2]، وفي أوراق خاصة سلمني إياها خلال التسعينات من القرن الماضي. والشيخ فضلاء يؤرخ للصحافة المدرسية بدقة ويذكر أسماءها ومن أنشأها. وإذا كان هناك من درس نستخلصه من هذا النشاط التربوي فهو الشعور بأهمية الصحافة والاتصال بين أبناء الحركة الواحدة والإيمان بدور الإعلام المبكر.

يذكر الشيخ فضلاء أنهم كانوا - كمعلمين ومفتشين- يجتمعون في عدة

---

(1) الأرشيف الوطني، مرجع سابق، العلبة 2.

(2) محمد الحسن فضلاء، المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر، دار الأمة، 1999.

مدارس، مثلا وهران وما جاورها. وقد يتوسعون فتنضم إليهم مدارس مستغانم وسيق وغيليزان، كما أن التلاميذ كانوا يكتبون في النشرة الواحدة مهما تباعدوا، فهم يتواصلون مع بعضهم ولو كانوا من غير نفس المقاطعة. من هذه النشرات مجلة الفلاح التي صدر عددها الأول في 30 أكتوبر 1953 عن دار الفلاح بوهران، وهي مجلة باسم التلاميذ، وقد صدر منها اثنا عشر عددا، واستمرت تصدر مدة عام. كما أصدرت نفس الدار مجلة مصورة أخرى في يناير 1954 للتلاميذ الصغار، بعنوان (اقرأ واكتب)، وقد صدر منها ستة أعداد كان آخرها في 20 يوليو من نفس السنة.

وأصدرت مدرسة غيليزان مجلة باسم (الفتح) صدر منها ستة أعداد، وكان مديرها هو الشيخ السنوسي دلاي. وأصدر العربي سعدوني بالحمري سبعة أعداد من مجلة أسماها (أقلام الناشئة). ومن دار الحديث بتلمسان أصدر محمد با أحمد مجلة باسم (الروضة) وصدر منها ثلاثة أعداد. كما أصدر الحسين كرايمية مجلة في عين تموشنت باسم (الإصلاح) صدر منها عددان. ومن تازمالت أصدر عبد الملك فضلاء مجلة باسم (التربية والتعليم)، صدر منها سبعة أعداد. وفي سطيف أصدر بوعلام باقي مجلة (الفتح) فصدر منها خمسة أعداد. أما علي شنتير فقد أصدر مجلة (المدرسة) في سلسلتين الأولى صدر منها أحد عشر عددا بين 1952-1953 والثانية صدر منها أربعة وعشرون عددا ولكن عن المدرسة الرشيدية بشرشال. وهي مجلة طال عهدها. ويقول الشيخ محمد الحسن فضلاء إنه يملك شخصيا مجموعات هذه المجلات أو النشرات المدرسية.

وربما كانت أطول المجلات المدرسية عمرا هي مجلة (التهذيب) التي كان يشرف عليها الشيخ فضلاء نفسه عندما كان مديرا لمدرسة التهذيب بالأبيار. وقد بدأت التهذيب في الصدور في ديسمبر 1954 واستمرت إلى شهر مايو سنة 1962[1].

(1) هذه المعلومات قدمها لي الشيخ فضلاء بنفسه ضمن أوراق للاطلاع عليها، وربما هي موجودة في كتب عن المدارس الحرة.

وقد ساق فضلاء مسيرة مجلة (الفلاح) فقال إنه جاء في عددها الثاني الصادر في 15 نوفمبر 1953 ما يلي: الفلاح مجلة مدرسية قديمة ظهرت في 25 يونيو 1947 تحت اسم الشبيبة الإسلامية، وفي السنة الثانية ظهرت بعنوان (أطفال العرب)، وفي الثالثة ظهرت باسم (الأحداث)، ثم اختفت سنتين، واستيقظت بشرشال تحت اسم (المدرسة)، ودامت سنة كاملة. ثم ظهرت في وهران باسم (الفلاح). وقد نوه بمجلة الفلاح بعض المفتشين والشعراء. فكتب إليها الشيخ إبراهيم مزهودي مفتش مدارس جمعة العلماء في زيارته العملية لوهران منوها فيها بمعلمي مدرسة الفلاح. كما أتحفها الشيخ سعيد الزموشي معتمد جمعية العلماء بوهران بقوله:

أفلحت يا دار الفلاح — بمجلة للعلم والإصلاح
عربت ألسنة ويراعة — ببيان محمد ورباح
ورغمت أنف المستبد — بحكمة وبغير سلاح
فأكرم بالمدير ونخبة — مختارة للعلا والكفاح.

ولكن الفلاح (المجلة والمدرسة) أغلقت سنة 1956، وكذلك المدارس الأخرى بمنطقة وهران، وسجن معلموها ومديروها(1).

الصحافة أثناء الثورة

بعد توقيف صحف المركزيين من حركة الانتصار لم يبق من الصحف الوطنية إلا البصائر التي بقيت تصدر إلى أبريل سنة 1956 كما سيأتي. ورغم أنها أسبوعية فإنها بقيت تمد الرأي العام بأخبار الثورة بافتتاحياتها السائرة في خط الثورة وبفتحها بابا جديدا أطلقت عليه عنوان (يوميات الأزمة الجزائرية)، وهي تقصد بالأزمة الثورة، ولكن التحايل الإعلامي كان ضروريا لأنها لو استعملت كلمة "الثورة" أو ما شابهها لأوقفتها السلطة الاستعمارية فورا. كما

(1) نفس المصدر: أوراق فضلاء.

أن الباب الذي كان يحرره أحمد توفيق المدني باسم (منبر السياسة العالمية) كان يتحدث عما يجري من ردود أفعال نتيجة الوضع في الجزائر.

وبقطع النظر عن المضايقات التي تعرضت لها البصائر وافتتاحياتها الوطنية الواضحة فإن علاقتها بالإدارة الفرنسية، بعد البلاغ الإداري لجمعية العلماء الذي نشرته في 13 يناير 1956 لم تعد كما كانت، فقد تحول التوتر إلى استفزاز وتحول الاستفزاز إلى قمع. ولنذكر هنا أن البلاغ كان صريحا في دعم الثورة والخروج إلى السياسة من الباب الواسع بالنسبة لجمعية تقول لوائحها إنها لا تشتغل بالسياسة وإنما تشتغل بنشر التعليم الحر وترشد الناس إلى شؤون دينهم.

لقد صدر البلاغ بعد الاجتماع العام للجمعية، وتناول "الحالة الحاضرة في القطر الجزائري وموقف الجمعية منها" وكان الاجتماع قد انعقد في مدينة الجزائر بمركز الجمعية يوم السبت 23 جمادى الأولى 1375 و7 يناير 1956. وتضمن نقاطا عديدة أهمها: تهنئة تونس والمغرب باستقلالهما، والتنديد بما كان يجري في الجزائر من فظائع، وإلقاء المسؤولية على النظام الاستعماري عما عاشه الجزائريون منذ 130 من عنصرية وتفقير وتجهيل وحرمان ومحاربة للإسلام والتعليم العربي القرآني ومخق الجنسية وفرض سياسة الاندماج.

كما احتج المجلس على ما يرتكب في مختلف جهات الوطن من موبقات باسم القضاء على الثورة وعلى مدارس جمعية العلماء. وهو يتعاطف مع أحرار الأمة الذين سجنوا أو ألقي بهم في المحتشدات. ويثمن مواقف أحرار العالم وجميع الصحف النزيهة والحكومات الحرة التي أيدت نضال الجزائر. ويعلن أن كل سياسة تقوم على ترقيع الماضي وإجراء "إصلاحات" إنما هي عبث وتيئيس يؤدي إلى الانفجار.

وبهذه اللغة أعلن المجلس بكل صراحة أنه لا يمكن حل القضية الجزائرية إلا بالاعتراف العلني والصريح بكيان الأمة الجزائرية الحر وجنسيتها وحكومتها القومية ومجلسها التشريعي. ويؤكد أنه لا يمكن وضع حد لحالة الحرب

الحاضرة والإقدام على بناء نظام حر جديد إلا بالتفاهم الصريح مع سائر الممثلين الحقيقيين للشعب الجزائري الذين أظهرهم الكفاح.

وقد وقّع على هذا البلاغ القوي الشيخ العربي التبسي النائب الأول لرئيس جمعية العلماء (الغائب في القاهرة)، كما وقعه أحمد توفيق المدني (كاتب عام الجمعية). والغالب أن صياغة البلاغ كانت بقلم الأستاذ المدني[1].

ويبدو أن السلطة الفرنسية لم تستطع صبرا على لهجة هذا البلاغ فبادرت بحجز العدد التالي من البصائر وافتكته من الباعة فلم يصل إلى قراء الجريدة في عدد من جهات البلاد. ولكن الجريدة صمدت ووعدت بقول الحقيقة مهما كلفها ذلك من عنت[2].

أما آخر عدد صدر من البصائر فهو بتاريخ السادس من أبريل سنة 1956، وهو العدد 361 الذي تضمن افتتاحية تحدثت عن دخولها السنة التاسعة. ومما جاء فيها : "والبصائر في سنتها هذه التاسعة تدخل في مرحلة جديدة من مراحل النضال . .سائرة إلى الأمام في خوض هذه المعركة الحاسمة التي يخوضها الشعب الجزائري المكافح لكسر قيوده وأغلاله واسترداد حريته واستقلاله، ولن تحيد البصائر عن طريقها ولن ترجع قيد شعرة عما عاهدت الله عليه حتى تفوز بإحدى الحسنيين، **حسنى السيادة أو حسنى الشهادة**". فهذه لهجة من أشهر السلاح في وجه الاستعمار وعزم على اللاعودة بدون رأس عدوه. ومن الصدف أن آخر قصيدة نشرتها لي البصائر كانت في هذا العدد الأخير (361) وهي قصيدة (الطين). ومهما كان الأمر فإنه بعد توقف البصائر تفرقت هيئة تحريرها إما باللجوء إلى الخارج وإما بالاعتقال في الداخل. وانصهر الجميع في بوتقة الثورة تحت راية جبهة التحرير الوطني.

---

(1) البصائر، 13 يناير، 1956.

(2) البصائر 27 يناير، 1956.

صحافة جبهة التحرير

ذكرنا الصحف الحزبية التي سبقت الثورة. وقد استمر بعضها في الصدور أثناء فترة غير قصيرة بعد الثورة أيضا. فحزب البيان والحزب الشيوعي استمرت صحفهما في الصدور فترة بعد الثورة. كما ظهرت صحف جديدة تدعو إلى التفاهم بين الجزائريين والفرنسيين أصدرها أفراد وراءهم اتجاهات معينة مثل جريدة (المغرب العربي) التي سبق ذكرها والتي اتهمت بخدمة الحركة المصالية، ومثل جريدة (الجزائر أولا) التي أصدرها عمار أوزقان وكانت تعبر عن اتجاه شيوعي ولكن خارج الحزب.

ويبدو أن الثورة نفسها لم تهتم في البداية بالإعلام كوسيلة ناجحة في ربح المعركة وعزل العدو. ولكن إعلام الدوائر الاستعمارية والحاجة إلى كسب الرأي العام الداخلي والخارجي جعلت قادة الثورة يولون اهتماما خاصا للإعلام الوطني لتوضيح أهداف الثورة والرد على الإعلام المضاد. ولم يظهر إعلام الثورة في شكل ناضج من أول مرة وإنما ظهر في شكل يمكن تسميته بالبدائي. فقد تمثل أولا في الكتابات الحائطية، والمناشير المحلية والاتصالات الفردية، بل حتى في وضع قصاصات على جثث الخونة بعد إعدامهم.

يتفق معظم الذين درسوا إعلام الثورة أن البدء كان بالصحافة ثم لحقت بها الإذاعة ثم الوسائل الأخرى من سينما ومؤتمرات ونشرات ومسرح ورياضة ومنظمات وغيرها من وسائل الدعاية والتبليغ. ويمكن القول إنه لم تظهر صحيفة رسمية ناطقة باسم جبهة التحرير قبل مضي سنة على الأقل من اندلاع الثورة.

وأول عدد من جريدة (المقاومة الجزائرية) ظهر في آخر سنة 1955. وقد طبعت في فرنسا أولا، وفي أوائل السنة الموالية بدأت طبعة في المغرب وهي تختلف في أسلوبها وفي تحريرها عن طبعة باريس. وفي منتصف السنة (1956) ظهرت منها طبعة في تونس أيضا، ولم تكن هي نفسها طبعة باريس ولا المغرب

مما يدل على عدم التنسيق بين هيئات التحرير في الأماكن الثلاثة ربما لصعوبة الاتصال. وكانت جريدة المقاومة تدخل إلى الجزائر بطريقة التهريب والتسريب. وكانت تصلنا في القاهرة في طبعة تونس على الأغلب وهي الطبعة العربية. وربما كانت طبعة باريس الفرنسية موجهة للجالية بالدرجة الأولى ثم للرأي العام الأوروبي[1].

ولكن مؤتمر الصومام وضع برنامجا جديدا للإعلام نتج عنه تغيير اسم (المقاومة) إلى (المجاهد). كما جعل جبهة التحرير هي التي تشرف على الإعلام تحت قيادة (لجنة التنسيق والتنفيذ) شعورا منه بأهمية الإعلام وضرورة توحيد مصدره وأسلوبه وتحديد جمهوره. كما قرر المؤتمر إلغاء طبعات جريدة المقاومة المستمد اسمها فيما يظهر من المقاومة الفرنسية أيام الحكم الألماني. بينما اسم (المجاهد) له معنى إسلامي ويعتبر من تراث المقاومة الوطنية الجزائرية عبر فترة الاحتلال الفرنسي. كما أن اسم المجاهد له نداء خاص لدى الجماهير التي طلب منها الانضمام للثورة[2].

رأي زهير إيحدادن

يقول زهير إيحدادن الذي درس إعلام الثورة بتوسع إن هذه ظلت بدون إعلام خاص إلى يونيو 1956. فهي لم تول اهتماما خاصا للإعلام في بداية أمرها وليس لها وسيلة رسمية تعبر من خلالها عن برنامجها وترد بها على خصومها أو على الدعاية المضادة. أما في منذ يونيو فقد صدرت (المجاهد)، وهي جريدة إخبارية سياسية دعائية. ولم تذكر في عددها الأول تاريخ صدورها رغم حديثها عن أحداث وقعت قبل يونيو 1956. بينما جاء في العدد الثالث من

(1) لاحظ أن التسمية - المقاومة - الجزائرية ربما كانت مستوحاة من -المقاومة -الفرنسية أثناء حكم فيشي في فرنسا ومقاومة حركة فرنسا الحرة له وللاحتلال النازي.

(2) للمزيد عن ظروف التغيير من المقاومة إلى المجاهد انظر فقرات القضاء زمن الثورة في فصل آخر.

(المقاومة الجزائرية) التي كانت تصدر في تطوان المغربية أن المجاهد قد صدر منها العدد الأول. وعلى هذا يكون العدد الأول من المجاهد قد صدر في يونيو أو يوليو من نفس السنة، وهي المدة التي بدأ فيها التحضير لمؤتمر الصومام. ولكن مصادر أخرى تقول إن (المجاهد) لم تظهر إلا بعد مؤتمر الصومام، وهو المؤتمر الذي قرر إنشاءها وتوقيف (المقاومة الجزائرية).

ومهما كان الأمر فقد مرت المجاهد بثلاث مراحل. في المرحلة الأولى صدر منها ستة أعداد بالعاصمة حيث كانت تطبع على الرونيو في شكل كراسة أو منشور بإشراف لجنة التنسيق والتنفيذ. وكانت تفتقر إلى مقر ثابت وهو مما صعب الحصول على مادتها وتوزيعها.

وفي المرحلة الثانية طبعت المجاهد في تطوان المغربية بإشراف لجنة التنسيق والتنفيذ أيضا، أي بعد خروج اللجنة من العاصمة نتيجة إضراب فبراير 1957. ويرى البعض أنه في صيف هذه السنة فقط اتخذ القرار بوقف المقاومة الجزائرية والاكتفاء بالمجاهد التي أصبحت هي اللسان المركزي لجبهة التحرير الوطني. كانت المجاهد تطبع حوالي 5000 نسخة في مطبعة إسبانية في شكل جريدة هذه المرة وعلى ورق شفاف، كما كانت تطبع كمية أخرى لتوزيعها في الخارج. وبهذه الطريقة ظهر منها ثلاثة أعداد هي الثامن والتاسع والعاشر. أما السابع فيبدو أنه طبع أثناء إضراب فبراير المشار إليه ولكنه لم يوزع بطريقة عادية. ثم قررت لجنة التنسيق والتنفيذ الانتقال بالمجاهد من تطوان إلى تونس حيث يتوفر الإعلام الأجنبي ووسائل الطباعة الحديثة، كما أن اللجنة نفسها قد اتخذت من تونس مقرا دائما لها. وبذلك تبدأ المرحلة الثالثة من جريدة المجاهد، وهي الأطول والأكثر استقرارا، وهي تبدأ من نوفمبر 1957 إلى الاستقلال 1962 [1].

---

(1) يروي محمد الميلي أنه هو وبعض زملائه جاؤوا إلى العاصمة لإصدار المجاهد في شهر أفريل 1962، أنظر سابقا.

وخلال هذه المرحلة صدرت المجاهد في طبعتين تونسية ومغربية (تطوان ثم الرباط)، وكانت طبعة تونس هي الأصلية، أما المغربية فقد كانت مصورة على التونسية. وفي تونس أصبح للمجاهد مكانة صحفية وإعلامية مرموقة في الأوساط السياسية سواء منها الداخلية أو الخارجية. ومن حيث المبدأ كانت تصدر نصف شهرية غير أنها لم تكن منتظمة، وكانت تصدر في طبعتين فرنسية وعربية. وإذا كان الخط العام واحدا في الطبعتين فإن المحتوى لم يكن دائما طبق الأصل لاختلاف الجمهور في الحالتين. وكان المسؤول على الطبعتين هو رضا مالك، بينما كان محمد الميلي ومنور مروش مسؤولين على النسخة العربية، وفرانز فانون مسؤولا على النسخة الفرنسية(1).

أشرنا إلى أن الإعلام أثناء الثورة بدأ في أغلبه كرد فعل على الإعلام المضاد الفرنسي الذي قاده المعمرون في عاصمة الجزائر وفي غيرها. فقد نشطت الصحف الاستعمارية والإذاعة الفرنسية ضد الثورة باتهامها بالشيوعية أحيانا والفاشية أحيانا أخرى، ووصف رجالها بقطاع طرق همهم السلب والنهب والعدوان. وقد تورطت بعض الصحف الأهلية وحتى بعض الزوايا فدعت إلى المؤاخاة والحوار لحقن الدماء. وأمام ذلك كان على جبهة التحرير أن تتحرك ضد هذه الهجمة التي تهدف إلى النيل من الثورة نفسها.

فباسم الدعوة إلى التفاهم أصدر عمار أوزقان في 18 يوليو 1955 جريدة باسم (الجزائر أولا) دعا فيها إلى الحوار وحقن الدماء، غير أنه لم يظهر من هذه الجريدة سوى عددين. ومما يذكر هنا أن عمار أوزقان المولود في العاصمة سنة 1910 كان كاتبا عاما للفرع الجزائري للحزب الشيوعي الفرنسي سنة 1934. كما كان عضوا في اللجنة المركزية لهذا الحزب سنة 1936). وكان قد تحصل على الشهادة الأهلية ثم بدأ يحفظ القرآن الكريم. ومنذ كان عمره 13 بدأ يعمل

---

(1) زهير إيحدادن "الإعلام الجزائري أثناء الثورة التحريرية"، في مجلة حوليات جامعة الجزائر، عدد 5، 1990-1991، ص 87-88.

كبائع لجريدة (صدى الجزائر) ثم (بريد الجزائر) اللتين تصدران عن الدوائر الاستعمارية في الجزائر.

انخرط أوزقان في الحياة النقابية منذ 1926. وفي 1930 دخل تنظيم الشباب الشيوعي، وفي 1934 رقي إلى كاتب عام لفرع الجزائر للحزب الشيوعي الفرنسي عوضا عن ابن علي بوقرط الذي اغتيل في سبتمبر من نفس العام. ثم أصبح رئيسا لتحرير جريدة (الصراع الاجتماعي)، ونائبا في المؤتمر السابع للكومنتيرن صيف 1935. كان أوزقان معارضا للنجم ثم لحزب الشعب. وقد انفصل عن الحزب الشيوعي الفرنسي ثم رجع إليه، وأصبح نائبا شيوعيا عن العاصمة سنة 1945. وقد اصطدم مع قيادة الحزب الشيوعي الجزائري فطرد منه سنة 1948 لأفكاره الوطنية. وفي سنة 1955 انخرط في جبهة التحرير الوطني وساهم في كتابة محضر برنامج الصومام قبل أن يعتقل بالعاصمة بداية 1958[1].

كما أعاد محمد السعيد الزاهري إصدار جريدته (المغرب العربي) المشار إليها، في 17 مارس 1956 وظهر منها سبعة أعداد ودعا فيها إلى الوحدة بين الوطنيين مما فهم منه مساندة الحركة المصالية. ويذهب إيحدادن إلى أن الجبهة طلبت من الرجلين (أوزقان والزاهري) التوقف عن أسلوب الدعوة للحوار مع السلطة الفرنسية وترك ذلك إلى الجبهة نفسها لأن ذلك الأسلوب لم يعد يفيد وقد فات وقته فامتثل أوزقان وخالف الزاهري فكان جزاءه القتل. وقد صدر آخر عدد من جريدته في 19 مايو 1956[2].

وهكذا توقفت الجرائد المخالفة لجبهة التحرير أو الداعية للحوار. فتوقفت (الجمهورية الجزائرية) حوالي يناير سنة 1956 و(البصائر) في أبريل. وأوقفت السلطة الاستعمارية صحيفة (الحرية) الشيوعية. كما توقفت جريدة

---

(1) بنجامين ستورا: قاموس . . . ط. باريس، 1985، 349-350 .

(2) إيحدادن، مرجع سابق، ص 83-84.

(النجاح) من تلقاء نفسها في نفس السنة. وبذلك لم تبق إلا الصحف الاستعمارية.

كان الإعلام الاستعماري قويا بإمكاناته وأجهزته. وقد اتخذ أسلوبين من الجبهة: الأول عدم الاكتراث بها على أساس أنها ضعيفة وما تقوم به سيرجع عليها سلبا وسيجعلها تفقد قواعدها، والثاني اتهام الجبهة بإراقة الدماء وارتكاب الفظائع. وكانت مقاومة الجبهة للأسلوب الاستعماري قد تمثلت في منع انتشار هذا النوع من الإعلام بين الجزائريين، فعاقبت من يقرأ الصحف الفرنسية كما حرضت على عدم سماع الإذاعة الفرنسية. ثم تبين للجبهة أن المواطنين يستطيعون التمييز بين الحق والباطل، بين ما هو وطني وما هو استعماري. وتأكدت أنه لا بد من إعلام مضاد، ولكن الوسائل كانت ضعيفة بحيث لا تكاد تتعدى الاتصال الشخصي وتوزيع المناشير. كما أن الصحافة الاستعمارية قد تكون مفيدة للثورة لأنها تتحدث عن الثوار وأنشطتهم وعددهم وأسلحتهم وتصريحاتهم. ولذلك شجعت الجبهة صحافة الفرنسيين الأحرار، كالصحف الكاثوليكية أو ما يعرف بصحف الأستاذ (مندوز).

ومع أهمية هذه الإستراتيجية الإعلامية فإنها لم تكن كافية، لأن الصحافة الاستعمارية كانت قوية، ولذلك قررت الجبهة إنشاء إعلام خاص بها له كل مواصفات الإعلام الحديث، وذلك بدخول سوق المنافسة لكسب الرأي العام في الداخل والخارج. فكان أول الغيث هو إنشاء جريدة المقاومة الجزائرية، ثم المجاهد والإذاعة، ثم وكالة الأنباء، وهي الوسائل التي درسناها في مكانها من الكتاب.

كما أنشأت الجبهة وسائل إعلامية أخرى لا تقل أهمية، منها المسرح والسينما والفرقة الفنية وشجعت نشر القصة والشعر والرياضة، وحضور المؤتمرات والندوات والمهرجانات الثقافية والشبابية، بالإضافة إلى إعطائها أهمية للمحافظ السياسي في الولايات الذي كان يلعب دورا إعلاميا فعالا[1].

---

(1) إيحدادن، مرجع سابق، ص 85.

جريدة المجاهد

كانت المجاهد تصدر أول مرة في مدينة الجزائر في شكل نشرة بحجم الكراسة تقريبا قبل أن تصبح جريدة. وقد ظهرت أول مرة في يونيو 1956 وكانت تطبع على الرونيو، وكانت تصدر بالفرنسية ثم تترجم إلى العربية في حوالي ست صفحات، وقد دمر مقرها ومعداتها وأتلفت وثائقها أثناء معركة الجزائر الشهيرة وإضراب 1957. كما تشتت أعضاء هيئة التحرير لأن لجنة التنسيق والتنفيذ نفسها لجأت إلى تونس بعد المعركة، كما سبق. وأول عدد من المجاهد صدر في شكل صحيفة هو العدد الثامن الذي صدر حوالي الخامس من أغسطس. وقد أضيف إلى عنوانها أنها اللسان المركزي لجبهة التحرير الوطني مما يعني أن الإعلام فعلا أصبح مركزيا في يد جبهة التحرير المتمثلة في لجنة التنسيق والتنفيذ. وقد أصبحت المجاهد تصدر في طبعة واحدة في الجزائر وتونس وفرنسا. واستمرت تصدر في تطوان المغربية إلى سبتمبر 1957، ولم تنقل منها إلى تونس إلا بعد انعقاد المجلس الوطني للثورة الجزائرية في القاهرة في أغسطس، في نفس السنة.

تولى رمضان عبان الإشراف على جريدة المجاهد بطبعتيها العربية والفرنسية. وقد فصل عبان الطبعتين عن بعضهما لاختلاف جمهور الإعلام بين الغرب والشرق وبين الداخل والخارج. وابتداء من العدد 23 الصادر في 7 مايو 1957 تولى أحمد بومنجل الذي كان نائبا لعبان، الإشراف على الطبعة الفرنسية لجريدة المجاهد.

ومنذ تكوين الحكومة المؤقتة في 19 سبتمبر 1958، أي ابتداء من العدد 29 أصبحت المجاهد تابعة مباشرة إلى وزارة الأخبار التي تولاها محمد يزيد واستمرت على ذلك الحال إلى الاستقلال[1].

لقد أصبحت الوزارة مسؤولة على الإعلام المتعلق بالثورة، سواء أكان

(1) عواطف عبد الرحمن، الصحافة العربية، ص 51-55.

صحفا أو نشرات سياسية أو مكاتب إعلامية في الخارج، أو إذاعة أو غيرها من الوسائل.

ومما يذكر أن المصالح الفرنسية قد عمدت إلى تزييف المجاهد كجزء من الحرب ضد الثورة. وقد وزعتها في الخارج، وفي الجزائر أيضا، بهدف عزل الشعب عن الجبهة. وأخبرت (المجاهد) أن جريدة (الطليعة) المغربية قد نددت بهذا العمل المشين وطالبت بالتحقيق في النشاط الفرنسي في المغرب[1].

ومهما كان الأمر فإن المجاهد أصبحت مدرسة في الصحافة الوطنية زمن الثورة. فقد تابعت تطور كفاح الجزائر عبر السنوات الصعبة وتعاملت مع الإعلام الصديق والعدو وأوضحت مواقف الثورة في مدها وجزرها وفي تعرجاتها داخليا وخارجيا، وشهدت تطورا أيضا في الفن الصحفي عن طريق الممارسة والتجربة، وقاومت الدعاية الفرنسية المضادة بنجاح سيما أثناء سوء التفاهم أو حتى الأزمات مع الجيران والأشقاء، أو حرب الإيديولوجيات، أو سير المفاوضات السرية والعلنية.

النشرات الداخلية

بالإضافة إلى الصحافة لجأت الجبهة إلى إصدار نشرات ولائية للإعلام المحلي. ولم تكن النشرات في مستوى واحد من الجودة والانتشار. فقد صدرت في المنطقة الأولى (الأوراس) صحيفة بالفرنسية باسم (الوطن) سنة 1955 مطبوعة على الرونيو، وكانت تحتوى على أخبار الولاية والرد على الصحف الأجنبية. كما نشرت المناطق الأخرى نشرات خاصة، فصدرت عن المنطقة الثالثة نشرة (الجبل) وربما هي صوت الجبل، وعن المنطقة الرابعة نشرة (حرب العصابات). وقد بلغ عدد النشرات خمسا، وكانت كلها نصف شهرية. وكانت المناطق (الولايات فيما بعد) تتبادل الأخبار عن طريق اللاسلكي،

---

(1) المجاهد عدد 68، تاريخ 16 مايو، 1960.

وكانت النشرات تطبع بالعربية والفرنسية وتفتقر إلى الخبرة الصحفية. أما وصولها إلى تونس والمغرب فكان عن طريق القوافل والتسريب الخاص[1].

كما صدرت عن المنظمات التابعة لجبهة التحرير صحف ومجلات ونشرات. من ذلك (العامل الجزائري) التي صدرت عن الاتحاد العام للعمال الجزائريين، و(الشباب الجزائري) المعبرة عن نشاط شباب جبهة التحرير. وكذلك نشرات فروع الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، ونشرات وزارة الأخبار. وكان بعض هذه الوسائل الإعلامية يصدر بالعربية، وبعضها يصدر بالفرنسية، أو يصدر باللغتين، بل فيها ما كان يصدر بالفرنسية والإنجليزية كالنشرة التي كان يصدرها فرع الاتحاد بأمريكا بعنوان (معرفة الجزائر).

أصدرت وزارة الأخبار نشرة سياسية نصف شهرية تقع في اثنتي عشرة صفحة وتصدر بالعربية والفرنسية وتوزع على السفارات والصحفيين الأجانب والإعلاميين، وكانت لها افتتاحية وتعليق. وللوزارة نفسها نشرة أخرى شهرية تحتوي على ما يذاع في صوت الجزائر من إذاعة تونس خلال شهور مارس وأبريل ومايو 1960 ثم توقفت. وأصدرت نفس الوزارة نشرات أخرى حول مواضيع معينة ذات صلة بالثورة مثل تحرير الجزائر، وإفريقيا تتحرر، وإفريقيا في طريقها إلى الوحدة (وهذه كلها طبعت في يناير، 1960 بمناسبة انعقاد مؤتمر الشعوب الآسيوية-الإفريقية). كما نشرت الوزارة ما يلي:

- النابالم في الجزائر، أغسطس، 1960
- معسكرات التعذيب، اكتوبر، 1960
- عبر ولايات الجزائر، مارس، 1960
- الجميع جزائريون، مارس، 1961
- صحراء الجزائر، أغسطس، 1961

---

(1) عواطف، مرجع سابق، ص 54.

وكل نشرة كانت تقع في 30 و50 صفحة[1].

ومن النشرات العائدة لاتحاد الطلبة نذكر مجلة (الشباب الجزائري) التي كانت تصدر في تونس والتي أصدرت عددا خاصا بالمؤتمر الرابع لاتحاد الطلبة الذي انعقد سنة 1960. ولفرع اتحاد الطلبة في أمريكا نشرة سبق التنويه بها وقد صدر منها ثمانية أعداد على الأقل في أبريل سنة 1962. وأصدر فرع دمشق نشرة ثقافية في يناير سنة 1960. وفي سوريا أيضا صدرت مجلة (كفاح المغرب العربي) بالتعاون بين فرع دمشق ورابطة طلاب المغرب العربي في سوريا، وقد صدر منها عدة أعداد. كما كان لفرغ القاهرة نشرة ثقافية بعنوان الطالب الجزائري، وكانت تضم مقالات وقصائد وقصصا حول الجزائر بأقلام الطلبة[2].

أصـوات الجـزائـر

صوت الجزائر الحرة المجاهدة

إلى جانب الصحافة كان على الثورة أن تدخل بابا آخر للإعلام وهو باب الإذاعة لتسمع صوت الثورة للشعب وللعالم. ولكن دخول الباب الجديد لم يكن سهلا. فقد كان الأمر في حاجة إلى خبرة وإلى أمن وتقنية، وكلها كانت مفقودة في المرحلة الأولى من الثورة. ولكن بالتدرج وتحت ضغط الحاجة نجحت التجربة وأصبح صوت الجزائر مسموعا بل محترما حتى لدى العدو لصدقية الخبر وجدية العمل.

كان إنشاء الإذاعة الجزائرية السرية من قرارات مؤتمر الصومام، وكان أول ظهور لها في 16 ديسمبر 1956 عشية التحضير للإضراب الذي قررته لجنة التنسيق والتنفيذ في الأسبوع الأول من فبراير 1957. بدأت الإذاعة بجهاز إرسال محمول فوق شاحنة من نوع ج.م.س استجلب من القاعدة الأمريكية

(1) عواطف، الصحافة العربية، ص 56.

(2) هلال، نشاط الطلبة. . .، ص 103.

بالقنيطرة المغربية، وهو بقوة 400 وات. وكان مستعملا من قبل الجيش الأمريكي خلال الحرب العالمية الثانية. ثم استعملت الإذاعة جهازا آخر من نوع (ت.أ.ب. t e b مرينا) اقتنتـه من البحرية الأمريكية، قوته 15كيلو وات. وهو يبث على الموجات القصيرة: 25، 31، 49م. وكانت مدة البث ست ساعات يوميا. أما البرنامج فكان يقدم بالعربية أخبارا عسكرية وسياسية وتعاليق بالفصحى وبالعامية، مع نصف ساعة بالقبائلية ونصف ساعة أخرى بالفرنسية.

تبدأ الإذاعة الجزائرية السرية لحنها المميز بقولها: "هنا صوت الجزائر الحرة المكافحة، أو صوت جبهة التحرير وجيش التحرير يخاطبكم من قلب الجزائر." وقد تولى التعاليق والبث والتقنيات في هذه الإذاعة مجموعة من ثلاثة عشر عضوا من بينهم عبد المجيد مزيان، والهاشمي التجاني، وعبد السلام بلعيد، ومدني حواس، ورشيد النجار، والشيخ رضا بن الشيخ الحسين. وقد تعرضت الإذاعة السرية في أول أمرها إلى أخطار عندما اكتشفتها السلطات الفرنسية. ولحمايتها نقلت إلى مكان آمن ومستقر في الناظور بالمغرب ثم تطوان ثم الرباط. وفي تطوان كان المشرف عليها هو علي مرحوم بمساعدة زهير إيحدادن وعلي عسول. أما في الرباط فقد أشرف عليها سي الدراجي وموساوي زروق وعبد القادر قريصات وإسماعيل حمداني وإيحدادن. وفي 15 أكتوبر 1961 بدأت تبث إذاعة طنجة التي عمل فيها إبراهيم غافر(غافة) ومحمد بوزيدي وعلي نساخ...

وقبل أن نترك المغرب نقول إن الإذاعة السرية عندما كانت في الناظور قد افتتحها سعد دحلب وعيسى مسعودي في 12 يناير 1959، وتولى التحرير فيها والتعليق والبث والهندسة عدد من المناضلين منهم محمد السوفي، ومدني حواس، ومحمد بوزيدي، وعبد العزيز شكيري، ودحو ولد قابلية.

وأصل الإذاعة السرية سيارة متنقلة على ظهرها معدات إذاعية يديرها حوالي عشرة مناضلين ليس لهم خبرة في ميدان البث الإذاعي. وكان الإرسال

يستغرق ساعتين مساء، وفي اليوم التالي يعاد نفس البرنامج. وبالإضافة إلى الإذاعة باللغات الثلاث المشار إليها هناك اللهجة العربية الدارجة. كما كان لها برنامج أسبوعي خاص موجه إلى العمال الجزائريين بفرنسا.

أما المشاكل التي واجهتها هذه الإذاعة السرية فلا حصر لها. ومن أهمها العزلة، فهي مقطوعة عن جبهات القتال وعن أخبار الثورة في الخارج، كما أنها كانت تفتقر إلى المواد الخبرية، وكانت تعاني من تشويش العدو وخطره المتواصل عليها. وحين اكتشفت سنة 1958 أوقفها المشرفون عليها، وهو ما أنقذ حياتهم أيضا. وفي عام 1959 توقفت هذه الإذاعة مدة أربعة أشهر حين أصر عمالها على ضرورة إنشاء إذاعة ثابتة وعلى توفير الحماية لهم فنقلوا إلى داخل الحدود المغربية تحت حماية جيش التحرير[1].

وفي الأخير نقول إن الإذاعة السرية قد لعبت دورا رئيسيا كوسيلة إعلامية مؤثرة لجبهة التحرير بتوعية الشعب وبث الثقة في النفس، وتجنيد الجماهير وراء الثورة ومنحها الأمل في النصر. وإذا كانت الإذاعة السرية وصوت الجزائر من تونس ومن المغرب قد نجحت في أداء رسالة جبهة التحرير في الداخل فإن إذاعات القاهرة ودمشق والكويت وغيرها من الإذاعات العربية قد نجحت في تبليغ رسالتها إلى الخارج.

صوت الجزائر من الإذاعات العربية

كذلك شهدت سنة 1956 انطلاقة (صوت الجزائر) من تونس أيضا. وقد تميز بصوت عيسى مسعودي الذي لفت إليه الأنظار وأصبح الناس ينتظرون سماع صوته بشوق. وكانت مدة البث نصف ساعة فقط. وبالإضافة إلى مسعودي

---

(1) عواطف، الصحافة العربية، مرجع سابق، ص 61. وتقول هذه الباحثة إن قلة المادة الخبرية جعلت القائمين عليها يختلقون أحيانا حتى معارك وهمية (ص 60.) وهكذا تطورت الإذاعة واستقرت منذ بدأت تذيع من الحدود المغربية في 12 يوليو 1959.

والبوزيدي والأمين بشيشي والعربي سعدونى، هناك سيرج ميشال الذي كان مكلفا بالحصة الفرنسية.

وفي القاهرة كان صوت العرب يتولى البث للجزائر، وكان له برامجه الموجهة إلى المغرب العربي منذ نشأته. ولكنه غير من عناوينها وحجمها مع تقدم الكفاح ومع استقلال المغرب وتونس. كان برنامج الجزائر محصورا في ركن محدود فأصبح بعد تأليف الحكومة المؤقتة يسمى صوت الجمهورية الجزائرية. كما أضيف إليه ركن المغرب العربي الذي كان يحرره الطلبة بإشراف محمود أبو الفتوح أحد الساهرين على برنامج المغرب العربي في إذاعة صوت العرب. وكان صوت الجمهورية الجزائرية المذاع من صوت العرب ناطقا بالعربية، وكان يشرف عليه أحمد توفيق المدني ويذيع فيه عثمان سعدي، ومحمد قصوري، ورشيد النجار، وعلي مفتاحي، والتركي رابح، وعبد القادر بن قاسي، وعبد القادر نور، وغيرهم. وكان هناك برنامج آخر عنوانه (جزائري يخاطب الفرنسيين من القاهرة) يذاع بالفرنسية، ثم تحول إلى صوت ج. ج. وكان يحرره عدة بن قطاط، وغافة، ومبروك نافع، وعبد الرحمن كيوان.

وفي سنة 1960-1961 أنشى برنامج آخر باسم (إذاعة الجزائر اليوم)، وكانت مدته ساعة واحدة ويذاع من البرنامج الدولي بإذاعة القاهرة. ويقول عبد القادر نور إنه يحتوى على أخبار عسكرية وتعاليق وأناشيد، وإنه كان من العاملين فيه مع محمد مفتاحي، وعبود عليوش، وآخرين . . . وكان البرنامج تحت إشراف جمال السنهوري أحد أعضاء هيئة إذاعة صوت العرب.

هذا بالنسبة لانطلاقة صوت الجزائر سنة 1956 وما تلاها في المغرب العربي والقاهرة، أما انطلاقة سنة 1958 فقد عم صوت الجزائر خلالها العواصم العربية. فكان يغطي أيضا طرابلس حيث افتتحه فيها الدكتور الأمين دباغين، وعمل فيه رابح مجحود، وم. الصالح الصديق، وحسين يامي، وبشير القاضي، وأحمد بودة، وعبد الحفيظ أمقران. كما عمل في صوت الجزائر في بنغازي عبد الرحمن الشريف.

كانت رابطة المغرب العربي في دمشق تذيع من وقت إلى آخر برنامجا عن قضايا المغرب العربي من إذاعة دمشق. وفي سنة 1958 أيضا، والوحدة بين مصر وسورية قائمة، جرى اتصال بين مكتب جبهة التحرير وإذاعة دمشق من أجل تخصيص حصة عن الثورة الجزائرية فيها. ويخبرنا محمد مهري أنه اتصل بالشيخ محمد الغسيري ممثل الجبهة وحصل منه على رسالة بهذا المعنى إلى مدير الإذاعة بينما تولى المكتب الجبهة الاتصال بوزارة الإعلام السورية. ونتيجة هذا الاتصال وافق السوريون على فتح ركن في الإذاعة بعنوان (صوت الجزائر من دمشق). وقد تجند له عدد من الطلبة فكونوا منهم مكتبا إعلاميا داخل مكتب جبهة التحرير، يتألف من الهاشمي قدوري ومحمد بوعروج وأبو القاسم خمار، والمنور الصم، وبوعبد الله غلام الله. وكان هذا المكتب هو الذي يشرف على حصة صوت الجزائر في دمشق، وهي حصة تدوم حوالي نصف ساعة يوميا من حوالي الساعة السادسة والنصف مساء. وكان برنامجها يشمل الأخبار والتعاليق وتزيد الرأي العام العربي بأخبار الثورة، وكانت لهم كامل الحرية والاستقلالية فيما يذيعون، وكانوا يعتمدون في مصادر الخبر على جرائد ومنشورات جبهة التحرير والقراءة فيما ينشره الإعلام العربي. لكن صوت الجزائر من دمشق توقف بعد انفصال سورية عن مصر[1].

أما صوت الجزائر من بغداد فقد تولاه أولا أحمد بودة ثم محمد الربعي، وعلى الرياحي، وحامد روابحية. وكذلك صوت الجزائر من الكويت فقد كان يشرف عليه عثمان سعدي. ثم صوت الجزائر من عمّان الذي كان بإشراف عبد الرحمن العقون، وصوت الجزائر من جدة بإشراف عبد الرحمن زلاقي[2].

---

(1) محمد مهري، ومضات من دروب الحياة، الجزائر، 2005، ص 81.

(2) بعض هذه المعلومات أخذناها من عمل جمعه وقدم له عبد القادر نور الذي عايش تطورات إذاعة الجزائر أثناء الثورة وعمل في برامجها من القاهرة وعرف عددا ممن ساهموا فيها، ثم تولى إدارة الإذاعة الوطنية الأولى بعد الاستقلال لفترة طويلة. والعمل المشار إليه يقع في خمس وعشرين صفحة، وعنوانه: الإعلام عبر الأثير في ثورة =

وهكذا كانت معظم العواصم العربية تفسح المجال في إذاعاتها لصوت الجزائر لكي يذيع منها رسالته إلى المستمعين العرب والجزائريين وغيرهم بتوجيهات جبهة التحرير وجيش التحرير.

محتوى صوت الجزائر (صوت الجمهورية الجزائرية)

كان (صوت الجزائر) يقدم المعلومات العسكرية والسياسية ويعلق على الأخبار في أغلب الأحيان باللغتين العربية والفرنسية، وله برامج تتناول التاريخ والأدب والثقافة العامة التي تخدم أهداف الثورة. كما كان يذيع الأخبار النقابية والمؤتمرات الدولية التي تهتم بمسيرة الثورة وتحركات وفودها في الخارج. وكانت جريدة المجاهد تطلب من قرائها أن يستمعوا (لصوت الجمهورية الجزائرية)-كما أصبح يدعى- كل يوم من الساعة الثامنة مساء إلى الساعة الثامنة والنصف ج م ت على الموجة القصيرة 49 مترا[1].

من البداية نعرف أن صوت الإذاعة الوطنية السرية انطلق تحت اسم (صوت الجزائر الحرة المجاهدة) استعدادا لتنفيذ الإضراب الأسبوعي الذي أشرنا إليه. وفي أتون هذه المعركة كتبت المجاهد في منتصف ديسمبر 1956 مقالة تحت عنوان (ماذا تعرف عن إذاعتنا الوطنية). وقد لخصت ذلك في قولها: إن العبارة التي تدوي كل يوم عدة مرات هي" هنا صوت الجزائر الحرة المكافحة"، وهي العبارة التي دوت فعلا لأول مرة وفاجأت كل جزائري في ليلة 16 ديسمبر 1956. ثم أصبحت نغمة تلك العبارة مألوفة ينتظرها السامعون المتلهفون لسماع ما تحمل من أخبار وما تزفه من انتصار. وأضافت المجاهد قائلة إن الذين حاولوا التشويش على صوت الجزائر ومنع وصوله إلى الشعب قد فشلوا كما فشل الذين حاولوا تزييفه بالتقليد والتضليل.

= التحرير، ولم نتمكن من التأكد من هذه المعلومات والتدقيق فيها بالرجوع إلى مصادر أخرى.

(1) المجاهد -بالفرنسية - عدد 62، 31 مارس 1960.

وقد اعترفت المجاهد، وهي تقدم صوت الجزائر لقرائها، بأن إذاعة صوت الجزائر لا تملك كل مؤهلات الإذاعة الوطنية، ومع ذلك كانت تؤدي مهمتها النضالية. إن الأسماء عديدة ولكن المهمة واحدة، فهناك صوت الجزائر، والإذاعة الوطنية الجزائرية، وإذاعة الجزائر الحرة . . ولكن إذاعة الجزائر ليست مثل الإذاعات الأخرى الرسمية في العالم. فليست لها مبان ضخمة ولا وسائل فنية عالية. ومع ذلك فقد كانت حلما فأصبحت حقيقة. خطط لها أول الأمر خفية في أحد مراكز قيادة الثورة ثم أصبحت مؤسسة وطنية تقدم للثورة خدمة جليلة وتساهم في توعية الشعب وإعداده لنضال طويل وتفضح أكاذيب العدو. لقد بدأت الإذاعة من الصفر بإشراف فنيين من مواصلات جيش التحرير الوطني. وواجهت خطر اكتشاف محطة إرسالها، مما يعرضها لقنابل العدو. لذلك كان على هذه الإذاعة الناشئة أن تكون دائما في حالة تنقل وارتحال.

بدأت الإذاعة ببرنامج يومي قصير المدة والمدى يذاع ب"اللغة العربية واللهجة القبائلية واللغة الفرنسية" على طول موجة واحدة، ويشمل الأخبار السياسية والعسكرية وتعليقا عسكريا. ثم توسع وتعززت إمكانيات البث مع الأيام والشهور. ومنذ 12 يوليو 1959 أصبحت الإذاعة تذيع على ثلاثة أطوال ثلاث مرات في اليوم من الساعة الرابعة إلى السادسة صباحا ومن الحادية عشرة إلى الثالثة عشرة بعد الظهر ومن الثامنة إلى العاشرة مساء. وكانت تقدم أربع عشرة حصة أسبوعيا إضافة إلى الحصص اليومية، أي بمعدل حصتين أسبوعيتين في كل يوم. وفي هذه الحصص الأسبوعية كان الجزائري يستمع إلى برامج عن تاريخ الثورات وتاريخ الجزائر وحصة عن المرأة وأخرى عن نضال إفريقيا، بالإضافة إلى تحقيقات عسكرية يكتبها مراسلو الإذاعة، وتمثيلية قصيرة. . .

هذه البرامج كانت تذاع باللغات الثلاث المتقدمة، يضاف إليها برامج باللغة العربية فقط، مثل صدى الجزائر في العالم، ومن أدب الثورة، وفي طريق

النصر، ثم برامج باللهجة القبائلية فقط تشمل قصائد شعرية وأناشيد وطنية، بالإضافة إلى برنامج بالفرنسية. وهكذا فنحن أمام إذاعة ثورية سرية ذات برامج متنوعة لها إمكانات تغلبت بها على عراقيل العدو. إنها صوت الثورة وصوت جبهة التحرير وصوت جيش التحرير بل صوت الكفاح المقدس[1].

تطورات جديدة

ثم تطورت الإذاعة الوطنية تطورا ملحوظا فلم يحن فاتح عام 1962 حتى ازدادت الحصص والموجات مع تعاظم الثقة بالنفس مع مفاوضات إيفيان التي كانت قد قطعت مراحل هامة ومع تعاظم الصعوبات في الداخل أمام الثورة. ففي برنامج (صوت جبهة وجيش التحرير الوطني) أكد محمد يزيد وزير الأخبار، على الدور الذي تلعبه الإذاعة الوطنية في التعريف بالثورة، فهي بحق صوت الشعب الجزائري. وأعلن الوزير عن مشاركة المكلفين بالإذاعة في مؤتمر الإذاعات الإفريقية وفي ندوة الإذاعات التي انعقدت بالرباط. وقال إن الهدف من الإذاعة هو تبليغ قرارات الحكومة الجزائرية وتوضيح المواقف إلى الرأي العام العالمي وإلى الفرنسيين أيضا بأصوات عربية وأصوات أوروبية. وأضاف محمد يزيد أن وزارته شرعت في تكوين الفنيين الذين سيتولون تسيير الإذاعة والتلفزة الجزائرية الحرة، وأنه سيأتي يوم يذيع فيه صوت الجزائر من العاصمة نفسها.

وبعد نشرها هذا التصريح أعطت المجاهد مواعيد البث الإذاعي في إذاعة الجزائر الحرة، فقد أصبحت تبث من الخامسة إلى السابعة صباحا، ومن الحادية عشرة إلى الواحدة ظهرا، ثم من السادسة إلى الثامنة مساء. وكلها بتوقيت الجزائر. وهذه البرامج تذاع كما قلنا بالعربية والقبائلية والفرنسية على الموجات القصيرة ثم المتوسطة[2].

---

(1) المجاهد، 13 مارس 19621، و 18بريل سنة 1960.

(2) المجاهد، 22 يناير 1962، لمعرفة أرقام الموجات القصيرة والمتوسطة راجع هذا المصدر.

ولكن البحث وجمع المعلومات والشهادات أدت إلى معلومات إضافية تلقي مزيدا من الضوء على تطور الإذاعة. فإذا كانت لم تبدأ إلا في شهر ديسمبر 1956 فكيف كان صوت الثورة قبل ذلك يصل إلى الشعب وإلى العالم؟

فضل الإذاعات العربية

الواقع أن الإذاعات العربية، ولا سيما إذاعة مصر ثم تونس بعد استقلالها، هي التي ملأت الفراغ وأوصلت أخبار الثورة الجزائرية إلى المستمعين. ومن الطبيعي أن تكون إذاعة مصر هي الأولى في هذا الميدان لعدة أسباب منها أن إذاعة صوت العرب بدأت تذيع من القاهرة سنة 1953 وأن الثورة المصرية قد وجهت اهتمامها لتحرير الشعوب العربية الرازحة تحت الاستعمار، ومنها شعوب المغرب العربي. وقد عرفنا متى بدأت الإذاعات العربية الأخرى تفتح قنواتها الإذاعية لبرامج الثورة الجزائرية.

خصصت القاهرة في نهاية عام 1955 ثلاثة برامج أسبوعية للجزائر مدة كل منها عشر دقائق، وهي برنامج (وفد جبهة التحرير يخاطبكم من القاهرة) الذي أصبح فيما بعد يسمى (صوت الجمهورية الجزائرية يخاطبكم). وهو يذاع باللغة العربية من إذاعة صوت العرب في شكل تعليق سياسي. والثاني هو برنامج (هنا صوت الجمهورية الجزائرية) الذي كان يذاع بالفرنسية من البرنامج الثقافي المصري المعروف بـ (البرنامج الثاني). أما البرنامج الثالث فعنوانه (جزائري يخاطب الفرنسيين) وكان يذاع أيضا بالفرنسية من البرامج المصرية الموجهة.

أما إذاعة تونس فقد بدأت تذيع برنامج (هنا صوت الجزائر المجاهدة الشقيقة) ربما في نهاية سنة 1956. وكان هذا البرنامج يذاع ثلاث مرات أسبوعيا ولمدة ربع ساعة، وكان يقدم أخبارا عسكرية وتعليقات سياسية، ويبدأ بالتعليق وينتهي بالنشيد الوطني الجزائري.

الإعلام الفرنسي أثناء الثورة

كان للفرنسيين إعلامهم الموجه خلال الثورة. فقد كانت لهم صحفهم ونشراتهم ومجلاتهم وكتبهم بشكل أوسع وأكثر إتقانا وتقدما من الإعلام الجزائري. وقد حاولوا توظيف هذه الإمكانات للتأثير على الثورة وفصل الشعب عنها واستعملوا لذلك شتى الوسائل. ونحن لا نريد أن نتعرض إلى كل تلك الوسائل هنا. ولكن يكفي الإشارة إلى بعض ما هو موجه خاصة للجزائريين. مثل مجلة (هنا الجزائر) التي كانت لسان الإذاعة والتلفزة الفرنسية بالجزائر خلال مرحلة طويلة من عهد الثورة[1].

أثناء حرب الإعلام التي دارت بين الجبهة والفرنسيين حاول هؤلاء أن يشوشوا على صوت الجزائر كما حاولوا تزييف المجاهد. فقد أنشأوا مركزا بإحدى مقاطعات فرنسا أسموه مركز كليبر أو دار سوستيل، وأطلقوا على الإذاعة التي تنطلق منه (إذاعة صوت العرب من القاهرة) حسبما ذكرت جريدة المجاهد. وكان المركز تحت إدارة أشخاص متخصصين في الشؤون الأهلية أو ممن سبق لهم العمل في تونس والمغرب، وكان يساعدهم بعض العرب القادمين من المشرق.

أما الأعمال التي قام بها المركز فتتمثل في بث حصص بالعربية على قناة باريس الثانية مساء كل يوم. وبتوجيه من الشرطة والمخابرات الفرنسية كان المركز يبث حصصا أخرى باسم (صوت الجزائر) للدعاية للحركة المصالية ولتضليل الجزائريين المقيمين في فرنسا. كما خصص برامج مزيفة تذاع تحت اسم (صوت العرب من القاهرة) على نفس موجات صوت العرب الأصلية

---

(1) عن الصراع الإعلامي بين الجزائر وفرنسا أيام الثورة أنظر بحث "حرب الكلمات الجزائرية: البث الإذاعي والثورة، 1954-1962، بقلم: روبرت. بوكميلر في مغرب روفيو

Robert J. Bookmiller, The Algerian War of words, Broadcasting and Revolution, 1954-1962, In Maghreb Review, vol.14, 3-4, 1989, pp. 197-213.

وبنفس الأسلوب الذي اعتاد عليه مستمعو برامجه ولكن بلهجة أهل المغرب العربي. ومن مهمة مركز كليبر أيضا التشويش على (صوت الجزائر) الذي كان يذيع من إذاعة تونس.

وبالإضافة إلى تزييف البرامج الإذاعية قام المركز بتزوير وتزييف البلاغات العسكرية المنسوبة إلى قيادة جيش التحرير، وهي بلاغات كانت ترسل إلى قيادة الجيش الفرنسي في الجزائر فيلتقطها ضابط تابع لـ (المكتب الخامس) المختص في شؤون الدعاية النفسية والذي يقوم بإذاعتها بجهاز إرسال خاص متنقل على كامل خط موريس.

كما كان المركز يتولى تحرير عدة نشرات بالعربية ومنها النشرات التالية : (المجلة العربية) التي كانت تصدر من باريس . وجريدة (البرق) التي كان يتولاها عقيد تساعده عناصر مختصة في الشؤون الأهلية. و(الجزائر) وهي مجلة كان يشرف عليها ضابط برتبة رائد من ضباط الشؤون الأهلية في المغرب.

أما ميزانية المركز فقد قدرت سنة 1958 بخمسين مليون فرنك، وتساهم فيها أطراف عديدة منها وزارة الخارجية الفرنسية، وإدارة الشؤون الجزائرية بخمسة عشر مليونا. وفي نفس السنة افتتح قرض قدره مائة وعشرون مليونا لمقاومة الجاسوسية[1].

ولم يتورع مركز كليبر حتى من استخدام بعض المغنين الجزائريين لتحقيق مآربه. ففي شهر أغسطس 1959 قدم إلى المركز سليمان عازم الذي وصفته المجاهد بالمطرب الفاشل، وسجل نشيدا لحنه بنفسه وسماه (نشيد الحركي). وقد تساءلت الجريدة عن سخرية الاستعمار من الحركى وبلاهة رجال الدعاية الفرنسية الذين لا يتورعون عن استخدام كل الأساليب لتحقيق أغراضهم الدعائية[2].

(1) المجاهد 60، 25 يناير 1960.

(2) المجاهد، نفس المرجع. كتب محمد أرزقي فراد مقالة عن سليمان عازم (1919– =

وتمشيا مع هذا الخط أشاع الفرنسيون أن الثورة الجزائرية شيوعية وأن الإسلام بريء منها، وحثوا الشعب على أن يتبرأ منها ومن القائمين عليها. وقاموا بحملة دعاية في هذا المجال سيما بعد زيارة وفد جزائري إلى الصين. فقد سجلوا اسطوانة وجعلوا منها نسخا ووزعوها بحرية، ومما جاء فيها أن الحكومة المؤقتة خائنة لأنها تفاهمت مع الصين وجاءت منها بالطائرات وبمختلف أنواع الأسلحة. ولذلك طلبوا من الجزائريين الاتحاد مع الفرنسيين لمحاربة الحكومة المؤقتة ومقاومة الشيوعية عدوة الإسلام[1].

تطور الإذاعة الفرنسية في الجزائر

ذكرنا في التاريخ الثقافي السابق بدايات الإذاعة الفرنسية في الجزائر، وقلنا إنها ترجع إلى العشرينات من القرن العشرين. ونضيف هنا بعض التفاصيل التي كانت مفقودة. فقد بدأ الإرسال منها سنة 1926 بجهاز يبلغ 150 واط، يقع في البريد المركزي. ثم انتقل إلى ربوة الحامة (جاردن ديسي). ولكي يرفعوا من مستواه أرسلوا بالفنيين إلى باريس للتدرب. وفي نوفمبر 1929 (عشية الاحتفال المئوي بالاحتلال) احتفلوا بجهاز إرسال قوي جديد. ثم تطورت الإذاعة فأصبحت تعم القطر الجزائري كله، بحيث نصبوا بين 1943 و1945 أجهزة صغيرة في تلمسان وقسنطينة وعنابة. كما وضعوا شبكة مؤقتة تطورت مع الأيام، فشهدت 1947-1948 إقامة جهاز إرسال بـ 20 ثم 25 ك

= 1983) تقدمه على أنه إنسان عاش في فرنسا عيشة مضطربة وأنه كان من كوادر حزب الشعب، وقد غنى أغاني مجونية استوجبت توبته وطلب الغفران، وكان ماهرا في الغناء، ومن أغانيه (أخرج أيها الجراد من بلدي) التي رمز فيها إلى الاستعمار. ولكن أغانيه كانت ممنوعة في الإذاعة الجزائرية بعد الاستقلال، وقد مات في الغربة وفي قلبه حسرة. أنظر الشروق اليومي، 29 يناير، 2006.

(1) المجاهد 38، 8 رمضان، 1378، ولم تذكر الجريدة التاريخ الميلادي هذه المرة. أنظر أيضا بحث حرب الكلمات الجزائرية: الإذاعة والثورة 1954- 1962 بقلم روبرت بوكميلر R. Boookmiller في مغرب ريفيو، 1989، 14 (3-4)، 196-213.

واط في ناحية الكاليتوس على الأمواج القصيرة، ثم تحولت إلى أمواج متوسطة ب 50 ك واط، واستحضروا جهاز إرسال بهذه الموجة سنة 1951. كما أقيمت أجهزة إضافية في كل من قسنطينة ووهران بين 1953-1954، وفي عين الحمام (ميشلي) وفي بجاية سنة 1955. وفي مارس من سنة 1958 انتقل مركز الإرسال من الدار البيضاء إلى أولاد فايت.

إن هذا التطور حدث بعد مرور حوالي ثلاثين سنة على ميلاد الإذاعة الفرنسية في الجزائر. وهو تطور يعني تدشين مركز الإرسال اللاسلكي الجديد في 21 فبراير 1958. فقد أقيمت بناية تأوي أجهزة الإذاعة وحولها أعمدة الإرسال الصاعدة. وهو ما كان موجودا قرب مطار الجزائر. وكان الضيق هو الذي أدى إلى الانتقال من الدار البيضاء إلى أولاد فايت. وقد أعلن (شوصاد) المسؤول الفرنسي الذي افتتح الموقع في السنة المذكورة أمام الشخصيات الإدارية والصناعية التي رافقته من فرنسا إلى الجزائر : إن دور الإذاعة خطير في سبيل نشر الأخوة والوئام بين سكان هذه البلاد وإظهار الحقائق الجزائرية ومحاربة الأحقاد والنعرات العصبية، وقال إن الجهاز الجديد يقوي (صوت الجزائر) في داخل البلاد وخارجها[1].

كان للإذاعة "ستوديوهات" في وهران وقسنطينة وتلمسان وبجاية على أساس أن لكل مدينة فنها وذوقها الخاص، كما يتعذر على أجواقها الانتقال منها إلى العاصمة لإحياء حفلة أو حفلتين في الأسبوع. وحتى لو حصل هذا الانتقال لحرم أهل كل بلدة من أجواقها وفنانيها ولتمركز الفن في العاصمة فقط. هكذا برر الكاتب هذه الاستراتيجية في توزيع خارطة الفن والفنانين في القطر الجزائري.

بالنسبة لأستوديو بجاية مثلا نعرف أنه تأسس سنة 1947 وكانت تذاع منه أربع حفلات أسبوعيا، بالعربية والقبائلية. وكان المشرفون على الحفلات قد

(1) هنا الجزائر 63، مارس 1958، ص 3.

واجهوا صعوبات كثيرة في تنظيم استوديو بجاية لأن الناس كانوا يفضلون الحفلات الخاصة لعدم إيلافهم الغناء أمام المذياع في البداية، ولكن المذياع نجح في الترويج للفن والشهرة. ويرجع الفضل في تنشيط هذا الاستوديو إلى الشيخ الصادق البجائي (البجاوي) صاحب الجوق المؤلف من تسعة أفراد، فهو الذي كونهم بإشرافه على (جمعية الشباب الفني). وقد لحن الشيخ الصادق ما يزيد على عشرين مقطوعة. ومعظم الأغاني التي كانت تذاع تشمل الفن الشعبي والأندلسي والعصري[1]..

كانت الإذاعة الفرنسية في الجزائر تنشر برنامجها كل شهر في مجلتها هنا الجزائر. وفي سنة 1959 كان البرنامج شهر مارس مثلا يتضمن الأبواب التالية: القرآن الكريم، الحديث الديني، الأخبار التي كانت تذاع من (صوت البلاد) ضد الثورة، الأحاديث التربوية والرياضية، الإذاعات المسرحية والأدبية والتاريخية والتهذيبية، ثم برنامج صندوق الأفكار، وآخر بعنوان الجزائر تخاطبكم. بالإضافة إلى حفلتين موسيقيتين عربيتين إحداهما بقيادة العنقاء والثانية بقيادة عبد الكريم دالي[2].

التلفزيون

دخل التلفزيون إلى الجزائر سنة 1956، وخصص له جهاز بخمسين ك واط. وكان مقره في تامنفوست، ثم ارتفعت طاقته سنة 1957 إلى 500ك واط. والواقع أن تاريخ التلفزيون يرجع إلى سنة 1952 عندما منح مؤتمر ستكهولم لإذاعة وتلفزيون الجزائر خمس محطات لإرسال البرنامج التلفزينوني في الجزائر العاصمة ووهران وقسنطينة وعنابة وتلمسان، على أن تجرى تجارب بعد سنتين(1954) لإقامة جهاز في العاصمة أولا. وقد خصص له ما يزيد على 600 مليون فرنك. وجاء المهندسون والأخصائيون من فرنسا لاختيار الموقع المناسب. ثم أورد مقالا حول التلفزيون باعتباره جهازا للتربية والتسلية

---

(1) هنا الجزائر22، مارس 1954، ص10.

(2) صورتا العنقاء وابن دالي مرفقتان بالمقال- أنظر هنا الجزائر 74، مارس 1959، ص 31). أنظر أيضا مقالة حرب الكلمات.

والتثقيف، ثم ما يسببه من حيرة قول من يقول إنه جهاز المستقبل. أي أن هناك مشاكل تترتب على إدخال التلفزيون في كل المجتمعات بين الفائدة والمضرة[1].

ولكن التلفزيون لم يبدأ عمليا إلا سنة 1956 كما ذكرنا. وقد جاء في العدد 44 من مجلة (هنا الجزائر) أن هناك عددا من الأفلام سيشرع في عرضها، وكلها من إخراج فرنسي يدعى (راميتر) ما عدا فيلما واحدا أخرجه مصطفى بديع وهو فيلم المطاردة. أما باقي الأفلام وعددها أحد عشر فيلما، فمن عمل جزائريين، وهي:

العجائز -علي عبدون، الدجالون- غريبي، والجائزة الكبرى- مصطفى بديع، والخادم المحتال-التوري، اللص والعساس-بوعلام رايس، وموسيقى ساحرة - بوعلام رايس أيضا، والبطل-التوري، وتلمسان - بوعلام رايس، والبخيل -الطاهر رحاب، وفداء الشتاء، والدابة -تمثيل حسن الحسني[2].

التلفزيون بين لاكوست وسوستيل

وفي نهاية 1956 أقامت السلطات الفرنسية معرضا للتلفزيون هو الأول من نوعه في مدينة الجزائر حيث قيل إن آلاف الكيلوات من الأفلام والصور قد عرضت على الجمهور الزائر الذي بلغ أربعين ألف نسمة. وقد دام المعرض تسعة أيام، وشارك فيه فنانون جاؤوا من باريس. لقد كان التلفزيون حدثا جديدا مما جعل الناس، حتى أهل الريف يقبلون على زيارته لمشاهدة هذه البدعة المبتكرة، على حد تعبير مجلة (هنا الجزائر). ومن الملفت للنظر أن الذي رأس الحفل هو روبير لاكوست الوزير الفرنسي المقيم في الجزائر والذي استغل أجهزة الإعلام لمهاجمة الثورة والكذب على الفرنسيين بأن النصر على الأبواب.

(1) هنا الجزائر 22، مارس 1954، ص 2-3. وفي العدد الموالي من هذه المجلة أن التلفزيون سيبدأ في الجزائر آخر سنة 1955. وكتبت المجلة افتتاحية عن ذلك وأعطت تفاصيل عن قوة الموجات بالعربية فيه.

(2) هنا الجزائر 44، مارس 1956.

وقد أعلن بهذه المناسبة بأن يكون عهد التلفزيون في الجزائر عهدا يعود فيه التفاهم والوئام والسلام للجزائر[1].

فهو يبحث في دور الإذاعة والتلفزيون خلال الثورة في فرنسا، وفيه بحثان أحدهما كيف تستمع جبهة التحرير للإذاعة، ص ص 109-113، والثاني الإخراج في الجزائر، ص ص 225-235.

تولى جاك سوستيل حاكم الجزائر السابق، وزارة الأخبار في حكومة ديجول الجديدة. وبهذه الصفة جاء إلى الجزائر ليفتتح فيها دار الإذاعة والتلفزيون في 19 سبتمبر 1958 على إثر محاولة اغتياله في باريس. وبعد شكر مستقبليه قال إن الاستوديوهات والمؤسسات والمكاتب والآلات والأجهزة . . . تشكل مجموعة نادرة في إفريقيا وإن فرنسا تستطيع أن تقوم **في هذه البلاد** بهذه الإنجازات التي تسمو بالإنسان إلى المراتب العليا من الرقي والتمدن، وهو الأمر الذي يدعو إلى التقدم والرجاء والتفاؤل. ثم كرر نفس العبارات تقريبا بعد توجهه إلى مدينة بشار لتدشين محطة تزود الصحراء وإفريقيا بالأخبار وتحمل إليها في نظره رسالة الرقي والسلام والوئام[2].

وهذه اللغة الحضارية في ظاهرها تعبر عن نظرة سوستيل أستاذ الفلسفة في عصر الاستعمار الآفل. فالرجل كان يتحدث عن التفاؤل والرقي والتقدم والسلام والوئام على يد فرنسا التي لطخت ثوبها بدم الشعوب المستعمرة. فكيف يوفق سوستيل بين ما جاء به من أجهزة ومعدات تلفزيونية لبث الحضارة وبين ما يقوم به الجيش الفرنسي **في هذه البلاد** (الجزائر)؟

وبدخول التلفزيون عامه الثالث في الجزائر تطورت برامجه وتنوعت وتكاثرت، وكان بالطبع جهازا فرنسيا لتلميع صورة فرنسا طبقا لما صرح به

---

(1) هنا الجزائر 51، ديسمبر 1956، ص 1. انظر أيضا de Bussierre, Michele et Al., Radios et Télévision au temps des évènements d Algérie 1954-1962.

(2) تقرير عن الزيارة بالصور في هنا الجزائر 69، أكتوبر 1958، ص 14-15.

سوستيل للجزائريين، فهو جهاز إعلامي جديد وخطير. لقد تحدث أحدهم (يونس فرحات؟) عن أن من برامج التلفزيون: الجريدة المصورة والأفلام والرياضة والحصص الموسيقية والاستطلاعات ومطالعات الكتب ومعارض الطيران والسيارات.

هذا عن برامج التلفزيون العامة. أما برامجه باللغة العربية فبعضها إخباري وعلمي وبعضها فني وأدبي. فهناك جريدة العالم التي تبرز أهم الحوادث، وهناك تقديم الكتاب والشعراء الغربيين والشرقيين مثل لامرتين وقصيدته البحيرة، وملاحظات فرومنتان عن مناظر الجزائر، ونظرات على قصص مولود فرعون. وإذا صدقنا المعلومات الواردة في هذا المقال فإن هذه البرامج الأدبية كانت تخدم الأدب الفرنسي ولا علاقة لها بالأدب الجزائري أو العربي ولا التاريخ الإسلامي حتى فيما يترجم أو يقدم أحيانا على أنه نتاج عربي حديث. والملاحظ أن من بين الأسماء التي وردت مع صور أصحابها في التلفزيون: يحي الضيف، وسعيد حايف، والطيب أبو الحسن[1].

التلفزيون والسينما:

هذه الوسيلة الإعلامية الخطيرة كان التنافس عليها شديدا بين الجزائريين والفرنسيين (أنظر بحث حرب الكلمات). فقد كانت لا تكتفي بنشر الخبر بل تقدم الفيلم والتحقيق والصورة وغيرها. فبالإضافة إلى أصوات الجزائر المنطلقة من الجزائر والقاهرة وتونس والرباط ودمشق. . . أنشأت الحكومة المؤقتة مصالح خاصة بالسينما والمسرح والرياضة ونحوها. وقد أرسلت الحكومة بعض الشباب ليتكونوا في ميدان السينما في الدول الاشتراكية مثل محمد الأخضر حمينة وعلي يحي اللذين أرسلا إلى تشكوسلوفاكيا، كما أرسل عدد آخر إلى

(1) هنا الجزائر 73، فبراير 1959، ص 1–2. ومما يذكر أن مدير التلفزيون عندئذ هو المهندس مالان. وفي فبراير 1960 تولى جان أودينو الذي انتقل إلى الجزائر من باريس حيث كان مسؤولا على إذاعة ما وراء البحار. هنا الجزائر 86، أبريل 1960.

برلين ويوغسلافيا. وقد عرفنا أن أول فيلم جزائري صور في ميدان المعركة نفسها هو (الجزائر الملتهبة/ المشتعلة)، الذي أخرجه روني فوتييه. ثم تليه أفلام: (لاجئون) لبيير كليمون، والهجوم على مناجم الونزة لمجموعة من الطلبة، وساقية سيدي يوسف لكليمون المذكور. ولأول مرة عرض سنة 1960 فيلم جزائري في الأمم المتحدة وهو (جزائرنا) الذي أنجزه ثلاثة هم: د. شولي وجمال شندرلي وحمينة، ثم فيلم (ياسمينة) لشندرلي وحمينة، لإطلاع الرأي العام عما كان يجري في الجزائر.

ويعتبر فوتييه من الشيوعيين الفرنسيين الذين تخلوا عن حزبهم (الحزب الشيوعي الفرنسي) والتحقوا بجبهة التحرير الوطني. وكان قبل ذلك مصورا للأحوال الاجتماعية في فرنسا كالاضطرابات العمالية. وقد التحق بالولاية الأولى (أنظر سابقا)، ومثله الدكتور شولي وكليمون. وأما جمال شندرلي فقد كان شابا جزائريا ويعتبر الأول من جيله الذي باشر الكاميرا أثناء الثورة في المنطقة الشرقية. ويرى بعضهم، مثل المخرج عمار العسكري، أن ميلاد السينما الجزائرية كان رد فعل على الدعاية الفرنسية التي تريد توجيه ولاء الشعب ضد الثورة[1].

ومن الجانب الفرنسي كانت محطة الإذاعة التلفزيون الفرنسية في الجزائر تعمل على تطوير أجهزتها وتوسيع شبكتها لكي تصل إلى الرأي العام من مستوطنين (كولون) وجزائريين، فكانت تنتج أفلاما ومسرحيات وتمررها على الأثير أو الشاشة. فمنذ أكتوبر 1956 أعلت هنا الجزائر أن الجمهور سيشاهد قريبا قصة فكاهية للفنان رويشد عنوانها (وجه الخروف معروف)، كما أعلنت عن فيلم عنوانه (بنتي) من إخراج مصطفى بديع، ومع الخبر صور لمجموعة من الفنانين الجزائريين، وإعلان يقول إن هذا الإنتاج سيعرض على شاشة

---

(1) يوم دراسي حول السينما والثورة.. إعداد المركز الوطني لدراسة تاريخ الحركة الوطنية..، 1997.

التلفزيون الجديدة[1].

وقد وعد مدير الإذاعة والتلفزة الفرنسية في الجزائر (بيير مالان) في ندوة صحفية بتحسين برامج الإذاعة بأقسامها لتناسب أذواق الجميع. وقال إن برنامج التلفزيون سيتوسع إلى أربعين ساعة أسبوعيا، كما ستقوى أجهزته في وهران، وإن سكان الوسط سيستفيدون من جهاز إرسال آخر لأنهم إلى ذلك الوقت لم يشاهدوا التلفزيون. أما ناحية الشرق وقسنطينة بالخصوص فقد وعد المدير بأنها ستحصل على جهاز إرسال قريبا، وكل ذلك لدعم شبكة التلفزيون. وقد توقع أن عدد المشاهدين للشاشة سيبلغ حوالي خمسمائة ألف نسمة، وهو سيعمل على أن يبلغوا مليونا ونصفا[2].

تنظيم المكاتب الإعلامية للجبهة

خضع تنظيم المكاتب الإعلامية لجبهة التحرير منذ اندلاع الثورة وإلى حين تأليف الحكومة المؤقتة إلى مراحل وتغييرات اقتضتها ظروف الحرب وقلة التجربة والحاجة إلى العناصر المؤهلة. ولعل أول مكتب إعلامي تأسس في الخارج هو مكتب القاهرة سنة 1955. وكان ذلك منطقيا لموقف مصر المعروف من الثورة، ولوجود وفد من قادة الجبهة فيها، ولأسبقية مكتب المغرب العربي فيها بقيادة الأمير عبد الكريم الخطابي. كان أول مكتب إعلامي تحت إشراف أحمد بن بلة ومحمد خيضر وحسين آيت أحمد. ولكننا لا ندري كيف كانوا يتوزعون المهام فيما بينهم. والظاهر أن خيضر كان يمسك بزمام الشؤون السياسية بينما كان ابن بلة يتولى الشؤون العسكرية وآيت أحمد العلاقات العامة والإعلام. وربما بقيت الأمور على هذا النحو إلى أن وقع اختطاف الطائرة في أكتوبر 1956 وكان فيها الثلاثة المذكورون. عندئذ تولى أحمد توفيق المدني شؤون المكتب فترة انتقالية بتكليف من خيضر إلى

(1) هنا الجزائر، أكتوبر 1956.

(2) هنا الجزائر 81، نوفمبر 1959.

أن حل بالقاهرة الدكتور محمد الأمين دباغين وتولى فيها رئاسة مكتب الوفد الخارجي بتكليف من لجنة التنسيق والتنفيذ.

عندئذ توزعت المهام في المكتب على النحو التالي:

الرئيس:

محمد الأمين دباغين

السكرتارية والتنسيق مع المكاتب الإعلامية الأخرى (انظر لاحقا):

محمد الصديق بن يحي ويساعده عدة بن قطاط.

مكتب القاهرة:

أحمد توفيق المدني، وهو يتولى التوجيه، وشؤون الجامعة العربية، والهيئة الدبلوماسية والحكومة والمنظمات المصرية.

ومعه فريق عمل يتكون من:

حامد روابحية ـ السكرتارية

عمر دردور- المالية والمحاسبة

الطيب الثعالبي- الصحافة والإذاعة

مصطفى بن با أحمد ـ الهلال الأحمر

أوعمران وابن عودة ـ المكتب العسكري

مكتب الصحافة والإذاعة:

الطيب الثعالبي - مسؤول

رابح التركي، محمد قصوري- النصوص العربية لإذاعة صوت العرب، وكل نص يجب أن يحمل توقيع أحمد توفيق المدني قبل إذاعته.

عبد القادر معاشو- النصوص الفرنسية، وكل النصوص الموجهة لإذاعة صوت العرب يجب أن يوقعها ابن يحي مسبقا.

محمد الحاج حمو، نافعة رباني، أرزقي بوزيدة ـ النصوص الفرنسية الموجهة لأوروبا وفرنسا وإذاعة القاهرة، مع وجوب توقيع ابن يحي على هذه النصوص مسبقا.

فرنسيسكو ديلاجي F. Delagis. – النصوص الأسبانية والبرتغالية.

أحمد توفيق المدني- النصوص العربية الموجهة لأمريكا اللاتينية والنصوص التي تترجم لإيران.

إبراهيم بولكرم- الشؤون الإدارية.

إسماعيل بورغيدة- مكلف بالبريد[1].

انتشرت بعد ذلك المكاتب الإعلامية في العالم باسم بعثة جبهة التحرير الوطني. وكل بعثة كانت تقوم بالعمل السياسي والدبلوماسي والإعلامي. فبعد مكتب القاهرة افتتحت مكاتب في العواصم العربية منها: طرابلس ودمشق وبيروت وعمان وجدة، وكذلك تونس والرباط بعد استقلالهما، وبغداد بعد الثورة. كما افتتحت مكاتب في كثير من البلدان الغربية والآسيوية والإفريقية. فكان هناك مكتب في نيويورك ولندن واستكهولم وروما وبون وجنيف، ثم في العواصم الآسيوية مثل جاكرتا ونيودلهي وكراتشي، ثم في عواصم بعض الدول الاشتراكية مثل موسكو وبكين وبلغراد وبراغ، إضافة إلى بعض عواصم بلدان أمريكا اللاتينية كالأرجنتين والبرازيل. وأخيرا في بعض عواصم الدول الإفريقية المستقلة مثل أكرا وكوناكري وبماكو، مع زيارات إعلامية لدار السلام ونيروبي وكمبالا.

كل هذا النشاط كان قبل الإعلان عن ميلاد الحكومة المؤقتة. أما ابتداء من خريف 1958 فقد تحولت معظم البعثات أو المكاتب إلى سفارات في

---

(1) الأرشيف الوطني، علبة 3، من تقرير يقع في أحد عشر صفحة مرقونة بالفرنسية، بتاريخ أغسطس 1957.

العواصم التي اعترفت حكوماتها بالحكومة المؤقتة، ولكن اسم بعثة جبهة التحرير بقي يطلق على المكتب الإعلامي في العواصم التي لم تعترف بالحكومة. بقي أن نقول إن هناك دولا لم يكن فيها للجبهة أي تمثيل لا في شكل بعثة ولا في شكل سفارة، فكان الحل هو العمل من داخل السفارات العربية في هذه الدول.

كانت البعثات أو السفارات تقوم بأعمال متعددة لصالح القضية الجزائرية في النطاق الذي تسمح به الأعراف الدولية. ومن أبرز تلك الأعمال إصدار النشرات والتصريحات وتوزيع جريدة المجاهد والاتصال بوسائل الإعلام المحلية وتقديم البيانات في الصحف والإذاعات المحلية وتصحيح الصورة عن الحرب الدائرة ضد الاستعمار ومقاومة الدعاية الفرنسية. كما كانت تتلقى الأخبار العسكرية وغيرها وتعمل كصلة وصل بين أجهزة الثورة والبلد المضيف. ومعظم البعثات كانت تصدر نشرات يومية تحمل أخبار الثورة وتوزعها على السفارات الأجنبية(1).

ولسائل أن يسأل: هل نجحت الجبهة في تقديم صورة حقيقية عن الثورة في الخارج؟ وقبل الإجابة عن ذلك دعنا نذكّر بالصعوبات التي واجهها الإعلام الجزائري، سيما في أول أمره، كما ذكرنا من قبل. لقد كانت فرنسا معروفة في العالم بأنها بلد الحرية وحقوق الإنسان، وكانت تملك من الوسائل الدعائية ما لا يقارن بما عند الجزائريين على الإطلاق. وكان معظم العالم يعتقد أن الجزائر فعلا جزء من فرنسا، قانونيا وعرفيا، وكان تضامن الإعلام الغربي مع بعضه واضحا كما هو حاله إذا تعلق الأمر بثورات يعتبرها وطنية أو يسارية أو إسلامية. كما أن الغرب كان يخشى أن تكون الجزائر المستقلة عن فرنسا موطئ قدم للمعسكر الاشتراكي. والمعروف أن الجيش الفرنسي -رغم هزيمته في الفيتنام- كان قويا وكثير العدد والعتاد في الجزائر وأنه كان يتلقى المدد من

---

(1) عواطف عبد الرحمن، الصحف العربية، مرجع سابق، ص 58.

ترسانة الحلف الأطلسي، كما أن فرنسا قد تفرغت للجزائر بكل إمكاناتها بعد أن فاوضت تونس والمغرب على استقلالهما.

ورغم أن الكثير من بعوثي الجبهة كانوا يحسنون الفرنسية وبعض اللغات الأجنبية الأخرى فإن مسألة اللغة ظلت عائقا للاتصال الناجح مع الشعوب والحكومات في العالم. كما كان بعض القادة الجزائريين لا يحسنون التخاطب بالعربية مع إخوانهم في البلاد العربية حيث كان مركز الثقل للإعلام الجزائري. فكان على هذا الإعلام أن يحسن مخاطبة المعسكرين الغربي والشرقي لكيلا يخسر أحدهما. ومن جهة أخرى كان وجود الإعلام الجزائري في بلدان ذات سيادة يسبب لها حرجا أحيانا لأن خط الحرية المتاح قد لا يكون كافيا لأداء مهمة إعلامية ناجحة. وقد عمد الفرنسيون إلى أسلوب المناورة والمبادأة في محاصرة الجبهة إعلاميا بإطلاق شعارات براقة مثل: سلام الشجعان، والاستعداد لوقف القتال، والاعتراف بالشخصية الجزائرية دون الاستقلال.. وأخيرا نذكر أن إعلام الثورة كان يفتقر، ولاسيما في بادى الأمر، للاحترافية والتقنيات والخبرة، فهو إعلام قام به مناضلون استطاعوا أن يكشفوا للعالم عن واقع الدمار الذي خلفه العدو وراءه والمعاملة اللاإنسانية التي عامل بها الجيش الفرنسي الشعب في المحتشدات والسجون وأثناء التهجير.

لكن بعض الباحثين رأى أن الإعلام الجزائري قد حقق مع ذلك نجاحا لتوفر عدة أبعاد: الأول قوة الكفاح المسلح، والثاني العمل السياسي والدبلوماسي الحكيم، والثالث الإعلام المثابر بالشكل الذي وصفناه. ومن جهة أخرى كان الإعلام معتمدا على أعمال ميدانية يستطيع أي كان أن يشاهدها ويعرف عنها وليست أمرا مغيبا أو أدعاء أجوف. ثم إن الوضع الدولي كان مواتيا إلى حد كبير لطرح الإعلام الجزائري أمام الرأي العام العربي والعالمي، ففرنسا كانت في حالة جزر بعد هزيمة فيتنام والسيطرة الأمريكية على أوروبا واستقلال عدد من شعوب آسيا وإفريقيا وقوة الدفع العربي بقيادة مصر. فهذه العوامل وغيرها قد ساعدت الإعلام الجزائري على أن يشق طريقه

بنجاح[1].

إنشاء وكالة الأنباء الجزائرية

أنشئت أول وكالة جزائرية للأنباء في شهر ديسمبر سنة 1961 في تونس. وقد أعلنت في أول منشور لها أنها ستكون في خدمة الشعب والثورة وأنها ستكون الوجه الحقيقي للجزائر في العالم وأنها ستعرف الرأي العام بالنشاط الحكومي، وأنها ستهتم بأخبار المدن والقرى والدواوير البعيدة. وقد تمثل نشاطها في إصدار نشرة يومية بالعربية والفرنسية في حجم ملزمة تتضمن أخبار الجزائر الداخلية سواء كانت سياسية أو عسكرية أو اجتماعية، كما تتضمن الأخبار الدولية. وكانت هذه النشرة توزع على الوكالات واسعة الانتشار كما توزع على المنظمات الوطنية. وكانت الوكالة مدرسة لتكوين إعلاميين شباب ليتولوا قيادة الإعلام مستقبلا. وبهذه الطريقة أصبحت الوكالة ركنا أساسيا من أركان الكفاح الوطني رغم أنها أنشئت متأخرة[2].

ومن صلاحيات الوكالة عقد الاتفاقيات مع الوكالات الأجنبية لتتبادل معها الأخبار. أما قبل إنشائها فقد كانت الجبهة تتعامل مع وكالة أنباء الشرق الأوسط فيما يتعلق بالأخبار في الدول العربية، بينما تتعامل مع وكالة أنباء تشيكية فيما يتعلق بأخبار المعسكر الاشتراكي. أما بعد إنشاء الوكالة الوطنية فقد أصبحت هي مصدر أخبار الثورة والمصحح لصورتها عند تشويهها من قبل بعض الوكالات الأجنبية.

وهكذا أصبح للثورة أجهزة إعلامية حساسة وفعالة، من صحافة وإذاعة وسينما ومسرح وفرق رياضية ومكاتب إعلامية في الخارج، بالإضافة إلى وكالة الأنباء.

---

(1) عبد الرحمن، الصحف العربية، مرجع سابق، ص 63.

(2) المجاهد -بالفرنسية- 88، 31 ديسمبر 1961.

الندوات والمؤتمرات والمحاضرات

يدخل في باب الإعلام أيضا الندوات والمحاضرات التي قامت بها المنظمات التابعة للجبهة في مختلف أنحاء العالم، ولا سيما الوطن العربي. ويشمل ذلك أيضا المهرجانات والأمسيات الشعرية والمشاركات في الأنشطة الطلابية والشبابية باسم الجزائر. كما يشمل استضافة شخصيات مرموقة لإلقاء محاضرات وأحاديث، وإقامة معارض وعرض أفلام حول الجزائر. وقد أصدر عدد من المثقفين والأدباء والإعلاميين كتبا ودواوين ومطبوعات تصب كلها في خدمة الثورة. ونشر بعضهم البحوث والمقالات والقصص في المجلات، العربية بالخصوص، حول الثقافة الجزائرية والتعريف بشخصياتها في مختلف الميادين والعهود. وأذكر أن فرع القاهرة استضاف محاضرين من الجزائر وغيرها، وأقام ندوات شعرية وأدبية وأنشأ جريدة حائطية. ومن المحاضرين في نادي الطلبة مالك بن نبي وأحمد توفيق المدني وأبو القاسم سعد الله وإبراهيم غافة أبو مدين الشافعي ويحي بوعزيز وعبد القادر القط... وقد ذكرنا مواضيعهم في مكان آخر من الكتاب.

كثيرة هي المؤتمرات التي اشترك فيها الوفد الخارجي والتنظيمات التابعة لجبهة التحرير (الطلبة، العمال، والمثقفون، والفنانون ...) من أجل التعريف بالقضية الجزائرية. وهي مؤتمرات متنوعة المواضيع سياسيا وثقافيا وأدبيا. وهناك مؤتمرات مهنية وأخرى علمية، ومؤتمرات عربية وأخرى إقليمية أو دولية. وكثيرا ما كانت الوفود تعود بدعم كبير لأن المرحلة كان فيها الاستعمار في موقف الدفاع. وسنسوق نماذج فقط من هذه المؤتمرات.

ولعل أول ظهور للجزائر في مرحلة الخمسينات كان حضورها مؤتمر باندونج، ثم تسجيل القضية الجزائرية في الأمم المتحدة. وهناك مؤتمرات الدول والشعوب الآسيوية-الإفريقية، ثم مؤتمر طنجة حول وحدة الأحزاب في المغرب العربي، ومؤتمر أكرا، والمؤتمرات الطلابية العربية والدولية، ولقاءات

النقابات العمالية في العالم على اختلاف انتماءاتها الفكرية. ومن المؤتمرات الأدبية والفنية نشير إلى مؤتمر الكتاب الإفريقيين-الآسيويين، ومؤتمر الكتاب السود. فقد أسهم الكتاب الجزائريون (مسلمون وأوروبيون) في هذا المؤتمر بوفد ضم كاتب ياسين ومولود معمري ومصطفى الأشرف وآيت جعفر والشريف ساحلي ومالك حداد ونور الدين تيدافي، إضافة إلى جان سيناك وهنري كرية[1].

وفي 22 يوليو 1959 بعث السيد بوقادوم من القاهرة بصفته كاتبا عاما للخارجية إلى رئيس الحكومة المؤقتة ونائبه ووزارة الاتصالات العامة يخبرهم أن الخارجية تلقت من ممثلها في بيروت مولود بوقرموح، رسالة تتضمن دعوة للمشاركة في مؤتمر عن الهندسة المعمارية العربية الذي سيعقد في أغسطس من نفس السنة في بيروت. وفي الرسالة يسأل بوقرموح ما إذا كانت الحكومة المؤقتة ستشارك في المؤتمر وهل سترسل وفدا يمثلها، مع العلم أن عنوان المؤتمر هو (التخطيط العمراني في البلاد العربية). ولكن المصدر لم يتضمن الرد على رسالة بوقرموح، فلا ندري هل شاركت الحكومة المؤقتة في المؤتمر أو لم تشارك. والغالب أنها فعلت لأنها كانت لا تترك فرصة للمشاركة، ولو رمزية، إلا اغتنمتها[2].

انعقدت ندوة ثقافية في حوض البحر الأبيض المتوسط تحدثت عنها المجاهد ولكنها لم تخبر أين. وبناء عليها فقد انعقدت بين 19و 24 مايو وحضرتها حوالي تسعين شخصية إفريقية وأوروبية، من بينهم بعض الجزائريين، ولكن الجريدة لم تذكر أسماءهم. أما الأفكار المدرجة في جدول الأعمال فهي:

---

(1) جان دي جو، بيبلوغرافيا، ص 18. نقلا عن مجلة الحضور الإفريقي لسنة 1956، وكان المؤتمر قد انعقد من 19 إلى 22 سبتمبر 1956.

(2) الأرشيف الوطني، علبة 21-50). والغريب أن رسالة بوقادوم لم توجه إلى وزارة الثقافة وهي المعنية بهذه المشاركة.

1- السيادة والاستقلال أو من القبيلة إلى الأمة.

2- الثورة الإفريقية ونطاقها الاقتصادي والاجتماعي.

ونعرف من الجريدة نفسها أن الوفد الجزائري قام بنشاط مكثف في الندوة، وأنه حاول "التدقيق" في مغزى حضارة البحر الأبيض والحضارة الإفريقية، وأكد على تضامن الشعوب الإفريقية ضد الاستعمار لأن بعض الدول "خانت" تضامن البحر الأبيض، حسب تعبير المجاهد. وهذا طبعا كلام غامض ومختصر حول هذه الندوة. فهل هي مثلا حكومية أو نشطتها منظمات مدنية؟ ومهما كان الأمر فلا بد من الرجوع إلى مصادر أخرى لمعرفة المزيد عن هذه الندوة[1].

ولم يكن معروفا في ذلك الحين أن مالك بن نبي قد شارك في مؤتمر ضم كتابا من آسيا وإفريقيا، ولكن الدراسات كشفت عن أنه قدم مداخلة في المؤتمر الثاني للكتاب والفنانين السود الذي انعقد في روما من 26 مارس إلى أول أفريل 1959. ولا ندري موضوع مداخلته، وهل حضر المؤتمر بصفته الشخصية أو باسم جبهة التحرير. كما شاركت الجزائر في مؤتمر كتاب إفريقيا وآسيا الذي انعقد في طوكيو خلال شهر مارس 1961[2]..

وفي يونيو 1960 تأسس في الرباط الاتحاد العام لكتاب المغرب الكبير برئاسة الدكتور عبد العزيز الحبابي، ولكننا لا ندري من مثل الجزائر فيه. وأذكر أنه في السنة الموالية أحضر السيد محمد سحنون لوائح ذلك المؤتمر إلى اجتماع فرع اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين بأمريكا ليطلع عليها الطلبة، وكنت من بينهم.

من الاجتماعات الأخيرة التي حضرتها الجزائر قبل إعلان استقلالها

---

(1) المجاهد، 5 يونيو 1961.

(2) عن مؤتمر الكتاب السود انظر مجلة الحضور الإفريقي المجلد 24-25، الجزء الأول، ص 286-291). أما عن مؤتمر طوكيو فانظر المجاهد، 12 مايو 1961.

اجتماع المكتب التنفيذي للجنة الثقافية لمؤتمر دول الدار البيضاء، وهو الاجتماع الذي انعقد في القاهرة وحضره عن الجزائر أحمد توفيق المدني بصفته المندوب الدائم لدى الجامعة العربية، وعبد القادر بن قاسي، وأرزقي صالحي. وقد قدم توفيق المدني تقريرا مفصلا من خمس صفحات عما جرى في الاجتماع الذي انعقد بين 20 و23 مارس 1962، أي فترة توقيع اتفاقيات إيفيان. ولذلك تحدث التقرير عن تهنئة الوفود العربية والإفريقية لوفد الجزائر بنجاح المفاوضات المفضية إلى الاستقلال. ومن التوصيات التي حملها الوفد تقديم الحكومة المؤقتة خلال أيام مذكرة عن الطلبة الجزائريين والحاجة المالية لدراستهم لسنة 1962-1963. وكانت مهمة اللجنة المذكورة هي تنسيق البرامج والنظر في المعادلات، والتعاون الثقافي والعلمي والفني والإداري بين الدول الموقعة على اتفاقيات اجتماع دول الدار البيضاء[1].

وهكذا نرى أن المؤتمرات والندوات وأمثالها كانت وسائل إعلامية فعالة استفادت منها جبهة التحرير لتبليغ صوت الثورة، وهذه الأنشطة كانت لا تقل فعالية عن الصحف والإذاعة والنشرات والفرق الفنية والمسرحية والرياضية التي احتضنت الثورة أيضا وحملت أفكارها إلى الجماهير في العالم العربي والدولي.

الفريق الوطني لكرة القدم

عقب تأليف الحكومة المؤقتة تكون فريق رياضي وطني لكرة القدم. وقد وجد في تأليفه وتدريبه وتنقلاته عناء كبيرا، وسبب للحكومة عناء أيضا ولكن فصل اللاعبين الجزائريين عن الفرق الفرنسية وإنشاء فريق يلعب تحت العلم الوطني الجزائري في الملاعب الدولية كان انتصارا كبيرا للثورة على المستوى الإعلامي ثم على المستوى المالي أيضا.

جاء في تقرير مرقون بالفرنسية ومكتوب في فاتح سنة 1959 أن الفريق

(1) الأرشيف الوطني، علبة 38.

الرياضي الجزائري واجه مشاكل منذ تكوينه في تونس، أبرزها موقف (الفيفا) من أعضائه ومسألة شراء الأعضاء من الفرق التي يلعبون فيها، مذكّرا بأن معاقبة الفريق المغربي على لعبه مع الفريق الجزائري ما تزال ماثلة للعيان. ولذلك أرسلت الخارجية الجزائرية جمال دردور ليفاوض عن الفريق الجزائري مع الفرق الفرنسية. وقد تقدم دردور في مفاوضاته ولكن أسبابا عائلية جعلته يعود إلى تونس قبل إتمام الصفقة.

كما أن تبعية الفريق كانت محل شد وجذب بين الوزارات، فالداخلية قالت إن تبعية الفريق الرياضي ترجع إليها مثل الفرقة المسرحية التي كانت بصدد التكوين والتي اعتبرتها الوزارة من اختصاصها. ولاحظ التقرير أن (الفيفا) تستعمل حق (الفيتو) إذا أراد الفريق الجزائري اللعب مع فرق أخرى. لذلك أصبح أعضاء الفريق يعانون الإحباط والبطالة حتى لقد فكر بعضهم في التخلي عن الجبهة وفريقها. وقد لاحظ التقرير أن شراء أعضاء الفريق أصبح أمرا محتما وأن هذه العملية تكلف حوالي مائة مليون فرنك كحد أقصى، وهو مبلغ يمكن استعادته بسهولة قياسا على مقابلة المغرب التي جلبت حوالي اثني عشر مليونا[1].

كما أن الجهة التي من حقها إيرادات الفريق الرياضي كانت محل خلاف. فوزارة المالية الجزائرية اقترحت ضرورة صب إيرادات الفريق الرياضي في حسابها في البنك العربي المحلي لاستعمال المال بالعملة المحلية. وقد بررت ذلك بأن نقل النقود من بلد إلى آخر يشكل مغامرة، كما أن تحويل النقود من عملة إلى أخرى يترتب عليه خسارة فروق العملة. ومن الملاحظ أن رسالة وزارة المالية قد سلمت إلى الشيخ محمد الغسيري لكي يوزعها على المكاتب العربية. هذه الرسالة أو المذكرة كانت صادرة من وزير المالية أحمد فرنسيس، وفي أدناها ذكر أنها مترجمة من العربية وموجهة إلى رئيس الوزراء والداخلية

---

(1) الأرشيف الوطني، علبة 21-50 من تقرير بدون توقيع تاريخه 5 يناير سنة 1959.

والخارجية، مع نسخة للاحتفاظ بها في الأرشيف[1].

وهناك رسالة أخرى بخصوص الفريق الرياضي أيضا وهي صادرة هذه المرة من وزارة الخارجية إلى وزارة الداخلية لتخبرها أن مستشار سفارة الصين بالقاهرة أبدى استعداد بلاده لاستقبال الفريق الجزائري الرياضي في الصين لمدة شهر، وأن المستشار يرغب في مقابلة الداخلية لمناقشة سفر الفريق إلى الصين. ورسالة الخارجية موقعة من بوقادوم[2].

ولا ندري كيف تمت المفاوضات بين الطرفين حول السفر إلى الصين، أما الذي حصل فعلا فهو سفر الفريق إلى الصين وإجراؤه عدة مقابلات مع فرقها. لقد غادر الفريق تونس يوم 8 أكتوبر 1959 متوجها إلى الصين الشعبية بدعوة من الفريق الرياضي الصيني. وبعد توقف في طرابلس حيث أجرى مقابلة كروية مع الفريق الليبي، واصل سفره إلى بيكين عبر القاهرة وموسكو. وقد وصل إلى الصين يوم الخامس عشر من أكتوبر. وقام بعدة مقابلات نجح في بعضها وخسر في أخرى، حسب جريدة المجاهد. وفي هذه الأثناء شارك الفريق في "طريق الصداقة الصيني-الجزائري". وفي الخامس من نوفمبر سافر أعضاء الفريق إلى الفيتنام الشمالية حيث أجرى عدة مقابلات وأقام في البلاد إلى 25 نوفمبر[3].

وفي ربيع 1959 قام الفريق الرياضي المؤلف الآن من 21 عضوا تحت مسؤولية الدراجي زغلاش، بسلسلة من المقابلات الكروية في سبع دول من أوروبا الشرقية هي: بلغاريا، رومانيا، روسيا(الاتحاد السوفياتي)، بولندا، ألمانيا الشرقية، تشيكوسلوفاكيا، المجر. وفي مراسلة من الأمين العام للفيدرالية التي تضم الديموقراطيات الشعبية جدول عملي للفريق بحيث يقيم في

---

(1) الأرشيف الوطني علبة 20- 50، والرسالة بتاريخ 15 فبراير 1959.
(2) الأرشيف الوطني علبة 21-50، والرسالة صادرة من القاهرة بتاريخ 20 أبريل 1959.
(3) المجاهد-بالفرنسية- 5 يناير، 1960.

كل بلد مدة محددة تصل في الغالب إلى عشرة أيام تبدأ من نهاية أبريل وتنتهي في 25 يوليو. وكان بإمكان الفريق أن يلعب مقابلتين أو ثلاثة خلال المدة المحددة له في كل بلد، كما يمكنه الاتصال بمنظمات الشباب والعمال من أجل الدعاية لنضال الشعب الجزائري. وقد نصت المراسلة على أن الفريق سيتوجه بعد الجولات الرياضية المذكورة إلى فيينا للمشاركة في المهرجان السابع الدولي للشباب.

قامت الفيدرالية بإرسال التذاكر إلى عبد السلام بلعيد في القاهرة. وقد جاء في المراسلة أن البلد المضيف للفريق سيتولى تذاكر السفر والإقامة والغذاء وكذلك مصروف الجيب، إضافة إلى تأشيرة دخول. ووعدت الرسالة أيضا بتوفير مساعدة مادية للشعب الجزائري[1].

وكان على الفريق أن يمر بالقاهرة ليسافر منها إلى أوروبا الشرقية. ولكي يحصل على تأشيرة لدخول القاهرة استنجدت الخارجية الجزائرية بالسيد فتحي الديب لتسهيل مهمة الفريق الذي كان ينتظر التأشيرة في ليبيا. ويبدو أن التأشيرة المنتظرة كانت للعبور فقط. وجاء في مراسلة الخارجية الجزائرية أن هناك مدة ضرورية لمثل هذه الحالة وأن الفريق قد اتفق مع عدة أندية في أوروبا الشرقية[2].

لقد تكوّن الفريق في ربيع سنة 1958 (قبل تكوين الحكومة المؤقتة) حين انسحب حوالي ثلاثين جزائريا من النوادي الرياضية الفرنسية فسببوا بذلك إرباكا لتلك النوادي التي كانت تستعد لمباريات دولية هامة في صيف ذلك العام. وكان صدى هذا الانسحاب كبيرا في عالم الرياضيين والسياسيين. وكانت

---

(1) الأرشيف الوطني، علبة 21-50، وتاريخ الرسالة هو 23 أبريل 1959، وهي موقعة من كريستيان إيشار Christian Eshard .

(2) الأرشيف الوطني، علبة 21- 50، والرسالة مكتوبة بالعربية من بوقادوم ومؤرخة في 28 أبريل 1958.

المجاهد تطلق على الفريق اسم (فريق جيش التحرير لكرة القدم). وقد نشرت صورة لمن وصل من أعضائه إلى تونس. وقالت إن الفريق يعتزم القيام بدورات أخوية و"التعرف والتصادق مع شباب العرب الأشقاء". وكان عنوان مقالة المجاهد هو (فريق الجيش لكرة القدم يزور الأقطار الشقيقة. وبلفتة إعلامية ذكية أخبرت أن اللاعبين قدموا من أرض الوطن. وما داموا سينطلقون من تونس إلى ليبيا فإن الجالية الليبية والسفارة الليبية في تونس قد أقامت للفريق حفلات تكريمية .وكان يصحب الفريق مدربه السعيد صالح والمسؤول الإداري أحمد معاش. وأضافت المجاهد أن "كل لاعب كان مجاهدا في جيش التحرير الوطني".

وفي رسالة موقعة من الدكتور الأمين دباغين مسؤول الشؤون الخارجية في قاعدة تونس أن عدد الأعضاء ألذين التحقوا بتونس حتى تاريخ 12 يوليو 1958 هم أحد عشر لاعبا فقط بينما يلزم بين أربعة وخمسة احتياطيين، لذلك اقترحوا إرسال رسالة إلى اتحادية فرنسا لتجنيد لاعبين أكفاء وتوجيههم إلى تونس في أقرب وقت. وحثت الرسالة على الكفاءة والسرعة في تكوين الفريق لأنه سيلعب قريبا مباراة دولية. وبرفقة هذه الرسالة توجد مذكرة مرسلة إلى اتحادية فرنسا تتضمن أسماء الفريق الموجود في تونس[1].

وصفت المجاهد ما حل بالملاعب عندما لعب الفريق الرياضي الجزائري في البلاد العربية. وركزت على ما حدث في بغداد خاصة. فقالت إن الشخصيات السامية كانت تجلس في الصفوف الأمامية حيث تصفّ الكراسي الشرفية في مختلف الملاعب العربية. وكل مباراة كانت تتحول إلى مظاهرة، كما حدث في بغداد حين خرج الجمهور يهتف بحياة الجزائر وثورتها.

كان الفريق الوطني يدخل الملعب في ظل العلم الوطني، وهو يردد نشيد (جزائرنا يا بلاد الجدود). وقد حدث في بغداد أن دخل الجمهور الملعب قبل

(1) الأرشيف الوطني، علبة 3.

انتهاء المباراة وحملوا أفراد الفريق على الأكتاف. ولاحظت المجاهد أنه في كل المباريات كان الجمهور عادة يهتف للفريق المحلي أما بالنسبة للفريق الجزائري فإن الجمهور كان يهتف للفريق الضيف. وقد أجرى الفريق عدة مباريات في ليبيا وتونس والمغرب ومصر وسوريا والعراق. وأذكر أنني حضرت شخصيا إحداها في القاهرة، والتقيت عندئذ بالشاعر أحمد معاش الذي كان مسؤولا إداريا على الفريق. وكان الفريق يقيم في فندق (ناسيونال) وسط القاهرة[1].

وعلقت المجاهد على مدى أثر اختفاء أشهر اللاعبين الجزائريين على النوادي الفرنسية، فقالت إنها عانت صدمة عنيفة خصوصا وأنها كانت تستعد لمباراة عالمية يوم 16 أبريل من نفس العام. كما قالت إن خروج ثلاثة وثلاثين لاعبا من فرنسا وقرارهم عدم اللعب في النوادي الفرنسية كان له وقع الصاعقة[2].

لقد اهتمت الثورة بالرياضة لا باعتبارها فنا من فنون الحرب فقط ولكن باعتبارها وسيلة من وسائل الإعلام زمن الحرب أيضا. ولذلك جندت فريقا كاملا من الرياضيين. كان هذا الفريق يرفع شعارات جبهة وجيش التحرير ويحمل العلم الوطني وينشد الأناشيد في الملاعب ويصرح للصحافة الدولية تصريحات معادية للاستعمار ولصالح استقلال الجزائر أسوة بكل الشعوب. كما كان الفريق قد سبب إحراجا للفرق الفرنسية التي كانت تعتمد على العناصر الجزائرية في اللعب في صفوفها. ومن جهة أخرى كان الفريق مصدرا من مصادر الدخل المالي للحكومة المؤقتة، كما سبقت الإشارة.

يروي الشيخ محمد الصالح بن عتيق في مذكراته أنهم في السجون كانوا يتعلمون كل ما يفيد من بعضهم البعض، بما في ذلك كرة القدم والمصارعة اليابانية. فهذا عبد الرحمن يبرير وهو من سكان العاصمة، كان يعلمهم في

(1) المجاهد، 15 مارس 1959.
(2) المجاهد، 15 أبريل 1958.

السجن لعبة كرة القدم حتى نال إعجاب السجناء. كما كان آيت يحي الوناس، وهو رياضي من حي المدنية ومن تلاميذ ابن عتيق نفسه في مدارس جمعية العلماء، يعلمهم قواعد المصارعة اليابانية. إن الرياضة في عهد الثورة لم تعد للتسلية واللهو وإنما أصبحت ممارسة ثورية تهدف إلى تحرير الإنسان والوطن[1].

أعمال الوفد الخارجي للجبهة

قلنا إن مكتب الوفد الخارجي في القاهرة كلف بتسييره الشيخ أحمد توفيق المدني أثناء سفر محمد خيضر وأحمد بن بلة إلى مدريد فالرباط سنة 1956. فعند اختطاف الطائرة المغربية المتوجهة إلى تونس من قبل قراصنة الجو الفرنسيين كان فرحات عباس وعبد الرحمن كيوان يدعوان للثورة في أمريكا اللاتينية، والدكتور أحمد فرنسيس والدكتور الأمين دباغين في تركيا لنفس الغرض. وقد كان على المدني أن يقوم بملء الفراغ ريثما يعود هؤلاء جميعا إلى القاهرة ويتدارسوا ماذا يفعلون في ضوء التعليمات التي ستأتيهم من لجنة التنسيق والتنفيذ حديثة النشأة.

وتثبت الوقائع أن أعضاء الوفد الخارجي الذين لم يحضروا مؤتمر الصومام كانوا يجهلون كل شيء عنه. فقد انعقد في 20 أغسطس 1956 وهم الآن في 22 أكتوبر وما تزال أخبار ذلك المؤتمر لم تصل إلى المعنيين بها في الخارج إلا في شكل إشاعات. فهم لا يعرفون بدقة برنامج الصومام ولا تكوين المجلس الوطني ولا لجنة التنسيق والتنفيذ ولا علاقة الخارج بالداخل. وفي ظل الوضع المتأزم على المستوى الشعبي والرسمي، العربي والدولي، كان على أحمد توفيق المدني أن يؤكد للحكومة المصرية والحكومات العربية وغيرها استمرار الكفاح، وأن يواجه الدعاية الفرنسية التي كانت تقول إن الجبهة قد

---

(1) مذكرات ابن عتيق، واسم يبرير موجود في قائمة الفريق الرياضي لكرة القدم أيضا.

انتهت وإن الثورة قد فشلت. كما كان عليه أن ينشط المكتبين السياسي والعسكري، وخاصة استمرار تدفق السلاح إلى المجاهدين، وهذا الجهد قد استمر بفضل التصريحات في إذاعة القاهرة وصوت العرب والمقابلات الصحفية وإصدار البرقيات الاحتجاجية للبلاد العربية ودول باندونج واستقبال مثلها. لقد كانت لحظة حرجة ووقتا عصيبا عاشته الثورة الجزائرية وبعض رجالها على الأقل.

وفي يوم 27 أكتوبر جرى اجتماع في القاهرة كلف فيه الدكتور الأمين برئاسة الوفد الخارجي نتيجة برقية وردت من رمضان عبان تاريخها سابق لاختطاف الطائرة. وبعد هذا الاجتماع بأيام وصلت معلومات أكثر تفصيلا عن مؤتمر الصومام وبرنامجه وعن تكوين المجلس الوطني ولجنة التنسيق والتنفيذ.

في هذه الأثناء حضر أحمد (علي) محساس إلى القاهرة وأعلن، كما فعل في تونس، معارضته لقرارات مؤتمر الصومام، وأن ابن بلة يقف أيضا ضد هذا المؤتمر لأنه مؤتمر "خان" مبادئ الثورة والعروبة والإسلام. وكان محساس يحمل رسالة موقعة من ابن بلة يعينه فيها ممثلا له. لذلك كان على الوفد الخارجي أن يحل عدة مشاكل مستعجلة قبل أن يستفحل الأمر فيؤثر على الوضع في الداخل، وهي:

1- الاعتراف بمؤتمر الصومام ونتائجه،

2- مكافحة حملة الانشقاق "الإجرامية" التي يقودها أحمد محساس.

3- تأمين السلاح وتوصيله من مكتب طرابلس إلى تونس[1].

بعد التغلب على الأزمة المزدوجة (اختطاف الطائرة وانشقاق محساس) انطلق الوفد في تحقيق الأهداف التي حددها، وأهمها تأمين السلاح للثوار

(1) الأرشيف الوطني، علبة 3. من تقرير هام يحتوي على إحدى عشرة صفحة مرقونة، تاريخها من 22 أكتوبر 1956 إلى 20 أغسطس 1957.

وتكثيف الإعلام للثورة. انطلقت الوفود في مختلف الاتجاهات، وبالأخص داخل البلاد العربية حيث المال والسلاح والضغوط الدبلوماسية على فرنسا. وقد أصبح الدكتور الأمين دباغين هو قائد السفينة خارج الجزائر وكان عليه أن يعود إلى مبدأ القيادة الجماعية التي سارت عليها الثورة حتى ذلك الحين بحيث لا تتأثر الثورة بموت أو اعتقال أحد من قادتها. وكان الأمين (وهو طبيب بالمهنة) سياسيا من الحرس القديم في حزب الشعب يعمل أكثر مما يتكلم، وله شخصية تفضل الانطواء والعمل السري على الظهور والزعامة. وهو إذا قوبل بابن بلة يقف منه على طرفي نقيض في هذه الأمور الشخصية.

توجه وفد من جبهة التحرير إلى موسم الحج لعام 1957 ضم أحمد توفيق المدني والشيخ العباس بن الشيخ الحسين وعمر دردور. كان هذا التجمع الكبير للمسلمين فرصة للوفد لتوزيع أكثر من 3500 نسخة من كتيب يحتوي على معلومات أساسية عن الثورة. كما أذاع الوفد كلمات ست مرات في الإذاعة السعودية وعقد اجتماعات مع وفود عديدة وقام باتصالات. وخلال هذا الموسم أعلن الملك سعود بكل صراحة أنه يقف مع استقلال الجزائر ولن يتخلى عن دعمه إلى أن يتحقق هذا الاستقلال[1].

وقد عثرنا على رسالة من الوفد الذي توجه إلى باكستان موجهة إلى "حضرات الإخوان" بتاريخ 27 يوليو 1957 تصف اجتماعا حماسيا لصالح الثورة جرى في لاهور، وفي كراتشي وفي حيدر آباد عاصمة السند. وتحدثت الرسالة عن الحماس والتزاحم على الوفد الجزائري الذي اعتبره الناس كأنه من المسلمين الفاتحين الأولين. والغالب أن يكون الشيخ محمد البشير الإبراهيمي هو الذي كان يقود الوفد في باكستان لأن المصدر الذي رجعنا إليه يتحدث عن "الشيخ" دون الإفصاح عن اسمه. والمعروف أن الشيخ الإبراهيمي كان في

(1) الأرشيف الوطني، علبة 3.

باكستان في تلك الفترة[1].

كما زار وفد جزائري السودان في فاتح سنة 1958، ومن بين أعضائه الهاشمي الطود والتارزي الشرفي. وقد تحدث التقرير عن الحماس الشديد الذي استقبل به الوفد في السودان من الحكومة والشعب، والتعلق بالقضية الجزائرية. وقد ركز التقرير أو الرسالة على شكر السودان على دعمه للقضية الوطنية مع رجاء المزيد منه دبلوماسيا وماديا وسياسيا. . . وفي رسالة من الدكتور دباغين إلى ابن يوسف بن خدة شكوى من كون اثنين من أعضاء الوفد، وهما الطود والشرفي، قد رجعا إلى القاهرة دون علم الوفد في السودان. والمعروف أنه كان للثورة مكتب أيضا في السودان. وقد تكررت الزيارات لهذا البلد الشقيق[2].

وهناك وفد آخر توجه إلى الكويت بقيادة الشيخ حامد روابحية في شهر مايو 1958. وجاء في التقرير الذي كتبه الوفد أنه جمع من الكويت تبرعات بلغت 937.690 دولارا صبت كلها في البنك العربي بدمشق لحساب الجبهة.

وكان هناك تعاون بين الحكومة المؤقتة والحكومات العربية والإسلامية في مجالات أخرى أيضا غير المال والسلاح. ففي رسالة كتبها أحمد توفيق المدني وزير الثقافة إلى الخارجية الجزائرية أن الحقيبة الدبلوماسية الليبية والإندونيسية مستعدة لحمل بريد الحكومة المؤقتة إلى مختلف الاتجاهات[3].

---

(1) الرسالة ضمن ملف عن عمر بلعيد ممثل اتحاد الطلبة الجزائريين في جامعة كولونيا بألمانيا، الأرشيف الوطني، علبة 1-20.

(2) تاريخ الرسالة 8 يناير 1958 وهي تحمل عبارة من وفد جبهة التحرير الوطنية الجزائرية، مكتب القاهرة، وهي مطبوعة بالعربية، مع إضافة ثلاثة أسطر باليد يبدو أنها بخط الشيخ أحمد توفيق المدني، وموقعة من الأمين دباغين رئيس الوفد الخارجي، انظر الأرشيف الوطني، علبة رقم 3، وأذكر بهذه المناسبة أن الشيخ العباس بن الشيخ الحسين قد أخبرني ونحن في القاهرة عندئذ بعد عودته من زيارة للسودان أن الشباب السوداني كانوا يرددون أمام الوفد مقاطع من شعري المنشور حديثا في مجموعة النصر للجزائر، وكان مندهشا من رواج المجموعة وسرعة حفظهم.

(3) نفس المصدر، علبة 21- 50، وتاريخ الرسالة 19 يناير 1959.

كان الدكتور دباغين هو الذي يعين الوفد ورئيسه لأي بلد أو لأي مؤتمر. ففي دمشق مثلا لاحظنا أن الدكتور دباغين قد عين الشيخ الإبراهيمي تحت مسؤولية عبد الحميد مهري الذي كان مسؤولا على مكتب دمشق، وذلك بتاريخ 13 يوليو 1957 . وفي مذكرة تحمل حرفي (M.Y. والتي قرأنا أنها ترمز إلى اسم محمد الصديق بن يحي مدير مكتب دباغين) أن احمد توفيق المدني قد تعين ضمن الوفد الذي سيتوجه من دمشق إلى العراق لتهنئته بقيام الجمهورية، وتاريخ المذكرة هو 24 يوليو 1958. وكان الشيخ المدني قد شارك في مؤتمر الخريجين العرب وانتخب من المشاركين في الوفد الذي سيتوجه إلى العراق للغرض المذكور أيضا. وكان الشيخ المدني قد حضر في دمشق (المؤتمر الشعبي العربي) الذي حضره بعض قادة الحركة العربية القومية، منهم ميشيل عفلق وصلاح البيطار وشفيق إرشيدات وفؤاد جلال... [1]

ولا نريد هنا تقديم إحصاء بالوفود المنطلقة في اتجاهات مختلفة للدعوة للثورة سواء كان في عهد الجبهة أو في عهد الحكومة المؤقتة. فقد كانت الدبلوماسية الجزائرية قد نجحت في كسب الرأي العام العالمي ضد الاستعمار الفرنسي بوسائل ذكية أصبحت اليوم محل دراسة الباحثين.

وكانت هذه الدبلوماسية قد تعززت بالإعلام المتزن أيضا، وقد تعرضنا له، سواء في جريدة المجاهد أو في النشرات المختلفة، أو في الإذاعة الجزائرية أو في الندوات والمحاضرات وأخبار النقابات ذات الإيديولوجيات المختلفة. وقد كان للوفد الخارجي قبل أكتوبر 1956نشرة إعلامية يوزعها على الصحف والوكالات الصحفية والدوائر الرسمية.

وفي أغسطس من سنة 1957 أصبح الوفد يتلقى الأخبار من الداخل ليصدر النشرة من جديد ويوزعها على الصحافة والوكالات. كذلك نشر الوفد

(1) الأرشيف الوطني، علبة 3. من مذكرة تقع في ثلاث صفحات بتوقيع أحمد توفيق المدني بتاريخ 28 يوليو 1958 وهي بالفرنسية.

كتيبات وكتبا بالعربية والإنكليزية والفرنسية والإسبانية عن الوضع بالجزائر ومسيرة الثورة وشجب فظاعة الاستعمار وحرب الإبادة. ومن حين لآخر كان الوفد الخارجي يعقد مؤتمرات صحفية سواء في تونس (مارس 1957) أو القاهرة (يوليو من نفس العام) ليجيب على الأسئلة ويوضح المواقف إزاء عدد من القضايا الحيوية ذات العلاقة بمصير الثورة[1].

أما دور اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين (لوجيما) في الحياة الدبلوماسية للثورة فقد تناولناه على حدة في الفصل الخاص بالمنظمات الطلابية. وقد كان هذا الدور رديفا لنشاط وفود جبهة التحرير في الخارج، وأحيانا موازيا له.

المسؤول السياسي

كما أن المسؤول السياسي على مستوى الولايات في الداخل قد لعب دورا إعلاميا هاما. فقد كان موكلا بالتوعية والإرشاد ومحاربة الآفات الاجتماعية وإصلاح ذات البين بين المواطنين. وكان يشرف على تسجيل عقود الزواج والطلاق والميراث والمواليد والوفيات، أي أنه كان يقوم بتعويض درو المحاكم التي كانت تحت السلطة الاستعمارية. وبالإضافة إلى ذلك كان المحافظ السياسي يشرف على مسائل التربية والتعليم، وجمع التبرعات والاشتراكات والعشور والزكاة. ومن جهة أخرى كان يقوم بتقديم المساعدات للمحتاجين وعائلات الشهداء والمجاهدين والمعتقلين. وكان له دور إداري أيضا يتمثل في تنظيم القرية والعرش والدوار، وكان يعد تقريرا شهريا عن أعماله، كما كان يستقبل تقارير شهرية من مسؤولي النظام في القرى. ومن أهم ما كان يقوم به في هذا المجال هو الدعاية والدعاية المضادة للاستعمار[2].

---

(1) الأرشيف الوطني، علبة 3. من تقرير عن وضع الوفد الخارجي بين أكتوبر 1956 وأغسطس 1957.

(2) وثائق ملتقى سنة 1983 لتاريخ الثورة، ولايات الوسط.

الفصل الخامس

التعليم والتنظيمات الطلابية

يمكن القول إن من أسباب الثورة تكريس سياسة التجهيل التي اتبعتها السلطة الفرنسية نحو الشعب. فقد كانت سياسة تقليدية اتبعها الخلف الفرنسيون عن السلف، وهي أن تعليم الجزائريين أو ترك الحرية لهم يتعلمون بوسائلهم الخاصة سيؤدي إلى يقظتهم والمطالبة بحقوقهم، لذلك كانت الأمية في الجزائر بعد قرن وربع من الاحتلال قد تجاوزت التسعين في المائة. وقد صدق فرحات عباس عندما خاطب الطلبة سنة 1960 بقوله "في ظرف ست سنوات فقط استطاعت الثورة أن تخرج من صفوفكم عددا من الخبراء والفنيين أكبر من العدد الذي كونه الاستعمار خلال 130 سنة من الاحتلال" [1].

استمر التعليم في الجزائر متعدد الأنواع. فهناك على الأقل تعليم فرنسي وتعليم مختلط وتعليم عربي حر. والتعليم الفرنسي الرسمي تشرف عليه الدولة الفرنسية عن طريق مؤسساتها وممثليها وهو ما تسميه المراجع عندنا بالتعليم العمومي أو التعليم العام. وهذا النوع من التعليم فيه المستويات الثلاثة وهي الابتدائي والمتوسط والعالي. والتعليم حسب القانون الفرنسي، إجباري ومجاني، ولكننا نجد أكثر من مليون ونصف المليون من الأطفال الجزائريين كانوا سنة 1952 خارج المدارس.

---

(1) مجلة الشباب الجزائري، تونس، عدد خاص بالمؤتمر الرابع لاتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين، أغسطس -سبتمبر 1960، عدد 14-15.

وهناك تعليم عربي/فرنسي، وهو الموجه للجزائريين (المدرسة الأهلية/ الأندجين) والذي دخلته العربية كلهجة أو لغة دارجة، وهو لا يستوعب كل الأطفال وليس إجباريا كالتعليم المخصص لأبناء الفرنسيين. إضافة إلى ذلك هناك التعليم الفرنسي-الإسلامي أو (الفرنكو-ميزولمان) الذي عرف تطورا مع بداية الثورة حين حولت المدارس القديمة الثلاث إلى ثانويات للذكور مع استحداث ثانوية رابعة للإناث. أما التعليم العربي فهو خارج نطاق النظام التربوي الذي تشرف عليه الحكومة الفرنسية، وهو إما تحت إشراف الزوايا ويسمى تقليديا أو أصليا وإما تحت إشراف جمعية العلماء (وأحيانا حزب الشعب) ويسمى التعليم الحر. وقد سبق التنويه بتطورات التعليم عشية الثورة في الفصل الأول.

التعليم: إحصاءات متنوعة

نشرت الحكومة العامة في الجزائر سنة 1959 نشرة أسمتها (الجزائر - تنمية، 1959 أو الجزائر والتنمية) تتعلق بمجالات التعليم في "العهد الجديد وانطلاق الجزائر إلى عصر التنمية". وفي هذه النشرة تفصيل عن كون التعليم هو أساس كل تنمية، فهناك التعليم الشامل والتعليم الثانوي والتعليم العالي. والمقصود بالتعليم الشامل هو التعليم الابتدائي وما في مستواه. ومما جاء في النشرة أن التعليم الشامل قد حقق تقدما ملحوظا. ففي 1948، كان هناك طفل مسلم (جزائري) يتعلم من بين تسعة أطفال لا يتعلمون. وبعد عشر سنوات أصبح هناك حوالي أربعة أطفال يتعلمون من كل تسعة لا يتعلمون. وهذا تقدم كبير في نظر الحكومة العامة.

وفي فاتح أكتوبر 1958 سجل 612 ألف طفل في المدارس الابتدائية، منهم 473 ألف طفل من المسلمين (الجزائريين) من بينهم 171 ألف تلميذة. وفي 30 يناير 1959 زاد عدد التلاميذ المسلمين بخمسين ألف طفل جرى تسجيلهم خلال السنة الدراسية حين افتتحت أقسام جديدة. ويضاف إلى هذه

الأرقام 69 ألف تلميذ (مسلم) يزاولون التعليم في المدارس التي فتحها الجيش الفرنسي في المناطق النائية عن المدن والقرى. وهناك بضعة آلاف من الأطفال (المسلمين) الذين يتلقون تعليما في المدارس الحرة، دون تقديم إحصاء عنهم (والمعتقد أن المقصود بهم تلاميذ مدارس جمعية العلماء).

وتتحدث نشرة الحكومة العامة المتفائلة جدا بمستقبل التعليم في الجزائر، عن التعليم الثانوي أيضا خلال نفس الفترة (1958-1959) . فقد سجل سبعة وأربعون ثانوية ومعهد (كوليج) في القطر الجزائري 42 (اثنين وأربعين) ألف تلميذ، منهم 7800 فقط من المسلمين، من بينهم ألفان من البنات المسلمات، أي 22٪ حسب هذا الإحصاء. وكان هذا العدد لا يتجاوز 10٪ فقط منذ عشر سنوات (أي سنة 1948).

أما التعليم العالي فالإحصاء الرسمي متفائل به أيضا، بل إنه أعطى الرقم الإجمالي الذي يشمل الطلبة الأوروبيين وسكت عن التفاصيل لأنها تكشف عن حقيقة فاضحة بالنسبة للعدد الخاص بالجزائريين، فالجامعة الجزائرية في الواقع جامعة فرنسية رغم الحديث عن كونها ذات طابع إفريقي- إسلامي متميز، فهي تضم 5400 طالب ليس بينهم سوى حوالي 400 طالب مسلم (جزائري). وقد صدقت النشرة عندما وصفتها بأنها إحدى كبريات الجامعات الفرنسية، ومع ذلك تبجحت النشرة وقالت إن للجامعة مهمة يفرضها عليها موقعها الجغرافي في إفريقيا وصلتها بالعالم الإسلامي. وللجامعة أربع كليات واثنا عشر معهدا متخصصا، منها معهد الدراسات الإسلامية، ومعهد الدراسات الشرعية في وهران وقسنطينة. وقد شرع في بناء معهد للدراسات النووية وفي بناء كلية للطب، وهي كلية جديدة رغم أن للطب كلية قديمة[1].

أما جريدة (المقاومة الجزائرية) فقد أوردت إحصاء بعدد الطلبة الجامعيين في الجزائر سنة 1954 فكان كما يلي: هناك 557 طالبا جزائريا في جامعة

(1) هنا الجزائر، نوفمبر 1959.

الجزائر مقابل 7146 طالبا أوروبيا. ولا شك أن هذا الرقم فيه مبالغة لأن رقم طلاب الجامعة عندئذ لم يتجاوز 5500 طالبا من جميع الطوائف. وعلقت الجريدة على ذلك بقولها: لو كانت الأمور طبيعية لكان في الجامعة 37000 (كذا) طالبا مسلما حسب إحصاء السكان. كما قالت إن الأطفال الجزائريين الذين لم يجدوا مكانا لهم في المدارس يبلغو 2.400.000 وبدلا من ذلك فإن هؤلاء الأطفال مشردون في الشوارع[1].

وهناك تقرير حول التعليم في الجزائر يرجع إلى سنة 1961 ويعرف بتقرير غورجو Gorgeu، وقد فصل الإحصاءات بشكل ملحوظ، ولا نعرف أنه منشور، فنحن قد اطلعنا عليه في الوثائق (الأرشيف) الوطنية. كان الأطفال بين سن السادسة والرابعة عشرة في الوسط الأوروبي يمثلون 16٪ من السكان بينما ترتفع نسبتهم إلى 35٪ في الوسط المسلم. وحسب مصادر الحكومة العامة سنة 1957 فإن عدد الأطفال الأوروبيين في التعليم الابتدائي وصل إلى 135.200 أما لدى الجزائريين فالعدد حوالي 400.000 . (مع فارق عدد السكان دائما). أما عدد التلاميذ الأوروبيين في الثانويات فيصل إلى 200.35، بينما عدد الجزائريين، 7860.

فإذا رجعنا إلى التعليم العالي نجد جامعة الجزائر تضم، حسب التقرير المذكور، حوالي 5000 طالب فقط، منهم حوالي 500 طالب جزائري. فنسبة الأوروبيين فيها 4.5٪، بينما نسبة الجزائريين هي 0.000055 أو 54 طالبا أوروبيا لكل 1000 ساكن، وطالب واحد جزائري لكل 18000 ساكن.

وإليك الآن بعض التفاصيل الأخرى المستخرجة من هذا التقرير حسب مستويات التعليم وجنس الطلبة وأصل السكان:

ففي **التعليم الابتدائي** نجد عدد التلاميذ المسلمين: 625.469 (منهم 236.695 إناث و 388.774 ذكور). أما غير المسلمين فالتلاميذ كالتالي:

---

(1) المقاومة الجزائرية، ط3، 11 مارس 1957.

147.458 (منهم 71.444 إناث و 76.014 ذكور).

وفي **التعليم الثانوي** نلاحظ أن عدد التلاميذ المسلمين 10.283 (دون تفصيل في الإناث والذكور). أما التلاميذ غير المسلمين فعددهم 34.413 (دون تفصيل)، ولكن جملة التلاميذ هي 44.696.

وبالإضافة إلى ذلك هناك **التعليم العمومي** الذي يشمل حوالي خمسين (50) ثانوية ومعهدا ثانويا في الجزائر. ومن بين أساتذة التعليم الثانوي يوجد 105 أساتذة بالعربية (الدارجة؟). ومن 150 إلى 200 أستاذ مسلم بالثانوي من بين 1434 أستاذا وأستاذة.

أما بالنسبة **للتعليم التقني والمهني** فعدد التلاميذ فيه موزع كما يلي: 11.753 من المسلمين، 1.336 من غير المسلمين، ومجموعهم: 21.086 .

بينما لاحظ التقرير فيما يتعلق **بالتعليم الخاص** وجود تعليم ابتدائي يتوزع فيه المسلمون وغير المسلمين كما يلي: المسلمون: 4.154 (بين أمومة 9841 وابتدائي 3.173)، غير المسلمين: 10.841 (أمومة: 4375 وابتدائي 6.466).

أما الثانوي الخاص فلم يفصله التقرير تفصيلا طائفيا كما فعل سابقا، ولكنه قسمه حسب جنس التلميذ: الذكور 3.322 والإناث: 2.887 ، والمجموع: 6.209[1].

التعليم الحر

أما التعليم الحر أو التعليم المدعوم من التبرعات الشعبية والذي تشرف عليه غالبا جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فله أحصاء غير مفصل، على هذا النحو: سنة 1955 كان عدد التلاميذ 35.190، وعدد المدارس 193، وعدد المعلمين 511، من بين العدد الإجمالي هناك 1200 طالب في معهد عبد

(1) الأرشيف الوطني، علبة 27.

الحميد بن باديس بقسنطينة، وهي المؤسسة الوحيدة للتعليم المتوسط لجمعية العلماء. ولكن منذ 1955 أغلقت السلطات الفرنسية معظم المدارس في وجه التعليم واحتلها الجيش الفرنسي الذي استعملها لأغراض مختلفة مقلدا ما قام به سلفه سنة 1830 نحو المؤسسات التعليمية والدينية.

وهناك مؤسسات أخرى كانت تمارس التعليم الحر مثل المدارس التابعة لحزب الشعب والمدرسة الكتانية التي كانت تتولاها الزاوية الرحمانية (فرع ابن الحملاوي)، وغيرها. ويقول التقرير الذي رجعنا إليه إن مدارس التعليم الحر (غير التابع لجمعية العلماء) كانت تتولاه مؤسسات خاصة قبلت بتطبيق مرسوم 27 نوفمبر 1944 الذي ينص على التعليم الإسلامي الخاص والقاضي بتدريس خمسة عشرة ساعة للغة الفرنسية في الأسبوع لتلاميذها مع قبولها بمراقبة فرنسية لسير التعليم فيها. ولاحظ التقرير أن عدد التلاميذ في هذه المدارس قليل، دون إعطاء أرقام[1].

بالإضافة إلى التعليم الرسمي بمستوياته المختلفة والتعليم الخاص والحر، هناك المدرسة الفلاحية الجزائرية التي تطورت عن المعهد الفلاحي الجزائري سنة 1946. ويعود تاريخ هذا المعهد إلى سنة 1918. كانت المدرسة ملحقة بوزارة الفلاحة، وتقبل التلاميذ بمسابقة، وتمنح دبلوم مهندس فلاحي، وغايتها تكوين كبار المسيرين في الفلاحة لشمال إفريقيا والبحر الأبيض المتوسط، وتكوين خبراء في الاقتصاد والتعمير في أقطار ما وراء البحار. وهذا النوع يسمى تعليما "عاليا". وللمدرسة رسالة أخرى وهي البحث والدراسة. فهي تضم مخابر وتجهيزات تجري أبحاثا في مركز الحراش للأبحاث الزراعية، وينشر الأساتذة والباحثون نتائج بحوثهم في منشورات المعهد الفلاحي. أما التعليم الفلاحي فهو في الجزائر على ثلاثة أنواع: ابتدائي ومتوسط وعالي، وللتعليم المتوسط مثلا خمس مدارس. وقد أشار مصدرنا إلى وجود المعهد

---

(1) الأرشيف الوطني، العلبة 27.

الجزائري للأبحاث الاقتصادية والاجتماعية.

ولاشك أن كل هذه المؤسسات على تواضعها تقدم خدمة للشباب، ولكن سياسة التجهيل والتمييز العنصري التي أشرنا إليها جعلت الجزائري يشعر بأنه كان في درجة دنيا، رغم أنه حاول أكثر من مرة أن يكون في درجة عليا[1].

التعليم في إحصاءات جبهة التحرير

في حديث مع الشيخ أحمد توفيق المدني، وزير الثقافة في الحكومة المؤقتة سنة 1958 نشرته المجاهد عن (وضعية الطلبة الجزائريين في الخارج) جاء فيه أن عددهم عندئذ أكثر من ألف طالب موزعين على النحو التالي:

تونس: 650 (دون تحديد المستوى) ومصر: 100 في الجامعات المصرية، وسورية: 65 في جامعة دمشق، والعراق: 65 في جامعة بغداد، والكويت: 30 (دون تحديد المستوى)، والمغرب: 100 (دون تحديد المستوى).

أما في أوروبا والولايات المتحدة فهناك: 170 طالبا في جامعات غير فرنسية (تشمل سويسرا، يوغسلافيا، الاتحاد السوفياتي، ألمانيا الشرقية، أسبانيا).

وجملة الطلبة في الخارج 1200. يضاف إليهم طلبة يواصلون العلوم العسكرية والطيران والبحرية في معاهد المشرق، ولم يذكر الحديث الجامعات أو الكليات التي يدرسون فيها.

أما حالة الطلبة فقد وصفها الشيخ المدني كما يلي: إنهم يتقاضون مِنَحا من الحكومات العربية، ولكنها لا تفي بحاجاتهم. لذلك فإن الحكومة الجزائرية تقدم لهم معونة إضافية، ما عدا طلبة الكويت فإن إمارة الكويت تكفيهم

(1) هنا الجزائر، 38، أغسطس 1955، في هذا المصدر أيضا مقالة عن إنتاج البترول في الجزائر.

حاجاتهم. أما بالنسبة للطلبة الذين يدرسون في البلدان الأوروبية فإن أغلبهم يتمتعون بمنح كافية، وهذه المنح تدفعها حكومات تونس والمغرب وغيرهما. أما المشكل الحقيقي فيكمن في طلبة تونس، فهم يعانون من الفقر، والقليل منهم يحصل على إعانة عائلية، والغالبية من الطلبة لا تعيش إلا على ما تقدمه هيئة الإغاثة الجزائرية، وهو قليل(1).

وفي نفس الحديث ذكر الشيخ المدني مختلف التخصصات التي كان يدرسها الطلبة الجزائريون. فطلبة تونس يدرسون في أغلبهم برنامج التعليم الزيتوني والمواد التي تدرس في المدرسة الخلدونية، أي أنهم يدرسون العلوم العربية والإسلامية التقليدية مع تطعيم حديث. أما الطلبة في أوروبا فيتلقون تعليما عصريا (أي العلوم والتكنولوجيا). والواقع أن بعض هؤلاء الطلاب كانوا يدرسون أيضا علوما تقليدية ومواد أدبية. وأما طلبة المشرق العربي فأغلبهم يدرس المواد الأدبية والتاريخ والحقوق والتربية. وأضاف الشيخ بأن الحكومة المؤقتة جادة في توجيه هؤلاء الطلبة (طلبة المشرق) إلى العلوم العصرية والمتخصصة.

وقد أبدى الشيخ المدني مجموعة من الملاحظات عن حالة الطلبة، ولا سيما طلبة تونس. إن سيرة الطلبة الجزائريين عموما سيرة حسنة في كل مكان يدرسون فيه، والوزارة منشغلة بدراسة حالة الخريجين لسنة 1958-1959 (أول سنة من عمر الوزارة) لتوزيعهم على معاهد التخصص "لأننا نريد علماء كاملين متبحرين في كل علم وفي كل فن". ولاحظ أن الطلبة أنفسهم يسيرون في الخط المرسوم لهم، وهو أن يكونوا بناة الجزائر المستقلة. وإن المجالات التي يتوجه إليها الطلبة حتى الآن هي المجالات العلمية (البيولوجيا، والتعدين، والهندسة بأنواعها، والكيمياء، والفيزياء...) وابتداء من هذه السنة (1959) بدأت الوزارة توجه الطلبة لدراسة التخصصات المذكورة سواء في أوروبا أو في المشرق.

(1) المجاهد، 33، 8 ديسمبر 1958.

أما عن طلبة تونس بالذات، فإلى جانب مسألة الفقر هناك الناجحون الذين لا يحصلون إلا على درجة (القريب من الحسن)، وبعض الطلبة لا ينالون الباكلوريا، وليس للطالب في تونس سكن يسمح له بالدراسة والتفوق، وتمنى الوزير لطلبة تونس التوجه أيضا نحو الشعب العصرية الخاصة حتى يمكنهم دخول الجامعات فيما بعد.

وحول سؤال عن توجيه الطلبة إلى الصين للدراسة العلمية والتجربة الثورية أجاب الشيخ بأنه تناول ذلك مع سفير الصين بالقاهرة، وأن للحكومة الآن وفد في الصين سيتذاكر مع حكومتها حول الموضوع. وقال إنه يجب الاستفادة من تجربة الصين الاقتصادية والصناعية والعلمية (وكذلك غير الصين)، ولاحظ أنه يتمنى أن يرى خريجي الجزائر في مختلف جامعات العالم لأن ذلك أكثر فائدة للبلاد. ولكنه لاحظ أن الأولوية لتوفير السلاح للثورة، وأنه تمكن من حل مشاكل الطلبة في تونس (المطعم والسكن، وسد الضرورات)[1].

ملاحظات على التعليم والجبهة

كان على الثورة أن تعمل على جبهتين جبهة التحرير وجبهة التعليم. وكان الطلبة قد خرجوا من الجزائر، بعد أن جف فيها معين العلم، إلى مختلف الاتجاهات، فمنهم من قصد تونس والمغرب، ومنهم من قصد المشرق العربي، ومنهم من قصد أوروبا وأمريكا. وهناك التحاق فردي بالمؤسسات التعليمية وبعثات منظمة أشرفت عليها مثلا جمعية العلماء قبيل الثورة وفي عهدها الأول، وهناك منح كانت تمنح من قبل بعض الدول أو المنظمات الدولية للطلبة الجزائريين إما لأنهم في حالة تشرذم بعد إضرابهم الشهير عن التعليم سنة 1956، وإما لأسباب إيديولوجية، وإما لأن بعض الدول شعرت أن الجزائر في طريقها إلى الاستقلال وعليها أن تأخذ مكانا لها في هذا البلد الواعد بكل خير.

(1) المجاهد، 33، 8ديسمبر 1958.

لذلك تكاثر عدد الطلبة الجزائريين في الخارج بالتدرج أثناء الثورة وتعددت تخصصاتهم، فكان المشرق العربي مثلا لتكوين المدرسين في اللغة العربية والثقافة الإسلامية في معظم الحالات، وكانت أوروبا لإعداد إطارات في مختلف العلوم والتكنولوجيا.

وهناك ملاحظات نريد أن نبديها هنا قبل الدخول في التفاصيل وهي أن تشتت الطلبة الجزائريين جعلهم يلتحقون بالمعاهد العلمية في المشرق وفي أوروبا على أساس العطف والاستثناء وليس على أساس الكفاءة والدراسة المنتظمة. ولولا ذكاء الطالب الجزائري الفطري وحماسه للعلم المفقود في بلاده ولولا روح الثورة والطموح الوطني والشخصي لما نجح منهم إلا عدد ضئيل في الجامعات والمعاهد التي التحقوا بها.

وتثبت الأرقام التي سنوردها أن عدد البلدان المستقبلة للطلبة الجزائريين كان يزداد مع الأيام وكذلك عدد الطلبة الدارسين. وهناك إحصاءات نعتبرها رسمية لأنها صادرة عن مؤسسة عامة للثورة هي وزارة الثقافة عندئذ، وهناك إحصاءات صادرة عن جهات أخرى كالجرائد والمجلات والأفراد نستعين بها أو نذكرها للتأكيد وتقديم وجهة نظر مخالفة أو مصححة. وليس لدينا إحصاء شمل كل سنوات الثورة لنستدل به على عنايتها بهذا الموضوع، فقد يكون هناك إحصاء من سنة كذا إلى سنة كذا وإحصاء آخر لا يشمل إلا المرحلة النهائية للثورة[1].

رسم وزير التربية الجديد بعد الاستقلال صورة متشائمة لحالة التربية والتعليم في فاتح سنة 1962-1963، وهي السنة التي بدأت فيها الجزائر تمارس سيادتها على مؤسساتها التعليمية. فمن ناحية هناك تعليم كان في خدمة الاستعمار سواء في شكله العام أو في شكله التقني، فهو تعليم لا يخرج من

(1) انظر فقرة التعليم في إحصاءات جبهة التحرير، وحديث وزير الثقافة أحمد توفيق المدني، سابقا.

المتعلمين إلا بالقدر الذي تحتاجه الإدارة، وكان حظ اللغة العربية حظا بائسا في بلاد لغتها العربية ودينها الإسلام حتى أن الوزير انتهى إلى أن أقل من 3؟ من ميزانية التعليم كان يصرف على العربية. وهكذا عرفت الجزائر في خريف 1962 مليوني طفل غير قادر على التمدرس، وزادت حرب التحرير من حدة الوضع، ولا يأخذ التعليم في الجزائر في العهد الاستعماري في الاعتبار مسألة الشخصية الوطنية (الهوية) بل بالعكس كان يعمل على إقبار هذه الهوية وطمسها بطريقة منظمة. ومن حيث الإحصاء فإن سنة 1961-1962 مثلا لم يمارس التعليم التقني فيها سوى 1400 من مجموع 14000 تلميذ، بينما بلغ سكان الجزائر عندئذ عشرة ملايين، وإذن فإن التعليم كان في خدمة الاستعمار والاندماج[1].

التعليم والسكان

بلغ سكان الجزائر (القطر): 1948= 8.681.785 (مسلمون وأوروبيون).
وفي سنة 1954 بلغ عدد السكان 9.529.726 نسمة، وقد ازداد هذا الرقم الأخير قد ازداد سنة 1958.

أما سكان مدينة الجزائر فقد بلغوا 308.321 نسمة سنة 1948، وفي سنة 1954 بلغوا 355.040 ولكنهم قد بلغوا سنة 1958 بين 400.000و420.000.

إذا أضيفت الضواحي إلى سكان العاصمة (حسين داي، الحراش، القبة، بئر مراد رايس، بوزريعة، بولوغين، فإن سكان العاصمة سنة 1954 قد وصلوا إلى 570.086 ولكنهم قد يصلون سنة 1958 بين 650.000 و 675.000 .

هذا النمو السكاني يقابله نمو في عدد المتعلمين، وقد نص البرنامج التعليمي لسنة 1958 على أن الهدف من التعليم هو تخريج التلاميذ حتى يصل عددهم إلى[2]:

---

(1) التعليم والثقافة في الجزائر 1963، ص 8، .(Enseignement et Culture en Algérie)

(2) كتب هذا الإحصاء أمام ما ستقدمه المكتبة الوطنية الجديدة للسكان والطلبة =

مستوى التعليم	السنة	العدد
الابتدائي	1953	991.397
	1958	886.486
	1965	000.300.1
التقني	1953	128.11
	1958	460.17
	1965	300.42
الثانوي	1953	585.32
	1958	000.41
	1965	700.58
العالي	1953	4913
	1958	815.4 (كذا)
	1965	بياض بالأصل

وقد ذكر الإحصاء أن إصلاح التعليم لسنة 1958 سيؤدي إلى تخرج كذا وكذا سنة 1965 فأهملناه هنا. ثم إنه لا يذكر التعليم العالي في هذه السنة، كما يلاحظ المرء أن عدد طلاب الجامعة لسنة 1958 كان أخفض من العدد المسجل لسنة 1953 ربما بسبب إضراب الطلبة الجزائريين[1].

= والمتعلمين على وجه العموم، أنظر نشرة المكتبات 1958، أكتوبر، رقم 10، ص 692-693.

(1) أنظر كلمة السيد وزير التربية عن التعليم والثقافة، مرجع سابق، ص 32، 34.

إحصاءات مجلة جون أفريك

ولدينا إحصاء آخر أوردته مجلة (جون أفريك) في نهاية الفترة التي أشرنا إليها، أي بين 1961-1962، وهي أيضا سنة الاستقلال. فكانت النتيجة أن عدد الطلبة في مختلف البلدان لم يزد كثيرا، ولكننا عرفنا من خلالها ما تقدمه كل دولة على حدة سواء في البلاد العربية أو غيرها. وهذا الإحصاء قد نشرته -كما قالت المجلة- وزارة الداخلية الجزائرية في الحكومة المؤقتة:

البلاد	العدد	البلاد	العدد
شمال إفريقيا		**البلاد الاشتراكية**	
المغرب	49	ألبانيا	3
تونس (عربي)	160	بولغاريا	23
تونس (فرنسي)	929	ألمانيا الشرقية	64
البلاد العربية		المجر	9
العراق	122	بولندا	4
الأردن	14	رومانيا	9
الكويت	51	تشيكوسلوفاكيا	45
ليبيا	20	الاتحاد السوفياتي	48
مضر	123	يوغسلافيا	63
سورية	91	**المجاميع**	
البلاد الغربية		شمال إفريقيا	1138
ألمانيا الاتحادية	77	البلاد العربية	421
بلجيكا	24	البلاد الغربية	309
كندا	1	البلاد الاشتراكية	268
إسبانيا	1(غير واضح)	**المجموع الكلي**	2130
إيطاليا	5		
النرويج	3		
السويد	1		
سويسرا	43		
أمريكا الشمالية	44		

* الجزائر (حوالي) 700

* فرنسا (حوالي) 1200

ملاحظة هامة: يبدو أن هذه الإحصاءات تشمل طلبة الجامعات والثانويات كما تشمل مختلف التخصصات. أما بالنسبة للتخصصات فقد نشرت نفس المجلة (جون أفريك) إحصاء بذلك يرجع إلى نفس الفترة (1961-1962).

وإليك هذا الإحصاء الهام الذي جاء عشية الاستقلال، وهو يبين حصيلة الخبرة التي دخل بها الطلبة ميدان العمل في الجزائر المستقلة. فهل هي فعلا خبرة مدروسة ومفيدة؟

الآداب: 243

الحقوق والاقتصاد: 206

العلوم 53

الطب والصيدلة 146

المهندسون التقنيون 270

فنون مختلفة 8

طلبة ثانويات 1210[1]

ورغم التحري والتدقيق فإننا وجدنا بعض الأرقام التي لا تدل على الصحة المطلقة إذا قورنت بغيرها. مثلا وجدنا أن جامعة الجزائر كان بها 814 طالبا سنة 1960، منهم 117 طالبة. وأن الجامعة تضم 6553 طالبا منهم 5739 أوروبيا (غير مسلم). أما عدد الموظفين في ميدان التعليم سنة 1958 فالأساتذة بلغوا 171 أستاذا، والمساعدون بلغوا 136 ومجموعهم 307 موظفين. وفي المدرسة الوطنية للهندسة (بوليتكنيك؟) سنة 1958-1959 جزائريان فقط من

(1) جون أفريك، مايو، 12-19، 1962، أنظر أيضا عمار هلال: نشاط الطلبة الجزائريين، الجزائر، 1986، ص 80، 144-146.

بين 115 دارس غير مسلمين. أما المدرسة العليا للتجارة فليس فيها جزائري واحد، وكل طلابها، وعددهم 73 طالبا، غير مسلمين[1].

إحصاءات أخرى

وفي وثيقة ترجع إلى سنة 1959-1961 وجدنا عدد الطلبة الجزائريين في التعليم العالي خارج الوطن موزعين على النحو التالي:

- في بلدان المغرب العربي (المغرب وتونس وليبيا) حيث يدرسون بالعربية والفرنسية: 1959-1960: 110 طلاب، 1960-1961: 180 طالبا.
- في المشرق العربي (يشمل العراق وسوريا ومصر والكويت والأردن): سنة 1959-1960 : 318 طالبا، 1960-1961: 378 طالبا.
- في أمريكا الشمالية(الولايات المتحدة وكندا) 1959-1960 : 21 طالبا. 1960-1961 : 39 طالبا.
- في أوروبا الغربية (ألمانيا الاتحادية، بلجيكا، بريطانيا، النرويج، السويد) 1959-1960 : 140 طالبا، 1960-1961 : 218 طالبا.
- في أوروبا الشرقية (ألبانيا، بلغاريا، ألمانيا الشرقية، المجر، بولندا، رومانيا، تشيكسلوفاكيا، الاتحاد السوفياتي، يوغسلافيا)، 1959-1960 : 203 طلبة، 1960-196: 244 طالبا.

المجموع: 1959-1960 : 792 طالبا، 1960-1961: 1.059 طالبا.

ملاحظة: سيضاف إلى ذلك العدد التقريبي للطلبة الجزائريين في فرنسا نفسها (بما فيها جامعة الجزائر؟) وهو حوالي 900 طالب، وبذلك يكون مجموع طلبة الجامعات الجزائريين خلال المدة المذكورة هو 900+1059= 959.1

(1) الأرشيف الوطني، علبة 27، لاحظ أن تعبير مسلم، غير مسلم، من محتويات التقارير، وهو مصطلح كان شائعا في تلك الفترة للتفريق بين أهل البلاد وبين المستوطنين.

(أي حوالي ألفي طالب)[1].

(الأرشيف الوطني، العلبة 27).

ونلاحظ أن هذا الإحصاء جاء بعد مرور أكثر من سنتين على ميلاد الحكومة المؤقتة ووجود وزارة للشؤون الثقافية. ثانيا رجوع الطلبة المضربين إلى الدراسة. ثالثا توفر بعض المنح الإضافية من الدول والمنظمات المانحة أو المتعاطفة مع الثورة الجزائرية. ومع ذلك نلاحظ أن النسبة في زيادة عدد الطلبة غير عالية.

بعض الملاحظين قرأوا في سياسة الجبهة منذ 1959 أن هناك خطة لإعداد إطارات المستقبل في الجزائر ليس فقط من الناحية العددية ولكن من الناحية الإيديولوجية أيضا. فقد نشرت جريدة (سالو بوبليك) التي تصدر في سويسرا مقالا طويلا عن الطلبة الجزائريين في التاريخ المذكور مستدلة على توجههم من الرقم الذي سجله الاتحاد السويسري لعدد الطلبة الجزائريين الذين مروا من هناك، وقد نقلت المعلومة عن نشرة تصدر في باريس وجاء في خاتمة مقالها أن أكثر من 800 طالب جزائري مروا بمكتب الاتحاد بسويسرا، وأن قادة الاتحاد يتوقعون أن يرتفع العدد خلال السنة القادمة (1960؟) إلى 1500 أو 2000 طالب. وفسرت الجريدة ذلك التطور أن جبهة التحرير من جهة تستعد لكفاح طويل ولبناء الجزائر مستقبلا، ومن جهة أخرى فإنها هي الجهة الوحيدة التي تبذل جهدا لتأطير الطلبة، ذلك أن "تسعة أعشار الضباط الإداريين والسياسيين الجزائريين يتلقون تكوينا شيوعيا أو ماركسيا في الجامعات الأوروبية".

التعليم العسكري

وما دمنا نتحدث عن المدارس والبرامج فلنذكر أن الثورة أنشأت أيضا مدارس عسكرية خاصة بها في مختلف أنحاء القطر لتكوين ضباط جيش التحرير. وقد أجرت (المجاهد) تحقيقا صحفيا لأول مرة لكي ينشر في الصحافة

---

(1) المجاهد 40، 16 أبريل، 1959.

العالمية، لأن الذين كتبوا عن الثورة لم يتمكنوا من دخول مدارسها، بصفتهم من الأجانب، ولو أنهم تمكنوا من كتابة تحقيقات عن جيش التحرير من الداخل. وأهم شيء يتعلمه "الطالب" في هذه المدارس العسكرية هو التدريب على استعمال السلاح. وللمدرسة ضابط مسؤول هو الذي تولى شرح البرنامج لمراسل المجاهد: عندهم حوالي ثلاثمائة (300) شاب بين العشرين والثانية والعشرين سنة، وقد قضوا سنتين أو ثلاثة في ميدان القتال، والهدف هو أن يكونوا ضباطا لجيش التحرير يتمتعون بتكوين عسكري حديث. ويقتضي برنامج التدريب أن يقضوا بين سبعة وثمانية أسابيع كجنود يعملون تسع ساعات يوميا، فيتعلمون مختلف الأسلحة الفردية التي تغنم من العدو، والجنود الطلبة كلهم من المتطوعة. وهم يتعلمون الزحف على البطون مسافة 800 متر، والقفز على الجدران، واجتياز الأسلاك الشائكة، واللوحة ذات الخمسة أمتار للسير المتوازن. وقد أضيفت مادة أخرى هي العوائق المكهربة.

تستقبل المدرسة التي زارها مراسل المجاهد الرجال من ثلاث ولايات. وفيها ممرضون ممتازون يتعلمون في قاعة بنفس المدرسة، وكانوا عندئذ حوالي أربعين طالبا. وفي القاعة صور للتشريح الطبي، وهيكل عظمي وأدوات للجراحة وأنواع الأدوية (سمتها الجريدة مكتبة جامعية طبية). وقد وجد المحقق-المراسل طبيبا يلقي محاضرة عن أولئك الطلبة، فروى له أن طلبته قد انتهوا من دروسهم العسكرية، وهم الآن في مرحلة التخصص في التمريض، وهم يعرفون الاتفاقيات الدولية وقواعد معاملة الأسرى في الحرب. وقد أوردت المجاهد صورة لمجموعة من الطلبة أثناء تكوينهم السريع لإسعاف جرحى المجاهدين.

ولا شك أن هذا النوع من المدارس الذي يشمل التدريب العسكري والتعليم الطبي قد تكاثر كلما ازداد عدد الملتحقين به من جيش التحرير[1].

---

(1) المجاهد 35، 15 يناير، 1959

ولم تكتف الثورة بإنشاء المدارس العسكرية بل بادرت إلى تنظيم دروس محو الأمية في كل مكان يرجع إليها، بما في ذلك السجون التي نظم فيها المساجين أنفسهم -كما سبق القول- وقاموا بتلقين بعضهم البعض دروسا في اللغة العربية والفرنسية، ومبادى العلوم والقرآن الكريم، وغيرها، وكل من يعرف كان يعلم من لا يعرف. وبالتدرج تحولت الدروس إلى مدارس متنقلة أحيانا وتحتوي على تجهيزات ومعلمين وإدارة، وقد اشترك في الدروس جنود جيش التحرير والمدنيون. وقد قيل إن عدد المدارس في الولاية الرابعة وحدها بلغ سنة 1956، 120 مدرسة.

ولم تكن هذه المدارس للدروس التقليدية فقط بل كانت للتوعية السياسية والتربية المدنية والإسلامية والوطنية، وقد أسهم الطلبة في هذه المدارس بعد انضمامهم للثورة، وقيل أيضا أن نسبة المتعلمين في الولاية الثالثة بين أعضاء جيش التحرير بلغت 8؟ فكانوا هم الذين يسهرون على مختلف الأنشطة الثقافية والإدارية والسياسية[1].

أنشطة الطلبة في تونس والمغرب

أغلب الطلبة الجزائريين خارج بلادهم كانوا متمركزين في تونس حيث كان فيهم طلبة الزيتونة وطلبة المعاهد الأخرى، كما كان هناك طلبة في حالة انتظار لتوزيعهم على المشرق أو على أوروبا، سيما بعد الإضراب عن الدراسة في فرنسا والجزائر. وربما يأتي المغرب بعد تونس من حيث العدد، ثم مصر إذا أخذنا المشرق فقط بعين الاعتبار. وقد قيل إن حوالي 400 طالب جزائري كانوا في الزيتونة عشية الثورة بينما كان في القرويين حوالي 186 وحوالي 50 في مكناس بين 1960-1961[2].

(1) هلال، نشاط. . .ص 66-68، 106.

(2) هلال: نشاط. . .ص 22- 24. سبق أن التقديرات الفرنسية تضع الأرقام: حوالي ألف في الزيتونة، و 120 في القرويين، وحوالي 150 في الأزهر. أنظر سابقا.

وكان طلبة المغرب العربي يتحركون داخل محيطهم أيضا، فبالإضافة إلى الرابطة التي تكونت بالقاهرة والتي كانت تستمد أفكارها من رؤية عبد الكريم الخطابي في وحدة كفاح المغرب العربي وعدم التفاوض مع الفرنسيين بلدا بلدا، فإن طلاب المنطقة كانوا يتجاوبون عبر قنوات متعددة حتى بعد استقلال البلدين الجارين للجزائر. ففي سنة 1957 نظم اتحاد الطلبة الجزائريين واتحاد طلبة تونس ومنظمات ثقافية وقومية تونسية أخرى أسبوعا للتضامن مع الجزائر. وقام الطلبة الجزائريون في تونس بإضراب عن الطعام وتحصنوا بجامع الزيتونة، وزارت وفود الطلبة مقبرة الجلاز حيث أضرحة شهداء الجزائر وقرأوا عليهم فاتحة الكتاب. وألقى الشيخ الفاضل بن عاشور محاضرة تحت عنوان (حياة الجزائر في القومية الإسلامية)، كما حاضر في مناسبة أخرى الزعيم علي البلهوان. وتحدث الشيخ البشير العريبي (وهو من أصل جزائري ومن شيوخ الزيتونة) عن دعائم الوحدة بين أقطار المغرب العربي، كما تحدث في هذه المناسبة ممثل جبهة التحرير ولكن اسمه غير متوفر[1].

وفي إحدى المظاهرات التي قام بها طلبة الجزائر في تونس رفعوا العلم الوطني بمناسبة عيد الشباب التونسي (مارس 1956) وأنشدوا فيها نشيد شعب الجزائر مسلم، وفداء الجزائر، ومن جبالنا. . وحين وصلوا إلى وسط العاصمة حاولت الشرطة (الفرنسية) انتزاع العلم منهم لأنه علم "الفلاقة" فوقعت مصادمات بين الشرطة والجنود وتحولت المشاركة في عيد الشباب إلى مظاهرة استعملت خلالها فرنسا المدافع والرشاشات وغيرها من الأسلحة[2].

وخلال شهر أغسطس 1958 أنعقد مؤتمر بتونس يضم الاتحادات الطلابية الثلاثة (الجزائر وتونس والمغرب). وقد صدرت عن المؤتمر لوائح من بينها

---

(1) المجاهد، 12، 15 نوفمبر 1957.

(2) البصائر، 6 أبريل 1956. قد يكون هذا آخر عدد صدر من البصائر قبل توقفها النهائي، وقبل استكمال تونس شروط السيادة، بما فيها استلام الشرطة.

لائحة سياسية تؤكد على وحدة الطلبة وتعلن عن تعلقهم بمبدأ توحيد المغرب العربي والعمل من أجله، كما أعلنوا أن بناء المغرب العربي يمر حتما باستقلال الجزائر، لذلك طلبت اللائحة من حكومتي تونس والمغرب العمل من أجل استقلال الجزائر، ومن أجل تشكيل جبهة مغاربية[1]. . .

وهناك مناسبات عديدة أخرى قام فيها طلبة الجزائر بتونس بأنشطة تدخل ضمن خدمة القضية الوطنية. من ذلك إحياء جمعية الطلبة الجزائريين لذكرى الشيخ عبد الحميد بن باديس، وقد صدرت نشرة بهذا العنوان تضم وقائع الذكرى، ثم ذكرى الأمير عبد القادر. وقع الحفل الأخير تحت إشراف مندوب عن جيش التحرير وجبهة التحرير وبحضور سفراء الدول العربية والمنظمات التونسية، ومندوب عن الحكومة التونسية. وتناول الكلمة مندوب الجيش والجبهة، وعيسى مسعودي كاتب عام جمعية الطلبة، والشيخ الفاضل بن عاشور والباحث عثمان الكعاك، وكلاهما من المتصلين على الدوام بالقضية الجزائرية، والشاعر أبو عبد الله صالح (صالح الخرفي). وقد اقترح السيد الكعاك بهذه المناسبة إعادة رفات الأمير عبد القادر للجزائر المستقلة ودفنه في جامع كتشاوة الذي هو -كما قال- الآن كاتدرالية وإقامة تمثال للأمير في ساحة الشهداء حاليا[2].

وإثر تحطم طائرة روسية بثلاثة من الطلبة المغاربة أقام الطلبة اجتماع حداد على أرواحهم. ويبدو أن الطلبة الضحايا كانوا يمثلون الاتحادات الثلاثة أو المكتب التنفيذي لجامعة طلبة شمال إفريقيا. ومهما يكن من شيء فقد تحطمت بهم الطائرة التي كانت عائدة بهم من بكين بعد حضورهم أحد

---

(1) المجاهد، 28 أغسطس 1958. وقع اجتماع الاتحادات الثلاثة، أيام 20-23 أوت 1958.

(2) في جريدة الصباح وصف طويل للحفل بتاريخ 8 مارس 1957. أنظر أيضا يحيى بوعزيز: حياة الأمير عبد القادر، تونس، 1958، ص 180-185.

المؤتمرات، وهم: مزور، والجعيدي، والشرقاوي[1].

وبالإضافة إلى التطوع في جيش التحرير والعمل في المجال السياسي، كان للطلبة دورهم في إحياء الذكريات، والتضامن مع المضطهدين من إخوانهم، والمشاركة في المؤتمرات المحلية والمغاربية والعربية والدولية، والإسهام في الأسابيع التي تقام لجمع التبرعات لفائدة الثورة، وإلقاء المحاضرات وإقامة الندوات بإشراك أعيان كل بلد فيها لتوسيع التعريف بالقضية الجزائرية، وإنشاء الجرائد الحائطية والنشرات والمجلات الثقافية والإعلامية، والمشاركة بالكتابة فيها شعرا ونثرا، كما كان لهم في "صوت الجزائر" الوقع المجلجل والكلمات المدوية. فكان صوت عيسى مسعودي في تونس يهز السامعين ويقض مضاجع المستعمرين، وكان له إخوان يساعدونه ويمدونه بالمادة الخبرية، وكانت هناك أصوات أخرى مماثلة تنطلق من الرباط وطرابلس والقاهرة ودمشق وبغداد وعمان وغيرها من العواصم العربية، وتذيع بالعربية والفرنسية، وتقدم بالإضافة إلى الأخبار والتعاليق مواد في التاريخ والثقافة والأدب الذي يخدم القضية. وكانت الصحف والمجلات العربية تتحلى بكتاباتهم. وقد ظهرت لبعضهم تآليف حول شخصيات جزائرية تاريخية ودراسات عن الأدب الجزائري ورموزه إلى أن جاء الفتح وفاز الشعب بالشهادة والنصر.

أما عن طلبة الجزائر في المغرب فلا نملك إحصاء وافيا لعددهم ولا نمط معيشتهم ولا تعدد مراكزهم ولا عن نشاطهم في الثورة إلا ابتداء من سنة 1959. ففي مارس من هذه السنة زار المغرب وزير الثقافة عندئذ، الشيخ أحمد توفيق المدني لحل مشاكل الطلبة. ولم يفصل الشيخ المدني في حديثه عدد الطلبة في جامع القرويين وخارجه، وإنما قال إنه التقى بطلبة القرويين الذين قدر عددهم بنحو ثلاث مائة (300) طالب. واستمع لشكاواهم التي وصفها

---

(1) المجاهد، 31 نوفمبر 1958.

بالمرة، وانتهى إلى وجود حل لها، كما قال. لكن ماذا عن طلبة المدارس والمعاهد الأخرى؟ أما عن ممثل الوزارة في المغرب فهو السيد محمد الفرجاني خطاب. وعندما عقد الوزير جلسة عمل مع لجنة الطلبة حضرها أيضا ممثل جبهة التحرير، الشيخ محمد خير الدين، ورتب للطلبة شؤونهم المالية وخصص لهم منحا شهرية...

وقد ذكر الوزير أن مكتب اتحاد الطلبة الجزائريين قد خصص له مبلغا قدره ثلاثة آلاف فرنك (3000)، أي منحة ألف فرنك لـ 26 طالبا بمدرسة الاتحاد المغربي للشغل. أما الباقون من طلبة القرويين الذين لم يدفع لهم فعددهم 134. وهكذا يفهم من توزيع المنح أن هناك طلبة جزائريين: 1- في القرويين (يأخذون أكبر قسط من المنحة). 2- معهد مكناس. 3- مكتب الاتحاد العام في الرباط. 4- مدرسة الاتحاد المغربي للشغل (عددهم 26 طالبا)[1].

الطلبة في المشرق العربي

عاش الطلبة الجزائريون عموما في شتات مستمر، فرغم انتمائهم إلى بلد واحد فإنهم كانوا لا يلتقون في جامعة أو اتحاد أو رابطة. كانت تفصلهم حواجز عديدة، لغوية وذهنية وجغرافية. فطلبة الجزائر في فرنسا مثلا ربما يشعرون بأنهم أقرب إلى زملائهم التونسيين والمغاربة في فرنسا من مواطنيهم الذين يدرسون في تونس أو المغرب (مراكش) أو مصر. لذلك نشأت جمعية لطلبة شمال إفريقيا في فرنسا تضم طلبة المغرب العربي منذ العشرينات من القرن العشرين. ولكنها لم تشمل طلبة الجزائر في تونس ومصر ومراكش، ونشأت جمعية الطلبة الجزائريين في تونس منذ الثلاثينات من القرن العشرين ولكنها لم تشمل طلبة الجزائر في فرنسا ونحوها. وقد تأسست كذلك جمعية طلبة الجزائر في العاصمة في العشرينات أيضا ولم تشمل طلبة الجزائر في البلدان المجاورة.

---

(1) أنظر أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، الجزائر، ج3، ص 418.

وبعد الحرب العالمية الثانية تكاثر عدد الطلبة الجزائريين في البلدان العربية، ومنها تونس ومصر. فكان في تونس جمعية للطلبة الجزائريين معظم أعضائها من طلبة ابن باديس أو بتأثير من حركته ومن طلبة الزوايا وغيرهم. وقد سعى حزب الشعب إلى جذب الطلبة إلى صفوفه فانضم بعضهم إليه بينما بقي آخرون على حيادهم أو على ولائهم للحركة الإصلاحية. وقد نشط بعض طلبة الحزب سياسيا مما أثر أحيانا على تفرغهم للدراسة. وكانوا يعبرون عن ولائهم للحزب بالاجتماعات والأناشيد وتوزيع المنشورات والهتاف باسم مصالي الحاج. وأمام ذلك، وحتى لا تفقد جمعية العلماء تأثيرها على الطلبة الذين يمثلون جنودها في نشر التعليم العربي الحر، سعى قادتها إلى تكوين جمعية موازية شعارها الابتعاد عن السياسة والتفرغ للدراسة ثم الرجوع إلى الجزائر لنشر التعليم وفاء لروح ابن باديس. وكانت هذه الجمعية تدعى (جمعية البعثة الزيتونية)، وكانت تتلقى التوجيهات والزيارات من أعضاء جمعية العلماء، وكان الذين يتخرجون من طلبتها من الزيتونة يجدون مكانهم في التعليم في مدارس الجمعية.

إذا كان طلبة الجزائر في الجامعة والمعاهد العلمية الفرنسية (الجزائر وفرنسا) ينتمون غالبا إلى أبناء الفئة الموظفة في إدارة الاحتلال أو المتعاملة معها (القضاة والقياد والتجار والبرجوازية الصغيرة . . .) فإن طلبة الجزائر في تونس والمغرب (ومن وصل منهم إلى المشرق) كانوا عادة من أبناء الفقراء، وهم أبناء أهل الزوايا والفلاحين وبعض العائلات التقليدية. كان الصنف الأول من الطلبة يدرسون لكي يتوظفوا مكان آبائهم أو يدخلوا ميدان السياسة والإعلام والتعليم الرسمي والمهن الحرة. أما زملاؤهم في تونس ومصر ومراكش فكانوا يدرسون غالبا وهم يعرفون أنه لا مكان لهم داخل إدارة الاحتلال، وأن دراستهم كانت حبا للثقافة العربية الإسلامية لذاتها وتعبيرا عن الانتماء إليها، فكانت الدراسة تعني لهم الهجرة والاغتراب "من أجل العلم" وليس من أجل الخبز، فإذا جاء الخبز مع الهجرة لم يرفضوه وإذا لم يأت لم يتأسفوا عليه لأنهم لم يهاجروا من أجله أصلا. هذه الرؤيا العامة هي التي كانت سائدة في الطلبة

الجزائريين عشية الثورة: جناحان لطائر واحد ولكنهما لا يلتقيان ولا يصفقان معا للوصول إلى غصن واحد[1].

جاء في مصدر فرنسي موثق أن عدد الطلبة الجزائريين في الزيتونة بتونس حوالي ألف (1000) وأن عددهم في القرويين بالمغرب حوالي 120 (مائة وعشرين)، وحوالي 150(مائة وخمسين) في الأزهر بمصر. وأضاف المصدر إن هؤلاء الطلبة ينحدرون من عائلات أرستقراطية أو برجوازبة، وأنهم درسوا في البداية في الكتاتيب القرآنية و"المدارس" التقليدية، وأنهم يدرسون بالعربية المختلفة عن العربية الشائعة في الجزائر ويتولون الوظائف القضائية التي تشرف عليها فرنسا. وهذه المعلومات كلها غير دقيقة ما عدا ربما ما يتعلق بالإحصاء[2]. ذلك أن الوظائف القضائية لم تكن مفتوحة أمام المتخرجين من المعاهد الإسلامية، كما أنه من الخطأ أن نقول إن أبناء الكتاتيب والزوايا والفلاحين يمثلون البرجوازية أو ينحدرون من عائلات أرستقراطية.

من نشاط الطلبة في المشرق العربي

وإليك عينة مما قام به طلبة القاهرة من نشاط ثقافي وإعلامي، ضمن سلسلة من المحاضرات والندوات، في مقرهم بالقاهرة: الديموقراطية في الإسلام قدمها مالك بن نبي، محمد العيد آل خليفة قدمها أبو القاسم سعد الله، الثقافة الوطنية قدمها إبراهيم غافة، سياسة ديغول في الجزائر وموقف الثورة قدمها عدة بن قطاط، رسالة الطالب قدمها إبراهيم مزهودي، أحمد رضا حوحو ونضال الكلمة قدمها أبو القاسم سعد الله، دور المرأة الجزائرية في الثورة قدمها بوعلام الصديق، نظرية الحضارة قدمها مالك بن نبي، نظرات في تاريخ الجزائر العثمانية قدمها أحمد توفيق المدني، الكفاح النفسي قدمها أبو مدين الشافعي.

---

(1) عن وضع الطلبة الدارسين في الجامعات والمعاهد الفرنسية انظر تعليق المجاهد على إضراب 1956 وكذلك كتاب غي بيرفييه، الطلبة الجزائريون في الجامعات الفرنسية. . .

(2) انظر روبير هارون، وآخرين: أصول حرب الجزائر، باريس 1962، ص297.

وهناك مساهمات تاريخية وأدبية أخرى شارك فيها يحي بوعزيز وصالح الخرفي والشيخ الإبراهيمي وعبد الله الركيبي والجنيدي خليفة. . .

كما كانت اللجنة الثقافية تستضيف أعلاما في الفكر والثقافة إلى ناديهم، منهم الناقد الدكتور عبد القادر القط الذي أشرف على ندوة لشعراء الطلبة الجزائريين، والشاعر أحمد عبد المعطي حجازي الذي ألقى قصيدته الشهيرة (أوراس). وغير ذلك من الضيوف والأنشطة التي كانت تخدم الثورة في أبعادها الثقافية والفكرية والإعلامية[1].

رابطة طلبة المغرب العربي

بالإضافة إلى رابطة الطلبة الجزائريين في المشرق العربي فقد كانت هناك رابطة أخرى تسمى رابطة طلبة المغرب العربي. وهي كما يدل اسمها أوسع وأشمل من الأولى. وكانت قد أنشئت في القاهرة حوالي 1957، أي بعد استقلال كل من تونس والمغرب. كان مقر هذه الرابطة في البداية هو 36 شارع عبد الخالق ثروت، وهو مقر مكتب المغرب العربي السابق، ثم تحولت إلى مقر قريب منه وهو 6 شارع بنك مصر. وقد وجدنا أن الحكومتين المصرية والسورية قد أعطت موافقتهما على قيام هذه الرابطة التي من أهدافها: خدمة القضية المغربية. . . وإطلاع الرأي العام العربي عن الحالة في المغرب العربي ومحاربة الانتهازيين والاستغلاليين باسم جبهة التحرير، والسعي إلى توحيد القيادة السياسية والعسكرية في المغرب العربي، وخدمة الطلبة المغاربيين الذين يدرسون في المشرق، والابتعاد عن الحزبية والإيمان بوحدة المغرب العربي ومصيره والاستعداد لفدائه وتنفيذ أي عمل تطلبه الرابطة[2]. . .

---

(1) هلال: نشاط. . .ص 88.

(2) هذه الوثيقة- ليس لها تاريخ، وتوجد منها عدة نسخ منقولة عن بعضها تحت عنوان: منهاج رابطة طلبة المغرب العربي الأرشيف الوطني، علبة 21-50 والغالب أن الرابطة تكونت من العناصر الساخطة على قبول استقلال تونس والمغرب دون الجزائر، وهو=

أما في دمشق فقد تكونت أيضا رابطة لطلبة المغرب العربي خلال السنة الدراسية 1956-1957. وهي تتألف من خمسة طلاب عن كل بلد وبذلك كانت الهيئة المشرفة على الرابطة تتألف من خمسة عشر طالبا. اجتمع هؤلاء وانتخبوا من بينهم أمينا عاما وكاتبا وأمينا للمال. وتولى أحد الطلبة التونسيين الأمانة العامة ولكنها لم تلبث أن آلت إلى محمد برادة من المغرب. وابتداء من 1957-1958 تولى النيابة محمد مهري من الجزائر لمدة سنة. كان مقر هذه الرابطة في ضاحية المزرعة بدمشق، وكان لها نشاط ثقافي واجتماعي يتناسب مع دورها كمنظمة طلابية فكانت تشارك الطلبة العرب نشاطهم وتدعوهم لنشاطها في مقرها حيث كانت تعقد الندوات والمحاضرات وتحضر رحلات السياحية والترفيهية. كما كان للرابطة أحيانا برنامج إذاعي في ركن المغرب العربي بالإذاعة السورية(1).

رابطة الطلبة الجزائريين في القاهرة

بعد اندلاع الثورة كانت استجابة فئة الطلبة بالمشرق أسرع من استجابة زملائهم في فرنسا بحكم كره الأولين للاستعمار والبحث عن الهوية التي دمرها الاحتلال، وبحكم الاستعداد الفطري للنضال لعدم وجود ما يخسرونه من انضمامهم للثورة. وكانت ربما وسائل التعبئة أكثر تأثيرا في تونس ومصر مثلا، لأن سيطرة الإعلام الفرنسي لم يترك لطلبة الجزائر الآخرين منفذا يرون فيه أنفسهم بينما وسائل التعبئة العربية والإسلامية كانت متوفرة لدى طلبة البلدان المجاورة والمشرق. يضاف إلى ذلك أن الطلبة الجزائريين في المشرق (والمغرب العربي) كانوا يعيشون أزمة فلسطين بروح لا يعيشها زملاؤهم في الجزائر وفرنسا، كما كانوا يعيشون ثورات وانتفاضات مصر وسوريا والعراق

= مذهب مصر وسوريا عندئذ.

(1) محمد مهري، ومضات من دروب الحياة، مؤسسة الشروق للإعلام والنشر، الجزائر، 2005، ص 75-76.

ونحوها بذهنية وتحليل ليس هو التحليل الذي يؤمن به الطلبة الآخرون. يضاف إلى ذلك بدء الثورة في المغرب وتونس قبل بدئها في الجزائر، ثم أحداث الفيتنام والهند وإيران. وكان وجود مكتب المغرب العربي بقيادة الأمير عبد الكريم الخطابي، ومكتب جمعية العلماء، ومكتب جبهة التحرير في القاهرة، قد فجر وضعا جديدا بين طلبة المشرق أنفسهم.

ذلك أن الثورة قد أحدثت انشقاقا في صفوف طلبة البعثات التي بادرت جمعية العلماء إلى إرسالها قبل الثورة إلى كل من مصر والعراق وسوريا والكويت. وقد عمل مكتب جبهة التحرير في القاهرة على توسيع الخلاف بين الطلبة ومكتب جمعية العلماء ليجند الطلبة في الثورة بدل الدراسة عكس ما كان يعمل له مكتب الجمعية الذي كان على رأسه الشيخان الإبراهيمي والورتلاني. ويمكن القول إن المنافسة بين جمعية العلماء وحزب الشعب من أجل التأثير على الطلبة قد انتقلت إلى القاهرة. كما ساهم وقوف السلطات المصرية إلى جانب مكتب جبهة التحرير (مع ابن بلة بالخصوص) واتهام الشيخين بالانتماء إلى حركة الإخوان المسلمين المتهمة بدورها بمعاداة النظام المصري - قلنا ساهم في توسيع الشقة بين المكتبين وأحدث ذبذبة في الأوساط الطلابية.

وأمام ذلك كان من الطبيعي أن يحاول الطلبة عموما تأليف جمعية أو رابطة بصفتهم الجزائرية أو كجزء من تنظيم يجمعهم أيضا بطلبة المغرب وتونس الذين يدرسون في مصر. وكانت مختلف الأطراف التي ذكرناها تتجاذب الطلبة، وأهمها الجذب الثوري، فقد جند مكتب جبهة التحرير عددا منهم سنة 1955، فوصل عدد المتطوعين في هذه السنة وحدها سبعة وعشرين طالبا. ولحقت بهم مجموعة الباخرة (دينا) التي كان من ضمنها محمد بوخروبة (بومدين)، ثم مجموعة الباخرة (أطوس) التي كان من ضمنها الهادي حمدادو ومحمد صباغ ومحمد الطاهر شرفي[1].

(1) وثلاثة آخرون هم زروق محمد الصالح، وريغي محمد، وإيغرونة محمد واعلي. وتطوع=

وعلى مستوى آخر شارك طلبة المشرق في مهرجان الشبيبة العالمي الذي انعقد في فارصوفيا (وارسو) في السنة المذكورة أيضا. كما شاركوا في مهرجان الشباب العربي الذي انعقد في الإسكندرية بمصر سنة 1956(1).

وفي هذا التاريخ كان طلبة المشرق قد قطعوا مراحل في تجميع أنفسهم داخل تنظيم يتولى شؤونهم. ولعل بعضهم كان يرى أن إخوانهم طلبة الجزائر وفرنسا كانوا غير أحرار في اتخاذ قرارهم، أو كانوا غير مهتمين بغير أنفسهم، أو أن مستقبلهم مضمون، لأنهم -بالنسبة إلى طلبة المشرق المتقدمين عادة في السن- ما يزالون أغرارا يعيشون نوعا من المراهقة الفكرية. ولكن الأيام أن هذه النظرة كانت خاطئة وأن الإضراب وما تلاه قد برهنا على نضج فكري لدى طلبة الجامعات الفرنسية، وعلى إدخال الطالب إلى معترك الحياة والفصل بينه وبين الحياة الناعمة التي اعتاد عليها.

ورغم نضج طلبة المشرق النسبي وانضمامهم المبكر إلى صفوف الثورة، كما لاحظنا، ورغم لعب طلبة تونس والمغرب دورا مبكرا في الكفاح وتهريب السلاح والعمل السري الخطير فإن تنظيم طلبة القاهرة في رابطة قد تأخر إلى

= فوج آخر من الطلبة فكان منهم المدني حواس وعلي عسول ورشيد النجار. ثم تطوع أكثر من ثلاثين طالبا وزعوا على ثلاثة أفواج ولكن ملابسات صحبت هذه العملية جعلت بعض قياديي الثورة كالدكتور الأمين دباغين، يعارضون تطوع الطلبة لا خوفا على حياتهم من العدو ولكن خوفا من العبث بهم نتيجة خلفيات أخرى تتعلق بمعارضي مقررات مؤتمر الصومام الذين كانوا يعتبرون "مشاغبين". وكان من بين هؤلاء منور مروش وعبد القادر بن قاسي، وهما على التوالي رئيس رابطة الطلبة الجزائريين في القاهرة والأمين العام لها. كانت عملية التطوع الأخيرة قد جرت سنة 1957 بطلب من العقيد أوعمران الذي حضر إلى القاهرة والتقى الطلبة. هذه الأفكار استفدت بها من ورقة كتبها محمد بلعيد عن رابطة الطلبة الجزائريين في المشرق العربي.

(1) في المهرجان الأول شارك عثمان سعدي ومحمد شيروف وتخلف منور مروش بسبب جواز السفر. وفي المهرجان الثاني شارك حوالي عشرة طلاب منهم منور مروش وأبو القاسم سعد الله.

يوليو سنة 1956. ففي هذا التاريخ اجتمع الطلبة جامعيين وأزهريين، في مقر رابطة الطلبة الفلسطينيين وأعلنوا عن تأسيس الرابطة وانتخبوا مكتبا برئاسة منور مروش والكاتب العام عبد القادر بن قاسي. وقامت الرابطة بالتزاماتها نحو الطلبة والثورة إلى أن حان موعد التطوع المشار إليه، أي بعد سنة من تكوين الرابطة، فاجتمعت الجمعية وانتخبت مكتبا جديدا برئاسة بشير كعسيس. ومنذ 1957 أصبح للرابطة مقر دائم وسط القاهرة وهو المقر الذي احتضن كل أنشطة الطلبة إلى ما بعد الاستقلال. ومنه انطلقت الرابطة أيضا للمشاركة في المهرجانات والتظاهرات والندوات مع الهيئات الفاعلة من أجل دعم الثورة بالتنسيق مع وفد جبهة التحرير بالقاهرة، وفي المقر نفسه كانت الرابطة تستقبل الطلبة الجزائريين الذين يفدون من تونس والمغرب أو من بلدان المشرق العربي حيث يدرسون، كما كانت تنسق نشاطها مع طلبة تونس والمغرب الذين يدرسون في القاهرة.

من نشاط الطلبة في القاهرة

جاء في ورقة محمد بلعيد عن نشاط رابطة الطلبة الجزائريين في القاهرة ما يلي:

"وتطبيقا لما جاء في البرنامج كونت الرابطة لجنة ثقافية أسندت رئاستها إلى الأخ أبو القاسم سعد الله الذي بذل جهدا معتبرا في تنفيذ أجندة ثرية اشتملت على دعوة محاضرين وتنظيم ندوات وإحياء أمسيات شعرية تتمحور جميعها حول الجزائر وثقافتها. وقد حرصت اللجنة على أن يكون في مقدمة المدعوين لإلقاء المحاضرات مناضلون جزائريون كثر عددهم بمصر بعد تشكيل الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، فكان من بين الذين أغنوا هذا النشاط بمساهماتهم الإخوة أحمد توفيق المدني، ومالك بن نبي، وإبراهيم مزهودي، وعباس بن الشيخ الحسين، وإبراهيم غافة، وعدة بن قطاط، وبوعلام أوصديق. كما شارك في ذلك الطلبة أنفسهم، وأذكر منهم أبو القاسم سعد الله ويحي بوعزيز والجنيدي خليفة. وأحيت اللجنة أمسيات شعرية نشطها شعراء عرب

وجزائريون. وفي واحدة من تلك الأمسيات ألقى الشاعر المصري الكبير أحمد معطي حجازي ولأول مرة قصيدته الرائعة الأوراس. وشارك من الجزائريين الشاعران أبو القاسم سعد الله وحسن الصائم. وتشجيعا للطلبة على ممارسة فن الكتابة أصدرت اللجنة جريدة حائط تحولت إلى نشرة مطبوعة. كما نظمت دروسا باللغتين الفرنسية والانجليزية للمبتدئين وتطوع للقيام بهذه المهمة الأساتذة مصطفى هني (جزائري)، ومحمد الأمين غيطة (سنيغالي)، وعزمي لبيب (مصري)»[1].

وإليك عينة مما قامت به رابطة الطلبة من نشاط ثقافي وإعلامي، ضمن سلسلة من المحاضرات والندوات، في مقر الرابطة بالقاهرة، مع عناوين محاضراتهم: الديموقراطية في الإسلام قدمها مالك بن نبي، محمد العيد آل خليفة قدمها أبو القاسم سعد الله، الثقافة الوطنية قدمها إبراهيم غافة، سياسة ديغول في الجزائر وموقف الثورة قدمها عدة بن قطاط، رسالة الطالب قدمها إبراهيم مزهودي، أحمد رضا حوحو ونضال الكلمة قدمها أبو القاسم سعد الله، دور المرأة الجزائرية في الثورة قدمها بوعلام الصديق، نظرية الحضارة قدمها مالك بن نبي، نظرات في تاريخ الجزائر العثمانية قدمها أحمد توفيق المدني، الكفاح النفسي قدمها أبو مدين الشافعي. وهناك مساهمات تاريخية وأدبية أخرى شارك فيها يحي بوعزيز وحسن الصائم... ثم في مرحلة لاحقة ساهم في هذا النشاط صالح الخرفي وعبد الله الركيبي والجنيدي خليفة سيما بعد أن تحولت الرابطة إلى فرع للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين الذي سيأتي الحديث عنه.

كما كانت اللجنة الثقافية تستضيف أعلاما في الفكر والثقافة إلى نادي

(1) النص السابق مأخوذ من ورقة محمد بلعيد، مرجع سابق. ونشير إلى أن الورقة قد سهت عن بعض الأسماء ومنها أبو مدين الشافعي، وسهت أيضا عن الندوة التي ترأسها الناقد المصري عبد القادر القط. كما ذكرت اسم الجنيدي الذي ربما حاضر بعد مغادرتي القاهرة.

الطلبة، منهم الناقد الدكتور عبد القادر القط الذي أشرف على ندوة لشعراء الطلبة الجزائريين، والشاعر أحمد عبد المعطي حجازي الذي ألقى قصيدته الشهيرة (أوراس). وغير ذلك من الضيوف والأنشطة التي كانت تخدم الثورة في أبعادها الثقافية والفكرية والإعلامية[1]. ومن الأنشطة دعوة قادة الثورة وأعضاء الحكومة المؤقتة لزيارة النادي، وأذكر أن من بين الزائرين كريم بلقاسم وأحمد توفيق المدني والرائد رابح نوار وعبد السلام بلعيد. وللطلبة صور جماعية مشتركة معهم.

وفي نفس الوقت كانت هناك لجنة تضم الطلبة الجزائريين في دمشق. ومعلوماتنا عنها قليلة رغم أنها واردة في عدة مصادر، منها كتابة محمد مهري الذي شارك في تكوينها وقيادتها. وقد أورد الحديث عنها وهو بصدد الحديث عن تكوين رابطة الطلبة الجزائريين في المشرق العربي. فقد كان رئيسا لهذه اللجنة عندما دعوا لعقد اجتماع لتأسيس الرابطة العامة. ونحن نفهم من كلامه أنه كانت هناك روابط في القاهرة والكويت والعراق أيضا، بخلاف دمشق التي كان التنظيم فيها يسمى لجنة.

رابطة الطلبة الجزائريين في المشرق العربي

أما رابطة الطلبة الجزائريين في المشرق العربي فقد تأسست في دمشق وحضر اجتماعها التأسيسي ممثلون عن مختلف الروابط الطلابية في مصر وسورية والعراق والكويت. ولماذا الاجتماع في سورية؟ يجيب الطلبة الذين حضروا الاجتماع بأن سورية واقعة في الوسط بالنسبة للعواصم العربية المذكورة. ويفسر بعضهم ذلك بالأسباب المادية، وبعضهم يفسره بأسباب سياسية لأن قوانين مصر أكثر تعقيدا في إنشاء الجمعيات من قوانين سورية، كما أن هذه كانت مفتوحة فكريا وقوميا أكثر من مصر، ولسورية استعداد خاص لتبني المبادرات الجزائرية لأسباب تاريخية معروفة. ولكن الذي يجب أن يذكر

---

(1) هلال: نشاط. . . ص 88.

هنا هو أن سورية ومصر في وقت تكوين الرابطة (سبتمبر 1958) كانتا في وحدة تتشكل منها الجمهورية العربية المتحدة.

ومهما كان الأمر فإن ممثلي الروابط شعروا بضرورة إنشاء تنظيم يوحدهم ويمدهم بالمعلومات عن الثورة وينسق نشاطهم إزاء جبهة التحرير الوطني. فاتفقوا على أن يحمل التنظيم الجديد اسم (رابطة الطلبة الجزائريين في المشرق العربي). ويبدو أن العلاقة مع الاتحاد لم تكن في أجندة المجتمعين عندئذ. وقد وضع المجتمعون خطة عمل تتضمن المراحل والأهداف، كما وضعوا مشروع القانون الأساسي للرابطة وهو ينص على أن يكون للرابطة مجلس إداري من اثني عشر عضوا بمعدل ثلاثة عن كل رابطة، ولجنة تنفيذية من ثلاثة أعضاء هم مندوبو رابطة القاهرة وينتخبهم المجلس الإداري، وهم الرئيس والأمين العام وأمين المال، كما كتبوا إلى مكاتب الفروع لتعين ثلاثة يمثلونها في المجلس الإداري.

وجهت لجنة دمشق الدعوة للروابط في مصر والعراق والكويت لحضور الاجتماع التأسيسي للرابطة التي هدفها توحيد الطلبة في المنطقة العربية ووضع حد لسياسة التهميش التي سلكها اتحاد الطلبة الجزائريين وبعض الجهات الأخرى نحو طلبة المشرق. دام الاجتماع ثلاثة أيام في مقر رابطة طلبة المغرب العربي، وقد أعلنوا بعده عن ميلاد الرابطة، على أن يكون مقرها القاهرة. ويذكر محمد مهري أنهم اتفقوا على أن يتولى علي مفتاحي رئاسة الرابطة، ولكن مهري لم يتحدث عن أعضاء مكتب الرابطة[1].

وبناء على ما تم في دمشق اجتمع أعضاء رابطة القاهرة (التي أصبحت فرعا) يوم 31 أكتوبر 1958 في القاهرة وانتخبوا منهم ثلاثة هم: علي مفتاحي وسعد الدين نويوات ومحمد الأخضر بلعيد بصفتهم ممثلين في المجلس الإداري للرابطة الجديدة. كما انتخبوا هيئة فرع القاهرة فكانت كالتالي: بشير

---

(1) مهري، ومضات، مرجع سابق، ص 88.

كعسيس رئيسا، وأرزقي صالحي نائبا له، ونور عبد القادر كاتبا، ومحمد بن عقيلة أمينا للمال، وأحمد فرجاج للشؤون الاجتماعية. وقد حصل مثل ذلك في مختلف الفروع. فقد تحولت كلها من روابط إلى فروع للرابطة الأم، وانتخب كل فرع هيئته المسيرة من جهة ومندوبيه الثلاثة في المجلس الإداري للرابطة من جهة أخرى.

وطبقا لما كان مقررا فقد اجتمع المجلس الإداري للرابطة في دمشق في شهر مارس 1959. وحضره المنتخبون الثلاثة من القاهرة (مفتاحي ونويوات وبلعيد)، وحضره ثلاثة من سورية (الهاشمي قدوري، وعبد العزيز سعد، وعبد الرحمن شطيطح)، كما حضره ثلاثة من الكويت (محمد عرباجي، وعبد العزيز يعقوبي، ومهدي الغوثي)، أما عن بغداد فقد حضر محمد الصالح شيروف فقط. وقد أقروا القانون الأساسي، ودرسوا وسائل التلاحم بين الطلبة وتبادل المعلومات وتحسين ظروف الطلبة الاجتماعية وطرق المشاركة في دعم الثورة، كما قرروا المشاركة في مؤتمر الطلبة العرب الذي كان يحضر له في القاهرة في نفس الشهر (مارس). وفعلا انعقد المؤتمر في القاعة الكبرى بجامعة القاهرة وكلف علي مفتاحي بإلقاء كلمة الرابطة في الجلسة الافتتاحية، فكانت هذه المشاركة أول ظهور للرابطة على المستوى الإقليمي. ومن بين الجزائريين الذين حضروا في القاعة عبد السلام بلعيد وبوزيان التلمساني ورابح التركي. وكان عبد السلام بلعيد هو مدير مكتب وزير الثقافة عندئذ، وبعد الخروج من القاعة انتقد عبد السلام بلعيد مستوى وعي الطلبة العرب مما جعل النقاش يحتد بينه وبين رابح التركي إلى درجة العنف.

ويبدو أن وزارة الثقافة المسؤولة على الطلبة لن تسكت عن وجود تنظيمين طلابيين في وقت تتوحد فيه الجهود لتوحيد الصفوف دفاعا عن الوطن. لذلك استدعى الوزير أحمد توفيق المدني مسؤولي الرابطة وطلب منهم حلها لأنها جلبت الكثير من ردود الفعل غير الحسنة. فطلبوا منه عقد مؤتمر يجمع جميع الطلبة فوعدهم بتحقيق ذلك في القريب وبدعم علاقاتهم باللجنة التنفيذية

للاتحاد العام، كما وعدهم بحظ أوفر من المشاركة في كل أنشطة الاتحاد. ولكنهم لم يعطوه وعدا صريحا بشأن مستقبل الرابطة متذرعين بمسألة قانونية وهي أن عليهم الرجوع في أي قرار إلى الجمعيات العامة في كل فرع من فروع الرابطة. ومع ذلك ظل يلح عليهم بضرورة حل الرابطة.

ولعل هذه النهاية التي انتهت إليها مقابلة الوزير هي التي تفسر محتوى التقرير الذي كتبته اللجنة التنفيذية للاتحاد عن الرابطة وعن طلبة القاهرة خصوصا وطلبة المشرق العربي عموما. فهو تقرير لو نفذت توصياته لكانت له عواقب وخيمة. ولكن من حسن الحظ أنه وضع على الرف حال وصوله إلى مكتب وزيري الداخلية والثقافة. وسنعود إلى هذا التقرير بالعرض والتحليل. (انظر لاحقا). والشيء المؤكد هو أن انعقاد المؤتمر الرابع للاتحاد في تونس بعد سنة وانتقال اللجنة التنفيذية من لوزان إلى تونس كان نتيجة هذه "الأزمة" بين الرابطة واللجنة التنفيذية للاتحاد. ويغلب على الظن أن مصالح بوصوف لها دور في التعجيل بعقد المؤتمر الرابع.

لقد تضافرت الجهود لتحقيق وحدة الطلبة. وكان منها لقاء عبد الحفيظ بوصوف في القاهرة برئيس الرابطة وكاتبها العام وكلامه المبطن بالوعد والوعيد. كما ضغط عليهم وزير الثقافة، وانهالت عليه ضغوطات أخرى من مختلف الجهات لكي تقرر الرابطة حل نفسها وتنضم إلى الاتحاد مع الوعد الرسمي بعقد المؤتمر الجامع. وهكذا اجتمعت الرابطة في القاهرة يوم 15 يونيو 1959، أي بعد حوالي ثلاثة أشهر ونصف فقط من تأسيسها وقررت دعوة الجمعية العامة يوم 20 منه للانعقاد. وبعد شرح وتوضيح تقرر حل الرابطة وتحويل فرعها في القاهرة إلى فرع للاتحاد، وكذلك فعلت الفروع الأخرى في سورية والعراق والكويت. وبذلك انتصرت الإرادة الثورية وتأجلت القضايا التي كانت محل شكوى إلى المؤتمر الرابع أو بعد تحرير الجزائر نفسها. وبعد سنة انعقد المؤتمر الرابع في تونس وحضرته فروع الاتحاد في عواصم العالم ومنها فروع القاهرة ودمشق والعراق والكويت، وكان عددها ينوف على

العشرين فرعا. (انظر لاحقا).

علق محمد مهري على المفاوضات التي أدت إلى حل الرابطة بقوله: كان هناك عدم ثقة بين طلبة المشرق والاتحاد ترتب عليه نشوء توتر بين الطرفين، بل إن مسؤولي الثورة لم يتخلصوا من هذه النظرة الاستعلائية والمتحيزة نحو طلبة المشرق، وكانوا يجهلون دور هؤلاء. ويعتقد أعضاء الاتحاد أن الرابطة هي صدى للأحزاب المشرقية. أما الحكومة المؤقتة فقد مالت إلى الاتحاد لأنها تحمل ذات ميول الاتحاد. لذلك ضغطت على وزير الثقافة أحمد توفيق المدني من أجل حل الرابطة وانضمام طلبتها للاتحاد، وقد طمأن الطلبة في القاهرة فوافقوا على حلها بشرط قبول طلبة دمشق. فأرسل إليهم الوزير ممثله بوزيان التلمساني الذي اتفق معهم على عقد مؤتمر يضم كافة الطلبة سنة 1960 وعلى أن يصلهم التعهد الرسمي قبل حل الرابطة. وفعلا وصلتهم البرقية بذلك. وعندئذ أصبحوا فرعا للاتحاد (وكذلك فعل زملاؤهم في الروابط الأخرى[1].

كان طلبة الرابطة يرون أنفسهم أحق بالقيادة لأنهم سباقون إلى الثورة ولأنهم يمثلون الوجه الحضاري للجزائر العربية المسلمة، فهم الذين اتخذوا المبادرات الثورية وضحوا براحتهم حين تطوعوا للثورة وهاجروا من أجل تعلم لغة وثقافة الوطن، وأنهم هم الأعداء الحقيقيون للاستعمار، وأنهم كانوا يعانون البؤس والشقاء في المشرق حيث يعيشون على موارد ضئيلة شهد الجميع على أنها أقرب إلى الصدقات والإحسان منها إلى المنح والتكفل.

أما زملاؤهم الذين أنشأوا الاتحاد (أنظر لاحقا) فكانوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم ربما الأحق بانضمام زملائهم في المشرق إليهم، لأنهم هم

(1) مهري، ومضات، مرجع سابق، ص 89-90. وفي رأي هذا المرجع أن عدد الطلبة الذين تطوعوا في الثورة سنة 1955 بلغ خمسة وثلاثين طالبا، دخلوا فعلا إلى الجزائر كمقاتلين لا كسياسيين. كما التحق عدد آخر بالكليات العسكرية وبعد تخرجهم التحقوا بوحدات الجيش. وقدر محمد مهري عدد الطلبة في دمشق بحوالي سبعين طالبا.

الذين يعيشون تحت رعب الشرطة الفرنسية وينشطون في السرية بعد حل الاتحاد، وهم الذين أضربوا عن الدروس تضحية منهم من أجل الثورة، وأنهم منذ مؤتمر الصومام أخذوا مكانهم في صفوف الثورة سواء في داخل الجزائر أو خارجها. كما أنهم هم الذين يمثلون الطلبة الجزائريين على المستوى الدولي، وأنهم يعيشون كالمشردين في عواصم العالم، ولاسيما باريس ولوزان.

إننا لا نعتقد أن هناك خلفيات أخرى للتوتر الذي حدث بين طلبة الجزائر شرقا وغربا. حقا لقد كان هناك خلفية مؤتمر الصومام التي وجهت دفة الثورة نحو الداخل وليس نحو الخارج، وربما نحو الغرب وليس نحو الشرق. ولكن تأثير تلك الخلفية لم يكن واضحا إلا ربما في تونس والقاهرة، وإلى حد ما في باريس ولوزان. وهناك خلفية التيار العروبي والإسلامي الذي يريد أن يحتفظ بالطلبة الجزائريين كورقة ضغط، فمصر تعرف أن قيادة الشباب لها المستقبل وأن التيار الموالي لابن بلة قد ضرب بقوة بتغييبه عن مؤتمر الصومام ثم باعتقاله مع زملائه. وكانت القاهرة، ولا سيما بعد تحقيق الوحدة مع سوريا (فبراير 1958) قد أصبحت محجة للشباب العربي النشيط أو المنشط، ممثلا في اتحادات الطلبة غير المعترف بها حتى في بلدانها، كاتحاد طلاب الأردن واتحاد طلاب فلسطين، ثم اتحاد الطلبة العرب وغيره من التنظيمات الطلابية الغاضبة على نظمها، كالتنظيم الطلابي التونسي الموالي لصالح بن يوسف، والاتحاد الطلابي المغربي الموالي للأمير الخطابي.

أخذ هؤلاء الطلبة (في سوريا والعراق) ينسقون مع طلبة الكويت الذين أنشأوا رابطة لهم في سنة 1955. أما طلبة سوريا فقد أنشأوا في نفس السنة "لجنة الطلبة الجزائريين" وهي اللجنة التي استمرت نظريا إلى قيام الرابطة في 22 سبتمبر 1958. وقد أثبتت اللجنة وجودها حين أرسلت برقية احتجاج إلى السلطات الفرنسية تعلن فيها تضامنها مع إخوانهم الطلاب في فرنسا والجزائر الذين كانوا يواجهون الاضطهاد والتعسف لإعلانهم الإضراب عن الطعام احتجاجا على سوء المعاملة. ونددت اللجنة بتدخل الطلبة الفرنسيين الحاقدين

ضد الطلبة المضربين، وطلبت تدخل الرأي العام العربي والإسلامي والدولي لإطلاق سراح الطلبة والمعتقلين السياسيين. كما طالبت الحكومة الفرنسية بوقف خرافة "الجزائر فرنسية"، والتفاهم مع الممثلين الحقيقيين للجزائر على أساس الاستقلال[1] إن هذا بلا شك موقف ناضج أبدته لجنة الطلبة في سوريا بقطع النظر عن خلفية التوتر مع الاتحاد. فقد انتهت اللجنة بتكوين الرابطة التي أصبح مقرها الدائم في القاهرة بينما بقيت دمشق هي المقر الدائم للاجتماع[2].

والواقع أن طلبة سوريا كانوا مبكرين في اتخاذ المواقف السياسية. ففي يونيو 1955 وجدنا أحدهم، وهو علي عمار الذي كان يدرس في اللاذقية، يكتب رسالة إلى محمد خيضر طالبا معلومات وافية عن الجزائر لكي يقدمها إلى السوريين ليعرفهم بالثورة وبالجزائر المجهولة في المشرق عموما. وقال علي عمار إنه يعرف أحمد بن بلة منذ مروره بالقاهرة، أما خيضر فلم يره ولكنه سمع عن نضاله ووطنيته. وفي إجابته شكره خيضر وأحاله على عبد الحميد مهري في دمشق ليزوده بما يريد[3].

وقبل أن نتحدث عن طلبة القاهرة والتقرير الخاص عن الرابطة نقول إن أخبار طلبة العراق ليست كثيرة في الوثائق التي اطلعنا عليها. وقد لاحظنا أنهم كانوا مشاركين في نشاط لجنة طلبة سوريا. ومن أخبارهم أنه كان في العراق قبل سنة 1959 ثمانية وثلاثون طالبا. وقد طلب ممثل الجبهة في بغداد من الخارجية الجزائرية اتخاذ الإجراءات اللازمة لكي يمنح الأمن العراقي التأشيرة للطلبة لأنه لا بد من تحديد الجنسية على الجوازات. كما طلب ممثل الجبهة إعطاءه اسمي الطالبين الحاملين لورقة مرور مغربية[4].

---

(1) أنظر البصائر، 355، 24 فبراير، 1956.

(2) هلال، نشاط... 1986، ص 96، انظر سابقا.

(3) أنظر الأرشيف الوطني، علبة 2، وهناك في الواقع أكثر من رسالة بالفرنسية واثنتان بالعربية، أما رد خيضر فتاريخه 27 يونيو 1955.

(4) من أخبار الطلبة في العراق أن هناك برقية تقول إن وزارة التربية العراقية قد أعلنت =

وهناك طالب آخر يدعى (م.م) طلبت الخارجية الجزائرية من وزارة الثقافة اتخاذ إجراءات ضده لارتكابه أعمالا غير منسجمة مع سمعة الجزائر ومهمته العلمية. وقد أمر الطالب فعلا بالخروج من العراق والرجوع إلى القاهرة[1].

وضمن الملف السابق توجد حالة الطالب (ع.ب) الذي كان يدرس في بغداد والذي قيل إنه كان يجمع التبرعات باسم الرابطة. فقد كتب السيد سامي شعار إلى السيد أحمد (؟) عن هذه الحالة وطلب منه توضيحا للموقف والاهتمام بالموضوع مع كل من عبد الحميد مهري ومحمد الغسيري. وليس في هذه الرسالة مكان ولا تاريخ. ولكن مهري كتب ردا بشأنها إلى ممثل جبهة التحرير في سوريا عليها الختم الرسمي للجبهة، وهي موجهة إلى رئيس رابطة الطلاب الجزائريين بالقاهرة ومؤرخة من دمشق في 25 سبتمبر 1957، وتتناول موضوع الطالب المذكور على أنه كان يجمع التبرعات في لبنان ويقدم للمتبرعين وصولات، وتطلب من رئيس الرابطة العمل فورا لاتخاذ اللازم[2].

نشأة الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين (لوجيما)

سبق القول أن الطلبة الجزائريين في جامعة الجزائر والجامعات الفرنسية كانوا قد توحدوا في تنظيم خاص بهم منذ العشرينات من القرن العشرين، وكان فرحات عباس رئيسا لهذا التنظيم فترة من الوقت. وكانت له نشرة تسمى (التلميذ) ثم تكونت جمعية لطلبة المغرب العربي (شمال افريقيا) فيها تونسيون

= رفضها قبول أي طالب بعد نهاية شهر نوفمبر، كما رفضت جامعة بغداد والوزارة قبول طالبين هما العمراوي ومحمد الحبيب الموجودان آنذاك في دمشق. وهذا القرار جاء من غير تبرير، لكن يبدو أن الأمر يتعلق بالتوقيت، لأن الرسالة مؤرخة في 9 ديسمبر 1959. (الأرشيف الوطني، العلبة 21-50، تاريخ 14 أكتوبر، 1959 و17 أكتوبر 1959

(1) الأرشيف الوطني، علبة 21-50، 20 أبريل، 1959 و8 أغسطس، 1959.

(2) الأرشيف الوطني، علبة 21-50، وتوجد نسخة لأحد الوصولات ضمن الرسالة.

ومراكشيون من أمثال الحبيب ثامر والمنجي سليم (تونس) وأحمد بلافريج ومحمد الفاسي وعلال الفاسي (مراكش). وكانت الجمعية الأخيرة تضم الطلبة المغاربة في الجامعات الفرنسية بما فيها جامعة الجزائر التي كانت تعتبر جامعة فرنسية بحيث يسجل فيها طلبة المغرب وتونس أيضا في الطب والقانون والأدب... وقد اختارت الجمعية أن تجتمع في حاضرة من حواضر الأقطار الثلاثة كل سنة تقريبا، كالجزائر وتلمسان والرباط وتونس، وحين اجتمعت في تلمسان كانت جلساتها برعاية الشيخ الإبراهيمي. ولهذه الجمعية نشرة تعرضنا إليها في أحد كتبنا[1].

إلى أي حد كانت الثورة تشكل دافعا للطلبة الجزائريين في الجامعات الفرنسية إلى إنشاء الاتحاد؟ هل كان وراء ذلك فكرة قديمة طالما راودت طلائع الطلبة وهي ضرورة إنشاء تجمع طلابي جزائري خارج اتحاد الطلبة الفرنسيين؟ هل كان الدافع هو التميز عن الطلبة الفرنسيين كما فعل-الكشافة والرياضيون والعمال ؟ إلى أي مدى أيضا ساهمت الأحزاب وجمعية العلماء في بعث الوعي الوطني لدى الطلاب لكي ينفصلوا عن التنظيمات الفرنسية؟ فنحن إذا عدنا، مثلا- إلى جريدة (الشاب المسلم) نجدها تتميز بخطاب مختلف عن خطاب المنظمات والجرائد الأخرى، فهي جريدة تدعو إلى الوطنية والإصلاح وإلى العروبة والإسلام على غرار ما كانت تدعو إليه البصائر والمنار والجزائر الحرة...

وكان الشيوعيون الجزائريون قد حاولوا إنشاء تنظيم طلابي ولكنه لم يكن فعالا. وأثناء ذلك كان في تونس أكثر من جمعية للطلبة الجزائريين كما كان طلبة المشرق يتململون ويحاولون تكوين تنظيم يمثلهم.

لا شك أن مرور ثمانية أشهر على الثورة قد جعل الشباب الواعي في

(1) الحركة الوطنية ج3، أنظر أيضا محمد بلقاسم: التجربة الوحدوية في المغرب العربي، جامعة الجزائر، رسالة ماجستير.

الجزائر وخارجها يفكر في إنشاء تنظيم طلابي يساير الروح الجديدة ويعطي للثورة صوتا إضافيا في المحافل الطلابية ويكون صوتا تجتمع من حوله الشبيبة المثقفة المؤهلة لخدمة الثورة. وقد بدأت الأمور تسير سيرا طبيعيا فأنشئت لجنة تحضيرية ثم انعقد مؤتمر انبثق عنه (الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين). وعشية انعقاد هذا المؤتمر كتبت جريدة (البصائر) عن أهداف الاتحاد ما يلي:

أولا: تقريب الطلبة من بعضهم (في المشرق، في المغرب، في الجزائر، في فرنسا) لأن هناك تباعدا بينهم بسبب اللغة، بحيث هناك طلبة يدرسون بالعربية، وطلبة يدرسون بالفرنسية، والهدف من ذلك هو الوصول إلى توحيد مناهج التعليم مستقبلا في الجزائر.

ثانيا: وضع توجيه عام تسير عليه الجمعيات الطلابية الجزائرية في أي مكان، ومساندة بعضهم بعضا، وبذلك يتحاور الطلبة مع بعضهم سواء كانوا في السوربون أو في القرويين أو في الزيتونة أو في أي معهد أو جامعة أخرى.

ثالثا: خلق جو يقرب الطلبة من مطالب الأمة (السياسية؟) والهيئة المثقفة من الشعب. فالاتحاد سيفتح أبوابه لجميع الطلبة بشرط إيمان الطالب: "بفكرة الجزائر كوطن إسلامي العقيدة، عربي الثقافة، شرقي الاتجاه." وقد أعلنت البصائر أن الاجتماع الأول للاتحاد سينعقد في النصف الأول من شهر يوليو 1955، أما من يرغب في مساندة المؤتمر ماديا فعليه الاتصال بجمعية الطلبة المسلمين الجزائريين بالجزائر(1).

وهكذا انعقد الاجتماع "سرا" كما تقول بعض الروايات في باريس بين 8و14 يوليو 1955. ومن بين أهداف الاتحاد غير المعلنة خدمة الثورة وخدمة اللغة العربية أساس الثقافة العربية، وإشراك الاتحاد في الحياة السياسية وعدم البقاء على الحياد في القضايا المصيرية. وأول رئيس للاتحاد هو احمد طالب بن

---

(1) البصائر، 326، 8يوليو 1955.

الشيخ الإبراهيمي[1].

ويتحدث كل من حضر أو شارك في إنشاء الاتحاد عن "المعركة" الحامية التي دارت من أجل كلمة "المسلمين" في عنوان الاتحاد. فقد اعترض عليها -كما قيل - الشيوعيون والعلمانيون وتمسك بها الوطنيون والإصلاحيون، ولكن ما الفرق؟ يرى الوطنيون أن كلمة المسلمين تمثل الإيديولوجية الوطنية القائمة على الثلاثي (الجزائر-الإسلام-اللغة العربية). ولولا ذلك لما كان الطلبة في حاجة إلى اتحاد خاص بهم إذ يمكنهم أن يكونوا ضمن الاتحاد العام للطلبة الفرنسيين، فالجنسية الفرنسية محفوظة ومعترف بها للطلبة سواء كانوا فرنسيين أو مسلمين. أما كلمة "الجزائريين" فهي التي لا يعترف بها الفرنسيون لهم وكان الشيوعيون يرون أن كلمة (المسلمين) تميز الطلبة الجزائريين عن بقية المجتمع بينما الأوروبيون هم جزء من نسيج الأمة الجزائرية التي هي بصدد الميلاد، في نظرهم.

ركز الاتحاد في أول نشرة على المسألة الثقافية قائلا" لقد جرد الطالب الجزائري من ثقافته العربية الإسلامية، ومن لغته التي هي اللغة العربية، وعليه أولا وقبل كل شيء أن يفرض شخصيته الجزائرية، وأن يطالب ويدافع عن تراثه الثقافي الذي ورثه عن الحضارة العربية"[2].

ولقائل أن يقول لماذا لم ترد كلمة "العرب" في عنوان الاتحاد، وقد كان الفرنسيون أنفسهم يعترفون بهذا الاستعمال ويقرونه إذ أن الكلمة الشائعة عندهم للجزائري هي "العربي" والمسلم. ونرى أن ذلك السكوت عن كلمة العرب جاء لخدمة الوحدة الوطنية لأن المسألة البربرية كانت حية على مستوى حزب الشعب، وإلى حد ما على مستوى جمعية العلماء، وكان الحزب الشيوعي يستعملها ويغذيها قصدا للدلالة على أن هوية الجزائر لم تكتمل وأنها تتألف من

(1) هلال، نشاط الطلبة الجزائريين، 1989، ص 30.
(2) هلال مرجع سابق، ص 27.

عناصر العرب والبربر والفرنسيين(بمن فيهم اليهود)، وليس العرب وحدهم في مقابل الفرنسيين.

اضطهاد طلبة الاتحاد

تعرضت مكاتب اتحاد الطلبة في باريس وغيرها إلى التفتيش، واعتقلت الشرطة مسؤولي الاتحاد، وهم بين الخمسة والستة، وقادت هذه العملية إلى حركة احتجاج من فرع الاتحاد في تونس ومن الاتحادات الوطنية الأجنبية المؤيدة له، بما فيها اتحاد طلاب تونس، كما احتج الطلبة على حل الاتحاد وطالبوا بإطلاق سراح رئيسه عندئذ محمد خميستي. أما السلطات الفرنسية فقد اتهمت الاتحاد بأنه كان يعمل لصالح جبهة التحرير[1].

وفي نفس الفترة قتل الفرنسيون -حسب المجاهد- طالبة اسمها حميدو في تلمسان، مما أثار غضب أهل تلمسان فقاموا بمظاهرات احتجاجية، وقد فضح(صوت الجزائر) في حصة له بالإذاعة التونسية ما حدث للطالبة، وعندئذ فقط سارعت القيادة الفرنسية إلى الإعلان على أن الطالبة قتلت لأنها حاولت الفرار، وقد تساءلت المجاهد عن السبب في أن الفرنسيين لم يعلنوا عن قتلها إلا بعد إذاعة صوت الجزائر، ولماذا لم يعلنوا عن تقرير الطبيب الشرعي[2].

إزاء حملة الاعتقالات لجأ الاتحاد إلى توجيه نداء إلى اتحاد الطلبة الفرنسيين وغيرهم للتدخل لصالحه والمساندة. فقد أوقفت الشرطة أحمد طالب الرئيس السابق للاتحاد والرئيس الشرفي له، والعياشي ياكر نائبه السابق. وكانت الاعتقالات قد توالت في صفوف الطلبة منذ مقتل الشهيد بلقاسم زدور في نوفمبر 1954، وهو الذي كان يدرس في كلية دار العلوم بمصر والتحق بالثورة

---

(1) المجاهد، 17، فبراير، 1958، و18، 15 فبراير 1958. كان خميستي يطرس الطب في جامعة مونبلييه ورئيس فرع الاتحاد في هذه الجامعة. انظر عنها جمال الدين بن سالم، إليكم أسلحتنا . . إليكم أطباءنا، م. و. ك. الجزائر، 1985.

(2) أنظر المجاهد 43، فاتح يونيو، 1959.

مبكرا. فقد ذكّرت اللجنة التنفيذية في ندائها إلى اتحاد الطلبة الفرنسيين: باعتقال تسعة طلبة في تولوز، وآخر في ليل، وبالمعاملة السيئة للطلبة لتوزيعهم منشورات في بوردو وباريس، ووضع بعض الطلبة تحت الإقامة الجبرية. أما في الجزائر فقد اقتحمت الشرطة ثانوية بوجو(الأمير عبد القادر حاليا) في العاشرة ليلا واختطفت الطالب معيزة مصطفى وهو ناظر بالمدرسة وطالب في كلية الحقوق، ثم لم يعرف مصيره بعد ذلك. وطالب النداء اتحاد الطلبة الفرنسيين بالتنديد بهذه الأعمال التي" ستجعل التفاهم بين الشعبين مستحيلا" لأنها أعمال ضد حقوق الإنسان(1).

لخصت المجاهد أعمال الاتحاد منذ قيامه حتى سنة 1959 فيما يلي: أصبح الطالب المثقف في أتون المعركة، فهو الطبيب والمنسق والمفوض السياسي، والممرض والكاتب وصانع القنابل. كان الإضراب وما تلاه دليلا على فشل الدعاية الفرنسية التي تدعي أن الثوار لا يمثلون إلا أنفسهم وأن الثورة من عمل أناس طائشين، كما كثف الاتحاد جهوده في الخارج لتحقيق:

1. إعداد الإطارات للمستقبل بإرسال البعثات إلى أوروبا الشرقية والغربية والصين وأمريكا والمشرق العربي، إضافة إلى الطلبة الكثيرين في المغرب وتونس.

2. نشر الدعاية والعمل مع الاتحادات الأخرى على كسب الأنصار للثورة والاتصال بالأوساط النقابية والثقافية.

3. تحضير طلبة الاتحاد للقيام بدور رئيسي في توجيه التعليم والحياة الثقافية في الجزائر المستقلة على أساس أن الثقافة العربية الإسلامية التي أعلن الاتحاد عنها منذ نشأته هي التي ستكون ثقافة الشعب الجزائري(2).

---

(1) المقاومة الجزائرية، 8، 11 مارس، 1957، عن اضطهاد بعض الطلبة أيضا، أنظر الفصل الثالث فقرة اضطهاد المثقفين.

(2) المجاهد، عدد خاص، أول نوفمبر، 1959.

ظروف إضراب الطلبة، 1956

تعرض الاتحاد إلى اضطهاد السلطات الفرنسية في فرنسا والجزائر. فصدر قرار بحله ولاحقت الشرطة مسؤوليه فسجنت بعضهم وخرج آخرون خارج الحدود الفرنسية. وانضم بعضهم إلى صفوف الثورة في الجزائر أو إلى وفد جبهة التحرير في الخارج. لذلك قرر الاتحاد الدعوة إلى الإضراب عن الدروس في الجامعات والثانويات في فرنسا والجزائر يوم 19 مايو 1956 وكان ذلك تصعيدا واضحا في الدفع الثوري إذ حرم الفرنسيون من حجة كانوا يستعملونها وهي أن الفئة المثقفة من الجزائريين لم تلتحق بالثورة وأن الثوار ما هم إلا "فلاقة" أو جماعة من المشردين وقطاع الطرق ثاروا بسبب الجوع والبطالة. لقد كان الإضراب في حد ذاته ضربة قوية للإعلام والدبلوماسية الفرنسية في العالم، كما كان نصرا كبيرا للجبهة في صراعها من أجل افتكاك المبادرة ليس من فرنسا وحسب ولكن من منظمات مناوئة أو موازية كالحركة الوطنية التي أسسها مصالي الحاج وجماعة مكافحي الحرية التي أسسها الشيوعيون. وهكذا انضم طلاب الجزائر في المعاهد الفرنسية إلى إخوانهم الثوار-المجاهدين، أو توزعوا على جامعات ومعاهد أوروبا لمواصلة الدراسة.

منذ فبراير 1956 أعلنت البصائر أن وفدا من الطلاب المسلمين بالجامعة صرح بأنهم التقوا بأحد معاوني رئيس الحكومة (الفرنسية) وأنهم صارحوه بأنه لا يمكن وقف الحرب إلا بالاعتراف بالمبدئين الأساسيين وهما "وحدة الأمة الجزائرية وتكوين الدولة الجزائرية"[1].

والغالب أن يكون هذا الوفد الطلابي مبعوثا -إذا ثبتت اتصالاته- من قادة الجبهة في الجزائر. فهل كان رمضان عبان أحد هؤلاء القادة؟ إننا لا نملك دليلا على ذلك. وعلى كل حال فإن الجبهة كانت تمثل مستقبل الجزائر في نظر الطلاب.

(1) البصائر، 355، 24 فبراير، 1956.

لخصت جريدة (المقاومة الجزائرية) الخطوات التي قطعها الاتحاد حتى وصل إلى قرار الإضراب عن الدروس. فتحت عنوان (طلبتنا في ميدان الكفاح) قالت إنه في السادس من فبراير 1956 ضرب الطلبة الفرنسيون رئيس وزرائهم بالطماطم (إشارة إلى الهجوم على جي موليه عند زيارته الأولى للجزائر) وحاولوا اغتيال الأستاذ أندري مندوز في رحاب جامعة الجزائر "لولا وفاء الطلبة الجزائريين للحرية والحوار الذين افتكوه منهم وأحاطوه بسور من صدورهم وسواعدهم". ومن جهة أخرى فوت الطلبة الجزائريون الفرصة على الطلبة الفرنسيين عندما أعلنوا لائحة في 31 مارس صمموا فيها على عقد اجتماع لهم بفرنسا. وفي هذه اللائحة استنكر الطلبة الاستعمار ودعموا الكفاح الوطني، كما طالبوا باستقلال الجزائر وسيادتها وبتحرير المساجين والتفاوض مع جبهة التحرير، ونتيجة لذلك قامت السلطة الاستعمارية بإلقاء القبض على قادة الطلبة، ولكن طلبة العالم هرعوا لنجدتهم والمطالبة بإطلاق سراحهم.

الخطوة الأخرى التي اتخذها الاتحاد (لوجيما) هي توزيعهم منشورا في الجزائر العاصمة (مايو 1956) تساءلوا فيه: "لأي شيء تصلح هذه الشهادات التي تمنح لنا في الوقت الذي يكافح فيه شعبنا ببطولة؟" كان ذلك كافيا لقدح النار في الهشيم وإدانة الاستعمار وتعبئة الطلبة لأمر قادم، فقد شككوا في قيمة الشهادات التي يعملون من أجلها واعتبروها وسيلة لهدف مزيف، فهم مستهدفون للتمويه والتزوير. وأعلنوا أن هناك أولويات توجب عليهم تحمل المسؤولية، بل أعلنوا التمسك "بالإضراب العاجل عن الدروس والامتحانات لمدة غير محدودة" وطلبوا من زملائهم إخلاء مقاعد الدراسة في الجامعة والالتحاق بجيش التحرير وجبهة التحرير، ليكونوا جنودا وأطباء في صفوف الثورة. وأضافت جريدة المقاومة: لقد ناقش البعض حكمة هذا القرار، هل الجزائر في حاجة إلى طلابها وجنودها، كل في ميدانه، أو أن شعار "الكل للمعركة" هو الذي له الأولوية.

وهنا نذكر أن النقاش قد احتد بين الطلبة في المشرق أيضا: هل هم معنيون بالإضراب أيضا؟ كان بعضهم قد نادى بوقف الدروس في المشرق تضامنا مع زملائهم وتمشيا مع الشعار المذكور "الكل للمعركة"، ولكن تعليمات الجبهة أوضحت أن الإضراب غير شامل، وأن من أراد التطوع فله ذلك ولكن وقف الدراسة في معاهد المشرق غير وارد[1].

وقد أكدت جريدة المجاهد، من جهتها، بيان الطلبة في الدعوة إلى الإضراب والالتحاق بالجيش والجبهة. فقد تضمن العدد الأول منها النداء الذي وجهه الاتحاد (لوجيما) إلى الإضراب مبررا ذلك بأسماء عدد من الطلبة المعتقلين أو الشهداء ومنهم محمد الونيس الطالب- حسب المجاهد -بمعهد الدروس الإسلامية والذي مات مجاهدا، وزدور بلقاسم الذي سبق ذكره، والطبيب ابن زرجب، والأديب رضا حوحو، والتنكيل بالطبيب التجاني هدام بقسنطينة، والطبيبين با أحمد وطبال بتلمسان، والقبض على آخرين من أعضاء الاتحاد، واختطاف وذبح رفيقهم الطالب فرحات حجاج في ضاحية بن عكنون. وفي هذا المجال وتجديدا للتعبئة النفسية أشارت المجاهد إلى إضراب الطلبة يوم العشرين يناير 1956، وكررت العبارات المثيرة السابقة وهي أن الشهادات لن تفيد الطلبة بينما شعبهم يئن تحت براثن الاستعمار، فهم رجال الغد، وماذا سيفعلون بالشهادات إذا قضى الاستعمار على الشعب؟ إن هناك أمورا مستعجلة تنتظرهم وهي أن يكونوا مع المكافحين، وعليهم الآن القيام بالإضراب عن الدراسة والامتحانات لأجل غير مسمى. ودعت إلى هجر المقاعد في الجامعات والتوجه إلى الجبال والالتحاق بجيش التحرير قائلة: " أيها الطلبة والمثقفون الجزائريون" إن العالم ينظر إلينا والوطن ينادينا، فإلى حياة العز والبطولة والمجد". تلك هي دعوة الاتحاد الصريحة إلى الإضراب والهدف منه ومبرراته[2].

---

(1) المقاومة الجزائرية، 3، 8 ديسمبر 1956.

(2) المجاهد 1، 1956، ص 19-20، وقد صدرت في شكل نشرة.

دام الإضراب بالنسبة للجامعيين حوالي سبعة عشر شهرا، وكان قراره قد اتخذ لأسباب سياسية ونفسية وعسكرية، كما لاحظنا. وقد حقق الآن أهدافه. وكانت له نتائج هامة منها الصدمة الاجتماعية والسياسية للطالب والأسرة الجزائرية عامة، ومنها انضمام عدد من الطلبة ذوي الكفاءات العلمية والسياسية والطبية إلى الثورة، والالتحاق بالدراسة في جامعات ومعاهد غير فرنسية مما أدى إلى تنوع الدراسات وتعدد الأفكار عند الطلبة والخروج من الاحتكار العلمي واللغوي الفرنسي. لقد كان على الجبهة (جبهة التحرير الوطني) أن تواجه مشكلة بضع مئات من الجزائريين خارج الوطن، وكذلك معالجة عودة الطلبة الجزائريين إلى الجامعات الفرنسية بعد حل الإضراب.

لماذا أضرب الطلبة؟ وهل حققوا الهدف منه؟ لقد أثار قرار الإضراب جدالا متوترا بين المسؤولين الجزائريين، فمنهم من رآه خطوة إيجابية في الاتجاه الصحيح ومنهم من اعترض عليه ورآه خطوة في الاتجاه الخاطى وأن الخاسر فيه هو الجزائر وثورتها على المدى البعيد. تقول المجاهد إن الطلبة ليسوا ضد التعليم في الجامعات الفرنسية في حد ذاتها، وليسوا ضد العلم والمعرفة، لقد قام الطلبة المسؤولون على الإضراب بإطلاع الطلبة الفرنسيين على ما ارتكبه جيشهم في الجزائر من موبقات وأعمال وحشية تذكر بما فعله (الجستابو) الألماني مع الفرنسيين. كما أفهموهم العقيدة الوطنية والمقاومة من أجلها التي يقوم بها الشعب الجزائري، وهو ما يعرفه الفرنسيون أثناء مقاومتهم للنازية والاحتلال الألماني. كما عقد الطلبة الجزائريون خلال الإضراب ندوات ونظموا محاضرات للتعريف بالثورة، وجمعوا لها التبرعات في العلم الجزائري مما جعل الشرطة تعتقل بعضهم بدعوى أنهم رفعوا علم (الفلاقة).

وفي هذه الأثناء ظهرت في فرنسا جماعات تندد بالمقارنة بين المقاومة الجزائرية والمقاومة الفرنسية، وتيقن الطلبة أنه لا مكان لهم في فرنسا وفي جامعاتها بالخصوص، وأن عليهم أن يضعوا أنفسهم تحت تصرف جبهة التحرير

وأن يقرروا الإضراب غير المحدود. ولا شك أن هذا تبرير واه لاستمرار الإضراب لأن بعض الطلبة استمروا في الدراسة، ولأن السلطات الفرنسية كان يهمها سياسيا أن يرجع الطلبة للدراسة، ولكن التحاق العديد من الطلبة بالثورة مباشرة كان أمرا مرغوبا فيه من قيادة الثورة نفسها كما قلنا، وكان من أهداف الإضراب زعزعة العلاقة بين الطالب وحالة الجمود التي كان فيها، فكان لابد من تسييسه وإحداث صدمة لديه ليستيقظ على صوت الوطن والوطنية.

دخل الطالب صفوف الثورة إما كجندي في الجبال وإمامسؤول سياسي وإما مدرس أو ممرض، وإما دبلوماسي يجوب بلدان العالم للتعريف بقضية بلاده. وهكذا أصبحت القضية معروفة بعد أن قام الطالب بدوره المذكور في الداخل والخارج، وأصبحت القضية الجزائرية معروفة على مستوى عالمي، ومنها الكتابات الصحفية عنها في الجرائد الكبرى، وأصبح انتصار الجزائر في حربها على الاستعمار هو انتصار للملايين المضطهدة في العالم والطامحة إلى الحرية والعدالة والديمقراطية. فقد حقق الكفاح بالإضراب أهدافه في النهاية وحان وقت بناء الأساس للمستقبل على العلم والاختصاص ومن ثمة جاء القرار بحل الإضراب في 14 أكتوبر 1957 وعودة الطلبة الجامعيين للدراسة. أما طلبة الثانويات فقد سمح لهم باستئناف الدراسة قبل هذا التاريخ[1].

شارك الطلبة في تدويل القضية الوطنية. وكان للاتحاد موقف واضح من الإيديولوجيات المتصارعة في العالم عندئذ، فقد كان كل منها يريد الاستحواذ على الثورة ونسبتها إليه، فكان شعار الاتحاد أن من هو معنا فهو صديقنا وأن الثورة في حاجة إلى مساندة الجميع، وكانت تعليمات الثورة عدم انضمام الطلبة إلى أي حزب أو تنظيم خارج تنظيم الثورة سواء كان التنظيم جزائريا أو أجنبيا.

(1) المجاهد 11، فاتح نوفمبر 1957، وكذلك المقاومة الجزائرية، 4، 24 ديسمبر، 1956، وتذكر المقاومة أن عددا من الطلبة قد استشهدوا من بينهم عمارة والونيس، وكلاهما من القادة.

كما كانت تمنع تبني إيديولوجية الشرق أو الغرب، لذلك كان موقف الاتحاد حياديا بين المنظمتين الطلابيتين الدوليتين اللتين كانتا تتنازعان الحركات الطلابية في العالم، والتمسك بالمبدأ القائم على التعاون مع كل المنظمات الطلابية الدولية والحركات الطلابية الوطنية لفائدة الثورة[1].

استأنف الطلبة الدراسة في مختلف الجامعات الفرنسية، ولكنهم استثنوا جامعة الجزائر لموقفها المتصلب من الثورة حسب صحيفة (لاكسيون) التونسية (21 أكتوبر، 1957). وانعقد المؤتمر الثالث للاتحاد سرا في باريس برئاسة مسعود آيت شعلال، خلال ديسمبر 1957، لكن السلطات الفرنسية قامت بحل الاتحاد في 27 يناير 1958. فلم يبق أمام الطلبة إلا التوجه نحو البلدان الأوروبية لمواصلة دراستهم، رغم بقاء فرع سري للاتحاد في باريس[2].

تقرير عن طلبة المشرق العربي، 1959

حصد طلبة القاهرة الحظ الأوفر من اللوم والاتهام في التقرير الذي كتب عن رابطة الطلبة الجزائريين في المشرق العربي سنة 1959 على إثر توترات تعرضنا إليها سابقا. وإلى الآن لا يعرف من هو الذي حرر التقرير الطويل الذي يقع في إحدى عشر صفحة، لأنه غير موقع من أحد. فهل هو الكاتب العام للاتحاد بعد زيارته للقاهرة وفشله في جمع كلمة طلبة المشرق تحت راية الاتحاد؟ أو كتبه شخص آخر من أجهزة الحكومة المؤقتة؟ على كل حال فإن التقرير مؤرخ بشهر أغسطس 1959 أي بعد حوالي شهر من اتخاذ الرابطة القرار بحل نفسها والانضمام للاتحاد(انظر سابقا)، وهو مكتوب بالفرنسية ومرقون. ويتعرض بالتفصيل لحالة الطلبة في المشرق عموما وطلبة القاهرة خصوصا، ويختم بتوصيات محددة وقاسية تكاد تصل إلى الاتهام بالتخريب والخروج عن الجماعة في وقت كان يكفي فيه تهمة واحدة لكي يقاد صاحبها إلى مقصلة الثورة.

---

(1) عواطف عبد الرحمن، الصحافة العربية. . . ص122.

(2) هلال، نشاط. . . ص140 وهنا وهناك.

جاء في هذا التقرير أن عدد طلبة القاهرة عندئذ بلغ مائة وعشرين (120) طالبا، وهم ينتمون إلى مختلف أنحاء الجزائر ويدرسون في كليات ومعاهد. وكان هؤلاء (سبق أن المصادر الفرنسية قدرتهم بمائة وخمسين دارسا في الأزهر). وتشير المعلومات إلى أن كل الطلبة قبل الثورة كانوا يعيشون على مساعدات من عائلاتهم، ولكن منذ الثورة انقطعت بهم السبل ولم يعودوا يتلقون شيئا من بلادهم. فساء حالهم رغم أنهم أصبحوا يتلقون إعانات من الإدارة المصرية ومن مكتب جمعية العلماء بالقاهرة، وهي إعانات غير كافية، لذلك أصبح هؤلاء الطلبة هم الأكثر فقرا وبؤسا بين الطلاب العرب في القاهرة، مما عرضهم للمرض والفاقة. وقد جرى اجتماع في مكتب جمعية العلماء برئاسة أحمد توفيق المدني المكلف بالشؤون الثقافية في الوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني، فقررت منح الطلبة مساعدة تضمن الحد الأدنى للمعيشة وهي تتحدد حسب المستوى الدراسي للطالب، على أن تتوقف المساعدة حالما تصل الطالب مساعدة من أهله، أو دعي الطالب لخدمة الثورة. وقد أرسل المكتب العسكري منهم ثمانية عشر مجندا إلى الجزائر، وهناك آخرون كانوا يستعدون للسفر. هذه هي بداية محتوى التقرير[1].

واتهم التقرير الموجه إلى وزيري الداخلية والثقافة في الحكومة المؤقتة الطلبة بالانفصال عن الجماعة (اتحاد الطلبة) قائلا: في الوقت الذي يجد الطلاب الجزائريون أنفسهم منتمين في مختلف البلدان إلى الاتحاد(لوجيما) نجد طلبة المشرق العربي ما يزالون خارجين عنه. والأكثر خطورة في نظر صاحب التقرير هو أنهم أنشأوا تنظيما موازيا أسموه (رابطة الطلبة الجزائريين في المشرق العربي). ولماذا طلبة القاهرة بالذات؟ يذهب التقرير إلى أن هؤلاء كانوا على علم بتفصيل نشأة الاتحاد في فرنسا سنة 1955 وأن معظم الطلبة في المشرق كانوا متواجدين في القاهرة. وادعى أن الدعوة لحضور المؤتمر قد

(1) انظر الأرشيف الوطني علبة3.

وجهت إليهم ولكن ظروفهم المادية والأمنية لم تسمح لهم بالسفر إلى باريس لحضور الاجتماع، فاكتفوا بإرسال رسالة مشاركة وانتماء قرئت (كذا) على الحاضرين مما جعلهم من المؤسسين للاتحاد. وهو ما ينفيه مسؤولو الرابطة ويقولون إنهم لم يتصلوا بأي دعوة ومن ثمة لم يرسلوا أية رسالة. ويعترف التقرير أن نفس الصعوبات (المادية والبوليسية) واجهت طلاب القاهرة أيضا سنتي 1956 و1957 وعاقتهم عن الحضور.

يشكو التقرير من كون طلاب القاهرة قد أسسوا سنة 1956 رابطة خاصة بهم. ثم تلاهم طلبة دمشق وبغداد والكويت فأسسوا أيضا تنظيمات محلية. وبينما تجاهلت رابطة القاهرة الاتحاد في دستورها فإن طلبة بغداد ودمشق اعتبروا أنفسهم في دستورهم فروعا للاتحاد. ورغم أن لجنة التنسيق والتنفيذ قد أنشأت مصالح للطلبة ضمن إدارة الشؤون الاجتماعية والثقافية، فإن ذلك قد هيأ الساعة التي ينظم فيها الطلاب في المشرق أنفسهم في فروع للاتحاد. ولا يتعدى الأمر إذن في نظره إعادة تسمية رابطة القاهرة أو غيرها باسم فرع (لوجيما) في... ولا حاجة إلى شروط أو سوء فهم. ولهذا الغرض جاء رئيس الاتحاد(آيت شعلال) ونائبه والكاتب العام (عبداللاوي) إلى القاهرة في أوقات مختلفة لإعطاء الموضوع الصفة الرسمية. غير أن هناك روحا انفصالية ظهرت بين طلبة المشرق منعت من تحقيق ذلك. فقد عقدوا اجتماعا "انفصاليا" في دمشق، سبتمبر 1958، (تاريخ تأسيس الرابطة الجامعة)حضره طلبة القاهرة، لتكوين رابطة مشتركة، وحضرت وفود من مختلف روابط الطلبة الجزائريين في البلدان العربية.

وبعد رجوع وفد القاهرة من دمشق طلب منهم تقديم تقرير مكتوب عن الاجتماع يشمل المحضر واللوائح، ولكنهم لم يفعلوا واكتفوا بتقرير شفوي مفاده أنهم قرروا الانضمام إلى الاتحاد بعد تمكين فروعهم من تكوين فيدرالية داخل الاتحاد. فقيل لهم إن ذلك غير ممكن الآن لأنه غير موجود في دستور الاتحاد الذي لا يمكن تغييره إلا في المؤتمر، وإنه لم يبق أمامهم سوى تحويل

روابطهم إلى فروعهم للاتحاد. وكان آيت شعلال (رئيس الاتحاد) قد جاء إلى القاهرة لمعالجة الوضع ولكنه لم يستطع فعل أي شيء لوجود الطلبة في فترة امتحان. فعينت اللجنة التنفيذية للاتحاد رئيسي فرعي رابطة بغداد والقاهرة عضوين مع عبداللاوي غير أن الرئيسين المذكورين تساءلا عن حق اللجنة في التعيين. وقد رأى عبداللاوي أن ذلك دعوة صريحة لعدم الاندماج في الاتحاد. وهكذا عاد هذا التقرير إلى نقطة الصفر، نقطة الاتهام وطلب الانتقام الجماعي من طلبة المشرق، فأوصى وبلهجة حادة وحاسمة بما يلي:

أولا: وقف إرسال الطلبة إلى المشرق العربي، خصوصا الجامعات المصرية إلى أن يتحول الطلبة إلى المبادى الإيديولوجية والتنظيمية التي تقود الثورة.

ثانيا: تجميد أية علاقة مع الروابط الطلابية المذكورة من قبل الحكومة ومن الجبهة والتنظيمات المتصلة بها وقطع الصلة معها وتعويضها بلجان من داخل الروابط لتقوم اللجان بدل الروابط بتوزيع المساعدات الشهرية للمنح الآتية من الحكومة المؤقتة.

ثالثا: قطع الثلاثين جنيها الشهرية عن رابطة القاهرة التي سلمت لها كإعانة من الحكومة المؤقتة.

رابعا: تأجيل إنشاء فروع للاتحاد في المشرق العربي إلى وقت لاحق.

خامسا: استثناء طلبة المشرق العربي من كل مشاركة على المستوى الدولي.

سادسا: إدخال التنظيم السياسي من قبل الجبهة وسط طلبة المشرق العربي بالاعتماد على "العناصر النظيفة" التي بقي منها الكثير بينهم.

سابعا: اتخاذ عقوبات صارمة (مثالية) ضد العناصر التي لعبت دورا رئيسيا في الحركة الانفصالية.

ومن سوء حظ صاحب التقرير أن توصياته بقيت حبرا على ورق وأن الوزارتين المعنيتين قد وضعتا التقرير على الرف لأنه فيما يبدو غير موضوعي ولأنه مفعم بروح الانتقام المجاني. فكيف تقوم الحكومة المؤقتة، وهي وسط المعمعة بمنع الطلبة في المشرق العربي من الدراسة ومن حق العيش بقطع العلاقة مع نخبة من أبناء الجزائر؟ فهل كانت جبهة التحرير تعمل في غابة منعزلة بعيدا عن الأنظار والأسماع؟

على كل حال فإن التقرير قد احتوى على تفاصيل عن نشأة الاتحاد وظروفه، ونشأة رابطة القاهرة وتنظيمات الطلبة في العراق وسوريا والكويت، ثم الرابطة الأم، وحق تمثيل الاتحاد في المؤتمرات الطلابية العربية والخطط المعلنة والمضمرة. وهو مقسم إلى فصول وعناوين وأرقام، وله خاتمة وتوصيات [1].

المؤتمر الرابع للاتحاد

للمؤتمر الرابع لاتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين أهمية خاصة، فقد انعقد لأول مرة خارج أوروبا (فرنسا)، انعقد في بلاد عربية نالت استقلالها حديثا وجارة للجزائر هي تونس، وانعقد بعد تأسيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، وقد أصبح لها شأن في القضايا الدولية واعترفت بها دول عديدة على رأسها البلاد العربية، وكذلك بعد إعلان الرئيس الفرنسي استعداد بلاده لتطبيق مبدأ تقرير المصير للشعب الجزائري مما جعل فكرة استقلال الوطن على الأبواب وأصبح ذلك مسألة وقت فكانت لغة المؤتمر الرابع السائدة هي الإعداد للجزائر المستقلة، كما أن التوازن الدولي جعل الاتحاد ينجح في مخاطبة الاتحادات العالمية والوطنية من موقع الحياد والقوة والاستقلالية. وقد

---

(1) انظر الأرشيف الوطني، علبة 21-50، بدون تاريخ، ولكنه مكتوب بعد سبتمبر 1958، وعنوانه الكامل هو: تقرير إلى السيدين وزيري الداخلية والشؤون الثقافية عن أداء الطلبة الجزائريين في البلدان العربية.

فهم الجميع أن دخول الجزائر المسرح الدولي أصبح قاب قوسين أو أدنى.

ومن جهة أخرى فإن الاتحاد قد استطاع أن يجمع الطلبة الجزائريين في فروع تابعة له بلغت عندئذ عشرين فرعا وهي الفروع التي حضرت جميعا من أوروبا وأمريكا والمشرق العربي والمغرب العربي. وهكذا فلأول مرة يجتمع الطلبة الجزائريون-مهما تعددت اختصاصاتهم واللغات التي يدرسون بها والبلدان التي يقيمون فيها - اجتمعوا على صعيد واحد يتداولون في مصير بلادهم ويعدون العدة للجهد المشترك في بناء وطنهم الموحد. ومن حسن حظي أنني كنت حاضرا هذا المؤتمر ممثلا- مع آخرين - لطلبة فرع القاهرة، فكانت المشاركة فيه صفحة جديدة في حياتي النضالية. ولا شك أن الطلبة الآخرين قد شعروا بمثل ما شعرت.

على هذه الخلفية نريد أن نبرز أهمية المؤتمر الرابع للاتحاد، فقد انعقد على أرض عربية، بحضور كافة الفروع والوفود الأجنبية التي وجهت إليها الدعوة وعددها حوالي 120 منظمة طلابية وشبابية.

أما القضايا التي طرحت على المؤتمر الرابع فهي قضايا تمس جوهر المستقبل الوطني، وقد ظهر قادة الاتحاد عندئذ وكأنهم قطاع كبير من الدولة الناشئة. وكانت القضايا المثارة هي: 1. الثورة والتحرر الإفريقي، 2. العلاقات مع الحركات الطلابية العالمية والوطنية، ما الموقف منها وكيفية الانخراط فيهـا، ومن ضمنها التضامن والتعاون والوحدة بين الحركات الطلابية، ومنها اتحاد الطلبة العرب واتحادات طلاب المغرب العربي، 3. الوضع الثقافي والنقابي للاتحاد كالدراسة في الجزائر والخارج، والمنح، والتوجيه، وما إلى ذلك.

والمبادىء العامة التي ركز عليها المؤتمر هي: 1. مكافحة الاستعمار. 2. استقلال الاتحاد بالنسبة للمنظمات الطلابية العالمية المنتمية إلى المعسكر الشرقي أو الغربي، ولاسيما الاتحاد العالمي للطلاب والندوة العالمية للطلاب،

والمبدأ هو مد يد الصداقة للجميع، والتعاون مع الجميع[1].

ولأهمية الحدث خصصت المجاهد له عددا ضمنته الوقائع: من كلمة رئيس الحكومة المؤقتة عندئذ السيد فرحات عباس إلى كلمة عبد الحميد مهري وزير الشؤون الثقافية، إلى كلمة رئيس الاتحاد نفسه، ثم كلمات الوفود الطلابية العربية والأجنبية. وكان السيد عبد الرحمن شريط رئيس فرع تونس هو رئيس المؤتمر. وقد وصفت المجاهد جلسات المؤتمر يوما بيوم على مدار سبعة أيام (الثلاثاء 26 يوليو إلى الاثنين أول أغسطس، 1960)، وقالت إن عدد الوفود الأجنبية التي حضرت بلغ 29 وفدا، وأن فروع الاتحاد بلغت 20 فرعا، جاء ممثلوها من مختلف أنحاء العالم، وقد نشرت الجريدة صورا لبعض الحاضرين والقادة والجلسات. ومما ذكرته أيضا أن الاتحاد قرر الرجوع إلى الدراسة وفك الإضراب (بالنسبة لجامعة الجزائر؟) بالاتفاق مع قادة الثورة نظرا لحاجة البلاد إلى إطارات، وربما مواجهة البلاد عجزا فظيعا في الإطارات لأن الطلبة المتخرجين هم الذين سيعوضون الموظفين الأوروبيين في جزائر الغد.

وهذه هي عناوين الجريدة المستقاة من محاضر المؤتمر ومن كلمات الوفود وشعارات الاجتماع: أهمية المؤتمر الرابع، كيف عاش المؤتمر أسبوعه الخالد، التقرير الأدبي، ومقولة رئيس الحكومة: إن مشاركتكم في الكفاح التحريري تجعل منكم طليعة الثورة، ومقولة وزير الشؤون الثقافية: الثورة ربطت المثقف الجزائري بروح الأمة وضمته إلى أحضان الشعب، وأهم مقررات المؤتمر وتوصياته، والمؤتمر يثير إعجاب طلاب العالم...[2].

ولاحظت المجاهد أن الطلبة بقوا محافظين على شخصيتهم القومية والروح الوطنية والعربية، كما برهنوا على ذلك في المؤتمر، رغم أنهم يعيشون

---

(1) المجاهد، 73، 25 يوليو، 1960.

(2) المجاهد 74، 8 أغسطس، 1960، وقد صدرت نشرة خاصة عن المؤتمر بالفرنسية تضمنت الكلمات والتقارير وبعض الصور للحاضرين.

في بلدان وبيئات مختلفة وداخل عادات وتقاليد مغايرة لعاداتهم وتقاليدهم. وكان المؤتمر قد انتخب المجلس الإداري الذي يتألف من 21 عضوا، منهم سبعة أعضاء يكونون اللجنة التنفيذية، ثم اجتمع المجلس لانتخاب اللجنة وهي التي أعادت انتخاب مسعود آيت شعلال الذي عقد مؤتمرا صحفيا. ولكن مقررات المؤتمر لم تنشر كلها، فهناك ما كان يمكن نشره وما كان يعتبر قرارات سرية تتعلق بمسائل داخلية حساسة لا يجوز نشرها عندئذ. أما اللوائح التي سمح بنشرها فهي المتعلقة بإفريقيا، والسياسة العامة بالجزائر، والمتعلقة بالوطن العربي، ولائحة "الطلبة الفرنسيين العاملين في صفوف جيش التحرير الوطني"، ثم لائحة شكر الاتحاد العالمي للطلبة، ولائحة شكر لحكومتي تونس والمغرب، ولائحة حول جامعة (ودادية؟) شمال إفريقية، ولائحة شكر البلدان العربية، وأخيرا لائحة حول المغرب العربي. ومن الوفود التي حضرت وفود الصين والاتحاد السوفياتي وفلسطين.

بالنسبة للائحة الخاصة بالحركة الطلابية العربية نشير إلى أنها قد نوهت بالشخصية العربية للجزائر وركزت على الكفاح المشترك وأهمية الثقافة العربية. ومما يلاحظ أن الدول الإسلامية غير مذكورة ولم تأخذ أي حيز في المؤتمر، كما أن الحديث عن الإسلام وحضارته لم يرد لهم ذكر في اللوائح والخطب، فالاتجاه العلماني كان واضحا في المؤتمر، وكأن الأمر يتعلق بمؤتمر لا يتحدث عن الثورة الجزائرية التي اتخذت رموزا إسلامية ودينية واضحة في مسيرتها وتعبئتها للشعب، فإطار المبادى الإسلامية المعلن في بيان أول نوفمبر ومصطلحات: المجاهد، والشهيد، والمسبل، والمحافظة على القيم الإسلامية في القضاء والأحكام، والممارسات الدينية كالصلاة، والتكبير عند الهجوم أو عند الإعدام. . . كلها غابت من قاموس المؤتمر الرابع. أما الافتتاح أو الاختتام بالقرآن فلا مجال للحديث عنه.

لقد جاء في اللائحة الموجهة للحركة الطلابية العربية: إن الاستعمار الفرنسي حاول "القضاء على الشخصية العربية للجزائر بمحاربة الثقافة العربية

وتشويه التاريخ القومي للجزائر" وقالت إن الكفاح والثورة من أجل "عودة الجزائر إلى حضنها الطبيعي الذي تربطها به الثقافة والتاريخ والمصير المشترك وهو المجموعة العربية"، ولما كان النهوض بالثقافة العربية هو مسؤولية كل الأقطار العربية، ولما كان الطلبة هم الطليعة التي تتحمل "عبء النهوض بالثقافة العربية في المستقبل" وحيث أن " توحيد الحركات الطلابية العربية يخدم قضية الثقافة العربية" فإن المؤتمر الرابع:

- يؤكد على وجوب العمل على الاتصال بجميع الاتحادات الطلابية العربية لعقد مؤتمر عام خلال هذه السنة(1960) من أجل تحقيق وحدة الطلاب العرب.

-مناصرة القضايا العربية ولاسيما الطلابية منها.

- يحي الاتحادات الطلابية العربية الجديدة. (يعني طلاب فلسطين وطلاب الأردن بالخصوص)[1].

إن هذه اللائحة لا تدع المجال مفتوحا أمام الرؤية الحقيقية لاتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين، فقد اختفت منه عبارة "المسلمين" التي أثارت زوبعة إيديولوجية عند إنشاء الاتحاد. لقد أصبح اتحاد طليعة ثورية يريد تغيير المسار إلى ما هو أفضل من أجل خدمة الثقافة والأمة العربية، ولكن الاتحادات العربية كانت تنوء بأحمال من التبعية وليست أبدا حرة في اتخاذ قراراتها وعلاقاتها، فقد كانت الحكومات والأحزاب المحلية هي التي تسيطر على الاتحادات وتوجهها وفق رغباتها السياسية الضيقة.

ومن جهة أخرى بعث الرئيس الجديد للاتحاد مذكرة إلى اتحادات الطلاب في الأقطار التابعة لمنظمة الحلف الأطلسي يدعوهم فيها للقيام بعمل ما لحمل حكوماتهم على التخلي عن دعم "جريمة الحرب" الاستعمارية التي يشاركون

(1) المجاهد، 75، 22 أغسطس، 1960.

فرنسا فيها ضد الشعب الجزائري. ولم تكتف المجاهد بهذا الخبر بل وجهت نص المذكرة(إلى الطلاب العرب) ودعتهم إلى أن يقوموا من جانبهم بما قام به اتحاد طلبة الجزائر من مراسلة اتحادات الطلاب في البلدان المنضوية تحت لواء الحلف الأطلسي[1].

المنح والاتحاد والجبهة

وفي نطاق هذا الاستعداد كانت الجبهة ترسل فعلا بعثات طلابية دراسية وعسكرية إلى مختلف البلدان والجامعات، وليس بالضرورة لتلقي المبادى الشيوعية أو الماركسية. صحيح أن بعض البعثات توجهت في معظمها (عدا البلاد العربية) إلى ما كان يعرف بالدول الاشتراكية، وكانت هذه الدول تقوم "بأدلجة" الطلبة الجزائريين (وبعضهم انسحب من هذه البلدان هروبا من هذه الوجبات الإيديولوجية الدسمة). وقد توجه آخرون إلى دول غربية، ومنها أمريكا، زعيمة العالم الحر عندئذ والتي لا مجال فيها للشيوعية أو الماركسية. ولكن التخويف من هذا البعبع كان قائما في الإعلام الغربي ضد الثورة الجزائرية، من الشارع إلى هيئة الأمم المتحدة والحلف الأطلسي، وهي دعاية مكشوفة سرعان ما سقط عنها القناع وتبين للناس جميعا أن الثورة كانت للتحرر من الاستعمار وليس لإقامة صرح لماركس أو لينين أو لليبرالية المتوحشة.

كانت الجبهة ثم الحكومة المؤقتة تتلقى المنح وهي تعطيها للطلبة ليوزعوها على المستحقين. وأحيانا كانت تقع بين الطرفين مجادلة حول من يستحقها من الطلبة، وكانت هناك خشية من أن تتحول المنح إلى ابتزاز من قبل بعض الدول والمنظمات ويؤدي ذلك إلى فشل مهمة الطلبة العلمية وإلى استعمالهم لأغراض أخرى لا ترضى عنها الثورة. كما أن اتحاد الطلبة (لوجيما) كان يحابي أحيانا أعضاءه المقربين أو أصحاب نفوذ لغوي أو ثقافي معين ضد المصلحة العامة. لذلك حاولت المخابرات الجزائرية والوزارة المعنية السيطرة

---

(1) المجاهد، 10 أكتوبر، 1960.

على الاتحاد ووضعه تحت مراقبتها ابتداء ربما من سنة 1959.

اشتكى السيد شريف ساحلي من سوء تصرف مسؤولي الاتحاد (لوجيما) في تعاملهم مع السويد والبلدان الاسكندنافية عموما، وموقفهم من عادات وتقاليد البلاد ولغتها، وذكر آيت شعلال (رئيس الاتحاد) بالاسم، وكونه طلب منه الاتصال بممثل الأمم المتحدة الذي وعده بمنح، وقبل أن يتلقى الجواب كتب شعلال رسالة تدل على عدم صبره. واستغرب كون المسألة لا تسير على ما يرام. وقال الساحلي إن الاتحاد يعتقد أن لديه (لدى الساحلي) كيسا من المنح لا ينتظر إلا أن يوضع تحت تصرفه. وقد اقترح الساحلي على ممثلي الاتحاد الاتصال بالاتحاد الطلابي السويدي في قضايا المنح[1].

كما أن السيد محمد يعلى ممثل الجبهة في برلين وجد الألمان هناك غير مرتاحين لسلوك الطلبة (لوجيما)، ومع ذلك فإن المنح لم تنقطع عنهم. وقد طلب محمد يعلى من الخارجية الجزائرية التدخل عن طريق البعثة الألمانية في القاهرة، وقامت السلطات الألمانية بمعاقبة الطلبة لضبطهم وذلك في شهر سبتمبر 1959، ومن رأي السلطات الألمانية أن (لوجيما) ليس لها الحق في دعوة الطلبة ولا في الاتصال بأية حكومة[2].

يبدو أن الحساسية بين الخارجية وبين اتحاد الطلبة (لوجيما) ظلت قائمة وتسببت في توترات عديدة. ومن الأمثلة الكثيرة على ذلك، بالإضافة إلى ما ذكرناه، الرسالة التي بعث بها السيد بوقادوم كاتب عام الخارجية الجزائرية إلى وزير الثقافة عن الوفد الطلابي الذي زار أمريكا الجنوبية وقابل المسؤولين هناك

---

(1) الأرشيف الوطني، علبة 21-50، التقرير من صفحتين، تاريخه استكهولم، مايو، 1959. والتقرير موجه إلى الخارجية الجزائرية من الشريف ساحلي ممثل الحكومة لدى الدول الإسكندينافية.

(2) رسالة من الخارجية الجزائرية، القاهرة، 9 يناير 1960 إلى الوزير المكلف بالشؤون الثقافية بطرابلس. الأرشيف الوطني، العلبة 21-50، (ديسمبر 1959-ديسمبر 1960) ورقم المراسلة CAB/454.

(خارج النطاق الجامعي والثقافي)، وصرح هذا الوفد الطلابي تصريحات سياسية خارجة عن مسؤوليته بل هي من صميم عمل الوزارة. وهناك اثنان من الاتحاد معنيان بهذه الزيارة. ومن البلدان المزارة كوبا وفنزويلا... تقول الخارجية للثقافة إنها لا تمانع في قيام الاتحاد بالنشاط السياسي، ولكن بالتنسيق والتعاون مع الخارجية. والغريب في الأمر أن الخارجية اشتكت من أنها لم تعلم عن نشاط الاتحاد (لوجيما) إلا من خلال البعثات الدبلوماسية الأجنبية مما سبب لها حرجا. ونضيف هنا ملاحظة وهي أن ممثل الجزائر في نيويورك قدم لوفد الاتحاد أقصى المساعدات الممكنة أثناء زيارة الوفد "غير المتوقعة" ورحب بهما (عضوي الوفد) أجمل ترحيب. لذلك طلبت الخارجية من الثقافة وقف هذا الموضوع الذي يثير الأسف، واللجوء إلى التنسيق مع الخارجية والحصول على تعاون أفضل من ممثلي الاتحاد[1].

كان الاتحاد يشارك الاتحادات الطلابية العالمية نشاطها في أوروبا وأمريكا. وكانت القضية الجزائرية والدعوة إليها والدفاع عنها والحصول على منح للطلبة الجزائريين وتكوين فروعهم هي في الظاهر، المجالات التي ينشط فيها الاتحاد أو ممثلوه. وكانت هذه الأنشطة تتعارض أو تتقاطع أحيانا مع أنشطة وزارة الخارجية. وقبلها كانت وفود جبهة التحرير التي بقيت هي الأساس بالنسبة للبلدان التي لم تعترف بالحكومة واعترفت بالجبهة. من ذلك حضور وفد الاتحاد (لوجيما) لندوة طلابية عالمية (وهي الندوة التي نظمها اتحاد الطلبة العالمي (غربي أوروبا وأمريكا). وقد انعقدت الندوة في لندن في 17 و 18 أبريل 1958، وهي ندوة فوق العادة من أجل مساندة اتحاد الطلبة الجزائريين والوقوف ضد قرار حله من قبل السلطات الفرنسية..

وقد أصدرت الندوة لائحتين:

(1) بوقادم، 27 يونيو، 1959، والتقرير من صفحتين، الأرشيف الوطني، العلبة 21-50 رقم. CAB / 193 .

الأولى: جاء فيها (1) أن تعليم الشعب الجزائري قد تعطل مما جعل المرء يعتقد أن هناك تمييزا عنصريا تمارسه السلطات الفرنسية. (2) أن اللغة العربية، وهي اللغة الوطنية للشعب الجزائري تعتبرها فرنسا رسميا لغة أجنبية لا تدرس في المدارس العمومية.

أما **اللائحة الثانية** فقد نصت على (1) أن حالة الطلبة الجزائريين قد ازدادت سوءا بعد المؤتمر العالمي السابع للطلبة (2) أن طلبة (لوجيما) قد تعرضوا للقمع والحرمان من أبسط الحريات والحقوق. ويدل على ذلك توقيف محمد خميستي الكاتب العام للاتحاد، وكذلك أحكام الإعدام الصادرة ضد طالب عبد الرحمن وجميلة بوحيرد وجميلة بوعزة.

لذلك استنكرت الندوة الخارقة للعادة قرار حل الاتحاد واعتبرته غير شرعي مع إبداء عطفها على طلبة الجزائر والتضامن معهم. وأكدت على سوء أحوال طلبة الجزائر وطلبت من لجنة حقوق الإنسان ومجلس الأمن الانتباه للقضية. كما أن الندوة طلبت من الاتحادات الوطنية تخصيص منح مالية لمساعدة الطلبة الجزائريين على دراستهم وتأسيس صندوق لإسعاف الطلبة الجزائريين الذين لجأوا إلى تونس والمغرب. وقد تعهدت لجنة التنسيق بين الاتحادات الغربية بنشر كتاب أبيض عن المشروع وإبلاغ السلطات الفرنسية بالقرارات. . .[1].

وفي السنة الموالية توجه وفد من اتحاد الطلبة (لوجيما) إلى أمريكا الشمالية ثم الجنوبية لحضور أنشطة الاتحادات الأخرى والدعاية للقضية الجزائرية. وجاء في رسالة من وزارة الثقافة إلى وزارة الخارجية أن الوفد الشبابي الجزائري كان يتألف من ثلاثة هم: بوديسة الصافي ممثلا لاتحاد العمال ومسعود آيت شعلال رئيس اتحاد الطلبة، ومحفوظ عوفي رئيس فرع لوزان لاتحاد الطلبة. وقد توجه الوفد -بناء على الرسالة- إلى الولايات المتحدة حيث

---

(1) المجاهد، 23، 7 مايو 1958.

ألف وفدا واحدا مع وفد المغرب ووفد تونس، على أن تدوم الزيارة من 15 أكتوبر إلى 5 ديسمبر 1959، وكانت الدعوة قد وجهتها اللجنة الأمريكية الوطنية والمجلس العالمي للشباب. أما الهدف من المشاركة فهو دراسة وضع اتحاد الطلبة (لوجيما) مع الشباب الأمريكي وربط العلاقة معه. وبناء على الرسالة فإن آيت شعلال كان سيتوجه أولا إلى كندا لتمثيل الاتحاد في مؤتمر اتحاد الطلبة الكنديين الذي دعاه للحضور.

وكانت رسالة وزارة الثقافة موقعة من أحمد توفيق المدني وهي باللغة الفرنسية. ومما جاء فيها أيضا أن الخارجية ستجد ضمن الرسالة التعليمات المعطاة إلى السيد آيت شعلال حول جولته (غير أن نص هذه التعليمات مفقود من الأرشيف)[1].

لقد أثمرت جهود اتحاد الطلبة مع الروابط والاتحادات العالمية والوطنية فحصل (لوجيما) على منح دراسية في كل من أمريكا وكندا وغيرهما. فنحن نجد تقريرا من خمس صفحات وضعه واضعه (من الاتحاد نفسه؟) بعد جولة في كندا وأمريكا، ويشير التقرير إلى خطة التوجيهات الصادرة في نوفمبر 1958. ومنها أن السيد محمد سحنون هو المندوب الطلابي عندئذ، وأن هناك صعوبات تتعلق بتوفير شروط القبول في الجامعات بكل من أمريكا وكندا، ومنها استكمال الأوراق، ومكان الميلاد، وتحويل الملفات من الجامعة الأصلية (إذا رفضت الجامعة الأصلية تحويل الملف؟)، وهل تكفي شهادة مدرسية؟ ثم مسألة التذاكر والتكفل بالطلبة اللاجئين ومسألة منح الملابس والكتب وإحضار الفاتورات. وقد طلب صاحب التقرير- فيما يخص أمريكا- ضرورة مراجعة التعليمات الخاصة، ومحاولة التوصل إلى مشروع كامل، ودراسة العلاقة مع مؤسسة (فورد). أما فيما يتعلق بالمنح الأوروبية فاقترح توسيعها لتشمل أوروبا الغربية

(1) الأرشيف الوطني، علبة 21-50، تاريخ الرسالة 11 أكتوبر 1959، لكن ليس لها مكان.

بما فيها البلاد الاسكندنافية، بالإضافة إلى المشكل الصحي والتعويضات. وهو تقرير له أهمية خاصة[1].

يبدو أن الولايات المتحدة بدأت بإعطاء منح للطلبة الجزائريين بطريق غير مباشر منذ 1958. ونعني بذلك أن المنح كانت تسلمها مؤسسة (فورد) أو مؤسسة (روكفلر)، أو اتحاد الطلبة الأمريكي قبل أن تقدمها الحكومة الأمريكية نفسها. ففي برقية أرسلها السيد عبد القادر شندرلي (ممثل جبهة التحرير في نيويورك) إلى السيد بوقادوم (أمين عام الخارجية في القاهرة) أن مؤسسة روكفلر قد عرضت منحتين لجزائريين يتعلمان الإنجليزية ومؤهلين لمواصلة التعليم العالي على غرار ما فعلت مؤسسة فورد. وقد قام بوقادوم بتوجيه البرقية إلى وزير الثقافة بالقاهرة، في 17 سبتمبر 1959 وعليها عبارة (مستعجل) لأن مقابلة المترشحين ستكون إما في مدريد وإما في الرباط. ويبدو أن مؤسسة فورد كانت هي السباقة إلى تقديم المنح الدراسية للجزائريين[2].

وقبل هذا أرسل مندوب الجزائر في نيويورك (شندرلي) إلى الخارجية بالقاهرة أنه بالتعاون مع جمال يعلى ممثل اتحاد الطلبة (لوجيما) في أمريكا استطاعا الحصول على منحتين جديدتين (كذا) من الجمعية الوطنية لطلبة أمريكا (USNSA) تحت غطاء مشروع يسمى (قادة الطلبة الأجانب). وقد حصل على المنحتين المذكورتين كل من عبروس عبد النور وسعيد آيت شعلال (أخو مسعود). وقد تقدم الطالبان المذكوران إلى السيد جمال يعلى مرسولين من الاتحاد (لوجيما). وذكّر شندرلي الخارجية بأن هناك طالبين جزائريين آخرين يدرسان في أمريكا هما: نور الدين جودي الذي كان يدرس الأدب وحسن إدريس الذي كان يقوم بدورة طبية متخصصة في الجزاحة[3].

---

(1) الأرشيف الوطني، العلبة 21-50، بدون تاريخ.
(2) الأرشيف الوطني، علبة، 21-50.
(3) الأرشيف الوطني، علبة 3، الورقة بدون توقيع وفي أعلاها (مكتب نيويورك). أما تاريخها فهو 21 يوليو، 1958.

ولكن قائمة أسماء فرع أمريكا لاتحاد الطلبة (سنة 1958–1959) تثبت وجود عشرة طلاب كانوا أعضاء في الفرع برئاسة محمد سحنون، فيما يبدو، لوجوده على رأس الأعضاء العشرة. وليس من بينهم جودي ولا إدريس المذكوران سابقا.

والملاحظ أن كل فروع الاتحاد وعددها 18، لم يذكر معها إلا رئيسها ما عدا فرع أمريكا، فالرئيس والأعضاء مذكورون وهم: محمد سحنون، عبروس عبد النور، وسعيد آيت شعلال، ولد رويس بشير، ابن عمار محمد، أبركان محمد، فيضي الشريف، بنو عمر رشيد، براح غلام، بستاني رشيد[1].

وبعد أن كانت كندا من أواخر المانحين للطلبة الجزائريين دخلت هي أيضا الميدان وأعلن مسؤول اتحاد طلابها أن الجامعات الكندية ستستقبل الشباب الجزائري للدراسة، بل أعلن أن الاتحاد سيفتتح اكتتابا خلال يناير 1960 لفائدة الطلبة الجزائريين الذين استأنفوا دراستهم في الجامعات الأجنبية (ومنها كندا ؟).

ومن جهة أخرى صرح مسعود آيت شعلال الذي كان قد زار كندا (أنظر سابقا) باعتباره رئيس اتحاد الطلبة (لوجيما) أن عدد الطلبة الجزائريين الذين يقيمون في مختلف الدول الأجنبية ينيف على خمسة آلاف طالب (وهو عدد ضخم لا نجد من تحدث عنه فيما مضى) من بينهم خمسمائة في الجامعات الأوروبية. وأضاف شعلال أنه من الضروري تكاثر عدد الطلبة الجزائريين في الجامعات الأجنبية واستعدادهم لتولي المسؤوليات بعد استقلال الجزائر التي ستكون في حاجة إلى كثير من المدرسين والأطباء والاختصاصيين في جميع المرافق[2].

وما دمنا نتكلم عن المنح فقد وجدنا في وثائق الحكومة المؤقتة أن بولندا

(1) أنظر الأرشيف الوطني علبة 21–50.
(2) المجاهد 59، 11 يناير 1960.

قد رصدت عشر منح للطلبة الجزائريين بناء على رسالة من الخارجية الجزائرية كتبها السيد بوقادوم إلى وزير الثقافة، بالقاهرة في 26 يناير 1959[1].

في رسالة بعث بها من القاهرة عبد السلام بلعيد عن وزارة الثقافة إلى الخارجية بتاريخ 14 يناير 1960، أخبار عن وضع الطلبة في يوغسلافيا، والممنوحين الجدد، وعن بعثة السيد يعلى إلى يوغسلافيا وتأخر وصول المنح، وتدخل يعلي بصفته ممثل الخارجية لدى اللجنة الثقافية اليوغسلافية، وعن نقل ملفات الطلبة المعنيين(وعددهم عشرة) من القاهرة إلى يوغسلافيا. وفي سوريا منحت الجبهة مكتبها 500 ليرة لكل طالب لإنشاء مكتبة لمقررات الطلبة في الجامعة، وعددهم 18 طالبا. وقد كان للجبهة مكتبة خاصة بها في القاهرة[2].

دور الاتحاد في الخارج

قام الاتحاد على المستوى الداخلي والخارجي بدور فعال. وإذا كنا قد ركزنا حتى الآن على دوره الداخلي وصراعه مع السلطات الفرنسية في فرنسا والجزائر، فلنتحدث قليلا عن دوره الخارجي أيضا. إن مؤتمر باندونج قد جعل من يوم 21 فبراير من كل عام يوم الكفاح الطلابي، فكان الاتحاد يشارك في هذه الذكرى بالمظاهرات والاحتجاجات والاجتماعات في الجامعات، وخاصة في باريس. وقد قابلت الحكومة الفرنسية هذا النشاط بالقمع متهمة أعضاء الاتحاد بأنهم يعملون على إحياء منظمة منحلة، وأنهم يشتغلون بالسياسة والنشاط

---

(1) انظر الأرشيف الوطني، 1.1.21 علبة 21–50، نشير هنا إلى طلب السيد الهاشمي الطود المناضل المغربي، منحة له ولزوجته في أمريكا اللاتينية حيث يمكنه أن يخدم القضية الجزائرية. عبر عن هذا الرأي السيد بوقادوم في رسالة بتاريخ 9 سبتمبر، 1959 إلى وزير الثقافة، من القاهرة، CAB/399 ، العلبة 21–50، الملف 21.1.1 والملاحظ أن هناك حديثا في هذا المصدر عن السيد الطود وأمثاله ممن يشك في أنهم يمارسون الجوسسة على الجبهة. ولم نتتبع المسألة، فلم نعرف هل حصل السيد الطود فعلا على المنحة.

(2) انظر الأرشيف الوطني 21–50

الهدام، وواجهتهم بالاعتقال والتعذيب، وهناك قائمة بأسماء الطلبة الذين اعتقلوا في فرنسا والجزائر بين ديسمبر 1958 ويناير 1959 مع ذكر الجامعات التي ينتمون إليها، وهم حوالي 25 طالبا وطالبة، وكلهم من الجامعات الفرنسية، أما جامعة الجزائر فغير مذكورة في هذه السنة[1].

وقد نجح اتحاد الطلبة في توصيل صوت الطالب وصوت الثورة إلى المحافل الدولية، وذلك بالوقوف على الحياد بين المنظمتين الدوليتين الكبيرتين، كما سبق. ظهر ذلك في مؤتمر البيرو، فبراير 1959، بفضل التعاون مع اتحادات المغرب العربي بحيث اتبعت الاتحادات الثلاثة خطة الحياد بين (المنظمة العالمية الغربية) و(المنظمة العالمية الشيوعية)، وكان ذلك انتصارا في نظر جريدة المجاهد أحرزه طلبة المغرب العربي، فقد أصدر المؤتمرون لائحة "جريئة" تخص القضية الجزائرية رغم انتماء المؤتمرين إلى الاتحادات الغربية (بريطانيا، أمريكا، أستراليا، هولندا...). وإليك بنود هذه اللائحة: وصف سوء أحوال الطلبة الجزائريين باعتبارهم مشردين ولاجئين، وسوء حالة التعليم الابتدائي والعالي في الجزائر. وأضافت اللائحة: لقد أصبح من المتعذر مواصلة الدراسة على الطلبة في الجامعات الفرنسية نظرا للقمع الذي يتعرضون له، مع التنديد بحل الاتحاد. وقد استنكر المؤتمر سياسة "الإدماج" لوجود ثقافة وطنية متطابقة مع تراث الجزائر وتقاليدها[2].

مذكرة الاتحاد إلى هيئة الأمم

وتعتبر مذكرة اتحاد الطلبة (لوجيما) إلى هيئة الأمم المتحدة بمناسبة عرض قضية الجزائر، حول اضطهاد الثقافة في الجزائر إدانة قوية للاستعمار، فهي تروي ما يلي:

---

(1) المجاهد، 37، 25 فبراير، 1959.
(2) المجاهد، 38، 17 مارس 1959.

- أن الاستعمار عمل على نشر مبادى ثقافية مفروضة وإدخال قيم أجنبية على الشعب الجزائري بعد تجريده من حضارته الأساسية. والملاحظ أن المذكرة لا تذكر ما هذه الحضارة الأساسية التي جردت فرنسا منها الجزائر.
- صارت لغة الجزائر الوطنية (لاحظ أن المذكرة لم تسمها أيضاً) التي هي المعبر الوحيد للجزائري عن فكرته والتي هي الوعاء لحضارته، لغة أجنبية، وأصبح تعليمها محصورا في نطاق ضيق جدا، وهو تصرف يرمي إلى محو الشخصية الجزائرية.
- أن الجزائر جزء من المغرب (يعني المغرب العربي) وبذلك نمت في مهد الحضارة الإسلامية واحتضنت جانبا من أزهى جوانب هذه الحضارة.
- أن فرنسا عند احتلالها للجزائر لم تجد شعبا أميا لا ماضي له، بل إنها اصطدمت بشعب له حضارته العريقة، وله ماض تاريخي وقيم وطنية.
- أسفرت حروب الاحتلال على هدم المدارس والجامعات وخلو المراكز الثقافية من رجال العلم والأدب. وقد اغتصبت الحكومة الفرنسية الأوقاف التي كانت في خدمة الثقافة والعبادة.
- كان التعليم الفرنسي للجزائريين متطابقا مع التعليم في فرنسا، ليس له خصوصية بالجزائر لأنه كان يهدف إلى إدماج الجزائريين، ثم إنه كان وقفا على الفرنسيين، أما الجزائريون الذين استفادوا منه فهم قلة. وإليكم إحصاءات رسمية صادرة سنة 1953.

التعليم الابتدائي:

- جميع أبناء السكان الأوروبيين متمدرسون وعددهم 135000.
- أطفال المسلمين الذين في سن التعليم عددهم 196900، ولكن عدد الذين يزاولون التعليم منهم لا يتجاوز 26600، وبذلك تكون نسبة الباقين في حالة أمية 86،5 ٪.

التعليم الثانوي:

- للأوروبيين 24000 طالب ثانوي، وللمسلمين 4156 طالب ثانوي فقط.

التعليم العالي:

- للأوروبيين في جامعة الجزائر: 5132 طالبا، وللمسلمين في نفس الجامعة: 507 طلاب فقط.

فنسبة الأمية في الجزائر 80 ٪.

التعليم العربي:

أما التعليم العربي فيقوم على جهود خاصة سيما منذ 1930، رغم اضطهاد المعلمين وإغلاق المدارس. . .(المقصود التعليم العربي الحر الذي تشرف عليه جمعية العلماء)[1].

(1) المصدر: جريدة المقاومة الجزائرية 9، 18 مارس، 1957، ولكن نسبة الأمية في الشعب كله أعلى مما ذكر هنا.

الفصل السادس

المسرح والموسيقى والغناء

وصلنا في كتابنا تاريخ الجزائر الثقافي فيما يتعلق بالمسرح والفنون إلى مشارف عهد الثورة، ولكننا لم ندرسه. وها نحن اليوم نريد مواصلة المسيرة بدراسة ذلك العهد وتتبع تطورات ما حدث خلال الثورة فنعثر على إنتاج مهم، سيما بعد أن دعمت الثورة نفسها هذا الإنتاج بإنشاء الفرقة المسرحية وصعود ممثلين ارتبطوا بالفكر الثوري وظهور مسرحيات جديدة تتبنى قضية الجزائر على المستوى الوطني والعربي والعالمي. وقد حدث مثل ذلك في الموسيقى والسينما والتصوير والخطاطة...

ولكن هناك جوانب لم نجد عنها معلومات جديدة هامة كالمكتبات والمتاحف. فقد ظلت المكتبة الوطنية والمكتبة الجامعية والمكتبات الولائية والبلدية تنمو وتضاف إليها الفهارس والكاتلوغات والدوريات ونحوها، ولكننا لم نعثر على دراسات أو رصد لهذه المؤسسات والأعمال، خلافا للعهد السابق للثورة. ويبدو أن تأثير الأحداث على المسؤولين الفرنسيين، ولا سيما المثقفون قد جعلهم يغادرون الجزائر بطريقة ارتجالية تاركين أوراقهم وتقاريرهم وراءهم بدون حماية ولا نظام أو أنهم أخذوها معهم فظلت بدون متابعة. كما أن إرهاب المنظمة السرية ضد المؤسسات التعليمية والعلمية وضد المثقفين ترك جانب المكتبات والمتاحف وغيرها في حالة فوضى وربما في حالة بؤس واندثار.

ومع ذلك فقد أقمنا هذا الفصل على قواعد سابقه، كما قلنا، من خلال

الإنتاج المتوفر من مصادره كما عرضنا حياة أصحاب الفنون المدروسة، وقدرنا جهدهم لأنهم أنتجوا في ظرف صعب للغاية، مما أدى بعدد منهم إلى التشرد والعيش في حالة خوف، وهي ظروف غير ملائمة للأعمال الفنية بطبيعتها.

المسرح عشية الثورة

بالنسبة للمسرح هناك روايات عديدة مثلت عشية الثورة، وكان المسرح نشطا بممثلين لهم تجربة ترجع إلى بداية العشرينات من القرن الماضي.

تعرضنا في مكان آخر لتاريخ المسرح في الجزائر وكونه يرجع إلى العشرينات من القرن الماضي، وزيارة فرقة جورج أبيض المصرية سنة 1921، كما تعرضنا إلى مشكلة اللغة (هل هي الفصحى أو العامية، وهي على كل حال مشكلة ليست خاصة بالجزائر إذ تناولها كتاب معروفون مثل ميخائيل نعيمة وأحمد حسن الزيات، ومجاراة الجمهور في رغبته أو الارتفاع بذوقه، والمواضيع: هل تكون تاريخية أو اجتماعية أو للتسلية، ثم محاولات علالو ودحمون ورشيد القسنطيني وباش تارزي. وهل مهمة الممثل تنتهي عند إرضاء الجمهور وإضحاكه أو تبليغ رسالة له. وكيف سيطر القسنطيني على المسرح حتى اعتقد الناس أن وجود المسرح مرهون به. وقد بقي تأثيره إلى أوائل الخمسينات. كما ظهرت مشكلة التأليف المسرحي وغياب النصوص وجهل الممثلين وعدم أهليتهم لأداء دور المبلغ المثقف، وعقيدة الناس في أن الممثل ما هو إلا إنسان ساقط اجتماعيا وأخلاقيا، وغياب المرأة في المراحل الأولى من تطور المسرح[1].

وقد عرفنا أيضا من ثقافة هذا العصر أن اللذين قاما بدراسة تاريخ المسرح الجزائري بالفرنسية هما الأخوان سعد الدين ورشيد بن شنب. وأخبرنا أحد كتاب المنار أن عثمان الكعاك قد ترجم بحث سعد الدين بن شنب عن المسرح

---

(1) ارجع إلى كتابنا التاريخ الثقافي، والمنار 10، 22 أكتوبر، 1951.

الجزائري إلى العربية ونشره في حلقات في مجلة (الثريا) التونسية. ويرى الكاتب أن التدخل السياسي قد منع المسرح من التطور وأن الاستبداد، كما قال، هو الذي أبقى المسرح في دائرة دار المهابل، وتاج العروسة، وفاطمة المقرونة، وأمثالها. وهي روايات في نظره لا تقدم شيئا مفيدا للمجتمع. وأرجع هذا الكاتب عدم تطور المسرح أيضا إلى عدم تطوير لغة الأداء، ورأى أنه إذا كان لا يمكن تقديم المسرحيات باللغة الفصحى فعلى الأقل بلغة تقرب منها، وأخبرنا أن يوسف وهبي قد حبذ هذا المنحى. ومع ذلك تبقى مشكلة التأليف المسرحي لأنه لا أحد قدم مسرحيةِ في مستوى عالمي باستثناء (المولد) لعبد الرحمن الجيلالي، (وبلال) لمحمد العيد آل خليفة، و(حنبعل) لأحمد توفيق المدني. وأخبرنا هذا الكاتب أيضا أن رواية المولد قد مثلت في أهم الإذاعات العربية في العالم بما فيها إذاعات لندن ونيويورك وباكستان ومصر... وإذا عجزنا عن التأليف فعلينا أن نعرب الإنتاج الأجنبي رغم أن هذا المنحى قد يضعف دور المسرح عندنا[1].

إن عدم وجود النصوص هو الذي جعل أهل المسرح يلجأون إلى وسائل أخرى مثل الاقتباس أو الترجمة أو الرجوع إلى التراث. فهذه رواية (عائشة القادرة) اقتبسها عبد الرزاق كرباكة التونسي من ألف ليلة وليلة. وخلاصتها أن فتاة يتيمة خدعها الخادعون واغتصبوا منها تركتها من العقار والمتاع فقررت الانتقام من المجتمع، وخصوصا الرجال، حتى أصبحوا لها طائعين كالخاتم في الإصبع. مثلت دور البطولة فيها شافية رشدي ومعها الموسيقي صالح المهدي ومعهما كوكبة من الفنانين جاءوا ضمن الفرقة التونسية إلى الجزائر.

ويبدو أن هذه الفرقة التونسية كانت تتردد على الجزائر حتى أن أحد كتاب المنار تمنى أن تعمم التجربة ويصبح هناك تبادل للفرق الفنية بين البلدين[2].

(1) المنار 11، 8 ديسمبر، 1951.
(2) المنار 1، 11 أبريل 1952.

كما اقتبست رواية (ولد الليل) من ألف ليلة وليلة أيضا. ولا ندري ما رسالتها السياسية والاجتماعية. فهي تمثل ملكا جائرا عاث فسادا في رعيته لكن ابنه انقلب عليه وخلص الناس من شره. وقد انتقد بعض النقاد طريقة التمثيل لأن الملك الجائر لا يظهر إلا في الفصل الأخير، أما قبل ذلك فالناس كانوا غاضبين عليه وكانوا يتحدثون عن ظلمه ولكنهم لا يرونه شخصيا. وفي الرواية موسيقى وطرب. وهي من اقتباس محيي الدين باش تارزي، كما أنها خليط من المأساة والملهاة والدراما[1].

أما مسرحية (عائشة بوزبايل) فقد قيل إنها من صميم الأدب الخيالي الجزائري، وليس لها أصل في التاريخ ولا مؤلف. وموضوعها هو محاولة هروب عائشة وزوجها من سجن الملك وانتباه الحراس لهما، ثم إنعام الملك عليهما بالعفو مما أدخل السرور عليهما. ويبدو أنها مسرحية ملهاة أثارت كثيرا من الضحك والتسلية على يد محمد التوري وكلثوم وحبيب رضا. وقد نصح الناقد بعدم اللجوء إلى التقليد الأعمى للموسيقى المصرية وتمنى أن يبدع الجزائريون موسيقى خاصة بهم[2].

قدم المسرح أيضا مسرحيتين أخريين الأولى بعنوان (منيب) المترجمة عن الفرنسية. ولم تقدم جديدا حسب بعض النقاد. أما المسرحية التي جاءت بالجديد فهي (كيد النساء) التي أبدع باش تارزي في تأليفها وجعلها تتلاءم مع الذوق الجزائري ووصف فيها أخلاق النساء اللائي يخربن البيوت كما أخرجن آدم من الجنة. والشخصيات التي مثلت الرواية جديدة أيضا بمن فيهم المرأة التي كادت للرجال وأتقنت دورها، وهي نورية. ومن رأي هذا الناقد أن المسرحية جعلت المسرح الجزائري يقفز من طور الصبا إلى طور الشباب والفتوة[3].

---

(1) من مقال كتبه ابن البشير، المنار 2، 25 أبريل 1952.

(2) لمنار 3، 9 مايو 1952.

(3) لمنار 12، 28 نوفمبر 1952.

وهناك رواية تمثل حالة اجتماعية متداولة وهي صراع تقليد الأجانب (الفرنسيين) أو التمسك بالتقاليد الاجتماعية الإسلامية. فالبطل هنا ابن باشاغا كان متزوجا من امرأة مسلمة من بيئته، ثم وقع في شرك امرأة إفرنجية مستهترة غيرت مجرى حياته، ودخل في الانتخابات والسياسة، ولكنه في نهاية المطاف طلق هذه المرأة وهرب إلى زوجته الأولى التي بقيت محافظة على تعاليم الإسلام. وقد اعتبرت الرواية من أفضل ما أنتجته القريحة الجزائرية عندئذ، رغم أننا لا نعرف مؤلفها. ولا شك أن كون الموضوع اجتماعيا/ سياسيا هو الذي أعطاها هذه الأهمية، فهو يتعرض للعلاقة بين المعمرين والمتعاملين الجزائريين معهم[1].

في فاتح سنة 1953 مثلت على خشبة المسرح رواية (تحيا الأخوة) من تأليف الشيخ بودية مرسلي الذي قال عنه أحد النقاد إنه لم يدرس الأدب المسرحي، رغم أنه سبق له التأليف فيه. ومن رواياته (أجبدْ يماهمْ)، وهي رواية فاشلة حسب بعض النقاد. أما رواية تحيا الأخوة فقد مثلها باش تارزي ومحمد التوري. ويبدو أنها تعرضت إلى أشخاص بأعيانهم وربما كانت أنجح من أختها[2].

وتأتي بعد ذلك رواية سوفكليس (أنتيقون)، وهي الرواية التي ترجمها طه حسين عن الأدب اليوناني القديم. ومن تعاليق النقاد عليها أن الرواية مليئة بالعواطف والمشاعر المتصارعة والجياشة لشخصيات ذات وزن، ومن الصعب على العامية أن تعبر عن هذه العواطف التي تعتمل في شخصيات الرواية مما يدل ربما على أن الممثلين قد أدوها بالعامية وليس بالفصحى. وقد مثلتها كوكبة من الممثلين والممثلات[3].

ومن الروايات التي لفتت الأنظار رواية (الآغا مزغيش)، وقد قيل إن

---

(1) المنار 14، 26 ديسمبر 1952.

(2) المنار 18، 27 فبراير 1953.

(3) لمنار 27 فبراير1953.

موضوعها غير جديد لأن أناتول فرانس قد عالجه من قبل. ومن ثمة يكون موضوعها مقتبسا. وعلى كل حال فإن بطلها قد مثله حسن الحسني . فالبطل قد اتهم بإهانة مارشال فأدخلوه السجن وحين خرج من السجن هتف يحيا المارشال فأعادوه إلى السجن. فاحتار البطل في أمره: هل يمدح المرشال أو يذمه[1].

ولم تكن المسرحيات كلها اجتماعية أو للتسلية بل كان منها ما هو احتفالي بالمناسبات الدينية والتاريخية. فبمناسبة المولد النبوي الشريف أقام باش تارزي حفلة، مثلت أثناءها رواية بطل قريش لمحمد الطاهر فضلاء. وبعد التمثيل أقيمت حفلة طرب بالمدائح الدينية شارك فيها منشدون أمثال عبد الرحمن عزيز وعلي معاشي[2].

من الروايات التي لفتت انتباه النقاد وأثارت كتابات في الصحافة رواية (الصحراء). وهي رواية تمثل كفاح ليبيا ضد إيطاليا. وقد قام فيها محمد الطاهر فضلاء بالدور الرئيسي وامتدح على أدائه الجيد. وقد سبق له أن مثل رواية أخرى بنجاح وهي (ليلى بنت الكرامة) ورواية (بطل قريش) التي تحمل رسائل للشعب عن تراثه وانتمائه. كما سبق له أن مثل المولد للجيلالي. ويبدو أن رواية الصحراء قد مثلها يوسف وهبي من قبل.

وما يلفت النظر بهذه المناسبة هو ما أثاره تمثيل الرواية مجددا من حديث حول الأداء بالفصحى أو بالعامية. فرواية الصحراء مثلت بالفصحى، ومع ذلك تجاوب معها الجمهور وصفق لها في الأماكن التي تستحق التصفيق. وأرجع أنصار الفصحى الدعوة إلى العامية إلى العجز عن التأليف بالفصحى وعدم التدرب عليها عند القيام بالتمثيل. ومن الذين انتقدوا تمثيلها بالفصحى مصطفى غريبي في جريدة (ليكو دالجي) فقد قال إن العامية تجعل فائدتها أكثر[3].

(1) المنار 1، 9 يناير 1953.
(2) المنار 15 يناير 1953.
(3) المنار 16، 23 يناير 1953.

ويبدو أن العناية بالتمثيل والمسرح بلغ درجة متقدمة من الاهتمام عشية الثورة. فبالإضافة إلى التمثيل ظهرت جمعيات وفرق في العاصمة وغيرها مثل قسنطينة. كما أعلن عن بعض المسابقات لتشجيع المواهب في هذا الميدان. من ذلك فرقة هواة المسرح التي أنشأها محمد الطاهر فضلاء بالعاصمة والتي كان هدفها هو الارتقاء بالتمثيل العربي لكي يؤدي رسالته على خير وجه. وقد أعلنت فرقة الهواة أن بداية موسمها سيكون نهاية ديسمبر 1953 بسينما الجمال وأنها ستفتتحه بتمثيل مسرحية (بيومي أفندي) ليوسف وهبي. كما أعلنت لجنة تسمى لجنة تنظيم مسابقة الجائزة المسرحية بشمال إفريقيا لمن يؤلف مسرحية بالعربية أو بالفرنسية في موضوع يتصل بشمال إفريقيا. ولكننا لم نطلع على شروط المسابقة ولا على من تقدم لها بعد ذلك(1).

ولا ندري إلى أي مدى كان هناك تعاون بين المسرح الجزائري والمسرح الفرنسي فيما يتعلق بالتمثيل والاقتباس والترجمة والقيام بجولات داخل الجزائر أو خارجها. فالمسرح الجزائري لا يملك مكانا خاصا به، وهو يعتمد في نشاطه على تسهيلات المسرح الفرنسي(الأوبرا في العاصمة والمسارح الجهوية في قسنطينة ووهران وعنابة...).وقد وجدنا من يكتب عن المسرح الفرنسي على أنه هو الجزائري عندما تحدث أحدهم (مصطفى غريبي) عن أول مهرجان جزائري للمسرح(2).

وبالإضافة إلى المسرحيات التي أتينا على ذكرها عرضت في الجزائر المسرحيات التالية التي ظهر بعضها على شاشة التلفزيون أو مثلت على الأثير في الإذاعة الفرنسية: منها تمثيلية إذاعية بعنوان(الأمير السعيد)، وهي قطعة فكاهية كتبها فؤاد سليم. ثم مسرحية القديس أوغسطين ومسرحية غوستاف فلوبير، وكلاهما مثلت في الإذاعة. ولمحمد الطاهر فضلاء وغيره مسرحيات عديدة

---

(1) المنار51، أول يناير 1954.

(2) هنا الجزائر، 26، يوليو 1954، أنظر لاحقا.

مثلت في الإذاعة. أضف إلى ذلك ما كان يقدمه مسرح الهواة في مستغانم ومسرح سيدي بلعباس من مسرحيات[1].

المسرح أثناء الثورة: باش تارزي

خص أبو العيد دودو مسيرة المسرح الجزائري بدراسة منذ الأربعينات فقال: ظل المسرح بيد رشيد القسنطيني، ثم محي الدين باش تارزي الذي نهض بالمسرح الاجتماعي والذي بقي مديرا للمسرح حوالي عشر سنوات، وقدم خلالها مسرحيات عربية وأوروبية مترجمة، وطور المسرح الشعبي، ثم اختفت جهوده سنة 1956 في ظروف غامضة. وخلال الثورة أنشئت فرقة مسرحية قادها مصطفى كاتب ساهمت في التعريف بالقضية الوطنية في البلدان العربية[2].

حقيقة أن محي الدين باش تارزي التزم بالمسرح الاجتماعي وطوره وأخضعه لمقاييس شعبية في لغته وموضوعاته، ولكن مصطفى كاتب خدم المسرح أيضا ولكنه انضم إلى جبهة التحرير في تونس وساهم في تطوير المسرح بجعله يهتم بالقضية الوطنية، أي "بأدلجته" وإدخاله عالم الفكر والعقيدة السياسية، فأصبح مسرحا ملتزما بلغة الاشتراكيين والتقدميين في ذلك الوقت. ومع ذلك يجب الاعتراف بأن باش تارزي قد لعب دورا كبيرا في تطوير المسرح تمثيلا وإدارة وتأليفا وترجمة وتخطيطا كما كشفت، عن ذلك مذكراته وبعض المصادر الأخرى[3].

ويبدو أن باش تارزي كان محترما بين زملائه في المسرح لماضيه في خدمة المسرح منذ العشرينات من القرن الماضي ولكفاءته الفنية والثقافي. وها هو الآن يضع برنامجا لتطوير وتنشيط المسرح بالتعاون الداخلي مع الإدارة الفرنسية والتعاقد الخارجي مع البلاد العربية وخصوصا مصر، وكانت له رؤية

---

(1) انظر مثلا هنا الجزائر، عدد 33.

(2) مجلة القبس 5، مارس 1969، ص 96.

(3) مذكرات محي الدين باش تارزي (بالفرنسية)، الجزائر، 1984، في جزئين. . . .

بعيدة في جعل المسرح يخدم أهدافا اجتماعية وأخلاقية معينة.

عند افتتاح موسم 1954-1955 عقد باش تارزي ندوة صحفية ألقى فيها خطبة بالفرنسية لخص فيها خططه وأهدافه. وقد دأب على ذلك في كل سنة منذ أن تولى إدارة المسرح. ففي السنة المذكورة عرض زميله عثمان بوقطاية أفكاره التي وردت في خطابه الأخير فقال إن باش تارزي مدير الأوبرا (المسرح) بالجزائر ووهران وقسنطينة وعنابة وإنه التقى مندوبي الصحف والإذاعة ورجال الفكر والقلم والمنظمات المعنية. وكان من بين الحاضرين أيضا مندوب شيخ بلدية الجزائر ومدير إدارة الفنون الجميلة. كما لبى الدعوة بعض الممثلين والممثلات. كان خطاب باش تارزي طويلا تحدث فيه عن ماضي المسرح الجزائري والأطوار التي عرفها وكيف تغلب على العراقيل التي اعترضته، وقال إن الصحافة التونسية والمغربية والمصرية تكتب عن المسرح الجزائري وعن الفن الجزائري وتتحدث عنه المجالس والمنتديات. ونوه بالإعانات التي تلقاها المسرح من "الإدارات المسؤولة" الفرنسية وقال بفضلها سيتمكن من التغلب على الصعوبات ويبلغ بالمسرح المكانة المرموقة. وذكر أسماء المطربات والمطربين الذين سيزورون الجزائر خلال الموسم، وهم من مختلف الأقطار العربية[1].

وقد كشف باش تارزي لسامعيه عن عدد الروايات المتنوعة التي سيمثلها المسرح خلال الموسم. كما أخبرهم عن التعاقد الذي حصل بينه وبين أفراد وفرق من تونس والمشرق لزيارة الجزائر، ومنهم يوسف وهبي وبعض أعضاء فرقته[2].

---

(1) فمن تونس محمد الجاموسي، وعلي الرياحي، والكحلاوي، وفتحية خيري، وشافية رشدي، وحسيبة رشدي، ومن المغرب آقومي، ومن الجزائر الحسناوي، وسليمان عازم، والفتاة وردة، واحمد وهبي...

(2) كان يوسف وهبي قد زار الجزائر في نفس السنة 1954 ولقي نجاحا كبيرا. أنظر سابقا.

وأضاف باش تارزي أنه تعاقد أيضا مع مجموعة من أعلام الفكاهة والفن المصري لزيارة الجزائر، منهم الراقصات والمضحكون والمضحكات... ثم قدم نصائح للمثلين على خشبة المسرح وحثهم على العمل والجد.

وعد باش تارزي بتمثيل عدة روايات خلال الموسم، كلها ذات موضوع اجتماعي، وبعضها مترجم إلى العربية. منها دون جوان لموليير، وهارون الرشيد والبرامكة، وبنات الهوى ليوسف وهبي، وغادة الكاميليا للإسكندر دوما، وكيد النساء، ودولة النساء لمصطفى كشكول، ويوم الحساب لعامر التونسي، وورش علي، ومدرسة النساء لموليير، وليلة خير من الف ليلة وليلة لصالح الزواوي، وصالح باي لحسن دردور، وفاطمة البدوية لمحمد الجاموسي. هذه كلها روايات تعرض لأول مرة حسبما كتب بوقطاية الذي لخص وعود باش تارزي. أما الروايات التي سيعاد تمثيلها لإعجاب الناس بها فمنها البنت الوحشية، وولد الليل، وبوقرنونة، واللصوص الثلاثة، وأذان الفجر، والمولد... (ربما هي المولد النبوي للجيلالي).

وقد افتتح الموسم المسرحي برواية دون جوان لموليير، واختار لها المعرب عنوانا ملفتا هو (الكافر بأمر الله)، فكانت محل إعجاب الجمهور[1].

وإذا تأملنا في تاريخ افتتاح الموسم المسرحي فسنعرف أنه أيضا هو تاريخ افتتاح الثورة، ولكن الثورة ظلت غير مؤثرة على مستوى العاصمة إلى سنة 1956 حين تغيرت الأمور وشملت الأحداث مختلف جهات ومدن الوطن، ولذلك قال أبو العيد دودو إن باش تارزي قد اختفت جهوده سنة 1956 بطريقة غامضة، فهل غادر الجزائر؟ وعلى كل حال فنحن لا نعرف كيف انتهى موسم 1954-1955. أما الموسم التالي فهو الذي يبدو قد تأثر بالأحداث. فلم تبق العاصمة والمدن الأخرى على هدوئها، ولم يبق الممثلون في أماكنهم، كما أن

---

(1) هنا الجزائر، 29 نوفمبر، 1954. في نفس العدد مقالة هامة بالفرنسية لسفير البودالي عن المسرح العربي.

الفرق والأفراد الزائرين للجزائر قد انقطعت بهم السبل أو لم يغادروا بلدانهم أصلا.

حقا إن الموسم 1955-1956 قد بدأ بدايات مشجعة، فقد تعين باش تارزي من جديد مديرا للمسرح للمرة التاسعة، وكذلك مديرا لفرقة المسرح العربي الجزائري. وعقد أيضا مؤتمرا صحفيا شرح فيه برنامجه الفني للسنة الجديدة. وعلى إثر عودته من رحلة قادته إلى تونس ومصر، كانت له فرصة التعاقد والتعاهد مع الفنانين والفرق المسرحية لزيارة الجزائر. ولذلك جاء بحزمة من الوعود إلى مؤتمره الصحفي ليبرهن على نجاح سفرته وعلى النشاط الذي تحمله الأيام إلى المسرح وأهله. وقد ذكر أنه في مصر تعاقد مع ثلاث فرق هي فرقة يوسف وهبي وفرقة نجيب الريحاني وفرقة فاضل شوا. وتأسف على أن الظروف الراهنة لم تساعد الفرق المذكورة على زيارة الجزائر وتقديم عروضها فيها، وهو يشير بذلك إلى تطور أحداث الثورة مما أدى إلى تأخير افتتاح الموسم المسرحي إلى 25 أكتوبر 1955، ولكن الوضع قد ازداد توترا بالنسبة لسكان المدن، فإذا كانوا ينتظرون الهدوء، فإن ذلك كان أضغاث أحلام. ومن ثمة اضطرب برنامج الموسم الثقافي، ومنه المسرح.

وعلى كل حال فلندع الآن باش تارزي يقدم نشاطه الموعود في الموسم الجديد رغم أسفه. فقد وعد سامعيه بأن فرقته ستحاول إرضاء جميع الأذواق على الرغم من عدم وصول الفرق الزائرة. وشكر رجال بلدية الجزائر على حضورهم وعلى الدعم الذي قدموه لفرقته ماديا وأدبيا، وأصر على أنه تعاقد مع نفس الفرق التي تعاقد معها في الموسم الماضي. ثم وزع الأدوار على أعوانه فقال إن رئاسة الجوق الموسيقي ستبقى في يد مصطفى اسكندراني وإن قدور الصرارفي (من تونس) سيكون سندا أيضا لزميله اسكندراني في قيادة الجوق الموسيقي. ووعدهم بأنه سيوجه المسرح وجهة جديدة فيكون الاهتمام بالدراما والميلودراما أكثر من الاهتمام بالمسرحيات الفكاهية وحفلات الرقص والاستعراض. وربما نلاحظ أن هذا التغيير في التركيز على الدراما ونحوها

ينسجم مع جدية الوضع الجديد.

أما الروايات التي وعد بتمثيلها فهي مغتصب التاج، وسيدي المقدم، والطلاق، وجميعها من تأليف جزائريين. وستمثل بعض الروايات بالفصحى أيضا مثل سر الحاكم بأمر الله، والحجاج بن يوسف، وسر شهرزاد، وهي روايات تاريخية عربية ذات نكهة أدبية من تأليف كتاب من المشرق، ويشترك في تمثيلها محمد الطاهر فضلاء الذي تخصص في التمثيل بالفصحى والذي أضاف إلى خبرته القديمة في المسرح خبرة جديدة بعد زيارته الأخيرة إلى المشرق العربي. وبالإضافة إلى ذلك هناك روايات جديدة من نوع الأوبريت، منها رواية علي بابا والأربعون لصا، وليلة خير المقتبسة من ألف ليلة وليلة، والأميرة الأندلسية. كما أن هناك روايات سيعاد تمثيلها لأن الجمهور استحسنها في الموسم السابق.

والملاحظ أن عبد الرحمن كيوان (عضو حركة الانتصار) نائب شيخ البلدية، كان من الحاضرين، وهو الذي نوه باسم البلدية بجهود باش تارزي في خدمة المسرح العربي الجزائري، على إثر انتهاء باش تارزي من إلقاء كلمته في المؤتمر الصحفي. وللإشارة نقول إن شيخ البلدية المنوه به هو (جاك شوفالييه) السياسي الفرنسي الليبيرالي الذي تقرب من الساسة الجزائريين، ومنهم منتخبو حزب الشعب. ومما يذكر بهذا الصدد أن السيد كيوان لم يلبث أن غادر الجزائر وانضم إلى الوفد الجزائري (جبهة التحرير) في الخارج. وقد التقينا به وتحادثنا معه عدة مرات في مكتب المغرب العربي بالقاهرة[1].

كانت زيارة باش تارزي الأخيرة إلى المشرق في شهر فبراير 1955. وقد أشرنا إلى أنه لم يكتب عن رحلته إلى المشرق بنفسه وإنما ساق رحلته في كلمته التي لخصها عثمان بوقطاية. فقال هذا إن باش تارزي له أكثر من ثلاثين سنة في خدمة المسرح الجزائري، وإنه بدأ رحلته بتونس وانتهى بمصر وسوريا

(1) هنا الجزائر 40، نوفمبر 1955.

ولبنان. وإنه تعرف على الأوساط الفنية والتقى بالمطربين والمطربات وأخذ معهم الصور، كما التقى بالمخرجين والممثلين. كما حضر حفلات عديدة وشاهد مسرحيات وأفلاما، وعقد مع أشهر الفرق اتفاقات. وهذه العقود كانت فيما يبدو الهدف من الرحلة، بل حدد معهم تواريخ وجداول، واختار الروايات التي شاهدها في مصر لتمثل في الجزائر أيضا. وبذلك يكون قد قام بخدمة جليلة للمسرح الجزائري[1].

مجلة مصرية تكتب عن المسرح الجزائري.

وبمناسبة زيارة باش تارزي لمصر كتبت (مجلة الفن المصرية) عنه وأسمته (والد المسرح الجزائري). وقد تحدثت عن موهبته الفنية ونشاطه وحبه للفن والمسرح، وقارنت بين ما يقدمه المسرح الجزائري والمسرح المصري من روايات لجمهورهما. والمعلومات التي ساقتها المجلة ربما تكون معلومات نادرة عن باش تارزي لأنه قد يكون خصها بها. ومهما كان الأمر فإن المجلة كتبت مقدمة عن أوليات الرجل وموهبته وصوته العذب وبدايته بترتيل القرآن الكريم في شبابه بالجامع الكبير بالعاصمة. ثم عن تعلمه الموسيقى وهو شاب وتدربه على الغناء طبقا للأصول الفنية على أستاذ أوروبي(كذا). ثم أخذ يلحن أغنيات من تأليفه، فهو -حسب المجلة- شاعر مطبوع. وقد سجلت له شركات الاسطوانات بين 1920-1929، أكثر من خمسمائة (500) أسطوانة.

وأضافت المجلة المصرية أن الشاب باش تارزي هوى التمثيل فجأة، ونجح فيه مما جعله ينشى فرقة خاصة به، ثم أصبح مديرا إداريا للأوبرا في الجزائر ووهران، كما عين مديرا للفرقة البلدية الجزائرية التي كانت تضم 72 فردا من أشهر الممثلين والمطربين، وقد طاف هؤلاء الجزائر وشمال إفريقيا لتقديم حفلاتهم. ولا شك أن هذه الأرقام والصفات وإن كان فيها الكثير من

(1) هنا الجزائر 35، مايو 1955، ص 12-13 مع صورة لباش تارزي إلى جانب نجيب الريحاني في مصر.

الصحة فإن فيها أيضا الكثير من المبالغة، لأن الفن المسرحي وغيره من الفنون لم يكن من أولويات أهل الجزائر.

واعترفت المجلة أن باش تارزي كان يحسن استقبال الفرق المصرية الزائرة للجزائر ويحب الفن المصري وأهله. وفي رأيها أن باش تارزي أصبح منذ 1920 صديقا للفنانين المصريين، مثل فرقة جورج أبيض التي زارت الجزائر في تلك الفترة، رفقة فاطمة رشدي وبديعة مصابني ونجيب الريحاني وبابا عز الدين، ولا تنسى له هذه الفرق ترحيبه بها. على أن باش تارزي جاء هذه المرة إلى مصر ضيفا، وتعاقد مع يوسف وهبي لزيارة الجزائر (في يونيو 1955). والمعروف أن يوسف وهبي كان قد زار الجزائر على رأس فرقته القومية سنة 1954 فوجد ترحيبا كبيرا وأحرز نجاحا عظيما فنيا وسياسيا وإعلاميا من مختلف التيارات الجزائرية، واحتفت به جمعية العلماء وتبادلوا معه الخطب والمشاعر كما احتفى به شيخ بلدية الجزائر الفرنسي جاك شوفالييه.

شمل حديث المجلة مع باش تارزي سؤاله عن المنحة السنوية التي تمنحها الدولة (الفرنسية) للفرقة الجزائرية على يدي بلديتي العاصمة ووهران، فقدرها بخمسة وعشرين مليونا من الفرنكات 25 ألف جنيه)، إضافة إلى تمكين الفرقة من المسارح مجانا طيلة أيام التمثيل. أما عن منح البلديات الأخرى فهي قليلة، وهي تتمثل في تخليها لهم عن المسارح مجانا عندما يذهبون للتمثيل عندها. ويبلغ عدد المسارح في الجزائر كلها 42 (اثنين وأربعين) مسرحا، كل منها يضارع (دار الأوبرا) المصرية، ربما في الحجم والأثاث.

أما موسم التمثيل فيمتد عبر سبعة أشهر، والتمثيل ليس يوميا ولكنه يتم في يوم واحد في كل بلدة أي بمعدل حفلتين في اليوم الواحد، مثلا في مدينة الجزائر يقدمون حفلتين كل يوم اثنين، وفي وهران حفلتين كل يوم جمعة. وإذا كانت الروايات جديدة فإن القاعة تغص بالجمهور أيام التمثيل، والمسرحية لا تعاد إلا بعد عام. وقال باش تارزي للمجلة المصرية إن عدد المؤلفين في

الجزائر يقاربون المائة، وفيهم الجيدون. وهذا قول يخالف الواقع لأن الشكوى كانت دائما منصبة على عدم توفر النصوص. أم بالنسبة للروايات الناجحة فقد ذكر منها روايات يوسف وهبي مثل أولاد الشوارع، وأولاد الفقراء، ورجل الساعة، والخيانة العظمى، ثم روايات مسرح الريحاني. وأخبرها أن اللهجة المصرية ليست عائقا لأن الجمهور الجزائري يفهمها، بل يفضلها على الفصحى، والفضل في رواج اللهجة المصرية يرجع إلى السينما المصرية.

بالنسبة لهذا القطاع (السينما) فإن أحب الأفلام المصرية لدى الجزائريين هي الأفلام الغنائية، حسب قوله، خصوصا أفلام فريد الأطرش وعبد الوهاب. أما ما أسمته المجلة الرقم الجديد (عبد الحليم حافظ) فستصل إيرادات أفلامه في الجزائر إلى أرقام قياسية. وكان باش تارزي صريحا مع المجلة حين لاحظ لها أن الجزائريين ينتقدون الأفلام المصرية على ما فيها من الرقص الخليع لأنهم ينظرون إلى مصر على أنها حافظة التراث العربي الإسلامي.

وفي الجزائر يتقاضى الممثل المسرحي شهريا ما يعادل مائة وعشرين (120) جنيها مصريا عدا عمله في الإذاعة والتلفزيون. وقد لاحظت المجلة أن الجزائر هي أول قطر عربي دخله التلفزيون. ويبدو أن المجلة قد تأثرت بما رواه لها باش تارزي عن رعاية السلطات الفرنسية للمسرح العربي في الجزائر فطلبت من المسؤولين المصريين أن يقرءوا هذا الحديث الصريح مع باش تارزي وأن يأخذوا منه العبرة، ولا سيما فيما يتعلق بعدد المسارح والمنح[1].

ورغم ما في هذا الحديث من مبالغة أحيانا فإنه مفيد في إعطائنا صورة مفصلة عن وضع المسرح وعلاقته بالمسؤولين الفرنسيين ورسالته ودور الممثلين وعددهم والمؤلفات وعلاقة الفن الجزائري بالفن العربي. وقد قدم لنا الحديث أيضا صورة دقيقة عن الذوق العام بالنسبة للسينما وسمو الذوق الجزائري،

---

(1) هنا الجزائر 35، مايو 1955، والملاحظ أن نفس الحديث مترجم أيضا إلى الفرنسية في القسم الفرنسي في مجلة هنا الجزائر، مع صورة لباش تارزي.

والتمسك باحترام القيم الإسلامية. وقد كنا سنشير إلى جزء من هذا الحديث في فقرة السينما ولكننا فضلنا إيراده هنا لأنه لا يخص السينما الجزائرية ولأنه يتحدث عن الذوق العام إزاء اللهجة الدارجة وإزاء الموضوعات المطروقة في الأفلام المصرية. ونلاحظ كذلك أن افتتاح التلفزيون في الجزائر كان في سنة 1956 وليس قبل ذلك.

من شهرزاد إلى أبناء القصبة

ولا ندري في هذا المقام أين يقع تمثيل الجزائريين بعض المسرحيات أمام جمهور فرنسي. فالسيد باش تارزي لم يحدثنا عن ذلك، ولكننا وجدنا تنويها بتمثيل مسرحيتين باللغة الفرنسية أمام جمهور فرنسي في قاعة النفق الجامعي بالعاصمة (الدكتور دودو حاليا)، إحداهما مسرحية شهرزاد التي ترجع إلى الفن العربي الإسلامي والأخرى مسرحية (أمفيتريون) Amphitrion التي ترجع إلى التراث الروماني. وتعتمد الأولى على القص الشرقي المستخرج من ألف ليلة وليلة كما هو متمثل في الحديث الذي دور بين (شهرزاد وشهريار). ومن أبرز الممثلين في المسرحيتين هو مصطفى كاتب وعلال المحب، بالإضافة إلى بعض الفرنسيات، وقد ظهر في العملين المقارنة بين ثقافتين، فمن جهة هناك مأساة شهرزاد وصراع الروح والمادة واللذة والضعف الإنساني أمام سحر المرأة، ومن جهة أخرى هناك التطلع إلى المادة ونيل الجاه والعظمة في رواية (أمفيتريون). فهي رواية ضاحكة وتعتمد على القصص الخيالي في عالم الآلهة، وتمثل عشق الإله جوبيتر، كبير الآلهة عند الرومان، لامرأة هي زوج قائد روماني ترك الأهل والوطن ليحارب من أجل الشهرة والمجد. وفي غيابه جاء جوبيتر متنكرا في صورة الزوج القائد إلى المرأة المهجورة صحبة (ساتورن) رسول الآلهة الذي تنكر هو أيضا في زي خادم. ولكن الزوج الحقيقي رجع فجأة واتهم زوجته بالخيانة[1].

(1) هنا الجزائر35، مايو 1955، وليس للمقالة توقيع.

وقد يستغرب المرء قيام جزائريين، وفي سنة 1955، بتمثيل موضوعات على هذه الشاكلة وأمام جمهور فرنسي وبلغة فرنسية. هل من هدف؟ قد ينظر الناظر إلى شهرزاد على أنها كانت تؤدي وظيفة الجزائر عندئذ التي اخترع لها كاتب ياسين (نجمة) في نفس الفترة، فبينما كان الشبان الأربعة يصارعون -حسب رؤية ياسين- من أجل الظفر بنجمة كان شهريار- ولنقل إنه الاستعمار الفرنسي- يعمل على الفوز بشهرزاد (الجزائر) بمختلف حيله وقواه. ولكن ما الهدف من وراء (أمفيتريون) وخيانة الجميع حتى الإله جوبيتر.. والقائد الذي يبحث عن المجد في الجزائر التي تهرب من بين أصابع الاستعمار؟ لا ندري إن كان هذا التحليل مناسبا، ولكن من الأكيد أن تمثيل هذه المشاهد سنة 1955 كان غير مناسب. ولذلك سنجد طائفة من الممثلين يغادرون الجزائر ليبحثوا لهم عن المجد في ظل الوطنية وعن نجمة في غمرة الملحمة الثورية الحقيقية.

من نشاط الفرقة الوطنية الفنية

بمناسبة عرض مسرحية (أبناء القصبة) سجلت المجاهد (بالفرنسية) الحديث التالي مع رئيس الفرقة الفنية، مصطفى كاتب ومؤلف المسرحية عبد الحليم رايس. وقبل أن نلم بالحديث نقول إننا سنتكلم على الفرقة الجديدة التي أنشئت في تونس خلال الثورة، وعن بعض أعضائها، ولكننا الآن نريد أن نعرف أن تجربة باش تارزي مع المسرح إلى منتصف الخمسينات قد تطورت على يد مصطفى كاتب إلى لون آخر من المشاركة العملية الفنية في الثورة، أو كما قال صاحب الحديث إن المسرح أصبح واقعيا وملتزما، فهو مسرح الشعب ومسرح جبهة التحرير في موضوعه ولغته وأدائه. دعنا الآن نتابع الحديث الذي جرى في إحدى الفيلات بضواحي تونس العاصمة، خلال شهر مايو 1959، وقد حضره بالإضافة إلى كاتب ورايس، أعضاء الفرقة الفنية الجديدة.

كتبت مسرحية أبناء القصبة (أحيانا تسمى أطفال القصبة) في ظرف خمسة عشر يوما، وقامت الفرقة بالتدرب عليها بحماس، وهي التي اختارت لها

الديكور المناسب من الطاولة الرئيسية إلى الفوارة داخل البيت الجزائري ذي الطراز الأندلسي، والمدخل الممتد للمنزل، كما مثلت قصة القنبلة التي عاشها اثنان من أعضاء الفرقة والتي أبطل مفعولها طالب (هل هو طالب عبد الرحمن؟) نفسه قبل خمس دقائق من انفجارها، إن كل ما في المسرحية تقريبا عاشه أفرادها في الجزائر. ولم يكن الهدف من كتابتها وإخراجها على ذلك النحو وتمثيلها للدعاية أو الكتابة حسب الطلب، كما قد يظن البعض، بل لقد كتبت المسرحية نفسها بنفسها. إن المؤلف قد أعطى نبذة عن نشاط الثورة في القصبة آخر 1956 وأوائل 1957، وهي في الواقع تصدق على كل قصبة في الجزائر. وبالإضافة إلى ذلك هناك قصة عائلية داخل الثورة. فهناك إذن تداخل بين القصبة والثورة والعائلة.

لقد أعطت المسرحية أهمية خاصة للمرأة المكافحة. فشخصية ميمي كانت تعبر عن صلة الوصل مع الثوار. إنها شخصية هادئة ودقيقة، إنها تمثل (جميلة بوحيرد) كما عرفها المتحدث أثناء العمل، وكذلك الفتاة مريم والأم يمينة، فكلهن عرفهن المؤلف، وهن يمثلن في المسرحية آلاف النساء الجزائريات. أما أدوار الرجال فقد قام بها الشاب عمر المنحرف الذي أصبح مكافحا، ثم توفيق الذي كان مسؤولا وبقي لا يحب الظهور. وكان ذلك يجري وسط الفرنسيين الذين يمثلون مختلف الشرائح: الزواف، والمخبرين، والمرتزقة.

بالنسبة للغة لاحظ مصطفى كاتب أنهم استعملوا دارجة القصبة باعتبار المسرحية في نظره واقعية، والواقع يفرض ذلك، إنها لغة الشعب في الشوارع والأسواق. لقد اختاروا الواقعية في الشكل، أي لغة أهل العاصمة بكل نبراتها الخاصة وتعبيراها. إن العائلة التي تتحدث عنها المسرحية من الشعب فهي تتكلم لغة الشعب، بينما الفرنسيون في المسرحية يتحدثون لغتهم. وليس من الواقعية في شيء - في نظره - استعمال العربية الفصحى (الكلاسيكية - حسب تعبيره). ولو تكلم الممثلون بالفصحى لنزعوا عن المسرحية نكهتها.

وعندما سئل عن محدودية الجمهور عند استعمال اللغة الواقعية إذ تفقد مثلا جمهور البلاد العربية، اعترف كاتب بأن ذلك حق، لأن هذه المسرحية لا يمكن فهمها إلا من الرباط إلى بني غازي. ورأى أنه إذا كان لابد من توجه المسرحية إلى جمهور أبعد من هذه الرقعة فيجب أن يكون هناك كتاب يحتوي على النص العربي الفصيح. واعترف بأن ذلك من مشاكل المسرح الجزائري منذ نشأته. (بل هي من مشاكل المسرح العربي في جميع الأقطار) أما هو شخصيا فهو يفضل استعمال لغة الأم ولغة "سوق الخضرة"، وتمنى أن يأتي اليوم الذي يصبح فيه استعمال العربية الفصحى ممكنا. أما الآن فالذي يهم هو أن يكون هناك جمهور يفهم ويشارك، ولكي يتحقق ذلك لا بد من استعمال اللغة المتداولة، لأن استعمال العربية الفصحى يفقدنا جمهورا عريضا. وفي نظره أن اللغة العربية الفصحى تصلح للتراجيديات.

ثم إن مشكل المسرح لا يتمثل في اللغة وحدها ولكن في الموضوع أيضا. إن (أبناء القصبة) لا تمثل توجيها جديدا وإنما تمثل تطورا، فمنذ ظهور المسرح الجزائري رسم الطريق، وهو طريق الواقعية، ولكي يعيش المسرح الجزائري ويخاطب الجمهور يجب معالجة الموضوعات التي تهم الشعب سواء في حياته مع الاستعمار أو في حياته الإنسانية العامة، فقبل الثورة كانوا يستعملون لغة الرموز ويقومون بأدوار ملتوية للهروب من الرقابة سواء بالنسبة للمسرح أو للإذاعة، ولكن المتفرجين كانوا يفهمون المقصود ويتابعون الممثلين. ويبدو أن مواضيع الحياة الاجتماعية هي التي كان يفضلها الشعب فقلد المؤلفون، وأحيانا اقتبسوا، مسرحيات أجنبية تنسجم مع هذا الذوق. فمثلا مسرحية (البرجوازي المهذب) حولوها إلى (أغنياء السوق السوداء) مع عدد من الشخصيات المناسبة. لقد كان المسرح الجزائري دائما واقعيا بل رائدا في الواقعية ولكنه كان أحيانا رمزيا موجها إلى جمهور محدود بينما الفنانون يريدون جمهورا عريضا. وهكذا مثلت (أبناء القصبة) خطوة إلى الأمام في تطور المسرح، ذلك أن الممثلين لم يهاجموا الاستعمار وإنما أصبحوا يتحدثون عن

الشعب في حاضره. فكان المسرح هو وسيلة الفنانين في المقاومة، فهو مسرح ملتزم، مسرح شعب في حرب، مسرح جبهة التحرير. واعترف مصطفى كاتب بأن الاستقلال سيأتي بمشاكل جديدة للمسرح وعليه أن يواجهها، ومنها المواضيع الجديدة والطرق الجديدة للتعبير. وبالفعل عاش مصطفى كاتب نفسه بعد الاستقلال وتولى شؤون المسرح في وزارة الثقافة والإعلام وواجه هذا التحدي الجديد(1).

أما الفرقة الفنية الجزائرية الجديدة فقد ظهرت سنة 1958 في تونس، ومثلت في 24 مايو أمام الجمهور التونسي والجزائري لوحات من الغناء والرقص مما يمثل واقع الجزائر في مختلف المناطق كما يمثل آمال الشعب. ثم مثلت الفرقة أيضا مسرحية ألفها أحدهم وهو (زينات) بعنوان (آخر القومية goumier) خلال شهري يونيو ويوليو 1958. واستمرت إلى سبتمبر في تقديم عروض عن (التضحية) ومسرحية بعنوان (مونتسيرا) مثلتها في تونس أيضا. ثم مثلت منظرين الأول أمام صحفية أمريكية، والثاني أمام صحفي ألماني جاء من أجل تأليف قطعة موسيقية، بالتعاون مع طلبة جزائريين كانوا يدرسون في ألمانيا. كما مثلت في ليبيا مسرحية بعنوان (نحو النور) في أكتوبر ونوفمبر من نفس السنة. وابتداء من 13 ديسمبر 1958 توجهت الفرقة إلى يوغسلافيا حيث استقبلت بحفاوة كبيرة وزارت جمهوريات (كرواتيا، والبوسنة وصربيا، ومقدونيا). ثم رجعت إلى تونس في 6 يناير 1959 واستقرت في مقرها الجديد.

وفي هذه الأثناء وجه السيد مصطفى كاتب مذكرة إلى ممثل الحكومة المؤقتة في مدريد حول المسرح الجزائري. فقد وجدنا هذه المذكرة عند السيد بوقادوم بوزارة الخارجية الذي قام بتحويلها إلى وزير الداخلية، من القاهرة بتاريخ 7 مايو، 1959. إن نص المذكرة مفقود، ولكن الإشارة إليها موجودة

---

(1) المجاهد- بالفرنسية-42، 25 مايو 1959.

في مراسلة بوقادوم المذكورة. ولا ندري ماذا كانت تقول أو تطلب بالضبط، وقد تكون ذات فائدة كبيرة في هذا المجال، لو عثر عليها الباحثون[1].

استمرار النشاط المسرحي

وفي داخل الجزائر استمر المسرح الاجتماعي والغنائي يعمل عمله رغم اختفاء عدد من عناصره البارزة. ففي سنة 1956 توجهت فرقة الجزائر للرقص والغناء إلى إيطاليا وشاركت في مهرجان فولكلوري في إيطاليا. كان ضمن الفرقة عدد من الفنانين والفنانات، منهم رحاب الطاهر ونجاة وهاجر بالي واحمد سري. وقد روى هذه الرحلة الفنية رحاب الطاهر بالشعر الملحون، واستوحى فيها جزيرة صقلية التي زارها واستعاد منها تاريخ أمجاده العرب والمسلمين، وقد استغرقت رحلة الفرقة اثني عشر يوما. وشاركت في المؤتمر ثماني دول، منها الجزائر كما قيل، رغم أنها لم تكن عندئذ دولة[2].

وفي سنة 1960 تحدثت وسائل الإعلام عن فرقة مستغانم للمسرح، وهي التي قامت بتمثيل مسرحية (الخيمة) فأحسنت تمثيلها، وأشاد بها النقاد ونالت حظا من الشهرة والرواج عندما مثلت في قاعة (بيير بورد) بالعاصمة، حتى أن أحد النقاد قال إنها قد أثرت على الجمهور وشدت أنفاسه إذ اجتمع فيها حسن التمثيل مع جمال الزخرفة المناظر والموسيقى التصويرية. كما مثلت نفس الفرقة مسرحية قصيرة باسم (المصور). ولكننا لا نعرف من هذه الفرقة إلا اسمها، فليس هناك أسماء لمخرج ولا لمؤلف ولا للممثلين. وفي عدد لاحق من مجلة (هنا الجزائر) نوه الممثل والناقد محمد الطاهر فضلاء بفرقة مسرح مستغانم قائلا إنها "درة في جبين الجزائر." كما أشادت بها مجلة (المناظر) التي كانت تصدر بفرنسا وجاءت بصورة فرقتها ولخصت بعض نشاطها. وهكذا تعددت الفرق

---

(1) الأرشيف الوطني، علبة 21-50.

(2) هنا الجزائر، 44، مارس 1956.

الفنية رغم أن الثورة كانت على أشدها[1].

وغداة الاستقلال صرح مصطفى كاتب الذي عاصر المسرح قبل وأثناء الثورة بأن الفرنسيين كانوا قد أوقفوا "مسرح الظل" ومسرح (التريتو) سنة 1943، فلم يبق للجزائر سوى الحكواتية والمنشدين (المداحين؟) والشعراء الشعبيين لمواصلة التقاليد المسرحية. أما الفن المسرحي بالمعنى الدقيق فلم يعد إلى الظهور إلا مع الجمعيات ذات التوجه السياسي، مثل جمعية الطلبة المسلمين الجزائريين، فقد جلب الفن المسرحي الشباب إليه، ولكن الإدارة الاستعمارية ضاعفت من المثبطات والعراقيل فأرجعت العمل بقانون الرقابة الصادر سنة 1934، ولجأت إلى نقل المعلمين من أماكنهم وأجبرتهم على طلب الرخصة من رؤساء الدوائر ونوابهم وحتى من الشرطة، إضافة إلى ضرورة الحصول على رخصة خاصة في المناطق الجنوبية. ولا شك أن مصطفى كاتب يعني معلمي جمعية العلماء بالخصوص الذين طالهم قانون (ميشيل) ثم قانون (رينييه) في فترة الثلاثينات. ومن الممكن أن نتصور كم كانت حياة الممثلين ضنكة بين 1927-1954، وهم يتخذون المسرح هواية وليس حرفة.

ومع ذلك فقد كان للمسرح نقاط ضعف أيضا، حسب رأي كاتب. فقد كانت تسود البعض روح "مركانتية" أو تجارية ربحية، وهي روح لا تقود إلا إلى الهبوط الفني. ومع ذلك فإن المسرح قد استمر محافظا على "لغتنا وهويتنا وثقافتنا." وخلال حرب التحرير كان المسرح سلاحا في المعركة، فقد ساهم في كشف الغامضين والمؤثرين سلبا على الشعب، كما أنه حمل إلى الأشقاء والأصدقاء رسالة الشعب الجزائري المحب للسلام والحرية. وبعد الاستقلال أصبح المسرح، بناء على رأيه، في خدمة الجزائر الاشتراكية. وقد أممت

(1) هنا الجزائر، مايو 1960و يوليو 1960، ومجلة المناظر عدد 3، السنة الثانية، فبراير 1961.

الحكومة المسرح وجعلته في خدمة الشعب وتابعا لوزارة التربية[1].

وللتذكير فإن السيد كاتب أصبح من أعمدة الحياة الثقافية بعد الاستقلال، فقد تولى على ما نعتقد إدارة المسرح بعد تأميمه، وكانت له ميول اشتراكية واضحة مسايرة للموجة الضاربة في ذلك الوقت. ولا ندري هل هي اشتراكية عقائدية (ماركسية) راسخة أو اشتراكية يسارية معادية للاستعمار كان التيار الوطني عموما يتغطى بها، وهو التيار الذي سيطر على توجه الجزائر بعد الاستقلال.

ومن "نجوم" المسرح خلال الثورة وما بعدها حسن الحسني المعروف بوبقرة. وهو حسن بن الشيخ المولود، ولد في 25 سبتمبر 1916، ببلدة بوغار جنوب المدية، وكان أول اتصال له بالمسرح سنة 1936، بفضل والده الذي كان معلما. وفي سنة 1945 التقى بمحي الدين باش تارزي عندما نزل بفرقته مدينة البرواقية القريبة من مسقط رأسه، ودخل بوبقرة فرقة باش تارزي وأدى أدوارا هامة قبل أن يستقل بعرض مسرحي خاص به عنوانه (أحلام حسان)، وهو العرض الذي قيل إنه أغضب السلطات الاستعمارية. وقد انضم بوبقرة إلى حزب الشعب ثم حركة الانتصار المنبثقة عن هذا الحزب. ودخل السجن من أجل نشاطه في هذه الحركة. وبعد خروجه منه سنة 1950 مثل مسرحية بعنوان (المؤامرة) وأسس فرقة (الفن الجزائري) مع الطيب أبو الحسن. ثم التحق بالتلفزة وأدى دورا في مسرحية (المطاردة) لمصطفى بديع. وبعد الاستقلال تفرغ حسن الحسني للمسرح في فرقة المسرح الوطني، ثم تخلى عنه وأسس فرقة خاصة به أسماها (مسرح الفصول الأربعة)، كما دخل ميدان السينما وشارك في حوالي خمسة وثلاثين فيلما[2].

---

(1) تصريح لمصطفى كاتب حول المسرح الجزائري في -الثورة الثقافية في عامها الأول- وزارة التربية الوطنية، 1962-1963، الجزائر، ص 37. والتاريخ الذي ذكره كاتب على أنه سنة 1943 ربما يقصد به سنة 1843.

(2) جريدة الشروق اليومي، 20 سبتمبر 2004.

وكان حسن الحسني قد دخل السجن أيضا خلال الثورة ومع ذلك لم تغب عنه الفكاهة حتى في هذه الظروف العابسة. وقد تحدث الشيخ محمد الصالح بن عتيق في مذكراته عن تمثيل بعض المساجين رواية (تكول، تكول با) التي جرت حوادثها في معتقل (أركول) بضاحية وهران سنة 1957 عند إضراب المعتقلين عن الطعام. فجاءت إدارة السجن وأرغمتهم على تناول الطعام بإدخال قطع الخبز في أفواههم قسرا: (تأكل أو لا تأكل؟). وقد تقلد بوبقرة شخصية الرائد(دوفير) الذي كان يقوم بدور إرغامهم على تناول الطعام.

ومنها رواية (كردافو=استعدوا) التي تعني أداء التحية العسكرية والتي جرت حوادثها في يونيو 1959 عندما فرضت الإدارة على المساجين أداء التحية للجنود الفرنسيين، فتارة يقال لهم: استعدوا وتارة استريحوا، فحدثت فوضى لدى غير المدربين. وقد مثل بوبقرة هذا الدور مع آخرين. فكان هؤلاء يعزفون الموسيقى على طريقتهم[1].

المسرح الثوري:

والذي يرجع إلى أعداد المجاهد سيلاحظ اهتمامها بالنشاط المسرحي من عرض وتمثيل وموضوع. فكانت تتابع نشاط الفرقة الفنية الجزائرية، وتبدي ملاحظاتها على تنقل أعضاء الفرقة بين البلاد العربية وأوروبا. وقد تحدثت عن مسرحية جديدة عنوانها (الخالدون) على أنها ستمثل يومي 12، 24 أبريل 1960 من قبل الفرقة الفنية الجزائرية على المسرح البلدي في تونس. وتتألف المسرحية من أربعة فصول، وهي من عمل الجزائريين، وأنها تعكس المظاهر المختلفة للمعركة في الجزائر ضد القوات الفرنسية الغازية. وتصور الثوار في علاقتهم بالشعب ومعاناتهم وآمالهم ومشاكلهم. وتنبأت الجريدة للمسرحية بالنجاح لأنها تأتي بعد مسرحية أبناء القصبة.

---

(1) ابن عتيق، ص158.

ومن رأيها أن (الخالدون) ستعجب الجمهور الذي أعجب بتمثيل (أبناء القصبة)، وأن(الخالدون) تمثل ما سجله أبطال الكفاح في الجزائر من تضحيات جسام في سبيل بلوغ الهدف المنشود وهو الحرية والسيادة الوطنية[1].

لكن يلاحظ أن الجريدة لم ترجع إلى موضوع (الخالدون)، فهل مثلت فعلا؟ إن الإعلان عنها يمثل صورة لعنوان المسرحية، وتمثل الصورة المسرح البلدي التونسي من الأعلى، وفي الوسط تظهر الفرقة الفنية الجزائرية، وفي الأسفل عنوان (الخالدون)، ثم في الأعلى على اليمين رقم 12 وعلى اليسار رقم 24، وهما التاريخان اللذان ستمثل خلالها المسرحية وفي نهاية الإعلان وبخط صغير عبارة: إخراج مصطفى كاتب وتأليف عبد الحليم رايس.

لكن عناية إعلام الثورة بالمسرح لم يتوقف عند: الخالدون وأبناء القصبة... فقد أصدر حسين بوزاهر كتابا/ مسرحية في باريس بعنوان (أصوات من القصبة)، وهو في الواقع يتألف من مسرحيتين. وبوزاهر هذا قدمته المجاهد على أنه شاب مناضل في صفوف جبهة التحرير. وقد اعتبر المؤلف المسرح سلاحا، وعملا نضاليا - حسبما نقله عن اليونانيين- ولكن الشاعر لا يعوض الشعب، والشعب يحب أن يسمع صوته في الشاعر، وهو ما جاء به هذا الكتاب. ويروي صاحبه أنه في 13 مارس اعتقل الفرنسيون حوالي مائة من القرويين بالقرب من جزيرة يسر ورموا بهم في كهف ثم قتلوهم خنقا. ولكن الفرنسيين لا يمكنهم القبض على الشمس... إن الجريدة قدمت عرضا وافيا للمسرحيتين على لسان الممثلين. وتنتهي المسرحية بلحن وطني عظيم يردده الممثلون والمشاهدون معا[2].

إذا كانت أبناء القصبة التي مثلت سنة 1959 قد "قدمت بأمانة وحيوية

---

(1) المجاهد/ بالفرنسية 62، 31 مارس، 1962، وكذلك المجاهد/ العربية65، 7 أبريل، 1960.

(2) انظر المجاهد/ بالفرنسية، 77، 29، يناير، 1961.

صورا من المرحلة الأولى للثورة" عند انتشارها في المدن بعد أن تغلبت على قوى الشر في الأرياف، فإن مسرحية (دم الأحرار) قد عكست مرحلة أخرى من الثورة، ونقلتها إلى الريف حيث تجري حوادثها، ولكن موضوعها ليس هو الريف فهي ترجع إلى ما بعد مارس 1959 إذ تشير إلى خط (شال) حيث تجري أحداث الرواية. لذلك فموضوعها ليس هو الشعب الذي يفترض فيه أنه أصبح كله إلى جانب الثورة، لكنه هو المجند الجزائري، ذلك أن الاستعمار يحاول أن يستعمل المجندين ضد الثورة، بينما الثورة تحاول تجنيدهم وكسبهم إلى جانبها، وهنا يصبح الصراع صراع المجند مع نفسه، صراعا ذاتيا، وقد نجح الممثلون في تجسيد هذا الموقف، وكانت الرواية محبوكة، ولها عقدة قوية وتتمتع بنفس المفاجأة التي مثلتها مسرحية أبناء القصبة. إن (دم الأحرار) هنا ليس دم التضحية الذي يسيل عند الكفاح، ولكنه دم الأجداد الذين هزموا، وظلوا يتطلعون إلى يوم الانتقام والثورة.

وقد تابع الجمهور -حسب الجريدة- مسرحية (دم الأحرار) بشغف متأثرا بمناظر التعذيب. وقامت الفرقة الفنية الجزائرية بتمثيل المسرحية فأحسنت التمثيل. وهنأت الجريدة الفرقة، ولا سيما مصطفى كاتب الذي أبدع في دوره، كما قالت، كما أجاد المؤلف موضوعه الدقيق وحوادثه المثيرة.

وقد مثلت دم الأحرار يومي 29، و31 ديسمبر 1961 على المسرح البلدي التونسي أيضا. فبعد أبناء القصبة سنة 1959، والخالدون سنة 1960، جائت دم الأحرار لتنتهي بها سنة 1961، في محاولة مسرحية جديدة مستوحاة من معركة التضحية والوطنية[1].

ويبدو أن السلطات الاستعمارية قد كثفت النشاط الفني الشعبي للتغطية على ما يقوم به

---

(1) المجاهد، 112، 8 يناير، 1962، والمجاهد/ بالفرنسية 89، 16 يناير، 1962، انظر أيضا تاريخ الصحافة في الجزائر للزبير سيف الإسلام، الجزائر، 1982، ج2؟

جنودها في الأرياف والجبال ضد المواطنين في السنتين الأوليين من الثورة. فقد نشطت الإذاعة وجيء بالتلفزيون وبدأ نقل النشاط الفني عبر هذه القنوات. وكانت مجلة (هنا الجزائر) تعكس هذا النشاط شهريا. وكان مقر هذا النشاط عادة يجري في قاعة (بيير بورد) بالعاصمة (ابن خلدون حاليا). ففي فاتح نوفمبر 1959 افتتحت السلطات الموسم الفني (1959- 1960) وأعدت برنامجا حافلا كإذاعة المسرحيات والحفلات الغنائية والمقطوعات الموسيقية من كل نوع من الأنواع الخمسة المعروفة(أندلسي، شعبي، صحراوي، قبائلي، عصري). وقد أشاد الواصف لهذه الحفلات بالجمهور الذي جاء من نقاط أبعد من العاصمة وضواحيها، مع تسهيل وسائل النقل، لحضور هذه الحفلات، وركز الواصف على سعادة الجمهور وظهوره بمظهر المبتسم المتفائل. ومن الفنانين البارزين من هذه الأثناء مصطفى بديع، وهو مخرج تلفزيوني، وقزدارلي، والعماري، وعلي عبدون... [1].

الحاجز الأخير

أصدرت مجلة الفكر التونسية سنة 1955 ترجمة لمسرحية كتبها مصطفى الأشرف أسماها (الحاجز الأخير) أو الباب الأخير. ويبدو أنه كتبها في ديسمبر 1954 أي في بداية العهد الثوري. وهي مسرحية ليس لها بطل واحد. وربما رمز فيها الأشرف إلى أن البطل هو الشعب نفسه. وقد أدارها على ثلاثة فصول: تحدث في الفصل الأول عن جماعة من النسوة تجمعن أمام سجن سركاجي (سجن بربروس) لزيارة أزواجهن وأبنائهن وهن يحملن سلال الطعام لهم. ودار بينهن نقاش حول دورهن في غياب رجالهن، وحول الحواجز المقامة بينهن وبينهم، وهي حواجز وهمية لأن القدر يربط بين الجميع. وقد تعلمن كيف يتغلبن من الآن فصاعدا على الصعوبات لأن العالم غير مكترث بمن يعاني من

---

(1) هنا الجزائر 82، ديسمبر 1959.

القيود والأغلال، وعليهن الاعتماد على أنفسهن.

وفي الفصل الثاني عرض الكاتب لوحة أخرى. ففي سجن قبيح المنظر جلس خمسة رجال مسندين ظهورهم إلى الحائط ومعهم رجل قوي العقيدة يحدثهم عن التعذيب الذي خضع له وعزيمته التي واجه بها الجلادين، وهو يرمز إلى الإصرار الذي يميز العهد الجديد والذي يمثله الرجل الذي ظهر في شخص "طالب" كان يحاول أن يبعث الأمل واليقظة في زملائه الشباب الذين يمثلون نصف سكان البلاد.

أما الفصل الثالث فقد خصصه لحوار جرى بين سيدتين ريفيتين جلستا تقارنان بين زوج حليمة المجاهد مرزوق وزوج مريم السجين. ومن الحوار نعرف أن حياة مرزوق في الجبل أفضل من حياة زوج مريم القابع في السجن الذي قد ينسونه فيه. أما مرزوق فيتمتع بالحرية. وفجأة ظهر مرزوق أمام الكوخ ليطمئن على زوجته وابنه لأنه كان في معركة قريبة من الكوخ. وقد قالت حليمة في حوارها إننا نحن الأمهات نمشي وأبناؤنا ينبتون كالأشجار الباسقة دائما إلى أعلى[1].

تحدث الناقد الفني والشاعر الشعبي محمد الحبيب حشلاف عن تمثيلية كانت في حاجة - كما قال أحد النقاد الفرنسيين أيضا (وهو فيرنندان دوفان) - إلى موسيقى تصويرية توضح أفكار مؤلفها. والمقصود بالتمثيلية هنا (الخادمة الشريفة) التي أشار إليها باش تارزي في تدخله أمام الصحافة (أنظر سابقا). ولا ندري إن كان مقال الناقد الفرنسي قد ترجم إلى العربية. كما طرح حشلاف مسالة لغة المسرح: الدارجة أو الفصحى. وقد عرف حشلاف بأنه شاعر الملحون وصاحب برنامج (من كل فن شوية) الإذاعي[2].

(1) عن هذه المسرحية انظر كتابنا دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الآداب، بيروت، 1966، ص 66-68.

(2) هنا الجزائر، 85، مارس 1960، فهرس المجلة انتزعت منه صفحات فلم نتمكن من =

إن الاهتمام بلغة المسرح والأدب المسرحي جعل مجلة (الشباب الجزائري) التي كانت تصدر في تونس عن فرع اتحاد الطلبة (لوجيما) تعلن عن مسابقة لأحسن مسرحية تعالج مشكلة من الواقع الثوري، ومدة المسابقة هي خمسة أشهر ابتداء من يناير 1962. وقد اشترطت أن تكون المسرحية مكتوبة بالعربية الفصحى أو الدارجة أو حتى بالفرنسية، وليس في ذلك من شرط في الواقع مادام المشارك يستطيع أن يكتب المسرحية بإحدى هذه اللغات. وعلى كل حال فإن المسابقة كانت مفتوحة لكل عربي، ومدتها خمسة أشهر ابتداء من يناير 1962. وقد وعدت المجلة بإن الفرقة الفنية الجزائرية ستقوم بتمثيل المسرحيات الفائزة. ونحن لم نقرأ بعد ذلك ما إذا نفذت المسابقة ففاز فيها من فاز وخسر من خسر. وربما غطت أحداث الثورة سنة 1962 على المسابقات والجوائز والمسرحيات خصوصا بعد إعلان وقف إطلاق النار[1].

مصرع الطغاة

مسرحية سياسية كتبها عبدالله ركيبي تتألف من أربعة فصول هي يقظة الضمير الثوري والشعور بالواجب الوطني، وإفلاس الأحزاب السياسية، ويأس الجيل الجديد والشعب من الأحزاب، والتضحية من أجل حب الوطن والحبيبة، وأخيرا فشل الاستعمار الفرنسي في وضع حد للثورة. وفي المسرحية لوحات فنية جميلة وتعبير صادق، رغم الخطابية أحيانا، عن المرحلة الجديدة التي أصبحت تعيشها الجزائر.

رمز المؤلف للجزائر القديمة بشيخ مريض يودع الحياة، وهو والد البطل. والشخص النقيض للبطل رجل أحدب مشوه رمز به للخيانة وكان مصيره الموت برصاص الثورة. وهناك رمز آخر وهو الكاهنة العربية (رحمة) التي تقمصت التاريخ كله في شخصها لكي تعجن تاريخ العروبة والإسلام. ولقاء أحمد المناضل بحبيبته حسم حب الوطن والحبيبة، بينما غادر شاب مقعد الدراسة في

= الاطلاع على عدد سليم منها. وقد قيل إن الخادمة الشريفة من وضع السيد الخشاني.

(1) المجاهد 112، 8 يناير، 1962.

المدرسة الفرنسية ولازم الخمر والقمار انتقاما من واقع الاستعمار. وقد أعلن البطل (البشير) أن الثورة قامت باسم عروبة الجزائر. والمسرحية تنتهي بانتصار الثورة قبل الأوان استباقا للأحداث.

ولا شك أن هذه المسرحية تعبر عن تطور تاريخي ووطني عاشه المؤلف نفسه فهو ابن البيئة التي انطلقت منها الثورة (الأوراس)، وقد عاشها من سنواتها الأولى مناضلا وسجينا ومثقفا [1].

الموسيقى والغناء

لم يطرأ على الموسيقى والموسيقيين تطور كبير بعد 1954. وربما يأتي في طليعة التغيير انقسامهم إلى تقليديين ومتحررين، ونقصد بالصنف الأول أولئك الذين استمروا في عطائهم التقليدي ماكثين في الجزائر رغم المضايقات وحجم الأحداث، ووسيلتهم في ذلك الظهور في الحفلات الشعبية والإذاعة المحلية وتسجيل الأسطوانات. وبعد ظهور التلفزيون أخذوا أيضا يقدمون له مادة جديدة تصلح به وبجمهوره. كما استمر تصنيف الفن الموسيقى والغنائي إلى أندلسي وشعبي وحوزي وبدوي وعصري، وهلم جرا من هذه التصنيفات الاستعمارية التي كانت تهدف إلى تغييب عوامل الوحدة الفنية لأنها من عناصر الهوية الوطنية.

أما المتحررون فنقصد بهم أولئك الذين خرجوا من النطاق السابق، وتمردوا عليه، وأخذوا يظهرون في مجالات أخرى كإنشاد الأناشيد للثورة وإقامة الحفلات للمهاجرين واللاجئين والوفود الأجنبية والشعوب الشقيقة والصديقة. وقد ألف هذا الصنف أجواقا وفرقا كما ألف الصنف الأول أجواقا وفرقا. وتبنت بعض الفرق العربية في تونس وسوريا ومصر الفنانين الجزائريين المتحررين وأعطتهم المجال للظهور، كما تبناهم صوت العرب وأصوات

---

(1) بعض التفاصيل عن هذه المسرحية في كتابنا تجارب في الأدب والرحلة، ص 123-125.

الجزائر التي كانت تنطلق من العواصم العربية وأتاحت لهم تسجيل ألحانهم وأغانيهم وأناشيدهم على اسطوانات لترويجها.

وفي الجزائر استمرت عدة أجواق في أداء دورها الموسيقي منها جوق الحاج العربي بن صاري الذي كان يقدم حفلات في التلفزيون. وتحدثت الصحافة عن جوق شعبي كان يديره الشاب محمد الطاهر (؟) قال عنه أحد الكتاب إنه "أطربهم بألحانه الواردة وبموسيقاه العصرية التي نستطيع أن نفاخر بها أية موسيقى شرقية"[1].

وظهر جوق بقيادة الصادق البجائي، وآخر بقيادة عبد الكريم دالي، وكاد يصبح لكل مطرب معروف جوق يحمل اسمه، مثل محمد العنقاء ومحمد فخارجي وأحمد خليفي. كما ظهرت فرقة باسم (حفلة الوالعين) كان يشترك فيها هواة الفن والغناء والطرب أمثال رابح درياسة الذي كان يؤلف لها الأغاني أيضا، وازداد اسم عبد الرحمن عزيز شهرة فألف أيضا فرقة للفن العصري. ويمكننا أن نواصل ذكر الفرق والأجواق التي كان عمرها يطول أو يقصر، وقد ترتفع بالفن وقد تهبط به[2].

آراء في الموسيقى

نشير في البداية إلى رأي غريب يعود بالطالع في الموسيقى إلى عهد بعيد، عهد بني هلال. وقد جاء رأيه في مراسلة من مجهول بعث بها من تقرت أحد المتذوقين أو المطلعين على تطور الموسيقى. فقد لاحظ هذا المراسل أن الموسيقى والشعر الملحون في تلمسان وقسنطينة، وأن أصل الغناء الحوزي والعروبي.. .أو ما أسماه بالصياح أو الطالع في الموسيقى إنما هو مصري الأصل ورد إلى الجزائر مع بني هلال عبر تونس. ولكن هذا المراسل ربما لم

(1) هنا الجزائر 75، أبريل 1959، مع صورة. وكذلك نفس المرجع 87، مايو 1960.
(2) هنا الجزائر 72، يناير 1959.

يعرف أن بني هلال ليسوا مصريين وإنما عبروا مصر فقط[1].

كان الفنان التونسي قدور الصرارفي يتعاون في الجزائر مع فرقة الفن العربي بقيادة محي الدين باش تارزي. وقد أدلى بتصريح إلى جريدة (تونس سوار) قارن فيه الوضع الفني في الجزائر بالوضع الفني في تونس، بعد أن قضى في الجزائر ثلاث سنوات. فنوه بالنهضة الفنية فيها وبتأثيرها على النهضة الفنية في شمال إفريقيا، وصنف الفن الجزائري ثلاثة أصناف أو أقسام:

1 - الكلاسيكي الذي تقدره-كما قال- إذاعة الجزائر تقديرا خاصا لكي يبلغ درجة عالية. وهو يقصد به الأندلسي أو الموسيقى العربية القديمة.

2 - المحلي (الشعبي؟)، وهو في نظره الصنف الوحيد الذي يحرز على تقدير جميع الطبقات، ويمثل الطابع الوطني الجزائري سواء كان يعتمد الأسلوب القديم أو الحديث، وهو في نظره يسير نحو التطور. ولا ندري كيف وصل الصرارفي إلى هذا القرار، مع أن الشعبي خاص بالعاصمة، بل بفئة ربما بفئة واحدة من أهل العاصمة وليس له طابع "وطني" يرضى جميع الطبقات والأذواق عبر القطر الجزائري.

3 - العصري، وله مكانته أيضا في المجتمع، ولا تعني كلمة العصري أن أصحابه يعتمدون الموسيقى الغربية أو المقلدة، وأفضل أنواعه عنده هو الممزوج بالطابع الوطني.

ولم يخبرنا الصرارفي عن قادة كل صنف وموضوعاته. فهل كل هذه الأصناف من النوع "المحلي" أو الجهوي؟ والملاحظ أن الصرارفي قد أشاد بدور الإذاعة الجزائرية (الفرنسية) في تشجيع الفن والارتفاع به إلى المستوى الذي يحصنه من السرقات أو الاقتباس والتقليد. وهو يفضل برامج إذاعة الجزائر على برامج إذاعة تونس، لأن إذاعة الجزائر تتعاون مع فرقة المسرح

(1) هنا الجزائر 71، ص 14.

العربي التي يديرها باش تارزي "عميد النهضة الفنية "، حسب تعبيره[1].

رأينا في محتوى أحد أعداد (هنا الجزائر) مقالة بعنوان (الموسيقى بين الأداء والتسجيل) فأغرانا الموضوع بالقراءة لنعرف مدى تقدم فن الموسيقى، ولكننا للأسف وجدنا المقالة مقتطعة وليس لها اسم لكاتب، ولم ننجح في الاطلاع على المقالة المفقودة[2].

لكن الكاتب الذي درس الموسيقى الأندلسية دراسة وافية من موقع المختص والمثقف هو سفير البودالي الذي زود مجلة هنا الجزائر وغيرها بمقالات قيمة عن هذا الفن. وقد تعرفنا عليه سنة 1967 حين سافرنا معا على نفس الطائرة إلى قسنطينة لنسهم في النشاط الثقافي في هذه المدينة. وقد لاحظنا عليه التواضع وحب التأمل وقلة الكلام، وكان فيما بدا لي عميق الثقافة. وسنتتبع هنا بعض نشاطه وآثاره. من ذلك ما كتبه عن الموسيقى العربية في مجلة (الوثائق الجزائرية) الصادرة بالفرنسية عن الولاية العامة[3].

بعد وقوع زلزال الأصنام سنة 1954، توجهت الفرقة الفنية الجزائرية إلى فرنسا بقيادة مديرها باش تارزي لتحي حفلة تجمع خلالها التبرعات للمنكوبين. قدمت الفرقة حفلات شارك فيها جيش من الفنانين قوامه تسعون فنانا. ركب هؤلاء ثلاث طائرات عسكرية حملتهم إلى العاصمة الفرنسية التي وصلوها بعد أربع ساعات. وبعد الاحتفاء بهم في المطار (لوبورجي) توجهوا إلى مسجد باريس حيث تناولوا الغداء، ثم توجهوا إلى الفندق الذي سكنوه مجانا مشاركة من أصحابه في التبرع. كان ذلك في أول نوفمبر 1954، ويالها من مصادفة! فقد ثارت الجزائر في غياب فنانيها.

(1) هنا الجزائر 39، أكتوبر 1955.
(2) هنا الجزائر 75، أبريل 1959، ص53.
(3) هنا الجزائر 89، يوليو 1960، كما أخذتها من الوثائق الجزائرية (Documents Algériens)، السلسلة الثقافية، قسم الفنون، 36، 20 جوان 1949 .

وفي الثاني من الشهر انتقلوا إلى دار الأوبرا ليشرعوا في التدريبات. وكان قد رافقهم الطاهر بوشوشي رئيس تحرير مجلة هنا الجزائر. ذهب بعضهم إلى نادي الأدباء والكتاب ولعل بوشوشي والبودالي كانا منهم فكلاهما من الأدباء البارزين. ومن الذين حضروا الحفل الرئيسي بدار الأوبرا رئيس الجمهورية ووزير الداخلية (ميتران) وغيرهما. وقد رفع الستار على منظر من ألف ليلة وليلة يتصدره هارون الرشيد في مجلس أنس وشراب.. وهو محاط بالجواري والشعراء والمطربين... ذلك هو الشرق وتلك هي الجزائر الشرقية في عرف الفرنسيين. وفي هذه اللحظة تقدم سفير البودالي، بصفته مديرا للقسم العربي في الإذاعة الجزائرية (الفرنسية) وألقى كلمة شكر فيها لجنة الاحتفال، وأشاد بالفن الجزائري في ظل البنادق المشرعة... وبعد ذلك بدأ التمثيل.

كانت هناك ترجمة مرافقة تساعد المتفرجين على فهم ما يجري، وكان البودالي نفسه يقوم بشرح مختصر باللغة الفرنسية. وقد مثل مصطفى كاتب دور الخليفة هارون الرشيد، ومن بطانته الفكاهي محمد التوري، وقامت بعض الفتيات بدور الجواري المغنيات. أما المنشدون فكان منهم عبد الرحمن عزيز ومحمد فؤاد ومحمد بن يحي. وكان الجوق الفني يتكون من 32 عازفا بإدارة مصطفى اسكندراني. وفي لحظة سريعة مفاجئة دخل بوعلام تيتيش وفرقته وهي تضرب الطبل وتصدح بالزرنة. فاستقبلتهم الجواري بالزغاريد.

لقد كان منظرا مؤثرا هذا الذي يجري على مسرح الأوبرا بباريس. وكان إعجاب الحاضرين واضحا من التصفيق وتتبع تفاصيل الحدث والموسيقى والمكونات الأخرى لهذه اللوحة الفنية. وختمت الفنانة هاجر المشهد برقصة الموت(؟). وكان مصطفى بديع هو صاحب هذا السيناريو الذي يدل على موهبة بارعة، بينما قام البودالي بتفسير السيناريو للجمهور. أما الإخراج فقد قام به الحبيب رضا بمساعدة مصطفى بديع. هذا هو محتوى القسم العربي من الحفل الذي جاء، فيما يبدو، في غير زمنه.

ثم جاء دور القسم الفرنسي من الحفل. والمفهوم أن نفس الفرقة هي التي قامت بالدورين معا. ومهما كان الأمر فإن حصيلة ما جمعته الفرقة من التبرعات بلغ عشرين مليون فرنك سلمت- كما قال كاتب المقال- إلى شيخ بلدية الأصنام (الفرنسي) بعد طرح المصاريف وهي غير مذكورة، فكم بقي للمنكوبين؟ وبعد هذه الليلة الليلاء طارت الفرقة عائدة إلى الجزائر. إنها سهرة عربية-فرنسية، كما قال الواصف عثمان بوقطاية، تجلى فيها التضامن في الظاهر على الأقل، أما الباطن فقد عبرت عنه الثورة التي أخذت تشتعل في هشيم الاستعمار[1].

رأي باربيس في الموسيقى

كان هناك اهتمام خاص بالموسيقى العربية - الأندلسية كما لاحظ الصرارفي، سواء من الجزائريين أو من بعض الباحثين الفرنسيين. فهذه مجلة (هنا الجزائر) لا تكاد تصدر عددا إلا وفيه مقالة بالعربية أو بالفرنسية عن هذه الموسيقى، وقد حفل عددها السادس والعشرون بمقالة كتبها ليو- لويس باربيس، وقامت المجلة بتلخيصها دون ذكر من قام بالتلخيص.

بدأ باربيس دراسته بقوله إن هناك موسيقى في الجزائر لا يهتم بها أهلها ولا الأوروبيون، ولكنها تلفت نظر الزائر الغربي الذي يعتقد عند سماعها أنها رتيبة، تكرر نفسها، وأنها حزينة إلى درجة الإزعاج، وأنها فقيرة في الألحان. ومنذ أمد قصير أخذ بعض الخبراء في هذا الفن يحاولون التعريف بأشرف فقرة من هذا التراث الذي بقي مجهولا. ثم عدد أنواع الموسيقى في الجزائر فإذا بها لا تخرج في رأيه عن:

- الموسيقى الشعبية البربرية (موسيقى أهل جرجرة، التوارق، الشلوح في الأطلس المغربي) وهو يسميها جميعا موسيقى قبائلية وليس بربرية.
- الموسيقى الشعبية العربية القديمة في النواحي الناطقة بالعربية في الجزائر.

---

(1) هنا الجزائر 31، يناير 1955.

- الموسيقى البدوية بأراضي القبلة والهضاب العليا.

- الموسيقى العصرية المتأثرة بـ (الميزكهول) الأوروبي والجاز الأمريكي والأوبريت المصرية، وهي موسيقى تظهر في أغانيها الكلمات العربية مشوهة بالفرنسية والإنجليزية وغيرهما.

- الموسيقى الكلاسيكية المعروفة بالأندلسية، وهي التي نقلها المهاجرون العرب من الأندلس إلى بلاد المغرب بعد القرن الحادي عشر، وهي تشمل الأراضي الممتدة من فاس إلى الجزائر، وتتوسطها تلمسان التي يمكن اعتبارها مركزا للبلاد المغربية. وهي موسيقي تختلف عن الأخريات لأصالتها وقيمتها. وكانت هذه الموسيقى مهملة في الجزائر منذ حوالي خمسين سنة(انظر رأي عمر راسم لاحقا)، وتكاد تكون منسية إلا في وسط نخبة برجوازية بالمدن الكبرى، وهي في ذات الوقت تكاد تكون مجهولة في الدوائر الغربية.

إن هذا التقييم الذي اعتمده باربيس لم يرد عليه، حسب علمنا، ولكنه تقييم قائم، فيما يبدو على القاعدة اللغوية وليس على أصول الفن. فليس هناك أصل واحد لهذه الأنواع من الموسيقى، بل هناك أصل لكل فرع من فروعها تبعا لنطق أهلها وألفاظهم. وهذا لا يساعد كثيرا على موضوعية صاحب المقالة. ورغم أنه ركز دراسته على الموسيقى الأندلسية (الكلاسيكية) فإنه لا يجعلها أصلا تفرعت عنه أنواع أخرى من الموسيقى شأن البلدان صاحبة الحضارة المتطورة والمتأصلة. أليس تقسيم باربيس للموسيقى يتماشى مع النظرية الاستعمارية القائمة على تنوع "سكان" الجزائر أيضا؟ على كل حال دعنا نواصل معه الموضوع[1].

أثار باربيس مشكلة ثم رد عليها وهي مدى صلة الموسيقى الأندلسية بالموسيقى الإغريقية. ذلك أن البعض يزعم أن هناك صلة بين الاثنين، ولكن

---

(1) قارن رأي باربيس برأي عمر راسم حول نفس الموضوع. أنظر لاحقا.

باربيس نفي ذلك، أو بالأحرى قال إن المسألة ليست بهذه البساطة، والمحقق عنده أن الموسيقى الأندلسية أخذت في الازدهار في القرنين الثالث عشر والرابع عشر في قرطبة وغرناطة، أثناء ازدهار الحضارة هناك أكثر من أوروبا لأن الأندلس كانت تتمتع بازدهار العلوم والفنون ومنها الموسيقى. وكان الشعر الغنائي الغربي يرجع بأصله إلى الشعر الغنائي العربي. فقد شاع ديوان ابن قزمان وكتاب طوق الحمامة الذي كان من مصادر الشعراء الفرنسيين الجوالين، فكانت الموسيقى الأندلسية وسيلة من وسائل الترفيه لمجتمع بلغ درجة عالية من التقدم المادي والفني، مجتمع القرنين الرابع عشر والخامس عشر في الأندلس. وكانت هذه الروح الفنية المزدهرة تظهر في الزخارف والألوان المنتشرة ذات المباني والأشكال الهندسية المتمثلة في قصر الحمراء وجنة العريف بغرناطة وجامع قرطبة وقصر أشبيلية، وهو فن قائم على الخطوط الأنيقة المضاهية لرسوم ونحوت تلك المآثر العظيمة الخالدة.

إن السيد باربيس يربط بين الحضارة الأندلسية وبين موسيقاها الباقية في بلاد المغرب، ومنها الجزائر، فهي في نظره تعبير عما وصلت إليه الفنون والآداب والشعر خاصة، وما وصلت إليه الفئات الاجتماعية من بذخ احتاج إلى ترفيه وتسلية تتلاءم مع الذوق الناعم والحياة البورجوازية الراقية. فهل هذا صحيح؟ إن الكاتب يقول "إن الموسيقى الأندلسية تعزف على لحن واحد أساسي خالص وجميع الآلات المعبرة عنه والأصوات التي تشاركه... تكون في تآلف واتحاد كاملين". ولهذه الموسيقى أربعة مقامات أساسية هي: العراق ويمثل الجد والغلظة، والمزموم ويمثل اللطافة والحزن، والذيل ويمثل القوة والحيوية، والجاركة وتمثل الروح الدينية. وقد قام باربيس بمقارنة هذه المقامات بما يقابلها في الموسيقى الإغريقية. وتبين له أنهما مختلفان وأن لكل منهما خصائصه المميزة.

كما قابل المقامات الأساسية الأربعة المذكورة بمقامات ثانوية هي: الحسين والصيكة والماية والرصد، ثم قارنها بمقامات أخرى فرعية تتمثل في:

الرمل، والرمل ماية، ورصد الذيل، والغريب، والزيدان، والمجنبة. إن كل مقام من هذه المقامات يشتمل على (النوبة) وهي قطعة أو مجموعة من القطع تعزف وتغنى، إنها نوع من السنفونية المشتملة على عدة حركات متناغمة[1].

رأي عمر راسم في الموسيقى

من الذين اهتموا بالموسيقى عن دراية وعلم عمر راسم. فقد عاصرها ومارسها وكتب عنها، وهو يعتبر عمدة فيها. وكان يحب الموسيقى ويغار عليها بحكم أنه فنان من جهة وبحكم أنه باحث في أصولها وتطورها من جهة أخرى. وقد كنا عرضنا لبعض آرائه وكتاباته في كتابنا الثقافي. وها نحن نختم بما قاله عنها في آخر حياته. وإذا كان أخوه محمد راسم قد ختم حياته وهو غارق في متحف الرسم والمنمنمات فإن عمر راسم قد ختم حياته وهو يدافع عن الموسيقى الأندلسية الأصيلة.

في شهر الثورة (نوفمبر) كتب عمر راسم مقالة عنوانها (الموسيقى الأندلسية: صفحة من تاريخها بالجزائر) تحدث فيها عن أصول هذه الموسيقى في مدينة الجزائر وعن شيوخها وميزاتها وبعض تاريخها إلى زمنه. بدأ مقالته بتعريف الموسيقى وكونها مؤثرة في الإنسان وأنها من علامات الرقي الحضاري. وضرب لذلك مثلا بـ"أمة الأندلس العربية" التي نبغت في هذا الفن مما جعل ملوك أوروبا، في نظره، يتنافسون على ألحانها أو على ملحن عربي أندلسي يزين مجالسهم. ثم هاجرت الأمة الأندلسية إلى بلاد المغرب، ومنها الجزائر، فانتشرت الموسيقى في هذه الأقطار وحدث للموسيقى في موطنها الجديد ما ليس منه بد، فحرفت نغماتها وتغيرت تراتيبها ونظامها، أي تغلب عليها ما يسميه هو "الطابع الملّي البلدي"، وهذه الظاهرة نجدها بالخصوص في تونس والمغرب، ومن ثمة تغيرت طرق الأداء الفني الموسيقي. وضرب لذلك مثلا

---

(1) هنا الجزائر 26، يوليو 1957، ص 12-13. أنظر أيضا ما كتبناه في التاريخ الثقافي عن نفس الموضوع، ج/ 5 410-468، ج485/ 8.

وهو تغير الموسيقى في مصر والعراق بتداخل الألحان البدوية فيها ثم الألحان الأوروبية والأمريكية.

ويقف عمر راسم ضد التقليد ولذلك تعوذ من " الهجانة والمسخ! " والغريب أنه يقول إن الموسيقى الأندلسية هذه لم يطرأ عليها تغيير في الجزائر فلم تنحرف عن طابعها الأصيل، وهو رأي مخالف إلى حدّ كبير لرأي باربيس السابق. ذلك أن أهل الجزائر العاصمة بالذات كانوا ولوعين " بالتقليد للفن تقليدا دينيا "، فلم يتغير -كما قال- من الموسيقى حرف واحد ولا صوت واحد مما ورثته عن المهاجرين الأندلسيين بل نقلت عنهم ألحانهم ونغماتهم وأناشيدهم نقلا دقيقا، كما رويت أسانيد الحديث. لقد كانت الجزائر أيام شبابها وعزها -في نظره- هي غرناطة إفريقيا الشمالية. ولذلك قال عمر راسم إن ما بقي من الموسيقى، على قلته، ما هو إلا صورة صادقة مما كانت تتغنى به غرناطة وأشبيلية ومالقة وطليطلة وغيرها من المدن الأندلسية. وذلك عن طريق التواتر الصحيح.

نلاحظ مما سبق إصرار عمر راسم على عذرية الموسيقى الأندلسية في الجزائر. وهو يربط عذريتها بأيام العز التي لم يحددها. فهل كان ذلك زمن المرابطين أو زمن الموحدين، أو العثمانيين الذي شهد هجرة الموسيقى الأندلسية من موطنها إلى مهجرها الحصين؟ ولماذا تغيرت في تونس والمغرب، وهما جناحا المغرب العربي وموطنا الحضارة فيه، ثم تبقى الجزائر (الوسطى) محافظة على الموسيقى بدون تحريف؟ كما نلاحظ الربط عنده بين تطور الموسيقى وتطور ووصول الحديث الشريف، فهو يتكلم هنا عن التواتر. وللتذكير نقول إن عمر راسم كان من القراء المشهورين في الجامع الكبير، ومن ثمة كانت صلته بالموسيقى الأندلسية والقرآن الكريم والحديث الشريف وإنشاد المدائح.

كما نلاحظ إصراره على أنه هو نفسه شاهد على ثبات الموسيقى مدة

خمسين سنة (انظر رأي باربيس، سابقا) على أمر واحد، فلم يشاهد أو يسمع طيلة المدة المذكورة، ولم يقف على فرق، فيما سمع، ولو في مدّ أو قصر بين من عرفت من معلم ومتعلم، ومن أخطأ في نداء أو زاد نصف نقطة في غير محلها عدّ عليه نقص يسفه به عند أهل الفن. فالموسيقى الأندلسية مبنية على قواعد علمية، وعلى الأصوات المطلقة والممتزجة، فهي مركبة من " نوبات " ومرتبة على قواعد الإنشاء، وهي: الاستهلال فمقصود ثم خاتمة. والنوبة تبدأ بالتوشية ضربا من دون غناء، وكرسي مثلها، وهما مفتاحا الآلة، ويكونان على نقر الوتر. ثم يجهر بالمصدر ثقيلا، ويليه البطاحي أثقل منه في الغالب، ثم يليهما الدرج وهو أخف منهما، ثم يأتي الانصراف خفيفا، ثم الخلاص أخف. وقد يزيدون على ذلك الانقلابات (النقلبات؟) واحدها الانقلاب، وهو يتبع الصياح دائما، أو الاستخبار المناسب لصناعة النوبة، فإن كانت نوبة الزيدان يصيحون زيدانا أو يستخبرون سيكة، وهكذا. ولكل صناعة نوبة أو نوبات. ويقال إن الشيخ محمد المنيمش أستاذ السيد محمد سفينجة كان يعرف في الصنعة الواحدة عشرات النوبات بأصواتها.

وبعد هذه المعلومات الفنية والعملية يقدم عمر راسم معلومات تاريخية، فهو لا يستغرب مما روي عن الشيخ المنيمش مثلا، لأنه رأي بنفسه ديوانا بخط إمام الجامع الكبير الشيخ عبد الرحمن بن الأمين، جد شيخه قدور الأمين إمام مسجد سيدي عبد الرحمن الثعالبي. فإذا في هذا الديوان أربع وعشرون صناعة أو لحنا، ولكل صناعة نوبات كثيرة منها ما يزيد عدد مصدراتها على العشرين. وكان الشيخ عبد الرحمن بن الأمين يتقن الفن (الموسيقى) ويحسن تلك النوبات كلها. وكان في عصره هو رئيس القصادين (باش قصاد)، وهي وظيفة تشريفية، كان يتقلدها من يتقن الفن ويحسن تأدية تلك النوبات كلها، ويتولى بها إدارة جماعة من القصادين أو الفنانين الذين يتغنون بمدح الرسول (ﷺ) بالأناشيد أيام المولد النبوي في المساجد والأضرحة والزوايا. ويأسف الشيخ عمر راسم على أن الديوان الذي سبق أن رآه قد ضاع، كما ضاع في الجزائر كل

ما كان ينبغي أن تفاخر به. . . ولم يبق لأهلها في هذا الباب إلا قليل. لكن هذا القليل الذي بقي يعتبر أصح في نظره مما بقي عند المغاربة والتوانسة. . . وكذلك اللبنانيين لأن في نطقهم رقة تضعف قيمة اللحن الفنية. كما أنهم اخترعوا زيادة على الأصل أنفاسا غير موافقة لميزان الصنعة ونسبة الأصوات في الغالب.

وهكذا اهتمت الجزائر بالمحافظة على الموسيقى الأندلسية، كما اهتم أهل الحديث بصحة الرواية. فكان أعيانها وعلماؤها يتنافسون في حفظها في الصدور وإتقانها. . . وأشدهم حفاظا على ذلك الشعراء العلماء الذين تنافسوا في إنشاد «المولديات» وقياسها على نظام الأنغام الأندلسية. ويكفي دليلا على ذلك أن الذي أدخل الألحان الموسيقية، ثقيلها وخفيفها، حسب القواعد العلمية في الأناشيد والموشحات هو الشاعر أحمد بن عمار. . .(1)

وكان يشارك ابن عمار في الإنشاد الأئمة والفقهاء. وقد سار الكثير منهم على منواله من بعده. ومنهم أحمد بن القبطان إمام الجامع الجديد. وآخر فنان من ذلك السلف هو الشيخ محمد. سفينجة المتوفى عام 1908، وهو تلميذ الشيخ محمد المنيمش.

لقد كان سفينجة حسن الصوت "وهذا مما يقل وجوده في الفنانين في الجزائر". وبهذه المناسبة ذكر عمر راسم قصة جرت عند زيارة الشيخ محمد عبده للجزائر (1903). فقد أقام له الأعيان وليمة حضرها الشيخ سفينجة فأراد الشيخ مصطفى الكمال أن يعتذر للشيخ عبده عن لحن المغني وتحريفه للعربية فأجاب الشيخ عبده "بأن جميع المغنين يلحنون"، وأضاف أنه يستحسن نظام موسيقى الجزائر وأثنى على الشيخ سفينجة، وقال إن غناء الجزائر يشبه غناء

(1) انظر عن أحمد بن عمار ما كتبناه عنه في تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، وكذلك بحث محمد الحاج صادق عنه بعنوان المولد عند ابن عمار.

الأتراك وأنهما عنده أحسن بكثير من الغناء المصري. هذه هي خلاصة رواية عمر راسم.

وكانت هناك - حسب عمر راسم- مغنيات محترفات يتقن الموسيقى الأندلسية الصحيحة، وخاتمتهن في نظره، هي المعلمة أمينة بنت الحاج المهدي، وما يزال من بنات العائلات الكبيرة من يعزفن بالقيثارة والرباب والقانون... وتأسف الشيخ راسم على أن من يرى ذلك العهد الذي يشبه عهد إسحاق النديم وإبراهيم بن المهدي، ثم يرى الحالة الحاضرة وضياع تلك الآثار الجليلة واستبدالها بتقاليد المنحطين خلقا وخلقا للأغاني الأجنبية الفظيعة ونغمات النواح، فمن حقه أن يتأسف بشدة على ما آلت إليه الأحوال. بهذا التأسف والأسى ختم عمر راسم مقاله عن الموسيقى الذي هو ربما آخر صيحة له في هذه الدنيا[1].

تعليق على الموسيقى والغناء

هناك جيل من الموسيقيين الجزائريين ومن المغنين نشأ بعد الحرب العالمية الأولى وأعطى ثماره قبل الثورة. ثم لما حلت سنة 1954 كان هذا الجيل يرحل عن الدنيا تاركا وراءه ثروة من التقاليد والأشرطة والتلاميذ الذين واصلوا المهمة. ولم نستطع أن نجمع سير كل هؤلاء فهي متفرقة في الصحف وبعض الكتب والمذكرات والكنانيش، وهي موجودة لدى العائلات والأقارب. وقد نجح السيد محمد الحبيب حشلاف في تسجيل نبذة عن بعض الفنانين مع صور لمعظمهم، ونعم ما فعل.

ومما يلاحظ أن معظم الموسيقيين والمطربين كانوا قليلي الثقافة أو أميين، لم يدرسوا الموسيقى في معاهد متخصصة، ولم يتقنوا لغة الأداء بقراءة

(1) هنا الجزائر 29 نوفمبر 1954 + صورته. وهو يسجل حصة فنية في الإذاعة، في مجلة المناظر وصف لحفلة طرب أقامها جوق الفنانة فضيلة التي قال عنها الكاتب إنها وارثة الفنانة أمينة. أنظر المناظر، السنة الثانية، فبراير 1961، ص 40.

القرآن الكريم وترتيله، ولم يخضعوا لمدرسة نقدية صارمة تقيم أعمالهم وتضعهم على المحك والطريق الذي يستحقونه، وإنما هي الموهبة والهواية، وبعضهم انضم إلى المغنين والملحنين بالصدفة ولم يخضع لتدريب ولا لمعاناة. حقا لقد كان بعضهم موهوبا فاعتمد على نفسه ولم يخضع للدربة والمران، وبدأوا هواة مغامرين حتى وصلوا إلى مستوى اعتقدوا أنه يؤهلهم للجلوس على عرش الفن. ومعظمهم اعتمد على الموسيقى الأندلسية والشعبية يدندن أو يرطن بهما، وكلاهما نوع من الموسيقى التي تستر عيوبهم عن عيون النقاد والمتذوقين. فهذه الموسيقى أصبحت- رغم رأي عمر راسم فيها- هي حمار الموسيقيين على غرار حمار الشعراء (بحر الرجز) يتسلقها كل غاو وكل طاو وكل عاو. ولكن لا بدّ من استثناء من لا يستحقون هذا الحكم وهم الذين درسوا وتعلموا وعانوا حتى وصلوا إلى مرحلة الجودة والإتقان والإبداع مثل محمد إيقربوشن.

عشت فترة في العاصمة في مرحلة الثورة، قادما إليها من تونس بعد التخرج من الزيتونة. وسكنت غرفة على سطح حمام شعبي بضاحية الحراش. وفي كل صباح كنت وصاحبي ننزل من السطح إلى بهو الحمام حيث نسمع ونحن نعبره الحاج محمد العنقاء وزملاءه يدندنون بكلام غير مفهوم لنا وبموسيقي ليس فيها - في نظرنا- سوى نقر العود وبعض الأنغام الرتيبة. نتوقف وننصت محاولين جهدنا فهم ما يغنّى وموضوع الأغنية فلا نفهم شيئا، فنواصل سيرنا إلى هدفنا وهو المدرسة. وقد تكرر ذلك منا إلى أن صرنا نسمع فتقبل آذاننا وذوقنا ذلك النغم الرتيب والدندنة المملة، وكنا نكتفي بالقول لبعضنا إنه "فن العاصمة " ونحن فيها وعلينا أن نتأقلم ونقبل ما يقدم لنا على أنه فن وموسيقى وشعر جزائري.

وبعد حوالي عام كنت في القاهرة حيث أسمع - كما في تونس - الموسيقى والطرب الشرقي والشعر الفصيح والشعر الملحون (الزجل)، ومختلف الألحان الشرقية دون دندنة ولا كلام مغموم. وذات يوم كنا في نادي

الطلبة، وقد فرضت الثورة الوحدة الوطنية على الجميع وقبول فن الآخر على أنه وإن اختلف نغما ولفظا فهو فن وطني، كما فرضت على الجميع التحدث وطنيا لا جهويا حتى في الفن والموسيقى. ومع ذلك حدث نقاش حاد بين طالبين حول ما إذا كان ما يسمى الموسيقي الأندلسية مفهومة جزائريا أم لا وما إذا كان فعلا فنا وطنيا، وكذلك جرى النقاش حول ما يسمى بالموسيقى الشعبية ودندنة العنقاء التي يرددها في أغنيته (لحمام اللي ربيت مشى عليا) وقد انتهى النقاش بين الطالبين على أن هذا النوع من الفن قد انتهى عهده وأن على المغنين أن يفصحوا بألسنتهم عما في قلوبهم وعقولهم لأن ما ينطقون به غير مفهوم إلا لهم ولحوارييهم.

الأخوان فخارجي

من أقدم الموسيقيين عشية الثورة الأخوان فخارجي. كانت شهرة محمد فخارجي قد غطت على عدد من زملائه، وقد وصل إلى رئاسة جوق المحطة للموسيقى الأندلسية براديو الجزائر، وكان يعتبر من النابغين فيها، وهو يظهر بطربوشه العثماني وصورته المهيبة من القادة البارزين في هذا الفن، إلى أن توفاه الله سنة 1956، فترك فراغا في مجاله لم يملأه إلا أخوه عبد الرزاق فخارجي الذي تولى بعده رئاسة الجوق، وهو أيضا فنان موهوب، ولد حوالي 1912 واهتم بالموسيقى الأندلسية التي يبدو أنها كانت متوارثة في العائلة، ولعل العائلة نفسها كانت من أصول أندلسية. ورغم أن سفينجة وجيله قد انتهوا فإن عبد الرزاق ظل يستمع إلى أشرطة سفينجة على الخصوص، ثم بدأ يعزف بنفسه رفقة أخيه الآخر حميدو الذي كان يكبره، كما عزف على آلة (الماندولين) أوائل العشرينات. ثم تخلى عبد الرزاق عن الموسيقى فترة بعد وفاة أخيه حميدو (1925) ولكنه رجع إليها بعد أربع سنوات. وفي هذه الأثناء أنشئت جمعية باسم (الأندلسية) فنودي على محمد فخارجي ليتولى أمرها كأستاذ، مع السيد مخيلف، فاشترك معهم عبد الرزاق كعازف على آلات غربية، وهكذا أصبح عبد

الرزاق يرافق أخاه في الحفلات.

وفي سنة 1930، أنشأ محمد جمعية باسم (الجزائرية) فانضم إليها محمد تفاحي فتعلم عليه عبد الرزاق الكثير من الأغاني، وكانت الحفلات التي يشترك فيها مع أخيه وتفاحي حفلات اجتماعية مثل الأعراس. وبعد أدائه الخدمة العسكرية أصبح أستاذا في الموسيقى الأندلسية. وفي هذا العهد اندمجت جمعية(الجزائرية) في جمعية (الغرناطية) فواصل العمل فيها كأستاذ مع تفاحي، وقد تخرج على يديه عدد من العازفين الذين أصبحوا من عناصر (الأوركسترا). ومنذ 1950 سمي عبد الرزاق أستاذا في المعهد البلدي للموسيقى بالجزائر. ولما نشأت الإذاعة سنة 1930خصصت ساعتين للموسيقى العربية فكانت الأوركسترا الجزائرية هي التي قدمت أول مسابقة، وكانت تؤدي دور المخفف لما عليه الناس من حزن وبؤس. ومن ثم نفهم أن عبد الرزاق فخارجي لم يتلق أية ثقافة رسمية في حياته، وأنه لم يخرج من الجزائر للمشاركة والتدريب والتعلم، وأن مجاله هو الموسيقى الأندلسية التي ورثها عن العائلة وعن الشيخ سفينجة بالتأثر لا بالتتلمذ، ومع ذلك وصل إلى رئاسة جوق المحطة (الإذاعة) وقيادة الأوركسترا، مثل أخيه محمد[1].

إضافة إلى ما سبق عن محمد فخارجي نذكر أن أحمد سري، وهو من الموسيقيين المشهود لهم، كتب عنه كلمة تأبين، فقال إنه مرض مرضا دام عشر سنوات، ومنه إلى الموت، قبل الأوان، وله تلاميذ في الموسيقى الأندلسية، وأضاف سري أن محمدا كان من أتباع زرياب[2].

كما أن تقسيم أنواع الموسيقى العربية في الجزائر إلى مدارس حسب

---

(1) هنا الجزائر49، أكتوبر 1956، وكذلك نفس المرجع، 51، ديسمبر 1956.

(2) هنا الجزائر 49، أكتوبر 1956. وقد توفي محمد فخارجي في 4 يوليو 1956. وقد اهتمت هنا الجزائر به باعتباره رئيس جوقة المحطة للأغاني الأندلسية، ونشرت صورته وصورة جوقته، انظر هنا الجزائر، فبراير 1960، ص 13.

الجهات أو حسب والطبوع قد تبلور في الخمسينات. فقد صنفت الموسيقى إلى: أندلسية وشعبية وعصرية ونحوها. كما صنفت أحيانا إلى الفن الصحراوي والقبائلي والوهراني والقسنطيني والتلمساني... ونعتقد أن هذا التصنيف كان مقصودا ومدروسا، وهو من صنع وتكريس الفرنسيين حتى يبقى الجزائريون بعيدين عن الوحدة في تذوق فنهم والشعور بجمال طبيعتهم.

وللأسف فإن الجيل الذي تولى مقاليد الاستقلال من الجزائريين قد أبقوا على هذا التصنيف دون التفطن إلى ما وراءه من حبائل وفخاخ. بالعكس لقد تكرس هذا التصنيف اليوم بإنشاء إذاعات محلية تحافظ على خصوصيات كل ولاية وتغيب كل ما له علاقة بالروابط الوطنية من تراث مشترك وثقافة دينية ولغوية وشعور بالانتماء الحضاري الواحد. وقد أصبح لكل صنف جوقة أو فرقة فنية تعزفه وتختص به. ولكل جوقة فنانها الماهر الظاهر المتميز، فللأندلسي مثلا محمد فخارجي وعبد الكريم دالي ودحمان بن عاشور وللمالوف محمد الفرقاني، وللشعبي محمد العنقاء وتلاميذه، وللعصري عبد الرحمن عزيز ومحمد العماري. وقد ظهر متخصصون من الجزائريين ومن الأوروبيين (خصوصا اليهود) في دراسة كل صنف وتحديد معالمه وأصوله. وللوهراني أحمد وهبي والبلاوي الهواري، وللصحراوي أحمد خليفي ورابح درياسة وعبد الحميد عبابسة. وللقبائلي سليمان عازم.

وأشار أحد الكتاب إلى وجود جمعية جزائرية للموسيقى الأندلسية، وانتقد مؤتمر القاهرة لسنة 1932 الذي لم يحقق في نظره شيئا. كما عرفنا بوجود بحث كتبه جول رواني الفرنسي ونشره في دائرة المعارف الموسيقية. وقام السيد إسكندر شلفون بنقله إلى العربية وأظهر بعض هفواته. وهو البحث الذي استفدنا منه في الأجزاء السابقة من التاريخ الثقافي. وهناك مقال آخر عن الموسيقى الأندلسية عرض رأيين، رأي من يقول بتطوير هذه الموسيقى عن طريق استعمال الآلات الأوروبية ورأي من يقول ببقائها دون تطوير، أي على أصالتها. ودليل من يقول بالتطوير هو أن صاحب العمامة والجبة وغيرهما

يستطيع أن يقود السيارة . . . فلماذا لا يستعمل أيضا الآلات الأوروبية للموسيقى الأندلسية[1].

وفي أوائل الخمسينات برز محمد العنقاء بعد أن مر بمراحل في حياته جديرة بالاعتبار حتى وصل إلى رئيس جوقة الموسيقى الشعبية. كتب عنه عثمان بوقطاية مقالة تتبع فيها مراحل حياته منذ ميلاده سنة 1907 وسماه صاحب مدرسة في الفن الشعبي. وفي سنة 1919 كان الفن الشعبي في الجزائر يحتكره الشيخ مصطفى الناظور وكان العنقاء من تلاميذه المواظبين على حضور مجلسه وجوقته بل حتى في تنقلاته. ولما توفي الشيخ الناظور سنة 1926 تملكت العنقاء مشاعر اليأس خوفا على ضياع ما تعلمه.

توقف العنقاء فترة عن تعاطي الفن الشعبي والتحق بضريح الشيخ عبد الرحمن الثعالبي وعاش أجواء المدائح النبوية وحياة الحضرة الصوفية والأناشيد فانتعشت روحه ووجد ضالته ولازم هناك الشيخ علي الأكحل الذي أخذ عليه العنقاء قواعد الفن الشعبي. وبعد أن أجازه هذا الشيخ على طريقة القدماء أخذ العنقاء يحيي الحفلات ويسجل الاسطوانات، كما عمل في الإذاعة وتخرج على يديه عدد من الفنانين الشعبيين. وفي سنة 1954- وهو العهد الذي يهمنا - أصبح العنقاء رئيسا للجوقة الشعبية الرسمية للإذاعة[2].

بالنسبة للموسيقى أيضا نجد الفنانين الجدد يقلدون من سبقهم. فقد قيل إن الربيع بوعلام كان يقلد رشيد القسنطيني. وسمي عبد الرحمن عزيز بمطرب الشباب، وقيل عن محمد العماري إنه كان يقلد عزيز. ومن جهتها كانت الإذاعة تقيم حفلات فنية باسم (الميزكول العربي) تارة في سينما الجمال

---

(1) المنار 9، 5فبراير 1951 وعدد 10، 22 أكتوبر 1951.

(2) هنا الجزائر21، فبراير 1954، يحتوي هذا العدد صورة للعنقاء، ولا ندري ما موقفه بعد ذلك من الثورة ومن النشاط الفني، هل تأثر أو لم يتأثر بالمعطيات الجديدة.

وأخرى في سينما دنيازاد. كما كانت تقيم حفلات في المسارح[1].

بعض الموسيقيين والمغنين

كنا درسنا حياة ونشاط محمد إيقربوشن في كتابنا التاريخ الثقافي، ج8، وهو من الذين درسوا الفن ونالوا جوائز وشهرة عالمية، ومع ذلك لم تغره هذه الأمور ورجع إلى الجزائر في وقت صعب وفضل الإقامة بها إلى وفاته سنة 1966. قيل عنه إنه كان رجلا متواضعا حييا، بدأ حياته الفنية عازفا على الجواق (الناي) شأنه في ذلك شأن الفتيان الجبليين والصحراويين الذين يندمجون في الطبيعة ويبتهلون إلى الأرض والسماء في لحظات من التجلي. وبالصدفة زار المنطقة زائر من اسكتلندا يعشق الفن ويدرس البيئة فأعجب بقدرة محمد إيقربوشن على العزف فأخذه معه إلى لندن فتعلم فيها وفي العواصم الأوروبية الأخرى الموسيقى حسب أصولها، حتى وصل إلى أعلى السلم.

كان راديو وتلفزيون الجزائر يذيع مسرحياته ونشاطه الموسيقي، وقد فاز أحد الأفلام التي وضع لها الموسيقى بالجائزة الثانية في مهرجان بروكسل الدولي سنة 1949.

استوحي محمد إيقربوشن فنه من الفولكلور، كما أنه الوحيد تقريبا من الموسيقيين المسلمين الذين درسوا الموسيقى الكلاسيكية (الأوروبية) دراسة عميقة، وقد أصبح عضوا شرفيا في عدة جمعيات. وطلبته عدة شركات دولية صانعة للأفلام لوضع موسيقى أفلامها الشرقية، ومع ذلك فضل الرجوع إلى الجزائر والإقامة بها حيث كان يكتب قصة تارة ويعزف لحنا تارة أخرى. ويتعاون مع راديو وتلفزيون الجزائر إلى أن وافاه أجله[2].

(1) هنا الجزائر 71، ص 10.

(2) هنا الجزائر 54، مارس-أبريل، 1957، مع صورته، وتاريخ الجزائر الثقافي، ج8، فصل 3، ص 473، وحشلاف: المجموعة الموسيقية، ص 222.

هناك فريق من الموسيقيين والمغنيين شاركوا في الحياة العامة كأصحاب مواهب وهواية فنية وعملوا في وسائل الإعلام المتاحة في ذلك الوقت، بما فيها العمل داخل الإذاعة والتلفزيون الفرنسية(بالجزائر أساسا)، ثم كان لهم نشاط لفائدة الثورة أيضا سواء داخل الجزائر أو خارجها.

ومن هؤلاء أحمد وهبي الذي قضى حوالي عشر سنوات(1947-1957) في فرنسا، وهو التاريخ الذي انتقل فيه إلى تونس، وبادر بإنشاء فرقة المسرح الوطني لجبهة التحرير باقتراح من بعض القادة، ولكنه لم يستطع أن يبدأ جولاته خارج تونس إلا بنهاية 1958، لأنه كان في حاجة إلى ممثلين آخرين من الجزائر وفرنسا. وقد شارك حتى سنة 1962 في جولات فنية للدعاية لقضية الجزائر، وخلال هذه الفترة ألف وغنى عدة أغاني ثورية. ومنذ الاستقلال اختار الإقامة في وهران، ولم يغادرها إلا لزيارة المغرب أو فرنسا حيث كان مولده سنة 1921. وفي سنة 1971 تولى الإشراف على المسرح الجهوي لوهران، ونال الجائزة الأولى في مهرجان أبي ظبي على تلحين أغنية دينية بكلمات الشاعر السوري علي صالح. كان أحمد وهبي معجبا بمحمد عبد الوهاب، ولكنه لم يتلق الفن دراسة، وشارك في فرق محلية ووطنية وفي الكشافة. وله صوت بدوي عميق، وشخصية فنية متميزة[1].

ولد عبد الحميد عبابسة في بريكة سنة 1918، وتلقى تعليمه الابتدائي في المدرسة القرآنية، ثم درس على الشاعر محمد العيد آل خليفة في مدرسة الشبيبة الإسلامية بالجزائر العاصمة، وقد لحن في هذه الفترة للكشافة الإسلامية نشيدا جميلا هو (عليك مني سلام يا أرض أجدادي) وهو نشيد وطني ربما كان يتردد المشرق(؟). كان عبابسة مهتما بالأغنية والشعر والموسيقى. وقيل إنه كان من الشعراء المتصلين بحزب الشعب الذي أوعز إليه بالاتصال بالجماهير وتوعيتها وطنيا وسياسيا وحثها على جمع التبرعات،

---

(1) حشلاف، مرجع سابق 229-230.

وله أشعار في مذبحة 8 مايو قادته إلى السجن، حسب رواية حشلاف، وقد خرج منه سنة 1946 بعد العفو العام.

ذهب عبابسة إلى باريس وغنى هناك للجالية العربية، وسجن من جديد مع المغني الحسناوي الذي اتهم بالتعاون مع (راديو مونديال) خلال احتلال باريس. وعندما اندلعت الثورة كان عبابسة مع فرقته في خراطة فتفرقت الفرقة وألغيت حفلاتها، ثم رجع إلى فرنسا سنة 1956، وفيها تعاون مع محمد بوضياف، وواصل حثه لأعضاء الجالية على الرجوع للوطن والانضمام للثورة. ومن أبرز أعماله بعد الاستقلال قصة (حيزية) التي وضعها في شكل أوبريت للتلفزيون الجزائري، وله أكثر من 350 قصيدة وأغنية، ويعتبر من شعراء الملحون التقليديين[1].

ومن هذا الفريق علي معاشي الذي كان واعدا بتقدم كبير في ميدان الفن ولكن حياته اقتطفت قبل الأوان.

ولد علي معاشي في تيارت، وشارك في الكشافة الإسلامية، وأنشأ سنة 1952 فرقة موسيقية داخل الكشافة سماها (سفير الطرب). وكانت الكشافة هي المدخل للحركة الوطنية لعدد كبير من الشباب. كان معاشي يعزف الناي ويغني اللحن الوهراني العصري، وكان من المعجبين بفريد الأطرش وبأغنيته (بساط الريح)، فقلدها بأغنيته (أنغام الجزائر) التي وضع فيها ألحانا من مختلف أنحاء الوطن، كما كان معجبا بعلي الرياحي التونسي . وفي 1953 أدى الخدمة العسكرية في البحرية، وتخصص في اللاسلكي. فتعلم مبادى الإرسال الإذاعي، وعين بعد ذلك مساعدا لمهندس البث الإذاعي الصوتي وعمل في الحصص العربية، وسجل عدة أغاني في هذه الفترة (1954)، منها (وصية القومري) التي عبر فيها عن مشاعره الوطنية، وربما ألف ذلك الشعر واللحن حين كان بحارا بعيدا عن الوطن.

---

(1) حشلاف، مرجع سابق، ص 234-235.

كان معاشي على اتصال بجبهة التحرير التي كلفته بعدة مهام، ومنها -كما قيل- تسجيل نشيد(قسما) لأول مرة. وقد بقيت هذه المسألة - حسب السيد حشلاف- غامضة ودفينة أرشيف الثورة. ورغم أنها كانت مهمة محفوفة بالأخطار فقد نالت حظا من الشهرة والنجاح. فقد قررت الجبهة تسجيل النشيد من نسخة وردت إليها من تونس، وكان الهدف هو توزيعها عبر الوطن، ولم يكن من السهل القيام بتسجيل من هذا النوع دون آلات متقدمة، ولذلك قرر علي معاشي القيام بالنسخ مع السرية داخل الإذاعة نفسها مع جماعة كانوا يعملون معه، وكانت الإدارة الاستعمارية تراقبه بدقة. وفي سنة 1958 رجع معاشي إلى تيارت فاعتقلوه وأخذ الجيش الفرنسي أقواله، وعذبوه في غابة مع زميلين له، ثم شنقوهم وسط المدينة في الثامن يونيو 1958. وهذا العمل الفظيع ينسب إلى الضابط (ماركان) وجنوده السكارى[1].

عاش ميسوم العمراوي في الجزائر وفرنسا، ومنذ 1957 أصبح من أبرز الملحنين المحدثين، وهو من مواليد القصبة سنة 1921، وقد عرف اليتم منذ صغره، ومارس مختلف المهن، منها ماسح أحذية ليدفع ثمن دراسته، ثم أنشأ في العاصمة أول (أوركسترا) للفن الشعبي، متخصصة في الحفلات العائلية، وقام بجولات ناجحة عبر القطر، ومنها حفلات لصالح حزب الشعب وحركة الانتصار. وفي 1947 سافر إلى فرنسا بهدف بث نشاط هذه الحركة داخل الجالية الجزائرية، وفي فرنسا لحن أغنية (القصبة)و (يا فلاح) بالتعاون مع أخيه غير الشقيق: الحاج عمر الذي كان مخرجا وممثلا في المسرح الجزائري. وغنى العمراوي أغنيته (أنا العربي) بنفس اللحن الذي غنى به اليهودي راؤول جورنو (أنا التارقي)، فنالت نجاحا كبيرا.

وتعلم العمراوي في باريس أنواعا جديدة من الآلات، وواصل نشاطه السياسي أيضا وسط المهاجرين إلى 1958، ودخل السجن خلال هذه الفترة

---

(1) حشلاف، مرجع سابق، ص 213-232.

في غرونوبل لأنه غنى نشيد (فداء الجزائر) إضافة إلى (أنا العربي). وفداء الجزائر هو النشيد الوطني الذي غنته معه القاعة، وقيل إنه سبّب له مشكلا مع جبهة التحرير أيضا فاتهمته بأنه ذو نزعة مصالية، كما غنى نشيد (من جبالنا) الذي أعطاه إياه حشلاف بصفته كشافا، وكذلك نقل إليه نشيد(شعب الجزائر مسلم): كل ذلك قبل أن يمكنه حشلاف من نشيد (قسما) الذي وصلت نسخة منه عن طريق إذاعة المغرب سنة 1958.

عادت الأمور إلى مجراها بين جبهة التحرير والعمراوي، ولكنه لم يجد الكلمات المناسبة للغناء والإنشاد رغم كونه ملحنا، فدخل مع محمد الجاموسي وغيره في عمل مشترك، وفي سنة 1960 دخل أحمد حشلاف إلى الجزائر وعاد له منها بعدد من القصائد التي نظمها أخوه محمد الحبيب حشلاف المعروف بأنه (قوّال) وصاحب قصائد على طريقة مصطفى بن إبراهيم وعبد الله بن كريو وابن سماية وابن سهلة. وقد استمر العمراوي في عمله الفني إلى وفاته سنة 1969 في باريس إثر عملية جراحية. ويذهب حشلاف إلى أن كل أعمال ميسوم العمراوي مسجلة ما عدا تلك التي سجلها وهو على فراش الموت، وله تلاميذ غنوا ألحانه[1].

وشبيهة بسيرة العمراوي سيرة حسن العربي المعروف (حسيسن). فقد غنى الشعبي الذي يأتي إسهامه فيه بعد إسهام العنقاء والحاج مريزق وخليفة بلقاسم. وحسن العربي من مواليد العاصمة أيضا سنة 1920. عاش طفولة غير مستقرة مثل جيله من أبناء القصبة، وكان ظهوره قد تمثل في العزف المنفرد على آلة القيثارة لكي يطرب شباب الحي، ثم شارك في الفرق التي أنشأها من هم أكبر منه سنا، فأظهر موهبة فائقة وأصبح يؤلف وحده بعد أن جمع الأشعار، وكان حسيسن يمزج الفن بالسياسة، فكان -كما قيل - مغني حركة الانتصار. وقد واصل مسيرته على ذلك النحو إلى أن وقعت معركة الجزائر

(1) حشلاف، المجموعة الموسيقية العربية، ص 222-223.

(1957) فشعر بالخطر فذهب إلى فرنسا حيث بقي مدة يغني للمهاجرين، وأدى هو ورفيقه ميسوم العمراوي بعض الأغاني، وغنى بالقبائلية أشعارا أخلاقية ودينية، وكانت حصته تعرف بـ(ليالي حسيسن) في مقصف (المروك). ثم التحق بتونس وانضم إلى الفرقة المسرحية التابعة للجبهة وشارك في عدة حفلات لصالح قضية الجزائر، لكن صحته تدهورت بسرعة وتوفي بتونس سنة 1959 ولما يبلغ الأربعين من عمره[1].

أما محمد التوري فقد ولد في البليدة سنة 1918، ودرس في المدارس القرآنية ودخل مدرسة جمعية العلماء في البليدة، ثم أصبح بدوره مدرسا في المدارس الحرة، وتحول إلى دهان، وبدأ خلال ذلك يهتم بالغناء وتطوير الكشافة الإسلامية، وكانت حياته مع إخوته ضنكة، فاختار الأغاني الساخرة، وكان اسمه الحقيقي محمد بسناسي، وقد تولى عدة بعض الوظائف، ثم ترك ذلك وتفرغ للمسرح والغناء وأنشأ أول فرقة سنة 1936، ولا نجد من تحدث عن مشاركته في الثورة في الجزائر أو في فرنسا، ولكن أدواره المسرحية والسينمائية كانت تجسد نقدا للاستعمار والمجتمع وتعبر عن أحوال الثورة التي كان الشعب مندمجا فيها، فقد كان التوري قريبا جدا من الجمهور المضطهد، وله تفكير عميق يعبر عن ثورته ضد الظلم والاضطهاد، ولعل حالة الفقر التي عاشها هو وإخوته وقسوة الحياة لها دخل في اختياره هذا الاتجاه الذي يسميه كتاب ذلك الوقت بالواقعي[2].

غنت فضيلة لمنكوبي زلزال الأصنام في باريس (أنظر سابقا) سنة 1954، وشاركت بفنها في الإذاعة والتلفزة الفرنسية بالجزائر أيام الاستعمار. ورغم نشاطها الفني فقد قيل إنها شاركت في الثورة بجمع التبرعات مع أختها، فاعتقلت وسجنت في سجن سركاجي دون أن يذكر المصدر متى كان

(1) حشلاف، مرجع سابق، ص 209.

(2) حشلاف، مرجع سابق، ص 273-274.

ذلك. وبعد خروجها من السجن شكلت فرقة موسيقية خاصة مع أختها ووالدتها وعدد آخر من النسوة، وأعدت لكل واحدة منهن آلة تعزف عليها، وهو عمل يثير الدهشة من فرقة لم يتعلم أعضاؤها الموسيقى في مدرسة أو معهد. وقد تحدثت (المناظر) عن فرقتها، واعتبرت فضيلة مجددة في الفن الأندلسي العصري(كذا)، وقالت إن باش تارزي قد ساعدها على شق طريقها في التمثيل وعلى نيل الشهرة في باريس، وأنها كانت معجبة بالطرب التونسي الشعبي والغناء العصري. واعتبرتها هذه المجلة، مع أحمد سري، باعثي النهضة الموسيقية الجزائرية العتيقة بين الشباب العصري[1].

من الفنانين الذين اشتهروا وكان له جمهوره الخاص وتعبير مفهوم وحكم مأثورة، عبد الرحمن العمراني المعروف بدحمان الحراشي، فقد كان والده (العمراني) مؤذنا بالجامع الكبير بالعاصمة، ففضل ابنه عبد الرحمن ألا يسى إلى اسم العائلة بذكرها مقرونة بالغناء الذي لا يرضاه كل الناس. ولد عبد الرحمن سنة 1926 في الأبيار، ثم انتقل أهله إلى الحراش وهو صغير فأطال الإقامة في هذه الضاحية الشعبية فنسب نفسه إليها (الحراشي). فهو من عائلة محافظة متدينة، درس في المدرسة القرآنية وكذلك في المدرسة الفرنسية، ونال الشهادة الابتدائية، ثم مارس مختلف المهن، فهو إسكافي ومستخلص (الترامويي) لمدة سبع سنوات بين الحراش وباب الواد. بدأ حياته الفنية مع فرقة الحاج المنور وغيره وقام بجولات فنية بدأها ببسكرة التي يقال إن أصله منها، وعنابة سنة 1949. ثم سافر إلى فرنسا لينشط حياة المهاجرين. وقد حقق نجاحا وأصبح مؤلفا وملحنا، وغنى أغنية أكسبته شهرة بعنوان (بلاد الخير). يمتاز دحمان الحراشي بصوت فريد، وفنه يأتي بين الشعبي والعصري، فهو لا يشبه الآخرين في مجال الغناء، ومن الصعب تصنيفه، وركز في أغانيه على الحنين إلى الوطن وإسداء النصح وسوق الحكمة وتنبيه الغافلين،

---

(1) مجلة المناظر، السنة الثانية، فبراير 1961، ص 40. وحشلاف، مرجع سابق، ص 189.

وهو الذي شبه في أغانيه المرأة بالحجلة والحمامة، وقيل عنه إنه كان مسلما ملتزما، وتوفي في حادث سيارة سنة 1980[1].

المطربة وردة من مواليد 1940 بفرنسا، وبدأت تاريخها الفني وعمرها أحد عشر سنة إذ كانت تقدم أسبوعيا حصة أطفال يشرف عليها حشلاف في الإذاعة والتلفزة الفرنسية سنة 1951، وكانت تغني أغنية لمشاهديها الصغار، فنالت نجاحا كبيرا واهتم بها المؤلفون وأعطوها أغاني تلائم سنها، فوضع لها زكي خريف (يا مروح لبلادي)، والجاموسي (بلادي يا بلادي)، ورضا القلعي (يا حبيب القلب)، وهكذا. كان والدها من أقدم المهاجرين الجزائريين إلى فرنسا، وكان يدير مقصفا (فوايه) للعمال، وكان المقصف منذ 1936 مكانا لنشاط نجم شمال إفريقيا، ثم أصبح والدها مالكا لمقصف(تام.تام) حيث بدأ نجم وردة في الظهور، ثم أصبح نفس المكان موئلا لنشاط جبهة التحرير إلى أن تم غلقه سنة 1958، وهو تاريخ نفي العائلة كلها. أم وردة لبنانية مسلمة فعلمتها الأغاني اللبنانية، وبذلك تكون وردة قد تعلمت الفن الشرقي الأصيل. كانت وردة منذ صغرها تقلد أم كلثوم وعبد الوهاب وفريد الأطرش، أما غناؤها في طفولتها في الإذاعة والتلفزة الفرنسية فقد ربطها بالأغنية المغاربية، ولاسيما التونسية.

سنة 1954 كان عمر وردة أربع عشرة سنة. بدأت تغني للثورة، فغنت (يا حبيبي يا مجاهد) و(يا عمي يا مناضل) و(بلادي يا بلادي) و (يا مروح لبلادي) السابقتين، وفي 1958، اتفقت عائلتها كلها على الهجرة إلى بيروت حيث ظلت وردة تواصل غناءها للثورة، فغنت (جميلة) و(أنا من الجزائر أنا عربية)، وقد لحن لها رياض السنباطي أغنية (نداء الضمير) لصالح خرفي بعد أن سمع السنباطي صوتها من إذاعة معرض دمشق. ووصلت القاهرة سنة 1960 فوجدت السنباطي مستعدا لمساعدتها، فلحن لها كلمات من شاعر

---

(1) حشلاف، مرجع سابق، ص 226–227.

مصري (يا حرية أنا بندهلك)، كما غنت لفلسطين. وفي 1961 شاركت في لحنين وضعهما محمد عبد الوهاب وهما (الوطن الأكبر) و (الجيل الصاعد). وقد عرفت في المشرق باسم وردة الجزائرية[1].

كان يمكننا أن نواصل الحديث عن الفنانين وألحانهم وتقلبات الحياة معهم، ولكننا رأينا أن نكتفي بهذا القدر لأن الهدف هو معرفة مدى علاقة الفن بالثورة. ولا شك أن هناك مغنين وموسيقيين وشعراء شعبين، كما كان هناك رسامون ونحاتون، لم ينضموا للثورة أو ناضلوا في صفوفها سرا. ونظن أن النماذج التي أتينا عليها تلقي الضوء على الموضوع بشقيه.

(1) حشلاف، مرجع سابق، ص 43-45. أول مرة أشارت هنا الجزائر إلى اسم وصورة وردة كانت في العدد 31، يناير، 1955، ص 14.

الفصل السابع

السينما والرسم والمكتبات والخطاطة والمتاحف

السينما

السينما من الفنون الجديدة التي عرفتها الجزائر، وقد بدأ الفرنسيون في إنتاجها منذ وقت مبكر. ثم طوروها حتى وصلت، مع الإذاعة والتلفزيون، إلى مرحلة متقدمة. وعندما نتكلم عن التلفزيون فإننا نتكلم عن مرحلة الثورة لأنه بدأ، كما سبقت الإشارة، يعمل أثناءها، فالجزائر هي البلد العربي الأول الذي دخله التلفزيون. ورغم أنه مؤسسة فرنسية النشأة والتوجيه والإنتاج فإن الجزائريين سرعان ما استفادوا منه وظهر من بينهم من أخذ ينتج له أفلاما وبرامج وتمثيليات بالعربية الدارجة(1).

أما السينما فقد كانت الفن الأصعب تنفيذا لاحتياجه إلى خبرات وتقنيات دقيقة لكي تخدم الثورة والمجتمع، ولذلك تأخر ميلادها عند الجزائريين إلى عهد الثورة. ويقال إن أول فيلم جزائري أنتجته الثورة كان سنة 1960، أي بعد حوالي ست سنوات من تقدم الكفاح، ولكن كيف سارت الخطوات وكيف أنجزت الأعمال، ومن فعلها أول مرة، هل هم الجزائريون وحدهم أو بمساعدة الأجانب؟ لنستمع إلى مختلف الآراء والروايات. ومصادرنا رغم أنها شحيحة، فإنها تكرر نفسها وتأخذ عن بعضها، ولا تعطي في معظمها إلا صورة غير كاملة لما حدث بالفعل.

(1) عن أوليات السينما أنظر كتابنا تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء 305/5.

بكل حماس وفخر قدمت (المجاهد) ما اعتبرته أول فيلم جزائري أنتجته الثورة، وهو فيلم (جزائرنا) الذي خرجت به الجريدة على قرائها مع صورة لانفجار من الشريط نفسه علقت عليه بقولها: "من واقع الثورة الحي". ولم تذكر المجاهد شيئا عن هذا الفيلم القنبلة ولا عن الممثلين ولا مكان التصوير ولا زمنه أو مدته. لقد اكتفت بقصته، بموضوعه وبكونه يصور أثر الحرب المدمرة على القرى والأرياف وسط مناظر الأطفال وهم في حالة رعب من جنود مسلحين بالحقد والكراهية، على حد تعبيرها. إنهم جنود يحملون الموت والخراب في كل مكان. تلك هي (جزائرنا)، البؤرة الوحيدة المشتعلة بالحرب في العالم. إن قصة الفيلم تمتد 130 سنة من الاضطهاد والنهب واغتصاب الأرض والاحتكار، وطرد السكان إلى الأكواخ والبطالة والذل، إنهم ملايين النساء والأطفال والرجال الذين أصبحوا بلا مستقبل، بلا وطن، وهو(جزائرنا).

ولكن الشعب المطرود من أرضه المغتصبة لم يستسلم. إنه يتمتع بإرادة النضال والثورة على الظلم والاستعمار من أجل أن تعود (جزائرنا) المغتصبة. كما أن المستعمرين صمموا على الاحتفاظ بالجزائر وقابلوا المقاومة بالحديد والنار وبجيش مدجج بالسلاح العصري يحمل معه "النابالم" والقنابل الحارقة وأدوات التعذيب ليقمع بها (جزائرنا) التي ظلت رافعة الرأس شامخة الذرى. لقد فتح العالم عينيه على الفاجعة، بينما فتح الممثلون الجزائريون ملف (جزائرنا) أمام هذا العالم فأصبحت مثالا للصمود والدفاع عن الحرية، هذا الصمود والكفاح قام بهما شعب مصمم على انتزاع حقه وهويته التي سرقها منه الاستعمار سنة 1830.

إن شريط (جزائرنا) فيلم وطني أنتجته وزارة الأخبار في الحكومة المؤقتة، وقد عرض يوم 6 نوفمبر 1960 على إطارات الحركة الوطنية بتونس، ثم على الصحفيين يوم 8 من نفس الشهر. وقد تساءلت المجاهد: هل هو فيلم جميل؟ وقد ردت على السؤال بنفسها فقالت: من يسأل عن الجمال في الأفلام

الحربية؟ يكفيه أنه شريط مفيد. .مهول، إنه سلاح جديد في يد الثورة الجزائرية، من أجل حرية (جزائرنا)! [1].

ولا ندري هل هذه النهاية لمقال المجاهد تشكل تبريرا لكون الفيلم غير جميل فنيا أو غير جميل من حيث التأثير النفسي واختيار المناظر واللقطات الخاطفة للأبصار والقلوب، أو هو اعتذار مسبق للقراء والمشاهدين عن كونه لم يبلغ في أداء رسالته ما هو متوقع منه. والحق أننا شاهدنا مع غيرنا هذا الفيلم في مناسبتين ونحن طلاب في القاهرة وأمريكا فكان له وقع كبير علينا وعلى غيرنا من المشاهدين. فقد شد أنظارنا وأبكى قلوبنا قبل عيوننا واختلط عندنا الإعجاب بالبطولة والمقاومة الشرسة بالمناظر الطبيعية الخلابة، وعادت (جزائرنا) فعلا إلينا بعد أن كنا نعيش الواقع الاستعماري الذي حاول أن ينزع منا هويتنا، فكنا نحس بالتلاحم ووحدة الحاضر والمستقبل. وقد طلبنا نسخا من هذا الفيلم عدة مرات من المكتب الإعلامي لجبهة التحرير ليعرض في مناسبات عديدة على مشاهدين يريدون أن يعرفوا حقيقة ثورة الجزائر التي يجهلونها، وفي كل مرة كانوا يخرجون مشدوهين من التناقض الصاعق الذي أمامهم: أين مبادى فرنسا المعلنة مما يمارسه جيشها في الجزائر؟ وكيف صبر الجزائريون مائة وثلاثين عاما على استعمار وحشي من هذا النوع؟

إن (جزائرنا) فيلم وثائقي قصير لا يتجاوز عرضه 25 دقيقة، وهو من عيار 35 ملم. وناطق بالعربية. وساهم في إخراجه جمال شندرلي، والأخضر حمينة، والدكتور شولي. ويعتبر محاولة أولى توجه إلى الرأي العام العالمي قامت بها الحكومة المؤقتة. تناول الفيلم وقائع المقاومة الجزائرية ماضيا وحاضرا في لقطات سريعة[2].

---

(1) المجاهد 82، 14 نوفمبر 1960.

(2) يوم دراسي حول السينما والثورة، إعداد المركز الوطني لدراسة الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، 1997.

ومع الأيام تأكد أن فيلم (جزائرنا) من عمل جمال شندرلي، والأخضر حمينة، وهو فيلم تحول بالتدرج إلى (صوت الشعب)، وهو يعرض تاريخ الجزائر من خلال تركيب حديث، كما أنه يتابع الأعمال العسكرية والسياسية لجيش التحرير، ومظاهرات ديسمبر 1960، والهجوم على قلعة فرنسية محصنة على الحدود الجزائرية التونسية.

والملاحظ أن لطفي محرزي جعل الفيلم من إنتاج سنة 1959، بينما تقول عواطف عبد الرحمن إنه عرض في نوفمبر 1960 في مهرجان ليبزيج بألمانيا الشرقية، وحصل على جائزة المهرجان. فكيف يتعرض لأحداث ديسمبر 1960 وقد عرض في شهر نوفمبر من نفس السنة؟[1].

فإذا أخذنا الموضوع من الزاوية التاريخية وجدنا أن إنتاج الجزائريين في ميدان السينما كان ضئيلا قبل الثورة وحتى في سنواتها الأولى. فقد كان الميدان حكرا على الفرنسيين واكتفى الجزائريون بدور ثانوي، ربما لعدم الخبرة وربما لوجود سياسة عنصرية متعمدة. وقد رأينا ذلك واضحا فيما درسناه من نماذج لما يسمى بالسينما الاستعمارية أو سينما الحريم والمناظر الخاصة بالجزائر والمثيرة أحيانا لغرابتها[2].

إن سينما الثورة ميدان جديد في الإبداع والإعلام، تولاه الجزائريون وأصدقاؤهم، في ظروف صعبة تتميز بقلة الخبرة ونقص المال وغياب الأمن وندرة التأليف. أما الموضوع فهو دائما واحد تقريبا وهو الثورة بكل جوانبها وأبعادها وخلفياتها الميدانية والإنسانية. ومن الملاحظ أن بعض الأفلام كانت قد وضعت على أساس إيديولوجي، وأن معظمها كان أسود وأبيض، وأنها أفلام وثائقية بدرجة أولى كان الهدف منها خدمة الثورة كوسيلة إعلامية أو إعلامية

(1) لطفي محرزي، السينما الجزائرية، ص 64- 65 وعواطف عبد الرحمن، الصحافة العربية. . . ص 62.

(2) تاريخ الجزائر الثقافي، جزء 302/ 5.

مضادة للدعاية الفرنسية. ويبدو أن الجزائريين لم يكتشفوا أهمية السينما كوسيلة إعلامية إلا بعد مضي وقت طويل على تقدم الثورة. فهل ذلك راجع إلى "تأخر" انضمام الأشخاص المؤهلين إلى الثورة، أو إلى قلتهم من حيث العدد، أو إلى تأخر جبهة التحرير في تحضير طاقم وجهاز للسينما إلا سنة 1959 أو 1960؟

ففي 1959 أنشأت وزارة الأخبار قسما خاصا بالسينما، فتولى التصوير ورصد حرائق القرى والمدن وإعداد الأفلام الوثائقية عن المعارك، لإبراز معاناة الشعب في صراعه اليومي مع السلطات الفرنسية. وقد أعد قسم السينما ستة أفلام وثائقية عن الثورة، واتفق مع بعض الشركات العالمية على توزيعها على محطات التلفزة. وفي نفس الوقت أنشأت الوزارة قسما للاسطوانات مهمته تسجيل الأناشيد والموسيقى الوطنية والخطب والمحاضرات. وكانت الوزارة ترسل بهذا الإنتاج إلى مكاتب الإعلام المنتشرة في العالم. وقد أنتج هذا القسم، بناء على السيد محمد يزيد، واحدا وعشرين أسطوانة[1].

هذه تقريبا خلاصة ما قامت به الوزارة في ميدان معين، وهو الاسطوانات، فماذا عن الأفلام؟ لقد لاحظنا أن الأفلام الأولى كانت وثائقية قصيرة، وسنشير إلى طولها قريبا، ومعظمها كانت ترصد الواقع الجزائري وأحداث التاريخ وتقدم عنه صورة للرأي العام العالمي. هذه الأفلام كانت تعتمد على الشهود، وعلى ما حدث للاجئين، وما قام به جيش التحرير من عمليات وغيرها، ومعاناة الشعب الجزائري ماضيا وحاضرا. وأفلام من هذا النوع لا يتوقع منها توخي الجمالية والفن، كما لاحظت المجاهد من قبل، ولم يهتم المصورون لهذه الأفلام إلا بالصورة المباشرة وابتعدوا عن الرموز والغموض. إن السينما الجزائرية الثورية ولدت في الجبال وجسدت أحداث الثورة.

---

(1) عواطف عبد الرحمن، الصحافة العربية، ص 62.

منذ سنة 1955 بدأ الاهتمام بهذا القطاع ولكنه لم يتقدم بالسرعة المتوقعة لسد الفراغ الإعلامي لدى الرأي العام. فقد قيل إن الجبهة اتصلت بالشاب جمال شندرلي الذي كان مصورا في مجلة (الأحداث الفرنسية) وكلفته بمهمة الدعاية خارج الوطن والتعريف بالقضية. وقد تعاون شندرلي سنة 1956 مع بعض الجزائريين والأجانب لإنتاج أفلام وثائقية تخدم ذلك الغرض، منهم بعض الفرنسيين، مثل ريني فوتييه، وفي السنة الموالية فتح مركز للتكوين السينمائي بالولاية الأولى وكان يشرف عليه (فوتييه)، وهو صاحب فيلم (عشرون سنة في الأوراس) وغيره. وكان الطلبة الذين يدرسون في المركز جنودا، ولم تدم الدراسة في المركز أكثر من أربعة أشهر، وقد قيل إن فوتييه أنتج حصصا تلفزيونية وزعت على البلدان الاشتراكية، وهي حصص خاصة بممرضات جيش التحرير، ومنها صور عن منجم الونزة[1].

وإليك بعض الأفلام التي أنتجها قسم السينما سواء قبل تأسيس الحكومة أو بعد تأسيسها:

- في سنة 1957-1958 أنتج فوتييه فيلم (الجزائر الملتهبة) أو المشتعلة، وهو فيلم بالألوان، طوله 35 ملم ومدته 23 دقيقة، ويعتبر فيلما وثائقيا أو تسجيليا ناطقا بالفرنسية. وقد ركبت صوره في برلين الشرقية وعرض في الدول الأوروبية فعرف الناس عن الثورة من خلال صور هذا الفيلم.
- الهجوم على مناجم الونزة، وهو من إخراج طلبة مركز التكوين السينمائي، وهو فيلم تسجيلي أسود أبيض، ولا يدوم أكثر من ست دقائق، في 16 ملم. وهو يصور إحدى عمليات جيش التحرير على مناجم الحديد والصلب، ويعطي فكرة عن الحرب التي يقوم بها جيش التحرير ضد اقتصاد العدو.
- ممرضات جيش التحرير الوطني، وهو فيلم لا يدوم أكثر من ست دقائق،

(1) يوم دراسي حول السينما والثورة، مرجع سابقه 1997.

أسود وأبيض، وطوله 16 ملم. ويقوم على إخراج جماعي، ويمثل دور المرأة في الثورة.

- لاجئون: أنتجته مصلحة السينما التابعة لجبهة التحرير، أسود وأبيض، مدته 15 دقيقة، وطوله 35 ملم. ناطق بالفرنسية والإنجليزية من إخراج وتصوير (بيير كليمون)، وموضوعه المعاناة اليومية للاجئين الجزائريين.

- ساقية سيدي يوسف، فيلم أنتجته مصلحة السينما لجبهة التحرير، أسود وأبيض، يستغرق 15 دقيقة، 35 ملم، وهو بالفرنسية والإنجليزية، وأخرجه المخرج السابق (كليمون)، ويصور قصف الطيران الفرنسي لساقية سيدي يوسف وما نتج عنه من تدمير وضحايا وخرق للقانون الدولي. ومن الملاحظ أن مخرج هذا الفيلم قد قبض عليه في الجزائر وسجن بضع سنوات[1].

- جزائرنا[2].

- بنادق الحرية: فيلم بالألوان من إنتاج مصلحة السينما للحكومة المؤقتة، مدته 20 دقيقة، وطوله 35 ملم. جمع بين التوثيق والخيال، وقد أخرجه جمال شندرلي، والأخضر حمينة، وموضوعه تهريب السلاح من ليبيا وتونس عبر الصحراء وعلى ظهور الجمال.

- عمري ثماني سنوات: أنتجته لجنة (موريس أودان)، ومدته ثماني دقائق، أخرجه يان Yann وأولغا لوماسون Le Masson ، وكله من تصوير وتركيب غير جزائري، مرجعه الرسوم التي قام بها الأطفال في مخيمات اللاجئين بتونس.

- صوت الشعب: أنتجته مصلحة السينما التابعة للحكومة المؤقتة، وهو من النوع التوثيقي، أسود وأبيض، ومدته 20 دقيقة، وطوله 35 ملم. وهو من

---

(1) يوم دراسي، مرجع سابقه 1997.
(2) أنظر عنه سابقا.

إخراج شندرلي وحمينة، وقد أدمجت مادته مع مادة فيلم (جزائرنا) ليصبح فيلما باسم الشعب، وليقول إن المعركة بدأت قبل 1954. فهو كما سبق القول عن (جزائرنا) ويمثل عرضا تاريخيا من خلال تركيب حديث ويصور النشاط السياسي والعسكري لجيش التحرير.

- ياسمينة: وهو الفيلم الوحيد، حسب النقاد - الذي اعتمد على قصة، ولكنه لم يبتعد عن ميزات الوثيقة، وهو -كما قيل- يمثل بداية الفيلم الروائي الجزائري في عهد الثورة، وقد أخرجه الأخضر حمينة بناء على قصة لطفلة جزائرية يتيمة فقدت أبويها بعد انفجار قنبلة. ومن خلال قصتها نعرف قصة جميع اللاجئين الجزائريين الذين أرغموا على مغادرة بلادهم للعيش في معسكرات داخل الحدود التونسية. وهو أسود وأبيض ويرجع إلى الفترة 1960 -1961، ومدته 20 دقيقة، وطوله 35 ملم، وقد جمع بين الحقيقة والخيال. وتمثل ياسمينة فيه رمزا لكل الأطفال الجزائريين.

- خمسة رجال وشعب، فيلم بالألوان، ومدته 43 دقيقة، وطوله 16 ملم. وهو من النوع الوثائقي، أخرجه وصوره وركبه (فوتييه) وقد صورت الكاميرا الزعماء الخمسة: ابن بلة، بوضياف، آيت أحمد، خيضر، بيطاط، بعد إطلاق سراحهم عند وقف القتال 19 مارس 1962.

- الطالب: وهو فيلم أسود وأبيض من إنتاج المركز الوطني للسينما؟ ومدته 17 دقيقة، وطوله 16 ملم، ويعتبر خياليا، أخرجه عبد الحليم ناصف(؟) ووضع له السيناريو يوسف فرحي، وصوره سرية علي، وركبه رابح ديوز، وهو يصور حياة " طالب " أو مؤدب في كتاب قرآني.

وقد أشار لطفي محرزي إلى نماذج أخرى كنا قد نبهنا إلى بعضها مثل ساقية سيدي يوسف، وهي من عمل مصورين فرنسيين أمثال فوتييه وكليمون اللذين تعتبر مساهمتهما السينمائية مساهمة هامة في وقتها، سيما فوتيية الذي أسهم أيضا في تكوين فوج من الجزائريين في فن السينما!

- الجزائر تشتعل، وهو فيلم بالألوان يرجع إلى 1956 - 1957 يدوم عرضه 25 دقيقة، وطوله 16 ملم. أنتجته الجبهة، وأخرجه فوتيبة، وهو يصور الحياة اليومية في المخابى السرية والدخول في معارك ضد جيش العدو ويرافقه صوت يعلق على سير الأحداث ويبين أبعاد حرب التحرير.
- اللاجئون الجزائريون، وساقية سيدي يوسف كلاهما أخرج سنة 1958. إضافة إلى ثلاثة تحقيقات (ريبورتاج) قام بها كليمون[1] .

وقد حاول محرزي أن يؤرخ لأوليات السينما أثناء الثورة، فرأى أن المعنيين بالأمر قد تنبهوا إلى أن السينما كانت كالمنشور الإعلامي تؤدي دورا مباشرا وفعالا، وبدأ ذلك الوعي منذ 1956، أي إلى مؤتمر الصومام الذي نصت وثائقه على ضرورة الاهتمام بالعمل الإعلامي، دون تحديد للسينما. ويرى محرزي أن الخطوة الأولى كانت في سنة 1957 حين التقت في منطقة تبسة جماعة من المهتمين الجزائريين وأصبحت نواة لوحدة تصوير الأفلام مطلقة على نفسها اسم (مجموعة فريد) group Farid دون تفسير لهذه التسمية، وكانت تتبع الولاية الأولى. وقد ضمت ستة أفراد هم محمد قنز، وعلي الجناوي، ورينيه فوتييه، وجمال شندرلي، ثم انضم إليهم أحمد راشدي (ولم نعثر على اسم الخامس).

ورغم قلة الإمكانيات فقد سار المشروع. وكانت مساهمته الرئيسية تتمثل في جمع الوثائق لخدمة معركة التحرير، ولم يكن الهدف عندئذ هو إنشاء سينما تعتمد الفن والجمال. ومن كان يأمل عندئذ في إنتاج عمل سينمائي متقن في ظل الخوف والسرية؟ لقد كان يكفي عندئذ تسجيل ما ترتكبه السلطات الاستعمارية من فظائع ضد السكان المجردين من السلاح. وكانت هذه الخطوة استجابة لتعليمة "النظام" التي أطلقها سنة 1956 خدمة لبرنامج الثورة. وقد

---

(1) يوم دراسي حول السينما والثورة، مرجع سابق، ولطفي محرزي: السينما الجزائرية. ص 63 - 65.

نصت وثائق الصومام على أن " كل منشور أو تصريح أو مقابلة أو إعلان من جبهة التحرير اليوم له وقع عالمي، لذلك علينا أن نتصرف بمسؤولية محافظة على الجزائر في الساحة الدولية، الجزائر الزاحفة إلى الحرية والاستقلال "[1].

وهكذا فإنه منذ 1956 دخل كل من علي الجناوي وفوتييه وغيرهما في العمل السري تصحبهم الكاميرا وصوروا المناظر والمشاهدات لفعاليات الثورة المسلحة. ولم يعش من هذه الجماعة بعد الثورة إلا القليل. ولكن ما جمعوه من وثائق وصور ومناظر يعتبر أول إنتاج سينمائي جزائري. وكان الأسلوب الذي سجلت به الأحداث وركبت به الصور يعتمد الرؤية (الفكرة) اليسارية ويلاحظ عليه عدم الدقة والإتقان حسب تعبير السيد محرزي، غير أن ذلك لم يفقده القيمة الوثائقية.

وفي سنة 1958 اشتدت المعركة المسلحة فأصبح من الصعب الحصول على شحن المصورة بالأشرطة (البيليكول)، مما اضطر مصلحة السينما إلى الانتقال إلى تونس، تاركة تبسة خلفها. وعندئذ ألحقت (مصلحة السينما الوطنية) بوزارة الداخلية في الحكومة المؤقتة. وفي نفس الوقت وانطلاقا من الصور التي التقطها سرا رينيه فوتييه وعلي الجناوي أخرج فيلم (الجزائر تلتهب) على يد فوتييه، وعندما تأكدت الحكومة المؤقتة من فائدة الرسالة الثورية للعمل السينمائي قررت إرسال بعثة إلى البلاد الاشتراكية ليتكونوا فيها. وكان على الحكومة أيضا أن توفر الوثائق الدامغة والصور المعبرة لتقنع وتكسب الرأي العام لصالح القضية الجزائرية، وتقاوم بها الدعاية الاستعمارية. وأغلب الصور التي أصبحت متوفرة عندئذ كانت قد أخذت على الحدود الجزائرية التونسية، أي من قواعد جيش التحرير، ومنها خرجت مجموعة من الأفلام التي أتينا على ذكرها. ويؤكد الباحثون على أن فترة 1957 وما بعدها قد شهدت ميلادا ثقافيا حقيقيا

(1) محرزي، السينما الجزائرية، ص 62، وقد اقتبس النص من مندوز: الثورة الجزائرية بالنصوص.

للجزائر، موازاة مع التقدم السياسي والعسكري. فبالإضافة إلى السينما انطلقت الأعمال الأدبية والرسم والمسرح وغيرها مما يدل على أن الثورة قد انغرست في تربة الشعب في مختلف المجالات. فكان الشعر والرواية واللوحة والمسرحية.

وخلافا للوثائق الاستعمارية التي كانت تخاطب الفرد وتحاول التأثير عليه لكي يترك الثورة ويقبل بهوية غير هويته، كانت وثائق الثورة الجزائرية التي أخذها شهود عيان تخاطب الشعب والرأي العام، وتظهر أن الشعب كله كان في المعركة، وقد انضم إليها بكل قواه، إنها حرب شعبية، لعب فيها جيش التحرير الدور الرئيسي في كونه جيش الشعب، فهو الذي يحميه من الغارات، كما يشهد بذلك فيلم (الجزائر تلتهب). وقد تأسف السيد محرزي -وهو على حق- على أن الوثائق السينمائية التي تعالج حرب التحرير لم تسترجع ولم ترتب ولم تصنف. وكان ذلك سنة 1971. فأين هي الآن ونحن في سنة 2005[1].

ومنذ عدة شهور حضر السيد فوتييه إلى الجزائر وأجرت معه إحدى الصحف حديثا جاء فيه أنه هو الذي أنتج أفلاما عن الثورة الجزائرية في إبانها مع جمال شندرلي. وقد زار قسنطينة رفقة فرقة للتصوير، وتوقف فيها لإنتاج فيلم وثائقي كان يعده حول حياته الشخصية وعنوانه: (رينيه فوتييه ضد الرياح والأمواج). وأثناء تلك الأيام التي نظمتها بلدية قسنطينة بمناسبة الذكرى الخمسين للثورة. ومن الوثائق التي أظهرتها البلدية بهذه المناسبة: عشرون سنة في الأوراس، وشعب زاحف، والجزائر الملتهبة. وقال محمد حزرولي المكلف بالسينما في بلدية قسنطينة إن حضور فوتييه في هذه المناسبة تصادف مع فتح ورشة للفن السمعي البصري في (الكونسرفتوار) البلدي. وفي هذه الورشة سيلتقي الشباب بفوتييه الذي اعتبره حزرولي "رائدا للسينما الجزائرية الشخصية المهمة جدا فيها". وقد أوردت الصحيفة صورة للسيد فوتييه. أما دور شندرلي

---

(1) رشيد بوجدرة: ميلاد السينما الجزائرية، ماسبيرو، باريس، 1971، نقلا عن لطفي محرزي: السينما الجزائرية ص 62، هامش 2. أنظر كذلك يوم دراسي. . .، 1997.

والآخرين فقد نسيه الناس فيما يبدو، على هذا العهد[1].

إن الذين درسوا علاقة الجزائريين بالسينما في العهد الاستعماري خرجوا بنتيجة وهي أن الأفلام الفرنسية كانت تجعل من الجزائر موضوعا فقط باعتبارها إقليما فرنسيا يتميز بطبيعة خاصة فيها النخيل والفروسية، وفيها حي القصبة والإنسان الأهلي.. وكلها تشكل عناصر لديكور غريب وجميل، فكان الفيلم نفسه يمرر الفكرة التي يريد الاستعماريون الترويج لها. وقد ذكروا لذلك نماذج من الأفلام مثل (نداء البلاد) لموريس قليز، و(البلاد) لجان رينوار، و(عطش الرجال) لسيرجي وليني. ولكننا لا ندري الآن متى أنتجت هذه الأفلام، قبل الثورة أو أثناءها.

كان الجزائري في هذه الأفلام إنسانا محددا. فهو متوحش يجب تخليصه مما هو فيه من رذائل. وعملية التحرير هذه جزء من الديكور نفسه. وإذا حضر ففي مشهد للخيانة ضد المهمة الحضارية الفرنسية. وفيما يخص التوزيع والإنتاج فالجزائري غائب عن الكاميرا باستثناء شخصين هما مصطفى قريبي والطاهر حناش اللذان أنتجا أفلاما للتلفزيون. كما أن إنتاج الأفلام الفرنسية مليء بالدعاية العنصرية ضد العرب. فهذا سيرجي وليني يقول على لسان بطل فيلمه عطش الرجال: "لم يعد هناك سارق عربي بعد اليوم، ولا مرابي يهودي، بل مسلحون مستعمرون فقط. هذا فقط! هذا فقط!"[2].

من الذين اهتموا بترقية الإذاعة والتلفزيون وأنتجوا أفلاما السيد سفير البودالي. فقد كان مسؤولا عن الإذاعات الفنية والأدبية قبل بدء التلفزيون، أي من سنة 1943 إلى 1958. وفي هذا التاريخ نقل إلى التفتيش في وزارة التهذيب القومي، وكانت شهرته تقوم على ثقافته الواسعة بالفرنسية وخبرته

---

(1) جريدة الوطن- بالفرنسية- 14 ديسمبر 2004. وكان البرنامج الذي أعدته البلدية تحت عنوان (السينما والثورة اعترافا بفضل فوتييه، بين 11-13 ديسمبر 2004.

(2) لطفي محرزي، السينما الجزائرية، مرجع سابق، ص 59-60.

بالتراث الأندلسي ولاسيما الموسيقي منه. وقد كتب عن هذا التراث بحوثا عديدة وروج لروائعه. ويهمنا هنا أنه أسهم أيضا في صنع الأفلام العربية الأولى للتلفزيون الفرنسي في الجزائر[1].

والواقع أن إذاعة الجزائر الفرنسية شرعت في إخراج أفلام عربية للتلفزيون منذ شهر يناير 1955. فهناك قصة ألفها عبد الحليم رايس باسم (هدية الشيطان) ومثلها محمد التوري ولطيفة. وقد ساقت مجلة (هنا الجزائر) بعض المناظر من هذا الفيلم على صفحاتها. وأخبرت أن أول فيلم طويل أنتج للتلفزيون كان عنوانه (اليتيم) وأن قصته كتبها أيضا عبد الحليم رايس، وهو الفيلم الذي أخرجه فرنسي يدعى نويل رافتر[2].

الرسم والمعارض الفنية

تعرضنا للرسم والرسامين والخط والخطاطين في كتاب التاريخ الثقافي، وحاولنا الوصول بدراسة هذا الإنتاج إلى مشارف الثورة، وأثناء إعدادنا لهذا الكتاب اكتشفنا أن هناك جوانب لم نتناولها من حياة الرسامين لأنهم أضافوا أثناء حياتهم خلال الثورة نشاطا جديدا، ووصلتهم الدعوة للتحرر والحرية كما وصلت جميع المواطنين فاهتزت مشاعر بعضهم وتبدلت أساليبهم وأنتجوا لوحات جميلة معبرة وأشكالا فنية جديدة تشير إلى العهد الجديد. ومن الطبيعي أن هذا الحكم لا ينطبق على كل واحد منهم، ولكن علينا أن ندرس حياتهم وإنتاجهم ونقيم مساهمتهم حسب المستطاع.

من الأمور المتعلقة بالثورة والإعلام إقامة المعارض كجزء من الدعاية ضد الوحشية الاستعمارية. فقد جمع المصور الإيطالي فيتيريغو كونتينو مثلا حوالي ستين صورة كان قد أخذها في الجزائر سنة 1959 بالأسود والأبيض. وهي تمثل عينات فقط من معاناة الشعب الجزائري تحت القمع. وهي صور

---

(1) هنا الجزائر 63، مارس 1958، وكذلك 61، يناير 1958.

(2) هنا الجزائر 37، يوليو 1955، وكذلك 43، فبراير 1956.

تمثل الحياة في المحتشدات (الكازمات)، والأطفال داخل الأسلاك الشائكة، وحياة اللاجئين حيث اقتلع جنود الاحتلال المواطنين من ديارهم فهاموا على وجوههم.

عرض المصور الإيطالي حديثا صوره في معرض بالمكتبة الوطنية الجزائرية بالحامة، في ديسمبر 2004، وقال بأنه كان يشعر منذ التقط الصور أنه سيصبح شاهدا على ما ارتكبه الاستعمار. لذلك احتفظ بصوره كل هذه المدة. ويقول إنه عندما رجع إلى روما سنة 1959 تحدث إلى مواطنه المخرج السينمائي بونتيكورفو عما رأى في الجزائر. وعندما حانت سنة 1966 أنجز المخرج المذكور فيلمه (معركة الجزائر) الذي أخذ شهرة عالمية. وقد نشرت جريدة (الوطن) هذا الخبر مع صورة لمجموعة من الأطفال مكتوب تحتها (أطفال المدارس سنة 1959)، ويظهر الأطفال في الصورة مختلطين، بنات وبنين، لكن صور البنات تأتي في المقدمة وخلفهن وجوه أطفال ذكور لا تكاد ملامحهم تظهر بينما عيون البنات جاحظات وهن في حيرة على مصيرهن، ولا يدري المرء هل هن ينظرن بدهشة إلى المعلّم أو إلى المصور[1].

وكانت المكاتب الإعلامية لجبهة التحرير في العالم تعرض صور اللاجئين وحياة الطلبة والمحتشدات والسجون وآثار النابالم، وغيرها وترسل بها إلى الطلبة الجزائريين ليعرضوها في الأحياء الجامعية وفي الأوساط الاجتماعية والدينية. وقد كنت من بين الذين تلقوا، خريف 1961، مجموعة من الصور من مكتب جبهة التحرير بنيويورك (وعددها اثنتا عشر صورة) فقمت بعرضها في مهرجان طلابي دولي بجامعة منيسوتا بالتعاون مع أخوين من المغرب أحدهما هو محمد بن عيسى (وزير الخارجية الحالي) والآخر هو الفنان محمد المليحي.

شارك عدد من الرسامين الجزائريين في معرض باريس (قاعة ليليان، أبريل 1955) وكلهم كانوا، رغم اختلاف اتجاهاتهم الفنية، أصلاء في فنهم،

---

(1) جريدة الوطن ـ بالفرنسية ـ 14 ديسمبر 2004.

حيث تظهر على أعمالهم الروح الشرقية. فهذا بشير بن يلس عرف كيف يتخلص من الطابع الفرنسي الباريسي ويخرج - كما قال أحد النقاد- من الألوان الرمادية إلى الألوان الزاهية التي تعبر عن صفاء الجزائر وضوئها. ورغم أنه تأثر بمحمد راسم صاحب الأسلوب الشرقي في المنمنمات، فإنه قد تخرج أيضا من مدرسة الفنون الجميلة بباريس، وزار مدريد، وأطال المكث في أوروبا مما جعله يتأثر بجوها في فنه. ولقد قدم إلى المعرض ثمرة جهد كبير مشفوع بمشاعر تلقائية متدفقة. وتعبر لوحاته عن ألوانه المختارة والمنسجمة مع بعضها. ومن لوحاته مناظر من الأبيار، ورسم الأستاذ جورج مارسيه، ولوحة لفتاة جميلة[1].

محمد راسم

تركنا في كتاب التاريخ الثقافي رسالة الرسم في يد الفنان محمد راسم وأخيه عمر راسم، ومعهما كوكبة من الفنانين الذين بلغوا درجة عالية من إبداعاتهم، ومنهم حسن بن عبورة، وبشير بن يلس، وأزواو معمري وآخرون. ونريد أن نواصل الحديث عن محمد راسم ثم نعود إلى تلاميذه ورفاقه في دروب الفن الأصيل ونجمع بين حياة الفنان ونشاطه في المعارض التي لم تكن بالضرورة معارض لصالح الثورة مباشرة لأن الفنان كان يهدف منها بالأساس إلى المنافسة وإظهار تقدمه في فنه.

كانت مجلة (هنا الجزائر) تتحف قراءها من وقت لآخر بلوحة من لوحات محمد راسم تضعها على غلافها الذي يمثل القسم العربي وأحيانا القسم الفرنسي أيضا. ومن المعروف أن محمد راسم من مواليد 24 يونيو 1896 بالجزائر العاصمة وقد صدر سنة 1936 كاتلوغ بلوحات الفنانين والنحاتين الجزائريين، فكان حظ محمد راسم فيه أربع لوحات عظيمة اقتنتها مصلحة الفنون الجميلة، منها صفحة من القرآن الكريم، والخليفة مع جنوده، وأسطول بربروس، والصيد[2].

---

(1) هنا الجزائر 35، مايو 1955، صورة ابن يلس أيضا موجودة في هذه المجلة.

(2) جان أليزار: كاتلوغ الرسم والنحت، باريس، 1936.

وفي سنة 1956، نشرت هنا الجزائر لوحة تمثل صورة للطبيب أبو علي (كذا) بن سينا كما تخيله محمد راسم، كما نشرت له لوحة أخرى هي (تصديرة العروسة) على غلاف العدد 50. وتظهر في التصديرة العروس والعريس، تحيط بهما مجموعة من النسوة وهن في حالة طرب وفرح، مع تقديم الشاي. كما تظهر العروس والعريس باللباس التقليدي في دار عربية أندلسية أصيلة (موريسكية) فيها زخارف وثريا جميلة تتدلى[1].

وفي عدد لاحق من هنا الجزائر ظهرت لوحة أخرى تمثل منظرا لمدينة الجزائر والقصبة والبحر كما تظهر النساء وهن في سهرة وفي جو اجتماعي تقليدي حميم[2].

وفي عدد آخر نشرت نفس المجلة لوحة لمحمد راسم على غلافها اسمها (شارع سيدي عبد الله) المزدحم في القصبة: فهناك الباعة والمتسوقون، أطفالا ورجالا ونساء باللباس التقليدي، والدكاكين المفتوحة على ما فيها، وتظهر حولها أبواب المنازل، وصومعة أحد المساجد، وزخارف وآثار عربية-إسلامية (موريسكية) وأباريق الماء. وفي سنة 1960 نشرت هنا الجزائر أيضا لوحة بعنوان (قصر رفيع في رياض بديع) تمثل نساء عند حوض ماء في حديقة قصر كبير رائع الأشجار والمدرجات والزهور[3].

وهناك لوحة لمحمد راسم تمثل شراعا حربيا يرجع إلى العهد العثماني، وفي أعلى اللوحة عن اليمين عبارة: الفوز ثمرة الشجاعة، وعن الشمال كتبت الآية الكريمة: وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم، وفي أسفل اللوحة عن اليمين الآية الكريمة: إن تنصروا الله ينصركم، وعن الشمال كتبت عبارة الجنة في ظلال السيوف. ويقف الشراع أمام مدينة الجزائر البيضاء، إلى جانب مجموعة

(1) هنا الجزائر 50، نوفمبر 1954
(2) هنا الجزائر، 74، مارس 1959.
(3) هنا الجزائر 77، يونيو 1959، وكذلك غلاف هنا الجزائر 86، أبريل 1960.

من السفن الحربية، فالمنظر يمثل أسطول الجزائر في العهد العثماني. ومن الخلف تطل صومعة أحد المساجد العتيقة. أما التوقيع فهو: محمد راسم، الجزائر.

كنا قد لخصنا حياة محمد راسم من مقال هام لمؤرخ الفن الإسلامي جورج مارسيه. ونريد هنا أن نستفيد من مقال لكاتب فرنسي آخر له دراية واسعة بالموضوع وهو لويس أوجين أنجلي L.E.Angeli وعنوانه "قادة الرسم الجزائري: فن المنمنمات ومحمد راسم". والمقال أوردته (هنا الجزائر) في القسم الفرنسي ولخصته في القسم العربي. وبناء عليه فإن محمد راسم هو الذي بعث فن المنمنمات بعد أن نسيه أهله، وكان أسلافه يتعاطون فن الزخرفة فهو وارثه عنهم، وكذلك فن الخط، فقد كان والده، (علي بن سعيد) وعمه (محمد بن سعيد) يملكان دكانا في العاصمة يقصده أعيان المدينة وأدباؤها. تلك هي بداية محمد راسم، ولكنه لم يتوقف عندها بل اتجه أيضا نحو الفنون الأوروبية. عندما كان عمره أربع عشرة سنة كان محمد يستعد لدخول المدرسة الثانوية ولكن السيد ريكار مفتش الفنون الأهلية رأى دفتره في معرض بروكسل فأعجب به وعرض عليه أن يكون مساعده في التصوير الموجه إلى المدارس الأهلية. فكان عمل محمد راسم هو نقل الزخارف إلى مراكز الطرز ونسج الزرابي.

اطلع راسم على الفن الفارسي (المنمنمات) من كتاب هنري دالماني، فأخذ يقلده، ثم برع فيه وتأثر بالخصوص بالألوان الذهبية. وتعرف عليه إيتيان دينيه في مكتب ريكار، وكان دينيه يبحث عمن يرسم له رسومات يحلي بها كتابه (حياة محمد) فوجد ضالته في محمد راسم. كما كان الناشر (بيازا) في باريس قد نشر عدة كتب عن الإسلام والمسلمين، منها الإسلام تحت الرماد، وبابا عروج، وبستان سعدي، وعمر الخيام. وسعى إلى أن يجلب إليه محمد راسم. فاتفق معه على العمل، ومن ثم غادر محمد راسم الجزائر إلى باريس، وفيها تعاقد مع (بيازا) لكي يزخرف له كتاب ألف ليلة وليلة. وقد استغرق ذلك ثماني سنوات مضنية. ولكنها جعلته يسافر إلى بلدان أخرى ليطلع على ما فيها من تراث إيراني وإسلامي وشرقي.

زار محمد راسم الأندلس أيضا على نفقة الولاية العامة بالجزائر. وامتلأت مشاعره بمشاهدات الآثار الإسلامية والتحف والزخارف في مدن قرطبة وغرناطة وإشبيلية وغيرها. وأخذت شهرته تزداد بين المختصين، وعرض إنتاجه في المعارض الدولية في مدن القاهرة وباريس وروما وفيينا وأستكهولم... وتردد على السويد بالخصوص عدة مرات، فرحبت بفنه وتزوج منها. وقد اهتم النقاد بلوحاته ونوهوا بها، وأعجبوا بدقة صنعته وجمال تعبيره وسلامة ذوقه. وعندما رجع إلى الجزائر سنة 1933 عرض لوحاته، واقتنيت أربعة منها، ونال الجائزة الفنية الكبرى، وعين أستاذا في معهد الفنون الجميلة حيث بقي إلى سنة 1955 يلقن الشباب أصول الفن الإسلامي الأصيل.

ورغم أنه تأثر بالفن الإيراني فإن موضوعاته كانت مستوحاة من التاريخ الجزائري كما لاحظنا في اللوحات التي ذكرنا بعضها. ففي لوحاته تظهر الروابي المحيطة بخليج الجزائر، والمنازل الأندلسية (الموريسكية) والبساتين والملابس والوجوه والتقاليد. ولمحمد راسم الفضل في بعث فن المنمنمات، حسب السيد (أنجلي) بعد أن اختفى قرونا في طي النسيان. واشتهر اسم راسم في العالم وحظي بتقدير عظيم حتى أنه انتخب عضوا شرفيا في الجمعية الملكية الإنجليزية للتصوير سنة 1950. ومن تأثيره أن بعض الفنانين في المشرق رجعوا إلى فن المنمنمات بعد أن أهملوه زمنا، رغم أنه فن أجدادهم. وأصبح فن راسم يدرس لذاته مما يدل على تأثيره في النهضة الفنية المعاصرة. لقد رفع رأس الجزائر عاليا في الشرق والغرب.

وقد اشتمل مقال (أنجلي) على لوحتين كنا أشرنا إليهما وهما:

1 - شارع (سوق) في مدينة الجزائر مليء بالحركة واختلاط الرجال والنساء والأطفال، وهم في حديث وانسجام، وفي حالة بيع وشراء، وتطل مباني القصبة على المكان في انسجام مع زخرفة السوق. وتظهر اللوحة في المقال بدون ألوان.

2 - سطوح الجزائر، وهي لوحة تمثل مجموعة من النساء على أحد سطوح القصبة، وتظهر في الصورة الصوامع والمرسى، بينما النسوة يشربن الشاي في حالة استرخاء وحديث هادى، ومن حولهن قناني الماء والمزهريات، وليس هناك أطفال ولكن هناك قطة تضفي الأنس والهدوء على الجلسة.

وفي المقال إشادة بلوحات أشرنا إليها وهي: سفن حربية جزائرية، ومدينة الجزائر، وفي حديقة إحدى الفيلات، وخير الدين بربروس" مؤسس الدولة الجزائرية". وقد ضمت النسخة الفرنسية من المقال تفاصيل وعناوين لم تشملها الخلاصة العربية[1].

لا ندري ما الذي فعل أو حدث لمحمد راسم بعد 1955، وقد بلغ الستين سنة تقريبا، ولا ما إذا تركت الثورة بصماتها على لوحة من لوحاته، سواء أثناءها أو بعدها. فقد عاش إلى السبعينات على ما نعرف، ومات موتة عنيفة لا يستحقها فنان وشيخ طاعن في السن مثله. فقد قيل إن لصوصا مختصين قدموا من أوروبا واعتدوا عليه وعلى زوجته العجوز أيضا، وسرقوا مجموعة من لوحاته، وهربوا. ما الذي حدث بالضبط؟ وما مصير القضية؟ لقد اختفت آثار الجريمة، فمتى تظهر الحقيقة؟ ولم يكن محمد راسم وحده في عدم وجود آثار الثورة في إنتاجه المعروف حتى الآن، فكثير من الفنانين عاشوا في الجزائر أو في فرنسا ومع ذلك لم نجد له التزاما نحوها، رغم أن المرحلة كانت مرحلة الفن والأدب الملتزمين. ومع ذلك عاد بعضهم إلى الجزائر من الخارج وظهروا بصفة الأبطال والمناضلين.

عمر راسم

أما عمر راسم فقد اكتسب سمعة "وطنية" عالية ولكنه لم يكتسب شهرة أخيه العالمية. كان عمر وفيا أيضا لتراث الأسرة الجزائر، ولكن في مجال

(1) هنا الجزائر 34، أفريل 1955، ص 25-30، القسم الفرنسي.

مختلف عن مجال أخيه، فترك ثروة من الدراسات عن الرسم والموسيقى والخط، وله دروس في نشأة الصحافة العربية الوطنية، وترك تلاميذ وتأثيرا واسعا. وإذا كان محمد قد التصق اسمه بأوروبا وفنانيها وجوائزها ومعارضها، فإن عمر ترك بصماته على العالم الفني الجزائري بما رسم من لوحات ودبج من مقالات عن الموسيقى وخطط من كتب وعزف من ألحان. وقد كنا ترجمنا له، أو بالأحرى عرفنا به في كتابنا السابق (الجزء 5). ونود هنا أن نضيف بعض المعلومات عنه مما أتيح لنا الإطلاع عليه بعد طبع كتابنا بما قدم بين 1954 و1959، فقد ظل يسهم في الحياة الأدبية والفنية إلى آخر لحظة من حياته.

أبّنته مجلة (هنا الجزائر) التي كان أحد كتابها فقالت إنه توفي في 13 فبراير 1959، عن 75 سنة، ودفن في مقبرة الشيخ عبد الرحمن الثعالبي، وإنه من عباقرة فن الرسم والخط العربي والخط الأندلسي والخط الكوفي. وهو وأخوه محمد يعتبران فارسي رهان في ميدان الفنون الجميلة. فحين أنشأت إدارة الفنون الجميلة بالولاية العامة (سنة 1931) مدرسة لتعليم فن التصوير (الرسم) والزخرفة العربية الشرقية في العاصمة اختارت الأخوين الفنانين محمد راسم وعمر راسم، للتدريس فيها فن الخط العربي والزخرفة الشرقية. وقد باشرا التعليم فيها، وتخرجت على أيديهما نخبة من الشباب...

لم يتخرج عمر من مدرسة فنية معينة ولكنه بالموهبة والمثابرة والتتلمذ على والده، علي بن سعيد راسم، استطاع عمر أن يشق طريقه وسط المبدعين والنابغين في الفن والزخرفة، وقد ابتكر أشياء جميلة أدت إلى إقبال دور النشر عليه لطلب زخرفة مطبوعاتها. وكان عمر أديبا ذواقة أيضا وكاتبا ناقدا. وكان من قدماء المحاضرين والمقرئين في محطة الإذاعة، وكان يلقي حديثه الأسبوعي بنفسه في الإذاعة في موضوع فن الرسم والتصوير والموسيقى. ونشرت له مجلة (هنا الجزائر) مقالات في الفنون التي اختارها. ولعمر راسم اطلاع واسع ومهارة في فن الموسيقى العربية الأندلسية، ويعتبر من المحافظين على تراثها. وقد كتب عنها مقالات نشرت في هنا الجزائر وفي دوريات أخرى.

لقد بدأ عمر حياته في مجال الصحافة العربية، فأصدر أوائل القرن الماضي مجلة (الجزائر) وجريدة (ذو الفقار)، وكان يقوم برسم الصور بنفسه. ومن آثاره كتابات أسماء شوارع القصبة القديمة في مدينة الجزائر على لافتات باللغة العربية إلى جانب اللغة الفرنسية، وهي كتابات بلون أبيض على أرضية زرقاء بحروف تبدو لنا اليوم معقدة ومتداخلة. كما كان يضع تحت كل اسم ما يوضح مسماه وتاريخه أو الحدث الملتصق به(1).

وقبل أن نتحدث عن رأي عمر راسم في الموسيقى، نشير إلى مقاله (التقليد والفن) الذي كتبه سنة 1957 والذي ربما كان أحد أحاديثه الإذاعية أيضا. في هذا المقال نقد لاذع للتقليد في الفن وهجوم كبير على المقلدين لأنهم بالتقليد يفقدون في نظره شخصيتهم. وفي هذا المقال كلام عام عن الفرق بين المبدع والمقلد. والموهوب في نظره هو الذي يتفرغ لفنه لأنه يحبه ويلتزم به. أما "المقلد (فهو) كالطماع والمحتكر الذي يريد أن ينال الأرباح الطائلة من دون تعب. إن ناسخ الكتب لا يعد مؤلفا، ولا الملحن شاعرا، ولا الراوي محدثا"(2).

رغم أن الأخوين محمد وعمر راسم قد أسهما في الثقافة الجزائرية إسهاما كبيرا بالموهبة والإبداع فإنهما كانا متوسطي الثقافة فيما يبدو من آثارهما. ونقصد هنا الثقافة الأكاديمية أو المنتظمة. وقد رأينا أن محمد راسم قد حيل بينه وبين مواصلة دراسته الثانوية فاكتشف الفن وظهرت موهبته فيه فتفرغ لإنتاجه يشبع رغبته في الإبداع في فن المنمنمات. ولم يكمل قاعدته الثقافية إلا بطريقة شخصية. ويبدو أن محمدا كان محافظا في ثقافته لأننا وجدنا له اطلاعا واسعا على التاريخ والآثار والحياة الاجتماعية لبلاده كما تظهرها لوحاته، ذلك أن موضوعاته جزائرية إسلامية عربية، ترجع إلى أعماق التاريخ، كما أنه كفنان كان

---

(1) هنا الجزائر 74، مارس 1959. أنظر أيضا ما كتبناه عنه في مجال الصحافة في التاريخ الثقافي، ج5/ 282.

(2) هنا الجزائر 59، نوفمبر 1957.

يستمد من البيئة والأسرة والقصبة التي يبدو أنه من مواليدها، وهي آخر حصن من حصون الثقافة الوطنية الباقية في العاصمة بعد أن كادت تزول جميع معالم الثقافة الأخرى على يد الاستعمار. كما عرفنا أنه زار وتأثر تأثرا عظيما بمعالم الأندلس وتراثها الحضاري، ولا نعلم أنه زار الشرق أو أدى فريضة الحج.

وقد لاحظنا أن محمد راسم كان كذلك يوقع دائما لوحاته بالحروف العربية حتى تلك التي كانت تعرض في أوربا أو تنشر في الكتب المتعلقة بالإسلام وثقافته لمؤلفين أوروبيين. ومن جهة أخرى نلاحظ أن المرأة كانت أيضا من موضوعاته الرئيسية، ولا ندري بأي إيعاز كان يفعل ذلك، والغالب أنه إيعاز ذاتي أي أنه كان يرى المرأة جزءا من حياة القصبة ورمزا للجزائر التي بقيت وراء الجدران العالية لهذا الحصن، فالمرأة في الحديقة والشرفة، وهي في المقصورات الوثيرة الأثاث والسطوح الشفافة، وهي العروس المخضبة بالحناء في ثياب الزفاف، وهي تشرب الشاي وتتحدث إلى صويحباتها، وهي طربة نشوانة، وهي تتزين بالأزياء التقليدية.. كل ذلك يتمثل في لوحاته الجميلة المليئة بالرموز التاريخية والاجتماعية.

أما أخوه عمر راسم فنعلم أنه بدأ بالاهتمام بالسياسة فأصدر الصحف بمعاناة شديدة، عندما كان الإعلام الوطني في درجة الصفر، ثم سافر إلى المشرق، وشاهد التيارات الموالية والرافضة للتبعية العثمانية والنهضة الإسلامية، وعرف الحركات الساخطة على الاستعمار والمنادية بالوطنية، واعتنق المذهب الاشتراكي في صورته المثالية الإنسانية، وكان رائدا في التحذير من التغلغل الصهيوني، وكان من المعجبين بحركة الأمير خالد. ثم خاب أمله في بعض الرموز الوطنية التي كانت تطفو ثم يغرقها الاستعمار بأدواته المعهودة. وعاد عمر إلى الرسم والخط والموسيقى، وكان يعيش عيشة ربما يجوز أن

نسميها "بوهيمية" في بلاده المعذبة. ولم يكن وحده في ذلك، فقد تحطمت شخصيات وطنية كثيرة على صخرة التقلبات السياسية الفرنسية. كانت ثقافة عمر راسم متوسطة كثقافة أخيه ولكنها كانت ميالة أكثر إلى ثقافة المشرق المتحركة أي ثقافة عهد النهضة. فكتمها في نفسه وتعاشر مع الإمكانات المتوفرة، فوجدناه في الإذاعة (وهي فرنسية) وفي مجلتها هنا الجزائر، يذيع ويكتب ويوجه، ووجدناه مدرسا في مدرسة الفنون الجميلة يساهم في تكوين الجيل الجديد إلى أن أدركه الموت وهو وراء المذياع، وهو أمام السبورة، وهو يمسك القلم. وهنا يبقى السؤال ما دمنا نكتب عن عهد الثورة: ما علاقة عمر راسم بالثورة؟ وهو السؤال الذي سيبقى بدون جواب، كما هو الحال بالنسبة لعدد كبير من الفنانين، إلى أن نعرف أكثر عن نهاية الرجل الذي يكون قد بلغ السبعين سنة عند اندلاعها.

بقي أن نسجل أن عمر راسم كان عميدا لمدرسة في فن التذهيب في الخط، وكذلك المنمنمات. وكان نشطا في هذا الميدان منذ 1937 . وقد كان مشاركا في اتحاد فناني شمال إفريقيا، وكان يعرض أعماله في صالونات خاصة. وقد عين معلما في مدرسة الفنون الجميلة بالجزائر، كما أشرنا، متفرغا لتذهيب القرآن الكريم على الخصوص[1].

رسامون آخرون

قائمة الفنانين طويلة خلال عهد الثورة، ولا يمكننا تغطية حياتهم ونشاطهم كلها في هذا الكتاب الذي يعتمد على مصادر قليلة وما تزال متفرقة. ثم إن بعض الفنانين قد تناولناهم في التاريخ الثقافي ولم يجد جديد عنهم منذ ظهور كتابنا المذكور. فهذا مثلا أزواو معمري كتبنا عنه في الجزء الثامن/ 434 ولم نر داعيا للرجوع إليه إلا عند الضرورة.

---

(1) مدينة الجزائر ورساموها، ص 277.

إن معظم لوحات أزواو تمثل الحياة المغربية التي تأثر بها كثيرا، ومنها الحدّاد المغربي، ووادي بورقراق، وسوق مراكش، والقصابون في جامع الفناء، والمكتب القرآني. وقد عرض أزواو لوحاته في المعارض الجزائرية والدولية. وكان يحب الموسيقى الأندلسية، وزار الأندلس وأعجب بالفن الإسلامي في غرناطة وقرطبة وإشبيليا. وأحب الفنون الشعبية المغربية وله صورة باللباس المغربي وهو يذيع من إذاعة مراكش وحوله الفرقة الموسيقية المغربية التي أنشأها. وبعد وفاته كتب عنه مالك واري مقالة في القسم الفرنسي من مجلة (هنا الجزائر) وضم إليها لوحة لآزواو عنوانها (سيدي علي أو يحيى بتاوريرت ميمون)[1].

وللبشير بن يلس عدة لوحات ربما لم نشر إليها في دراستنا السابقة عنه، منها (زفاف في تلمسان) وهي مرسومة على غلاف القسم الفرنسي من مجلة (هنا الجزائر). وتمثل اللوحة فرقة موسيقية ومجمع المستمعين وهم في حالة انسجام واستغراق بملابسهم التقليدية الجميلة[2].

أما ما يمكن أن نضيفه عن ابن يلس فهو تتلمذه عل محمد راسم ثم ابتعاده عنه. وقد درس في مدرسة الفنون الجميلة بالجزائر العاصمة. ومنها ذهب لحضور أشغال أساتذة الرسم الحديث في باريس ومدريد. وفي عهد الاستقلال أصبح مديرا للمدرسة الوطنية للفنون الجميلة ورئيسا لاتحاد الفن البلاستيكي، وشارك في معارض مشتركة في بلدان المغرب العربي وأوروبا ونيويورك[3].

وخلال الثورة أبدع حسن بن عبورة بعض اللوحات وأحرز على الجائزة الفنية الكبرى للجزائر للعام 1957-1958. وهو أيضا من تلاميذ محمد راسم

(1) هنا الجزائر 29، نوفمبر 1954، توفي أزواو بالمغرب في السابع من سبتمبر 1954. أنظر عنه أيضا كتاب مدينة الجزائر ورساموها، ص 273.
(2) هنا الجزائر 33، مارس 1955.
(3) مدينة الجزائر ورساموها، ص 283.

في فن المنمنمات. وتمتاز لوحاته بالبساطة وحتى بالسذاجة، وهو يفصل مناظره بدقة تدهش الناظر، ومنها القطار، وشوارع بلكور، وميناء الجزائر... وكلها تعبر عن شاعريته الرقيقة والمؤثرة. وقد وردت عليه التهاني من أصحابه عندما نال الجائزة في شهر يناير 1958 أي في أتون الثورة[1].

ومما يذكر أن ابن عبورة ولد بالعاصمة (الجزائر) سنة 1898 وتوفي بها سنة 1961. وحصل على جوائز كثيرة، واقتنت إدارة الفنون الجميلة بالجزائر عددا من أعماله. وقد عشق رسم الأحياء الشعبية وشواطى مدينة الجزائر. وآخر معرض له أقامه سنة 1960، وجعل شعاره فيه "الفن الأصيل لأحد أبناء مدينة الجزائر"[2].

وابن عبورة معروف عند الرسامين في الجزائر بأنه الفنان السّاذج، فهو يرسم مشاعره بكل أمانة وبساطة، وهو يأخذ بتلابيب المشاهدين للوحاته بمناظره الجذابة للقطار ومرسى الجزائر وشوارع بلكور، ففنه، كما قال أحد النقاد، كأنه قصيدة يتغنى بها، وهو أسلوب خاص به[3].

أما رابح درياسة فقد اشتهر بالشعر واللحن والغناء ولم يشتهر بالرسم. ولكن هنا الجزائر أوردت له نماذج من الرسم تدل على موهبة متميزة على الأقل عندما كان في أول الطريق. من ذلك لوحته (حرب على الجهل)، وهي لوحة تحمل توقيعه نشرها سنة 1957. ويمكن اتخاذها نموذجا أيضا بالنسبة لتعليم المرأة. وله لوحة أخرى كتبت لها هنا الجزائر مقدمة. وهي جزء من حصة (من كل فن شوية) التي كان يشرف عليها محمد الحبيب حشلاف. ومن هذا المصدر نعرف أن درياسة من تلاميذ محمد راسم أيضا[4].

---

(1) هنا الجزائر 62، فبراير 1958.

(2) مدينة الجزائر ورساموها، ص 249. وقد نال ابن عبورة، بالإضافة إلى ما ذكرنا، جوائز سنوات 1954، 1955، 1957

(3) هنا الجزائر 62، فبراير1958.

(4) هنا الجزائر 62، فبراير 1958، و63 مارس 1958.

ولد محمد بوزيد في الأخضرية سنة 1929، وبدأ حياته العلمية معلما في مسقط رأسه. وابتداء من 1953 كرس نفسه لفن الرسم، فحصل على منحة سنة 1956، وأخرى بعدها بسنتين. ولفت الأنظار إلى رسوماته عندما شارك في معرض الفن الجزائري بباريس سنة 1957. فقد عرض فن زخرفة الجدران في تيزي وزو والجزائر. ثم شارك في معارض عقدت بفرنسا وبلجيكا وفي غيرهما. وفي سنة 1960 حصل على ما يسمى "الجائزة الجزائرية الفنية الكبرى".

وبعد الاستقلال كلف بتصميم الختم والدرع الرسمي للجمهورية الجزائرية، وسمي مستشارا بوزارة الثقافة، وهو الذي قام بزخرفة بواخر الشركة الجزائرية للملاحة، كما وضع الصميم (الديكور) لزخرفة المسرح الجزائري والنادي الوطني للسينما. وقام المعهد الوطني للفنون الجميلة بتكريمه سنة 1999. وقد قيل عنه إنه كان متشبثا بكل قواه بالموضوع واللون، وإنه يستطيع التخلص من كل التناقضات عندما يتفرغ للرسم، وإنه ينتمي إلى المدرسة الواقعية، ولذلك كانت موضوعاته مشبعة بالتعبير الحي[1].

أما باية محيي الدين فقد ولدت في برج الكيفان (شرقي مدينة الجزائر) سنة 1931، وعاشت يتيمة منذ كان عمرها خمس سنوات. وكانت جدتها تعيش في العاصمة فجاءت تنشد الدفء والحنان عندها.

لاحظ السيد (فرنك ماكوين) مدير المجلس البريطاني وزوجته (مارغريت) رسوماتها الفخارية سنة 1942 فأخذاها على ذمتهما وشجعاها على الاستمرار وتطوير فن الرسم. ولم تلبث أن عرضت بعض أعمالها (1947) في باريس، وقام الكاتب (أندري بريتون) بكتابة مقدمة لمجموعتها. ثم اشتغلت في ورشة تعمل في الفخار. وهناك التقت بالفنان العالمي بيكاسو. وأوائل الخمسينات تزوجت بالمغني والملحن الحاج محيي الدين المحفوظ (1953) وأنجبت ستة أطفال، وعاشت معهم في البليدة. وبعد عشر سنوات عرض متحف الفنون

---

(1) مدينة الجزائر ورساموها، ص 252.

الجميلة في العاصمة أعمالها القديمة واقتنى بعضها. وفي هذه الأثناء استأنفت الرسم بعد توقف طويل. وقد شاركت في معارض جماعية على مستوى المغرب العربي وفرنسا وبلجيكا[1].

الغالب أن مولود بوكرش من مواليد سيدي بلعباس، فنحن لا نعرف الكثير في هذه المرحلة عن أولياته ولا عن نهاية حياته. بدأ بوكرش حياته الفنية رساما في مدينة الجزائر، ثم توجه إلى مدرسة الفنون الجميلة بباريس، وأقام ورشته في هذه المدينة. أول معرض أقامه في الجزائر كان في النادي الفرنسي-الإسلامي عام 1947. وقد تخصص في رسم مناظر الحياة العربية، كالمراعي والأرياف، وكذلك الأشخاص مثل العازف على الناي، والمتسول، والأعمى، ولأزواج المتحابين، والنساء في محيط صحراوي. ومن أعماله أيضا لوحة الحائك الأبيض الذي تلتف به امرأة ريفية ذات وشم[2].

عبد الحليم حميش من مواليد تلمسان سنة 1908. وقد تتلمذ على كوفي Couvy في الفنون الجميلة بالجزائر. أما ميدان اهتمامه فهو رسم المناظر الطبيعية والعادات الشعبية. شارك حميش في المعرض العالمي الذي انعقد في باريس سنة 1937 بلوحة تمثل مقهى عربية. وفي سنة 1945 شارك في معرض خصص للرسوم والمنمنمات الجزائرية. وبتوالي الأيام أصبح معلما للرسم في مدرسة الفنون الجميلة بباريس. ولكننا لا نعرف متى بدأ ومتى انتهى من ذلك. أما وفاته فكانت بتلمسان سنة 1979[3].

ولد قارة أحمد أحمد في العاصمة سنة 1923. كانت أسرته تتعاطى الوظائف الدينية والأعمال الخيرية. وقد درس النحت والفنون الجميلة في مدرسة الجميلة. ويعتبر من الفنانين ذوي الاهتمامات المتنوعة. أما أعماله فقد

---

(1) مدينة الجزائر ورساموها، ص 248، وتوفيت الفنانة باية سنة 1998.

(2) مدينة الجزائر ورساموها، ص 251.

(3) نفس المرجع، ص 268.

عرضها في عدة عواصم أوروبية مثل باريس واستوكهولم. وهلسنكي وروما، وكذلك في المغرب والعراق ولبنان. شارك قارة أحمد في تأسيس المتحف الوطني للفنون والتقاليد الشعبية بالجزائر، وكان هو المحافظ لهذا المتحف سنوات طويلة. وهو ينتمي إلى مدرسة الفن التجريدي[1].

يعتبر محمد خدة من الجيل الأحدث بين زملائه الرسامين. فقد ولد سنة 1930 بمستغانم، وبدأ الرسم وهو في السابعة عشرة من عمره. ثم جاء إلى باريس سنة 1953 رفقة زميله ابن عنتر، وأنجز أول لوحاته سنة 1955. وقد اعتمد في رسوماته على العناصر البلاستيكية والخطوط العربية، ويبدو أنه لم ينتج كثيرا من اللوحات قبل الاستقلال، ولعله كان ذا صلة بالثورة سواء في فرنسا أو في الجزائر لأنه نشط منذ 1963، وشارك في معارض الرسم الجزائري وكان مشاركا في معارض باريس وليون. وفي هذه الفترة أنجز أعمالا جدارية ومنحوتات ورسومات في الكتب والنقائش... ولكن نشاطه هذا وما بعده لا يهمنا الآن. ومهما كان الأمر فقد التقينا بالفنان محمد خدة عدة مرات في الجزائر بعد الاستقلال. وكان انطباعنا عنه أنه فنان متواضع وموضوعي. وقد توفي سنة 1991[2].

ولد عبد الله بن عنتر في مستغانم أيضا سنة 1931، ودرس الرسم والنحت في معهد الفنون الجميلة بوهران، ثم استقر نهائيا في باريس سنة 1953 حيث تحول إلى التشكيل. وفي سنة 1957 أقام معرضا شخصيا، وواصل عرض فنه في باريس بانتظام، وكذلك في ألمانيا والدنمارك، وقد اشترك في عدة تظاهرات جَماعية للفنانين في أوروبا والمغرب العربي. وابتداء من 1962 أخذ ابن عنتر يشترك في معارض النقش المرفقة بأبيات شعرية من جان سيناك. ثم واصل إنتاجه في عهد الاستقلال. وقد أصبح معلما في مدرسة الفنون الجميلة

---

(1) نفس المرجع، ص 269.

(2) نفس المرجع، ص 269، انظر عنه أيضا كتابنا تاريخ الجزائر الثقافي.

في باريس خلال السبعينات[1].

محمد تمام كان أحد التلاميذ الأذكياء للأخوين راسم (محمد وعمر). ولد بالجزائر العاصمة سنة 1915. وبعد المرحلة الأولى من حياته أدخلاه عالم فن التذهيب. وفي سنة 1936 غادر الجزائر إلى فرنسا ليتعلم فن الديكور في مدرسة فن الزخرفة، ثم اشتغل في بعض المصانع بالقطع الصغيرة الدقيقة، وبعد سنة أقام أول معرض شخصي له. أما في سنة 1944 فقد شارك في معرض التذهيب والمنمنمات الجزائرية. كما اشترك مع أستاذه محمد راسم في معارض في البلاد الإسكندنافية بين 1946-1957، وعرض أيضا في بلدان المغرب العربي. وبعد الاستقلال رجع إلى الجزائر وعين محافظا لمتحف الآثار حيث بقي إلى وفاته سنة 1988[2].

أما محمد غانم فقد ولد بالعاصمة سنة 1925 وتتلمذ أيضا على يد عمر راسم، وقد ظهر سنة 1944 في المعرض الذي خصصه محمد راسم للفنانين المسلمين الشباب. ثم أصبح أستاذا لفن التذهيب في المدرسة الوطنية للفنون الجميلة بالجزائر. وكان يعرض أعماله في أماكن خاصة أو في التظاهرات الجماعية سواء في البلاد العربية أو في أوروبا[3].

ينتمي الفنان محمد أكسوح إلى جيل حديث، فقد ولد سنة 1934 في العاصمة، وبدأ منذ 1959 ينجز منحوتاته على المرمر أو المعادن. وكان يرسم يميل إلى التجريد. فكان من مؤسسي الرسم الجزائري الحديث. وبعد الاستقلال شارك أكسوح في المعارض الجماعية، ثم استقر به المقام في باريس منذ 1965 مثل عدد من زملائه، وشارك منها في عدة معارض وأنشطة. كما

(1) مدينة الجزائر ورساموها، ص 249
(2) نفس المرجع، ص 281.
(3) نفس المرجع، ص 277.

شارك في عدة تظاهرات خارج فرنسا أيضا[1].

ولد علي خوجة علي بالعاصمة سنة 1923 ودرس الخط وفن التذهيب في مدرسة الفنون الجميلة بالعاصمة على يد عمر راسم. كما واصل دراسة الفن على محمد راسم وأندري دي باك ..Pac وفي سنة 1942 عرض رسوماته في قاعة الفنانين الجزائريين وحصل على منحة مدينة الجزائر. أما بين 1943-1950 فقد اشتغل بالمنمنمات وبالحياة اليومية في قصبة العاصمة. وشارك في عدة معارض للرسم الإسلامي / الجزائري من إنتاج الشباب. كما أصبح عضوا في جمعية الفنانين الجزائريين والمستشرقين، ورساما في مكتب الفنون التقليدية. لقد تحول علي خوجة من المنمنمات إلى الرسم. وفي سنة 1961 ألحقته مدرسة الفنون الجميلة في الجزائر بها كمعلم لفن الزخرفة [2] décoration .

فنانون أوروبيون

بالإضافة إلى المبدعين الجزائريين في فن الرسم هناك أسماء أخرى ذات صلة وثيقة بهذا الفن منهم: جان ألازار الذي كان من أبرز الوجوه في الحركة الفنية سواء في التأليف فيها أو إدارة مؤسساتها وتوجيهها. ولد ألازار J.Alazar سنة 1887، وتخرج من مدرسة ترشيح المعلمين في التاريخ بالحصول على درجة التبريز ثم على الدكتوراه في فن النهضة الإيطالية، وأصبح مواطنا شرفيا لمدينة فلورنسا العريقة في إبداع فنون عصر النهضة والتي قضى فيها ردحا من الزمن أستاذا في المعهد الفرنسي. وفي 1923 عين أستاذا في تاريخ الفن بجامعة الجزائر، ثم تولى عمادة الجامعة سنة 1948، وسعى إلى إنشاء متحف وطني جديد للفنون الجميلة، وهو المتحف الذي تولى إدارته ثلاثين سنة كما سنذكر، وقد طوره ووسعه وأضاف إلى محتوياته، سيما المتعلقة منها بشمال

(1) نفس المرجع، ص 247، وقد أشرنا إلى أكسوح في الأجزاء السابقة من تاريخ الجزائر الثقافي.

(2) مدينة الجزائر ورساموها، ص 247.

إفريقيا، كما أنشأ فيه مكتبة غنية متخصصة ورواقا للنحت الخاص بالقرن العشرين. وكذلك تولى تحرير مجلة الفن التي غيرت اسمها إلى مجلة البحر الأبيض المتوسط، وأنشأ أيضا المعهد الحضري لمدينة الجزائر، وكان المشرف على فيلا عبد اللطيف التي كان يسهر على تلامذتها الموهوبين الممنوحين[1].

ومنهم جان برون J.Brune الذي ولد بالجزائر سنة 1912 ومات سنة 1973 منفيا في نوميا. وهو من الكتّاب الصحفيين الملتزمين سياسيا من أجل الجزائر الفرنسية. وكان من أنصار الملكية في فرنسا. وهو أيضا رسام ماهر بحيث كان يزود الصحف بمختلف المناظر الجزائرية، وكان مغرما بالفن الذي يعتمد المناظر الطبيعية، كما كان يكتب بتوثيق دقيق عن الرسم ويحلله تحليلا يدل على مهارة وذوق، وبالأخص خلال سنوات 1950-1960 عندما كان يدير جريدة هنا الجزائر [2] (Ici Alger).

أما ألبير كامو فقد عرف في ميدان الأدب والنقد وحب الفن وصداقة الفنانين. لذلك أقام هؤلاء له معرضا فنيا يحمل اسمه سنة 1994 . وكان ماكس فوشيه M. Fouchet قد عاش في الجزائر بين 1913 و1944 ثم غادرها في هذه السنة ليتولى (الحوليات الأدبية). وكان يتعامل مع فن الرسم، كما كان والده رساما[3].

والمعروف عن جان سيناك أنه شاعر وأديب ومن مواليد بني صاف سنة 1926، وقد أنشأ مجلة (الشمس (Soleil سنة 1950، وكان مهتما بالرسم، وله في ذلك أصدقاء فرنسيون وجزائريون، أمثال ابن عنتر وبوزيد وأكسوح. وبين 1955-1960 نشر سيناك (مذكرات الفن) أو ملاحظات فنية Notes d'Art

---

(1) من مؤلفات جان ألازار: الشرق والرسم الفرنسي في القرن التاسع عشر: من يوجين دى لاكروا إلى أوغست رونوار، باريس، بلون، 1930. انظر مدينة الجزائر ورساموها، ص 245.

(2) مدينة الجزائر ورساموها، ص 246.

(3) نفس المرجع، 246.

نوه فيها بالرسم الجزائري. وبعد نفي سياسي خلال الثورة رجع إلى الجزائر بعد الاستقلال وتحصل على الجنسية الجزائرية وأصبح مستشارا في وزارة التربية، ولكنه لم يتخل عن اهتمامه بفن الرسم[1].

والخلاصة أن الجيل الجديد من الفنانين كان يعبر عن التحرر من المراسيم، بل كان يعبر عن قلق حقيقي، ويريد التخلص من القيود التي فرضتها الحياة الاجتماعية والهروب من الإطار التقليدي، فقد كانوا يعتقدون أنهم قادرون أيضا على إنتاج مناظر وآفاق تشهد على تصور رائع للفن الجميل، وذلك بتجاوز حدود المحرمات الإيديولوجية. وهناك لوحتان وردتا مع المقال الذي رجعنا إليه في هذا الصدد، الأولى: لوحة مرسى الجزائر وخلفية الحياة بالمدينة لابن عبورة، كما أوردت مجلة (هنا الجزائر) على غلافها الفرنسي لوحة لبوزيد عنوانها (الموسيقار) وهو يمسك بالعود[2].

ومما يلاحظه المرء عندما يدرس حياة هؤلاء الفنانين الجزائريين أنهم في جملتهم انتقلوا إلى فرنسا قبل الثورة أو أثناءها واستقروا فيها، وأنهم كانوا يمارسون هناك عملهم الفني وربما وظائف أخرى عادية، ولم تؤثر الثورة- فيما يبدو- في مسيرة حياتهم. وعندما تحقق الاستقلال بقي بعضهم في فرنسا، وأدركت الشيخوخة أو الموت بعضهم، كما أن بعضهم رجع إلى الجزائر وتولى فيها وظائف بارزة، مديرين ومستشارين. فهل كانوا على صلة سرية بالثورة فكافأتهم على نضالهم؟ أو كانوا يحملون معهم جواز السفر الإيديولوجي المتمثل في الواقعية والالتزام، وهو أكبر مؤهل في تلك الفترة؟ أو هي مجرد عمليات ملء الفراغ التي دأبت عليها مصالح جزائرية بإيعاز من البعثة الثقافية الفرنسية حفاظا على "الجزائر الفرنسية" في شكلها الثقافي؟

---

(1) نفس المرجع، ص 246.
(2) هنا الجزائر 35، 1955.

معـــارض أخرى

أثناء حرب التحرير أسهم الأطفال أيضا في فن الرسم، من ذلك إقامة معرض لرسومات الأطفال التي كانت كلها تقريبا تعبر عن الحرب التي عاشوها. فقد طلب منهم أن يرسموا ما يخطر ببالهم فرسموا الطائرات المحترقة والمنازل المهدمة، كما رسموا مختلف أنواع الأسلحة المستعملة كالرشاشات والبنادق والمدافع والدبابات والعلم الوطني على هامة الجبال، والجندي وهو يحمل رشاشا. فكانت الحصيلة ثلاثة وثلاثين صورة(33)، إحدى وثلاثون منها عن حالة الحرب، وهناك صورة تجمع الأطفال وهم يتلقون درسا في ورشة، بينما أحدهم كان مصابا بالرصاص[1].

ومن جهة أخرى استمرت فيلا عبد اللطيف مفتوحة للعمل إلى حوالي 1960، وقد تعاقب على نشاطها ومعارضها عدد من الفنانين الجزائريين، منهم حسن بن عبورة ومحمد بوزيد اللذان حصلا على جوائز فنية كبيرة كما أشرنا. كما أن إدارة الفنون الجميلة التابعة لوزارة الجزائر قد نظمت، ربيع 1958، معرضا في قاعة (بورد) يدعى معرض الجوائز الكبرى، وتحدث المتكلم باسمها عن مرور ثلاثين سنة على إنتاج "مدرسة الجزائر". ومن جهة أخرى نشير إلى أن ابن عبورة قد استفاد من جداريات رينيه فاما Famin، وهي عبارة عن أروقة المنارة الواقعة اليوم في شارع مراد ديدوش بالعاصمة. وكانت هذه الأروقة تستقبل الفنانين والأدباء أمثال ألبير كامو وجان سيناك[2].

أنشئت المدرسة الوطنية للفنون الجميلة في نوفمبر 1881. وخصص لها في البداية مسجد مهجور-كما قيل- في حي البحرية، بشارع القناصل في القصبة. أما مدير المدرسة فكان العقيد ليون كوفيه L. Cauvy الذي قضى في المدرسة سنوات طويلة (1909-1933). ثم أنشئت مدرسة جديدة في شارع

---

(1) المجاهد 44، 14 يونيو 1958.

(2) مدينة الجزائر ورساموها، ص 243-244.

التالملي، وكان فيها سنوات 1950-1954 أكثر من ثلاثمائة تلميذ وأحد عشر أستاذا من حملة الشهادات، إضافة إلى ستة مكلفين بالدروس. ومن أساتذتها محمد راسم وأخوه عمر راسم وبشير بن يلس. ومصدرنا في هذه المعلومات لم يتحدث عن المدرسة خلال الثورة. ومما يذكر أن الأستاذ الذي تولى فيها ورشة النحت هو جان بيرسييه Bersier ، خلال 1947-1958. وبيرسييه كان قد تخرج من فيلا عبد اللطيف، وقد تخرج على يديه في النحت عدد من الأوروبيين، وأما المسلمون (الجزائريون) فمنهم : محمد إسياخم، وبشير بن يلس. ومن الأساتذة الذين درّسوا في الورشة كزائرين يوجين كورنو Corneau الذي كان يزور الورشة كل ثلاثة أشهر لينشر علمه منها، بين 1953-1962[1].

كما أنشئت معارض عديدة وهامة للفن ذات طابع مغاربي-إفريقي مع لمسة فرنسية، وقد استمرت في النشاط إلى سنة 1956 على الأقل. هذه المعارض كانت تستقبل إنتاج الفنانين من بلدان المغرب العربي، وكانت تعقد كل مرة دورة في إحدى مدن المغرب العربي، فانعقد أول معرض في تونس سنة 1928، ثم في الدار البيضاء سنة 1929، وفي الجزائر سنة 1930، وهكذا. . . أما المعارض الأخيرة فقد انعقدت بعيدا عن المغرب العربي، إما لاستقلال تونس والمغرب أو لاشتداد الثورة الجزائرية. فقد انتظم مثلا معرض للفن المغاربي بلمسات فرنسية في مونتكارلو سنة 1951، ثم في بوردو سنة 1956[2].

رسوم الطاسيلي

كان لاكتشاف رسوم الطاسيلي وفنون أخرى صحراوية ردود فعل من النقاد والكتاب المهتمين بالتراث الفني، فقد كان الشائع أن الصحراء خالية من الفنون في ماضيها وحاضرها فإذا بالباحثين يتوصلون إلى اكتشاف، في منطقة

---

(1) مدينة الجزائر ورساموها، ص 241.

(2) نفس المرجع، ص 240.

الطاسيلي، أبهر العالم،سنة 1956. إن هناك عدة لوحات اكتشفت واستخرجت من قبضة الرمال، وكانت اللوحة لفنانين صنحراويين رسموها بريشة من شعر حيوان وحشي، ويرجع تاريخ بعض الصور إلى آلاف السنين قبل الميلاد، وكان مع الإنسان عندئذ سلاحه وآلته، وقد أثبت وجود الزرافة والدب البحري والفيلة (وكلها مرسومة على اللوحة) أن الصحراء كانت عامرة بالأعشاب الكثيفة، كما أن وجود الفرس المائي والتماسيح والأسماك قد دل على أن ما هو صحراء اليوم كانت تغمره المياه.

إن مكتشفات الطاسيلي تعبر عن فنون ما قبل التاريخ، وعصورها المختلفة: ظهور الإنسان، ثم الحصان ثم الجمل، مرورا بعصر الإنسان الذي له شكل رأس مكورة، إلى صور للإنسان في شكل عملاق له طول يصل إلى ستة أمتار. وفي العصر الثاني رسم الصحراويون حياتهم اليومية كالأعراس والرقص والغناء والرعي والحروب والفلاحة والنساء... وفي هذا العصر ظهر الحصان، ولعله العصر الذي شهد آخر سكان الصحراء قبل اختفائهم نتيجة الجفاف، بحيث لم يبق في الصحراء سوى جماعات من البدو، وبذلك دخل عصر الجمل الذي يعتبر آخر العصور لأن الجمل جاء من آسيا وهو الحيوان الوحيد الذي استطاع أن يتكيف مع البيئة الصحراوية[1].

أما الرسوم التي عثر عليها الباحثون وعرضوها على الناس فهي: رسم لفتاتين زنجيتين طول كل منهما أكثر من متر، لهما جيد طويل وثياب بيضاء، وعلى إحداهما رسم حصان. وهناك صورة أخرى تمثل أحد الرماة وزوجته، وفلاحا يمسك بحبل لصيد الحيوانات، وصورا لزنوج، ثم صورة لقناع يرجع إلى عشرة آلاف سنة، وهو في شكل وجه لثور له قرنان. أما آخر الصور فلراقصين وراقصات بأقنعتهم التي يتخذونها للتنكر، ويظهر على الرسوم التأثير

---

(1) محمد الميلي: صحراؤنا، تونس، ص26-28.

المصري الفرعوني[1].

وقد درس أحد المهتمين ما قامت به بعثة هنري لوط في الطاسيلي سنة 1956. وبناء عليه فهي بعثة ضمت رسامين ومصورين كلفوا برسم الفنون المنقوشة على الأحجار في الطاسيلي، فكانت النتيجة باهرة إن لم نقل إنها تعبر عن معجزة، حيث استطاع الرسامون والمصورون نقل ما عثروا عليه من رسوم وصور ونقوش سنة 1957. لقد كانت الفكرة شائعة عن وجود رسوم في الصحراء ولكن دون تحديد إلى أن اكتشفت في شمال شرق الهقار بقيادة علماء الآثار والتاريخ. كان هنري لوط يريد نقل الرسوم قبل هذا التاريخ، ولكنه لم يتمكن من ذلك سابقا، لأنه كان في حاجة إلى رجال ومعدات، وقد استطاعت بعثته أن تنقل ما يزيد على الألف متر مربع من الرسوم المنقوشة والمطابقة للأصل بألوانها وأحجامها، ويرجع تاريخ هذه الرسوم إلى 7 أو 8 آلاف سنة، وهي تثير تساؤلات حول ترتيب الحضارات في الظهور، وإعادة النظر في القيم التاريخية والفنية والعلمية، مما يجعل هذه الرسوم نادرة المثال، فهي تمثل وجود أمة أو أمم عمرت بها الصحراء قبل التاريخ، وانتهت إلى درجة متقدمة من الرقي الاجتماعي وإقامة النظم الحضارية.

فهل هذه المكتشفات سابقة للحضارة المصرية القديمة، وهل تأثر المصريون القدماء بحضارة الصحراء أو العكس هو الصحيح؟ إن هذه المكتشفات الجديدة دلت على وجود حضارة صحراوية متقدمة للإنسان بحيواناته، وهي البقر والغزلان والفيلة والحمر الوحشية وغيرها، بل أن هناك رسوما تمثل الحروب والحياة الدينية والفنية، وقد بلغت بعض الرسوم درجة عالية من الكمال والإتقان الفني. أما ما أقدمت عليه البعثة من كشف ما عثرت عليه للجمهور والعلماء فهو جزء فقط من خطتها الشاملة. فقد نظمت البعثة معرضا لبعض الرسوم المنقولة، وهو معرض مفتوح أقيم في قاعة (بورد) وتردد

(1) الميلي، مرجع سابق، ص 32-33.

عليه المعجبون والمهتمون بهذا الاكتشاف النادر[1].

لقد كانت المعارض وسيلة للفنانين لعرض إنتاجهم والتعريف بأعمالهم. عرض محمد راسم إنتاجه في مختلف أنحاء العالم، كما عرض أزواو معمري وحسن بن عبورة. فالفنان أزواو مثلا اقتنت المتاحف الكبرى بعض لوحاته مثل متحف كليفلان في أمريكا، ومتحف لوكسمبورغ في فرنسا، كما وضع رسومات لمؤلفات العديد من الكتاب، وكذلك فعل عمر راسم، كما عرفنا. والواقع أن معظم الفنانين الذين ذكرناهم عرضوا أعمالهم في معارض أوروبية وجزائرية وعربية، سواء بطريقة فردية أو جماعية. فكان لمساهماتهم أصداء واسعة على المستوى المحلي والعالمي، ونالوا عليها الجوائز والمنح، وأتيح لهم أن يبدعوا بطريقة غير مسبوقة[2].

المكتبـات

عندما نتحدث عن الخمسينات من القرن العشرين يتبادر إلى الذهن عهد نهضة علمية ذات دوافع كثيرة من أهمها التحرر من الاستعمار. فقد أقبل العالم على غزو الفضاء وتطور التسلح النووي وبدأ عصر الاتصال السريع والتكنولوجيا، وتحررت بحلول الستينات كثير من المستعمرات واحتلت مكانها في الأمم المتحدة، وبدأت حدة الحرب الباردة تخف نظرا لميلاد قوة ثالثة أحدثت شيئا من التوازن هي كتلة عدم الانحياز. وكنا نتوقع أن تدخل الجزائر هذا العصر الجديد بأبنائها وعلومها ورصيدها النضالي، ولكن الذي كان ينقصها هو التحرر الكامل من الاستعمار والتخلص من التبعية، والقضاء على الأمية، فماذا حصل؟

لقد انشغلت الجزائر عن نفسها بقضايا هامشية وأدخلوها في دوامة من

(1) مولود الطياب، هنا الجزائر 54، مارس-أبريل، 1957، ص7.
(2) هنا الجزائر 29، نوفمبر 1954.

سوء الظن وفقدان الثقة بالنفس وأدخلوها دائرة العنف حتى فقدت السيطرة على مقاليدها وأسلمت زمام أمورها لغيرها، وخسرت ما ربحته من رصيد معنوي أيام الثورة.

ومن علامات هذه الظاهرة المرضية إصابة الجزائر في هويتها الثقافية، فقد جعلوها لعبة في أيدي العابثين، فأصبح أبناؤها يتنابزون بالألفاظ النابية في سبيل لغة الغير وثقافة الغير وتاريخ الغير، ونسي الجزائريون أن لهم وحدة يجب الالتفاف حولها، ولهم هوية مات أجدادهم من أجلها ولهم ثقافة عربية إسلامية هي التي حمتهم من الذوبان في الغير وحافظت على وجودهم كأمة بعد أن تعرضوا لأقسى امتحان في التاريخ وهو التخلي عن شخصيتهم والاندماج في أمة ليسوا منها في شيء.

وكانت الكتب والمكتبات هي الضمانة لتاريخهم وكيانهم، ولكنها كانت في يد المستعمرين يفعلون بها ما يريدون ويوفرون منها لأنفسهم ما يشاؤون بينما يحرمون منها أصحاب الأرض. كانت في الجزائر مكتبة عمومية "وطنية" ومكتبة جامعية ومكتبات ولائية وأخرى بلدية، بالإضافة إلى مكتبات عسكرية حيث ينشط القطاع العسكري الفرنسي، وكلها مكتبات في الواقع تخدم المصالح الفرنسية، كما تخدم الاستشراق في أوسع معانيه. أما المسؤولون عنها فكلهم فرنسيون، وقد يكون من بينهم عون جزائري في درجة ثانوية تقضي المصلحة وجوده كالترجمة وقراءة الخطوط والعناوين العربية.

بالإضافة إلى ذلك كان هناك مكتبات لبيع الكتب المستوردة أو المطبوعة في عين المكان أو في فرنسا. مثلا هناك مكتبة النهضة الجزائرية بالعاصمة التي كانت متخصصة في بيع كتب المشرق على العموم، ولكنها تبيع أيضا الكتب الفرنسية. وهناك دار الكتب التي تشبه الأولى في أهميتها، وهي تبيع مختلف أنواع الكتب ومنها الكتب الجزائرية، فهي في الحقيقة دار طبع وبيع وتوزيع، وهناك مكتبة الشباب بقسنطينة، إضافة إلى المكتبة الجزائرية التي لها أصل في

العاصمة وفرع في قسنطينة، وكان على رأس مكتبة النهضة السيد ميموني، وعلى رأس المكتبة الجزائرية السيد شريفي. ولا ننسى هنا مكتبة رودوسي التي استمرت في نشاطها والتي تخصصت، كما ذكرنا في التاريخ الثقافي، في طبع المصاحف وبعض كتب التراث. وكانت هذه المكتبات تساهم في توريد ونشر وبيع الكتب، كما كانت تساهم في ترقية الحياة الثقافية عموما.

في يناير 1955 كتب السيد عبد المجيد الشافعي كلمة غمز فيها من قناة أصحاب المكتبات فاتهمهم بأنهم لا يرحبون إلا بكتب الشرق ويهملون كتب الجزائريين، وقال إنهم لا يشجعون نشر كتب أمثاله من الشباب. ويرى الشافعي أن جلب الكتب من المشرق جناية على الثقافة العربية في الجزائر. فآخذه صاحب مكتبة النهضة على لسان زملائه، على "غروره" وصحح له قوله إنهم يستوردون الكتب من (الخارج) لأن الاستيراد من البلاد العربية ليس خارجا، وتساءل كيف يمكن مواكبة الثقافة. العالمية بكتاب مثل (خواطر مجموعة) للشافعي، وإن الوطن العربي واحد، وإن رأي الشافعي يعبر عن وجهة نظر محلية ضيقة، وقال إن أي دار للنشر لا تنشر أي شى بل لا بدّ لها أن تختار، وإن عليه أن يفرق بين مهمة المكتبة ومهمة دار النشر.

لقد جعل الشافعي عنوان كلمته (مناهضة المكتبة الجزائرية لحركتنا الإنتاجية) قائلا إن الأديب تنهك قواه المطبعة وإذا أخذ كتابه إلى دار النشر تثبطه، وبذلك يزهد في التأليف والإنتاج وتصبح المكتبة مساهمة في محاربة الكتاب. واستعدى الشافعي القراء على أصحاب المكتبات لأنهم يجلبون الكتب التافهة من الخارج ويهملون الإنتاج الوطني، فالقراء هم الذين شجعوا بذلك صاحب المكتبة على دفن التراث، وليس صاحب المكتبة سوى تاجر قبل كل شيء وليس له غيرة على الكتاب والثقافة[1].

كانت الصحف إلى وقت اختفاء معظمها سنة 1956 تنشر الإعلانات عن

(1) البصائر 302، 21 يناير 1955 وكذلك 304، فبراير 1955.

صدور بعض الكتب، كما كانت تعرف ببعضها عند صدوره. ففي المنار والبصائر وهنا الجزائر مثلا كمية من العناوين الصادرة حديثا أو التي ستصدر، أو الكتب المشرقية الموردة إلى الجزائر. فكتب أحمد رضا حوحو، ومحمد الصالح الصديق وعبد الرحمن الجيلالي وسليمان الصيد ومحمد علي دبوز ومحمد الصالح رمضان وعبد الرحمن الحفاف والشريف الساحلي، وغيرهم وجدت طريقها إلى الإعلان للقراء. كما قام بعضهم (محمد منيع) بمراجعة (كتاب البربر لعثمان الكعاك) وكتاب صرخة القلب للحبيب بناسي. وأعلنت البصائر عن ورود موسوعة لسان العرب، وتاريخ ابن خلدون للبيع في مكتبة النهضة بالعاصمة. وأما هنا الجزائر فقد خصصت بابا شهريا تراجع فيه الكتب الصادرة حديثا باللغتين. وقام محمد منيع أيضا بعرض كتاب (ثورة الخيام) لمؤلف اسمه عبد الحق (؟)، وحمزة بوكوشة بعرض (ألحان الفتوة) لمحمد الصالح رمضان وغيره من "ثمرات المطابع"، حسب التعبير المستعمل عندئذ.

أما المكتبة الوطنية والمكتبة الجامعية وغيرهما من المكتبات الولائية والبلدية، فإننا لم نجد تقارير تتحدث عن تطورها وغناها خلال مرحلة الثورة، ولعل ذلك راجع إلى عدم استقرار الموظفين فيها نتيجة الأحداث، أو إلى الرحيل المفاجى للمسؤولين عليها، وأخذ ما يمكن أخذه إلى فرنسا بعد التيقن من حصول الجزائر على استقلالها عند الاستفتاء، والتدمير المنظم الذي قامت به منظمة الجيش السري منذ 1961. ومهما كان الأمر فإننا لم نعثر على قوائم المقتنيات الجديدة من كتب ودوريات ومخطوطات، ولم نجد أسماء الموظفين الذين تداولوا على هذه المؤسسات خلال الخمسينات أو على الأقل بعد رحيل غبريال إسكير آخر المحافظين البارزين للمكتبة العمومية.

وعلى كل حال فعند الاستقلال كانت المكتبة الوطنية تحتوي على ما يلي:

- القسم العربي: يحتوي على حوالي ثلاثة آلاف كتاب (3000) مطبوع باللغة العربية، دخلت إلى المكتبة بالشراء والهدايا من البلدان العربية والهند وأوروبا.

- المخطوطات الشرقية: تبلغ أكثر من ثلاثمائة (300) مخطوط باللغات العربية والتركية والفارسية، وهي مجموعة قيل إنها غنية بصورها وقدمها، إذ يرجع بعضها إلى القرون 12، و13، و14 الميلادية.

- مجموعة الدوريات: وهي تبلغ حوالي 1400 جريدة يومية وأسبوعية ومجلات، ترد إلى المكتبة عن طريق الاشتراك والهدايا أو بعنوان الإيداع القانوني.

- المجموعة الموسيقية والشريطية (ديسكوتيك)، وهي تمكن المهتمين من الاستماع إلى التسجيلات الموسيقية التي يحتوي عليها 2400 شريط، وهي تضم أشرطة للموسيقى الكلاسيكية والحديثة والأوبرا والمسرح والقطع الأدبية، كما أنها وسيلة لتعلم اللغات[1].

أما بناء المكتبة التي أصبحت وطنية قرب فندق الأوراسي فيرجع إلى سنة 1954. فبعد حديث طويل ومناقشات حول المكان والتكاليف والأبعاد وقعت الموافقة على مشروع بناء مكتبة جديدة ووضع الحجر الأول يوم عشرين أبريل 1954، بحضور شخصيات رسمية، منهم جوليان كان J.Cain مدير المكتبات بفرنسا ممثلا لوزير التربية، والحاكم العام للجزائر وهو ليونارد Leonard. إن بناية المكتبة الجديدة التي تتربع على ربوة الثغريين في إطار عام ضخم يطل على ساحة الفوروم (إفريقيا حاليا) وعلى مقر الولاية العامة (قصر الحكومة حاليا)، وعلى مرسى المدينة في شكله المتدرج كان من مغريات هذا المشروع. كما تقع خلف بناية المكتبة حدائق الثغريين والمباني الرياضية. إن هذا الحي كان مخططا له أن يكون امتدادا لجامعة الجزائر، فقد كانت الأعمال تجري فيه لبناء كلية الحقوق ومعهد الدراسات النووية، ومعهد الدراسات الصحراوية، ودار المهندس... وما يزال بعض هذه المعاهد موجودا في هذا الحي، مثل معهد الدراسات النووية.

---

(1) الثورة الثقافية في عامها الأول، وزارة التربية، 1963، الجزائر، ص28-29.

تبلغ المكتبة 122م طولا على 17م ارتفاعا، وهي تشمل: مكتبة شمال إفريقيا التي تحتوي على كل ما يهم هذه المنطقة ويهم الإسلام، وهي مكتبة للتوثيق العام، بطريقة موسوعية، وتمثل التفكير الفرنسي في إفريقيا، كما أنها تمثل مركز الإيداع القانوني، ومكتبة الإعارة وخدمات المطالعة، وألحقت بها المكتبة الموسيقية والشريطية والأشرطة (الميكروفيلم) والنسخ والمعارض. أما الرصيد العربي فيحتوي على حوالي 3000 مخطوط، كما ذكرنا، وهي مخطوطات ذات قيمة عالية لندرتها وقدمها، ومنها كتاب الموطأ للإمام مالك، وصحيح البخاري في الحديث، وهناك نماذج كتبت لأبي يوسف يعقوب الموحدي، وفقه اللغة للجوهري ونسخة من القرآن الكريم مكتوبة سنة 768 (1367) بالفارسية، كما يوجد في المكتبة قسم للكتب الفارسية[1].

وبالإضافة إلى المخطوطات هناك الكتب المشتراة بالعربية، وهناك اشتراك في المجلات العربية والجرائد. وهكذا فإنه يمكن للمثقفين الجزائريين أن يجدوا في المكتبة الوطنية ما يتطلعون إليه حول الإسلام والفلسفة والأدب والتاريخ الإسلامي.

وهناك الرصيد الفرنسي، وهو الأكثر غنى في المكتبة، فهو يضم كتبا في التاريخ وحضارة شمال إفريقيا، ومخطوطات تتعلق بتاريخ الجزائر بعد 1830، كما أن هناك مشتريات حديثة لمخطوطات خاصة سمحت بالحصول على معلومات ثمينة تتعلق بتاريخ الجزائر في القرنين 17 و18، وكذلك أعمالا أخرى مثل الدفاتر والرحلات، كرحلة الأب دي فوكو.

أما المطبوعات فشملت الكتب التي ترجع إلى القرون 17، 18، 19 الخاصة بالأسرى المسيحيين وتاريخ الجزائر قبل 1830، كما شملت كتبا نادرة ترجع إلى ما بعد هذا العهد، مثل مجموعة طابلو Tableau ، ووضع المؤسسات الفرنسية في الجزائر من 1838 إلى 1868، والاكتشاف العلمي للجزائر الذي

(1) مستلة من نشرة المكتبات الفرنسية، رقم 10، ص 693، 696.

يقع في اثنين وثلاثين (32) مجلدا، من 1844 إلى 1854، وكذلك حوليات الاستعمار في الجزائر من 1852 إلى 1855، ومجموعة جرائد المونيتور والأخبار.

وفيما يتعلق بالفترة المعاصرة فإن مقتنيات المكتبة لا تتوقف عند الجزائر بل تمتد إلى شمال إفريقيا وإلى القارة الإفريقية، ولكن القسم الجزائري هو الأكثر غنى بفضل الإيداع القانوني، كما أن قسم شمال إفريقيا قد توسع بمكتبة ستيفان غزال الغنية بالوثائق والكتب الأثرية، بالإضافة إلى مكتبة المكتشف (دي برازا)[1].

كانت المكتبة تضم كتبا للثقافة العامة، وكتبا أخرى في مختلف الاختصاصات، ومنها الكتب الأدبية والكتب العلمية، ويتردد عليها الأساتذة والطلبة، وهي تلبي حاجتهم في مختلف التخصصات، وفي كل سنة هناك ميزانية مخصصة لشراء كتب نادرة أو نفيسة، كما أن هناك مجلات ترتبط بالاختصاص، وأسبوعيات ويوميات عامة، إضافة إلى الصحف الإقليمية. والمكتبة مفتوحة للإعارة العامة من رصيد خاص بذلك، وهناك مشروع تمت المصادقة عليه نهاية سنة 1955 بإنشاء مكتبة مركزية للإعارة في مدينة الجزائر، وهو مشروع المطالعة العامة الذي يغطي حوالي 300 مركز عبر القطر كله، والمكتبة تتعامل أيضا مع المكتبات البلدية ومكتبات النوادي الريفية ومكتبات المدارس ومكتبات المستشفيات. والإعارة مجانية، كما استحدثت مكتبات صغيرة في مراكز صحراوية بلغت خمسا وعشرين مكتبة (في الأغواط، والبيض، وغرداية. . .).

لقد بلغ رصيد المكتبة المخصص للإعارة 45000 كتاب، وهي تحتوي على الروايات والتراجم والدراسات الأدبية والتاريخ والجغرافيا والرحلات والطب الشعبي والفنون الجميلة وكتب خاصة بالمراهقين وأخرى بالأطفال،

(1) المرجع نفسه، أكتوبر 1958، ص697.

إضافة إلى كتب باللغة العربية[1].

المكتبة الجامعية

أما المكتبة الجامعية فقد تضررت كثيرا بسبب الحريق الذي عانت منه سنة 1962 (يونيو) على يد منظمة الجيش السري الإرهابية، وتظهر إحدى الصور المكتبة وهي تحترق والنوافذ مفتوحة والزجاج مهشم. وفي ديسمبر 1962 قامت لجنة دولية برئاسة وزير التربية بحملة لإعادة إعمار المكتبة، وقد وصلتها ردود مشجعة. وأذكر أنني كنت عندئذ الجزائري الوحيد في جامعة مينسوتا فاستدعتني الجامعة واستلمت من رئيسها الدكتور ميريدت ويلسون رمزا لهدية الكتب التي قدمتها الجامعة لمكتبة جامعة الجزائر، وقد جرى ذلك في حفل كبير سلطت عليه أضواء باهرة.

أما المكتبة الوطنية فلكي تمنع ضياع الكتب أو تلفها قامت بتصوير المخطوطات بواسطة الميكروفيلم(الأشرطة)، بما في ذلك مكتبات المساجد والزوايا والخاصة، وتسجيل الموسيقى الوطنية في أشرطة لحمايتها من الضياع. ويلاحظ أن إحصاء الكتب والمخطوطات سنة 1962 فيه شيء من المبالغة إذ جاء فيه أن عدد الكتب في المكتبة الوطنية بلغ خمسمائة ألف (500 ألف) كتاب مطبوع، وأن المخطوطات بلغت 3500 بالعربية وحدها، وأنها المكتبة الأولى في إفريقيا[2].

مكتبات جهوية

وقد اطلعنا على كاتلوغ الكتب التي يحتويها أرشيف ولاية التيطري (دائرة المدية) لسنة 1961 (من أكتوبر 1960 إلى فبراير 1961)، فوجدناه يضم عددا

---

(1) نفس المرجع، ص 697-698 كاتب المقال هو جيرمان لوبيل Germaine Lebel محافظ ومدير المكتبة الوطنية (الجزائر)، في نشرة المكتبات . . .رقم10، 13، أكتوبر 1958.

(2) انظر إحصاء سابقا.

من الكتب العامة والدوريات، وفي مقدمة الكاتلوغ تنبيه على أن الهدف من وضعه هو تسهيل المطالعة والبحث، وقد صنف حسب مادة الاختصاص فهو يبدأ بالعموميات والقواميس ثم يمر إلى الفلسفة وعلم النفس والتربية والأديان والعلوم السياسية والقانون والعدل والعلوم الاقتصادية والعلوم الاجتماعية، وفقه اللغة، واللغات، والعلوم التطبيقية والفنون الجميلة والمسرح والسينما. . .هذا الكاتلوغ موجود في المكتبة الوطنية (بالحامة).

وفي كاتلوغ آخر لنفس الدائرة (المدية) قائمة بالكتب التي دخلت المكتبة من مارس إلى نوفمبر 1961، وهو يسير على نفس النسق الذي سار عليه الكاتلوغ الأول، وكذلك نفس التصنيف[1].

كما اطلعنا على كاتلوغ دائرة القبائل فوجدناه يشتمل على الكتب التي دخلت المكتبة إلى ديسمبر 1961، ولها مجموعتان: الأولى الكتب المشتراة من قبل السيد حداد قبل وصول السيد (برّان) Parrain، وقد سجلت بعناية في المكتبة. والمجموعة الثانية الكتب التي وضعها السيد حداد جانبا ولم يسجلها، كما لم يسجل المجلات القديمة، وقد أكد السيد بران على وجود الكتب التي سبق أن صنفت ودخلت المكتبة وتلك التي تم شراؤها ولم تسجل، إلى حلول 15 يوليو 1961، فبلغت 1271كتابا، وكانوا يعدون بطاقات خاصة بالمؤلفين وأخرى بالمواضيع.

صنفت الكتب ثلاثة أصناف: أ-المؤلفات العامة، ب- مؤلفات خاصة بشمال إفريقيا، ج-مؤلفات عن الإدارة والقانون. ووعد المصنف أن المؤلفات الجديدة ستنشر في نهاية كل سنة. وإذا كان الصنف الثاني هو الذي يهمنا هنا بالدرجة الأولى فإن ما فيه من مؤلفات عن الإسلام لا يعدو سبعة عناوين، منها (مساهمة في دراسة الطرق الصوفية، وترجمة للقرآن الكريم قام بها إدوارد

---

(1) الأرشيف الولائي للتيطري، دائرة المدية، المجلد1 ويحتوي على 27 صفحة، أما المجلد 2 فيحتوي على 45 صفحة، نوفمبر 1961.

مونتاي، والمرأة المسلمة، والإسلام في الغد، والحضارة العربية، والإسلام والمسلمون اليوم، وعرف وتقاليد المسلمين، وكذلك مجلة الدراسات الإسلامية . . .

(**المكتبات**: ولاية القبائل، الوثائق الولائية، مركز التوثيق بالمكتبة الوطنية(بالحامة).

وهناك نموذج ثالث نمثل له (بعد التيطري والقبائل) بكتب تعود إلى جبهة التحرير. لقد كان للجبهة مكتبتها في مبنى الحكومة المؤقتة بالقاهرة، وربما في مختلف مكاتبها الإعلامية وسفاراتها. وكانت مكتبة القاهرة تضم عددا من الكتب المهداة في أغلب الأحيان، وهي المكتبة التي عملت فيها شخصيا بعض الوقت لجردها وتصنيفها في دفتر ضخم. وبعد سفري من القاهرة وانتقال وزارة الثقافة إلى تونس لا أدري ماذا جرى لتلك المكتبة. كما كان لجيش التحرير مكتبته، وأظن أنها كانت في مقر قيادة الأركان بتونس، لأن ممثل جيش التحرير(أو ممثل قيادة الأركان) في القاهرة كان غالبا ما يشتري الكتب ويرسلها إلى تونس.

اطلعنا على المجلد الثاني من كاتلوغ الكتب المنسوبة إلى جبهة التحرير فإذا به يضم 689 عنوانا بما في ذلك المجلات، وعنوانه: كاتلوغ كتب المكتبة المجلد 2، الكتب من 320 إلى 689، أي أن المجلد الأول يحتوي على الأرقام من 1 إلى 319. ويذكر أن صفحة العنوان تحتوي على اسم جبهة التحرير الوطني، المكتب السياسي، مصلحة الدراسات والتوثيق، تاريخ 1968/3/12 وتقع الوثيقة في 13 صفحة، فهل هذه الكتب قديمة ترجع إلى عهد الثورة؟ يبدو ذلك، كما يبدو أنها كتب تجمعت من الهدايا أثناء الثورة لأنها كتب سياسية واقتصادية وثورية وتتعلق بتاريخ المنظمات وتراجم الرجال، ونحو ذلك. ولعل الجزء الأول (الذي لم نطلع عليه) فيه وصف لها في مقدمته، وهذا الكاتلوغ يوجد أيضا في المكتبة الوطنية (بالحامة).

الخطاطة

بالنسبة للخطاطة أشرنا إلى أن عمر راسم كان مولعا بمختلف الخطوط العربية، ولا سيما الكوفي والنسخي والعثماني، وكان قد خط ذلك على لوحات أسماء الشوارع في القصبة وزخرفة الكتب وعلى لوحات خطية رغم أنها قليلة. وقد درس الخطاط الموهوب محمد شريفي في رسالته للدكتوراه اللوحات الخطية في الفن العربي... وخاصة المغربية والجزائرية، ومن بينها لوحات عمر راسم. كما ظهر خطاطون وقت الثورة منهم محمد شريفي نفسه الذي درس الخط في مصر وبرع فيه، وكان أستاذه فيه (وأستاذنا أيضا) هو سيد إبراهيم صاحب الشهرة الواسعة والمدرسة المتميزة في مصر والشرق في زمنه. ويعتبر محمد شريفي من الذين درسوا وطبقوا الخطوط العربية حتى أصبح اليوم أحد أبرز المحكمين والمستشارين فيها على مستوى العالم الإسلامي. وإليك بعض الأضواء على حياته في هذا المجال.

محمد سعيد شريفي

ولد محمد بن سعيد شريفي بالقرارة (بني ميزاب) بجنوب الجزائر سنة1935، ودخل المدرسة فحفظ فيها القرآن الكريم، ثم درس في معهد الحياة بنفس المدينة إلى أن تخرج منه حاصلا على الشهادة الثانوية سنة1956. ولا ندري إن كان قد درس أيضا في تونس، ولكنه التحق بالقاهرة التي حصل منها على شهادة خطاط من مدرسة تحسين الخطوط العربية بعد أن قضى فيها أربع سنوات (تخرج 1962). وفي هذه السنة حصل من الأستاذ سيد إبراهيم على إجازة في الخط العربي، كما حصل على بكالوريوس كلية الفنون الجميلة (قسم الحفر) بالقاهرة حيث قضى خمس سنوات، وكان موضوع تخرجه سنة 1963بعنوان مساجد القاهرة.

وبعد رجوعه للجزائر تولى تدريس الخط في المدرسة الوطنية للفنون

الجملة، وغيرها. وواصل رسالته إلى أن حصل على عدة إجازات في الخط منها إجازة حامد الآمدي باسطنبول في رمضان من عام 1389 (1969م)، وعلى شهادة في الخط والتذهيب من مدرسة تحسين الخطوط العربية بالقاهرة حيث قضى من جديد سنتين، عام 1970. أما من جامعة الجزائر فقد تحصل سنة 1971 على دبلوم في الفن الحديث، وعلى دكتوراه الحلقة الثالثة في تاريخ الفن الإسلامي بعنوان (خطوط المصاحف عند المشارقة والمغاربة من القرن الرابع إلى العاشر الهجري). ومن جامعة الجزائر أيضا نال دكتوراه الدولة في التاريخ الإسلامي في موضوع (اللوحات الخطية في الفن العربي بخط الثلث الجلي) سنة 1997. وهذه الأطروحة طبعت سنة 1998 في دمشق.

لمحمد شريفي مجموعة من المصاحف بخط يده، وبعض أجزاء من القرآن الكريم برواية ورش، وبعضها برواية حفص عن عاصم. هذه المصاحف منشورة في الجزائر وكذلك بدار الغرب. وقد اشترك شريفي في ملتقيات جرت بعدة عواصم وحواضر منها تلمسان وبغداد والرباط، وكلها ملتقيات تناولت الخطوط والآثار والزخرفة الإسلامية. وهو عضو في لجنة التحكيم للمسابقة الدولية لفن الخط. وقد علّم الخط، كما قلنا، في المدرسة العليا للفنون الجميلة للجزائر منذ 1964. وطبع كراريس بأنواع الخطوط: الثلث، الفارسي، النسخي، الرقعي، الديواني... وله بحوث في الفنون التشكيلية وسبل تطويرها، وفي الخط العربي وأصالته وفنونه وحاضره وتاريخه.

وقد صمم شريفي عملة العشرة دنانير الجزائرية النحاسية ذات الأضلاع العشرة، وأعد الخطوط للحروف العربية واللاتينية لأوراق النقد الجزائرية، كما صمم ورسم شهادات التعليم العالي. وقد منح عدة جوائز وحظي بالتكريم في الجزائر وبغداد والشارقة. وأشرف على عدة معارض فنية وطنية في عدة بلدان عربية[1].

(1) معلومات مأخوذة من سيرته الذاتية.

عبد الحميد اسكندر

ولد عبد الحميد اسكندر بالجزائر العاصمة، ودرس الابتدائي في المدية، ثم درس في مدرسة الشبيبة الإسلامية بالعاصمة، ثم التحق بالزيتونة في تونس 1955.

تعرف اسكندر على محمد الخماسي وأعجب به، وأصبح من تلاميذه وأشركه الخماسي معه في يومية الحائط ويومية الجيب اللتين كان يصممهما ويكتبهما بالخط الجميل. وفي سنة 1959 التحق بالقاهرة حيث درس بمدرسة تحسين الخطوط العربية. ومن أساتذته فيها سيد إبراهيم ومحمد علي مكاوي والشيخ رضوان، إلخ. ونال منها الدبلوم العالي في الخط والزخرفة.

رجع بعد الاستقلال إلى الجزائر ومارس كتابة الكتب المدرسية للمرحلة الابتدائية. وتعاطى التدريس في المدرسة الوطنية للفنون الجميلة. وشارك في العديد من المعارض في داخل وخارج الجزائر. وحصل على عدة جوائز وشهادات تقدير، ومنها أنه حاز على الميدالية الذهبية في مهرجان الخط العربي، 1993، 1995.

عمل اسكندر في رئاسة الجمهورية حيث أنجز لوحات التدشين الرسمي مثل مقام الشهيد، والمتحف المركزي للجيش، ومجمع الفنون. كما صمم عدة كتب وخططها وكذلك بعض المجلات الوطنية. وقد كرم عدة مرات، آخرها كان بمناسبة الذكرى 50 للثورة مع زميله محمد بن سعيد شريفي (2004). ومما يحتفظ به اسكندر رسالة من مدير مدرسته في القاهرة سنة 1964 عند انتهاء الدراسة ومغادرة مصر إلى الجزائر، وهي رسالة من ثلاث صفحات بخط يد ناظر المدرسة المعروفة بمدرسة خليل آغا الثانوية. وقد أطلعني على هذه الرسالة التي تعبر له عن مكانته في المدرسة واستقامة سلوكه وأخلاقه. وقد تفضل اسكندر بتخطيط وتصميم بعض كتبنا منها ديوان الزمن الأخضر وكتاب

محمد العيد عندما كان مخطوطا والذي تركناه أمانة لدى الشيخ محمد البشير الإبراهيمي سنة 1960. أما محمد سعيد شريفي فقد خطط لنا عنوان كتاب هموم حضارية[1].

سعدي حكار

كان سعدي حكار من أبرز الخطاطين وقت الثورة وقبلها، ورأينا له نماذج في البصائر والمنار، وهو الذي خطط عناوين هنا الجزائر التي وصفته بالفنان. وكان حكار يقدم أحاديث فنية في الإذاعة كل خميس وله كلمة قصيرة بعنوان "نظرة في الفنون" مع صورته. وهو يقصد بالفنون: الزخرفة والتخطيط والنقش والتصوير، كما قال. وطالب بالرجوع إلى الكتب للاطلاع على معاني هذه الفنون على مدى العصور وما أحدثته في الإنسان من الحزن والفرح واليأس والألم... وهذه المشاعر لا يعبر عنها إلا الفنان الملهم خلافا للمؤرخ والكاتب والشاعر الذين يعبرون بالقلم[2]. وعناوين لبعض كتب حوحو، وبعض الكتب الأخرى، ويبدو أنه وضع أيضا يوميات أو تقويمات، وغير ذلك من الأنشطة الفنية.

وقد مدحه الشاعر محمد العيد آل خليفة بما هو أهل له عندما زاره حكار، فقال الشاعر مقارنا له بالخطاط الشهير ابن مقلة:

هذا فتى الخط والتصوير حكار — هذا (ابن مقلتنا) ما فيه إنكار
أعدّ للخط مولانا أنا مله — كما تعدّ لحلو اللحن أوتار
أنظر إطاراته تزدان فاتنة — كأنها في اختلاف اللون أزهار
إن الجزائر أحرى أن تكرمه — فخطه من خطوط الجيل مختار
يا زائرا قد طوى للفن مرحلة — يرجى له شرف فيها ومقدار

(1) معلومات مأخوذة من سيرته الذاتية ومن أوراقه الشخصية.
(2) هنا الجزائر 86، أفريل 1906، ص 15.

أقم على الرحب محفوفا بتكرمة   وإن رحلت فهذا الشعر تذكار[1]

المتاحف

اطلعت على الكتلوغ الدولي للمتاحف الخاص بإفريقيا فوجدت فيه أكثر من 25 متحفا في الجزائر، ولا شك أن عددها قد زاد بعد أن سجلت تلك الأعداد. فالجزائر كانت تحتوي على متاحف معظمها أثري، لأن لكل مدينة تراثا تريد أن تبديه وتحفظه. ولكننا لا ندري مدى تطور كل متحف خلال الثورة بالخصوص: منْ تولاه؟ ما مقتنياته السنوية أو الفصلية؟ ما ميزانيته؟ ما عدد زواره؟ الخ.

وفي كتاب (مدينة الجزائر ورساموها 1830- 1960) الصادر سنة 2000 يوجد قسم عن المتاحف في مدينة الجزائر فقط. كما أن في كتاب (من دولاكروا إلى رينوار أو جزائر الرسامين) الصادر سنة 2004 عن المعهد العربي في باريس مقال عن المتحف الوطني للفنون الجميلة إلى حين تخريبه من قبل منظمة الجيش السري الإرهابية في نوفمبر 1961، وهو الحادث الذي أجبر إدارة المتحف- حسب الكاتب- على نقل محتويات المتحف إلى فرنسا.

وقد عرفنا أن عددا من الفنانين (الرسامين) الجزائريين كانوا أيضا نحاتين مثل عائشة حداد المولودة سنة 1905 وحسن بن عبورة وأزواو. وقد كان بالعاصمة ساعة الاستقلال عدد من المتاحف سلمت من تدمير منظمة الجيش السري ولكنها لم تسلم من تخريب الضمائر. منها متحف ستيفان غزال الخاص بالأشياء القديمة والإسلامية، ومتحف باردو الخاص بأشياء ما قبل التاريخ وبالأنثروبولوجيا.

---

(1) هذه الأبيات منشورة في جريدة المغرب العربي، لصاحبها محمد السعيد الزاهري، 11 رمضان 1366، 29 يوليو، 1947، العدد 5، س1، وهي أبيات قد لا تكون موجودة في ديوان محمد العيد المطبوع. ولا ندري مصير الخطاط سعدي حكار رغم حرصنا على الحصول على معلومات أخرى عنه.

وقد حاولنا إحصاء المتاحف التي كانت موجودة زمن الثورة في الجزائر فواجهتنا صعوبة، ويمكننا أن نقول إن منها الوطني ومنها المحلي، وهي على النحو التالي:

المتحف الوطني للفنون والتقاليد الشعبية بالقصبة (العاصمة) وهو يضم المجموعة الإثنية (الإثنوغرافية)، وهو موجود منذ 1947. وفي سنة 1961 أصبح اسمه متحف الفنون الشعبية، وفي سنة 1987 أصبح اسمه المتحف الوطني.

وهناك متحف وادي سوف الذي افتتح سنة 1954، ويضم آثار منطقة سوف لما قبل التاريخ والسلالات، والحرف اليدوية والنباتات والحيوانات.

ثم متحف الآثار القديمة بتبازة ويضم مجموعة من الآثار، وقد بني سنة 1955. وهو يحتوي على غرفتين وباحة، ويطل على ميناء المدينة.

ورغم بحثنا فإننا لم نجد معلومات مفيدة عن تطور المتاحف أثناء الثورة، وإنما وجدنا أسماءها، إما القديمة وإما المستحدثة (بعد الاستقلال)، وكلاهما لا يهمنا هنا.

المتحف الوطني للفنون الجميلة

كان مديره هو جان ألازار مدة ثلاثين سنة (1930-1960)، ويحتل المتحف موقعا جميلا يطل على حديقة التجارب في مواجهة البحر، بينما تظهر مدينة الجزائر على يسار الرائي. صدر قرار إنشائه رسميا في 22 يناير 1930، وافتتحه رئيس الجمهورية الفرنسية بنفسه (غاستون دوميرغ)، في شهر مايو 1930 أما الجمهور فلم يفتح له إلا بعد سنة من تاريخه.

كان المتحف يضم مجموعة كبيرة من لوحات وتماثيل منحوتة وطوابع بريد وأختاما ورسومات، وهي ترجع إلى القرن الرابع عشر مع التركيز على الفن الفرنسي الحديث والمعاصر، كما ركز المتحف على الأشخاص الذين قدموا إلى

شمال إفريقيا الشرقي أو من الشرق. ومن بين التماثيل مائة وخمسون برونزية حديثة، كما يضم مكتبة متخصصة فيها تسعة آلاف كتاب.

وبعد استقلال الجزائر تولى ميزونسيل Maisonceul إدارة المتحف تحت عنوان "التعاون الفرنسي"، طبقا لمعاهدة إيفيان[1].

(1) مدينة الجزائر ورساموها، ص 240.

الفصل الثامن

أنواع النثر

نتناول في هذا الفصل أنواع النثر من مقالة وقصة ورواية ومسرحية وخطبة وترجمة. بعض هذه الأنواع قد حظي بإنتاج طيب، ولاسيما القصة والرواية باللغة الفرنسية والمقالة باللغة العربية، وبعضها كان له إنتاج ضعيف إلى حد كبير كالخطابة، كما أننا لم نعثر على أية مقامة. وقد انتعشت المسرحية فترةولكن باللهجة العامية في معظم الأحيان. ولعل السبب في انتشارها يرجع إلى الإذاعة والتلفزيون وظهور ممثلين وممثلات استطاعوا أن يروضوا أنفسهم بعد عقدين أو ثلاثة من التجارب على فن المسرح. وقد تناولنا المسرحيات في الفصل الخاص بالمسرح.

أما الخطابة بالعربية الفصحى فقد كانت محدودة لقلة مناسباتها وضعف جمهورها المثقف، ومع ذلك وجدنا خطباء سياسيين أيام الانتخابات المسموح بها وأيام فتح المدارس ودروس الوعظ والإرشاد. أما الخطب السياسية بالعربية أيام الثورة فلم تكن شائعة داخل الجزائر عموما ولا سيما في الأرياف حيث قادة الثورة، فالعمل السري كان ميزة من ميزات الفترة التي نتناولها. ولكن الخطابة انطلقت من عقالها حين حل عدد من قادة الجزائر في البلدان العربية. فكان الفضيل الورثلاني والبشير الإبراهيمي وأحمد توفيق المدني قد أثروا في جماهير سوريا ولبنان ومصر والعراق والسودان، وربما جماهير ليبيا وتونس أيضا. وكان عبد الحميد مهري يخطب ولكن في هدوء، وكان فرحات عباس يخطب ولكن

بالفرنسية. وكان عيسى مسعودي مؤثرا ولكن في الإذاعة. وكان الشيخ عبد القادر الياجوري خطيبا بارعا ولكن قيده السجن، كما كان الشيخ الطيب العقبي خطيبا مفوها ولكن أقعدته التقلبات السياسية والمرض.

قبل الثورة كان الورثلاني خطيبا مؤثرا في المحافل العربية والإسلامية، ويقال إنه كان يتفوق على بعض خطباء الإخوان المسلمين الذين كان يشاركهم منهجهم وفكرهم أيضا. أما الشيخ الإبراهيمي فقد عرف بالخطابة الأدبية في الجزائر حيث جمهورها يختلف عن جمهور المشرق في المستوى الثقافي والاستجابة. ومن خطبه النادرة بعد خروجه من الجزائر تلك التي ألقاها في مؤتمر اليونسكو بباريس عام 1952، وقد قيل إنه ارتجلها ارتجالا ولخصها للبصائر أحد الحاضرين.

وحين رحل إلى المشرق شارك الإبراهيمي خطباء جمعية الشبان المسلمين ومهرجانات الدعوة للثورة الجزائرية، ولكن ذلك الدور قام به على الكبر والمرض، فكانت قواه البدنية لا تطاوعه، وزاده الأمر سوءا سقوطه وهو في زيارة باكستان حيث أصيب برضوض في عموده الفقري. وقد سمعته يخطب في طلبة كلية دار العلوم بالقاهرة فلم أكد أصدق أنه هو الشيخ الإبراهيمي الذي سمعت عن لسانه الذرب، وقرأت إنتاج قلمه العذب.

المصادر

هناك عدة مصادر تتحدث عن الأدب في عهد الثورة كتبت في شكل مقالات أو مؤلفات حرة في شكل تأريخ للأدب العربي في الجزائر أو في شكل رسائل أكاديمية قدمها باحثون شباب لنيل درجات علمية. ولكنها أعمال قليلة على ما نعرف، ومنها كتابات عبد الله ركيبي وأبو العيد دودو وعبد الملك مرتاض وأحمد منور ومحمد ناصر وصالح خرفي. وقد حاولنا من جهتنا أن نرصد تطور النثر في بعض البحوث التي كتبناها زمن الثورة مثل الأدب الجزائري: مؤثراته وتياراته، ورضا حوحو ونضال الكلمة، والجمعيات

والنوادي في الأدب في الجزائر وغيرها. ثم ظهرت عدة ترجمات لروايات وقصص جزائرية من اللغة الفرنسية إلى العربية وبعض المسرحيات، مع دراسات عن هويتها وروحها ومصادرها التراثية وقيمتها الأدبية. وظهرت سير ومذكرات لكتاب آخرين سواء بالعربية أو الفرنسية، مثل حياة الشيخ عبد الحميد بن باديس وآثار الشيخ الإبراهيمي ومذكرات مالك بن نبي ومذكرات محيي الدين باش تارزي التي لم تترجم حتى الآن.

وهكذا فإن مصادر النثر الأدبي تكاد تنحصر في جريدة المنار (التي توقفت عن الصدور عشية الثورة) وجريدة البصائر و (النجاح) و (المغرب العربي) اللتي توقفت ثلاثتها سنة 1956، وجرائد أخرى مثل (المقاومة الجزائرية) و(المجاهد) اللتين ظهرتا غداة توقف الصحف المذكورة. وقد حاول مسعود مجاهد أن يصدر جريدة باسم (الجزائر العربية) لدعم الثورة والفكر القومي العربي، ولكن محاولته لم تنجح، حسب علمنا.

ويجب أن نذكر في هذا المجال أيضا مجلة (هنا الجزائر) التي كانت تصدرها الإذاعة الفرنسية بالجزائر، فقد كانت تستكتب عددا من الكتاب والشعراء باللغتين. وكان بعض الكتاب لا يكتفون بالكتابة في الصحف المحلية ولا ينشرون كتبهم في الجزائر بل يراسلون بإنتاجهم صحفا تونسية ومشرقية. ومن جهتنا سنتناول الكتب في فصل خاص بالمؤلفات والدراسات. أما دار الوثائق أو الأرشيف فلا تمدنا إلا بالتقارير والمراسلات الرسمية، وهي عادة جافة مكتوبة بأسلوب إداري مقتضب وبلغة فرنسية في أغلبها. ومن ثمة فهي غير داخلة في موضوعنا على كل حال[1].

لم يصدر من كتب الأدب والدراسات الأدبية والدواوين إلا القليل خلال

---

(1) انظر عنوان الكتاب بالإنجليزية عن الرواية بالعربية. السياسات واللغة والجنس في الرواية الجزائرية العربية، ديبي كوكس، سلسلة الدراسات الشمال إفريقية، مجلد2، المملكة المتحدة، 2002. Politics, Language, and Gender in the Algerian Arabic Novel., Debbie Cox.

الثورة، وأغلب ما صدر عندئذ كان في نطاق القصة والرواية والمسرحية. وسنكتفي هنا بذكر بعض العناوين فقط. ونريد أن نوضح أولا أننا لن نعيد هنا ذكر القصص والروايات والدواوين التي وردت مع أصحابها في الفصول المعنية سواء كتبها أصحابها بالعربية مثل كتب الطاهر وطار وعبد الحميد بن هدوقة... أو كتبوها بالفرنسية مثل مؤلفات محمد ديب وكاتب ياسين ومولود معمري..

ونذكر في مجال الدراسات الأدبية النقدية كتاب (محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري الحديث) لأبي القاسم سعد الله الذي صدر سنة 1961. وقد نشر نفس الكاتب مجموعة من البحوث حول الشعر والنقد والقصة في مجلة الآداب اللبنانية وغيرها بين 1956و 1960 ثم جمعها ونشرها بعد الاستقلال تحت عنوان (دراسات في الأدب الجزائري الحديث). ونشر عبد الله ركيبي كتابه (دراسات في الشعر الجزائري العربي الحديث) سنة 1961 تناول فيه تطور الشعر منذ الحرب العالمية الأولى، وناقش شعر مفدي زكرياء وصالح خرفي في التجربة النووية الفرنسية، وقارن بين قصيدتي (نداء الضمير) لصالح خرفي و(ثائر وحب) لأبي القاسم سعد الله.

وفي ميدان النثر أيضا صدرت للشيخ الإبراهيمي بعض المقالات التي تحمل طابع قلمه المتميز. ولكن طابع النثر الإعلامي والسياسي أخذ يطغى على أسلوب الإبراهيمي بتقدم الثورة ومطالبها في التبليغ السريع والمباشر. وهذه الكتابات هي التي ضمها الجزء الخامس من آثاره. كما كتب الشيخ أحمد توفيق المدني مقالات إنشائية ساخنة عن مواضيع سياسية في عهد الثورة في شكل افتتاحيات للبصائر قبل احتجابها. وكذلك أمد الشيخ حمزة بوكوشة البصائر بتعاليقه عن بعض الكتب الصادرة حديثا بأسلوبه الأدبي الخفيف. وإذا توسعنا في هذا الباب فإننا سنجد كتابات أحمد بن ذياب وأحمد رضا حوحو ومولود الطياب النقدية تغذي هذا التيار الجديد الذي أخذ يكتسح الساحة أثناء الثورة. وقد تعرضنا إلى هذا الإنتاج في محله من أنواع النثر.

وقبل اغتياله زود أحمد رضا حوحو المكتبة بمجموعة قصصية سماها (نماذج بشرية) أصدرها له كتاب البعث في تونس سنة 1955ونالت حظا كبيرا من الرضى، ولكنها قصص لا تتناول مواضيع ثورية بل اجتماعية وأدبية شأن قصص حوحو الأخرى، رغم أنها قصص واقعية. وسنذكرها في مكانها. وقد سبق الحديث عن إنتاج كتاب القصة والرواية بالفرنسية أمثال محمد ديب وكاتب ياسين ومالك حداد وآسيا جبار[1].

المقالة

دعنا نبدأ بالمقالة التي هي الفن الأدبي المميز للحركة الأدبية في الجزائر، ربما أكثر من الشعر. فالمقالة من أقدم أنواع الفنون الأدبية عندنا، ويهمنا منها بالدرجة الأولى المقالة خلال الثورة. أين ظهرت، ومن فرسانها؟نعتقد أن أبرز من تخصص في المقالة الأدبية هو الشيخ البشير الإبراهيمي وأن أبرز من تفنن في المقالة السياسية هو أحمد توفيق المدني، وأن أشهر من كتب المقالة الدينية هو الشيخ أحمد سحنون، وأن أحسن من عبر بالمقالة الاجتماعية هو الشيخ باعزيز بن عمر. ويأتي مجليا بعد هؤلاء في المقالة الأدبية حمزة بوكوشة وأحمد رضا حوحو والحفناوي هالي. أما المقالة التاريخية فكتابها متعددون منهم محمد علي دبوز وعبد الوهاب بن منصور. وهؤلاء جميعا ميدانهم غالبا هو جريدة البصائر. وخلال الثورة ظهر جيل جديد مارسوا أدب المقالة بالعربية في المشرق ونشروا إنتاجهم في مجلاته، منهم عثمان سعدي وأبو القاسم سعد الله وعبد الله ركيبي والجنيدي خليفة. أما في تونس فقد كتب المقالة بالعربية عبد الله شريط ومحمد الميلي.

لم تحتكر البصائر ميدان المقالة. فقد ظهر على صفحات هنا الجزائر كتاب مقالة جيدين في الأدب والتاريخ والاجتماع والدين. ومن فرسان هذا

---

(1) انظر الفصل الذي فيه الحديث عن الأدباء بالفرنسية.

الميدان أحمد بن ذياب وعبد القادر نور الدين وأحمد الأكحل والسعيد بوزار، ومولود الطياب.

اشتمل الجزء الخامس من آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي على إنتاجه خلال الثورة وما قبلها بقليل، ويهمنا من هذا الإنتاج ما كان خلال الثورة: مقالات ونداءات ورسائل ومحاضرات وأحاديث إذاعية. وقد تناول الشيخ في إنتاجه موضوعات تتعلق بالثورة كدعوة الشعب الجزائري للانضمام إليها ودعمها وخوض الحرب ضد فرنسا، ومخاطبة العرب والمسلمين في المشرق والحكومات العربية والإسلامية لمساندة الثورة. كما تناول الإبراهيمي في جولاته في الشرق للتعريف بالقضية الجزائرية، ومحاضراته عن تاريخ الجزائر. بعض هذه المقالات من النثر المرسل السهل الذي لا تكلف فيه، وبعضه فيه اهتمام باللفظ والبديع والتراكيب اللغوية التراثية. وكان الإبراهيمي قد تجاوز الستين عندما كتب محتوى الجزء الخامس فثقلت عليه المجاملات والرسميات في مجتمع تقليدي يخضع فيه كل شيء للمراسيم وتكاثرت عليه الضغوط السياسية فكانت بعض معاني الإبراهيمي في هذه المرحلة تكرارا لما كتبه في السابق، سيما فيما يتعلق بفرنسا واستعمارها للجزائر ومعاملتها السيئة للأهالي وحرمانها لهم من الحق في الحياة والحرية. ومن الطبيعي أن نشير إلى أن أسلوب الإبراهيمي أسلوب خطابي وأدبي يهز ضمير القارى والسامع بألفاظ مشحونة بمعاني النخوة والكرامة باسم الإسلام والعروبة.

اهتمت (البصائر) بأنواع المقالة: فنحن نجد فيها الافتتاحيات ذات الموضوعات المختلفة، حسب حوادث الأسبوع، وأغلبها موضوعات اجتماعية أو سياسية أو تربوية. وغالبا ما يتولى كتابة المقالة الافتتاحية الشيخ الإبراهيمي نفسه. وأمام تأزم الوضع في الجزائر وغياب الشيخ الإبراهيمي في المشرق أصبح توفيق المدني هو الذي يكتب الافتتاحيات مشحونة بالعاطفة حول الأوضاع العامة بعناوين مزلزلة كهذه: الجزائر على كف عفريت، يريدون كل شيء فسيخسرون كل شيء، فأخذتهم الصيحة... كما فتح الشيخ المدني بابا

للمقالة السياسية في باب (منبر السياسة العالمية) تحت اسم (أتم). وقد أضاف المدني بابا جديدا للمقالة العلمية هو (العلوم والاختراع) كان يتحدث فيه عما وصل إليه العلم من تقدم، وغالبا ما يكون هذا الباب ترجمات من الأخبار العلمية التي يراعى فيها الفائدة العامة، مسايرة للعصر وربطا للقارى بالتحولات التي تجري في العالم.

وفي البصائر أيضا كلمات ساخنة في التعزية في مقتل الشهيد الدكتور ابن زرحب بناحية تلمسان. فقد كتبت (والغالب أن الكاتب هو أحمد توفيق المدني) معبرة عن الحزن الذي أصاب "الأمة التلمسانية" والشعب الجزائري من نبأ اغتيال الرجل الكامل العامل الشهيد المبرور... فخرجت تلمسان كاملة لوداعه بمظاهرات صاخبة. ونقلت عن (لوموند) أن اغتيال ابن زرجب جرى عن بعد سبعة ك م من سبدو وأن الشرطة اكتشفت أن الدكتور كان يداوي جرحى الثوار ويمدهم بالأدوية والضمادات[1].

وفي كل عدد تقريبا كان الشيخ أحمد سحنون يخرج بمقالة وعظية تناغي القلوب ويربط فيها بين واقع المجتمع والتاريخ الإسلامي ويتحدث فيها عن شخصيات من الرجال والنساء الذين لهم دور في مسيرة التاريخ بأسلوب هادى يخاطب الأعماق الروحية في الإنسان. وكان لصفحته عنوان هو: (منبر الوعظ والإرشاد).

كما كان باعزيز بن عمر يطل على القارى أسبوعيا بمقالة اجتماعية يتناول فيها حدثا أو تشريعا أو ظاهرة مما يجري في المجتمع الجزائري بالقياس إلى ما يجري في المجتمعين الفرنسي والعالمي. والشيخ باعزيز كان يكتب بأسلوب بسيط ومباشر ولكن بروح تعكس الاتجاه الإصلاحي كما تجسده جمعية العلماء. أما عنوان الباب الذي يكتب تحته فهو (في مجتمعنا الجديد).

أما بقية الجريدة فهي خليط من المساهمات فيها المقالة الأدبية، والمقالة

(1) أنظر فقرة اضطهاد المثقفين في الفصل الثالث

النقدية، والمقالة التاريخية، وما يمكن أن نسميه المقالة الفكاهية. وهناك عدد من الكتاب غير الدائمين كانوا يقدمون مساهماتهم وتجاربهم حول التعليم والثقافة والمدن والتاريخ والشخصيات. منهم (بالإضافة إلى من ذكرنا) محمد منيع، وعبد المجيد الشافعي ورابح بونار. كما ساهم فيها من المشرق بطريقة غير منتظمة عبد المنعم الجبالي، وسيد قطب، ومحي الدين القليبي، وعمر بهاء الأمير. . . وكذلك بعض علماء المغرب. وعندما تقدمت الثورة أضافت البصائر بابا أخذ يكبر ويتضخم حتى استولى على صفحتين منها على الأقل، وهو باب (يوميات الأزمة الجزائرية) الذي كانت تستعرض وتترجم فيه أحداث الأسبوع العسكرية والسياسية بتواريخها المحددة. ولكن ليس في هذا الباب مجال للمقالة لأنه عبارة عن شريط للأخبار المترجمة من وكالات الأنباء والصحف.

في هذه الأثناء كانت مجلة (هنا الجزائر) تهتم بأدب المقالة أيضا ولكن بأسلوب مختلف عن أسلوب أدب المقالة في البصائر والمنار. ويمكن تصنيف مقالات (هنا الجزائر) على النحو التالي:

المقالة التاريخية وقد برز فيها عبد القادر نور الدين سواء في تراجمه الشخصية أو في الأحداث العامة كحديثه عن المستعرب إدمون فانيون (مع صورته) الذي نشر فهرسة مخطوطات الجزائر واهتم بالتراث المكتوب ونشر منه عدة نصوص. كما اهتم نور الدين بحياة ابن أبي أصيبعة مؤرخ الأطباء المسلمين، وحياة الشيخ أبي القاسم القالمي كاتب الموحدين، وأبي الصلت الأندلسي، وأحمد بن البنا الرياضي المغربي، وابن رشد الفيلسوف شارح أرسطو، وأحمد المقري مؤرخ الأندلس ورجالها، وابن خلدون خلال إقامته في تونس. كما ترجم نور الدين للأديب المغربي محمد بن أكنسوس. وله مقالات مترجمة تتعلق بمستشرقين فرنسيين. كما تناول مسائل هامة منها: لغز أبي الهول في الأدب العربي، ونظرة تاريخية في دولة بني حماد، ويمين أبقراط عند الأطباء العرب، وقصيدة الفجيجي في الصيد، وقصة الجازية الهلالية. . . وكل هذه المقالات كتبت بين 1954-1958.

المقالة الأدبية: في نطاق المقالة الأدبية النقدية نجد مولود الطياب يعرف ويعلق على عدد من الكتب والكتاب أمثال إدريس الشرايبي الأديب المغربي، مع نبذة من حياته في المغرب وفي فرنسا حيث ألف بالفرنسية روايته (الأكباش) أو التيوس، ثم أدباء وكتاب من إفريقيا السوداء، ومهنة الكاتب، ومعرض فني لعهود ما قبل التاريخ في الطاسيلي. ولمولود الطياب مقالات في التعريف بمقاصد القرآن لمحمد الصالح الصديق، ومع حمار الحكيم وصاحبة الوحي لأحمد رضا حوحو، وكتاب منابع الحضارة العالمية لعبد الرحمن بن الحفاف، فكان بابا غنيا يسلط الضوء على الإنتاج الذي تخرجه المطابع سواء كان صادرا في الجزائر أو في غيرها.

ويبدو أن فرنسا كانت تتبادل مجلة هنا الجزائر مع مثيلاتها في المشرق العربي عن طريق سفاراتها، وقد وجدنا أصداء ذلك في المجلة نفسها حيث اتهمت بعض المجلات العربية بالأخذ عنها أو الاقتباس منها بدون استشارتها مما اعتبر اعتداء أو سطوا.

أما أحمد بن ذياب فقد جمع بين المقالة الأدبية والتاريخية، وكان أميل إلى تاريخ الأدب منه إلى التاريخ، فمن مقالاته في (هنا الجزائر): حفصة بنت عمر بن الخطاب، وهي مقالة جعلها في (باب الأدب العربي)، وكذلك أم سلمة (أم المؤمنين)، ورابعة العدوية، وكلها، كما نلاحظ، شخصيات نسائية من التراث العربي الإسلامي. وله أيضا مقالات أدبية محض مثل معرض الشعراء في الربيع حين ساق وحلل نماذج شعرية لعدد منهم، مقدما كل نص بعباراته الخاصة، وله مقالة في الحب والبهجة والجمال في شعر أبي ماضي، ثم المرأة والحجاب في القرآن الكريم، والربيع في الشعر الجزائري[1].

(1) وهي مقالة عن كيف انفعلت مجموعة من الشعراء المعاصرين إزاء فصل الربيع: محمد العيد، أحمد سحنون، أحمد الأكحل، الأخضر السائحي، الهادي السنوسي، عثمان بن الحاج، عبد الكريم العقون.

وله مقالة أخرى ربما تدخل في باب الدعاية في ذلك الوقت وهي أثر الأدب الفرنسي في بعث الأدب العربي الحديث (في حلقتين) تحدث فيها عن بعض أدباء المشرق وتأثرهم بالأدب الفرنسي ومدارسه المختلفة. وهي تشترك في أكثر من منحي مع مقالة لسعد الدين بن شنب عن أثر الثقافة الفرنسية على الأدب العربي الحديث (أنظرها في مكانها). ومن المواضيع الطريفة التي تناولها أحمد بن ذياب: الأعياد ومطالع الأعوام في الثقافة العربية. ومن الملاحظ أنه كان يجمع بين الكتابة في هنا الجزائر وفي البصائر، وهو ما لم يكن يفعله أغلب زملائه في المجلة. وقد اختلف مع كتاب البصائر الذين كانوا يقاطعون هنا الجزائر لصلتها بالإدارة الفرنسية وسياستها المعادية للدين الإسلامي والهوية الوطنية، ولكن ابن ذياب شذ عن زملائه وقاطع فيما يبدو البصائر أو قاطعته. وربما كانت الأسباب المادية هي التي ألجأته، كما ألجأت غيره، إلى التعامل مع هنا الجزائر.

وتميز كتاب آخرون بإنتاج هام في أدب المقالة ولكنهم كانوا مقلين قياسا بزملائهم السابقين، كما أن بعضهم كان يجمع بين النثر والشعر. ومن هؤلاء الطاهر بوشوشي الذي اهتم بأدب الترجمة، كما سنرى، كما انه كتب مقالات بالعربية كافتتاحيات للمجلة أو التأبين أو الوصف. وكان الشيخ عبد الرحمن الجيلالي يساهم في هنا الجزائر بمقالات قصيرة وتعاليق مطولة، مثل كتابته عن أبي حامد الغزالي، وعن الحج عند العرب في الجاهلية، وعما يسميه قضايا وتحقيقات أدبية.

وساهم أحمد الأكحل بمقالة عن الشاعر ابن علي الجزائري (شاعر العهد العثماني- القرن 18)، وعن مؤرخ الحضارة عبد الرحمن بن الحفاف. ومن جهته كتب جلول البدوي عن ديوان أحمد الخلوف (شاعر العهد الحفصي)، وسليمان عناني عن الجغرافيا في القرن الثالث الهجري. أما السعيد بوزار فقد تخصص في المقالة الدينية كالكتابة عن الزوايا في القبائل، وفي القصص

الإسلامية، وفي علم القراءات. ولم نعثر لسعد الدين بن أبي شنب في مجلة هنا الجزائر سوى على مقالة واحدة تتعلق باللغة العربية والأدب العربي في الجزائر، وهي المقالة التي نشرتها له أيضا مجلة (الأديب) اللبنانية والتي تحدث فيها عن الأدب العربي الجزائري ورجاله، شعراء وكتابا وحتى مؤرخين، لأنه استعمل كلمة "الأدب" في معناها الواسع.

وإذا كان كتاب المقالة في هنا الجزائر هادئين مهتمين بالتاريخ وبتاريخ الأدب وبالشخصيات المبدعة التراثية أو المعاصرة فإن كتاب المقالة في المنار والبصائر كانوا كما لاحظنا، متوترين مهتمين بالأدب السياسي والمقالة الدينية الإصلاحية والمقالة السياسية الصريحة أو المباشرة. فهم نقاد لأوضاع كانوا يرونها غير طبيعية، وهم يطمحون إلى التغيير غير قابلين بالوضع القائم إلا على مضض. فكانت مقالات محمود بوزوزو ومحمد محفوظي مثلا في المنار ناقدة حادة العبارة وشاملة للوضع بالجزائر والمغرب العربي والمشرق العربي، بما في ذلك التطور السياسي والأحداث التي تكون الدول الكبرى هي أطرافها اللاعبة وتكون الزعامات على نطاق هذه الرقعة الجغرافية الممتدة. كما كانت الجريدة تستقطب كتابا آخرين وقضايا أخرى ذات بعد عربي إسلامي أو وحدوي مغاربي. ومن ذلك المقالات المتعلقة باستفتاء الوحدة الوطنية.

أما الجرائد الأخرى (غير البصائر والمنار) فلم يطل عمرها حتى تقدم نماذج نستدل بها على اتجاه معين لكتابها، باستثناء جريدة النجاح التي لم نطلع عليها لنصدر حكما على نوعية مقالاتها وتصنيفها. وقد رأينا أعدادا من جريدة المغرب العربي فكانت مقالاتها سياسية على الأغلب.

ومن الممكن تلخيص أنواع المقالة في هذه الفترة على النحو التالي:

المقالة السياسية، المقالة العلمية، المقالة الأدبية-القومية، المقالة الأدبية الفنية، المقالة الاجتماعية، المقالة التاريخية، المقالة الوصفية أو أدب الرحلة، المقالة الدينية-الإصلاحية، المقالة التحليلية النقدية.

ومن المقالات الأدبية الوصفية ما كتبه حمزة بوكوشة عن الحفل التكريمي الذي أقيم للشيخ أحمد توفيق المدني بمناسبة مرور ثلاثين سنة على نفيه من تونس إلى الجزائر. كان ذلك في العدد 331 من البصائر. فقد وصف الحفل باختصار وبدقة وتحدث عن المكان والزمان والمشاركين من شعراء وخطباء ولم يغفل الجو المرح الذي ساد الحفل رغم أن الجزائر كانت تعيش في طرف استثنائي(يونيو، 1955) كما كتب بوكوشة نفسه مقالة أدبية نقدية حول تاريخ وظروف نشيد "من جبالنا" في العدد 358 من البصائر.

وفي هذا النطاق نشرت البصائر (عدد 353) مقالة أدبية لأبي القاسم خمار من دمشق، أيد فيها عمار النجار الذي أثار مسألة حساسة عندما كتب عن (أرستقراطية الكتب) في البصائر عدد 12 يناير 1956. وكلتا المقالتين من النوع الأدبي النقدي.

وكان الحفناوي هالي يغذي البصائر بمقالاته الأدبية والنقدية الاجتماعية. من ذلك مقالته (فجر الحياة أو الشابي الصغير) وهي عن ديوان الشاعر التونسي منور صمادح، وقد نشرها على أكثر من حلقة. (البصائر، 311). كما كتب الشيخ هالي عددا من المقالات القصيرة والمرصعة أحيانا بالشعر مثل (أحب عيشة الحرية). وهو يلجأ في ذلك إلى الأسلوب الفكاهي الرمزي[1].

ومن أدب المقالة السياحية ما كتبه الشيخ محمد الغسيري بعنوان (عدت من الشرق)، ابتداء من العدد 250 من جريدة البصائر، وهي سلسلة مقالات

---

(1) البصائر 306، 18 فبراير 1955. ومن مقالاته التي تتميز بالدعابة الأدبية تعليقه على سلسلة شخصيات في الميزان لحوحو.

خرج الشيخ هالي من الزيتونة سنة 1934 وهو العام الذي بدأ فيه التلقيب العائلي في منطقة سوف فأصبح لقب عائلته -هالي- أما قبل ذلك فكان اسمه محمد الحفناوي بن الأخضر السوفي. وأثناء الاحتفال بتأسيس جمعية الطلبة الزيتونيين الجزائريين ألقى الشيخ هالي قصيدة نشرت في جريدة الصراط العدد الأول يناير، 1934. انظر الجابري: النشاط العلمي، الدار العربية، 1983، ص 115 هامش 1.

أحسن فيها وصف المشاهدات وعبر فيها عن مشاعره الدينية والتاريخية والسياسية في المشرق. وآخر عدد غطى فيه الرحلة هو 276[1]. وسنعود إليها في باب الرحلات.

مسألة الفصحى والعامية والفرنسية

في افتتاحية من (هنا الجزائر) طرح الكاتب موضوع الفصحى والعامية وملاءمة اللغة للعصر وحاجات الناس. قال الكاتب المجهول الذي قد يكون هو رئيس التحرير نفسه (الطاهر بوشوشي)، إن موضوع اللغة قد أثير في الإذاعة عندئذ وهي العربية والقبائلية والفرنسية، مضيفا أن اللغة الأولى يفهمها أهل القطر الجزائري كله، وتستعمل الدارجة (العامية) ليسرها وفائدتها، بينما القبائلية المنطوقة فقط تستعمل بمنطقة القبائل الكبرى والصغرى. أما اللغة الفرنسية فهي موجهة إلى الأوربيين والأهالي الذين يفهمونها.

ودافع الكاتب على العامية لأنها مستعملة في مختلف البرامج الإذاعية. أما الفصحى فهي لغة "السبح في الأجواء الرفيعة" حسب تعبيره، وهي ذات ثروة فنية، وهي أم اللغات، ولغة القرآن، ولغة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها. ولكل من اللغتين (الفصحى والعامية) أنصار، فماذا اختارت الإذاعة الجزائرية الفرنسية؟ لقد اختارت حلا وسطا أملته التجربة والحكمة في نظر الكاتب، فهي تخاطب أهل الاختصاص بالفصحى (وذكر البرامج التي تستعمل فيها وهي العلم، والفن، والأدب، والأخبار) بينما العامية لها أيضا برامجها (وهي الأحاديث الطبية والأخبار المحلية والزراعة...). والأسلوب الذي كتبت به المقالة سهل مرسل ليس فيه تزويق ولا تكلف[2].

في المقالة التي كتبها بوشوشي عن افتتاح مدرسة بن عكنون سنة 1954

---

(1) انظر فصل كتب وكتابات-الرحلات.

(2) هنا الجزائر 65، مايو 1958.

نجد أسلوبا جيدا ووصفا حيا، ونعني بذلك تدشين المدرسة المزدوجة التي خلفت الثعالبية التي خصصت للبنات المسلمات بينما خصصت المدرسة الجديدة للفتيان (عمارة رشيد حاليا) وقد افتتحت بحوالي أربعمائة طالب. وبناء على بوشوشي فقد افتتح المدرسة الوالي العام (روجي ليونار) بحضور المدير الجديد وهو أحمد بن زكري وحضور عبد الرحمن فارس رئيس المجلس الجزائري (البرلمان المحلي) والمفتي محمد بابا عمر. وهي مدرسة تجمع بين الذوق الشرقي والعصري (الأوروبي).

وقد تداول الخطباء بالفرنسية على المنصة فأشادوا بحضارة الشرق الإسلامية وحضارة الغرب الفرنسية-المسيحية والتقائهما في طراز وأداء رسالة هذه المدرسة. ومن الخطباء المترجم والباحث محمد الحاج صادق، فقد نوه بالثقافة المزدوجة العربية- الفرنسية لأنها في نظره وسيلة لمسايرة ركب الحضارة في العصر الحديث، قائلا إن المسلمين مع ذلك يتمسكون أيضا بحضارتهم الإسلامية ويعتزون بها لأنها إحدى مقومات حياتهم الفكرية والروحية. كما خطب الشيخ أحمد بن زكري وعميد الأكاديمية السيد(قو Gau) الذي ذكر المسلمين بإصلاح التعليم الإسلامي الذي انطلق سنة 1950، وهو الإصلاح الذي جمع بين الدروس العربية والمواد العصرية في برنامج الثانويات الفرنسية. ونادى عبد الرحمن فارس بضرورة تعلم البنات المسلمات والجمع بين الثقافتين. ولم يفت الوالي العام الإشادة بكتابات طه حسين ومصطفى عبد الرازق اللذين تخرجا من فرنسا وأثار كل منهما ضجة في مصر في موضوع معين الأول حول الشعر الجاهلي ومستقبل الثقافة في مصر، والثاني حول أصول الحكم ومسألة الخلافة والسلطة في الإسلام[1].

ومن الطبيعي أن تهتم جريدة (المجاهد) بالمقالة السياسية التحليلية والافتتاحيات التي تعالج وضع الثورة واتجاهاتها وبعض مواقف الأشقاء

(1) هنا الجزائر، مايو 1954 + صورة للمدرسة الجديدة وصورة أخرى للثعالبية القديمة.

والأصدقاء، أما المقالات الأدبية فهي قليلة فيها. من ذلك مقالة لابن تومرت (مفدي زكرياء ؟) الذي اعتادت الجريدة أن تنشر له قصائده الثورية. والمقالة أرسلها، كما جاء في الجريدة، من سجن سركاجي (بربروس) وهي عن السجن نفسه ومن فيه من السجناء والحكم عليهم بالإعدام وردود الفعل الشجاعة من هؤلاء، وعلى تنفيذ الإعدام الساعة الثالثة صباحا وتهليل وتكبير السجناء الآخرين الذين يشاركون زملاءهم حتى بالزغاريد وهم يقادون إلى المقصلة، وجوابهم عندما يطلب منهم الجلادون النطق بأي شيء في آخر لحظة، فكانوا يكبرون الله ويهتفون بحياة الجزائر ثم ينشد الجميع نشيد: اعصفي يا رياح! وعنوان مقالة ابن تمورت (كيف نتحدى الموت أمام المقصلة).

ولا شك أن هذه شهادة حية على ما حدث على أيدي الجلادين لعدد من السجناء الشهداء. وقد تخلل المقالة (نشيد الشهيد) الذي يختم بقفلة: - لا نمل الكفاح، لا نمل الجهاد، في سبيل الله -. وهي مقالة أدبية حماسية وطويلة تعبر عن الظروف الحاسمة للثورة وعن تجربة حية، لأن صاحبها يذكر تفاصيل ما كان يحدث وما عاشه فعلا، بما في ذلك ذكر أسماء الحراس وأرقام بعض الزنزانات[1] .

بعض كتاب المقالة

وهناك جيل من الكتاب وجدوا في الصحف والدوريات التونسية مجالا واسعا للكتابة عن المقاومة والثورة. بعض مقالاتهم كانت إنشائية أدبية، وبعضها تتناول شخصية أو حادثة... وكان أصحاب المقالات يربطون بين كفاح الجزائر وكفاح المغرب العربي وكفاح فلسطين والأمة العربية. وقد يلتفتون إلى الموضوعات التاريخية والنقدية والتعريفية.

والصحف والدوريات التونسية المقصودة هي: الصباح، والعمل والفكر

(1) المجاهد، 15 أغسطس 1959 وربما كتبت المقالة بعد خروج ابن تومرت من السجن لأنه قد خرج منه في شهر مارس وتوجه إلى المغرب.

والندوة واللغات، ولكن معظم المقالات ظهرت في الجريدة الأولى. فقد نشر فيها أحمد بوروح خواطر حول الثورة، والذكرى الرابعة للثورة، وحول صور من البطولة، وأسبوع الجزائر بليبيا، وكلها بين 1958-1959. ونشر الجنيدي خليفة سلسلة من المقالات بعنوان (معركة اللائحة) في أربعين حلقة، وهي من المشاكسات الأدبية والفكرية القليلة في ذلك الوقت. ويبدو أنه اتخذ فيها موقفا ممن سماهم "الرجعيين". كان ذلك سنة1958. وقد ظهرت آثار هذه المعركة أيضا في كتاب الجنيدي (من وحي الثورة الجزائرية) الذي جمع مادته ونشره سنة 1963. (سنعود إليه في فصل آخر). ونشر عبد الله الركيبي ست مقالات على الأقل في نفس الجريدة حول تأخر الفكر في المغرب العربي، سنة 1958. ومن مقالات أبو العيد دودو في الدوريات التونسية تناوله لكتابنا محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري الحديث، وكتاب الجنيدي خليفة من وحي الثورة الجزائرية.

ويبدو أن الثورة حركت هذا الجيل نحو التقدم والتطلع إلى العلم بدل اجترار الماضي. فساهم عبد الرحمن شيبان بعدد من المقالات في الصباح أيضا، سنة 1957، عالج فيها قضايا متعددة في الأدب والبطولة، ومنها الجانب الأدبي عند الأمير عبد القادر، والتنويه بصديقه الشهيد أحمد رضا حوحو. وكانت مساهمة محمد الصالح الصديق كزملائه بمقالات أدبية تحليلية فيها صور قصصية ثورية، كتبها أيضا سنة 1957. وشاركهم يحي بوعزيز في الجريدة نفسها بمقالات تدور حول الثورة وأعمالها وظروفها السياسية، وكان بوعزيز ميالا بطبعه إلى التاريخ فصبغ مقالاته بلونه، ونشر ذلك في الصباح والفكر بين 1957- 1958.

الشيخ الإبراهيمي

في اختيارنا لنماذج من كتاب أدب المقالة كان يمكن أن نختار أي كاتب له في هذا المجال براعة وشهرة. ولعل الذهن ينصرف تلقائيا إلى الشيخ

الإبراهيمي الذي عرف بالنثر لا بالشعر وبالأسلوب المتميز في أدب المقالة، كما أشرنا. وقد تناول أسلوبه الفني عدد من النقاد، منهم عبد المالك مرتاض. كما تناولناه في كتابنا التاريخ الثقافي وغيره، ولا نريد أن نزيد على ذلك هنا إلا بشأن ما قرأناه له أثناء الثورة، كالنداءات والخطب والرسائل والمداخلات والمحاضرات... وكلها تقريبا أنواع حديثة من أنواع النثر، وهي متوفرة في كتابه[1].

ويبدو لنا أن أسلوب الشيخ قد تغير نوعا ما في المرحلة الأخيرة من عمره، فقد تقدمت به السن وتغيرت عليه الظروف فلم يعد يكتب في الجو الهادى الذي كان يكتب فيه وهو في الجزائر، لأن الثورة فرضت نوعا من الآنية والاستجابة السريعة للضغوط. وهو لم يعد يخاطب جمهور الجزائر المحدود ثقافة وسياسة لأن جمهوره الآن هو جمهور الشرق على اتساعه بنخبه وطلابه وطوائفه ومسؤوليه. أما الموضوع فهو باستمرار الجزائر الثائرة حتى ولو عالج موضوعا دينيا مثل غزوة من الغزوات أو الهجرة النبوية أو صيام رمضان.

أحمد رضا حوحو

ومن كتاب المقالة والقصة أحمد رضا حوحو. ونحن لا نترجم له هنا ولكننا نذكر الموضوعات التي عالج فيها المقالة الأدبية - الاجتماعية. وقد أصبحت مصادر الحديث عن حوحو متوفرة إلى حد كبير اليوم. فقد ظهرت سيرته في كتاب البعث (الشهيد أحمد رضا حوحو)[2].

وقد تناولته في مقالتي (في ظلال النقد) وفي محاضرتي (حوحو ونضال الكلمة)، وكتب عنه صالح خرفي (حوحو في الحجاز)، وأحمد دوغان (شخصيات..) ولكن الباحث الذي تخصص فيه ودرسه دراسة علمية وأدبية

(1) آثار الإمام البشير الإبراهيمي، ج5، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997.
(2) سلسلة كتاب البعث، رقم 4، بقلم أبو القاسم كرو.

وفهم أغوار حياته وألف فيه كتبا وبحوثا هو أحمد منور الذي نقب عن آثاره حتى كشف عنها واكتشف منها الكثير، وآخرها (مسرح الفرجة والنضال في الجزائر، دراسة في أعمال أحمد رضا حوحو). وهي الدراسة التي قامت على رسالته الجامعية حوله. وقد علمنا أخيرا أن هناك باحثا في معهد التاريخ أنجز عن حوحو رسالة ماجستير لم تناقش بعد. وتوجد صورة لحوحو في البصائر، وفي كتابه نماذج بشرية (كتاب البعث، 3، 1955) وغيرهما. وقد رسم له الفنان السعدي حكار رسما طل يظهر به في بعض الصحف والآثار.

لحوحو مقالات عديدة منها سلسلة (في الميزان) التي نشرها في البصائر و(خواطر حائر) التي رأيت منها الحلقة الثالثة في البصائر أيضا، ومقالاته في الرد على منتقديه. وكان وهو في الحجاز قد ترجم لمجلة (المنهل) السعودية أعمالا فرنسية عديدة أشار أحمد منور إلى بعضها فكانت أحد عشر عملا بين مقالة وقصة ومسرحية ودراسة. ويعتبر حوحو من رواد القصة القصيرة والمسرحية ومن هواة الموسيقى أيضا.

وقبل استشهاده برصاص العدو في 29 مارس 1956 نشر في البصائر (3 فبراير1956) مقالة هي عبارة عن مشروع ثقافي كان ينوي القيام به بواسطة نشر سلسلة من الكتب يحمل كل كتاب منها ترجمة ونماذج لمجموعة من الكتاب والأدباء. وقد قال إن في الجزائر ثقافة وأدبا، وشيوخا وشبانا، لهم مواهب وأفكار وإنتاج، ولكنهم مغمورون وإنتاجهم مغمور، لا يعرفها الشعب ولا ينتفع بها، ثم إن وسائل النشر تكاد تكون معدومة في بلادهم. وأمام هذا الوضع كان حوحو مستعدا أن يغامر بفتح المشروع. وقد طلب من الأدباء والكتّاب أن يراسلوه بترجماتهم وصورهم وإنتاجهم ونصائحهم، آملا أن يؤدي ذلك إلى التفكير في وسائل الطبع والنشر أيضا، واضعا أمامهم عنوانه الشخصي للمراسلة[1].

(1) لحوحو حوالي عشر مسرحيات منها عنبسة- بائعه الورد- البخيل. . . انظر ذلك في كتاب أحمد منور، مسرح الفرجة والنضال في الجزائر: دراسة في أعمال أحمد رضا =

إن البيئة الطبيعية والبشرية التي ولد وتربى فيها حوحو (سيدي عقبة / بسكرة) والبيئة التي هاجر إليها (الحجاز) متشابهة وذات أصول بشرية وجغرافية واحدة تقريبا، وكانت السنوات التي قضاها في سكيكدة مختلفة إلى حد كبير وكأنها كانت تهيئه لمهمة قادمة، فقد مكنته من معرفة أجواء الحياة الأوربية ومعرفة اللغة الفرنسية. ومن ثمة جمع بين بيئتين ولغتين وهو الأمر الذي مكنه من التحرر الفكري مع المحافظة على أصالته ومكنه من المقارنة بين هويتين، فساهم في السعودية بالترجمة من الآداب الفرنسية، وساهم في الجزائر في الرقي باللغة العربية بإدخال الأساليب الشرقية في التعبير، وبتناول موضوعات بأساليب لم تكن شائعة من قبل.

وكان اهتمامه المرتكز على الأدب والثقافة قد ميزه عن زملائه في الحركة الإصلاحية حين رجع من الحجاز، فهم كانوا مهتمين بالفقه والثقافة الإسلامية لأنهم يواجهون جمهورا محافظا، بينما كان حوحو لا يهمه ذلك كثيرا ما دام منسجما مع أفكاره ومتجاوبا مع قادة الإصلاح على المدى الإستراتيجي. بالإضافة إلى أنه كان يختلف عنهم في تحرره الفكري، فهو قد درس الفرنسية وآدابها، وعرف البيئة الشرقية المحافظة والمتحررة، كما تجول في أوربا وخالط أفكارها قبل رجوعه إلى الجزائر في وقت كانت فيه الحرب الباردة على أشدها بين المعسكرين، وكان ذلك في وقت يصنف فيه الأفراد والجماعات والدول على أساس إيديولوجي.

حتى عناوين مؤلفاته كانت تدل على اتجاه جديد لم يألفه الأدب العربي الجزائري، فلعل حوحو هو أول أديب نشر كتابا عنوانه ورمزه المرأة مثل (غادة أم القرى)، و(صاحبة الوحي) على غرار عناوين قصص جورجي زيدان: فتاة القيروان، وعروس فرغانة.

وكان حوحو يعلن عن هوايته بدون حرج، فقد هوى الموسيقى وأسس

= حوحو، دار هومة، الجزائر، ص 65.

جمعية(جوقة) المزهر القسنطيني سنة 1949 وظل يرعاه إلى سنة 1954. وكان يعزف على بعض الآلات الموسيقية في الجوقة. وكان من القلائل المنتمين لجمعية العلماء ممن يمكن تسميتهم بالمثقفين الأحرار، مثل الأمين العمودي في الثلاثينات وإسماعيل العربي في الأربعينات. لذلك لا نستغرب أن يكتب حوحو مقالاته بالأسلوب المتحرر المتجدد الذي كتب به، فهو في الناثرين كشعراء في الشعر الحر.. وكان حوحو في نثره ناقدا اجتماعيا، بسخرية لاذعة، مستعملا القصة غطاء والصحافة وسيلة. فكتب في المنهل والرابطة العربية (بالمشرق) وكتب في البصائر والشعلة والمنار أيضا. وكان حوحو جريئا في نقده للأدب الرومانسي لأنه كان يؤمن بأدب الواقعية الجديدة، وربما بالأدب الملتزم الذي كثر عشاقه مع موجة الاشتراكية في الخمسينات والستينات[1].

وكان بإمكان حوحو أن يكتب في مجلة (هنا الجزائر) ولكنه لم يفعل، حسب علمنا، وربما قدم بعض أعماله لإذاعة الجزائر (الفرنسية) فذكره زملاؤه من العلماء بموقعه فتوقف؟ وربما كانت قسوة مولود الطياب في نقده له نابعة من موقفه هذا لأن الطياب كان من كتّاب هنا الجزائر الملتزمين.

عثمان سعدي

كان عثمان سعدي طالبا في جامعة القاهرة حين قامت الثورة في الجزائر. وكان من النشطين في المجالين الأدبي والسياسي لأنه كان على صلة بمكتب المغرب العربي حيث مقر جبهة التحرير الوطني، ويبدو أن صلته بمكتب جمعية العلماء لم تكن على ما يرام رغم أنه كان من تلاميذ معهد عبد الحميد بن باديس وربما جاء إلى القاهرة ضمن بعثات جمعية العلماء. ويهمنا هنا نشاطه الأدبي خلال مرحلة الثورة.

فقد نشر عثمان سعدي في مجلة الآداب اللبنانية المقالات الآتية: مشكلة

(1) أنظر أحمد دوغان، شخصيات ... الخ.

الثقافة في الجزائر، والفن الشعبي في الجزائر، وزبدون الشهيد، ومأساة شعب وتبلد ضمير، والأدب الشعبي والمقاومة الجزائرية، والفلاح والثورة الجزائرية، ورسالة إلى مناضل، ومولود معمري، كما أذكر أنه كتب عن موقف ألبير كامو من الثورة الجزائرية ولكني نسيت أين رأيت له ذلك. وهي مقالات تدل على تنوع ثقافته والتزامه بالخط الثقافي الوطني، وتعبر عن اتجاه جديد في الأدب الجزائري الذي كان قبل الثورة يعاني من القيود والضغوط. وبالإضافة إلى أدب المقالة كان سعدي يكتب القصة القصيرة كما سنرى.

عبد الله شريط وآخرونه

عاش **عبد الله شريط** مرحلة الثورة في عهد النضج خلافا لعدد من الشباب الذين ولدوا شعريا، في الثورة نفسها، فهو من الجيل الذي سبق الثورة، وكان بتونس عند اندلاعها، فقد عرفته وأنا طالب في السنتين الأخيرتين في الزيتونة وهو يومئذ من شيوخها الجدد، بل وحضرت عليه محاضرتين أو أكثر من باب الفضول فقط.

ولد في مسكيانة سنة 1921، وتعلم فيها وفي تبسة. ثم سافر إلى تونس ودرس بها ثم قصد سورية وحصل منها على شهادة ليسانس في الفلسفة سنة 1951، وبعد العمل في تونس، كما ذكرنا، قبيل الثورة وأثناءها، رجع إلى الجزائر ودخل جامعتها مدرسا، وواصل أبحاثه الصحفية والسياسية والفلسفية إلى أن حصل على الدكتوراه سنة 1972 عن الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون. وله ديوان بعنوان (الرماد) نشره في الجزائر، سنة 1969، ولكنه انقطع عن الشعر منذ عاد من الشرق، وواصل كتابة المقالة في القضايا الاجتماعية، وألف عدة كتب في هذا المجال. وهو في شعره ينحو منحى رومانسيا لأن شعره ذاتي جميل، ويعتبر من المحافظين عل الشعر العمودي[1].

---

(1) محمد ناصر، الشعر الجزائري، مرجع سابق، ص 680. وكذلك مجلة الثقافة، عدد 11 نوفمبر 1972، ص 120.

انحصر نشاط شريط الأدبي وهو في تونس في المقالة الصحفية التي تناول فيها القضايا الوطنية والقومية والدولية. وحسب ما جاء في كتاب (النشاط العلمي) للجابري فإن شريط نشر بعض المقالات الثقافية عن ابن باديس والتضحية، ومستقبل المغرب العربي، والثورة ومفاهيمها. ومن الواضح أن هذه المقالات من بنات الواقع الذي كانت تعيشه المنطقة. ولكنه كتب أيضا عن الشابي، وعن التعليم الزيتوني.. وقد نشر في الصباح والفكر. أما الشعر فليس في ديوانه الرماد ما يدل على أنه نظم في الثورة، ولذلك فإن حياته تهمنا في النثر أكثر من الشعر.

أساس مقالاته عن الاستعمار والثقافة والحركة الوطنية التونسية والجزائرية. كما عالج مسألة الأرض والثورة. وكان يحرر ركنا عنوانه (ما رأيك؟) يتحدث فيه عن القضايا العربية والسياسية والدولية، وربما هذه هي المقالات التي جمعها في السنوات الأخيرة في عدة مجلدات ونشرتها له وزارة المجاهدين باعتبار هذا العمل جزءا من تراث الثورة. وكان شريط يلخص ويترجم ما تنشره الصحف والمجلات الأجنبية عن الجزائر فاجتمعت له من ذلك ثروة إعلامية وفكرية كبيرة.

ومن الملاحظ أن لشريط مرحلتين في الكتابة بتونس: مرحلة ما قبل الثورة ومرحلة ما بعد اندلاعها. فإذا كان قبل الثورة مهتما بقضايا العرب والثقافة والتعليم الزيتوني، وابن خلدون، فإنه بعد انطلاق الثورة، قد ركز على موضوعات جزائرية نضالية مثل حياة ابن باديس والتضحية التي نجدها في نشرة جمعية الطلبة الجزائريين بتونس. وفي مقالة أخرى نشرها في مجلة الفكر تحدث عن مستقبل المغرب العربي(1957) أي بعد استقلال تونس والمغرب. وهو من القلائل الذين حاولوا إعطاء الثورة بعدا سياسيا وإيديلوجيا، فنجده كتب مقالة بعنوان " حول الثورة ومفاهيمها" في مجلة الفكر أيضا. وقد ظهر على كتاباته الطابع الفلسفي الإصلاحي في ذلك الوقت المبكر، سواء في تناوله مفاهيم الثورة أو المسألة الثقافية والهوية عموما.

وكتب محمد الميلي في جريدة الصباح مقالات عديدة تناول فيها القضايا الوطنية والاستعمار وكفاح الشعوب، وهي موضوعات كان يعالجها أيضا في (المجاهد) لكن بدون توقيع. وبعد خروج الشاعر مفدي زكرياء من السجن وانتقاله إلى تونس كتب أيضا في جريدة الصباح. ونشر الطاهر وطار ببعض المقالات والقصص، ثم أخذ نجمه الأدبي في الصعود حتى أصدر بعض المؤلفات وهو ما يزال في تونس (انظر لاحقا). ونشر عثمان شبوب مقالات في الصباح واللغات وساهم في الإذاعة، وكان مهتما بالأدب والمسرح والتراجم الأدبية، بمن فيها الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان[1].

ومن جهتي نشرت -كما سبقت الإشارة- مقالات في البصائر عشية الثورة وخلالها، مثل أمة المجد في الميدان، وابن الرومي، وفي ظلال النقد، ومع أديب الخلود، ومالهم لا ينطقون، وأرض الملاحم، وشعرنا يمثلنا، وعندما لبست العمامة. وبعد الثورة راسلت البصائر ب (رسالة القاهرة). وخلال الثورة أيضا نشرت من القاهرة عدة مقالات عن الأدب الجزائري في مجلة (الآداب) اللبنانية مثل: تصميم للشعر الجزائري الحديث، والبطولة في الأدب الجزائري، والغزل في الشعر الجزائري، ومحاولاتنا في النقد الأدبي ورضا حوحو ونضال الكلمة. أما في غير الآداب فقد نشرت مقالة عن محمد العيد في جريدة (الجمهورية) المصرية، والأدب الجزائري مؤثراته وتياراته في مجلة الرسالة العراقية. وحررت في باب المعرب العربي في مرآة التاريخ في مجلة (العالم العربي) المصرية. وهو باب تضمن مقالات قصيرة وأخبارا. ودخلت في ردود ومناقشات مع بعض الأدباء منهم رابح بونار على صفحات البصائر، وعلي الحلي وصلاح عبد الصبور وهنري صعب الخوري على صفحات مجلة الآداب... وكل هذه الكتابات صيغت بأسلوب أدبي حماسي بقلم شاب لم

---

(1) عن مساهمة هذا الجيل انظر الجابري: النشاط العلمي، مرجع سابق، ص 370 وهنا وهناك.

يتمرس بعد على فن الكتابة[1].

الخطابة

أشرنا إلى أن الخطابة غير جديدة، ولكنها غير شائعة لمحدودية مجالها في الجزائر. فالأعمال الوطنية كانت كلها سرية تقريبا، والمناضلون كانوا يجتمعون سرا ويتداولون همسا، ولا يتصلون بالجمهور في معظم الأحيان إلا بطرق غير مباشرة كالمناشير والرسائل والنداءات. ورغم وجود تنظيمات سياسية منذ الحرب العالمية الأولى فإن ميدان الخطابة أمامها بقي محدودا. وقد عالجنا ذلك في محله من كتابنا.

كما أشرنا إلى أن الخطابة الدينية لم تكن كسالف عهدها. ذلك أن رجال الدين الرسميين كانوا لا يتجاوزون الخطوط الحمراء المحددة لهم في قرار التوظيف أو قرار الرضى عنهم. فمكانهم هو المساجد والزوايا وجمهورهم عامة الناس الذين يغلب عليهم الجهل والأمية. فلا مجال لرجال الدين إذن في الخطابة كفن من فنون الأدب والبلاغة والجهر بالقول.

حقيقة أن زعماء الحركة الإصلاحية استعملوا الخطابة المرتجلة إلى حد ما، وكانت صلتهم بالعامة أكثر حرية من زملائهم السياسيين ورجال الدين الرسميين، وكانوا يسمون خطبهم "دروسا" في الوعظ والإرشاد، وإذا بالغوا في دروسهم وذهبوا إلى الإثارة فإن مآلهم التوقيف عن التدريس وربما الاتهام بالإساءة إلى النظام العام كما فعلوا مع الشيخ العقبي خلال الثلاثينات. وكان العلماء حتى في عهد الثورة الأول يستعملون شهر رمضان لبث الأفكار الدينية في قالب وعظي، ويدعون إلى المبادى الإصلاحية والاجتماعية التي يؤمنون بها، وكانوا يوزعون أنفسهم على مراكز عبر القطر فيستفيد من "دروسهم"

(1) بعض هذه الدراسات والمقالات نشر في كتابنا دراسات في الأدب الجزائري الحديث، وفي تجارب في الأدب والرحلة.

جمهور غفير، ولكن لا يمكن أن نسمي هذا النوع من الإعلام خطابة بالمعنى الفني[1].

أتيح لحزب الشعب / حركة الانتصار أن يتصل بالشعب سياسيا منذ أن قبل بالمشاركة في الإنتخابات المحلية والبرلمانية. ولكن هذه الفرصة لم تؤد إلى ظهور خطباء سياسيين إلا على نطاق محدود. وكان عبد الحميد مهري وعبد الرحمن العقون من المثقفين بالعربية والمنتمين للحزب، ولكننا نجهل قيامهما بجهد في هذا المجال قبل خروجهما من الجزائر بعد نشوب الثورة. وأذكر أنني رأيت شخصيا السيد مهري خطيبا في الطلبة بتونس قبيل الثورة، ولكني لا أستطيع الحكم على خطابته عندئذ رغم أنني رأيته يرتجل خطابه ارتجالا. كما حضرت له خطبته المرتجلة في المؤتمر الرابع للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين بتونس (1960)، وهو عندئذ وزير. ولا شك أن وجود الرجلين (مهري والعقون) في دمشق والأردن أيام الثورة، قد أفسح لهما المجال لمخاطبة الجماهير العربية المتعطشة لأخبار الجزائر وتوصيل صوت الثورة إليها عن طريق الكلمة المباشرة في المناسبات العامة كإحياء أسابيع الجزائر.

ومن الجانب الإصلاحي نشير إلى أن الذين اشتهروا بالخطابة في عهد الثورة هم: الشيخ الإبراهيمي في قضايا الإصلاح وآثار الاستعمار على الأمة العربية والإسلامية، ومنها الجزائر. والفضيل الورتلاني الذي أشرنا إلى دوره في المشرق قبل وفاته سنة 1957، وهو متميز في المجال الدعوي والفكر السلفي والحركات الوطنية. وأحمد توفيق المدني الذي جمع بين الخطابة في القضايا

---

(1) البصائر، توزيع الشيوخ على المراكز خلال رمضان زمن الثورة. نظرا لحالة الحرب فإن لجنة الدعوة برئاسة محمد الصالح بن عتيق اكتفت سنة 1956 بالبيان التالي: مركز الجمعية بالعاصمة يتولاه الشيخ العربي التبسي، والجامع الكبير بقسنطينة يتولاه الشيخ نعيم النعيمي، والجامع الأخضر بنفس المدينة يتولاه الشيخ محمد العدوي، وجامع سيدي مبروك يتولاه الشيخان أحمد حماني وعبد الرحمن شيبان. أما بقية الشيوخ فيتولون الوعظ والإرشاد كل في مكانه كالعادة. البصائر، 6 أبريل 1956.

الدينية والسياسية ولا سيما ثورة الشعوب المضطهدة في آسيا وإفريقيا، وكانت له فرص عديدة في الخطابة في منتديات جمعية الشبان المسلمين وجمعية الخريجين العرب والمؤتمرات الآسيوية الإفريقية وحتى في أروقة الجامعة العربية. وكان يتميز بالفصاحة والشجاعة الأدبية والتمرس على الجمهور وحضور البديهة والثقافة السياسية الواسعة، وكان يرتجل خطبه ولا يتلعثم ولا يمل، وكنا قد سمعناه في باتنة أثناء افتتاح إحدى مدارسها، ثم سمعناه في جمعية الشبان المسلمين بمصر، وفي الجامع الأزهر حيث كانت تتاح مناسبات إحياء ذكرى الثورة أو إقامة أسبوع للجزائر أو عند حادث اختطاف طائرة قادة الثورة... فكان الشيخ المدني يهز الحاضرين بفخامة أسلوبه ونبرات صوته وهيئته الثابتة، فكان في الخطابة كمفدي زكرياء في الشعر السياسي لا يدانيهما أحد من الجزائريين فيما عرفت. وقد استمعت أيضا إلى الشيخ الإبراهيمي خطيبا ولكني لم أسمع الشيخ الورتلاني. ويقال إن الشيخ العربي التبسي كان في خطبه مؤثرا أيضا ولكني لم أره خطيبا، أما الشيخ الطيب العقبي فقد اختفى من الميدان في المرحلة التي نعالجها، رغم أنه محسوب على الخطباء المثورين في الماضي.

وقد سمعت السيد فرحات عباس يخطب بالفرنسية، فظهر لي أنه سياسي عقلاني محنك. سمعته وهو يلقي أول بيان للحكومة المؤقتة في القاهرة، فكان يقرأ من ورقة أمام وسائل الإعلام وجمهور محدود، فلم يكن هناك مجال للخطابة المرتجلة بالمعنى الفني. ولكن شخصيته كانت قوية وصوته كان موزونا معبرا عن فكر نير. ثم سمعته في المؤتمر الرابع لاتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين بتونس (1960) وكنت واحدا من الجمهور الذي غصت به القاعة من السياسيين والطلبة والإعلاميين. فكان عباس مع ذلك هادئا يخاطب العقل لا العاطفة، ويزن كلامه بدقة متناهية رغم أن الموقف كان يسمح له بالخروج عن التزمت الدبلوماسي إلى الخطابية والتوتر ومخاطبة الخصم بما لا تهوى نفسه. وكان فيما أذكر يلقي خطابه من أوراق وليس مرتجلا.

من النماذج التي نشير إليها أن السلطات الفرنسية قد احتجزت العدد 350 من جريدة البصائر الذي كان فيه خطاب الشيخ العربي التبسي نائب رئيس جمعية العلماء. وفي نفس هذا العدد كلمة عنوانها (هل الهدنة ممكنة). كان ذلك بتاريخ 20 يناير 1956. والواقع أن هذا العدد من البصائر كان فيه أيضا البلاغ الرسمي الصادر عن الاجتماع العام لجمعية العلماء وكيف تناولته الدوائر السياسية والصحافة الفرنسية النافذة. ولا شك أن الذين حضروا اجتماع المجلس الإداري قد سمعوا خطبة الشيخ العربي التبسي الذي نعتقد أنه ألقاه ارتجالا وليس من الورق، كما هي عادته.

الترجمة

كانت الجزائر تتوفر على عدد لا بأس به من المترجمين، من الفرنسية إلى العربية، خلال الخمسينات. ويبدو أن الاتجاه الآخر من الترجمة كان ضعيفا، أي من العربية إلى الفرنسية شفويا وحتى كتابيا بغير اللغة الأدبية أو الفصحى باعتبارها لغة حضارة أولا ولغة اتصال ثانيا. وأنتج الإستشراق الفرنسي والكنيسة رجالا على درجة هامة من المعرفة والثقافة باللغة العربية، فنقلوا منها مصادر عديدة ونشروا بها أعمالا تشهد نهم بالباع الطويل، ونعني بذلك النقل من العربية إلى الفرنسية[1].

وهناك أسماء جزائرية تركت بصماتها على الترجمة الأدبية، من أبرز أصحابها الطاهر بوشوشي، والمولود الطياب والعربي أولخيار (بالولاية العامة) والهاشمي العربي، وإسماعيل العربي، والحاج حمدان (وهو مترجم شرعي) وسعد الدين بن أبي شنب.

---

(1) انظر الدراسات العربية في الجزائر لهنري ماصي وقد ترجمه إسماعيل العربي ثم ظهرت ترجمة أخرى له قام بها محمد يحياتن ونشرها المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2005.

ويمكننا أن نعمم فنقول إن معظم الموظفين في ميدان التدريس والقضاء والإدارة التعليمية ونحوها كانوا يتعاطون الترجمة بشكل أو بآخر، لأنهم قبل كل شيء قد تخرجوا من المدرسة الفرنسية - الإسلامية التي كانت تعلم اللغة الفرنسية لفترة طويلة ومؤكدة. ولكن هناك من تخرج من هذه المدارس وهو لا يكاد يترجم ولا يكتب بالعربية رغم أنه يفهمها. ولدينا مثال على ذلك مالك بن نبي الذي تخرج من مدرسة قسنطينة (الفرنسية-الإسلامية) وهو لا يكتب بالعربية إلا قليلا ولم تتحسن لغته العربية وترقى إلى درجة اللغة الأدبية المكتوبة إلا بعد إقامته في المشرق إذ استطاع أن يكتب بعض كتبه لاحقا بالعربية مباشرة، دون مترجم. وكان أحمد رضا حوحو استثناء لأنه رغم دراسته في مدرسة فرنسية بسكيكدة فإنه تعاطى الترجمة في الحجاز ثم كان يترجم من الفرنسية إلى العربية بعد رجوعه إلى الجزائر. ولا شك أن رجلا مثل محمود بوزوزو رئيس تحرير جريدة المنار، كان يعرف العربية والفرنسية بشكل متميز. ومهما كان الأمر فإن مجلة هنا الجزائر قد ضمت مجموعة طيبة من المترجمين الجزائريين، في الميدان الأدبي.

منذ نوفمبر 1956 نشرت هنا الجزائر مقالة بعنوان (الترجمة من أكبر الوسائل لدعم التفاهم بين الشعوب)، ولكن كاتب المقالة أخفى اسمه، ونحن نرجح أنه هو الطاهر بوشوشي نفسه. ومما جاء في المقالة أن جماعة المترجمين الدولية، وهي تضم اثنتي عشرة دولة، تستعين بمنظمة اليونسكو التابعة للأمم المتحدة وتعقد أن الترجمة قد أسهمت عبر العصور في نقل الأفكار. وأعلنت الجماعة المذكورة أنها أنشأت مجلة باسم (بابل)، وهو رمز له دلالته الحضارية. وجاء في المقالة أيضا ذكر لعدد من الأعمال التي ترجمت من الآداب الروسية والإسلامية (العربية) واليونانية[1].

ومن المقالات التي ترجمت إلى العربية لحاجة في نفس الموعزين بذلك

(1) هنا الجزائر 50، نوفمبر 1956.

محاضرة القاضي ابن حورة وعنوانها (هل أهل شمال إفريقيا مشارقة ؟). ورغم أن كاتبها الأصلي مسلم ومن رجال القضاء فيما يبدو وكان ربما بإمكانه أن يترجم محاضرته بنفسه فقد قام شخص اسمه محمد الحاكم(؟) بترجمتها. وقد تفلسف ابن حورة بعض التفلسف واستنجد بالتاريخ وبنظرية (غوتييه) المعروف بمعاداته للحضارة العربية الإسلامية وانتصاره للرومان والفرنسيين. يقول ابن حورة إن الإسلام مادة وروح، وأن الإسلام قديم وجديد (شاب وشيخ)، وأن المدنية الرومانية قد انقرضت من شمال إفريقيا، بينما المدنية العربية بقي منها شيء (كذا) وأن الحضارة الرومانية مع ذلك تركت عظماء بينما الحضارة العربية لم تترك عظماء عدا ابن خلدون، (هذا هو رأي غوتييه، ولكنه يشكك حتى في قدرة ابن خلدون، وهو ربما ما لم يدركه ابن حورة).

وقد كرر ابن حورة نظرية الجغرافي الفرنسي (غوتييه) في الاعتماد على الطابع الروحي للحضارة وليس الطابع المادي فقط. واستدل هذا الفيلسوف الجديد(ابن حورة) بنظرية طه حسين في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) من كون المصريين أوربيين في توجههم رغم أنهم يعيشون في المشرق، أي أنهم ليسوا مشارقة بل هم أوروبيون وضعتهم الجغرافيا في المشرق. كما استدل ابن حورة بكون الإسلام يعلو على القوميات. والمقصود بالذات هو أن أهل شمال إفريقيا أوروبيون وإن كانوا يعيشون في إفريقيا على بقايا الحضارة العربية الإسلامية، تمهيدا للاندماج في الفرنسيين وطعنا في ظهر الحركة الوطنية ودعاة الاستقلال[1].

ولا شك أن فكرة ابن حورة هذه تتماشى مع تيار فرنسي يقول بأن أهل شمال إفريقيا (البربر؟) أوربيو الأصل، دون الإلتفات إلى كون مؤرخي اليونان والعرب لا يعتبرونهم كذلك. ومهما كان الأمر فإن هذه الأفكار انطلقت مع الثورة لإضعاف قوتها وشل أهدافها وخدمة فكرة الاندماج التي أصبحت

(1) هنا الجزائر، يونيو، 1955.

مرفوضة حتى عند الفرنسيين أنفسهم. وإذا كان أهالي شمال إفريقيا غير مشارقة كما انتهى ابن حورة وبعض النخبة الاندماجية ـ فلماذا لم يعاملهم الفرنسيون على أنهم أوربيون أو على أنهم رومان؟ والذي يهمنا من هذا النص ليس هو الأفكار التي حملها، ولكن الترجمة التي نقلته من لغة فرنسية إلى لغة عربية، ومن لغة الفرنسيين الأوربية إلى لغة الأهالي الشرقية.

برع الطاهر بوشوشي الذي كان يوقع اسمه (ابن جلا) في الترجمة من الفرنسية إلى العربية، وأيضا من العربية إلى الفرنسية. ولنذكر الآن بعض العناوين التي ترجمها:

- بحيرة لامارتين في الأدب العربي، ترجمة لحياة هذا الشاعر الفرنسي، هنا الجزائر 30، ديسمبر 1954.
- حياة وأفكار جان جاك روسو، في حلقتين من الفرنسية إلى العربية، هنا الجزائر 70 -71، ديسمبر1958.
- نشر أعمالا يبدو أنه نقلها من الفرنسية مثل: "قبر الرومية." هنا الجزائر 21، فبراير 1954.
- ترجم أغنية/ قصيدة الجندول لعلي محمود طه. فقد قام بترجمتها إلى الفرنسية ونشرها وأشاد بها، وهي تنسجم مع هواه في الشعر الرومانسي، وعلق على حياة وشعر علي محمود طه قائلا إنه تلميذ شوقي، وأن أغنية الجندول من أجمل أشعاره، وأتى على ديوانه الملاح التائه، وشبّه الشاعر المصري بالشاعر الفرنسي موسوي والشاعر الإنجليزي شيلي. هنا الجزائر 20، يناير 1954.

ومن المترجمين نور الدين عبد القادر الذي أسهم في الترجمة لعدد من الأدباء والمفكرين الفرنسيين أمثال المستشرق إتيان كاترمير (هنا الجزائر، يونيو 1954)، وسيلفستر دي ساسي مع التركيز على حياته وآثاره وتأثيره، هنا الجزائر، أبريل 1954. وادمون فانيان، وغير هؤلاء.

أما الهاشمي العربي فهو بالرغم من أنه من أبرز المترجمين في هذه الفترة فإننا لم نجد له في هنا الجزائر سوى القليل، وهو لا يعدو عملين أولهما (آخر درس) وهي قصة مترجمة عن الفرنسية بقلم ألفونس دوديه. هنا الجزائر، أوت 1958. وثانيهما (ليلة في أورشاليم) وهي مسرحية جرت حوادثها ليلة ميلاد المسيح (عليه السلام). هنا الجزائر، يناير1955.

وتوجد أعمال مترجمة أخرى بعضها يذكر المترجم إلى جانبها مثل "تأسيس مدينة غرداية"وهي بحث ترجمه أبو الحسن (؟) عن المستعرب الفرنسي إيميل ديرمنغام. هنا الجزائر، مارس 1954.

وهناك أعمال قدمها أحمد شقار الثعالبي ولها صلة بالأدب الغربي، كالخداع والحب عند شيلر الألماني، وقصة الفنجان العاشق، وهي تمثيلية إذاعية ذات شخوص من المسلمين والنصارى. هنا الجزائر، يونيو 1956. وهناك مقالة عن مدينة الزهراء لمحمد بكوشة. هنا الجزائر، أوت 1957.

كما ترجمت بعض قصص مالك واري بدون اسم المترجم، مثل عيشوش الجلابية أو دهاء امرأة،

ولمالك واري بعض القصص المتخيلة مترجمة إلى العربية أيضا.

وفي عدد سابق من هنا الجزائر (عدد 70) ترجم السيد محمود الجيلالي قصة (عديمو الصبر) أو (المستعجلون) إلى العربية، وهي قصة أذيعت من إذاعة الجزائر (الفرنسية) وشارك في ذلك عدد من الأدباء الذين مثلوا الأسماء الواردة في النص. والقصة تتحدث عن الفتيان والفتيات المستعجلات للأخذ بالثقافة الفرنسية الذين كانوا يعشون حيرة ثقافية، كما تناولت مشكلة الفتاة المسلمة أمام الفتاة المسيحية (الغربية)، أي صراع الثقافات والتقاليد في مجتمع متخلف.

وهكذا نلاحظ أن مجلة هنا الجزائر قد خدمت حركة الترجمة، ولكن في نطاق خدمة اللغة الفرنسية، أي نقل الأدب والفكر والآراء الفرنسية إلى

الجزائريين. أما نقل الثقافة العربية إلى الفرنسيين فيكاد يكون غائبا. وقد لاحظنا أيضا أن أعمالا جادة كتبت بالفرنسية، ومع ذلك لم تنقل إلى العربية مثل دراسات سفير البودالي عن الموسيقى العربية والموسيقى الأندلسية، وبعض الدراسات الأخرى التي حفل بها القسم الفرنسي من المجلة. والملاحظة الأخيرة هي أن بعض الدراسات تناولت تأثير الأدب الفرنسي في الفكر والأدب العربي. وقد عالج هذا الموضوع كل من سعد الدين بن أبي شنب وأحمد بن ذياب. وتعتبر مقالات ابن أبي شنب عميقة في بابها، ولكنها تحمل طابع الدعاية أحيانا، أي التعريف بأثر الأدب الفرنسي خارج بيئته.

أما وسائل الإعلام الأخرى فقد استخدمت الترجمة أيضا ولكن في نطاق ضيق، ولا سيما في نطاق الأدب. فالبصائر مثلا نشرت بعض المترجمات في العلوم والآراء السياسية، ولكنها كانت مقلة في ذلك، وكذلك فعلت جريدة المنار.

بينما اهتمت جريدة المجاهد بالأدب والدراسات المترجمة في مرحلة متأخرة من عمرها، فقدمت لقرائها أعمالا لأدباء فيتناميين، وبعض الأعمال لفرانز فانون، وقطعا شعرية لبعض الجزائريين، ونماذج لمثقفين فرنسيين، وربما لبعض اليساريين الآخرين أيضا. أما مترجماتها الأخرى فكانت لا تخرج عن الأخبار والوثائق الإعلامية.

وقد ترجم مولود الطياب أعمالا عديدة في شكل تعريف بالكتب كما فعل مع مؤلف إدريس الشرايبي المغربي، كما ترجم قصة (الفيلسوف ودماغه) لهيلين برملان[1].

ومن الواجب أن نشير هنا إلى دخول أبي العيد دودو وحنفي بن عيسى ساحة الترجمة إلى العربية ابتداء من مرحلة الثورة، الأول من الألمانية والثاني من الفرنسية. وقد نشر حنفي بن عيسى في بعض المجلات الشرقية، منها

---

(1) هنا الجزائر، مارس 1958.

الآداب، أما دودو فقد نشر في دوريات تونسية. وكل منهما أسهم بغزارة بعد الاستقلال في حركة الترجمة وأثرى اللغة والأدب العربي[1].

ويحب ألا نغفل مساهمة أحمد رضا حوحو في ميدان الترجمة أيضا. فقد ترجم وهو في الحجاز أعمالا لمجلة المنهل السعودية. وعندما رجع إلى الجزائر استمر في الترجمة أيضا ولكن على نطاق ضيق فيما يبدو، وربما تحت اسم مستعار. مثلا وجدنا له ترجمة من الفرنسية في البصائر لمقالة عن النفط في الخليج وتنافس الشركات البريطانية والأمريكية في المنطقة وعنوانها (دم ونفط) مع ذكر اسمه واضحا[2].

القصة والرواية

حوحو ونماذجه البشرية

تكلمنا عن حوحو كاتبا وناقدا أدبيا منذ ما قبل الثورة. وقد نشر أيضا عددا من القصص وألف مسرحيات. وذكرنا بعض أعماله المنشورة ومنها نماذج بشرية التي كانت آخر أعماله قبل اغتياله سنة 1956. هذه المجموعة نشرتها له دار كتاب البعث في تونس التي كان يشرف عليها الأديب القومي أبو القاسم كرو.

يقول حوحو عن مجموعته هذه إن "الذي يعنينا هنا هو عرض وتصوير مجموعة من الطباع البشرية، في مجموعة من البشر منتقاة من صميم المجتمع". وهذه الطباع ليست واحدة وإلا لخضعت لتأثير البيئة والنشأة والتعليم فتسيرها طبقا لهذه التأثيرات. وحوحو يؤمن بأن هذه النماذج تتمرد على القيود (تأثير البيئة والنشأة والتعليم)، فضحايا الاستعمار وغيره يكسرون القيود

---

(1) نذكر أن دودو ترجم أيضا من الأدب العربي إلى اللغة الألمانية عندما كان في ألمانيا والنمسا. انظر عن ترجماته إلى العربية كلمتنا عنه في كتابنا خارج السرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005.

(2) البصائر 217، 13 فبراير 1953

الاجتماعية والإدارية والبيئية وهي "تتخذ من الوطنية دينا يهديها سواء السبيل". وضرب مثلا آخر بالفقيه الذي تمرد على تعليمه وأصبح تاجرا يبيع متخذا شرع الله حانوتا.

إن نماذج حوحو ليست خيالية، فهو كاتب واقعي كما عرفنا. ولكنه لم يلجأ فيها إلى التحليل النفسي فيسخره لإثبات فكرة ورد أخرى. لقد التجأ إلى المجتمع متخذا منه نماذج من مختلف طبقاته " عشت مع بعضها، وسمعت عن بعضها"، ولذلك جاءت نماذجه خليطا من الجزائريين والأوربيين. فهناك يحى الضيف، وفقاقيع الأدب، وسيدي الحاج (جزائري جاء مكة على نفقة الحكومة الفرنسية)، وسي زعرور وأمثاله من الأشخاص ذوي الظلال المتعددة المستوحون من أوروبا[1].

عبد الله ركيبي

ولد عد الله ركيبي في جمورة، (ولاية بسكرة) ودرس التعليم الابتدائي في مسقط رأسه والإعدادي والثانوي في جامع الزيتونة بتونس حيث نال شهادة التحصيل سنة 1954. التحق بالثورة ودخل السجن في آفلو سنة 1956، وبعد إقامة جبرية في بسكرة فر إلى الأوراس ومنه توجه إلى تونس ثم مصر. التحق بجامعة القاهرة وحصل منها على الماجستير في (القصة الجزائرية القصيرة)، والدكتوراه في (الشعر الديني الجزائري الحديث). وخلال إقامته في القاهرة ترأس فرع اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين.

بعد التدريس في التعليم الثانوي، التحق بجامعة الجزائر سنة 1967 حيث بقي إلى سنة 1994 عندما شغل منصبا دبلوماسيا وظل يتنقل في الوظائف السامية إلى أن تقاعد منها ومن الجامعة منذ سنوات قليلة. وخلال حياته الطلابية

(1) سلسلة كتاب البعث، رقم 3، تونس، 1956. والسيد يحي الضيف شخصية فريدة تعرفنا عليها في مركز جمعية العلماء بالعاصمة حيث كان الحارس الأمين والقيم المتعلم، وله كتابات أحيانا في البصائر.

والجامعية تصدى لخصوم التعريب ودافع عن الثقافة العربية وأشرف على عدة برامج في الصحف والإذاعة والتلفزيون والحزب (جبهة التحرير) لها صلة بالفكر والثقافة. وقد أقام سنتين في لندن متفرغا، كما زار عدة عواصم عربية وأوروبية مدرسا وممثلا لاتحاد الكتاب ومدعوا لندوات، وكرم عدة مرات، وأشرف على مجموعة كبيرة من الرسائل في الجامعة تتناول الأدب الجزائري الحديث، وهناك جيل من الباحثين يعترفون له بالفضل في ميدان البحث.

أسهم الركيبي في مجال التأليف فأصدر حوالي عشرين كتابا في الأدب والثقافة والدراسة، يهمنا منها ثلاثة صدرت أيام الثورة:

- مصرع الطغاة (مسرحية) دار بوسلامة، تونس، 1959
- دراسات في الشعر الجزائري الحديث، الدار القومية، مصر، 1961
- نفوس ثائرة، (قصص)، الدار المصرية، ط 1، 1962.

نفوس ثائرة

هي مجموعة قصصية كتبها عبد الله ركيبي وقدم لها شكري عياد بدراسة نقدية. وقد أهداها المؤلف إلى روح صديقه الشهيد بشير بن رابح. في المقدمة قال المؤلف إن القصة العربية القصيرة في الجزائر ما تزال في طفولتها، وأنها لم تظهر إلا قبل مدة قصيرة لأسباب منها: أن النزعة الوعظية هي التي كانت سائدة في النثر وليس القصة، فكانت المقالة هي الوسيلة المباشرة للتعبير عن الدعوة الإصلاحية التي كانت تعد للثورة، ففيها الحماسة والفخر والتقرير وكأنها قصيدة شعرية. ثانيا أن اللغة العربية نفسها لم تكن أداة للتعبير.

ومع ذلك بدأت العربية تدخل ميدان التعبير. فظهر أدباء آمنوا بفعالية القصة الأدبية والاجتماعية، فكتبوا منها صورا للأحداث وليس قصصا متكاملة الأدوات. وبذلك كانت تفتقر إلى عناصر أساسية. ولكن طغى عليها طابع الدعاية والوعظ. وكان رائد القصة القصيرة العربية بدون منازع هو أحمد رضا حوحو. فقد فهم دورها في التأثير على المجتمع بعيدا عن التعبير الأجوف

والتصنع. ومن آخر أعماله (نماذج بشرية) الذي صدر في تونس عن كتاب البعث. وجاء بعده قصاصون شباب أمثال عبد الحميد بن هدوقة والطاهر وطار وعثمان سعدي وأبو العيد دودو. وما يزال هؤلاء لم يحددوا تياراتهم الفكرية بعد، فمنهم من ينحو نحو الثورية الواقعية كسعدي ومن اختار الذاتية كوطار.

ومن الواضح أن الركيبي يدعو إلى القصة الواقعية. "يجب أن تتجه (القصة) اتجاها ثوريا في التعبير والمضمون، في الشكل والمحتوى لأن الواقع يفرض هذا الاتجاه علينا" كما تفرضه القصة نفسها باعتبارها أداة للتعبير عن التجارب الشخصية. وقد أطال الركيبي في مدح الاتجاه الواقعي والقدح في الاتجاه الرومانسي أو الذاتي الذي يعتبره غير ثوري، ولأن رسالة القصة في نظره رسالة إنسانية، تفتح العيون على عالم الخير والحق والجمال، وتبعث الأمل والحياة. وقد صنف الركيبي قصصه في نفوس ثائرة بأنها قصص واقعية، بل من صميم الواقع و"واقع شعب في حرب دخل السنة الثامنة من كفاحه من أجل الحرية والكرامة الإنسانية."

تحتوي المجموعة على إحدى عشر قصة هي: نوارة الصغيرة، وجود.. ولكن، راعي الغنم، في المغارة، قصة لم تتم، وجد نفسه، اختار الطريق، الإنسان والجبل، صرخة في الليل، الواد الكبير، إلى البئر. وهناك قيم وخصائص مشتركة بين هذه القصص وهي كونها تعبر عن حياة منطقة أهل بسكرة، ومنهم المؤلف، فحياته الريفية واضحة في عدد من القصص، أما القيمة الأخرى المشتركة بين القصص فهي أنها-كما يقول المؤلف- قصص تعبر عن الواقع الثوري الذي تعيشه الجزائر، وهو واقع جديد طالما انتظره الشعب، وقد اتضحت أمامه معالم الطريق، طريق الحرية والاستقلال. والملاحظ أن القصص نشرت عشية الاستفتاء على الاستقلال وبعد وقف إطلاق النار[1].

(1) الدار المصرية، ط 1، شهر مايو، 1962.

الركيبي عن تطور القصة

والركيبي من أبرز من اهتم بالقصة القصيرة، تاريخا ودراسة ونقدا أيضا. فقد جعلها موضوع رسالته للماجستير، وتناولها في مقالات ومداخلات في مناسبات مختلفة، وظل يتابعها في محاضراته ودراساته النقدية حتى بعد أن مال عنها إلى التخصص في الشعر الديني. ومن رأيه أن هناك مراحل مرت بها القصة الجزائرية بالعربية قبل أن تنضج وتستقر. فهي مثل كل فن جديد عرفت تطورا قادها من المقالة إلى الصورة إلى القصة الكاملة، ثم من القصة الرومانسية إلى القصة الاجتماعية والثورية أو الواقعية.

ومن رأيه أيضا أن التيار الواقعي في القصة ظهر في عهد الثورة سواء كانت مكتوبة بالعربية أو بالفرنسية، غير أنها لم تتخلص نهائيا من الرومانسية حتى في العهد الأخير. والفرق في نظره بين القصة العربية والفرنسية يكمن في الشكل فقط، والمقصود بالشكل هنا هو اللغة المكتوبة التي كتبت بها القصة. أما المحتوى فهو واحد تقريبا، فالجميع يخاطبون الاستعمار، ويصورون آمال الشعب، ولعل الفرق أن القصة بالفرنسية توجه خطابها إلى الفرنسيين وإلى الخارج بينما تتحدث القصة بالعربية إلى القارى الجزائري والعربي على العموم. وقد حلل الركيبي مجموعة من الأعمال التي كتبها جيله في ميدان القصة وعبروا بها عن التيار الواقعي، كالجنيدي خليفة، وأبو العيد دودو، والطاهر وطار، وعبد الحميد بن هدوقة[1].

وهذا التحليل لبدايات القصة وممثليها ومحتواها يظهر أكثر عند الركيبي في الدراسة التي خص بها مؤتمر كتاب المغرب العربي الذي انعقد في طرابلس (ليبيا) في مارس سنة 1969، وهي الدراسة التي نشرها في مجلة (القبس)

---

(1) الركيبي: القصة القصيرة في الأدب الجزائري المعاصر، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1969. كتبنا عن هذه الدراسة في المجاهد الثقافي، عدد 5، ثم نشرنا ما كتبناه في (تجارب في الأدب والرحلة)، الجزائر، ط.2، 2005، ص 127-128

وتحدث فيها أيضا عن "القصة القصيرة الجزائرية وأثر الثورة فيها". ومن رأيه أن القصة تطورت إلى أن وصلت إلى مرحلة النضج أو مرحلة الواقعية الثورية التي يبدو أن الركيبي من أنصارها، على الأقل عندما كتب بحثه. فقد نشأت القصة أواخر العقد الثالث من القرن العشرين، ولا نعرف من الذي دشن هذا العهد الحاسم في حياة فن هام من فنون الأدب الجزائري. غير أن هناك دواعي دفعت إلى اختيار هذا اللون من الأدب، منها السياسي ويعني به الاحتفال بمرور مائة سنة على الاحتلال، والوطني ويعني به ظهور الحركة الإصلاحية على يد ابن باديس ورفاقه العلماء. كما كان للإحساس بانتماء الجزائر العربي (العروبي) دور في دخول ميدان الواقعية. ومن رأى الركيبي أن وجود الازدواجية اللغوية في الجزائر قد عجل بظهور القصة العربية، كما أن الصراع بين الاستعمار والثقافة القومية (الإسلام واللغة العربية) كان له دور في التعجيل بظهور هذا اللون الأدبي الجديد.

لقد ظهرت القصة عندئذ على يد أعضاء من الحركة الإصلاحية، ولكنها لم تظهر في شكل متكامل، بل ظهرت أولا في شكل مقالة أدبية أو اجتماعية فيها بذور القصة أو الحكاية، ثم تطورت إلى شكل لوحة أو صورة يطبع فيها القصاص فكرته بالقلم المصور للواقع دون تكلف ولا مراعاة للأصول والقواعد. فهذه الألوان كانت تمثل ما يشبه القصة ولكنها ليست قصة لها مقوماتها وأركانها وشخوصها. لقد كان اهتمام الأدباء عندئذ منصبا على الشعر وليس على القصة أو حتى المقالة السيارة أو الخبرية فما بالك بالقصة الفنية، وقد شجع الاتصال بالمشرق العربي عن طريق زيارته والدراسة فيه وقراءة أدبه في المجلات الشهيرة وتتبع معاركه القلمية- شجع على اكتشاف الجزائريين للقصة فدخلت حياتهم الأدبية ولكن بالتدرج.

من رواد هذه المرحلة المبكرة (أو المتأخرة بالنسبة للقصة في أوروبا والمشرق العربي) محمد بن العابد الجلالي، وأحمد رضا حوحو وعبد المجيد الشافعي والحفناوي هالي وأحمد بن عاشور والهاشمي التجاني ومحمد الشريف

الحسيني. فهؤلاء الكتاب هم الذين مهدوا -حسب الركيبي - لظهور القصة الفنية وتمثلوا علل الشعب وأمراضه الاجتماعية.

ويبدو أن هذا العهد قد طال، فنحن نجد الركيبي لا يذكر مرحلة أخرى بعده إلا أوائل الخمسينات من القرن العشرين أي أن المرحلة الأولى قد استغرقت ثلاثة عقود تقريبا، لأن الأسماء التي ذكرها كلها تقريبا أعطت ما عندها خلال هذه العقود.

أما خلال الخمسينات، وبالخصوص منذ بداية الثورة، فقد ظهر تيار رومانسي جديد شمل الشعر والقصة وبعض الألوان الأدبية الأخرى، ولكنه ما لبث أن ترك الساحة إلى تيار جديد، وهو التيار الواقعي، وخصوصا منذ اندلاع الثورة التحريرية. وهكذا فإن الفضل في رأي الركيبي في ظهور القصة الفنية الواقعية يرجع إلى الثورة التي أحدثت طفرة ونقلت القصة من الموضوعات "المادية المستهلكة إلى المضامين الثورية المعبرة عن الواقع الجديد." ولا ندري ما المقصود بالمادية هنا؟ وعلى كل حال فإنه في هذه المرحلة استكملت القصة أدواتها وأشكالها وعناصرها الفنية. فاهتمت بالإنسان ونضاله ضد قوى الشر وأصبح لها رسالة إنسانية ووطنية واضحة. وقد حقق القصاص الجديد هذا الهدف عن طريق الفن" المهموس لا بالصراخ، وبالإيحاء لا بالتصريح. . . ." وببساطة أصبح الجبل بطلا رئيسيا في قصص الثورة، ينطق وينفعل وليس مجرد حجارة صماء.

ولعل الركيبي يشير بالواقعية الجديدة إلى الظاهرة الأدبية التي شاعت في الخمسينات في الأدب الاشتراكي أو التقدمي، وهي ظاهرة الالتزام، ومن ثمة تناولت القصة العربية الجزائرية موضوعات مثل: الاغتراب، والهجرة، والقهر الاستعماري، وصورت معاناة الفلاحين ومشاركة المرأة في الحياة العامة، كما تناولت الجندي الذي فرّ من جيش العدو إلى جيش التحرير الوطني، ونحوها من الموضوعات الجديدة. كما تبلورت في هذه القصة مفاهيم الوطنية والفداء

والتضحية والتوق إلى الحرية، وأصبح بطل القصة هو الإنسان العادي، وعبرت القصة عن التفكير الجماعي وعن روح التفاؤل بالانتصار. وتعددت أشكال القصة فهي تارة رسالة، وتارة حوار داخلي أو ما يعبر عنه أحيانا بتيار الوعي، واستعملت الرمز والإيحاء، والوحدة العضوية.

وضرب الركيبي على ذلك مثلا بالقصص التالية التي توفرت في رأيه على المقومات الفنية المطلوبة. ونلاحظ أن هذه القصص كتبت كلها أثناء الثورة وطبعت خارج الجزائر، وأنها صورت نضال الشعب الجزائري في الموضوع والمضمون والشكل تصويرا واقعيا، في نظره. من ذلك الأشعة السبعة لعبد الحميد بن هدوقة، ودخان من قلبي للطاهر وطار، وبحيرة الزيتون لأبي العيد دودو، ونفوس ثائرة لعبد الله ركيبي...

ورغم الحماس الذي أبداه الركيبي للتحول الجديد الذي شهدته القصة، فإنه استدرك قائلا إن ما سبق لا يعني توفر القصة في العهد المقصود على كل الخصائص الفنية، ولكنها قد خطت خطوات جديدة نحو الكمال واقتربت من النضج. فالنماذج التي ذكرها لم تتخلص نهائيا من الخطابية ومن التعبير المباشر. ومن جهة أخرى رد على بعض الدوائر العربية في المشرق التي تدعي أن القصة الجزائرية لم تظهر إلا في الأدب المكتوب بالفرنسية متناسية أن للجزائر أدبها المكتوب بالعربية والمتوفر على جميع العناصر الفنية.

أما بالنسبة للأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية فإن الركيبي يرى أن التعبير السائد فيه هو الرواية وليس القصة، أو بتعبير آخر طغت فيه الرواية على القصة. ومن رأيه أن القصة عند الكتاب بالفرنسية بقيت غير واضحة المعالم باستثناء مجموعة (في المقهى) وبعض الأعمال الأخرى لمحمد ديب[1].

(1) الركيبي، مجلة القبس، عدد 5، مارس، 1969، ص83-91 وكذلك فصل عن الأدباء الدين كتبوا بالفرنسية في هذا الكتاب.

والواقع أن الشعور بالحاجة إلى أدب قصصي له مقوماته قد ظهر مبكرا، ربما قبل الثورة نفسها. وقد كتبت شخصيا تجربة قصصية بعنوان (سعفة خضراء)، وأعلنت أن أدب القصة فن جديد وأنه مفقود في بلادنا وأنه قد آن الأوان لطرقه.

وقد رحب النقاد بهذه التجربة، ومنهم الركيبي نفسه. ولا شك أن غيري ربما قد حاول ذلك أيضا دون أن ينشره. ولكن قصة واحدة لا تدل على تيار أو على ظاهرة كاملة[1].

أما عمار النجار فقد تقدم خطوة أخرى حين أعلن سنة 1956 أن في الجزائر (بذور قصصية في مقالات) بعد أن قرأ (جناية أب) لزهور ونيسي و(مشروع في مقهى) لمحمد شهرة. "فقد لاحظ أن كلا العملين يحتوي على "بذور" القصة ولكنهما كتبا في شكل مقال رغم أنهما يمثلان قصة قصيرة. دعا السيد عمار النجار، مستفيدا من كتابة حسين مروة اللبناني الذي عالج خصائص القصة القصيرة وتحدث عن أشخاصها، فقال إنهم يتحركون ويتحدثون معنا وأمام أعيننا وأن الكتابة الجيدة تجعلنا نحس كأن هؤلاء الأشخاص هم جزء منا ويتعايشون معنا. لذلك دعا النجار إلى الاهتمام بالقصة في الجزائر وبأشخاصها وفنياتها. أما ما قرأه النجار في هذا الشأن بالجزائر فلا يعدو أن يكون مقالات قصصية. وقد خاب ظنه حين اعتقد أنه سيجد في المقالين المذكورين قصتين لهما خصائصهما الفنية[2].

زهور ونيسي ورصيفها النائم

توفر لزهور ونيسي ما لم يتوفر لغيرها من النساء والرجال. فهي بنت حاضرة قسنطينة محتدا وثقافة ومعاصرة. ولدت فيها سنة 1936، في حي من

---

(1) انظر قصة سعفة خضراء في البصائر 21 مايو، 1954.

(2) البصائر 351، 27 يناير 1956.

أحياءها الفقيرة ولكنه حي غني بالتقاليد والإرث الحضاري العربي الإسلامي. كان بزوغ نجمها أيام شروق شمس ابن باديس وحركة الإصلاح في قلب قسنطينة. فكان تعلمها حسب هذه الشحنات التي تلقتها وهي صغيرة فصادفت قلبا فارغا فتمكنت وظلت معها إلى اليوم. وما كادت تبلغ الرابعة حتى أفلت شمس ابن باديس، وركعت فرنسا على ركبتيها أمام النازية. وعندما أخذت تعي أوليات الحياة جرت بإقليم قسنطينة حوادث الثامن مايو فتركت ندوبا في كل بيت. وقد وجدتها الثورة بنتا في مرحلة المراهقة. ومع ذلك ظهر قلمها مبكرا على جريدة البصائر التابعة لجمعية العلماء.

بدأت زهور ونيسي تكتب في هذه الجريدة مقالات اجتماعية وصورا قصصية من واقع الحياة الذي كانت تعيشه أو تشاهده في الشارع والمدرسة والسوق وبيوت الفقراء والأغنياء على السواء. وكانت قسنطينة أوائل الخمسينات تعيش حركة ثقافية وتعليمية لم تشهدها مدينة أخرى في الجزائر. ففيها مدرسة التربية والعليم، ومعهد ابن باديس، والمعهد الكتاني، والمدرسة الفرنسية-الإسلامية. وفيها صحيفة (النجاح) و(الشعلة). إلى جانب عدد من الصحف والمدارس والنوادي الأوروبية. وفي قسنطينة أيضا كان هناك نادي الاتحاد الإسلامي باتجاهه الوطني الإصلاحي، ونادي صالح باي العتيق، وجمعية المزهر القسنطيني بقيادة أحمد رضا حوحو... وكل هذه المراكز قد أثرت على الفتاة زهور ونيسي، وهي تستقبل ربيع الحياة وربيع الثورة والحرية. وكان عملها "الرسمي" هو التعليم الذي صعدت منه إلى الكتابة وإلى المجتمع ثم إلى السياسة والقيادة.

بعد الاستقلال جمعت ما عندها من قصص وقدمتها للنشر، فكانت أول امرأة تشق طريقها، وبخطى سريعة، نحو النشر ومزاحمة الرجال في إنتاج القصة والرواية والمذكرات. فصدر لها الرصيف النائم، وعلى الشاطى الآخر، ومن يوميات مدرسة حرة، وغيرها. كما زاحمت الرجال في الوزارة والنيابة في البرلمان، وعضوية اتحاد الكتاب وغير ذلك من المناصب العليا، دون الحديث

عن الاتحاد النسائي وإدارة مجلة المرأة الجزائرية. وحين نشرت بعض أعمالها الأدبية وجدت من قدما لها تقديما يليق بها كامرأة جزائرية دخلت ميدانا خاليا من النساء، فقد نوهت بأعمالها الدكتورة سهير القلماوني الأكاديمية المصرية المعروفة، وتلميذة طه حسين المدللة، ونوهت بها كذلك الدكتورة بنت الشاطى (فاطمة عبد الرحمن) المؤلفة والأستاذة المصرية المعروفة أيضا، فكان هناك نوع من الحلف النسائي الجزائري-المصري وراء ظهور الرجال. ولعل الأستاذتين المصريتين كان في ذهنيهما أن زهور ونيسي هي هدى شعراوي الجزائرية. أما الرجل الذي دخل على الخط وقدم زهور ونيسي إلى القراء فهو الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي الذي أشاد بمذكراتها كمعلمة في إحدى المدارس الحرة أيام الثورة، وما قامت به من خدمة للجزائر وآدابها وحركتها الوطنية[1].

دعنا نستعر هنا ما كتبناه عن مجموعة (الرصيف النائم) سنة 1968. فمنذ البداية ذكرت زهور ونيسي أنها لا تريد إعطاء تعريف للقصة، وكأنها كانت تتهرب من ذلك لتترك الأمر للنقاد والدارسين. وقد اعترفت أنها بدأت الكتابة بالمقالة قبل القصة. كان ذلك نتيجة علاقتها بالتربية والتعليم ومعرفة النفس البشرية. وهكذا تسلحت ثم بدأت تخوض الميدان. وهي لا تكتم القارى أنها بنت محيطها الاجتماعي والثقافي وأنها متأثرة بمبادى الحركة الوطنية والحركة الإصلاحية. كما أنها تعلمت من الثورة النشاط ومشاركة الآخر. وكيف تكون-مع كل تلك المعطيات- مع المتمسكين بالتقاليد أو المؤمنين بالبرجوازية، وهي تعيش عصرا جديدا تميز بالإيثار والعمل الجماعي لتحرير الوطن.

أما عن قصصها فتصفها بالبسيطة بساطة الشعب. وأنها " قطع نابضة وصور حية تبرز بعض جوانب ملحمة الثورة.. وتجسمها بكل ما فيها من أبعاد وإعجاز وأساطير". وتصف قصتها(عقيدة الإيمان) بأنها "أول محاولة لي

(1) من يوميات مدرسة حرة، سنيد، الجزائر 1978.

وضعت بأسلوب قصصي". وهي قصة واقعية تروي حوادث حقيقية وقعت لأناس "مازالوا يجترون الحياة". أما قصة (فاطمة) "فهي قصة كل امرأة جزائرية.. المرأة التي عاشت حقا ثورة أول نوفمبر بكل ما فيها من أبعاد". وهكذا تصف زهور ونيسي قصصها الواحدة تلو الأخرى. وهي تتساءل مع قصة (الرصيف النائم) "أصحيح يوجد... في أرض الجزائر على مدى خمسة أجيال رصيف نائم" والجواب هو: لا. إن أرصفة الجزائر لم تعرف إلا " الضجيج والصراخ والعويل والانفجارات"[1].

الحبيب بناسي

ولعل (صرخة القلب) للحبيب بناسي تدخل ضمن هذا القصص السردي أو المقالة القصصية. فقد نوه محمد منيع بالصرخة وعرضها على القراء وقال إن المؤلف بذل جهودا شاقة، وبكى وحن إلى الوطن وواجه الحيرة والألم، لأنه جاء من غربة وحل بوطن مضطرب وتألم لأمته المعذبة. ولكن السيد منيع لم يصف لنا الكتاب ولا محتواه فبقي محتواه غامضا على من لم يقرأه. كما أنه لم يتحدث عن حجمه ولا مكان صدوره[2].

وقد واصل الحبيب بناسي فنشر قصصه الحيوية الجميلة في تونس بعد اختفاء البصائر وتفرق قراؤها وكتابها على الصحف الأخرى، ومنها الصحف التونسية أيام الثورة، فنشر بناسي ثلاث قصص في جريدة الزيتونة بتونس سنة 1956. ومنها مأساة أسرة، وشهيد بلا قبر، والدكتور الشهيد. ولا ندري الآن مواضيع هذه القصص التي يبدو أنها من وحي الثورة. كما أننا لا ندري ما مصير

---

(1) أصل هذه الكلمة منشور في مجلة القبس، عدد 9 -10، أفريل -مايو 1968، وأيضا في كتابنا تجارب في الأدب والرحلة، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005، ص 143-144.

(2) البصائر 334، 23 سبتمبر 1953.

الأديب بناسي نفسه. فقد تلاشت أخباره وسط ضباب المعركة[1].

وقد وجدنا لبناسي قصة في مجلة هنا الجزائر عنوانها طويل و عاطفي وهو: صراع بين العاطفة والعقل أو دمعة القلب الجريح، وهي قصة غرامية حزينة ذات حب أفلاطوني، تنتهي بمأساة[2].

وكان نقد القصة ما يزال في أوله كما كانت كتابة القصة نفسها ما تزال في أولها. فالشيخ حمزة بوكوشة قدم مجموعة (صاحبة الوحي وقصص أخرى) لأحمد رضا حوحو تقديما محبذا مستحسنا، قائلا إنها تحتوي على تسع قصص وإنه قرأها كلها وأعجب بها، وإن القراء في حاجة إلى قراءة فن القصة لقلتها عند الجزائريين. وقد سبق هذا الكلام الإعلان عن قرب صدور هذه المجموعة القصصية التي تضم قصصا اجتماعية وأدبية مزينة بالرسوم[3]. ونفس المجموعة نقدها وقدمها للقراء مولود الطياب في مجلة هنا الجزائر؟

ونشرت المجاهد قصة دون أن تنسبها إلى أديب بعينه. وعنوان هذه القصة (ما بين الزنزانة والمقصلة) مع عنوان فرعي لها هو (من أعماق بربروس) مما يوحي بأن القصة مرسلة أو كتبت في سجن بربروس. ولا نعرف حتى الآن اسم "الكاتب الجزائري" المسكوت عنه. ويبدو أن القصة غير مترجمة عن الفرنسية وأنها أصلا مكتوبة بالعربية[4].

عثمان سعدي وابن عيسى

عثمان سعدي من الأدباء المبكرين في ميدان القصة القصيرة. فمنذ الخمسينات نشر عدة قصص في مجلة الآداب، وكانت قصصا تدل على نضج

---

(1) الجابري، النشاط العلمي، ص 369. جاء في موسوعة العلماء أن بناسي قد مات شهيدا.

(2) هنا الجزائر 58، أكتوبر 1957.

(3) البصائر 297، وأيضا البصائر 285.

(4) المجاهد 32، 8 ديسمبر 1958.

وامتلاك لأدوات الكتابة في هذا الفن الأدبي الجديد. وهو من الذين عاصروا تطور القصة في المشرق، وكان أديبا واعدا في هذا الميدان لولا انجذابه إلى السياسة والدبلوماسية. فقد نشر عندئذ قصصا منها: اثنتان وثلاثون طلقة، والشيخ حداد، والثلج والشرف، وتحت الجسر المعلق، والأخيرة هي نفسها القصة التي جعلها عنوانا لمجموعته القصصية التي نشرها بعد الاستقلال. وهي مجموعة تضم سبع قصص. وقد أشرت إلى ما نشر منها خلال الثورة في دراستي عن (الثورة الجزائرية في مجلة الآداب) التي نشرتها هذه المجلة في الذكرى العاشرة لاستقلال الجزائر على ما أذكر. ولعثمان سعدي لغة واضحة وقوية، وموضوع قصصه هو الواقع الجزائري أثناء الثورة وخلفيات الفقر والحرمان الذي خلفه الاستعمار الفرنسي. فقصصه تمثل صفحة هامة من الأدب الواقعي الهادف بلغة ذلك العهد، وهي تعبر أحيانا عن تجارب شخصية عاشها المؤلف نفسه. وكدلالة على ذلك كتب العنوان الفرعي للمجموعة: قصص مستوحاة من واقع الثورة الجزائرية[1].

أما حنفي بن عيسى فقد نشر في مجلة الآداب خلال الثورة القصص التالية: في حي القصبة، وعائدون، والشمس لا تشرق من باريس[2].

أبو العيد دودو

حل أبو العيد دودو بالنمسا بعد أن انتهى من دراسته في بغداد. ومن النمسا أخذ يكتب القصة والمقالة ويرسل بإنتاجه إلى صحف تونس لأنه لم يبق في ساحة الجزائر غير الصحف الموالية للإدارة الاستعمارية أو الصادرة عنها. واستمر دودو ينشر إنتاجه على قلته- من تونس، فنشر في الندوة والفكر والصباح، إلى يناير 1965، حسبما ذكر الباحث الجابري. وبذلك قدم دودو

---

(1) عثمان سعدي، تحت الجسر المعلق، ش. و. ن. ت. الجزائر، 1982.

(2) عن هذه القصص انظر دراستنا المشار إليها في مجلة الآداب، وكذلك في كتابنا تجارب في الأدب والرحلة. ويغلب على الظن أن القصة من كتابة ابن تومرت(مفدي زكرياء).

إلى الصحافة التونسية قصصا ومقالات وترجمات، كما نشر بعض إنتاجه في مجلة الآداب اللبنانية. ويهمنا هنا إنتاجه القصصي ومنه: نضال، والعودة، وجاء دورك، وانتظار، والحلم، والفجر الجديد، والحبيبة المنسية. والغالب أن بعض هذه القصص ظهر في مجموعته الأولى(بحيرة الزيتون)[1].

الطاهر وطار

من رواد القصة والرواية بلا منازع الطاهر وطار الذي قطع بهذا الفن الجسر الصعب، وقد نضجتا على يديه حتى تفوق إنتاجه في هذا الميدان على إنتاج معاصريه حتى المكتوب باللغة الفرنسية. بدأ الطاهر وطار مشواره الأدبي أيضا من تونس حوالي سنة 1956 حيث تجمعت نخبة جزائرية مثقفة بالعربية والفرنسية وتبارت في الإنتاج الوطني الثوري، فتخلف من تخلف إما عجزا وإما موالاة للإدارة الفرنسية لأن المرحلة فرضت هذا التمايز والفرز. فكان وطار في الضفة اليسرى من النخبة الثورية. وقد استمر في العطاء والإبداع إلى حوالي 1962، ولكن الذين تابعوا إنتاجه بعد الاستقلال يعرفون أن معظم رواياته ظهرت في هذه المرحلة (بعد الاستقلال) وأن عهده الأول تميز بكتابة القصة القصيرة والمسرحية والمقالة. فقد نشر عدة مقالات وقصص في جريدة الصباح التونسية بين 1956و 1962. وظهرت له بعض المسرحيات في مجلة الفكر سنة 1960، كما نشر في جريدة العمل مسرحيات أخرى. وحسب الجابري فإن وطار نشر ما يقارب خمس مسرحيات في مجلة الفكر وحدها، منها: الأميرة، والهارب، وعلى الضفة الأخرى وكل منها في حلقتين أو ثلاث[2].

وإذا عدنا إلى أوليات وطار وجدناه من مواليد مداوروش (بلد أبوليوس أو مضور كما سماها الطياب). أثناء دراسته في معهد عبد الحميد بن باديس، تأثر بمجتمع قسنطينة المختلط الطبقات والنفوذ، فشعر فيه بالاغتراب سيما

(1) الجابري، النشاط العلمي ص 387 - 388.
(2) الجابري، النشاط العلمي ص 423 - 425.

عندما وجد نفسه أمام الجاليات الأجنبية (المستوطنين). وربما لم يكن هو بدعا في ذلك بل كان يشاركه كل أبناء الجزائر القادمين من الريف، فكلهم كانوا يشعرون بالغربة في وطنهم، وهو الأمر الذي دفعه إلى أن يتجه إلى تونس حيث الحياة الأدبية مزدهرة نسبيا وحيث المجتمع عربي اللسان والطبع في منسجم مع بعضه ولا يحس معه الجزائري ابن الريف بالغربة. وفي تلك الأثناء نشرت له أول قصة لا نعرف ما هي، ولكننا نعرف أن تونس كانت تتوفر على وسائل النشر بالعربية أكثر من الجزائر، كما كانت تتوفر على الصحف والمجلات المحلية أو الوطنية وعلى الدوريات القادمة من المشرق العربي والتي كانت الجزائر محرومة منها. ويعترف الطاهر وطار أن الثورة الجزائرية هي التي فجرت فيه شرارة الإبداع الأدبي والروائي بصفة خاصة، وقد قال إنه لولا الثورة لما خرج من قريته ولما كتب ربما حرفا ولما أصبح مناضلا برؤية جديدة يطغى عليها الأمل في المستقبل. ولعله في هذه المشاعر يعبر عن جيل كامل من المثقفين الجزائريين[1].

صور من البطولة في الجزائر

مجموعة قصص كتبها فاضل المسعودي ومحمد الصالح الصديق من وحي الثورة التحريرية ومحيطها وصدرت سنة 1957 بطرابلس (ليبيا)، ومعظم القصص مكتوبة خلال السنة التي قبلها. وهي مهداة إلى أرواح الشهداء. والشرفاء و"المناضلين من أجل السلم والخبز والحرية" وإلى "رافعي السلاح والقلم والريشة." ولذلك قلنا إنها من وحي الواقع بكل جدارة، بما في ذلك معاداة الغرب المعتدي والاستعمار وترديد شعارات اليسار. وقد قدم للمجموعة السيد يوسف القويري فقال إن الأدب يقاوم كما يقاوم الإنسان وإنه يقف إلى جانب القاعدة الشعبية، ولذلك فإن القصص التي يقدمها تفوح برائحة البارود أيضا.

---

(1) الشروق اليومي، 10 مارس 2005.

كتب محمد الصالح الصديق بعض القصص من المجموعة منها امرأة من آيت خلفون، وهي امرأة تنتزع الحب والعطف لبطولتها، فهي أم فدائية التحقت بزوجها في الجبل وأما قصة الساعة الخامسة فتجعلك تؤمن بأن للثورة إرادة لا تهزم أبدا وأن الاستعمار لا يمكنه أن يحمي الخونة إذا قررت الثورة تصفيتهم في ساعة محددة (الساعة الخامسة) ولو اختبأ الخائن منهم وراء قضبان السجن الفرنسي.

أما المسعودي فقد استعمل طريقة المونولوج الداخلي في قصة مليكة ورسم له أدق الظلال. وفي بعض القصص تبدو المشاهد قاسية حيث تقتل الأخت أخاها الخائن لأنها تفضل الشعب والوطن عليه. وتضم المجموعة إحدى عشرة قصة، سبعة منها كتبها الصدّيق وأربعة كتبها المسعودي[1].

عبد الحميد بن هدوقة

عبد الحميد بن هدوقة أحد أبرز كتاب القصة والرواية في عهد الثورة وما بعده. بدأ نشاطه في مسقط رأسه (المنصورة)حيث ولد سنة 1929 ثم انتقل إلى قسنطينة فدرس في معهد الكتانية التابع للطريقة الحملاوية (الرحمانية). وبذلك يكون قد نشأ نشأة ريفية صافية، وهو ابن الهضاب العليا الطيبة بهوائها وجمالها واتساعها. وقد سجل أحداث تلك المنطقة في أدبه فكان أدبه أدبا أصيلا. . سافر إلى فرنسا وأقام في مرسيليا فترة عندما كان عمره سبع عشر سنة. فتأثر بالبيئة الفرنسية عن قرب وعاشر المهاجرين الجزائريين وشاركهم معاناتهم قبل الثورة. وقد بقي في مرسيليا إلى سنة 1949 بحيث قضى سنوات الحرب هناك، ولعله اختزن من تلك الفترة آثار سقوط النظام الفرنسي وحكم فيشي

(1) ط. طرابلس، المطبعة الحكومية، 1957. وجدت على غلاف النسخة التي عندي أن الشيخ م. ص. الصديق قد أهداني إياها في 21 أوت 1960، ولكن المكان غير مذكور، وهو قد يكون تونس حيث حضرت انعقاد المؤتمر الرابع لاتحاد الطلبة، أو طرابلس حيث كان الشيخ الصديق يعمل في مكتب الجبهة.

واحتلال الألمان لباريس، وقارن ذلك بما كان يجري في بلاده على يد الاستعماريين. . وبعد رجوعه إلى الجزائر التحق بالكتانية حيث بقي عاما، قبل أن يلتحق بجامع الزيتونة بتونس. هذه التحركات التي قام بها بين البلدان الثلاثة مازلنا لا نعرف دوافعها، فهل هي دوافع مادية أو تعليمية أو هي مجرد صدفة ومغامرة؟

بقي ابن هدوقة أربع سنوات في تونس حيث درس الأدب والفنون الدرامية في المعهد الخاص بذلك. وربما كان في هذه الأثناء عضوا في حزب الشعب. وعلى كل حال فقد ترأس جمعية الطلبة الجزائريين في تونس. ثم رجع إلى الجزائر عام الثورة، وفي قسنطينة قام بتدريس الأدب في المعهد الكتاني، ولما كان عضوا في الحركة النضالية فقد أحس بيد الاستعمار تتبعه، فسافر إلى فرنسا من جديد في نوفمبر 1954. واهتم فيها بالأدب والإنتاج الدرامي، فأخذ يكتب المسرحيات التي كانت تذاع في المحطات المتوفرة التي ربما منها الإذاعة الفرنسية بالعربية. ويقال إنه عمل مخرجا في هذه الإذاعة أيضا. وفي سنة 1958 التحق بتونس من جديد وتفرغ للأدب وكتب تمثيليات عديدة وعمل في الإذاعة التونسية.

ومن نتائج عمله في هذه الأثناء كتابة المجموعة القصصية (الكاتب وقصص أخرى) التي عبر فيها عن معاناته. وبعد الاستقلال رجع إلى الجزائر واشتغل في الإذاعة الوطنية، وتابع العمل الأدبي فصدرت له المجموعات القصصية التالية: ظلال جزائرية، والأشعة السبعة. وأهم أعماله الروائية: ريح الجنوب، ونهاية الأمس، وبان الصبح. وظهر له في الشعر (الأرواح الشاغرة) التي تذكرنا بكتابات جبران والتي تحتوي على الشعر المنثور.

وله في النثر (الجزائر بين الأمس واليوم). ومن الملاحظ أن ما صدر له في عهد الثورة هو مجموعاته القصصية. أما رواياته فقد صدرت بعد الاستقلال، ولذلك فهي خارج موضوعنا هنا[1].

---

(1) أحمد دوغان، شخصيات من الأدب الجزائري، م.و.ك. الجزائر، 1989، ص 118=

ويذكر الجابري أن ابن هدوقة نشر في تونس بعض المقالات والقصص، فمن قصصه: هبهاب الكذاب في أربع حلقات في مجلة الإذاعة التونسية ابتداء من مايو 1959، كما نشر في نفس المجلة: بائع التذاكر، وزيتونة الحب، والضفدع والثعبان، ولن أبني للخراب، من 30 مايو، 1959 إلى 2 أكتوبر 1961 -كما نشر مقالات في جريدة الصباح[1].

إن حياة عبد الحميد بن هدوقة حياة أديب قضى عمره في البحث عن وسيلة يثبت بها هوية الجزائر، وقد وجدها في الأدب عامة والقصة والرواية خاصة. ولا ننسى أن ابن هدوقة شارك في الحياة الثقافية بتوجيه الإنتاج الأدبي، بما فيه الإذاعي، وتولى عدة مسؤوليات، منها مدير الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، وربما كان مسؤولا على فرز الإنتاج الإذاعي والتلفزيوني بعض الوقت. ويبدو أنه كان يعاني من أمراض عديدة، ولكنه كان مثل أبو العيد دودو، يعمل في صمت إلى أن رحل كل منهما في صمت أيضا. وأشهد أنني تعرفت عليه في تونس أيام الطلب وكنا ننتمي إلى جمعية الطلبة، ولكننا لم نختلط كثيرا، ثم عرفته عن كثب بعد الاستقلال مسؤولا وكاتبا، فكان نعم الإنسان والأديب.

بقي أن نقول عن القصة والقصاصين إن تونس كانت المشتلة التي أنبتت شجيرات هذا النوع الأدبي الجميل، وهو القصة . . بدأ بعض الأدباء الجزائريين حياتهم فيها وواصلوها حتى بلغوا شأوا عظيما في القصة والرواية مثل وطار وابن هدوقة ورشيد بوجدرة، وبعضهم بدأ هذه الحرفة النبيلة ثم مال عنها إلى

= - 120، بعض المعلومات عن حياة ابن هدوقة ما تزال غير دقيقة: ففي مصدر آخر أنه ولد 1925، ودرس العربية على والده والفرنسية في المدرسة الابتدائية الفرنسية وأنه درس في الكتانية أولا، ثم في سنة 1949 سافر إلى مرسيليا ونال شهادة الإخراج الإذاعي هناك، وأن أول عمل أدبي له هو (حامل الأزهار)-وهو عمل شعري صدر سنة 1952، أين؟ وقد توفي 12 أكتوبر 1996، راجع الشروق اليومي، 22 نوفمبر 2004.

(1) الجابري: النشاط العلميص369-370.

الدراسة والمقالة مثل عبد الله ركيبي والجنيدي خليفة، وهناك من بدأها ثم توقف لأسباب طبيعية كالوفاة مثل عبد الملك بوصبيع، فهذا الرجل (الطالب) قد نشر قصتين في جريدة الصباح التونسية، ربما سنة 1956 أو سنة 1957 قبل أن يتلقفه الموت فجأة[1].

قصاصون آخرون

وفي هذه الفترة نشرت جريدة (المجاهد) قصة قصيرة- على غير عادتها- بعنوان (الضفدعة الشهيدة) وردت فيها رموز عديدة ترجع إلى سنة 1830، منها أن الجنود الفرنسيين قتلوا الضفدعة ليلا لأنها كانت تقلقهم بنقيقها المتواصل، كما قتلوا الحارس، وهو حارسهم، ليلا أيضا خوفا ورعبا منه. كانوا يستريحون بالمكان أثناء إحدى الغارات. ومن الرموز التي أوردتها قصة الضفدعة الشهيدة المسجد والضريح الواقع فوق ربوة، وهو ضريح أحد الأولياء، والولي هنا هو الضفدعة نفسها التي أصبح السكان يعتقدون أنها مقدسة وولية صالحة قتلها الكفار، لكن والد الفتاة، وهي صديقة الجندي الثوري، حكى لها أصل الحكاية أي أنها ضفدعة وليست ولية. وتقدم هذه القصة مشهدا للصداقة والشعور بالحب المتبادل بين الجندي والفتاة كما تقدم أسلوبا جميلا في القص الأدبي. وقد أخذت القصة صفحة كاملة من المجاهد، كما أنها نشرت بدون توقيع ولا إشارة إلى أنها موضوعة أو مترجمة[2].

كما نشرت المجاهد قصة عنوانها (من الأدب الثوري)، وهي ليست قصة جزائرية على كل حال. وكان الهدف من نشرها هو إعطاء نموذج من الأدب الصيني أو الفيتنامي الثوري. وكانت تنشر أحيانا قصصا معربة من الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية. أما لجوءها إلى نشر قصص من الأدب الأجنبي فهي عادة تريد به نموذجا من الأدب الريفي يخدم الثورة لأنه يتحدث

(1) الجابري، النشاط العلمي. . .ص370.

(2) المجاهد 51، 21 سبتمبر 1956.

عن المعاناة ثم اختيار الثورة طريقا للخلاص من الاحتلال والظلم، كما حدث في الصين والفيتنام[1].

في مجلة هنا الجزائر ظهرت عدة قصص بعض أصحابها معروف والآخر يبدو أنه كان يحمل أسماء مستعارة. كانت القصص عادة اجتماعية أو دينية بعيدة عن السياسة والثورة، من ذلك قصة مالك واري (أضحية العيد) التي يبدو أنها مترجمة عن الفرنسية لان كاتبها لا يكتب بالعربية[2].

ومن جهتها نشرت فتيحة مازيغي قصة موجهة للأطفال باسم (الزبير أو الطفل الرشيد)، سنة 1956. وظهر اسم هذه الكاتبة مع عدة قصص في نفس المجلة، ولكن هل هذا هو اسمها الحقيقي؟ ومن جهة أخرى نشر الباهي فضلاء قصة بعنوان (اليتيم)[3].

وأسهم الطاهر فضلاء في القصة إلى جانب المسرح، وكانت مساهمته في القصة تتمثل في كتابتها على أصول تدخلها عالم الصنعة. من ذلك قصة (راشد القافلة)، وهي قصة رمزية تصور نوم الجزائر سياسيا واجتماعيا وظهور ابن باديس وحركته باعتباره موقظا وهاديا وقائدا للقافلة[4].

اضطهاد أدباء العربية

وفي هذه الأجواء لم يكن أدباء اللغة العربية أسعد حظا من زملائهم. فقد تعرضوا لمختلف أنواع الاضطهاد البدني والنفسي. دخل مفدي زكرياء السجن ثم هرب منه ورضي بالمنفي والغناء لقادة المغرب وتونس تحت راية وحدة المغرب العربي. وكاد يصمت محمد العيد وأحمد سحنون عن الشعر لأن

---

(1) عواطف عبد الرحمن، الصحف العربية، ص 140-141. وكذلك المجاهد 33، ديسمبر 1958.

(2) هنا الجزائر 88، يونيو 1960.

(3) هنا الجزائر 43- 44، فبراير/ مارس1956

(4) هنا الجزائر 54، مارس- أبريل 1957.

كليهما كان خاضعا للقمع الأول تحت الإقامة الجبرية والثاني في غياهب السجن. واغتيل الأدباء حوحو وبوشامة والعقون والعمودي والزاهري. . .

ولكن الساحة لم تبق فارغة فقد حل بها جيل جديد في قامة من كنا نصفهم والذين رفعوا الراية في الشعر والقصة والرواية والمقالة في محافل تونس والمغرب والمشرق العربي. . ومع ذلك فأغلبهم بقي يدور في فلك النظام الجديد الذي قام بعد الاستقلال بأطيافه المختلفة، ولم يصعد إلى العالمية منهم سوى اثنين أو ثلاثة. أما الآخرون فقد جنى عليهم الحزب الواحد الذي انتموا إليه عن خوف أو طمع، فظلوا يدورون في فلكه ويتنفسون برئتيه، والحزبية والتحزب قيد للفكر والأدب، وهو القيد الذي تخلص منه أغلب أدباء التعبير بالفرنسية.

الفصل التاسع

الشعــر

المصادر

في العدد الخاص من مجلة آمال التي كانت تصدر عن وزارة الثقافة عدد عنوانه نماذج من الشعر الجزائري المعاصر، شمل مجموعة من الشعراء المخضرمين ومن الجيل الجديد. وتطول القائمة لو ذكرناهم جميعا بأسمائهم هنا. ولكن ميزتهم أن منهم من عاش حتى شهد نيران الثورة ومن عاش حتى ذاق حلاوة الاستقلال.

ومن المصادر أيضا كتاب أناشيد للوطن الذي جمعه ودرس نصوصه الأمين بشيشي، ثم الثورة في الأدب الجزائري لصالح مؤيد، وشخصيات من الأدب الجزائري لأحمد دوغان، والشعر الجزائري الحديث لصالح خرفي، والشعر الجزائري الحديث لمحمد ناصر، وحديث الشبوكي عن نشيده (جزائرنا) في جريدة المجاهد الأسبوعي (30/11/1979)، ودراسات في الشعر الجزائري الحديث لعبد الله الركيبي، وروحي لكم لمحمد الأخضر عبد القادر السائحي، ونماذج من الشعر الجزائري المعاصر لعبد العالي رزاقي، ومحمد العيد آل خليفة تأليف أبي القاسم سعد الله. ولصالح خرفي دراستين مستقلتين عن رمضان حمود ومحمد سعيد الزاهري. ولابد من ذكر مقدمة مفدي زكرياء لديوانه اللهب المقدس وتعليق نذير مصمودي عن ديوان ابن رحمون، وما كتبه النقاد والمعقبون على ديوان محمد العيد آل خليفة. بالإضافة إلى المجموعة

الكلاسيكية المعروفة (شعراء الجزائر في العصر الحاضر) لمحمد الهادي السنوسي التي ما تزال تشكل خلفية لدارسي شعر المرحلة الثورية أيضا.

وفي مقال نشره سعد الدين بن شنب عن (اللغة العربية والأدب العربي في الجزائر) في مجلة الأديب اللبنانية نوه بالشاعرين محمد العيد وأحمد سحنون معتبرا الشاعر الأول بأنه أعظم شعراء العصر[1].

وكان أحمد بن ذياب قد نشر مقالة عن الربيع في الشعر الجزائري وذكر نماذج من الشعراء، منهم محمد العيد وأحمد سحنون وأحمد الأكحل والسائحي والسنوسي وعثمان بلحاج وعبد الكريم العقون[2].

وفي سنة 1961 أنجزت وزارة الأخبار الجزائرية اسطوانتين تشتملان على مجموعة من الأناشيد والأغاني الوطنية. وجرى التسجيل في يوغسلافيا برعاية الفرقة الفنية الجزائرية. وتستغرق إذاعة الاسطوانتين ساعين. ومع هذا الخبر نشرت (المجاهد) صورتين: صورة لفتاة صغيرة كتب إزاءها بالخط الكبير (Algérie) بالفرنسية، وصورة أخرى لفرقة من الجنود المسلحين وهم في حالة سير وقد كتب إزاءها عبارة (الجزائر) بالعربية. ولم تذكر الجريدة نوع الأغاني والأناشيد ولا عددها[3]. من الأعمال التي ظهرت أثناء الثورة عن الشعر الجزائري كتاب عبدالله ركيبي: دراسات في الشعر العربي الجزائري الحديث[4].

في البحث الذي عنوانه (تصميم للشعر الجزائري الحديث) تحدثنا عن شعر الثورة، وهو منشور في مجلة الآداب اللبنانية، كما أنه منشور في كتابنا دراسات في الأدب الجزائري الحديث. في هذه الدراسة إشارات إلى شعر عبد السلام حبيب وصالح باوية وصالح خرفي وعبد الرحمن الزناقي وأحمد معاش

---

(1) الأديب عدد 20، يناير 1954.

(2) هنا الجزائر 46، مايو 1956.

(3) المجاهد 106، 9 أكتوبر 1961.

(4) الدار القومية، سلسلة كتب ثقافية، القاهرة، 1961، تقديم صالح جودت.

وأبي القاسم خمار، مع نماذج من شعرهم. كما أشرنا في بحث (البطل في الأدب الجزائري) إلى أن شعر الثورة يعتبر من شعر الملاحم وأنه سيكون موضع دراسات متخصصة في عهد الاستقلال. وقد تحقق ذلك.

ومن ناحية أخرى صدرت دراسات متعددة عن الشعراء أنفسهم أو عن موضوع معين من الشعر أو في مكان محدد زمن الثورة، بما في ذلك الشعر الشعبي. وهي دراسات مفيدة في هذا المجال. وهناك أيضا ألوان من الدراسات عن شعر الثورة باللغة الفرنسية سجل بعضها الكاهن جان ديجو في كتابه (بيبليوغرافيا الجزائر).

ولعل من أواخر ما صدر عن الأدب الجزائري أثناء المقاومة والثورة كتاب عبد الملك مرتاض الذي سماه (أدب المقاومة الوطنية في الجزائر: 1830-1962). ومن الواضح أن الكتاب ليس كله عن أدب الثورة ولا عن شعرها، ولكنه يتناول هذا الشعر في جزء منه، وهذا هو ما يهمنا الآن.

ومما تناوله مرتاض من شعر الثورة تحليل بعض النصوص لشعراء كانوا شبانا يتفجرون حماسا وغيرة على الوطن أمثال باوية وخرفي أو من المخضرمين أمثال مفدي زكرياء ومحمد العيد. وكانت دراسته لنماذجه مطولة وخاضعة لمقاييس نقدية حديثة. ومن هذه النماذج قصيدة ساعة الصفر لباوية التي حللها في الفصل الثامن من الجزء الأول، ص 393-423. كما خصص في نفس الجزء دراسة تحليلية للثورة في شعر مفدي زكرياء، ص 426-487. أما صورة الثورة في شعر الخرفي فقد تناولها على صفحات 491-519 من نفس الجزء أيضا. بقي أن نقول إنه خصص الصفحات 523-556 من نفس الجزء لقصيدة أبي بشير لمحمد العيد. وكل نص من هذه النصوص خصص له مرتاض فصلا بذاته[1].

(1) يقع الكتاب في مجلدين، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في تاريخ الحركة الوطنية، الجزائر، 2003.

حالة الشعر والشعراء عشية الثورة

يمكن القول إن ساحة الشعر كانت خالية من الفرسان عشية الثورة. فقد أدى شعراء ما بين الحربين دورهم وانتهوا بالانطواء على أنفسهم. فلم نعد نقرأ لمحمد العيد وجيله سوى قطع في مناسبات محدودة ينشرونها في البصائر أو المنار أو النجاح أو هنا الجزائر وأمثالها من الصحف القليلة ذات المشارب المختلفة.

وخلت الساحة من أبي اليقظان (إبراهيم بن عيسى) ومحمد اللقاني والعمودي، بل حتى من الهادي السنوسي ومفدي زكرياء وأمثالهم ممن ضمهم كتاب (شعراء الجزائر في العصر الحاضر). كانت القضايا التي ناضلوا من أجلها قد نضجت وبدأت تأتي أكلها في الأحزاب السياسية والجمعيات الوطنية ودخلت في صراع غير متكافى مع الاستعمار منذ الحرب العالمية الثانية، وهو الصراع الذي انتهى بمجزرة الثامن مايو التي أذهلت كل شاعر وكل مثقف وكل سياسي.

لم يكن جيل الشعراء الذين ظهروا بين 1945 - 1954 متفرغا للشعر، كان يعيش الحركة الوطنية في أبعادها المختلفة، بل لقد توزع في اتجاهاته بين الطرقية والوطنية والرومانسية. لم يكن كله من أنصار هذا التيار أو ذاك. كما برد الحماس للسياسة الحزبية لأنها لم تنتج قيادة مقنعة ولم تعبر عن طموحات الشعب أو تحقق الآمال التي وعدت بها. فسكت مفدي زكرياء شاعر حزب الشعب واشتغل بالتجارة. وانزوى محمد العيد مرددا:

وجنحت للحرم الذي فارقته زمنا جنوح الطير للأوكار

وفضل أحمد سحنون أداء رسالته في شعر الوعظ والإرشاد وتوجيه الشباب الجديد. فكان يخاطب المعلم بهذه الأبيات الحية المتفائلة بمستقبل الوطن والأمة:

هات من نشء الحمى خير عتاد وادخرهم لغد جند جهاد

هات نشئا صالحا يبنى العلا ويفك الضاد من أسر الأعادي
هاته جندا قويا باسلا إن دجى خطب يكن أول فاد
حطه بالإسلام من كل أذى واحمه بالخلق من كل فساد
اهده بالعلم فالعلم سنى ومن القرآن زوده بزاد
صغه للإسلام سيفا صارما ومثالا من ذكاء واجتهاد
قد إلى العلياء أشبال الحمى وإلى تحريرهم كن خير حاد
لا تقل شمس بني الضاد اختفت وطوت أيامهم سود عواد
إن ذوى النبت فإن البذر في باطن الأرض لينمو في ازدياد
لا تضق ذرعا ولا تهلك أسى أمة الضاد ستحظى بالمراد

وبنفس اللهجة المتفائلة خاطب أحمد سحنون التلميذ الذي رمز به إلى الجيل الجديد، الجيل الذي رفع راية الجهاد في النهاية وقاد الثورة، فهو يخاطب التلميذ قائلا:

لك في كل حشا نبع وداد يا رجاء الضاد يا ذخر البلاد
شعبك الموثق لم يبق له من عتاد فلتكن خير عتاد
لج الاستعمار في طغيانه كل يوم منه ألوان اضطهاد
لغة الضاد التي ما برحت لغة الإعجاز سيمت بكساد
دينك الإسلام في أوطانه ناله المكروه من أيدي الأعادي
وليكن حاديك تحرير الحمى إن تحرير الحمى للحر حاد[1].

ولم يستطع شعر عبد الكريم العقون ولا شعر الربيع بوشامة ولا شعر أبي بكر بن رحمون أن يخرج عن نموذج شعراء الإصلاح في باكورته خلال

---

(1) من لوحة خطية عنوانها -هدية البصائر للمدارس العربية-، في الجانب الأيمن من اللوحة قصيدة إلى المعلم، وفي الجانب الأيسر قصيدة إلى التلميذ. واللوحة تقع داخل إطار أخضر اللون برسوم وزخرفة عربية جميلة، وفي أسفلها اسم الشاعر: أحمد سحنون بخط نسخ متفنن.

الثلاثينات رغم تداعيات الأحداث في الجزائر والبلاد العربية.

ولكن تيارا موازيا بدأ يظهر في الضفة الأخرى معبرا عن هموم الشاعر العاطفية والدينية والاجتماعية. وقد تمثل هذا التيار في الشعراء الذين احتضنتهم مجلة (هنا الجزائر) أمثال الأخضر السائحي والطاهر البوشوشي وأحمد الأكحل. والواقع أن هذا التيار قد استمر في تموجاته وعطائه حتى خلال الثورة.

لم يظهر أي أثر لنقد الشعر قبل الثورة، إذا استثنينا ملاحظات الإعجاب التي كان يبديها بعض الشيوخ عند سماعهم لقصيدة نظمها زميلهم الشاعر أو المعلم. لذلك كان الميدان خاليا من أصوات النقاد ومن محاسبة الشاعر على إنتاجه. فهو في ذلك ينظم الشعر في منتهى الحرية دون مراعاة الناقدين والمتذوقين.

عاش الشعراء الأزمة السياسية التي عرفتها البلاد عشية الثورة كما عرفها السياسيون. فقد أحسوا أن الجزائر قد فاتها ركب الثورة في تونس ومراكش وأن عليها اللحاق به. وكانوا غير راضين عن تصرف القادة مما جعلهم ينزعون ثقتهم منهم ويدعون إلى الوحدة الوطنية وتجاوز الأزمة، كما دعوا إلى عدم التحزب وتقديم المصلحة العليا للبلاد. ظهر ذلك في الشعر الذي قيل في جبهة الدفاع عن الحرية واحترامها (1951) على لسان محمد العيد مثل قصيدة (يا قوم هبوا) وقصيدة الصادق نساخ (اجمعوا الشعب)، كما ظهر في الشعر الذي نظم حول الاستفتاء على الوحدة الذي نظمته جريدة المنار سنة 1953 والذي اشترك فيه الشعراء والكتاب والسياسيون والعلماء. لقد كان الشعراء يحسون ربما أكثر من غيرهم بجمود الوضع، لذلك كانوا يتحدثون عن البديل ويبشرون بغد جميل، كما في شعر أحمد سحنون سابق الذكر. ولمحمد العيد بالذات رأي مكتوب نثرا حول الوحدة المنشودة. ومن الملاحظ أن مفدي زكرياء لم يشارك في هذا الاستفتاء.

وفي تحقيق حول إنجازات الاتحاد العمالي في تونس تحدث المحقق عن زيارة قاموا بها لمركز تعليم الأطفال. وقد جاء في التحقيق أن الأطفال وقفوا ينشدون نشيد (أرض الجزائر يا أمنا). وكان لهذا النشيد معنى خاص لأن معظم الأطفال المشار إليهم فقدوا أمهاتهم في حرب التحرير. ومن إنجازات الاتحاد نشر التعليم المهني كالنجارة وتربية النحل والكهرباء. ولم تذكر المجاهد التي أوردت الخبر نص النشيد، ربما لأن المناسبة هي نقل معلومات عن المركز المهني أكثر من الحديث عن الأناشيد[1].

وفي العدد الثالث من جريدة المقاومة الجزائرية نجد كلمة بعنوان (المرأة الجزائرية عبر التاريخ). وقد جاء فيها الكاتب على ذكر الكاهنة وكيف أوصت أبناءها بدخول الإسلام مما أهلهم لتولي قيادة جيوش الفتح. ثم جاء على ذكر نساء قبيلة رياح ومقاومتهن ضد الأتراك، حسب قوله، ونساء منطقة غريس في عهد الأمير عبد القادر ضد الفرنسيين، ثم الأميرة عائشة (كذا) التي تصدت للفرنسيين سنة 1857 (ولعل الكاتب يقصد فاطمة نسومر؟) والتي ابتكرت -كما قال- نظام المسبلين.

والظاهر من المعلومات المذكورة أن الكاتب إما جاهل بالتاريخ أو أنه أراد توظيف أحداثه لخدمة الثورة في ذلك الوقت العصيب. أما الحقائق التاريخية المتعلقة بالأشخاص المذكورين فهي معروفة ولا تحتمل كل هذا التمحل ولي العنق والذراع.

الأناشيد الوطنية

الأناشيد من فنون النظم التي انتشرت عشية الثورة وهي على أنواع. منها التعليمي الذي شاع في المدارس والذي يعتمد التوجيه والتأثير في الفتيان والشباب، بنفخ فيهم الروح الوطنية والإسلامية والأخلاق الفاضلة. ومنها

(1) المجاهد 44، 14 يونيو 1959.

الأناشيد الكشفية التي تربي الاعتماد على النفس والشجاعة والإيثار والصحة البدنية. وبعد قيام الثورة أصبحت الأناشيد سياسية-وطنية تنمي الاعتزاز بالوطن وأهله وتحث على الالتفاف حول الثورة وخدمة الأهداف البعيدة التي تعمل الثورة على تحقيقها مثل الاستقلال والحرية وإقامة الدولة الحديثة.

وقصيدة إلى المعلم ثم قصيدة إلى التلميذ للشاعر أحمد سحنون اللتان سقناهما منذ حين تدخلان في الأناشيد التربوية التي قيلت قبل الثورة. وقد عرف الطاهر التليلي بنظم لأناشيد تربوية كثيرة ضمها إلى ديوانه الدموع السوداء، ومنها الأبيات التالية:

قـــد رأينـــا مـــا رأينـــا لعبـــة فيهـــا عجـــب
قطـــة فـــوق حـــمـــار قـــد تـــولاهـــا الطـــرب
رقصـــت وهـــي تـمـــوء وتصيـــح وتـخـــب[1]

وهناك غير هذين الشاعرين، لأن المفترض أن كل معلم يحسن نظم أناشيد ينشط بها أذهان تلاميذه ويقوي الملكة اللغوية والأدبية عندهم، أو يحسن اختيار أناشيد نظمها شعراء آخرون سواء كانوا من الجزائر أو من المشرق العربي. وأذكر أنني عندما كنت أعلم في مدرسة التهذيب بالعاصمة، كنت أحضر لتلاميذي الصغار أناشيد من بينها: عليكَ مني السلام يا أرض أجدادي..

ومن الأناشيد الكشفية مجموعة محمد الصالح رمضان (ألحان الفتوة). وهي أناشيد تمجد البطولة والإقدام والتضحية في سبيل الوطن وحب الطبيعة وخدمة المجتمع. وهي تشبه شعر أحمد سحنون الذي سقناه منذ قليل.

أما الأناشيد السياسية والوحدوية فقد ظهرت مع الثورة. وهناك أناشيد ثورية لم تدون في وقتها وربما لن تدون أبدا لأنها قيلت في أول الثورة حين لم يكن هناك إلا الذاكرة. وربما يكون (جزائرنا) لمحمد الشبوكي أول نشيد مسجل

(1) عادل محلو، الشيخ الطاهر التليلي شاعر الأطفال، دراسة في كتاب العلامة المصلح محمد الطاهر التليلي، 1910-2003، صص 143-153.

وملحن تم إنشاده في مناسبات عديدة وشاع لحنه بين الثوار. وهو نشيد يرجع إلى سنة 1955 أي بعد معركة الجرف الشهيرة التي تعتبر من أوائل المعارك الكبيرة بين الثوار وقوات الاستعمار. وقد سافر نشيد (جزائرنا) عبر الحدود ووصل إلى الحركات الطلابية وتجمعات الجالية الجزائرية وأنصار الثورة عبر العالم. وهو نشيد قوي في معناه ولغته ومحتواه. وقد لحن لحنا حماسيا مؤثرا يرفع معنويات الجنود ويدفع بالشباب إلى الانضمام إلى الثورة والاعتزاز بها. فهو نشيد محارب بألفاظه ولحنه ومعانيه الوطنية ومعلوماته التاريخية التي تجعل الاستعمار في قفص الاتهام.

ألحان الفتوة

صدرت مجموعة أناشيد ألحان الفتوة لمحمد الصالح رمضان سنة 1953. وقد كتب عنها عدد من الكتاب ورحبوا بها لأنها لون من ألوان الأدب من جهة ولأنها نافذة جديدة للتعبير عن الوطنية والموقف السياسي. كتب عنها في جريدة البصائر الشيخ حمزة بوكوشة ومحمد الأكحل شرفاء وأبو القاسم سعد الله، وربما كتب عنه أيضا مولود الطياب في هنا الجزائر. أما كلمتي فقد نشرت بتاريخ 1954/13/12 بعنوان "اعزفوا ألحان الفتوة". وقد أعاد الشيخ رمضان طبع ألحانه سنة 1964 وقدم لها هذه المرة الشيخ علي مرحوم. وكانت كلمتي عنها متميزة بأسلوب أدبي- شعري، بينما كانت كلمة شرفاء عنها أكثر التصاقا بالواقع فتحدث عن صدق الناظم وجودة أناشيده الكشفية وعن النهضة الجزائرية على يد الإمام ابن باديس. أما كلمة الشيخ بوكوشة فكانت أدق تعبيرا عن ألحان الفتوة وأهميتها الأدبية والتربوية في إطار الحركة الوطنية والإصلاحية. فهي قبل كل شيء قصائد تربوية وطنية في إطار الرياضة والصحة الذهنية والبدنية. وقد كان صاحبها رمضان مرشدا كشفيا عدة سنوات.

الشبوكي ونشيد جزائرنا

وحياة الشيخ محمد الشبوكي لم تكتب بتفصيل حتى الآن حسب علمنا.

وتوجد بعض المعلومات عنه في عدة مراجع، منها: حديثه عن نشيد (جزائرنا) في جريدة المجاهد الأسبوعي المنشور في 30 نوفمبر سنة 1979، وأناشيد للوطن للأمين بشيشي.

ولد الشيخ الشبوكي في الثليجات بلدية الشريعة ولاية تبسة سنة 1916. حفظ القرآن العظيم صغيرا وواصل تعليمه في جامع الزيتونة إلى أن حصل على شهادة التطويع سنة 1942. ومنذئذ دخل ميدان التعليم عند جمعية العلماء، كما تولى إدارة المدرسة التي كان يعلم فيها. وفي سنة 1955 انضم إلى للثورة التي كلفته بالتوجيه والإعلام. وقد قبض عليه العدو أوائل السنة الموالية وتنقل على يديه بين عدة معتقلات سجون.

وقد تحدث بنفسه عن ظروف نظمه لنشيد (جزائرنا) في المرجع المشار إليه. وبناء عليه فقد كان قريبا من جبل الجرف الذي وقعت فيه المعركة ورأى الكثير من الجيش الفرنسي الذي جاء لسحق الثوار بعُدّته وعتاده، ولكن النصر كان حليف الثوار على قلتهم وضعف معداتهم. فكان هذا الانتصار دافعا للشاعر لنظم هذا النشيد الوطني الذي يفيض حماسة واعتزازا. وقد روى أن أحد الثوار اتصل به وطلب منه نظم نشيد يتغنون به في الميدان ويعتزون بمعانيه ولحنه. فسهر ليلته على هذا النشيد الخالد الذي شبّه فيه معركة الجرف بمعركة بدر الكبرى.

أناشيد مفدي زكرياء (ابن تومرت)

نشرت جريدة (المقاومة الجزائرية) نشيدا من نوع جديد عنوانه (بنت الجزائر)، وهو في تمجيد دور المرأة واستنهاض همتها وهمة الشباب للتضحية من أجل الجزائر وربطهم بماضيهم العربي والجهادي، فيقول الشاعر الثوري (ابن تومرت) على لسان إحدى المجاهدات:

أنـــا بنـــت الجـــزائـــر　　　أنـــا بـنـــت العـــرب

يـــوم نـــادى المنـــادي   ودعـــــا للكـفـــــاح
قـــد هجــرت سهـــادي   وتــــركــــت المـــزاح.
وبـــــدأت جـهـــــادي   وغـــــدوت الجنــــاح
أنبــــري لــــلأعــــادي   وأداوي الــجــــــــراح
أنـــا بنــت الـجــزائــــر   أنـــا بنـــت الـعــرب[1]

وفي نفس الفترة صدر (نشيد بربروس) لمفدي زكرياء أيضا، أي النشيد الذي نظمه في سجن سركاجي، كما يعرف محليا. وقد نشر النشيد في جريدة المجاهد التي حلت محل المقاومة الجزائرية ولكن دون ذكر اسم الشاعر. العدد 2، سنة 1956. ومطلع هذا النشيد:

يا ليل خيم، واعصفـي يا رياح   يا أفق دمدم، واقصفي يا رعود
يا دم شرشر، واثخني يا جـراح   يا غل صرصر، واحدقي يا قيود

ويتألف هذا النشيد من عدة مقاطع، وهو أيضا بدون توقيع، وكل مقطع منه ينتهي بعبارة: أنت يا بربروس[2].

وفي نفس العدد الثاني من(المجاهد) نشيد يبدو أنه لمفدي زكرياء ولكنه نشر بدون توقيع أيضا وعنوانه (أرض الجزائر في إفريقيا قدس)، يقول فيه:

سيـان عنــدي مفتـوح ومنغلــق   يا سجن بابك أم شدت به الحلق

(1) جريدة المقاومة الجزائرية، عدد 3، 3 ديسمبر 1956. انظر اللهب المقدس، مرجع سابق، ص 93. مع ملاحظة أن هناك فرقا في بعض الأبيات بين المنشور في المقاومة والمنشور في الديوان. وقد أعادت المقاومة نشر هذا النشيد في عدد 16، 3 يونيو 1957 مع اختصار لازمته، ويبدو أن الشاعر قد راجع قصائده المنشورة في المجاهد قبل طبع ديوانه، لذلك يلاحظ القارى المقارن أن هناك فرقا في بعض الكلمات والتعابير بين المنشور في الجريدة والمنشور في الديوان، مثلا في قصيدة اقرأ كتابك نجد كلمة بالنار أصبحت بالحق في قوله: إني رأيت الكون يسجد خاشعا *** للنار للرشاش إن نطقا معا، ص 67، والمجاهد 31 بمناسبة أول نوفمبر 1958.

(2) اللهب المقدس، مرجع سابق، ص 88.

وهو نشيد متوسط الطول موحد القافية يخاطب الشاعر فيه السجن الذي طالما هدّ كيان الوطنيين وكان رمزا للطغيان والتعسف.

أما قصيدة (أنا ثائر) لابن تومرت، فقد أضافت لها جريدة المجاهد عنوانا فرعيا هو (من أدب الثورة)، وجاء فيها :

ظلموني، واستباحوا الحرما   صحــــت وامعتصمــــا
لطموني، لم يراعوا الكرما

وقد انتهى النشيد بهذا المصراع :

أنا ثائر في الجزائر أنا ثائر   إن أمـت: تحيـا الجـزائـر[1].

ولابن تومرت أناشيد أخرى منها تحية العلم الوطني، ونشيد العمال، ونشيد الطلبة، وغيرها ومجموعها حوالي عشرة أناشيد.

كما حظي الطلبة بنشيد خاص من ابن تومرت، وهو نشيد يتألف من أربع قفلات. ويبدو أن الشاعر أعده بمناسبة انعقاد المؤتمر الرابع للطلبة المسلمين الجزائريين في تونس (1960). فقد جاء فيه تمجيد قوي لدور الطلبة في الثورة وفي بناء الجزائر المستقلة :

نحــن طــلاب الجـزائــر   نحــن للمجــد بنـــاة
نحــن آمـــال الجــزائــر   فـي الليــالـي الحـالكـات
كـم غـرقنـا فـي دمـاهـا   واحتـرقنـا فـي حمـاهـا
وعبقنـا فـي سـمـاهـا   بعبيـــر المهجـــات[2]

وعقب نشيد من جبالنا ظهر نشيد (قسما) الذي وضعه مفدي زكرياء سنة

(1) المجاهد 44، 14 يونيو 1959. ويذهب الجابري إلى أن اسم ابن تومرت كان يوقع به أحد الأدباء الجزائريين في تونس، وهو محمد العريبي، وبعد وفاته أصبح يوقع به مفدي زكرياء. الجابري، النشاط الثقافي والعلمي... في تونس.
(2) المجاهد 74، 8 أغسطس 1960.

1955 على الأغلب. وهو نشيد نموذجي تمثل مبادى الشاعر فيه الثورة وعظمتها فعبر عن أهدافها بلغة قوية وحماس مزلزل مستوحى من حب الوطن وتجربة الشاعر السياسية وبغضه للاستعمار. ذلك أن مفدي زكرياء كان قد دخل ميدان السياسة ومارسها مبكرا وانتصر لحزب الشعب وزعيمه مصالي الحاج. وله صلات بالقادة السياسيين في المغرب العربي عموما. وقد دخل السجن وتعرض للقمع في سبيل هدفه الوطني. فلا غرابة أن ينفجر حماسه للثورة وأن يتميز تعبيره عنها بالصدق والتلقائية والقوة والفخامة، ومنه هذا المقطع:

نحن جند في سبيل الحق ثرنـا   وإلى استقلالنا بالحرب قمنـا
لم يكن يصغى لنا لما نـهضنا   فاتخـذنا رنة البـارود وزنـا
وعزفنا نغمة الرشـاش لحنـا   وعقدنـا العزم أن تحيـا الجزائر

فاشهدوا . . .

وهو نشيد من عدة مقاطع ينتهي كل مقطع منها بعبارة: فاشهدوا . . . وقد جاء في مقدمة النشيد أنه "النشيد الرسمي للثورة الجزائرية وأنه من تلحين الفنان المصري محمد فوزي[1]. وبعد الاستقلال صادق الجزائريون على أن يكون "قسما" هو النشيد الرسمي للدولة.

وقد بقي ميدان الأناشيد مفتوحا في وجه الشعراء الشباب أيضا. فنظم عدد منهم أناشيد لا تقل حماسة وقوة عن الشعراء المخضرمين. وكان الموضوع دائما هو الثورة أو حدث من أحداثها أو بطل من أبطالها. وتختلف أناشيد الشعراء الشباب قوة وضعفا حسب نضج التجربة الشعرية عند كل منهم. أما الحماس والصدق فكلهم كانوا مدفوعين برغبة صادقة في التعبير عن الثورة

(1) مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، المكتب التجاري، ط 1، بيروت، 1961، ص 71. أنظر عن تاريخ قسما وظروف نظمه وتلحينه كتاب أناشيد للوطن للأمين بشيشي، الجزائر، 1998، ص 343-357. جاء في الديوان أنه نظم في سجن سركاجي في 25 أبريل 1955 في الزنزانة رقم 69.

والاعتزاز بها وكأنهم اكتشفوا فيها وطنهم، بل هم في الواقع اكتشفوا فيها أنفسهم. ومن هؤلاء عبد السلام حبيب وأبو القاسم خمار ومحمد الصالح باوية وصالح الخرفي وأبو القاسم سعد الله. . .

الشعر الثوري

نقصد بالشعر الثوري كل الشعر الذي يمجد الثورة ويحيي مآثرها ويتحدث عن المجاهدين ومعاركهم ضد العدو، ويصف ما حل بالشعب من تشريد واضطهاد، كما يتحدث أصحابه عن إنجازات الثورة على المستويين الداخلي والخارجي. والواقع أن القصائد الثورية والأناشيد الوطنية قد حلت منذ الثورة، محل الشعر السياسي والإصلاحي والوطني بالمعنى القديم. وقد تحدثنا عن الشعر الثوري في شعرائه أنفسهم، أي في تراجم الشعراء الذين احتضنوا الثورة سواء كانوا من الجيل المخضرم أو من الجيل الجديد.

محمد الشبوكي

عاش الشبوكي الثورة بكل جوارحه فأوحت إليه بعدد من القصائد التي تفيض فخرا ووطنية. ومنها لبيك يا ثورة الشعب. كما احتفل بميلاد الحكومة المؤقتة بقصيدة أخرى سماها دولة الشعب. وله قصيدة في الشباب والمستقبل، وأناشيد أخرى غير التي ذكرناها[1].

وبعد الاستقلال تولى الشيخ الشبوكي رئاسة بلدية الشريعة، كما تولى وظائف أخرى في الدولة. ولم ينشر شعره في ديوان على حد علمنا. ويبدو أنه مقل في الشعر وزاهد في الشهرة، كما أنه ملتزم بالشعر الوطني[2].

للشبوكي شعره رقيق ينحو منحى الرومانسية ويبعث على التأمل في الحياة

---

(1) أحمد دوغان، شخصيات. . . ص 141-148.

(2) محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، ص679، وقد أشار هذا المرجع أيضا إلى جريدة النصر بتاريخ 16 أكتوبر 1982

والناس، وهو يهتم بالمعاني والجزالة، ويسجل الحدث وما يستتبعه من المكان والظروف والنتائج، كما أنه شعر متفائل بالمستقبل، ولا سيما بالشباب والثورة.

وإليك أبياتا من قصيدته في الشباب المحب للحرية وإباء الضيم والثورة على القيود:

فهو يبغي الحياة حرا ويأبى ذلة العيش تحت عبء القيود
ثائر يملأ الوجود كفاحا وينير الحياة بالتجديد
صادح يملأ الفضاء لحونا ويهز الحياة بالتغريد
قلبه خافق يؤججه الشعر فيهفو إلى جمال الوجود
عزمات الشباب فيض من النـ ـور وموج من الكفاح الشديد
يتحدى الأحداث مهما ادلهمت ويلاقي الردى بقلب صمود

أما ميلاد الحكومة المؤقتة (1958) فقد استقبله بقصيدة جاء فيها:

فرح القلب بعد طول اكتئاب وحداني في الهوى وعاد شبابي
فدعوني لنشوتي يا رفاقي واعذروني في صبوتي يا صحابي
دولة الشعر يا بشائر فجر قدسي بدا وراء السحاب
فارفعي الراية الحبيبة في القطر فإنا لنجمها في ارتقاب

وفي قصيدة (لبيك يا ثورة الشعب) يذكر الشبوكي عددا من الأمكنة التي شهدت أحداث الثورة، فيقول:

لبيك يا ثورة الشعب التي زحفت تطهّر الأرض من رجس المناوينا
تلك الدماء الزاكيات سقت (عدوان والجرف والزرقا ونقرينا)
جادت بها نخبة باعوا نفوسهم لله والوطن المحبوب راضينا
دوّت بنادقهم في كل ناحية فارتاع من هول لقياهم أعادينا[1]

---

(1) أحمد دوغان، شخصيات...، ص 140-141. البيت الأول من قصيدة الحكومة المؤقتة فيه خلل لم نستطع إصلاحه، وعدوان والجرف ونقرين والزرقا أسماء لأماكن في ناحية تبسة. وقد توفي محمد الشبوكي سنة 2005.

مفدي زكرياء (ابن تومرت)

يعد مفدي زكرياء بحق أبرز الشعراء في عهد الثورة وأقواهم صوتا من الجيل المخضرم. فبعد سكوت طويل ما تزال أسبابه مجهولة ظهر في صحافة الثورة وفي نشيد (قسما) على أمواج الأثير، وفي المحافل الأدبية في المشرق والمغرب العربي، باسم ابن تومرت (وهو لقب محمد بن تومرت مؤسس دولة الموحدين). والواقع أن عودة ظهور مفدي زكرياء بدأ بقصيدة دار الطلبة (1953) ثم بقصيدة الاحتفاء بذكرى نفي أحمد توفيق المدني (1955). ولكن ظهوره على مسرح الثورة بدأ بنشيد (قسما) عشية مؤتمر الصومام حين التقى به بعض قادة الثورة وطلبوا منه وضع نشيد يتغنى به المجاهدون وترده الإذاعات التابعة لجبهة التحرير ليكون محرضا على خوض المعارك وتحمل المشقة في سبيل الهدف الوطني النبيل وهو تحرير الجزائر[1].

ومهما كان الأمر فإن حياة مفدي زكرياء الاجتماعية والحزبية قبل الثورة موجودة في عدة دراسات فلا حاجة إلى تكرارها هنا. وحتى الآن لا نعلم بالضبط متى انضم إلى الثورة ومع من كانت مشاعره في البداية، هل عاش مثل كثير من الحزبيين مرحلة المساءلة أو اندفع إلى الميدان بدون تردد. هل كان مصاليا وتحول، أو كان مركزيا وتحول أيضا، أو كان ثوريا وكفى منذ البداية؟ لم نجد من أجاب على هذه الأسئلة عند الذين تناولوا حياته الأدبية. فهم يبدءون بالقول بأنه اعتنق الثورة ونظم لها نشيد (قسما) وقصّد القصائد في أبطالها وأحداثها. وعلى كل حال فقد تبنت المقاومة ثم المجاهد نشر قصائده الثورية.

والواقع أن (المقاومة الجزائرية) هي التي سبقت إلى نشر قصائده. ومنها قصيدته الصادرة في 15 نوفمبر 1956 في رثاء أحمد زبانة الذي أعدمته

(1) يذكر الشاعر في ديوانه اللهب المقدس أنه نظم قسما في السجن سنة 1955، ولكننا نجده قد شارك بنفسه في إلقاء قصيدته في حفل توفيق المدني في شهر يونيو من السنة المذكورة. ولعل الخطأ وقع في السنة فبدلا من 1956 كتبت 1955

السلطات الفرنسية بالمقصلة. وقد نشرت القصيدة غير موقعة لا باسمه الحقيقي ولا باسمه المستعار. وهي القصيدة التي احتلت صفحة كاملة من الجريدة، ومطلعها:

قام يختال كالمسيح وئيدا   يتهادى نشوان يتلو النشيدا

وهي من عيون شعر مفدي زكرياء في الثورة بل من عيون الشعر العربي الثوري التي سارت بها الركبان. وبقدر ما أثارته القصيدة من مشاعر الفخر والعطف والشفقة على زبانة بقدر ما فجرته من مشاعر الغضب والانتقام في نفوس الثوار والشباب. وكنا قد قرأنا هذه القصيدة في القاهرة فاشتعل الطلبة سخطا على الاستعمار، وأصبحت من محفوظاتنا ومن أحاديث مجالسنا.

قبض الفرنسيون على زبانة يوم 8 نوفمبر 1954 بعد إصابته بجروح وأودعوه سجن بربروس (سركاجي) بالعاصمة. ثم أصدروا ضده حكما عسكريا بالإعدام يوم 18 يونيو 1956. وقد أعدم فجر اليوم التالي رغم نداءات مفتي الجزائر والحبر الإسرائيلي وأسقف الجزائر ورئيس الكنيسة الإصلاحية، حسبما جاء في جريدة المقاومة. وكان زبانة يردد، وهو يقاد إلى المقصلة، نشيد (أعصفي يا رياح) الذي كان يردده معه 3000 سجين من المناضلين في نفس السجن. وقد قدمت الجريدة للقصيدة بمقدمة طويلة ختمتها بقولها: " وهاكم قراء (المقاومة) هذا القصيد العظيم الذي اتصلنا به أخيرا من شاعر جزائري تسجيلا لاستشهاد هذا البطل الخالد. ألا في سبيل التحرير يطيب الفداء، وفي تمجيد التضحية والبطولة يحلو النغم ويسمو النشيد".

ثم توالت قصائد ابن تومرت في جريدة المجاهد بعد اختفاء جريدة المقاومة. فنشرت له الأولى قصيدة (وتكلم الرشاش..) وجعلت لها عنوانا فرعيا هو (من وحي ذكرى 5 جويلية)، وتعني به ذكرى احتلال الجزائر سنة 1830. وهي أيضا من القصائد الطوال ومن عيون شعر الثورة. وقد أورد فيها الشاعر إشارات تاريخية كحادثة المروحة، واليهودي المرابي بوشناق، ومسألة

الحبوب، والديون التي كانت من بين أسباب الاحتلال الفرنسي للجزائر. ومطلع القصيدة:

أكباد من ؟ هـذي التي تتفطـر ... ودماء من؟ هذي التي تتقطر
وقلوب من؟ هذي التي أنفاسهـا ... فوق المذابح للسما تتعطـر[1]

وفي آخر هذا العام نشرت لابن تومرت قصيدة أخرى بعنوان (أهدافنا في العالمين صريحة)، وتحتها (قصيدة للشاعر الجزائري ابن تومرت) بدايتها:

ديغـول يعلم مـا نريـد ويفهـم ... مـا بالـه حيـران لا يتكلـم
فقَدَ الصراحةَ أم أضاع فصاحة ... أم أن تقـريـر المصير تـوهـم

وهي ليست من القصائد الطوال، أما موضوعها فواضح من البيت الثاني[2].

كما أضافت المجاهد عنوانا فرعيا وهو (من أدب الثورة) لقصيدة أخرى "للشاعر الثائر ابن تومرت" حسب تعرير المجاهد. وبداية هذه القصيدة القوية التي جاءت على غرار قصيدة رثاء أحمد زبانة السابقة:

نطق الرصاص فما يباح كلام ... وجرى القصاص فما يتاح ملام
وقضى الزمان فلا مرد لحكمه ... وجرى القضاء وتمت الأحكـام
وسعت فرنسا للقيامة وانطوى ... يوم النشور وجفـت الأقـلام

وهكذا استمر الشاعر على هذا الوزن والقافية بألفاظ محكمة مستمدة من معاني القرآن وأحكام الشريعة وبأسلوب فيه تهديد ووعيد كأن صاحبه جبار مُقْدم على تنفيذ عقوبة صارمة ضد مجرم يستحق العقاب الأليم. فالقصيدة، كما ترى، من عيون الشعر الثوري المعاصر، ومن وحي الثورة التي كانت تتقدم بخطى ثابتة نحو هدفها رغم العراقيل وجبروت العدو[3].

---

(1) المجاهد 29 يونيو 1959.
(2) المجاهد 5، 15 ديسمبر 1959.
(3) المجاهد أول نوفمبر 1959، عدد خاص بذكرى الثورة.

وختم ابن تومرت سنة 1959 بقصيدة نحى فيها باللائمة على هيئة الأمم المتحدة لخذلانها القضية الجزائرية حين عرضت عليها أرضاء لفرنسا وخضوعا لأمريكا والغرب، قائلا (لا نرتجي العدل من قوم سماسرة)، ومضيفا:

أكذوبة العصر أم سخرية القدر ... هذي التي أسست في صالح البشر
أم أن "لوزان" في الأحياء قد بعثت ... بحفل "نويورك" ما أفضى إلى سقر[1]

وحين حل عام 1960 خاطبه ابن تومرت بقصيدة متسائلة عما يخبئه للجزائر ومستقبلها. وعنوانها: (ما ذا تخبؤه يا عام ستينا)؟[2].

وله قصيدة عبر فيها عن خيبة أمله في السياسة واعتبر السياسيين لصوصا، ودعا فيها إلى الكفاح في ساحة الشرف لأن السياسة قد تنفع مع أناس متحضرين، أما السياسيون الذين تتعامل معهم الثورة فهم في نظره لصوص لا يستحقون إلا الحرب إلى آخر رمق. ولذلك دعا المغترين بالسياسة(ويقصد بها في الغالب المفاوضات مع الفرنسيين) إلى التخلي عن هذا النهج لأنه من أضغاث الأحلام، حتى أنه اختار عنوان القصيدة (ذروا الأحلام) وخاطب فيها قلبه أو عقله قائلا:

أضرّ به معذّبه فثارا ... وأرهقه مسخره فطارا
رأى طرق السياسة شائكات ... ففضل ساحة الشرف اختصارا
ولا تجدي السياسة مع لصوص ... تسترّ بالدجى تخشى النهارا[3]

وحين فجرت فرنسا القنبلة الذرية في صحراء الجزائر سارع ابن تومرت

---

(1) المجاهد58، 28 ديسمبر 1959، وهو يشير بالبيت الثاني إلى أن مآل هيئة الأمم قد يكون هو مصير عصبة الأمم في لوزان والتي انهارت بعد أن داس عليها هتلر وموسولني.
(2) المجاهد 59، 11 يناير 1960.
(3) المجاهد 60، 25 يناير 1960.

بتسجيل الحدث الخطير كما سارعت المجاهد بنشر القصيدة السباعية الأبيات ذات الأغصان والقفلات. وقد تحدث فيها عن أثر القنبلة على الأطفال. خصوصا أولئك الذين قد يولدون عميانا. وعنوانها يدل على ذلك وهو (ابن القنبلة الذرية):

ما دهاه ويل أمه ما دهاه ... ويلتاه من جيله ويلتاه

ما له في الحياة يولد أعمى ... لم تر الكونَ باسما مقلتاه[1]

كان الشاعر مفدي زكرياء يتابع أحداث الثورة بتفاصيلها وينفعل معها بكل جوارحه فإذا بالمستوطنين في العاصمة، وهم أنصار "الجزائر فرنسية،" قد تمردوا على حكومتهم ونادوا بسقوط رؤسائهم، فاستغرب كيف يتمرد "العصاة على العتاة" ورأى أن رؤوس العتاة قد طأطأت لهذه العصابة فقال:

ما للعصابة في الجزائر مالها ... ما للجبابر ساجدون حيالها

ما للعصاة على العتاة تمردت ... فغدت تصب على الرؤوس نكالها[2]

خرج مفدي زكرياء من الجزائر في شهر مارس سنة 1959. ومنذ فبراير 1960 لم نعد نقرأ له شعرا في المجاهد. يقول بعض الباحثين إن له قصائد في المجلات والجرائد التونسية، مثل الصباح، والفكر، والإلهام، والإذاعة... ويبدو أنه استمر في هذا النشاط إلى 23 نوفمبر 1961[3].

ويمكن القول إنه بعد خروجه من الجزائر ومروره بتونس توجه إلى المشرق العربي، وهناك أصبح معروفا بشاعر الثورة ووجد سمعته قد سبقته إلى المشرق. وقد انفتحت أمامه أبواب الشهرة والظهور على منصات الشعر في المهرجانات الأدبية، فغنى لها قصائد وضرب على أوتارها اسم الجزائر حتى

---

(1) انظر المجاهد 62، 22 فبراير 1960، انظر ركيبي، دراسات في الشعر الجزائري الحديث فقد درس هذه القصيدة وقارنها بأختها لصالح خرفي.

(2) المجاهد 61، 8 فبراير 1960. وقد وقع التمرد يوم 24 يناير.

(3) الجابري، النشاط العلمي، مرجع سابق، ص 393.

ثمل. وفي بيروت نشر ديوانه اللهب المقدس عام 1961 وهو في تمام النشوة والمجد الأدبي[1].

مواضيع أخرى لمفدي زكرياء

وفي نفس الوقت تناولت المجاهد موضوع الأدب، وهو الموضوع الذي بقي مهملا منذ سنة 1958 تقريبا. ولا غرابة أن تهتم المجاهد بالشعر السياسي الثوري بالدرجة الأولى لأنه يخلد الشهداء ويسجل البطولات ويرفع المعنويات بالتحميس والتحريض على النضال. وقد فتحت صفحاتها لهذا اللون من الشعر سواء قاله جزائريون أو عرب المشرق[2].

وبعد الاستقلال عاش مفدي زكرياء للتجارة وشعر المدح لزعيم تونس بورقيبة وملك المغرب محمد الخامس وابنه الحسن الثاني، فأصبح يلقب بشاعر المغرب العربي. كما نظم ملحمة نضال الشعب الجزائري التي أسماها (إلياذة الجزائر). ولم يكن مفدي على وفاق مع النظام الجزائري دون سبب واضح، هل هو الإيديولوجية السياسية أو النقمة الشخصية لكون النظام لم يقدر مكانته حق قدرها. وقد توفي بتونس في 17 أغسطس 1977، ودفن في مسقط رأسه (بني يسجن).

ساهم شعراء الجزائر أيضا في انتصار الشعوب الأخرى على الاستعمار وغنوا لها وشاركوها فرحتها بالحرية والنصر ووعدوها بلحاق الجزائر بركبها. فعند حصول تونس على استقلالها هنأ الشاعر مفدي زكرياء شعب تونس بانتصارها واعتبر استقلالها مقدمة لوحدة المغرب العربي الذي سيتحقق بعد استقلال الجزائر أيضا. والقصيدة قالها بمناسبة الذكرى الرابعة لاستقلال تونس، وجاء فيها:

---

(1) انظر أيضا الأمين بشيشي، أناشيد للوطن، ومحمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، وصالح الخرفي، الشعر الجزائري الحديث.

(2) عواطف عبد الرحمن، الصحافة العربية، مرجع سابق، ص 140-141.

في مثل يومك تكرم الأعياد وبيوم عيدك يعذب الإنشاد
المغرب العربي أنت جناحه حرّكْ جناحك يصعد المنطاد
ولتشهد الدنيا هنالك وحدة جبارة تفتح لها الآباد
شعب الجزائر قام يبني صرحها بدمائه، والحادثات شداد[1]

كما شارك مفدي زكرياء أهل المغرب الأقصى في استقلالهم وهنأ الملك بالنصر. وحين تعرض المغرب للزلزال عزى أهله، وقد وقع الزلزال في أغادير عام 1960، وعنوان قصيدته (أغادير الشهيدة)، وقد نوع قوافيها وعزى بها من أسماهم "حماة المغرب":

اضطرب يا بحر واخفق يا فضا واحتدم يا خطب وانزل يا قضا
وارجفي يا أرض أو لا ترجفي أنا في المحنة لا أدري البكا

ويظهر الشاعر في هذه القصيدة ناظما فقط، لأن عنصر الصدق يعوزها كما أن عاطفتها ضعيفة ولغتها تقليدية ولا ترقى إلى شعره المعروف بالتوتر والشحنات المتفجرة كما في قصائده الثورية ولا حتى في مستوى شعره الذي قاله في الملكين محمد الخامس والحسن الثاني[2].

يقول مفدي زكرياء في مقدمة ديوانه اللهب المقدس إنه لم يكن يهتم بالصنعة والجمالية بل كان يهتم بالتعبئة الثورية وتصوير وجه الجزائر الثائرة كما هي. (أنظر مقدمة الديوان). وترى أنيسة بركات أن أبرز الممثلين للحياة الاجتماعية بكل مآسيها هم مفدي زكرياء والخرفي وخمار. ولعلها تقصد تصويرهم لحالة التشريد والقمع الذي عاشته الجزائر أيام الثورة.

لقد كان مفدي زكرياء في سجن البرواقية سنة 1957، وله قصيدة قالها عندئذ في الذكرى الثالثة للثورة مطلعها:

---

(1) المجاهد 64، 21 مارس 1960. لاحظ أنه لم يأت فيها على ذكر الرئيس بورقيبة، كما أنها من قصائده القصار.

(2) المجاهد 63، 7 مارس 1960.

دعا التاريخ ليلك فاستجابا (نوفمبر)، هل وفيت لنا النصابا

ويقول خرفي في ديوانه أطلس المعجزات:

بايعت من بين الشهور نوفمبرا ورفعت منه لصوت شعبي منبرا

ومن الشعراء الذين التزموا بالثورة منذ انطلاقتها وأشادوا بالمجاهدين عبد السلام حبيب وصالح باوية وأحمد معاش وبلقاسم خمار وسعد الله الذي قال في استقبال نوفمبر:

كان حلما واختمار

كان لحنا في السنين

أن نرى الأرض تثور

وقد نشر سعد الله أيضا نشيد (بربروس) في مجموعته (النصر للجزائر) الصادرة سنة 1957 بالقاهرة، وتوقع له نفس مصير الباستيل.

ولمعاش قصيدة في معركة (تارشوين) جاء فيها:

خلدي المجد واحفظي الشهداء واذكري النار والردى والدماء[1]

محمد الصالح باوية

ولد في بلدة المغير، ولاية الوادي، سنة 1930. وبعد حفظ القرآن والدراسة الابتدائية في مسقط رأسه توجه إلى معهد عبد الحميد بن باديس بقسنطينة حيث حصل على الشهادة الأهلية 1952. ومنه انتقل للدراسة في جامع الزيتونة بعض الوقت. ثم توجه في بعثة جمعية العلماء إلى الدراسة في الكويت حيث قضى أربع سنوات وتحصل على الثانوية سنة 1957 في العلوم. وفي السنة الموالية التحق بكلية العلوم في سورية. وبعد حصوله على الليسانس ذهب

(1) أنيسة بركات، محاضرات ودراسات... ص 69-70، أنظر كذلك سعد الله، النصر للجزائر، القاهرة، 1957.

للدراسة في يوغسلافيا حيث التحق بجامعة بلغراد ودرس الطب وحصل على الدكتوراه 1968، وارتبط بسيدة يوغسلافية. وكان باوية ينشط ضمن اتحاد الطلبة وجبهة التحرير طيلة مرحلة الدراسة في الكويت وسورية ويوغسلافيا. وفي الجزائر درس الجراحة ودخل عضوا في اتحاد الكتاب. وقد مارس طب العظام في مستشفى الدويرة ثم البليدة وانفصل عن السيدة اليوغسلافية التي أنجب منها بنتين، وتزوج من جزائرية. وقد عاش محنة الجزائر في التسعينات من القرن الماضي فاختطف ولم يعرف مصيره. وله ديوان بعنوان (أغنيات نضالية) قدمه له صديقنا الدكتور محمود الربيعي، 1971. ومنه قصائد ثورية.

في سنة 1957 كنت في القاهرة أعد مادة بحثي عن الشعر الجزائري الحديث فاستكتبت عددا من الشعراء ومنهم الشباب الذين عرفت أو سمعت أنهم كتبوا شعرا عن الثورة. وكان باوية من الذين راسلتهم. فأرسل إلي الرد من سورية بتاريخ 8 أوت 1957. وقد تضمنت أسئلتي الموجهة له ولغيره هذه النقاط:

متى بدأ قول الشعر، ما منابع شعره، رأيه في الشعر الحديث، موضوعات شعره، إحساسه نحو الجزائر.

وفي رده على هذه النقاط أورد باوية سيرته ونماذج من شعره الثوري. ومن هذا الشعر ما هو قومي عربي مثل قصيدته (أتحدى...) التي قالها في معركة قناة السويس، وقد شجب فيها مواقف بعض القادة العرب مثل نوري السعيد وكميل شمعون. وهي قصيدة طويلة متنوعة القافية. كما أن له قصيدة قومية أخرى وهي عن فلسطين والقضية العربية عامة وهي من الشعر الحر وعنوانها (الصدى- إلى طفلة...).

أما قصيدته (الثائر) فقد ألقاها في سورية في يوم إضراب لنصرة الجزائر، يوم 28 أكتوبر 1956، وتقول:

دمدم الرعد وهزتنا الرياح حطموا الأغلال وامضوا للسلاح

وفي المراسلة قال لي باوية إنه بدأ نظم الشعر سنة 1950 في مسقط رأسه (المغير)، وإنه مقل في قول الشعر حتى أنه لم ينظم سوى اثنتي عشرة قصيدة خلال ست سنوات، نصفها غير صالح للنشر، حسب قوله.

لباوية ديوان شعر كما قلنا. وأذكر أنه قصدني مع الأستاذ عبد الرزاق قسوم، لكتابة المقدمة لديوانه (أغنيات نضالية) فاعتذرت له لأسباب، فكان من حسن حظه أن قدمه له الدكتور محمود الربيعي الناقد المصري المعروف، وهو زميل لي وصديق عريق تخرجنا معا من كلية دار العلوم بالقاهرة. وقد تضمن ديوان باوية شعرا عموديا وشعرا حرا. ويبدو أنه توقف عن قرض الشعر كما توقفت، وتفرغ لمهنة الطب والعائلة. وكان باوية دمث الأخلاق متواضعا أديبا بالطبع إنساني المشاعر جميل الدعابة، وكان الدكتور أبو العيد دودو من أصدقائه فإذا اجتمعا فالسمر معهما يتشعب ويحلو.

حلل عبد الملك مرتاض قصيدة (ساعة الصفر) لباوية تحليلا لغويا وجماليا ونفسيا. وأبدى إعجابه بالقصيدة لأنها في نظره موفقة كل التوفيق في وصف انفجار الثورة التحريرية حتى كأن صاحبها كان شاهد عيان لما حدث وكان متفاعلا معها ومنفعلا بها رغم أنه كتبها بعد مرور أربع سنوات عليها. لقد خصص لها مرتاض الفصل الثامن كله من الجزء الأول. وهي من الشعر الحر:

الصمت والمدى والريح . . .

تذري رهبة الأجيال في تلك الدقيقه

قطرات العرق الباني: نداء

وسلال مثقلات بالحقيقه

الأسارير أخاديد مطيره

ثورة خرساء، أهوال مغيره

لون عمق يتحدى في جزيره...

وهكذا تستمر القصيدة في التصعيد حتى تصل إلى لحظة الصفر وميلاد الحقيقة[1].

عبد السلام حبيب

يمكن أن نعد عبد السلام حبيب من شعراء الجزائر في المهجر- سورية. كان في عنف شبابه حين انطلقت الثورة. هاجر جداه لأبيه وأمه مع الأمير عبد القادر إلى بلاد الشام. وولد هو سنة 1918 لأبيه محمد الحبيب المهر، وأمه زينب بنت البشير بن يخلف، وكلاهما من معسكر. ودرس الثانوية في دمشق واهتم بقضية الجزائر منذ حوادث الثامن مايو 1945. ولما انطلقت الثورة اندمج فيها بعاطفة جياشة كما اندفع ينظم فيها الشعر ويتعاطى الخطابة. فأسس جمعية دار الجزائر وأدار بواسطتها المظاهرات الداعمة للثورة والاحتفالات والأسابيع الخاصة بنصرة الجزائر.

وبعد الاستقلال عبر الشاعر عن فرحته في أشعار أخرى، وزار بلاد أجداده سنة 1966 ضمن وفد من الجزائريين الشاميين ساعة إعادة رفات الأمير عبد القادر من دمشق إلى الجزائر. ثم رجع إلى دمشق حيث توفي، فاتح مايو 1980 ورك بنين أكبرهم اسمه (أوراس).

شعر عبد السلام حبيب تميز بالحماس والصدق والوطنية والروح القومية والوجدانية. له ديوان صغير عن الثورة عنوانه (اذكريني يا جزائر). سجل في شعره وقائع الثورة وتابع أحداثها وتشوق إلى بلاده الأصلية التي لم يكن قد رآها

(1) عبد الملك مرتاض، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر: 1830-1962، رصد لصور المقاومة في الشعر الجزائري، ج1. منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، دار هومة، الجزائر، 2003، ص 393-423. وكذلك محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، ص 670. وهناك مراجع أخرى لا تضيف الكثير عن حياة باوية وشعره.

وإنما سمع عنها من المهاجرين، واعتبر ذلك أضعف الأيمان[1].

كنت التقيت بالشاعر عبد السلام حبيب عدة مرات في القاهرة وأنا طالب فيها خلال الخمسينات. وأول لقاء لي به كان في مسكن الأخ رابح التركي، وقد تهادينا الإنتاج. أهداني هو قصيدته (نداء الدم) التي طبعها على حدة، وأهديته مجموعتي (النصر للجزائر) فأشاد بها في مراسلة وصلتني منه من دمشق. كما أشاد بوفد جبهة التحرير بدمشق، والغالب أنه كان يعمل لصالح الثورة بالتنسيق مع الوفد الذي كان على رأسه عبد الحميد مهري. وقد أجابني على الأسئلة التي وجهتها إليه عندما عزمت على الكتابة عن الشعر الجزائري وهي: متى بدأ قرض الشعر؟ وما منابع شعره؟ ورأيه في مسألة التأثر والتأثير؟ ورأيه في الشعر الحر؟ ومواضيع شعره؟ وكانت إجابته هامة لأنه تعرض فيها إلى ثروة أدبية لم تأت في إجابات الشعراء الشباب الآخرين. وصلني كتابه بتاريخ 21 مايو، 1957. كما وردت علي منه مراسلة أخرى بتاريخ 4 سبتمبر من نفس العام علق فيها على قصيدتي (ربيع الجزائر) التي نشرتها مجلة (الهدف) اللبنانية، ووعدني بإرسال أشعار لمحمد صالح باوية وأبي القاسم خمار وعبد الرحمن العقون. كما تحدث فيها عن شعره هو.

أرسل إلي مجموعة من الأشعار التي نشرها في الجرائد السورية في موضوعات مختلفة، وهي مصر وفلسطين والجزائر، وكذلك مجموعة من الأناشيد. بعض هذه الأشعار عبارة عن قصائد طوال ومقفاة قيلت في مهرجانات، منها واحدة ألقيت في مهرجان عن الجزائر في جامعة دمشق. لكن القصائد بدون تواريخ، كما لا توجد معها عناوين الجرائد التي نشرت فيها ما عدا واحدة نشرت في جريدة (الرأي).

---

(1) مقالة عنه لمحمد بن سمينة الذي عرفه في دمشق، مجلة الراصد العدد الأول، يناير-فبراير 2002، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، الجزائر، ص 46-47. وكذلك في البصائر، 17-24 أكتوبر، 2005

وأما قصيدته الهامة (نداء الدم)، فهي التي أهداها إلى أرواح الشهداء الأبرار.. إلى "أبطالنا.. الرابضين على قمم أوراس ومعاقل قسنطينة ومشارف وهران وعلى كل بقعة من أرضنا العربية الطاهرة: الجزائر". وقد أهدى إلي بقلمه هذه القصيدة قائلا بأسلوب أهل الشام: "أخي أبا القاسم، ولدت بعيدا عنها، عن الجزائر الحبيبة، ولم تكتحل عيناي بمرآها، ولكني باسمها أهزج وأشدو، وباسمها عربية حرة مستقلة أقدم لك نداء دمي."(1)

وأضاف عن القصيدة نفسها بأنها ألقيت على مدرج الجامعة السورية في حفل افتتاح أسبوع الجزائر في 25 آب/ أوت 1956 وبدايتها:

إلى ساح الكرامة يا جزائر مضوا فمناضل في إثر ثائر(2)

وهناك مراسلة أخرى منه بتاريخ 4 سبتمبر، 1957 وصف فيها حضور الجزائر في معرض دمشق، وقد جاء فيها: " تحية طيبة.. وبعد، فإني اكتب إليك وقلبي مفعم بالغبطة والفخر.. فلقد نجح الجناح الجزائري في معرض دمشق نجاحا منقطع النظير.. ليتك كنت بيننا لترى ألوف الزوار من عرب وأجانب من مختلف البلدان يتزاحمون على مدخل الجناح للدخول..(3)

أبو القاسم خمار

عندما راسلت أبا القاسم خمار ليرسل إلي نبذة من حياته وبعض شعره لأستعين بها على دراستي عن الشعر الجزائري الحديث، كاتبني من شمال سوريا وهو في طريقه -كما قال- للتدريس، وقال إن قصائده طويلة ومملة وليس له القدرة الآن على كتابتها من جديد وأن بعضها مهمل في الأوراق.

كان عمر خمار اثني عشر عاما عندما نطق بالشعر (ولد سنة 1931 في

---

(1) المراسلة بتاريخ 23 مايو 1957.

(2) يقع المطبوع من القصيدة في كراس من 16 صفحة، مطبعة الوعد، بدمشق.

(3) أوراقي -مراسلات الشاعر عبد السلام حبيب، 1957.

بسكرة) على حد تعبيره، دون معرفة ما إذا كان ما نطق به شعرا. كان قد مل الدراسة في المساجد (دخل الجامع وعمره ست سنوات) وأراد الدخول إلى المدرسة بدل المسجد. التقى بأحد أبناء المدارس وكان ينشد نشيدا وطنيا فسأله فعرف منه أنه تلميذ في مدرسة لجمعية العلماء، وأخبره عن حياة المدرسة وما فيها من علم وجلوس على الكراسي والكتابة على الدفاتر. فتاقت نفسه إلى الدخول إلى المدرسة أيضا ليكون كصاحبه. وكان سكان بسكرة -حسب قول خمار- لا يتجاوزون الأربعين ألف نسمة. فاتح أباه في دخول المدرسة ولكن والده، وكان شيخا يحفظ القرآن الكريم ومبادى الدين، لم يأذن له في دخول المدرسة عندئذ، وكان عليه أن ينتظر ثلاث سنوات.

بدأ خمار بنظم القصائد النبوية على غرار البردة والهمزية للإمام البوصيري. وبعد نيله الشهادة الابتدائية في بسكرة في مدرسة تابعة لجمعة العلماء توجه إلى معهد ابن باديس. وكان طلاب المعهد يتدربون على النشاط الأدبي بالانتماء إلى لجان محددة حسب ميول كل طالب، فدخل خمار اللجنة الخطابية، فكان ينظم القصيدة ويلقيها أمام الطلاب، فاجتمع له من ذلك حوالي عشرين قصيدة. وهذه القصائد بقيت كلها في قسنطينة، كما قال. وبعد أربع سنوات في المعهد توجه إلى جامع الزيتونة بتونس ودرس فيه سنة واحدة. وفي تونس نظم الشعر في الغزل والرثاء، ومن ذلك رثاؤه للزعيم العمالي التونسي فرحات حشاد...

سافر خمار إلى سورية ضمن البعثة الثانية لجمعية العلماء، ودخل دار المعلمين الابتدائية بحلب، وتخرج منها بعد ثلاث سنوات. ثم دخل كلية التربية بالجامعة السورية وحصل على الإجازة في الفلسفة وعلم النفس. وعلم لدى الحكومة السورية في المدارس الابتدائية.

عاصر خمار عدة ثورات وانقلابات في المغرب والمشرق. ففي تونس عاش الثورة على الاستعمار الفرنسي، وفي سورية حضر الانقلاب ضد أديب

الشيشكلي، وفي مراكش عاش الثورة من أجل الاستقلال واسترجاع العرش، ثم كانت ثورة الجزائر. شعر خمار صورة لهذه الأحداث وليس شعرا ممحصا كما يريده هو، حسب قوله. فهو يعبر به عن حالة العرب القومية بسرعة دون تنضيج. وهو لا يقول الشعر إلا في المناسبات العنيفة. ولذلك قال إنه إذا لم يكتب يصاب بالصداع. وقد ذكر نماذج من شعره في تونس وسوريا(1).

كما أرسل إلي الشاعر خمار مجموعة من قصائده الحرة والمقيدة. منها قصيدة (نداء الاتحاد) التي نشرتها له جريدة المنار والتي كان قد أرسلها إليها من تونس، 4 أبريل، 1953 ولعلها من أوائل قصائده المنشورة. ومنها قصيدة (الجريمة)، وهي عن اغتيال فرحات حشاد الزعيم التونسي المشار إليه. وأخريات من تونس أيضا نظمها في حدود 1953. وهناك قصيدة (أصداء من الثالوث العربي) طالعها:

صاح مهلا لقد تهلهل زادي ولقد أنهك المسير جوادي

افتخر فيها بأنه من المغرب العربي وبأمجاد المنطقة وطبيعتها. وهي قصيدة طويلة تقع في عدة صفحات. وقد ربط فيها بين أحداث المغرب العربي والمشرق، وتاريخها أول يناير، 1957. ومنها قصيدة (الانفجار) وهي من مطولاته وتقع في ثلاث صفحات من الشعر الحر. وقد بدأها بهذه الفاتحة الحائرة:

أين ربي . . قد صبرنا . . يا فرنسا . .
إن شعبي لا يهاب . . لا يخاف الموت، لا يخشى العذاب
سوف يبقى كالسعير، ثائرا كالزمهرير
وغدا يجني الأمل، زهرة النصر الكبير . . .

ومن قصائده العمودية الوطنية التي أرسلها إلي قصيدة (حق ودماء):

---

(1) مراسلته إلي من دمشق، بتاريخ 8 أوت 1957.

بالحق يا جبهة التحرير نعتصم　　وبالجنود التي غصت بها القمم
سيري إلى النصر واجتاحي عواقبه　　فقد رنا لك كالعشاق يبتسم

كما أرسل إلي بعض القطع المكتوبة بقلم مغاير، وتاريخها جميعا هو جوان/ يونيو، 1957[1].

عمل خمار خلال دراسته في سورية في مصالح الثورة. كما كان نشيطا في الحركة الطلابية.

وبعد الاستقلال رجع إلى الجزائر وعمل في وزارة الشبيبة، كما عمل في مجلة (ألوان) التي كانت تصدرها وزارة الثقافة، وترأس اتحاد الكتاب الجزائريين، وشارك في عدة مؤتمرات أدبية وثقافية، وطنية وعربية. وقد نشر عدة دواوين منها ربيعي الجريح، وألوان من الجزائر، وظلال وأصداء، وأوراق، والحرف الضوء، وله غير هذه الأعمال. وهو ينظم الشعر العمودي والشعر الحر، ويتميز شعره بالطابع الرومانسي، وهو متمكن من اللغة والقدرة على تصريف إبداعاته الشعرية الأصيلة[2].

وقد كتب خمار رسالة ذات فائدة خاصة إلى صاحب كتاب الثورة في الأدب الجزائري صالح مؤيد سنة 1963. كما مكنه من بعض قصائده في الثورة، منها من وحي الذكرى وهي عن جميلة بوحيرد وأخواتها، والموتورة، ونهاية الصنم. وقد تطور شعره مع الأيام، وفيه نظرات عميقة في الناس والحياة. ولا غرابة في ذلك فقد ذكرنا أن خمار قد درس الفلسفة وعلم النفس.

محمد العيد آل خليفة

ترجمنا لحياة محمد العيد في كتابنا عنه (انظر سابقا) ثم كتبنا عما وصلنا من أخباره وأشعاره أثناء الثورة. فقد اختفت أخباره عن الساحة الأدبية منذ

---

(1) المراسلة في أوراقي، دمشق، 1957.
(2) محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، ص 674، والسائحي، روحي لكم...

1955 لأنه أصبح تحت الإقامة الجبرية في بسكرة بعد أن ألقي عليه القبض وسيق إلى حيث يعدم، لولا تدخل من جهة ما زلنا نجهلها، وربما هي الزاوية التجانية[1]. ومع ذلك وجدنا له قصيدة في تهنئة السودان باستقلاله منشورة في البصائر سنة 1956. فهل كان ينظم الشعر رغم الإقامة الجبرية؟

ويبدو أن محمد العيد لم يكتب شعرا كثيرا أثناء إقامته الجبرية، وعلى كل حال فهو لم ينشر شعرا أثناء هذه الإقامة التي نجهل حتى الآن متى بدأت، ولم يهرب قصائده الثورية إلى الخارج، كما فعل مثلا مفدي زكرياء. وهناك من يقول إنه قد نظم "ملحمة الثورة" أثناء اعتقاله ولكنه لم ينشرها إلا بعد الاستقلال، وهي الملحمة التي نشرتها مجلة (المعرفة) في سنواتها الأولى على حلقات.

نشرت جريدة البصائر في العاشر من يونيو (جوان) 1955، خبرا مفاده أن "أمير شعراء الجزائر التقي الورع الشيخ محمد العيد" قد قبض عليه في عين مليلة. ومع هذا الخبر صورة تذكارية للشاعر وهو يلقي إحدى قصائده وخلفه صورة لابن باديس، ولكن الصورة نشرت بعيدة عن الخبر.

وحسب البصائر فإن هناك تهمة ملفقة وجهت إلى الشاعر «سداها النذالة ولحمتها الخسة»، وزج به في السجن رهن التحقيق. و«قد ضجت البلاد الجزائرية كلها من هذا الحادث المؤلم.. وقام مكتب جمعية العلماء فورا بواجبه حيال هذا العدوان الصارخ.. واحتج.. وطالب بالإفراج على الشاعر الإسلامي العظيم...» وأشارت إلى أن عدداً من النواب والشيوخ (لعلها تقصد شيوخ النواب) والشخصيات الإسلامية وبعض العقلاء من رجال الإدارة العليا طالبوا بغاية الإلحاح بسراح الشاعر.

تعرضنا إلى حياة محمد العيد في أكثر من مكان من كتبنا، فمن أراد أن يرجع إليها فليفعل. أما هنا فيهمنا شعره وما طرأ على حياته خلال الثورة. هنا

---

(1) انظر سابقا.

محمد العيد المغرب بعودة السلطان ظافرا وبالوعد بالاستقلال، ونشر قصيدته الجميلة في البصائر سنة 1955، وهي التي مطلعها:

أطل البدر وضاح الجبين فعم الأفق بالنور المبين
وعاد إلى مطالعه مشعا كأن لم ينأ عنها منذ حين
فقل لقوافل الأحزاب سيري على إشعاعه وبه استعيني
وقل للمغرب الأقصى هنيئا لقد شرفت بالعلق الثمين
بدا استقلالك الموعود فاحمل وظائفه وخذها باليمين

كما عرفنا أنه نشر قصيدة نجهل موضوعها في يناير 1955 أي بعد شهرين فقط من انطلاق الثورة دون أن نعرف موضوعها(1).

وأثناء إقامته الجبرية في بسكرة نظم قصيدتين غير منشورتين إلا في ديوانه بعد الاستقلال، وفيهما قليل من السياسة وكثير من المناجاة الحزينة والشكوى من حاله، مع الأمل الذي لا يفارقه في حصول بلاده على حريتها. الأولى مناجاة الطائر أبي بشير والثانية مناجاة جبل أبي منقوش، وقد نظم هذه في سنة 1959. أما الأولى التي لا نعرف لها تاريخا فقد توقع فيها قرب إطلاق سراحه وتحرير الشعب رغم الضحايا والشهداء:

جزمت بقرب إطلاق الأسير غداة سمعت صوت (أبي بشير)
أناجيه بآمالي وحالي وأستفتيه عن شعبي الكسير
كما ناجى الأمير أبو فراس حمامته بشعر مستثير
فقال لقد أتيتك من بعيد فاصغ إلي وأرو عن خبير
كما أصغى سليمان قديما إلى أنباء هدهده الصغير
سيحمد شعبك العقبى قريبا ويحرز نصره بيد القدير
ويشهد بعث دولته فيرضى ويحظى بالهلالي المنير

---

(1) الجابري، النشاط العلمي... يقول الجابري إن القصيدة منشورة في مجلة الندوة التونسية.

فليس لأمة بالحق ثارت   مصير غير تقرير المصير

والقصيدة بدون تاريخ ولكن يبدو أنها نظمت في الأيام الأخيرة للثورة. وهي منشورة في الديوان.

ومهما كان الأمر فإنه أثناء الإقامة الجبرية سمع الشاعر صوت طائر يدعى (أبا البشير) فناجاه الشاعر وطارحه أحواله على غرار ما فعل أبو فراس الحمداني مع حمامته. وتوقع الشاعر قرب إطلاق سراحه تفاؤلا بصوت هذا الطائر الذي يتفاءل به المتفائلون كما تفاءل بقرب انتصار الثورة وتحرير الشعب الجزائري كله، رغم الضحايا والشهداء. وقد قارن الشاعر أبا البشير بالهدهد وتخيل نفسه سليمان. ورغم ما فيها من مقارنات وإشارات تاريخية وتفاؤل ورقة في التعبير فإنها دون شعر محمد العيد الإصلاحي، فما بالك بالشعر الثوري. فقد اكتفى فيها بالرموز والكنايات واللغة البسيطة[1].

ولكن هل نشر محمد العيد بعض القصائد السياسية وهو في الإقامة الجبرية؟ يبدو ذلك. فإذا كان قد دخل الإقامة الجبرية في سنة 1955 فإن قصيدته في تهنئة السودان بالاستقلال تكون قد نظمت وهو في بسكرة سنة 1956، ولم يفته التبشير فيها بحرية الجزائر واستقلالها، ومما جاء فيها بالخصوص:

فوز سرت بحديثه الركبان   فالشرق مغتبط به جذلان
ما أسعد السودان باستقلاله   فاليوم يرفع رأسه السودان
من مبلغ السودان عنا أننا   شيع له بشعورنا خلان
نتبادل القبلات باستقلاله   فرحا وإن طافت بها الأحزان
متسائلين عن الجزائر هل دنا   تحريرها أم حظها الحرمان

(1) القصيدة في الديوان، وفي صلاح مؤيد، الثورة في الأدب الجزائري، مرجع سابق. وقد خصها عبد الملك مرتاض بفصل من كتابه، أدب المقاومة في الحركة الوطنية، 2004، انظر أيضا محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، ص 666.

ومتى تقرر كالشعوب مصيرها   فقد اقتضى تقريره الإبان
ومتى تفوز بنعمة استقلالها   فقد استقلت دونها الأوطان[1]

صالح الخرفي

أبو عبد الله صالح أو صالح الخرفي كما هو اسمه، بدأ في الظهور كشاعر في تونس عام 1956 حسبما يدل تاريخ الشعر عنده. وقد قرأت أنه نشر عدة قصائد في الجرائد والمجلات التونسية كالصباح والندوة واللغات ابتداء من أبريل سنة 1956. ومن المؤكد أنه نشر في جريدة المقاومة الجزائرية في 6 ديسمبر 1957 قطعة من تسعة أبيات حيا فيها هذه الجريدة بقوله:

برزت تحمل اليراع سلاحا   ومضى طرسها المقاوم ساحا
وسطورا يزفها الحق والعدل   سيوفا على العدا ورماحا
إنها للبلاد واجهة الطرس   عن السيف لا يقل كفاحا
ولترحب بها العروبة فهي   المنبر الحر بالحقيقة لاحا
هذه صفحة (المقاومة) الحرة   تلقي إليك حقا صراحا

ولد صالح الخرفي في القرارة بالجنوب الجزائري سنة 1932، وتابع دراسته الابتدائية والثانوية بمعهد الحياة في مسقط رأسه، ثم قصد جامع الزيتونة بتونس وكذلك الخلدونية، 1953. وفي 1957 طلب العلم في المشرق والتحق بقسم اللغة العربية بجامعة القاهرة حيث حصل على ليسانس الآداب، 1961. ويبدو أنه رجع إلى تونس وقام بمحاضرات في التعبئة للشباب والجنود، وعاد بعد الاستقلال إلى الجزائر ولكنه واصل دراسة الماجستير ثم الدكتوراه بالقاهرة. وفي الجزائر عمل في مصالح وزارة التربية، ثم في جامعة الجزائر أستاذا ورئيسا لقسم اللغة العربية وآدابها.

تلاقينا أول مرة في نادي الطلبة الجزائريين في القاهرة، ثم تكررت لقاءاتنا

(1) البصائر 355، 24 فبراير 1956

في النادي وفي بعض المؤتمرات الأدبية. وكان الخرفي يساهم باسم الجزائر في المهرجانات والمؤتمرات، وكان يحسن إلقاء شعره العمودي وكان يتمتع بصوت رنان ومؤثر وبشجاعة أدبية فائقة، وكان موضوعه غالبا هو الثورة الجزائرية التي كانت تثير الجماهير العربية في مصر وسوريا والكويت وغيرها بحيث كان الخرفي مع مفدي زكرياء سفيري الشعر الجزائري في المشرق أيام الثورة.

نشر صالح الخرفي عدة دواوين تحتوي على قصائد كثيرة في الثورة. وكان الخرفي يختار المناسبات الساخنة التي مرت بها الثورة مثل تفجير القنبلة الذرية في الصحراء الجزائرية وإعلان تقرير المصير، فيحيلها إلى مشاعر متأججة تثير حماس السامعين. وشعر الخرفي شعر إلقاء وتدفق صوتي وموسيقي غليظة وليس شعر تأمل وصور جمالية. أما لغته فتتشكل من قوالب محفوظة ومرصوفة عليها مسحة البداوة والصحراء والخشونة، وهي تفتقد إلى الرقة والنعومة واللحن المهموس. وكان مع ذلك يحب بل يسعى إلى أن يتغنى شعره بحناجر المغنين والمغنيات ويلحنه الملحنون من أجل الشهرة. وقد نجح في ذلك دون زملائه شعراء الثورة. فكانت بعض قصائده كأنها أناشيد وطنية حماسة وإثارة. فهو من هذه الناحية قد ساهم في نشر الشعر الفصيح على ألسنة الشباب والجمهور عامة بعد أن تعودوا على سماع الشعر الملحون ذي الطابع الأندلسي والشعبي غير المتطور وغير المفهوم أيضا.

من قصائد الخرفي الثورية التي راجت نذكر هذه النماذج: نداء الضمير، وأدعوك يا أملي. الأولى من تلحين رياض السنباطي والثانية من تلحين بليغ حمدي، وكلاهما من غناء وردة. الأولى أثناء الثورة والثانية بعد الثورة. ومن دواوينه: أنت ليلاي، وأطلس المعجزات. ومن شعره الثوري قصيدة (يا فرنسا) التي جاء فيها، وقد جاء فيها عن الثورة:

سنوات وجباه الطغاة للنار تعنو ... ثورة ودمار على الذي منه يدنو
كم أطاحت بقائد ووزير ... وتداعى بها إلى الأرض ركن

وفي نفس الوقت أشرف الخرفي في الجزائر على مجلة الثقافة التي تصدرها وزارة الثقافة. وقل إنتاجه الشعري منذ تولى المسؤوليات الإدارية وأصبح رب أسرة. وألف عدة كتب في مجاله الأكاديمي وهو الشعر الجزائري الحديث. وفي أيام عطائه رشح ليكون مديرا للثقافة في المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة فانقطع عن الجامعة والتعليم وتفرغ لعمله الجديد الذي خدم به الأمة العربية كافة. وقد أدركه الموت وهو متقاعد ويواصل التأليف والبحث الحر. توفي في تونس ونقل جثمانه إلى مسقط رأسه.

عبد الرحمن الزناقي

أشدت في يومياتي وأنا في القاهرة بعبد الرحمن الزناقي الذي اعتقدت أنه سيكون شاعرا وجدانيا رقيقا على مستوى وطني وعربي. ولكن بعد رحلتي الدراسية لم أسمع ماذا حدث له ولا ما إذا واصل الشعر ولم ينشره أو أنه توقف نهائيا عن الشعر بعد رجوعه إلى الجزائر. وأثناء كتابتي هذه السطور بلغني أن له أكثر من ديوان مطبوع، وأنه يعيش في البليدة متقاعدا بعد أن اشتغل بالتعليم سنوات طويلة.

لم أكن قد عرفت الزناقي أو قرأت له قبل أن يراسلني من سوريا سنة 1957، ولذلك لم استكتبه حين عزمت على كتابة بحثي عن الشعر الجزائري المشار إليه. ولكنه فاجأني بالكتابة من حلب في 13 سبتمبر، 1957 قائلا إنه رأى إنتاجي في (البصائر)، كما طالع قصائدي وردي على نقد أحد النقاد في مجلة الآداب، وإنه لم يحصل على نسخة من ديواني الصغير (النصر للجزائر) الذي قرأ مقدمته بقلم الأستاذ أحمد توفيق المدني في جريدة سورية (لم يذكرها وربما هي كفاح المغرب العربي). ومن خلال المقدمة تعرف على بعض المقطوعات من شعري.

فكيف عرف الزناقي مشروعي ومن أخبره به؟ قال في مراسلته المذكورة إنه في نفس اليوم التقى بالشاعر أبي القاسم خمار(الذي كان أيضا في سوريا)

فطلب منه أن يرسل إلي بعض شعره وصورته ونبذة من حياته. ولاحظ الزناقي في رسالته أن الجزائريين منطوون على أنفسهم ولذلك فأنا قد فعلت خيرا في نظره، حين عزمت على الكتابة عن أدبهم. ثم ذكر نبذة من حياته هو، فقال إنه من مواليد تلمسان عام 1934 وإنه دخل مدرسة دار الحديث ودرس فيها على عبد الوهاب بن منصور. وبعدها توجه إلى معهد ابن باديس بقسنطينة حيث بقي أربع سنوات حصل بعدها على الشهادة الأهلية من الزيتونة بتونس. ثم وفد إلى المشرق العربي، دون أن يقول كيف حصل ذلك، ودرس بدار المعلمين الابتدائية بحلب[1].

أما عن الشعر فقد قال الزناقي إنه لم يجربه إلا منذ ثلاث سنوات، وإنه قد تأثر بعدد من الشعراء الرومانسيين والاجتماعيين أمثال الشابي، وعلي محمود طه، وحافظ إبراهيم... وإن له عدة قصائد منها ما هو في صميم الثورة وما هو حول القضية العربية. ومن قصائده في الثورة تلك التي أسماها (منبع الثورة) والتي جاء فيها:

من نسيم الصبح من نبع الضياء ... من عيون الفجر من دمع السماء
من ظلام الليل من زوبعة ... تلفح الأيام من صوت البكاء
من سكون الكوخ من مقبرة ... فوق أرض الله ملأى بالشقاء
نبعت ثورتنا جارفة ... تربة الظلم وأوحال الشتاء
ولدت يوم ولدنا وأتت ... أرضنا تلبسها ثوب الإباء

وللزناقي حسب ما جاء في مراسلته، قصيدة في مدينة بور سعيد بعد العدوان عليها سنة 1956 شارك بها في مهرجان عقد بحلب ونوه فيها بدور جمال عبد الناصر وأشاد بالأمة العربية. وله قصيدة في الخمرة الصوفية على شكل موشح.

---

(1) مدرسة دار الحديث في تلمسان أنشئت سنة 1937. وكانت الحركة الحركة الإصلاحية في تلمسان بقيادة الشيخ الإبراهيمي بين 1932 و 1940، وبعد الإبراهيمي تولى إدارتها الشيخ محمد الصالح رمضان.

وأثناء مظاهرات جرت في سورية لدعم نضال الجزائر ألقى الزناقي قصيدة مجد فيها الثورة وقال:

فــي كــل يــوم ثــورة للثـــار   في أرضنا كالرعد كالإعصار
فـــي كــل يـــوم ثــورة وقـــادة   تــرمي الطغاة بأسهم من نار

وقد تحدث فيها عن بطولة الثوار وأبدى إعجابه بالثورة وبمعقلها الأول، الأوراس، وتناول فيها أحداث المغرب العربي ومساندة المشرق للثورة:

أوراس قد أرغى وأزبد ثائرا شدوا على القيثار للثوار

ومن شعره الهادى قصيدة في الحنين إلى الذكريات، وهي قصيدة ناعمة ترجع بالذاكرة إلى الماضي بكل ما فيه[1].

الربيع بوشامة

عرفت الربيع بوشامة أثناء الثورة عندما بدأت التعليم في مدرسة الثبات في الحراش، إحدى ضواحي عاصمة الجزائر، وكان عندئذ هو مدير المدرسة التابعة لجمعية العلماء. كان ذلك في نهاية شهر نوفمبر 1954. عرفت فيه الحزم والإخلاص، وقد حدثني عن رحلته إلى باريس لتنشيط حركة جمعية العلماء وسط العمال الجزائريين في غربتهم حتى يظلوا مرتبطين بوطنهم ولغتهم وإسلامهم. كما كان يحدثني عن أستاذه ابن باديس وعن شخصيات الجيل السابق له من المعلمين والمصلحين وما جرى له معهم ومع الإدارة المدرسية والسلطات الفرنسية، وكيف تحمل الصعوبات والمضايقات التي كانت تضعها هذه السلطات في طريقهم، ومع ذلك كانوا مصرين على النجاح وبلوغ الهدف. وكان ينتقد بعض قادة جمعية العلماء في الجزائر نفسها وسلوك بعض معلميها. وكنت عندئذ معلما مبتدئا وصغير السن نسبيا وقليل التجربة، فلم أكن أشاركه

(1) مراسلة الزناقي وصلتني مكتوبة على ست أوراق زرقاء غير مرقمة. وقد أرسلها إلي من دار المعلمين الابتدائية في حلب بتاريخ 13 سبتمبر، 1957.

في أحكامه وإنما كنت أستمع إليه باهتمام.

أما عن شعره فقد عرفته على صفحات البصائر قبل سنوات من لقائي بالشاعر. فقد كان الربيع بوشامة ينظم الشعر في مواضيع وطنية وعربية وأخرى تتعلق بالطبيعة والعلاقات الإنسانية. شعره نظم وقلما يحلق به في أجواء المعاني والصور البيانية أو يبحث فيه عن جمال التعبير وفن القول. ولا شك أنه كان يتذوق الشعر بما حفظ من دواوينه وقرأ لفطاحله، ويبدو أنه كان يميل إلى المدرسة الرومانسية الاجتماعية ولكن بيئة الجزائر الثقافية الخالية عندئذ من النقد الأدبي جعلت توجيه وتقويم الشعراء أمرا غير وارد. وكنت أتبادل معه الرأي في الشعر العمودي الذي يلازمه والشعر الحر الذي بدأت أحاوله وأميل إليه.

ولد الربيع بوشامة في ديسمبر عام 1916 في قنزات في بني يعلى ولاية سطيف. ومنذ العام السابع من عمره دخل المدرسة القرآنية (الكتاب) والمدرسة الفرنسية، فحفظ القرآن الكريم واحتفل به والده كما جرت عادة أهل المنطقة تيمنا بأن يكون شيخ فقه وعلم. أما في المدرسة الفرنسية فقد أكمل دراسته إلى السنة الأخيرة من المرحلة الابتدائية. ثم تفرغ لدراسة العلوم العربية والإسلامية فدرسها على شيوخ بني يعلى الذين منهم الشيخ سعيد صالحي أحد أعضاء جمعية العلماء البارزين. في هذه الأثناء درس بوشامة النحو والقراءات والتجويد والفقه والتوحيد..

وخلال الثلاثينات من القرن العشرين وصل إلى بني يعلى إشعاع الحركة الإصلاحية من رافد آخر وهو الفضيل الورتلاني كما وصولتهم مجلة الشهاب وتأثير حركة ابن باديس. وقد بدأ الربيع بوشامة نشاطه بمساعدة شيخه صالحي على التدريس في جامع البلدة. ثم انضم إلى جمعية العلماء واعتنق مبدأها الإصلاحي. وفي سنة 1938 أوفدته الجمعية إلى باريس رفقة سعيد صالحي لبث أفكارها في أوساط العمال الجزائريين بعد التحاق الورتلاني بالقاهرة. وقبل

أن يتم سنة في فرنسا استدعي للخدمة العسكرية ولكنه أعفي منها لضعف بصره. فالتحق بالشيخ ابن باديس في قسنطينة وتتلمذ عليه.

بقي في قسنطينة بضعة أشهر فقط لأن ابن باديس نصحه بالدراسة في الزيتونة، ولكن حالته المادية حالت دون ذلك. تأثر الربيع بوشامة بابن باديس فسار على هداه في حياته وبعد وفاته. وفي سنة 1942 التحق بخراطة لينشر فيها التعليم العربي الحر على الطريقة الباديسية. ولكن خراطة تعرضت إلى ما تعرضت له قالمة وسطيف أثناء حوادث الثامن مايو فاعتقل بوشامة ورمي به في السجن. ووجهت له تهمة التحريض على الجهاد، وصدر الحكم بإعدامه ولكن الحكم لم ينفذ. ولما خرج من السجن في فبراير 1946 على إثر العفو العام توجه إلى العاصمة وتعاطى التعليم في مدرسة (الهداية) بحي العناصر. وهناك اتصل بإدارة جمعية العلماء واتفق مع الشيخ الإبراهيمي على العمل في نطاق مدرسة الهداية. ثم تحول إلى مدرسة الثبات بالحراش ابتداء من سنة 1948. وبعد عدة سنوات انتدبته الجمعية لتمثيلها في باريس (أغسطس، 1952) حيث أصبح معتمدها ورئيس شعبتها. والمعروف أن الإبراهيمي قد زار باريس في طريقه إلى المشرق في يناير من السنة المذكورة.

رجع الشاعر إلى مدرسة الثبات بالجزائر حيث تعرفت عليه. وبقي يديرها ويدرس فيها إلى يناير 1959 حين أوقفته السلطات الفرنسية. كان الشاعر يحب مهنته وخدمة اللغة العربية والإسلام في الجزائر وهذا هو شعار الحركة الإصلاحية. وطالما أشاد بوشامة بالعروبة والإسلام في شعره وأحاديثه. وبالإضافة إلى ذلك هناك موضوع الحرية والوطنية وأحداث الثامن مايو وقضايا فلسطين وليبيا ومصر. ولم ينضم بوشامة إلى أي حزب سياسي حسب علمنا وإنما كان قريبا من اتجاه حزب الشعب مثل العديد من معلمي الجمعية.

له ديوان مطبوع الآن بعد أن جمع شعره وقدم له قريبه جمال قنان. ويبدو أن الديوان لا يضم كل شعره. وهو الشعر الذي نظمه قبل وأثناء الثورة. وقد

قال جامع الديوان إن الشاعر كان ينظم القصائد أثناء الثورة ثم يبعث بها إلى جيش التحرير اعتقادا منه أنها ستظهر بعد الاستقلال. وقبل اعتقاله جمع شعره في كراس وكتب عليه " هذه مجموعة شعرية من نظم الربيع بن الصديق بوشامة، أتقدم بها كأعز أثر وألطف تحية إلى أبناء العروبة والإسلام وحماة الجزائر خاصة". ورغم ذلك فقد عرفنا أنه لم يكتب في الكراس سوى أربع قصائد[1].

كان الشاعر بوشامة يعرف المناضل عميروش قبل اندلاع الثورة، منذ كانا معا في باريس. وكان عميروش يجمع بين النضال في حزب الشعب والعضوية في نادي جمعية العلماء في عهد بوشامة لاعتقاده أن الجمعية والحزب يتكاملان في رسالتهما الوطنية. وهذه الصلة بين الرجلين هي التي جعلت عميروش، وقد أصبح مسؤولا عسكريا في الثورة، يهيئ للشاعر، منذ 1957، أوراق الخروج من الجزائر قبل إلقاء القبض عليه. ولكن الاعتقال حصل أثناء وجود الشاعر في مدرسة الثبات ووجهت إليه تهمة تمزيق العلم الفرنسي. وفي 14 مايو، 1959 وجد مقتولا أمام بلدية بودواو بعد عذاب أليم[2].

عبد الكريم العقون

المعلومات عن حياة الشاعر عبد الكريم العقون شحيحة. فهو من مواليد برج الغدير (ولاية سطيف) سنة 1918، تلقى تعليمه الابتدائي على يد الشيخ موسى الأحمدي ثم الشيخ عبد الحميد بن باديس ابتداء من 1933، ولعل ابن باديس هو الذي وجهه إلى جامع الزيتونة حيث حصل على شهادة التطويع، ثم عمل في مدارس جمعية العلماء مدة خمس عشرة سنة. وقد التقيته عدة مرات في مركز الجمعية بالقصبة سنة 1955 قبل سفري إلى الشرق. كان هادئا دمث

---

(1) جمال قنان، ديوان الشهيد الربيع بوشامة، المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1994، ص 34.

(2) ديوان الشهيد الربيع بوشامة، مرجع سابق، ص 23-29.

الأخلاق متأنقا في لباسه، ولكننا لم نجلس للتحدث. كان أبيض البشرة، ويلبس نظارة طبية. ولا أدري متى بدأ العقون نضاله في صفوف جبهة التحرير.

قبض عليه العدو في مسجد المرادية حيث كان يلقي درسه يوم 15 يناير، 1959، وهو تقريبا نفس التاريخ الذي قبض فيه على الشيخ الربيع بوشامة. ولعل العقون كان من سكان حي المرادية. وقد ذهب محمد ناصر إلى أن منظمة الجيش السري الإرهابية هي التي اختطفته واغتالته في نفس السنة. وسواء اغتالته هذه المنظمة أو منظمة اليد الحمراء، فإن الاستعمار كالأخطبوط له أكثر من ذراع يبطش بها. فقد قتلوه بعد التعذيب في الثالث عشر من مايو في الدويرة (من ضواحي العاصمة).

الشاعر عبد الكريم العقون مقل في شعره ويتميز بالعاطفية والوطنية والإصلاح. وهو في شعره أقرب إلى التيار الرومانسي، وأسلوبه تجديدي ويميل إلى الرقة في العبارة والنغم في الألفاظ، وهو أقرب جيله إلى التيار الرومانسي الذي كان يمثله الطاهر بوشوشي. وقد نشر معظم شعره على حد علمنا، في جريدة البصائر من السلسلة الثانية. وربما نشر أيضا في صحف أخرى. وله ديوان يبدو أنه ما يزال مخطوطا[1].

عبد الرحمن العقون (بلعقون)

يبدو أنه لا صلة عائلية بين الشاعرين العقونين، أما من حيث الأدب والمهنة والفكر فالقرابة ثابتة. فكلاهما تعاطى التعليم وخدم الثورة، وكلاهما انتمى إلى التيار الوطني غير أن عبد الرحمن قد انتمى إلى حزب الشعب/ حركة الانتصار بينما انتمى زميله إلى الحركة الباديسية الإصلاحية. وإذا كان عبد الكريم قد عرف بالشعر فإن عبد الرحمن عرف بالنثر والشعر معا، وكان نثره أفضل من شعره. ومع ذلك فإن لعبد الرحمن ديوان شعر مطبوع بينما ما يزال

---

(1) محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 681. ويقول ناصر إنه استقى معلوماته عن العقون من الشيخ حمزة بوكوشة الذي كان صديقا للشاعر.

شعر عبد الكريم مخطوطا. كما أن عبد الكريم لم يخرج من الجزائر أيام الثورة أما عبد الرحمن فقد هرب وخدم الثورة في الوفد الخارجي في سورية والأردن، وقد أطال المكث في البلد الأخير (1958-1964).

ولد عبد الرحمن في وادي الزناتي سنة 1908، ودرس الابتدائي في مسقط رأسه على يد شيخه عمار مهري والد المناضل عبد الحميد مهري، واستغرق ذلك، حوالي سبع سنوات (1926-1933)، وانضم إلى حزب الشعب مبكرا، فكان عضوا في لجنة المدارس الحرة التي أنشأها الحزب. واشتغل بالتعليم ولكنه لم يقتصر عليه بل مارس أيضا التجارة والفلاحة من أجل العيش. وقد اعتقل وسجن إبان الثورة، وبعد الإفراج عنه رحل إلى المشرق وعمل في مكاتب جبهة التحرير كما ذكرنا.

له عدة تآليف صدرت بعد الاستقلال، منها: من وراء القضبان وهو كتاب في شكل قصة. وديوان شعر بعنوان (أطوار)، والكفاح السياسي والقومي، وهو نوع من المذكرات في الحياة السياسية والحزبية في الجزائر، ويقع في ثلاثة أجزاء[1].

عندما عزمت على كتابة بحثي عن الشعر الجزائري سنة 1957 سمع عبد الرحمن العقون بالمشروع فراسلني بمجموعة من شعره ونبذة من حياته، مثل كل الزملاء الذين راسلتهم. وكان عندئذ في دمشق. ولما صدر بحثي في مجلة الآداب بدا أن العقون قد خاب ظنه ربما لأني لم أكتب عنه كما كان يتوقع. فراسلني بغضب واستعاد مني إنتاجه فأعدته إليه. وقد ندمت على ذلك لأنه لو كان معي ذلك الإنتاج الآن لاستفدت منه في هذا البحث. وعلى كل حال فشعره على ما أذكر شعر سياسي تعليمي هادى العاطفة. وقد قلت إن نثره أفضل من شعره.

أما علاقة العقون بالثورة فهو من الرعيل الأول الذي انضم إليها وكان

(1) محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 668.

متحمسا لها ومؤمنا بها وقد ساعدته ثقافته العربية على التعليم في الجزائر وعلى القراءة والاتصال بالمشرق في وقت كان المشارقة فيه يدعمون الثورة وأدباءها. ويبدو أن الشاعر قد تأثر بالحياة الثقافية في المشرق كما يظهر ذلك من كتابه الكفاح السياسي.

ويقول من درس شعره دراسة دقيقة إن له فيه مرحلتين: الأولى تتميز بكونها باكورة إنتاجه وله في ذلك عذره في عدم الوضوح والكمال. والمرحلة الثانية تتميز بوضوح الشعر وحرارة العاطفة مع عمق التفكير. ويعتبر شعره من هذه الزاوية سجلا حافلا للكفاح السياسي منذ الحرب العلمية الأولى، وقد بلغ درجة عالية فيه منذ ثورة أول نوفمبر. يضاف إلى ذلك أنه كان يعبر من داخل الحركة الوطنية وليس من خارجها لأنه تحمل مسؤوليات فيها واعتنق مذهب الحرية والوطنية.

أكثر شعر العقون مكتوب بالقصيد العمودي وله بعض الموشحات. وبالإضافة إلى الشعر السياسي الوطني له أشعار في المجاملات مثل المساجلات وبعض المراثي، كما له بعض الشعر الذاتي والغزلي الديني. وشعره قديم في أسلوبه وجديد في أغراضه وتفكيره، كما قال من كتب التصدير لديوانه (أطوار) وهو زميله مولود مهري بن عمار. ولكن هذا الكلام لا يدلنا على متى يبدأ ومتى ينتهي شعر الثورة عنده[1].

أحمد معاش الباتني

من أوائل الشعراء الذين تحدثوا عن الثورة وأرهص لها. بدأ ينشر أوائل الخمسينات في البصائر وكانت قصائده بمثابة مقدمات لشعره الثوري ومشاركته

(1) مختارات: عبد الرحمن بن العقون، نشرها تلميذه محمد الصالح رحاب، بمناسبة مرور عشر سنوات على وفاته، 1995-2005، أما الاقتباس فمن تصدير مولود مهري لديوان (أطوار) الصادر سنة 1980، وليس في المختارات شعر يدل على أنه قيل زمن الثورة. أما الديوان فلم نطلع عليه. أنظر كذلك البصائر، 21 -28 نوفمبر، 2005.

الفعلية في الثورة. ومن أبرزها قصيدة (مشبوه) التي نشرها خلال السنة الأولى للثورة، وقد جاء فيها:

قـالـوا خـذوه فـإنـه مشبـوه ومضوا لما في البيت فانتبهوه
مـا نـالـه بـالكـدح قـد سلبوه وإذا تـأبّـى للـردى وهبـوه
لـن يـرحمـوه فـإنـه مشبـوه[1]

أحمد معاش لم يشترك في الثورة بشعره فقط بل اشترك فيها بحياته وبعائلته (أبوه وإخوته وأقاربه. . .) واستشهد عدد من إخوته وكاد هو يقتل أيضا سواء وهو مسلح في الجبل أو هو متسلل من الجزائر إلى تونس، ولكن البغل الذي كانوا يحملون عليه أثقالهم "استشهد" فرثاه أحمد معاش بقصيدة تدل على رقة إحساسه وإنسانيته وعلى انغماسه في الثورة وعلاقته بتراب وحتى حيوانات بلاده.

بعد خروج الشاعر إلى تونس أخذ يعمل في مصالح جبهة التحرير، ثم انتقل منها إلى المشرق أولا لإدارة الفريق الوطني لكرة القدم الذي تكون في تونس لإبلاغ صوت الثورة للبلدان الشقيقة والصديقة. ثانيا للعمل الإعلامي والدبلوماسي الذي انطلق فيه من دمشق والأردن. وأثناء مروره بالقاهرة سنة 1958 التقينا لأول مرة وتعارفنا وتبادلنا الآراء، وكنا قبل ذلك قد تعارفنا على صفحات البصائر حيث كتبت عن بعض قصائده التي اعتبرتها ملحمية، وارتبطت بيننا علاقات حميمة ظلت وفية إلى أن توفاه الله عام 2005 رغم اختلاف أماكن عملنا واهتمامات كل منا. ومن بين ما أذكره له هنا (وهو مذكور في يومياتي) أنه أنجدني عندما كان سفيرا للجزائر في طرابلس (1969) بقرض احتجته لمواصلة نشر كتابي الحركة الوطنية الجزائرية عند سهيل إدريس في بيروت. ولولا قرض معاش لتعطل الكتاب في الصدور. واتفقنا على تسديد المبلغ

---

(1) البصائر، أول أفريل 1955.

بالعملة الجزائرية بواسطة صديقه الشاعر عبد الرحمن العقون[1].

عمل أحمد معاش في السلك الدبلوماسي في المشرق (سورية والأردن) أثناء الثورة وبعد الثورة عمل في طرابلس، ثم حدثت جفوة مع وزارة الخارجية فدخل المعارضة الصامتة، وانتقل إلى أوروبا وعمل في الصحافة العربية بالخارج، وعاش حياة ليس عندي تفصيلها ولكنها حياة غاضب على الأوضاع في بلاده. ولم يرجع إلى السلك الدبلوماسي وإنما تقاعد وتفرغ للكتابة شعرا ونثرا فظهرت له بعض الدواوين، منها (التراويح وأغاني الخيام). وكنت أظن أنه ترك الشعر ولكنه رجع إليه في السنوات الأخيرة من حياته، بل أكثر منه، وكان نجيه في غربته ومؤنسه في وحدته ومنسيه آلامه الجسمية والوطنية. فقد كان يعاني المرض الذي طال به، ويعاني مما أصاب الجزائر من أزمة وتمزق خلال التسعينات، فكان الشعر مرجعه وهو بلسمه يبثه أحزانه، وقد نتج عن ذلك ديوان جديد نشر في آخر أيامه، ولعله لم يطلع عليه، وقد صدر ببعض كلمات مني أبى إلا أن يحليه بها.

كتبت عن شعر أحمد معاش وعن حياته في مناسبات أخرى، وهو يستحق دراسة شاملة. ولا يعنيني هنا شعره في الأزمة الجزائرية (التسعينات) ولا إخوانياته التي قالها بعد الثورة والتي أكثر منها، خصوصا التهاني والمراثي، ولكن الذي يهمني هنا هو شعره في الثورة. ويبدو أنه قليل بالقياس لما قاله قبلها وبعدها. والظاهر أنه صرف همته أثناء الثورة إلى العمل الدبلوماسي. ومن شعره في زمن الثورة قصيدة قالها سنة 1956 وقصيدة بني العرب سنة 1958 وقصيدة ذكرى الثورة التي قالها وهو في دمشق سنة 1959[2].

بالإضافة إلى قصيدة (مشبوه) نشر معاش في البصائر أيضا قصيدة (لحن

---

(1) عن رأيي في شعره الملحمي انظر كتابنا دراسات في الأدب الجزائري الحديث، وقد نشر أيضا في البصائر وفي مجلة الآداب اللبنانية.

(2) صلاح مؤيد، الثورة في الأدب الجزائري، مرجع سابق.

الصحراء) التي تغنى فيها بجمال الصحراء وطبيعتها وصفائها، مع التذكير أنه كان عندئذ يعلم في بسكرة التي تعتبر بوابة الصحراء، ومما جاء فيها:

بسط الرمل راحتيه وحيا وحبا — النخل طيبه القدسيا
واستوى في الفضاء يرفع جيدا — مستطيلا يضوع مسكا زكيا
فكأن النخيل في البيد بحر — ذو سوار يخوض بحرا حييا[1]

شعر أحمد معاش الأول أجمل من شعره الأخير لسببين: أنه في البداية كان مفعما بالشباب ويحاول أن يجود الشعر ويرققه ويتخير له الألفاظ المناسبة والصور الجميلة، وكان مهتما بالطبيعة والإنسان. أما شعره الأخير فقد تميز بالارتجال، وقلة المراجعة، والاندفاع بحيث يقرأ عن الحادثة في الصحف أو يسمع عن وفاة مجاهد أو زعيم فيصوغ الخبر قصيدة طويلة أحيانا، ولم يعد يكترث بالأسلوب والصور وإنما أصبح مهتما بتوصيل صوته والتعبير عن رأيه في الحدث نفسه. وقد حاولت في مراسلاتي معه أن أثنيه عن هذه الطريقة، واقترحت عليه ذات مرة التوقف عن قول الشعر برهة، أو مراجعته ونقده الذاتي قبل نشره. ولا أدري ماذا كانت دوافعه في الإسراع بنشر شعره: هل هي المادة (وكان في حاجة إليها) أو هي الشهرة، أو التخلص فقط من الشحنة الثقيلة التي دفعت به إلى نظم القصيدة.

نظم معاش القصيدة العمودية في الأغلب ولكنه نظم أيضا الموشح، والقصائد متعددة القوافي والأجزاء، وحاول الشعر الحر، وكان متدفق المشاعر تواتيه الألفاظ ويسيل به القلم حتى يعتقد قارئه من سرعة ردوده أنه يشعر ولا يفكر، يكتب ولا يتأمل.

أما حياته فقد لخصها محمد ناصر في كونه ولد في باتنة سنة 1928، ودرس في مدارس جمعية العلماء في باتنة وقسنطينة، ثم في جامع الزيتونة

(1) البصائر 353

بتونس. ومن شيوخه في باتنة محمد العيد آل خليفة الذي تتلمذ عليه في العلم والشعر. ويضيف محمد ناصر أن شعره فيه نزعة إصلاحية ووطنية. وبالإضافة إلى دواوينه نشر كتابا بعنوان كلمات متقاطعة، وقصص وأشعار للأطفال[1].

صالح خباشة

وهو المعروف بابن بابا صالح، شاعر من الجنوب (بني ميزاب). له شعر في الثورة، منه: مأساة القصبة، ربما هي معركة الجزائر، وأيام الإضراب الشعبي العام الذي دعت إليه جبهة التحرير وأراد الفرنسيون منعه. وله قصيدة عن إضراب الطلبة عن الدراسة والتحاقهم بالثورة، وأخرى عن التجارب النووية الفرنسية في الصحراء الجزائرية. ومن ذلك قصيدة عن الثائر الذي قتل المعمر (فروجي)، رئيس بلدية بوفاريك الفرنسي، وله غير ذلك من القصائد.

ولد خباشة في القرارة سنة 1933، ودرس الابتدائي والثانوي في هذه البلدة العلمية النائية التي اشتهرت بشيخها إبراهيم بيوض مدير معهد الحياة. ثم توجه الشاعر إلى تونس للدراسة في جامع الزيتونة، وبعد تخرجه التحق بكلية الآداب، جامعة بغداد وتخرج منها سنة 1961. وكان على صلة بالثورة ورجالها واللاجئين في تونس. وشارك - كما يذهب محمد ناصر -في تثقيف شباب جبهة التحرير في تونس. كما شارك في الإذاعة والصحافة التونسية. ومنذ الاستقلال التحق بالتعليم كشأن معظم جيله من الجزائريين الذين درسوا في المشرق العربي أيام الثورة. ولا ندري كم هي القصائد التي نظمها في الثورة. ولكن ديوانه (الروابي الحمر) يرمز إلى الثورة. وهو يتجه نحو التقليد في شعره ولكنه يمتاز بجزالة الألفاظ وصدق العاطفة. وقد عدّ الجابري له سبع قصائد نشرها في جرائد تونس بين سنوات 1956 و1961[2].

(1) محمد ناصر، الشعر الجزائري، مرجع سابق، ص 67.

(2) محمد ناصر، الشعر الجزائري، مرجع سابق، ص 673. والجابري، النشاط العلمي، الملحق.

ومن شعر خباشة قصيدته (صرخة في الصحراء) التي قالها سنة 1957 وجاء فيها:

أفي صحرائنا اتخذوا الديارا   إليكم، لن تطيب لكم قـرارا
سمـاواتـي عـليكـم ثـائـرات   وتحرق بالصواعق من أغـارا
وأرضــي منكـم تنشـق غيظـا   فكم جيش لكم فيها تـوارى

الشعر الرومانسي

وبينما الثورة تسير وشعراؤها يتغنون بها ويتحمسون لها ويدعون إليها كان هناك شعراء فضلوا تناول موضوعات أخرى في شعرهم لا علاقة لها بالثورة ولا بالسياسة. لقد كانوا يتناولون الشعر الديني والشعر السجالي والشعر الوصفي أو المثالي (الرومانسي) وشعر الرثاء، بل والشعر التاريخي في شكل دراسات لقدماء الشعراء أو تاريخ الأدب.

فإذا رجعنا إلى مجلة هنا الجزائر مثلا (وهي من المصادر العربية الباقية التي غطت فترة الثورة بأسلوب آخر) نجد فيها قصائد دينية للأخضر السائحي تناول فيها الهجرة النبوية ودخول الأعوام الهجرية وشهر رمضان، وأحيانا أشعارا وصفية وإخوانية، كما نجد مساجلة غرامية كتبها محمد حقي السائح (وهي من الشعر الملحون الذي أكثرت منه مجلة هنا الجزائر وفي أغراضه المختلفة). أما أحمد الأكحل فقد كتب مقالة عن الشاعر سيدي محمد بن علي، شاعر العاصمة الجزائرية ومفتيها في القرن الثامن عشر الميلادي. كما كتب الطاهر بوشوشي الذي كان يوقع شعره باسم (ابن جلا) دراسة لشعر أبي القاسم الشابي وتأثيره في جيل الشباب وخصائص شعره[1].

(1) عن ابن علي تنظر كتابنا مختارات من الشعر العربي. وعن السائحي وحقي والأكحل انظر مجلة هنا الجزائر، أوت 1957. أما مقالة بوشوشي عن الشابي فانظرها في نفس المصدر، ديسمبر 1957. أنظر لاحقا.

نشرت مجلة هنا الجزائر قصائد في أغراض متنوعة ولكن لا علاقة لها بالثورة. منهم شعراء الحركة الرومانسية كالطاهر البوشوشي والأخضر السائحي.

الطاهر بوشوشي

كان بوشوشي من الشعراء الرومانسيين البارزين في هذه الفترة، وكان يوقع أغلب قصائده باسم (ابن جلا)، وكان أيضا يكتب النثر ويترجم من الأدب الفرنسي، فهو من الأدباء المزدوجي اللغة المتميزين. ولد في بجاية سنة 1916، ودرس بها الفرنسية وتابع أيضا دروس اللغة العربية في مدرسة الشبيبة بالعاصمة، فكان فيها من تلاميذ محمد العيد آل خليفة. وقيل إنه درس أيضا في جامعة الجزائر وحصل منها على الليسانس سنة 1939. كما جند في الحرب العالمية الثانية. عمل في الإذاعة الفرنسية بالجزائر وترأس تحرير مجلة (هنا الجزائر) المزدوجة اللغة (عربية- فرنسية)، وجمع من حوله كوكبة من الأدباء ذوي الأقلام العربية أمثال نور الدين عبد القادر وأحمد الأكحل والأخضر السائحي والهادي السنوسي وأحمد بن ذياب والمولود الطياب. وقد استمرت المجلة في الصدور إلى سنة ستين. ولا نتوقع أن المجلة المذكورة ستتناول الشعر الثوري، ويكفي أنها ركزت على الشعر الديني والتراثي والرومانسي سواء المنقول أو المبدع، وكان بوشوشي من الذين أبدعوا القصائد الجميلة وترجموا عن شعراء فرنسا أمثال فيكتور هوغو ولامرتين وبودلير.

سافر بوشوشي إلى فرنسا في نهاية الخمسينات واستقر بها ولم يرجع إلى الجزائر إلا ربما أوائل السبعينات، وقد رأيناه في الجامعة حيث كان قليل الظهور وكان يعمل في الترجمة. كما رأيناه في ملتقى الفكر الإسلامي بالعاصمة سنة 1972 عندما كان ملازما لمولود قاسم ومفدي زكرياء وعثمان الكعاك أثناء ترجمته إلياذة الجزائر للشاعر الثوري (مفدي زكرياء) ربما بإيعاز وإلحاح من مولود قاسم.

كنت قد عرفت بوشوشي قبل ذلك التاريخ، أي سنة 1955 عندما كنت أعلم في مدرسة التهذيب التابعة لجمعية العلماء في الأبيار، وكان القسم(الفصل) الذي ألتقي فيه بالأطفال عبارة عن مرأب (قراج) ملتصق بمنزل بوشوشي، وربما هو جزء منه والمتبرع به. وكان منزله في أعالي الربوة المطلة على البحر وجبل بوزريعة وباب الواد على يمين الصاعد في شارع (ريشار ماغي) بالعين الباردة. وقد تعارفنا ولكننا لم نتخالط، وشعرت أنه كان لطيف المعشر متواضعا. وكان يعرف أنني أكتب الشعر أيضا، وكان إذاك رئيسا لتحرير مجلة هنا الجزائر. ولكنه لم يفاتحني في موضوع الكتابة، فكنا نتبادل السلام والمصافحة وبعض كلمات المجاملة إذا تصادف ذلك مع استراحة الأطفال. ويقول محمد ناصر إن بوشوشي نشر شعره أيضا في البصائر والشهاب والثقافة، ولكن شعره يظل قليلا بالنسبة لموهبته، ولعله لم ينشره كله. توفي في فرنسا في يونيو 1978، عن 77 سنة[1].

نشر الطاهر بوشوشي (ابن جلا) قصيدة تحدث فيها على لسان المذياع:

أنا المذياع ناء لا تراني وتسمع ما يفوه به لساني

وهي قصيدة تأملية طويلة استوعبت صفحتين من المجلة[2].

وقد نشر ابن جلا نفسه قصيدة أخرى حزينة ربما من وحي الواقع الجزائري عنوانها يدل عليها وهي (قدوم المساء) رغم أنها نشرت في فصل الربيع الزاهي. ولبوشوشي قصيدة أخرى بعنوان السماء، وهي من الشعر الحر طويلة ومتعددة الفقرات[3]. وله أيضا قصيدة صادقة في رثاء شيخه أحمد بن

(1) محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، حسب معلومات قدمها له الشاعر نفسه، ص 672. انظر أيضا جريدة (ليبرتي) عدد 17، يونيو 1978، وكذلك مجموعة هنا الجزائر.

(2) هنا الجزائر 61، يناير 1958.

(3) هنا الجزائر 52، يناير 1957، ص 23.

زكري عنوانها (إلى رحمة الله)[1].

الشعر والربيع والحزن

وعلى غرار (مساء) بوشوشي تقريبا نشر أحمد الأكحل قصيدة ربيعية حزينة أيضا عنوانها (عند الغروب)، فيها فلسفة وتأمل. بينما كتب ابن ذياب عن الشعر التفاؤلي عند إيليا إبي ماضي تحت عنوان (الحب والبهجة والجمال في شعر أبي ماضي)[2].

وهل يصح أن نقول هنا إن الشعراء الذين بقوا داخل الجزائر كانوا يعيشون في حالة تردد وحزن بينما زملاؤهم الذين تمكنوا من الخروج تحرروا من الخوف وآمنوا بأن طريق الحرية هو الطريق الأمثل؟ من الملفت للنظر أن أحمد بن ذياب الذي جمع بين النثر والشعر أيضا خص مجلة هنا الجزائر بمختارات مما قاله الشعراء في فصل الربيع تحت عنوان (معرض للشعراء في الربيع)[3].

إن قصيدة (قدوم المساء) لابن جلا قصيدة متحررة. وقد ظهرت إلى جانبها قصيدة (الشاعر المحتضر) للشاعر الفرنسي الرومانسي لامرتين[4].

وقد سبق القول بأن الطاهر بوشوشي ترجم قصيدة (الجندول) للشاعر المصري علي محمود طه إلى الفرنسية، وهي القصيدة التي غناها محمد عبد الوهاب وأطرب بها الفئة الأدبية. وعلق بوشوشي على حياة وشعر محمود طه، باعتباره شاعرا رومانسيا متميزا (توفي سنة 1950). ورأى بوشوشي أن قصيدة الجندول من أجمل ما نظم علي محمود طه. ونوه بديوانه الملاح التائه وليالي الملاح التائه، وشبه علي محمود طه بالشاعر الفرنسي موسوي Mussuet

(1) نفس المصدر 64، أفريل 1958

(2) نفس المصدر 65، مايو 1959، نفس المصدر 45، أبريل 1956.

(3) نفس المصدر 65، مايو 1958.

(4) هنا الجزائر 52، يناير 1957.

والشاعر الأنجليزي شيللي Shelley .[1]

كما تحدث ابن جلا عن بحيرة لامرتين في الأدب العربي، وخصص مقالا طويلا في لترجمة حياة هذا الشاعر الفرنسي الشهير والتعريف بدوره في الحركة الرومانسية. كما تناول (بوشوشي) بالتعريف والترجمة الشعراء إبراهيم ناجي ونقولا فياض وابن زيدون، وغيرهم من أعلام الشعر الذاتي[2] .

ومن هذا الشعر الرومانسي نشير إلى وصف جولة على زورق في بحيرة كومو بإيطاليا لمصطفى بن يلس (وهو مدرس بالجامع الكبير بالعاصمة) يقول فيها من قطعة:

ركبنا على متن البحيرة ساعة وأمواج أنس النفس عفوا تَدَفّق[3]

محمد الأخضر السائحي

ولد في بلدة (العلية) نواحي تقرت سنة 1918 وفيها درس الابتدائي، ثم انتقل إلى القرارة حيث درس سنتين على الشيخ إبراهيم بيوض مدير معهد الحياة وعالم المنطقة. ثم توجه إلى جامع الزيتونة بتونس سنة 1935 وتخرج منها بعد أربع سنوات، وشارك في الصحافة التونسية والحياة الطلابية. ولما رجع إلى الجزائر تعاطى التعليم الحر ربما في مدرسة النجاح بتماسين. وقد عمل في القسم العربي بالإذاعة الفرنسية بالجزائر ابتداء من سنة 1952، وظل ينتج فيها إلى الاستقلال. كما علم في الثانوي، وأسهم في تحرير مجلة (هنا الجزائر) التي كانت تصدرها الإذاعة المذكورة. نشر شعرا كثيرا في الوصف والدين والأخلاق. وبدأ النشر في الصحف التونسية. وكان هو وبوشوشي وأحمد الأكحل وعبد الكريم العقون يمثلون تيار الشعر الوجداني في الجزائر، وشعره

(1) هنا الجزائر 20، يناير 1954.

(2) هنا الجزائر 30، ديسمبر 1954

(3) هنا الجزائر 69، نوفمبر 1958.

عمودي رفيع. من دواوينه همسات وصرخات، وجمر ورماد.

وربما اشترك، وهو في تونس، في الحياة السياسية أيضا، فقد مدح بورقيبة مبكرا (سنة 1938)، وكانت تونس تعيش عهدا من التوتر السياسي فتأثر به. ويبدو أنه لم ينظم شعرا في الثورة، فقد تتبعنا معظم شعره في مجلة (هنا الجزائر) فلم نجد له سوى القصائد التي تتفق مع التيار الذي أشرنا إليه. ومن الطبيعي أن يحدث ذلك لأن المجلة تصدر عن مؤسسة فرنسية رسمية[1].

نشر السائحي قصيدة بعنوان (العمياء). وهي ربما تعد من الشعر الواقعي الجديد. كما ألقى قصيدة في الحفلة التي أعدتها بلدية الجزائر لتكريم الممثل يوسف وهبي وفرقته بعنوان (تحية الجزائر لضيوفها)، وهي قصيدة جميلة معنى ولفظا تحدث فيها عن العلاقة بين الجزائر ومصر وعن الفن والأدب. كما نشر قصيدة حول العام الميلادي الحديد، وهي قصيدة جميلة تدعو إلى التأمل. ونشر أخرى عن ليلة المعراج[2].

ولكن الشغر الومانسي لم يكن حكرا على بوشوشي والسائحي أو شعراء مجلة هنا الجزائر، فقد كانت تغلب على الشاعر عبد الكريم العقون النزعة الرومانسية، وبدأ عدد من الشعراء الشباب مسيرتهم في قطار الرومانسية مثل عبد الرحمن الزناقي ومحمد الأخضر عبد القادر السائحي. وقد تأثر أبو القاسم سعد الله منذ البداية بهذه المدرسة الأدبية ثم ظل تحت سلطانها حتى خلال الثورة. ويشهد ديوانه الزمن الأخضر على ذلك.

---

(1) محمد ناصر، الشعر الجزائري، مرجع سابق، ص 676، ومجلة آمال عدد خاص بالشعر الجزائري المعاصر، والمجاهد الأسبوعي 12 يوليو 1970، وصلاح مؤيد، الثورة في الشعر الجزائري، 1963.

(2) هنا الجزائر 26، يوليو 1954. وقد انعقدت الحفلة يوم الأحد 13 يونيو. أنظر أيضا نفس المصدر، 62، فبراير 1958.

الشعر المحايد

بالإضافة إلى الشعر الرومانسي نشرت هنا الجزائر شعرا آخر ينتمي إلى التيار الإصلاحي أو الإخواني والاجتماعي والديني والوصفي. ومن الشعراء الذين تعاطوا هذه كل هذه الأنواع أو بعضها الهادي السنوسي وابن ذياب والأكحل. ويمكننا وصف هذا النوع من الشعر المنشور في هنا الجزائر بالشعر المحايد أو غير المنحاز، فهو يتناول الدين والرثاء والطبيعة والمخترعات ولكنه ظل بعيدا كل البعد عن السياسة والوطنية والثورة.

وإذا ما نقل كابت عن شاعر أو درسه فإن الأشعار المنقولة تظل بعيدة عن ساحة السياسة، سواء كان النقل من الأدباء العرب أو الفرنسيين. فقد احتفلت (هنا الجزائر) بجبران خليل جبران، وأحمد زكي أبو شادي، وأبي القاسم الشابي، وعلي محمود طه، وإبراهيم ناجي، بل اهتمت بأعمال الشعراء في مؤلفات أخرى مثل ما فعل السائحي مع الشعراء الذين ضمتهم رسالة الغفران للمعري، وحديث ابن ذياب عن رابعة العدوية، وحديث جلول البدوي عن ديوان أحمد الخلوف. وهذا الحياد في المختارات الأدبية حصل في النثر أيضا.

الشعر الشعبي

احتوت (هنا الجزائر) على قطع من الشعر الملحون لابن التريكي، وابن الشاهد، وابن إسماعيل، والدحاوي، ورحاب الطاهر... في أغراض شتى، ولكن ليس منها الشعر السياسي أو الوطني، كما قلنا.

عاصر الشعر الشعبي الثورة وتغنى بها مثل ما تغنى بها الشعر الفصيح. وبقدر ما كان الشعر الفصيح قد احتضن الثورة باعتبارها حدثا وطنيا ضخما له مدلوله التاريخي والمستقبلي وله مغزاه في تثبيت الهوية واسترجاع الاستقلال بقدر ما كان الشعر الشعبي قد نظر إلى الثورة على أنها حدث كبير للتحرر من ربقة الاستعمار البغيض ومن قمع القوانين الاستثنائية الجائرة (الانديجينا)

والانتقام من عهد الإهانة والمذلة وسلب الأرض والاعتداء على العرض. وإذا كانت نصوص الشعر الفصيح مدونة في أغلبها فإن نصوص الشعر الشعبي لم تدون في أغلبها، ولذلك حفظ الفصيح وضاع الشعبي لأنه اعتمد على الرواية الشفوية والذاكرة، وهذه تذهب مع أصحابها ولا تحفظ في أوراقها.

ومن حسن الحظ أن بعض الباحثين قد اعتنوا بالشعر الشعبي واستخرجوه من ذاكرات أصحابه أو من رواته ودونوه ودرسوه فأصبح مرجعا للباحثين في تراث الثورة الأدبي. والشعر الشعبي قد دون بلهجة صاحبه وقومه. والجزائر وطن واسع الأرجاء مترامي الأطراف، وقد تعددت لهجاته بتنوع سكانه وتعدد جهاته، ورغم أن اللهجة العامية العربية أقرب إلى أن تكون هي اللهجة المشتركة التي يفهمها الجميع فإن لهجة الشعر الشعبي في كل منطقة تبقى ذات خصوصية لا يفهمها ويتعمق معناها إلا أهل تلك المنطقة أو البلدة. فنحن عند تدويننا للشعر الشعبي يجب أن نقول إنه منطوق بلهجة أهل كذا، ويجب أيضا أن نأتي بباحث أو حتى عارف من أهل هذه المنطقة ليحل بعض غوامضه ويكشف عن أسرار معانيه وتراكيبه.

وهكذا فعل بعض الباحثين كالعربي دحو الذي جمع ودرس الشعر الشعبي في منطقة الأوراس، وهي منطقة شاسعة غزيرة الإنتاج. خصص العربي دحو الجزء الأول من مدونته لدراسة الشعر وخصائصه اللغوية والفنية، والثاني للنصوص مع إخضاعها لمقاييس الفهم والتذوق. وقد لاحظ الباحث أن هذا الشعر قد اعتنى بالأسماء العربية والفرنسية الشائعة زمن الثورة مثل الجهاد والشبان وأوليدات (أبناء) العرب والشهداء والجنود والحزب الوطني (الوطنيون). ومن الأسماء الفرنسية التي راجت في الشعر الشعبي: فرنسا وديغول والقوميّة (مصطلح يعني الجنود الجزائريين الاحتياطيين في الجيش الفرنسي)... كما سجل الشعر الشعبي حماس الشاعر والجماهير للثورة ووصف المعارك وتحركات جيش التحرير وهزائم العدو، واهتم بالأعلام والأماكن والعتاد الحربي المستعمل عند الطرفين، وسير المعارك، والسجون ومعاناة

المساجين واللاجئين والمحتشدات والمسؤولين، والبريد، ومساهمة الأشقاء من المغاربة والمشارقة والأصدقاء في دعم الثورة[1].

وفي هذا النطاق نشير إلى عمل الأستاذين جلول بن يلس وأمقران الحفناوي، وهو المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون (الشعبي). هذا الكتاب يتناول - كما يدل اسمه - شعر المقاومة والثورة، أي تدوين ما حفظته الذاكرة الشعبية من أشعار في الانتفاضات الوطنية التي حدثت عبر فترة الاحتلال، وهي فترة طويلة ولا يمكن الإحاطة بها لتعدد الانتفاضات من جهة والاعتماد على الذاكرة وحدها من جهة أخرى، ولا شك أن كثيرا من الشعر الشعبي قد ضاع مع أصحابه لأنه لم يدون أصلا.

أما ما يتعلق بثورة أول نوفمبر فإن الكتاب يتناولها بداية من صفحة 119. ولا شك أن الشاعر الشعبي قد فاضت قريحته وانطلقت عاطفته منذ فاتح نوفمبر ولكن التدوين هو الذي خانه. ومهما كان الأمر فإن المؤلفين المذكورين قد دونا قصائد تتعلق بمعارك محددة أو بثورة التحرير، وهي:

- معركة النسنيسة للشاعر المدني رحمون
- ثورة التحرير للشاعر بوزيان (؟)
- ثورة التحرير للشاعر الحاج أحمد ولد البشير
- ثورة التحرير للشاعر بلعباس محمد (ابن القائد)
- ثورة التحرير للشاعر عبد القادر المعسكري (العوفي)
- سجل معارك عديدة وقعت إبان ثورة التحرير للشاعر محمد بلماحي
- ثورة التحرير للشاعر قزول الميلود
- ثورة التحرير للشاعر عبد القادر بن شهرة

---

(1) العربي دحو، الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى بمنطقة الأوراس ج1-2، م.و.ك. 1989. انظر أيضا كتابنا أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ج 3، شعر الشيخ ابن رحومة في معركة غوط شيكة.

تلك هي النماذج التي دونها المؤلفان، فحفظاها من الضياع. ولا شك أن ثورة التحرير قد أنطقت شعراء شعبيين كثيرين، معروفين ومجهولين، ولكن التدوين خانهم كما قلنا، ولم يجدوا من يجمع آثارهم ويحفظها. ونحن نتوقع أن بعض مراكز البحث والمتلقيات والندوات التاريخية قد سجلت لبعض هؤلاء الشعراء إنتاجهم[1].

لم يكن الشعر الشعبي كله شعر جد وحرب بل كان هناك شعر شعبي إخواني أو غزلي أيضا. فقد نشرت مجلة هنا الجزائر مساجلة غرامية بالشعر الملحون بعثها الشاعر محمد حقي السائح من تماسين، وهي مساجلة دارت بين فتى وفتاة جرت في فزان (ليبيا) حسب النص، وللمساجلة مقدمة نثرية[2].

وتضمنت المجلة نفسها قصيدة عنوانها (قمر الليل) لابن كريو، وقصيدة (مخدع مغنية) التي لم يذكر معها اسم قائلها في الفهرس. وقد نشرت هذه المجلة أشعارا تراثية لشعراء الملحون من أمثال ابن التريكي وابن الشاهد وابن اسماعيل، وغير التراثية كأشعار الدحاوي ورحاب الطاهر. ويكاد كل عدد من المجلة يتضمن بعض هذا الشعر. وفي باب الدراسات عن الشعر الملحون كتب بالسائح بوعلام دراسة في حلقتين عنوانها: الشعر الجزائري الملحون: اتجاهاته وضروبه[3].

الشعر الإخواني والاجتماعي والإصلاحي

نقصد بالشعر الإخواني ما يدور بين شاعرين أو أكثر أو بين شاعر وكاتب من مناجاة أو مساجلات أو تظرف ونحو ذلك. وفي الفترة التي نعالجها وجدنا شعرا غير كثير دار بين الأخضر السائحي وزميل له في هنا الجزائر. ونعتقد أن

(1) المكتبة الوطنية، الجزائر، 1975.
(2) هنا الجزائر 57، أوت 1957.
(3) هنا الجزائر 20، يناير 1954، ونفس المصدر 48، يوليو 1956.

هذا اللون لا يخلو منه زمان ولا مكان، رغم أن الثورة قد شغلت الشعراء عنه، كما قلنا. ويدخل في الشعر الإخواني التقاريظ أو تصدير الكتب الجديدة من قبل بعض الشعراء.

بمناسبة حفل التكريم الذي أقامه بعض الأدباء للشيخ أحمد توفيق المدني في شهر يونيو 1955 ألقى عدد من الشعراء قصائد بالمناسبة شارك فيها الشعراء: مفدي زكرياء الذي ألقى "قصيدة عصماء" حسب تعبير حمزة بوكوشة الذي نشر وصفا للحفل، وعبد الكريم العقون الذي ألقى "قصيدة بليغة"، بينما شارك أبو القاسم سعد الله الذي كان متغيبا عن الحفل، بقصيدة "بديعة... أخذت بمجامع القلوب"، (ألقاها نيابة عنه عبد السلام مرجان)، ثم ألقى الشيخ أحمد سحنون "قطعة شعرية رائعة"[1].

وفي حصة (نادي القريض) التي كان ينشطها الأخضر السائحي في الإذاعة الجزائرية خصص حصة عن محمد العيد وشارك فيها الشاعر أحمد الأكحل بقصيدة يبدو أنه أهداها إلى شيخه محمد العيد. فقام السائحي بإرسال قصيدة الأكحل إلى محمد العيد بعين مليلة فأجابه عنها بقصيدة على وزنها وقافيتها. قال الأكحل:

ذكرى ملاك الشعر حم العيد   ملكت شعوري مثل ذكرى العيد

وهي من أربعة عشر بيتا. فأجابه محمد العيد:

يا شعر أنت رسالتي وبريدي   أبلغ لأحمد أبلغ التمجيد

وهي من خمسة عشر بيتا[2].

هذا النوع من الشعر كان سائدا بين الحربين واستمر إلى أوائل الثورة. وكان فرسانه هم أحمد سحنون ومحمد العيد والربيع بوشامة ... وكانت

---

(1) انظر البصائر، عدد 331، كلمة وصف الحفل كتبها الشيخ حمزة بوكوشة.

(2) هنا الجزائر 21، فبراير 1954.

مواضيعه تتناول بالخصوص افتتاح المدارس وتشييد المساجد، والدعوة إلى نبذ البدع والرجوع إلى الدين الصحيح وسيرة السلف الصالح، وإحياء التراث والتاريخ الوطني.

بمناسبة العام الجديد (1960) نظم أحمد بن ذياب قصيدة في المحبة والتسامح بين أصحاب الأديان الثلاثة في الجزائر وتمنى فيها أن يسود التآخي بين المسلمين والنصارى واليهود، حيث يقول:

فـجميـــــع الـخلـــق لله   وإن ضلـــوا، عبيـــد
حنفـــاء الـــذيـن كـــانـوا   أو نصـــارى أو يهـــود
واجمـع الشمـل علـى الـود   وبـــارك فـــي المـــزيـــد
فـــي ظـــلال مـــن إخـــاء   شـــامـــل الأنـــس وطيـــد
فـــي اتـــحـــاد ووئـــام   صـــادق العـــون أكيـــد[1]

ويمكن القول إن الشعراء الذين التفوا حول مجلة هنا الجزائر قد انتحلوا هذا اللون من الشعر، وهو ما أسميناه بالشعر المحايد.

شعراء آخرون

الحفناوي هالي

كان هالي ناثرا وشاعرا، ولكنه مقل في النثر والشعر. ومقالاته قصيرة وشعره عمودي خفيف أو متعدد القوافي. لم ينظم شعرا في الثورة على ما نعرف ولكنه نظم الشعر في الإصلاح والوطنية. وكان يميل إلى الشعر الرمزي الاجتماعي. عمل زمن الثورة كاتبا عاما للجنة التعليم العليا لجمعية العلماء، وهي اللجنة المسؤولة على البرمجة وتوظيف المعلمين وتحديد الامتحانات والشهادات وما إلى ذلك. وكانت يرأس اللجنة الشيخ العربي التبسي. تخرج هالي من الزيتونة حوالي 1934 وعمل في التجارة والتعليم، قبل أن ينضم إلى

(1) هنا الجزائر 83، يناير 1960.

جمعية العلماء، فعلم بمعهد ابن باديس. وفي زمن الثورة علم في مدرسة التهذيب بالأبيار (العاصمة) إلى أن قبض عليه وبقي في السجن إلى عشية الاستقلال. كان قبل سجنه يحرر في (البصائر) ركنا بعنوان (ندوتي) يكتب فيه مقالات اجتماعية وأدبية قصيرة وأحيانا مرصعة بالشعر أحيانا.

وبعد الاستقلال التحق بوزارة الأوقاف فكان مديرا للنشاط الديني والعلمي. وفي طريقه إلى المسيلة لافتتاح أحد المساجد قتل في حادث سيارة. وقد كتب أحدهم في جريدة الشعب كلمة عنه بمناسبة ذكرى وفاته (توفي في يناير 1965) دعا فيها إلى جمع تراث الشيخ هالي والتعريف به وإظهار مكانته في العلم والأدب والثقافة. ولكن أحدا لم يستجب حتى الآن سوى صديقه محمد الصالح رمضان الذي نوه به في عدة مناسبات[1].

أبوبكر بن رحمون

من مواليد ليانة (ولاية بسكرة) سنة 1921، حفظ القرآن في مسقط رأسه ودرس على ابن باديس سنة 1936، وعمل في جريدة الوفاق مع ابن عمه، السعيد الزاهري في وهران سنة 1940. ولكنه لم يطل الإقامة أكثر من سنة. وتعاطى التعليم في عدة أماكن منها عين زعطوط بالأوراس، ومدرسة الشبيبة بالعاصمة، واعتنق مبادى الإصلاح. وبعد الاستقلال مال إلى التصوف ورجع إلى بسكرة، ويقال إنه عاش مرحلة صعبة بحيث أصبح يبيت على الأرصفة. وله ديوان شعر نشر- كما قيل- بدون تقديم ولا تعريف بالشاعر. وكان شعره قد نشر في البصائر وفي بعض جرائد تونس ومصر. وتوفي بمستشفى الحكيم سعدان في بسكرة سنة 1984. ويبدو أن شعره وجداني قوي وجميل. ولم نطلع

---

(1) صلاح مؤيد، الثورة في الأدب الجزائري، مرجع سابق، ومحمد الصالح رمضان، سوانح وارتسامات، الجزائر 2004. انظر أيضا ع. ر. جريدة الشعب، 28 يناير، 1966.

على كل شعره، ولم نعرف ما إذا نظم في الثورة أم لا[1].

أحمد سحنون

شاعر وواعظ وكاتب، شعره ديني وإصلاحي ووطني. وجدته الثورة في كهولته، فكان يكتب النثر أكثر من الشعر. وله ديوان يحتوي على نماذج من القصائد الجميلة. وقد علمنا أنه ألقى قصيدة في حفل تكريم صديقه أحمد توفيق المدني، يونيو 1955، ولكنها تعتبر قصيدة إخوانية تعبر عن الوفاء والتقدير لا السياسة. دخل سحنون السجن مثله مثل العديد من أعضاء جمعية العلماء، وكان قبل ذلك يعمل في جريدة البصائر ضمن هيئة تحريرها. وكان يراجع فيها مادة الشعر ويحرر باب الوعظ والإرشاد. وقد جمعتني به بعض المناسبات خلال السنة التي قضيتها في العاصمة (1954-1955)، إحداها حين زرتهم في مقر جريدة البصائر في باب الوادي وصحح لي بيتا في قصيدة (أطياف) التي نشرتها لي الجريدة. كما التقيت به عدة مرات بعد الاستقلال أثناء قيادته لرابطة الدعوة الإسلامية.

ولد أحمد سحنون في ليشانة (ولاية بسكرة) سنة 1907. ودرس على والده وعلى الشيخ محمد خير الدين. وقد اتصل بابن باديس ولكن يبدو أنه لم يتتلمذ عليه. ولا نعرف أنه درس في جامع الزيتونة. فثقافته ثقافة رجل عصامي، حل بالعاصمة سنة 1936 وأصبح مديرا لمدرسة التهذيب في حي بولوغين (سانت أوجين سابقا). ونشر شعره في صحف الجمعية. اعتقل أيام الثورة وعانى من القمع ثلاث سنوات (من 56 إلى 59)، وكتب الشعر في السجن. وقد مثل (حصاد السجن) جزءا هاما من ديوانه الذي صدر سنة 1977. وفي سنة 1981، صدر له (دراسات وتوجيهات إسلامية). وبعد الاستقلال رجع إلى الكتابة والحديث في الوعظ والإرشاد. وتولى الإمامة بالجامع الكبير. وكان

(1) محمد ناصر، الشعر الجزائري، مرجع سابق، ص 667، وجريدة الشعب، 6 أكتوبر 1980، وجريدة النصر، 19 أكتوبر 1980. وفي المرجع الأخير مقالة لنذير مصمودي عنه بعنوان (ديوان شعر ومأساة شاعر.

خطيبا ولكنه غير حماسي، فهو بطبعه هادى يميل إلى المخاطبة بالحكمة والموعظة الحسنة. ونظرا لمواقفه من النظام السياسي فقد واجه امتحانات عسيرة منها محاولة اغتياله. وكان مرجعا وله مقام معلوم في الحركة الإسلامية التي عاشتها الجزائر خلال الثمانينات والتسعينات[1].

جلول البدوي

ولد في البليدة سنة 1906 وتلقى فيها تعليمه وكذلك في العاصمة، ثم علم في مدرسة الشبيبة الإسلامية بالعاصمة أثناء إدارة الشاعر محمد العيد لها، أي من 1931 إلى 1942. ورجع إلى البليدة وعلم بها أيضا وأدار المدرسة إلى 1956 حين انتقل إلى المغرب حيث نشر شعره في جرائده مثل الرأي العام والعلْم. وكان قبل ذلك قد نشر في جرائد جمعية العلماء كالبصائر، وكذلك في غير جرائد الجمعية كالثبات والمرصاد. ولا ندري إن كان بعض هذا الشعر (في المغرب) في الثورة. وبعد الاستقلال رجع وتعاطى التعليم في بعض الثانويات بالعاصمة إلى أن تقاعد سنة 1971، له ديوان أعلن عنه ولكنه لم ينشره حسب علمنا، وهو (وابل وطلّ)[2].

محمد الأمين العمودي

من أبرز عناصر المثقفين والسياسيين في القرن العشرين بالجزائر، ولكن حظه كان عاثرا فلم يبلغ مراده في الحياة ولا في الآداب، وقد اشتكى ذلك في مراسلته لمؤلف (شعراء الجزائر) محمد الهادي السنوسي. ولد في مدينة الوادي سنة 1890، ودخل التعليم الرسمي، وواصله في مدرسة قسنطينة المزدوجة وتخرج في التوثيق والترجمة، وقد استفادت منه جمعية العلماء عند تأسيسها

---

(1) محمد ناصر، الشعر الجزائري، مرجع سابق، ص 678، والسائحي، روحي لكم، ص81، والبصائر التي صدرت بعد وفاته.

(2) محمد ناصر، الشعر الجزائري، ص 671، والشعر الجزائري المعاصر في مجلة آمال، ص 67، والسائحي روحي لكم، ص 73.

فكان من أعضائها، اختارته كاتبا عاما لها، وأنشأ جريدة (الدفاع) بالفرنسية للدفاع عن الجمعية ومبادئها والمدافعة عن المصالح الأهلية (الوطنية)، وعمل وكيلا شرعيا في بسكرة. أدبه فكه خفيف وعليه سمة من الحزن والتشاؤم. وهو ينتمي إلى الجيل المتقدم في السن وفي الإنتاج الشعري، وماكان لنا أن نورده هنا لولا أنه كان من شهداء الثورة. فقد اغتالته اليد الحمراء (منظمة إرهابية فرنسية) في أكتوبر1957 ويقال إن جثته وجدت عند قضبان السكة الحديدية قرب مدينة البويرة. ودفن في مقبرة بولوغين بالعاصمة قريبا من مقر سكناه. ولا نظن أنه قال شعرا في الثورة، ويبدو أن اغتياله كان عملا إرهابيا هدفه تصفية المثقفين الوطنيين وليس لدوره في الثورة تحديدا لأنه كان عند اختطافه قد بلغ السابعة والستين[1].

محمد الهادي السنوسي

أحد المثقفين المبكرين في القرن العشرين الذين خدموا الثقافة العربية الإسلامية بنشره لمجموعة (شعراء الجزائر) في جزئين، خلال العشرينات، وبأناشيده الوطنية وشعره الإصلاحي ويبدو أنه لم يبق على نفس الحماس والاتجاه بعد تقدم السن وتبدل ألوان الحياة، فقد خفت صوته الشعري منذ الثلاثينات. ولازم التعليم بين 1945-1962. وأثناء الثورة وجدناه محاضرا ومتحدثا في إذاعة الجزائر الفرنسية، ومساهما في مجلة هنا الجزائر.

والسنوسي من مواليد ليانة التي قدمت للجزائر عددا من الأدباء والشعراء، ولد سنة 1902 وعاش إلى سنة 1974، درس على والده في مسقط رأسه ثم على الشيخ عبد الحميد بن باديس، ثم عمل في الصحافة الإصلاحية من المنتقد إلى الشهاب، وكان صوت الشباب المجلجل المفعم بالأمل والوطنية، وسافر إلى فرنسا للوعظ باسم جمعية العلماء. وبعد الاستقلال رجع إلى ميدان التعليم إلى أن تقاعد سنة 1971. وكان شعره الذي رأيناه في مجلة هنا الجزائر لا علاقة

---

(1) محمد ناصر، الشعر الجزائري، ص 681، والسائحي، روحي لكم، ص 17. ومقالة حمزة بوكوشة عنه في مجلة الثقافة، يناير 1972.

له بالثورة. وربما له شعر فيها لم نطلع عليه[1].

محمد الأخضر عبد القادر السائحي

يعد محمد الأخضر عبد القادر السائحي من أغزر الشعراء المعاصرين للثورة إنتاجا، ومن الذين ارتبط ظهورهم الأدبي بانطلاقة الثورة. عاش في تونس خلال الخمسينات، ولذلك كان على صلة بتطور الأحداث. وقد درس وعمل في عدة مصالح تونسية كالصحافة والإذاعة، وشارك في الحفلات والندوات، كما عمل في صوت الجزائر أثناء الثورة، وانعكس كل ذلك على نشاطه وإنتاجه الشعري، وأصدر ربما أكثر من غيره دواوين، وراوح بين الشعر العمودي والطليق، ولكن يبدو أنه كان لا ينضج شعره ولا يعود إليه بالنقد والمراجعة. ولذلك كان للنقاد رأي خاص في شعره.

ولد في العالية (العلية) قرب تقرت سنة 1933 ودرس بها وفي باتنة، ثم قصد جامع الزيتونة سنة 1949 حيث نال شهادة التحصيل 1956، وهي السنة التي استقلت فيها تونس ودخلت فيها الثورة الجزائرية مرحلة جديدة وانطلقت خلالها موهبته الشعرية. ومن الدواوين التي أصدرها أثناء الثورة: ألحان من قلبي، والكهوف المضيئة، وواحة الهوى. ويقول بعض النقاد إن شعره "متفاوت الجودة". كان في تونس نشيطا في اتحاد الطلبة، وفي العمل الإذاعي والأدبي مثل تقديم التمثيليات والقصص. وقد نشر إنتاجه في الصحف التونسية. وبعد الاستقلال درس في جامعة الجزائر، وعمل في وزارة الشباب وفي اتحاد الكتاب ووزارة الإعلام والثقافة، ونشّط الحياة الثقافية على مستويات مختلفة. خصص جانبا كبيرا من شعره لفلسطين أيضا[2].

---

(1) مجلة الثقافة عدد 24 يناير 1975 و مجلة هنا الجزائر في أعداد مختلفة.

(2) محمد ناصر، الشعر الجزائري، مرجع سابق، ص 677. وآفاق عربية عدد12، أوت 1981، ص 114، وكذلك نماذج من الشعر الجزائري المعاصر. والجابري، النشاط العلمي، مرجع سابق، ص 396.

الفصل العاشر

كتب وكتابات

نحاول في هذا الفصل تصنيف ودراسة المؤلفات والأعمال الفكرية والأدبية والإعلامية التي تركها الجزائريون أثناء فترة الثورة سواء كانت عن الثورة وتفاعلاتها مباشرة أو كانت خارجها. ونلاحظ في البداية أن الإنتاج الفكري على العموم كان أقل بكثير من حجم الثورة كما ونوعا.

وكأني بالكتّاب-على اختلاف مشاربهم ولغتهم- كانوا يعيشون الثورة عملا وهمّا أكثر مما كانوا يعيشون الفكر والقلم. ولا شك أن انعدام المطابع أو قلتها والشعور با لخوف وعدم الاستقرار ساهم في شح الإنتاج الفكري. وربما كان الضعف المادي عاملا مساعدا على هذا الفراغ. لقد كدنا نجد أن الذين كتبوا عن الثورة الجزائرية كانوا من الأجانب، وهذه ظاهرة غريبة، فلو أحصينا الكتب والمقالات التي كتبها الأجانب لتفوقت على تلك التي ألفها جزائريون. على أن هناك بعض الجزائريين الذين كانت حظوظهم أفضل من زملائهم في ميدان المساهمة والشهرة، فهم ليسوا سواء في ميدان الإنتاج، فمفدي زكريا وصالح خرفي في ميدان الشعر مثلا كانا أكثر شهرة وإنتاجا من محمد العيد وصالح باوية. وكانت شهرة مالك بن نبي في المشرق أوسع من شهرة الشيخ الإبراهيمي رغم أن كليهما كان يكتب النثر ولكن الأول يكتب بالفرنسية والثاني بالعربية.

أما الإنتاج باللغة الفرنسية وفي فرنسا بالذات، فقد وفرته مجموعة من الكتاب اخترقوا حاجز الاستعمار وخرجوا بأدبهم-ولاسيما الرواية والشعر والقصة- إلى العالم من حولهم. فكانت مؤلفات مالك حداد، وكاتب ياسين، ومولود معمري، ومولود فرعون ومحمد ديب وآسيا جبار قد لفتت الأنظار إلى ظاهرة تسمى الأدب الجزائري بلغة المستعمر.

ولكن هذه الكوكبة من الأدباء سطعت ثم انطفأت بسرعة أو كادت، فقد أبدعت خلال الخمسينات ثم توارت بالحجاب وكادت تترك ساحة الإنتاج بدون فارس. لماذا؟ لقد أشرقوا فجأة وأفلوا فجأة أيضا، مع بعض الاستثناء، ربما لأن استمرار الثورة، ولا سيما بعد 1959، خيب آمالهم في استجابة السلطات الاستعمارية لمطلبهم وهو إيجاد حل مناسب يرضي الطرفين: الجزائري والفرنسي. فقد كان أغلبهم يؤمن بأن على البلدين ألا يفترقا، وإلا ستحل الكارثة. وقد زاد ظهور التطرف من جانب منظمة الجيش السري وتقاتل الإخوة في فرنسا (الجبهويون والمصاليون) وإصرار الجبهة على رفض المفاوضات إلا على أساس الاستقلال الكامل، زاد كل ذلك من مخاوف الكتّاب باللغة الفرنسية من شبح المستقبل. كما أن بعضهم، مثل مالك حداد، قد دخل جبهة التحرير ميدانيا وأصبح متحدثا باسمها في مؤتمرات الكتاب الدولية، بينما بقي آخرون يرضعون من ثدي غيض حليبه وجفت عروقه، فالتزموا الصمت أو عاتبوا التطرف والتعصب اللذين سيحرمانهم من مستقبل سعيد للجميع، حسب رؤيتهم.

وقد حاولنا أن نستعمل نفس التصنيف الذي استعملناه في كتاب التاريخ الثقافي السابق، غير أن ضعف الإنتاج قد حرمنا من كمال الصورة. لذلك اضطررنا إلى وضع عدة تخصصات تحت عنوان واحد. وهناك مواد وتخصصات ليس لها وجود أصلا تقريبا في هذه الفترة، كالكتب الدينية والعقائد وكتب اللغة. ونحن نريد أن ندرس ما تركه الجزائريون وليس ما تركه غيرهم. وكان

من الممكن أن نفرد المسرحيات والتمثيليات والمجموعات الفنية كاللوحات والرسوم والصور تحت عناوين معينة في هذا الفصل، ولكننا فضلنا عدم اللجوء إلى ذلك بعد أن أثبتنا هذه الأعمال في أماكنها في الفصول الأخرى. كما ننبه إلى أننا لم نكرر هنا الكتب التي ذكرناها -بالعربية والفرنسية- مع أصحابها في الفصول الأخرى. ونرجو أن نكون قد وفقنا فيما لجأنا إليه.

الدراسات التاريخية

لم يكتب الكثير في التاريخ خلال الفترة التي ندرسها. وقد اختلطت كتابته بالدعاية السياسية عند البعض، مثل كتابات مسعود مجاهد وأحمد توفيق المدني. فكان هذان وأمثالهما يكتبان ردودا وانفعالات مع الأحداث أكثر مما كانا يكتبان التاريخ. وكان الجمهور العربي على العموم يريد أن يقرأ ويعرف عن ثورة الجزائر المزيد وعن علاقة الجزائر بفرنسا وبالعالم العربي والإسلامي. ولعل أقرب الأعمال للتاريخ في هذا الوقت هو كتاب تاريخ الجزائر العام للشيخ عبد الرحمن الجيلالي. ولكن يلاحظ أن الجزء الأول من هذا الكتاب ظهر قبل الثورة، ولم يصل جزؤه الثاني إلى الفترة الاستعمارية أصلا. والكتاب الذي تناول الفترة الاستعمارية وظهرت فيه روح الثورة هو كتاب الأمير عبد القادر ليحيى بوعزيز. وهو أيضا كتاب ظهرت عليه مسحة الدعاية والخطابية. وأما كتاب (الجزائر الثائرة) للشيخ الفضيل الورتلاني وكتاب (ليل الاستعمار) لفرحات عباس فقد كانا عبارة عن وثائق إدانة للاستعمار وليسا كتابين في التاريخ عموما، ومثلهما في ذلك محاضرات الشيخ الإبراهيمي على طلبة معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة، فقد كان أيضا قد تناول مواضيع تاريخية ولكن بروح ثورية وأدبية.

كتابات ابن نبي عن التاريخ

ولا يبعد موقف مالك بن نبي من التاريخ عن موقف الإبراهيمي، فهما

متقاربان، ولكن ابن نبي أعطى التاريخ معنى أعمق وأوسع. فهو يقول: "كل شعب يجب أن يصنع تاريخه بوسائله الخاصة، وبأيديه ذاتها." والتاريخ في أي مستوى من الحضارة يتم إنجازه إنما يمثل النشاط المشترك للأشياء والأشخاص والأفكار المتاحة في ذلك الحين بالذات، أي في نفس الأوان الذي يواكب عملية إنجازه... من هنا يجب أن نحلل التاريخ إلى أجزائه الذرية: فالنشاط الفردي يمثل ضمن بعض الشروط المعينة "ذرة" من التاريخ. ويمكننا أن نمثله ضمن أكثر أشكاله بساطة، في صورة نشاط الصانع اليدوي المنكب على عمله والمقص في يمناه، أو في صورة نشاط الجندي المسلح ببندقيته في ميدان القتال، فهذان الآدميان يصنعان التاريخ إذا تحقق لهما توفر الشروط العادية (الإنسان وأدواته) (وكيف يكون ذلك؟...ولماذا يكون؟...) وإلا يكون العمل عبثا أو مستحيلا"[1].

حقيقة إن ابن نبي تحدث عن صنع التاريخ وليس كتابته أو منهجه، ولكنه في النهاية جعل الأشياء والأفراد كلهم يشتركون في صنع "ذرات" التاريخ في نفس الوقت، وفي لحظة ما من نبض الزمن. وبذلك يكون التاريخ هو حقيقة أمة بأسرها، كيف تحس به، كيف تتمثله، كيف تلده؟ ذلك هو سر التاريخ لكل أمة، ولن تنوب عنها في إعطائه الحياة أية أمة أخرى.

كتابات الأشرف عن التاريخ

خلال الثورة كتب مصطفى الأشرف فصولا عن الحركة الوطنية وتطور المجتمع الجزائري ونشرها في مجلات فرنسية منها (الأزمنة الحديثة) و (الحضور الإفريقي). وهذه البحوث لم تطبع عندئذ في كتاب، وهي في علم الاجتماع أكثر منها في علم التاريخ. وقد كتب الأشرف بحوثه بروح وطنية، وكان يبحث في ركام التاريخ الاستعماري على عناصر الهوية في المجتمع الجزائري في القرن التاسع عشر، فوجدها في عدة معالم ومقومات منها حركة العرائض التي تقدم

(1) ابن نبي، آفاق جزائرية، القاهرة، ط 2، 1971.

بها أعيان المدن، وفي المشاعر التي عبرت عنها الصحافة والكتابات الفردية والمذكرات، وأبرزها جميعا هي روح المقاومة التي لم تخمد ولم تعترف بالهزيمة. ولم يكن الأشرف مهتما عندئذ بالثورات لأنها كانت تنبع من الريف وهو يبحث عن دور المدينة. ومهما كان الأمر فلا مناص من أن نعد كتابات الأشرف في باب الدراسات الإنسانية والتاريخية، وهي كتابات لم تجمع وتطبع بالفرنسية إلا بعد الاستقلال. وربما ترجم ونشر بعضها في مجلات تونسية أثناء الثورة. وإليك الآن عناوين البحوث كما ظهرت في الترجمة العربية للكتاب الذي سماه مؤلفه، الجزائر: الأمة والمجتمع.

تاريخ الجزائر

كنا ونحن طلاب في القاهرة نسمع باسم ونشاط مسعود مجاهد في مجال الكتابة ضد الاستعمار. وقد أصدر عدة كتب يغلب على الظن أنها كانت تنطلق من العاصمة الأردنية عمان. كان مكثرا من الكتابة، وكان يضيف إلى اسمه لقب (القاضي)، ولا ندري كيف استقبل الجمهور العربي المتعطش لأخبار الجزائر كتبه عن الاستعمار الفرنسي لأن العلاقات بين مصر (حيث كنت) والأردن(حيث كان) لم تكن على ما يرام. ولم يكن القاضي مجاهد - حسب علمي- يتولى أية مهمة لجبهة التحرير رغم الحاجة إلى أمثاله ممن خدموا في الإدارة الفرنسية في منصب عال، وقد كان هو قاضيا في الخروب قرب مدينة قسنطينة. وكان الحديث بين الطلاب حول دوره في المشرق لا يستطيع أحد أن يمنعه، فالإنسان أثناء الثورة متهم إلى أن يثبت العكس، خلافا للقانون الذي يقول بعكس ذلك.

والواقع أن قصة مسعود مجاهد في هذه الفترة تبدأ من البداية، من سنة 1955 حين وجدناه قد أعد مشروعا لإنشاء جريدة سماها (الجزائر العربية)، واقترح أن تكون ليبيا كبلد تتوسط بين المشرق والمغرب هي مقرها، لكي تصل إلى القراء هنا وهناك بسهولة. وفي هذا الصدد، ورغم وجود الوسائط المعروفة في فترة الثورة، فإنه كتب مباشرة إلى الرئيس عبد الناصر رسالة يطلب فيها

المساندة لتحقيق مشروعه. وإذا كنا قد رأينا نسخة من رسالته فإننا لم نطلع على رد السلطات المصرية عليها. وقد امتلأت رسالته بالوعود والحماس ومدح الزعيم المصري والأمة العربية والضرب على وتر المرحلة(1).

أما كتبه في التاريخ فقد ظهرت بعد هذا المشروع الذي يبدو أنه لم ينجح فيه. ونبادر إلى القول إننا رأينا بعض كتبه ونحن طلاب سنوات الخمسينات في طبعتها الأولى، ثم رأينا بعضها حديثا في مكتبة الجامعة الأردنية، ولكننا لم نر منها في الجزائر سوى الطبعة الثانية، أي طبعات ما بعد الاستقلال. وهذا قد يكون طبيعيا، لأن كتبه لم تدخل الجزائر أثناء الثورة لحدة لهجتها ضد الاستعمار. ولكتبه عناوين متقاربة ومحتويات مكررة وأسلوب بعيد عن روح التاريخ، كما أشرنا.

فهذا كتاب: الجزائر عبر الأجيال، ظهر في طبعته الثانية سنة 1963 بالجزائر، وهو يحمل على غلافه عبارة مسعود مجاهد، القاضي المتقاعد. وقد ركز فيه على فكرة النقابات ودورها مثل الاتحاد الفرنسي للعمال المسيحيين، والاتحاد العام للعمال الكادحين... ويقول إن اندماج العمال الجزائريين في النقابة الأخيرة قد أفاد الثورة وإن هذا "الكفاح جزء لا يتجزأ من تاريخ الجزائر" (ص 74). وبعد الإهداء جاء تقديم الكتاب من قبل السيد أسعد بيوض التميمي مدير دار الأيتام الإسلامية الصناعية في القدس الشريف. وقد قال فيه إن مجاهد قد ساهم في كتابة تاريخ الجزائر وإنه مسجل في نقابة المحامين الأردنيين، وإن كتابه (الجزائر عبر الأجيال) قد أوضح تاريخ الجزائر "من أيام الأمير عبد القادر إلى يومنا هذا" وهو كتاب مرجع للمؤرخ وحريق للظالم.

أما منهج السيد مجاهد في هذا الكتاب وغيره من كتبه فلم يعتمد على الفصول والأبواب. وقد بدأه من الفتح الإسلامي إلى ما بعد الاستقلال (ونحن هنا نتكلم عن الطبعة الثانية)، وألمّ فيه بخصائص الشعب الجزائري. ومن

---

(1) انظر عن هذا الموضوع فقرة الصحافة في فصل الإعلام.

عناوين هذه الفقرة: مجتمع من الناس يتكون (كذا ؟)، ومجتمع له لغة واحدة، ومجتمع له وطن واحد، ومجتمع له وحدة اقتصادية، ومجتمع له عادات وتقاليد واحدة وثقافة واحدة (ص 20) . وهو يؤكد أن الشعب الجزائري استكمل العناصر المذكورة بعد الفتح العربي، وهي العناصر التي تأكدت بعد "الفتح التركي" . ثم تحدث مجاهد عن مسيرة الجزائر عبر العصور، ولكن الكتاب ركز على مرحلة الاستعمار والثورة. وسار فيه صاحبه على عناوين مختلفة غير متناسقة مثل مساندة الغرب لفرنسا، دور الغرب في حرب الجزائر، موقف الدول الأوروبية، معارك الأمير، هجرة الجزائريين للمشرق، ثروة الجزائر عبث بها الاستعمار. . . وختم هذه العناوين بعبارة الجزائر عربية. ويحتوي الكتاب على 735 صفحة. وهو مكتوب بأسلوب دعائي، كما قلنا. وله مراجع لكن بعضها لا معنى لذكره مثل: إبراهيم الجزائري (؟)، والزعيم زغلول (؟) وإبراهيم بن سهل. . . وليس للمراجع تاريخ ولا مكان للنشر.

إن كتابا من هذا النوع وإن كان يتحدث عن الجزائر فإنه لا يفيد القارى الذي يريد أن يعرف الحقيقة عن الثورة وتاريخ المقاومة، وهو كتاب للإعلان عن صاحبه أكثر من الإعلان عن موضوعه. وربما لذلك قلما يعود إليه الباحثون في مراجع الكتابة التاريخية عن الجزائر.

ولمجاهد مسعود كتاب آخر عنوانه (الجزائر الحرة) أهداه في أربع صفحات إلى أرواح الشهداء. والشهداء هنا هم شهداء الجزائر وشهداء القدس مما يجعلنا نرى أنه قد يكون كتب الإهداء بعد هزيمة 1967. وبعدكلمة للمؤلف جاء تقديم أسعد بيوض التميمي من جديد، وهو تقديم طويل بلغ بضع صفحات. وهناك مقدمة أخرى يبدو أنها كتبت في عهد الثورة إذ يذكر فيها مرور ست سنوات عليها. والكتاب في 464 صفحة. وقد اتبع فيه نفس المنهج الذي اتبعه في الكتاب السابق، أما عناوينه فمنها: الجزائر في العهد الجاهلي، الجزائر في العهد الإسلامي، الجزائر قبل الاحتلال، حرب العقيدة، الأمير عبد القادر، صمود اللغة العربية، ثورة الجزائر. . . وللكتاب مراجع ليست دقيقة أيضا،

فعندما جاء ذكر مصطفى الأشرف مثلا قال أمامه: عدة كتب عن الجزائر(كذا)، ومحمد بن تومرت: الجزائر (كذا). ومادة الكتاب متداخلة مع مواد الكتاب السابق، وهو مكتوب بأسلوب دعائي مكشوف، وليس فيه هوامش ولا تعاليق. ويبدو أنه أضاف أشياء إلى هذه الطبعة لأنه تحدث عن الجزائر بعد الاستقلال أيضا. (ص ٣٨٧). وقد صدرت طبعته الثانية بمناسبة الذكرى العشرين للاستقلال.

ولمسعود مجاهد كتاب بعنوان (تاريخ الجزائر) ولعله هو (الجزائر الحرة) سابق الذكر. وقد جاء ذكر الكتاب كاملا في رسالة شكر بعث بها إليه السيد محمود بوعياد مدير المكتبة الوطنية بعد تلقيه إهداء المؤلف له مجموعة من كتبه، ومنها: الجزائر عبر الأجيال، وتاريخ الجزائر الحرة (كذا)، وانهيار خطط الاستعمار الفرنسي في الجزائر، وأضواء على الاستعمار الفرنسي للجزائر[1].

ويبدو أن نفس الكتاب قد تكرر عنوانه، إذ نجد (تاريخ الجزائر) يحمل أيضا تقديم أسعد بيوض التميمي مثل الكتابين السابقين. وهو يشبههما في العناوين الداخلية وفي المنهج، مع إضافة عناوين مثل: تفاعل العرب مع الأمازيغ، ودور الأساطيل الإسلامية في البحر الأبيض المتوسط، ومقاومة الشعب الجزائري للأتراك... وتخبط الغزو الفرنسي، وعهد الأمير إلى التسليم... ونلاحظ أنه أخذ معلومات غزيرة من كتاب (تحفة الزائر) لمحمد بن الأمير، ومن كتاب (المرآة) لحمدان خوجة، وعن أحمد توفيق المدني. وقد قال مجاهد عن خوجة ما يلي: "وترك وثيقة من أغرب وأثرى وثائق التاريخ الجزائري الحديث...كتابا ضخما أسماه مرآة الأحوال نقله إلى الفرنسية أحد الكتاب اللبنانيين وطبع في مجلد ضخم سنة 1873 بمدينة باريس.." وهذا كله

(1) تاريخ رسالة بوعياد هو 10 مايو، 1966. وفي وقت لاحق 11 يناير 1971 أرسل السيد مجاهد رسالة إلى وزير العدل عندئذ، بوعلام بن حمودة، طالبا منه الإذن بنشر كتاب تاريخ الجزائر (كذا). وهذا طلب غريب، فهل كان المؤلفون الجزائريون يستأذنون في طبع أو إعادة طبع كتبهم؟ ومهما كان الأمر فإن الوزير قد أذن له برسالة تاريخها 19 يناير 1971. وفي الرسالة أن السيد مجاهد (المدافع القضائي، الحراش).

خلط في المعلومات سواء من الناقل أو من المنقول عنه. فالكتاب اسمه (كتاب المرآة)، وليس (مرآة الجزائر) الذي هو لعلي رضا بن حمدان خوجة، وليس هو مرآة الأحوال... والمترجم للمرآة هو حسونة دغيز الليبي الطرابلسي وليس اللبناني... وأن سنة طبع النسخة الفرنسية لكتاب المرآة هي 1833 وليس 1873...

ترى ما مصير القاضي مسعود مجاهد؟ لا شك أن له تجربة عميقة ووثائق دامغة في القضاء الشرعي في الجزائر في العهد الفرنسي. وكم كنا نتمنى لو أنه ترك التاريخ لأهله وكتب كتابا مرجعا عن القضاء، ولاسيما القضاء الإسلامي الذي كان ضحية الاستعمار، فهل ترك مجاهد في وثائقه مخطوطا في شؤون القضاء والقضاة في الجزائر؟

الجزائر الثائرة

يعتبر صاحب هذا الكتاب الشيخ الفضيل الورتلاني، من زعماء العالم الإسلامي وربما كان يعد نفسه لخلافة ابن باديس، الذي تتلمذ عليه وأخذ منه العلم وروح القيادة. ولكن عوامل غير متوقعة صدمت إرادته وطموحه وجعلته مثل الأفغاني، ينجو بجلده في كل مرة حوصر فيها إلى أن دخل القفص في بيروت ثم تركيا كما دخل الأفغاني القفص في اسطانبول. كلاهما كان حيا ولكنه مشلول الحركة وحتى اللسان. وهذا أعظم ما يصيب الزعيم.

بدأ الورتلاني نشاطه في الجزائر معلما وداعية، وحلّال مشاكل، على صغر سنه، ثم أرسل به أستاذه إلى فرنسا ليسابق حزب الشعب للفوز بالجالية الجزائرية في المهجر باسم جمعية العلماء وليدخل هذه الجالية في حظيرة العروبة والإسلام حتى لا تضيع في عش الإهمال والغزو الفكري المصبوب عليها من جميع الاتجاهات. وفي دورة ما تزال غامضة ترك الورتلاني فرنسا والتحق بالقاهرة، ويبدو أن هذه النقلة كانت بتوجيه من حركة الإخوان المسلمين الباحثين عن القيادات الشابة والفعالة في العالم الإسلامي، رغم أن

البعض يقول إن سبب انتقاله يرجع إلى بوادر الحرب العالمية بين فرنسا وألمانيا. في القاهرة التحق الورتلاني بالأزهر الذي وفر له الغطاء كم فعل مع العديد من قيادات العالم الإسلامي سابقا، فأصبح الورتلاني ينشط في حركة الإخوان، ووجد في الشرق مجاله في الخطابة والأضواء، كما وجد الميدان المغاربي فارغا فملأه.

لم يكن هناك أي زعيم سياسي بعد من المغرب العربي في مصر، فلا الخطابي، ولا الفاسي، ولا بورقيبة، ولا الثعالبي، ولا المكي ولا الإبراهيمي كان في القاهرة عندما حل بها الورثلاني. كان الشيخ الثعالبي يملأ الساحة المشرقية خلال الثلاثينات ولكنه رجع من مصر إلى تونس سنة 1937، أي سنة واحدة قبل حلول الورتلاني بمصر. ولم يكن الشيخ أطفيش الرجل المناسب للقيادة عندئذ، ولا حتى الشيخ محمد الخضر حسين الذي جمع بين الأصول الجزائرية والأرومة التونسية، والذي كان رجلا متفرغا للعلم أكثر من السياسة. فكان مجال القيادة في الشؤون المغاربية مفتوحا أمام الورتلاني وحده تقريبا. فأسس هو والشيخ الحسين جبهة الدفاع عن شمال إفريقيا (1942) وهي التي مهدت لميلاد مكتب المغرب العربي بزعامة الخطابي سنة 1947، كما مهدت أيضا لالتحاق قيادات المغرب العربي بالقاهرة.

لم يكتف الورتلاني بهذا النشاط الذي شمل التعامل مع الجامعة العربية الجديدة (1945)، ونشاط جمعية الشبان المسلمين وحركة الإخوان وإنما صعد سلم الزعامة كخطيب شجاع ومتحدث مؤثر وسياسي داهية. فأرسله الإخوان في مهمة حساسة وخطرة إلى اليمن وغيره، ونتج عن ذلك الشروع في إصلاح الأحوال باليمن ثم حدوث الثورة على الإمام يحيى حميد الدين، وهي الأحداث التي مهدت للثورة اليمنية سنة (1962). وعندما التحق الشيخ الإبراهيمي بالمشرق سنة 1952 نسق مع الورتلاني ما يتعلق بالبعثات الطلابية والعلاقة مع حركة الإخوان، والنهضة الإسلامية. وهي أمور ما زلنا إلى الآن نعرف ظواهرها ولا نعرف بواطنها.

ولكن كتاب (الجزائر الثائرة) إذا قرئى بتأن يجيب على أسئلة عديدة تلح على الباحثين، فهو كتاب يضم وثائق هامة من الناحية التاريخية تبدأ من ميلاد جبهة الدفاع عن شمال إفريقيا إلى ظهور الكتاب نفسه سنة 1956، مرورا بأحداث الثورة المصرية والجزائرية. وكان اسم الفضيل الورتلاني يظهر إلى جانب اسم الشيخ الإبراهيمي في الوثائق الصادرة عن مكتب جمعية العلماء والمتعلقة بتبني الثورة ودعمها شعبيا، ودعوة العالم العربي الإسلامي إلى مساندتها. كما كان اسمه يظهر في المراسلات كالبرقيات والرسائل التي تصدر عن مكتب الجمعية بالقاهرة. وإذا كان الشيخ الإبراهيمي قد جاء إلى مصر عندئذ على كبر وعلى مرض فإن الورتلاني وجد في الإبراهيمي مفتاحا يدير به سياسة الجمعية في المشرق مع الحكومات والمنظمات والشخصيات. ومن الطبيعي أن تثير هذه الشخصية النافذة والمؤثرة حساسية زملائه الذين التحقوا بالقاهرة هاربين من الجزائر بعد حادث بريد وهران واكتشاف المنظمة الخاصة، مثل محمد خيضر واحمد بن بيلا وحسين آيت احمد، وأن تتقاطع أحيانا مع نشاط الشاذلي المكي، وأحمد بيوض، وبوجملين هناك. فمن الذي يمثل الجزائر، ومن له الصوت العالي والسمعة الرفيعة، ومن القادر على التأثير في جماهير الشرق وأعيان الشرق. ولولا الثورة المصرية وضباطها الأحرار وإعلان جمال عبد الناصر في (فلسفة الثورة) عن دوائره الثلاث لما استطاع زعيم آخر أن يبز الورتلاني أو يزعزع مكانته كمتحدث باسم الجزائر وجمعية العلماء في المشرق، بل كزعيم من زعماء حركة الإخوان المسلمين.

إن كتاب (الجزائر الثائرة) مجموعة من الوثائق والتصريحات والبيانات والمراسلات غير المنظمة. فهو يشمل مقالات كتبها صاحبه في الصحف، خصوصا: بيروت، المساء، والمنار.. كما يشمل البيانات التي أصدرها مع الإبراهيمي في الثورة وحول الثورة، أو أصدرها وحده. وللكتاب تصدير من عشر صفحات مكتوبة في بيروت في رجب 1375 / فبراير 1956 وعنوانه (التعاون مقدس والتعارف أقدس) وهو يعني تعارف العرب جميعا. قال

الورتلاني في التصدير إن جماعة عباد الرحمن (وهي من الإخوان المسلمين التي سهرت على طبع الكتاب) طلبوا منه جمع المقالات التي كتبها في الأيام القريبة ونشرها في الصحف السورية واللبنانية. . . فأذن لهم بجمعها ونشرها في كتاب، وقال إنها "بضاعة مطبوخة على عجل" كما طلبوا منه كتابة التصدير لها. وبعد التصدير يأتي مقال عن دوره في انقلاب اليمن ثم مقال: الجزائر تجاهد منذ خمسة قرون. . .[1]

وقد قدم للكتاب محمد عمر الداعوق، رائد جماعة عباد الرحمن، وكتب فاتحته رفيق سنو. واشتمل الكتاب على مقابلات تتعلق بالجزائر والمغرب العربي، وهو في بيروت، كما نشر عدة مقابلات ومقالات في جريدتي: الجريدة وبيروت، ويقول في إحدى هذه المقالات إنه "لا وجود للبربر في المغرب العربي لأن البربر تعربوا" وهو رأي يكاد يكون هو رأي الإبراهيمي وابن باديس. ومن مقالاته المنشورة في الكتاب (محنة اللغة العربية في الجزائر). والورتلاني يحدثنا عن الدين والفرق (جمع فرقة) في المغرب العربي، ومحاربة فرنسا الإسلام علنا في الجزائر، ونريد أسابيع التسلح للجزائر، وبرقيات إلى زعماء المغرب والمشرق العربيين، ودور جمعية العلماء، ونص خطاب الشيخ العربي التبسي في مركز جمعية العلماء يوم 7 يناير 1956، وكتب مفتوحة إلى . . ويقع ما صدر من وثائق عن مكتب جمعية العلماء بالقاهرة من صفحة 169 إلى صفحة 211 ثم بيان جمعية العلماء عن الجزائر في المؤتمر السنوي يوم 7 يناير 1956، بتوقيع الكاتب العام أحمد توفيق المدني ونائب الرئيس العربي التبسي، وهو البيان التاريخي الذي أعلنت فيه الجمعية دعمها الصريح لجبهة التحرير الوطني.

فكتاب (الجزائر الثائرة) ليس كتابا في التاريخ أو عن التاريخ (رغم ما فيه من إشارات تاريخية) ولكنه كتاب يحتوي على مادة أساسية للمؤرخ، وهي الوثائق، ولا غنى عنه عند كتابة تاريخ الجزائر المعاصر والثورة بالخصوص

---

(1) جريدة الحياة، بيروت، عدد 2894.

وتاريخ المغرب العربي في المشرق. وعندما كثر التساؤل في الجزائر عن الشيخ الورتلاني ودوره بعد نفيه من مصر على إثر الهمس بالارتباط بالإخوان الذين أصبحوا في نفور مع جمال عبد الناصر، أجابت جريدة البصائر إجابة مقتضبة وغامضة، قالت: إنه في بيروت يدعو للجزائر وقضايا المغرب (العربي) وإنه في صحة جيدة، وهو مستقر هناك، وينشر في أغلب صحف سوريا ولبنان، ويراسل رجال السياسة والحكم[1].

وعندما زار الشيخ العباس بن الشيخ الحسين رئيس جمعية العلماء الشيخ الإبراهيمي في القاهرة ليطلعه على جلية الأمور في الجزائر ويأخذ رأيه في الموقف الذي على الجمعية أن تتخذه من الثورة وما يتصل بها، عرج الشيخ العباس على بيروت والتقى الورتلاني للمشاورة أيضا. ويبدو أن الورتلاني عندئذ (1956) كان يعاني من الغربة والنفي والمرض، لأنه قد توفي في تركيا خلال السنة الموالية. وكان ممنوعا من دخول مصر[2].

تاريخ الجزائر العام

ألف هذا الكتاب الشيخ عبد الرحمن الجيلالي، ولعله هو الكتاب الوحيد الذي اهتم بالتاريخ وسار على منهج تاريخي وانطلق من دافع تاريخي. الشيخ الجيلالي ابن مدرسة الشبيبة الإسلامية، وابن التقاليد الجزائرية العريقة في القصبة وما حولها، سيما تقاليد شيوخ المدرسة الثعالبية من أمثال عبد الحليم بن سماية ومحمد بن شنب، وشيوخ القراءات في الجامع الكبير بالعاصمة. وقد علم وربى أثناء إدارة الشاعر محمد العيد لمدرسة الشبيبة، وظل بعده، وكان كل ما حوله في العين الزرقاء (فونتين بلو) يعبق بالتاريخ عند أبواب مدينة الجزائر القديمة (باب عزون، باب الواد، الباب الجديد ...قصر الجنينة، قصر مصطفى باشا، وحصون المرسى... وعند ما قرر كتابة تاريخ للجزائر كلها كان

---

(1) البصائر، 3 فبراير 1956 عدد 352.

(2) انظر لاحقا

مستوعبا لكل هذه الأماكن وأمثالها في القطر الجزائري كله. فهو لم يكتب تاريخ مدينة ولكنه كتب تاريخ قطر في ضوء التاريخ العربي الإسلامي.

وللشيخ الجيلالي ثقافة عربية وفرنسية وإسلامية عميقة، وله "تفقه" في الدين والدنيا. عمل بالإضافة إلى التعليم في التأليف ومحطة الإذاعة والتلفزيون الفرنسية في الجزائر، وفي مجلة (هنا الجزائر) كما نشر في مجلة الشهاب. وكان يتابع الحركة الإصلاحية ولكنه لم يندمج فيها حسبما نعلم. وله من التآليف غير الكتاب الذي نتناوله ما هو مطبوع مثل (ذكرى الدكتور ابن شنب)، ومسرحية (المولد) النبوي الشريف التي مثلت عدت مرات في وقتها (الخمسينات) في الجزائر وفي غيرها. أما الكتب المخطوطة فمنها (تاريخ الموسيقى العربية) وهو كتاب يبدو هاما في بابه خصوصا وأن المؤلف قد وصفه بأنه "دراسة تاريخية مفصلة في جميع أطوارها وتطوراتها"، ثم مخطوط في (الاستشراق الغربي والثقافة الإسلامية)، ويظهر من عنوانه أنه كتاب ذو قيمة جليلة خصوصا وأن الجيلالي قد عرف نماذج من المستشرقين الفرنسيين في الجزائر. هذه هي المؤلفات المذكورة له عند ظهور الجزء الثاني من تاريخ الجزائر العام (سنة 1955). وقد نشر الشيخ الجيلالي كتبا أخرى ومع ذلك لم ينشر الكتب المعلن عنها، كما أنه توسع في تاريخه بعد ذلك حتى شمل مختلف العصور بما في ذلك فترة الاحتلال الفرنسي، فأصبح الكتاب الآن في عدة أجزاء بدل جزئين.

جاء في الاستهلال أن القطر الجزائري هو "واسطة عقد المغرب العربي منذ العصر الحجري والقديم فيما قبل التاريخ، ثم منذ وجد التاريخ وانتظمه في سلكه ورصفه في ديوانه إلى قرب نهاية القرون الوسطى، أي منتهى دولة الموحدين". إذن فقد غطى في الجزء الأول العصور السابقة لعصر الموحدين وتوقف عند نهاية هذا العصر. أما الجزء الثاني فقد وصل فيه إلى العصر العثماني ولكنه توقف في وسطه فلا هو انتهى عنده ولا هو انتهى منه. لماذا؟ هل حجم الكتاب هو السبب؟ هل لأنه إذا انتهى منه سيتعرض إلى الحملة الفرنسية

وأسباب الاحتلال وهو لا يريد ذلك عندئذ؟ لقد انتهى في الجزء الثاني بنهاية عصر الباشوات(1657)، وهو يقول عن هذا الجزء إنه جعله "لهواة التاريخ ورواد العلم والمعرفة، وسار فيه على منهج الجزء الأول من وضوح التعبير وسهولة الأسلوب واطراد الفصول وانتظام العرض واستيعاب الجمع وإحكام الوضع وصراحة الحكم، متحاشيا كل انحياز"[1].

ويصف الجيلالى انتقال السلطة من الباشا إلى الآغا على يد الديوان الإنكشاري بطريقة تفهمك أن الحكم العثماني في الجزائر كله قائم على مسألة المال، وهو التفكير الذي يقرره المؤرخون الفرنسيون منذ احتلال الجزائر، فالولاة العثمانيون (الباشوات) وخلفاؤهم من بعدهم لا همّ لهم إلا جمع المال من كل وجوهه ثم الرجوع به إلى اسطنبول في نهاية الفترة التي يقضونها في الجزائر. يقول الجيلالي إن الباشا شعر بالاستقلال فاشتغل بشؤونه وجمع الأموال بوسائل الرشوة والسرقة، وكانت السلطة في مجلس الشورى للإنكشارية، فحملوه المسؤولية على الإسراف وسوء استعمال السلطة والتعدي على السفن، لأنه كان يرسل السفن لتعتدي(على من؟) ولتقوم بأعمال القرصنة(ضد من؟)، بل كان الباشا يدفع الأهالي إلى ذلك دفعا. ولم تكن اسطنبول تحس بما يجري في الجزائر. وربما حاول الباشا إخضاع الإنكشارية بالاستعانة عليهم بقبائل البلاد مما أدى إلى الحروب. وأخيرا قرر الديوان سحب رعاية الأموال من الباشا وكلف بها أحد الأغوات، بمساعدة الديوان، وكان ذلك يعني نزع السلطة الفعلية من الباشا. وقد انتهى الجيلالي في هذا الجزء بإبراهيم باشا وهو الذي أخذ منه الأغوات زمام الحكم[2].

يشتمل الجزء الثاني على خريطتين وأربع لوحات مصورة وبعض

---

(1) كتب هذه العبارات في العين الزرقاء، حيث منزله، في 16 جمادى الأول 1375 الموافق 31 ديسمبر 1955. وقد طبع الكتاب في المطبعة العربية بالعاصمة، ويبدو أنه قد طبعه على حسابه، فالكتاب ظهر إذن سنة 1956.

(2) الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 2، ص 381.

الجداول. وقد سار فيه على منهج الجزء الأول من تقسيمه إلى فصول ودول. وهو يتناول التاريخ في شكله الشمولي: السياسة والاقتصاد والعسكرية والثقافة والعمران. ويذكر لكل فترة مشاهيرها من العلماء وغيرهم، ولكن فهرسه يدل على أنه تناول الدول الآتية: الدولة الحفصية ومشاهيرها في الجزائر، والدولة المرينية ومشاهيرها، والدولة الزيانية ومشاهيرها. ثم القسم الثالث: أي العهد العثماني ومشاهيره. ويفهم من ذلك أن القسمين الأول والثاني قد عالجهما المؤلف في الجزء الأول. ومن الملاحظ أنه جعل عنوان القسم الثالث: الجزائر "المكافحة"، وهو تعبير عصري لم يكن شائعا في العصر العثماني، أما التعبير الشائع عندئذ فهو الجزائر المحروسة، والجزائر المجاهدة... وقد ظهر هذا "الكفاح" في الحرب بين أسبانيا والأتراك. وكانت الجزائر في نظر الجيلالي "مكافحة" ضد الأسبان. وقد درس بالطبع الدولة التركية- العثمانية، وعصر البايلرباي، وعصر الباشوات.

ومن إراد أن يعرف رأي الجيلالي في التاريخ عموما وفي تاريخ الجزائر خصوصا فعليه بالرجوع إلى الحديث الذي أعطاه إلى جريدة (المنار) عند صدور الجزء الأول من كتابه (1953). فقد جاء فيه أن دافعه لكتابة تاريخ الجزائر هو غموضه وتشعبه وتشتته، وأنه لم يدرس إلى الآن دراسة واضحة، وأنه أراد تطهيره من هذه العيوب، وأن يظهر أن لهذه الأمة تاريخا ماجدا تفتخر به. وقد شرع في كتابة كتابه مع الحرب العالمية الثانية، أي عند انشغال الناس بالحرب، وكان يعتقد أن حالة الطوارى التي فرضتها الحرب سينتج عنها تغيير في الحياة الاجتماعية، فرغب في التعريف بالجزائر في الغابر والحاضر. أما عن مصادره فقال إنه رجع إلى المخطوطات، كما رجع إلى الكتب الأجنبية فيما قبل الإسلام وإلى الكتب العربية فيما بعذ الإسلام. ويبدو أنه قد غير رأيه في تقسيم الكتاب لأنه كان سيضع الجزء الأول في مجلدين ثم ضمه إلى بعضه وجعله مجلدا واحدا. وتوقع للكتاب رواجا واسعا يسدد نفقاته، واعتبر قلة القراء هي السبب في خلو الساحة من حركة التأليف والنشر. ووصف طريقته في التأليف

بأنها تمتاز بالوضوح والتفاصيل والجمع والتنسيق وهو يعتقد بأنه لم يسبق إليه فيما ألف الباحثون في تاريخ الجزائر[1].

والخلاصة أن الجيلالي كتب فعلا تاريخا للجزائر، وأن منهجه فيه وصفي تاريخي، وقد سار فيه حسب الدول، وأسلوبه فيه واضح وحكيم. ولكن مبرراته غير مقنعة أحيانا، وقد سبقه غيره مثل الميلي والمدني ومحمد بن الأمير عبد القادر. والأخير غطى تاريخ الجزائر في (تحفة الزائر) ولكن باختصار، والمدني كذلك في (كتاب الجزائر)، ووصل الميلي في (تاريخ الجزائر) أيضا إلى العهد العثماني، فما الذي يميز كتاب الجيلالي عن هؤلاء؟ ولماذا لم يبدأ من حيث انتهى بعضهم؟ والحق أن كتاب الجيلالي بعد أن انتهى من أجزائه وتوسع فيه قد تفوق على ما سبقه، ولكنه تضخم في عهد الاستعمار بينما بقي نحيفا بالنسبة للعهود الأخرى، فاختل توازنه بعض الشيء لأنه كتب على مراحل وحسب ظروف سياسية ووطنية متقلبة وليس بناء على مخطط علمي دقيق وصارم منذ البداية.

الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري

ظهرت الطبعة الأولى لكتاب الأمير عبد القادر ليحي بوعزيز في تونس سنة 1957. وكان بوعزيز آنذاك طالبا بها، وقد ظهر ميله إلى التاريخ وانتماؤه الوطني بهذا العمل المبكر، الذي جاء وسط المعمعة ليسد فراغا كانت الثورة في حاجة إلى ملئه من باب الدعاية لها والتعريف بشخصية وبطولة الأمير التي كانت عنوانا لبطولة الجزائر. وبالفعل أدى الكتاب دوره المتوقع منه رغم خطابيته وعدم إحاطته بالموضوع. وعند طبعه للمرة الثانية غداة الاستقلال عدل فيه مؤلفه بما رآه صالحا بعد حوالي سبع سنوات من صدوره. أهدى بوعزيز كتابه إلى روح الأمير الذي كافح الفرنسيين سبع عشرة سنة، وإلى الشعب الجزائري

(1) المنار 45، 10 يوليو 1953

حفيد الأمير عبد القادر المكافح في سبيل العزة والحرية والإخاء والمساواة والسلام... وفي مقدمة الطبعة الثانية أيضا ذكر بوعزيز أن الكتاب يمثل دراسة مبسطة لحياة هذا البطل وكفاحه وأحداثه التاريخية... قائلا إنه أدخل عليه بعض التعديل وحذف منه ما رآه غير لازم، ولم يسعه الوقت حتى في الطبعة الثانية للتوسع والمزيد[1].

لقد كتب بوعزيز الكتاب بمناسبة الذكرى السادسة والسبعين لوفاة الأمير وذكرى ميلاده السادسة والخمسين بعد المائة، وذكرى مبايعته بالإمارة. ووصف الكتاب بأنه جهد متواضع وعرض موجز لتاريخ الأمير الحربي وسيرته القلمية، كما أنه محاولة لعرض حياته في مختلف مراحلها وأطوارها. وقد شبهه في القيادة والقدرة السياسية بشخصية جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، لكنه اختلف عنهما في أنه قام بالكفاح المسلح، وهو ما لم يفعله الشيخان، واعتبر الأمير من أبطال التاريخ وعظماء الرجال وقادة الفكر. واعترف أن دراسته عنه لم يتوفر لها الوقت الكافي لكي تنضج إذ أنه أعدها في حوالي عشرين يوما فقط! وكان دافعه إلى التأليف في هذا المجال هو إهمال الدارسين لشخصية الأمير "أبو الثورات التحريرية الجزائرية " ومنها ثورة أول نوفمبر 1954 التي تعتبر امتدادا لثورته المسلحة، لأن الشعب هو الذي واصلها، وهو عاقد العزم على التخلص من الاستعمار (ص 11). ويعود الفضل للأمير في وضع أول دستور لدولة حديثة دامت سبعة عشر عاما، وهي دولة لم يعرف التاريخ العربي الحديث مثلها.

قلنا إن إعداد الدراسة قد تصادف مع إحياء ذكرى وفاة الأمير. كان ذلك على يد جمعية الطلبة الجزائريين التي أحيت الذكرى بالمسرح البلدي في تونس، في مارس 1957 وقد حضرت هذه المناسبة شخصيات من جبهة التحرير والعالم العربي، والأمير هو صاحب المقولة "وغايتي القصوى اتحاد الملة المحمدية"

---

(1) ط. الجزائر الثانية، 1964، ص 9.

مما يعني في نظر المؤلف أن الأمير من دعاة وحدة الأمة الإسلامية.

والمنهج الذي اتبعه بوعزيز هو المنهج التاريخي الوصفي، فقد قسم الكتاب إلى أربعة أقسام: الأمير الفتى، وهو في هذا يسرد حياته ونشاطه الفكري، والأمير البطل فيحلل دوره من إنشاء الدولة والسهر عليها، والأمير العالم فيذكر ثقافته وعلمه ومؤلفاته، ثم الأمير الشاعر وفيه يعرض لشاعريته وشعره ويذكر نماذج من هذا الشعر الذي تميز بالفروسية والوصف والزهد. وفي الكتاب قائمة مراجع وبعض الصور.

منذ ألف محمد بن الأمير كتابه (تحفة الزائر) لم يهتم الجزائريون بالأمير وأهملوه تقريبا مدة خمسين سنة أو تزيد. ولم يقتحم ميدان الكتابة عنه إلا اثنان، وكلاهما تناوله باللغة الفرنسية، الأول هو كاتب ياسين الذي كتب عنه دراسة صدرت في كتيب صغير حوالي 1948 والشريف ساحلي الذي جعل لكتابه عنوانا فكريا وهو (فارس العقيدة) حوالي 1955، والكتاب الأخير من الكتب التي سلطت الضوء على دور الأمير في الفكر والدين والثقافة، ودافعت عن بعض الشائعات التي ألصقت به كدخوله الماسونية، والاستسلام دون مواصلة الكفاح حتى النهاية. وفي تلك الفترة ظهر عن الأمير أيضا كتاب بالإنجليزية عنوانه (صقر الصحراء). لذلك كان كتاب يحي بوعزيز أول عمل فيما نعتقد ألف باللغة العربية منذ نشر محمد بن الأمير (تحفة الزائر) سنة 1913. ورغم اشتغال بوعزيز بالتاريخ دراسة وبحثا وتعليما فإننا لا نعرف أنه قد رجع إلى الأمير ووفاه حقه في كتاب يليق بجهاده الطويل[1].

هذه هي الجزائر

من يعرف الشيخ أحمد توفيق المدني يعرف أنه ألف في تاريخ الجزائر قبل الثورة، وكان "معلما" في هذا الباب بحيث أحدث تيارا وطنيا قويا وسط

(1) نشر بوعزيز مذكرات الأمير، كما تناوله في كتاباته المختلفة، ولكننا هنا نتحدث عن إفراد الأمير بتأليف متكامل.

الجزائريين منذ نفيه من تونس إلى موطن أجداده سنة 1925. فهو صاحب تقويم المنصور، وكتاب الجزائر، والمسلمون في صقلية، وحنبعل، وقرطاجنة، وغيرها. وقد ذكرنا بعضا من هذه التآليف في كتابنا التاريخ الثقافي(جزء 7).

وحين التحق المدني بالجبهة واستقر في القاهرة سنة 1956، كان مقره هو مكتب جمعية العلماء الذي كان الشيخ الإبراهيمي والفضيل الورتلاني يشغلانه. والظاهر أن هذا المكتب قد أصبح منذ 1956 مقرا أيضا لجبهة التحرير إذ طالما كان هو وليس مكتب المغرب العربي، محل اجتماع قادة الجبهة واستقبال ضيوفهم. وفيه التقيت شخصيا بعدد منهم، كالشيخ الإبراهيمي، وفرحات عباس، وأحمد فرنسيس، والأمين دباغين.... كما التقيت فيه بالمؤلف نفسه عدة مرات. لقد كنت آتيه فأجده معتكفا على تحرير (هذه هي الجزائر)، أو يتخير له الصور والخرائط، أو يصحح تجاربه (البروفات). إن توفيق المدني قد ألف هذا الكتاب بطلب من زملائه في الجبهة ومن مؤتمر الخريجين العرب وغيرهم الذين كانوا يريدون معرفة مختصر تاريخ الجزائر من مصدر موثوق ومطلع وبأسلوب عربي سهل يسمح بالإطلاع السريع دون أن يمل قارئه.

انتهى المدني منه في يوليو وصدر عن مكتبة النهضة المصرية سنة 1956. وكان الشيخ قد التحق بالقاهرة في شهر أبريل، فيكون قد ألف الكتاب في ظرف شهرين ونصف تقريبا. وقد أهداه " إلى ضحايا الحرية في الجزائر... إلى الشهداء." ويظهر هدف التأليف من قول أحمد توفيق المدني: " الأمة الجزائرية والقطر الجزائري اسمان خالدان مقدسان توارثهما الجزائريون الحاليون "وهم عشرة ملايين، ألف الله بين قلوبهم في الكفاح. ومع ذلك فإن العالم العربي والعالم عموما لا يعرف عن الجزائر الشيء الكثير"، ذلك أن الاستعمار الفرنسي قد أقام بينهم وبين العالم الإسلامي والعالم العربي والأمم الحرة حواجز وعراقيل، ومع ذلك لم يستطع فرض إرادته، بل إن الشعب الجزائري هو الذي فرض إرادته. لذلك فإن العالم العربي يريد أن يعرف عن الجزائر وشعبها، وهذا ما يقوم به المؤلف.

ورغم هذا الهدف الواضح من الكتاب فإن المدني ينفي أن يكون كتابه للدعاية، وإنما هو " تسجيل للواقع وتعريف علمي بالقطر والشعب الجزائري"، فهو يعتمد على الصادق من أنباء التاريخ وعلى الثابت من أرقام الإحصاء، ويصف الحالة الحقيقية كأنها الصورة طبق الأصل فلا مبالغة ولا تهويل" (ص7). وقد ذكر في المقدمة رغبة مؤتمر الخريجين أيضا فقال إن الأستاذ محمد فؤاد جلال رئيس المؤتمر قد أبدى رغبته في تأليف عن الجزائر يستجيب لرغبة عربية وطنية. وتجدر الإشارة إلى أن فؤاد جلال وبعض الأعضاء من مؤتمر الخريجين العرب قد زاروا الجزائر سنة 1955 والتقوا فيها بأحمد توفيق المدني وبعدد من أعضاء جمعية العلماء بالجزائر العاصمة[1].

منذ البداية أوضح المدني منهجه فقال إن الكتاب يخدم الثورة موضوعيا دون دعاية ولا تهويل. ومع ذلك فأسلوب الشيخ المدني أسلوب سياسي حماسي، وهو يعتمد المنهج التاريخي في تناوله للمعلومات والإحصاء. وقد بناه على ثلاث مراحل هي: التعريف الجغرافي بالقطر الجزائري، وسكان الجزائر، وتاريخ القطر الجزائري إلى الاحتلال الفرنسي، ثم تحطيم أمة أو سياسة فرنسا الاستعمارية تجاه الجزائر. وبعد ذلك تأتي المقاومة ثم "الثورة الكبرى". ويتضح من ذلك أن جل الكتاب عن الاحتلال والمقاومة والثورة، وأن ما سبق ذلك هو تعريفات ومداخل وليس دراسات، أي أن هدف الكتاب هو الكشف عن أعمال الاحتلال بالجزائر وكيف ردت الجزائر الفعل. في الكتاب معلومات هامة شخصية، لاسيما تلك التي عاشها المؤلف نفسه في الجزائر، فهي معلومات من نوع المذكرات، وفيها آراء ومواقف بعض المجاهدين. ويبلغ الكتاب 247 صفحة من الحجم المتوسط، ومنه نحو 51 صفحة عن الثورة، كما يضم بعض المصطلحات مثل التربيعة، وأسماء السلاح، وفيه أول منشور للثورة.

(1) انظر لاحقا.

ساهم الشيخ المدني في تاريخ الثورة بالخطابة والكتابة، عضوا في مؤسسات الثورة ووزيرا وسفيرا لها وممثلا للجزائر في الجامعة العربية. وقد عبر عن ذلك في كتبه اللاحقة، خصوصا مذكراته التي اختار لها عنوان (حياة كفاح)، وقد خصص الجزء الثالث من هذه المذكرات لمرحلة الثورة. ولكن هذا الكتاب خارج عن نطاقنا. كما خص تاريخ الجزائر بعدد من الكتب الهامة سواء عن العهد العثماني أو مرحلة الاستعمار الفرنسي. وهكذا لم يظهر بين الجزائريين مؤرخ يتمثل الثورة ويكتب عنها في هذه الفترة. فباستثناء تاريخ الجزائر للجيلالي وإلى حدّ ما هذه هي الجزائر للمدني لم يكتب عن الجزائر تاريخ بقلم أحد أبنائها عندئذ.

محاضرات عن تاريخ الجزائر

خلال الثورة ألقى الشيخ البشير الإبراهيمي محاضرات عن تاريخ الجزائر على طلبة معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة، وقد فصله على مراحل وحلله بأسلوبه الأدبي الراقي الرصين. وأخبرنا فيما بعد أنه جمع تلك المحاضرات وقدمها لمعهد البحوث لطبعها في كتاب وتوزيعها على الطلاب وغيرهم من المهتمين، ولكننا لم نعثر على المحاضرات مطبوعة ولا مخطوطة وإنما رأينا منها صفحات نشرت في الجزء الخامس من آثاره. ولم يذكر أي مصدر حتى الآن أنها قد طبعت في كتاب. والإبراهيمي نفسه هو الذي تمنى في هذه المحاضرات أن يقيض الله للجزائر مؤرخا من أبنائها ليكتب تاريخها الحقيقي بمشاعر المواطن لا بمشاعر الغريب عن الوطن ولو كان متعاطفا مع أهله[1].

---

(1) آثار الإبراهيمي، ج5، وكذلك مداخلتنا في ندوة الشيخ الإبراهيمي بعنوان (الثقافة التاريخية عند الشيخ الإبراهيمي) الجزائر، مايو 2005.

الرحلات

ليس لدينا خلال الثورة رحلة مكتوبة على الطريقة التقليدية التي يتحدث فيها صاحبها عن مشاهداته وملاقاته وما وقع له خلالها كما كان يفعل العلماء المغاربة قديما. فالرحلة بالأسلوب القديم لم يكتبها أي جزائري خلال المرحلة الثورية رغم تنقل الكثير من الأفراد من أجل العمل للثورة نفسها، في إفريقيا والبلاد العربية وآسيا والأمريكيتين وأوربا. لقد حج جزائريون واعتمروا وحضروا مؤتمرات وندوات ودعوا لقضية بلادهم هنا وهناك، ولكننا لم نجد من اغتنم الفرصة وكتب رحلته. ولذلك فإن حديثنا عن "الرحلات" هنا فيه تمحُّل وتعسف. فنحن نشير فقط إلى تقاييد وإلى مدونات لا تدخل في باب الرحلة إلا تجاوزا. ومن ذلك:

رحلة الشيخ الغسيري

المقصود بها سفرة الشيخ محمد الغسيري إلى المشرق العربي عشية الثورة وهي الرحلة التي عنونها بـ(عدت من الشرق) ونشرها في جريدة البصائر على حلقات بلغت حوالي عشرين حلقة[1].

وأساس هذه الرحلة أن دعوة وجهت إلى الكشافة الإسلامية الجزائرية من الكشافة المصرية فتألف وفد برئاسة الشيخ محمد الغسيري فيه أعضاء من جمعية العلماء ومن حزب البيان وربما غيرهم أيضا، ومنهم فرحات عباس وأحمد فرنسيس، ثم توجهوا إلى مصر، فحضروا الاحتفالات واشتركوا في مختلف الأنشطة والتقوا بعدد من الشخصيات الإسلامية والعربية، ومنهم الشيخان البشير الإبراهيمي والفضيل الورتيلاني. عندما وصل وفد الكشافة إلى القاهرة جاء الإبراهيمي من بيروت لتحيتهم وأقام لهم حفل شاي دعا إليه شخصيات عديدة مذكورة في الرحلة. وخطب فيهم كعادته، وكذلك فعل الورتلاني، كما خطب

(1) خاتمتها هي الحلقة 20، البصائر 276، 25 يونيو 1954

فيهم بعض زعماء الإخوان المسلمين، منهم عبد المعز عبد الستار. وانتهى الحفل بنشيد (شعب الجزائر مسلم) الذي نظمه ابن باديس، وهو النشيد الرسمي لجمعية العلماء. وبعد أن وصف الغسيري أحداث الرحلة ومراحلها بالتفصيل انتهت المهمة ورجع الوفد إلى الجزائر. أما الغسيري فقد اغتنم الفرصة وذهب لأداء فريضة الحج مع الشيخ الإبراهيمي فزاد في وصف رحلته إلى السعودية وأداء مناسك الحج ولقاء شخصيات إسلامية أخرى، وتحدث عن توقفهم في بيروت ونشاطهم السياسي والدعوي والفكري ثم عودته إلى مصر، فالجزائر[1].

فيما يخص مرحلة القاهرة فمكة فبيروت ذكر الغسيري أن الإبراهيمي قد تلقى دعوة من الأمير سعود الذي أصبح هو نفسه الملك سعود. توجه الغسيري من القاهرة إلى جدة، فكان رفيق الإبراهيمي وتلميذه وكاتبه الخاص. خرجا من مكتب جمعية العلماء بالقاهرة محرمين وودعهم في المطار شباب البعثة الطلابية الجزائرية ومدرسوهم. ثم وصف مناسك الحج والاحتفالات المرافقة في مكة ورجوعه إلى القاهرة. ومما يلاحظ أن الغسيري الذي كان يحس بالاضطهاد والقمع الاستعماري في بلاده اغتنم فرصة وجوده في المدينة المنورة وشكا للرسول (ﷺ) حاله وحال الإسلام مع النصرانية وضعف المسلمين إزاء الأوربيين في بلاده. شكا له من ضياع الأوقاف وادعاء فرنسا أنها دولة إسلامية ومن انعدام التعليم الديني. . .حتى بعد قانون 1947 أو ما سمي بدستور الجزائر. وهي مناجاة سياسية مقصودة.

لقد انتهت الرحلة بزيارة الرئيس المصري الجديد اللواء محمد نجيب الذي أحسن استقبالهم وأخذوا معه الصور، وأهداهم صورته، بينما هم أهدوه شعار الكشافة الإسلامية الجزائرية. وأخيرا توجهوا إلى دار الإذاعة المصرية وسجلوا كلمات وأناشيد أذيعت في حينها. تحدث الغسيري عن درس الثلاثاء

---

(1) نشرت الرحلة في أعداد مختلفة من البصائر، منها 240، 241، 242، 252، 256، 257 إلخ.

الذي ألقاه الإبراهيمي في نادي الإخوان المسلمين، وعن نشاط مكتب جمعية العلماء بمصر وزواره الذين لا يكاد ينقطع سيلهم، ولاسيما حجاج المغرب العربي، وأعيان الشرق أمثال الحاج أمين الحسيني ومحي الدين القليبي. وللوفد صور مع الإبراهيمي والحسيني والورتلاني وبعض شيوخ الأزهر. وأخيرا حيا الغسيري من استقبلهم وقدم لهم النصائح وهم في الطريق من قسنطينة إلى المشرق، كما حيا مصر ورجالها ومواقفها في الدفاع عن العروبة والإسلام. ولم تتحدث الرحلة -في الأجزاء التي اطلعنا عليها- عن شخصيات من أمثال الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي ولا عن زعماء مكتب المغرب العربي من أمثال محمد خيضر وأحمد بن بلة والحسين آيت أحمد. فهل كان لعلاقة هؤلاء الباردة بالشيخ الإبراهيمي دخل في السكوت عنهم أو أن نشاطهم كان ما يزال محدودا؟[1]

في رحلة الغسيرى لقطات هامة جديرة برحالة دقيق النظر يتمتع بحاسة لاقطة للناس والأشياء. ولا نستطيع أن نلم بها جميعا هنا ولكننا نذكر هذه المقارنات الموحية. ففي إحدى الحلقات قارن الغسيري بين أهل جبل لبنان وأهل جبل الأطلس: فلاحظ أن الطفل يجد المدرسة في الأول ولا يجدها في الثاني بينما الطبيعة جميلة في الجبلين. واشتكى من أن المسافر المسلم بعد قيام دولة إسرائيل لم يعد يستطيع حتى التحليق فوق فلسطين، بينما اكتفى العرب برفع قضيتها إلى الأمم المتحدة.

وجد الوفد العائد من الحج مع الشيخ الإبراهيمي في استقباله في مطار القاهرة عبد الله الجابر الصباح وزير المعارف الكويتي والجالية الجزائرية وعلى رأسها الورتلاني وطلبة البعثة وأحمد طالب نجل الإبراهيمي وجماعة من علماء الأزهر. وبعد استراحة في مكتب جمعية العلماء توجهوا إلى منزل عبد العزيز العلي، أحد أعيان الكويت، ضيوفا على مائدته. وظلوا أسبوعا في مصر وهم

(1) البصائر، في حلقات، 1953-1954.

من ضيافة إلى أخرى. ولم يسع الغسيري سوى دعوة من استضافوهم لزيارة الجزائر باسم جمعية العلماء وبالخصوص باسم الشيخين العربي التبسي ومحمد خير الدين، نائبي الشيخ الإبراهيمي، اللذين بقيا في الجزائر.

طار الغسيري عائدا من مصر إلى تونس عبر ليبيا (بني غازي فطرابلس ثم إلى مطار العوينة). ومن تونس أخذ القطار إلى الجزائر فوصل قسنطينة حيث استقبل فيها ضيوفه وأعضاء الكشافة. وقد دامت رحلته شهرين، وهي رحلة يرجع الفضل فيها إلى الكشافة وجمعية العلماء وحكومة الثورة في مصر ثم إلى الملك سعود. لذلك شكر الغسيري هؤلاء جميعا كما شكر الإبراهيمي والورتلاني. أما نص الرحلة فقد كتبه من سكيكدة بعد استقراره بها حيث كان يعلم ويدير مدرسة[1].

رحلة الشيخ الإبراهيمي

رحل الإبراهيمي إلى المشرق في يناير 1952 واستمر فيه إلى ما بعد الاستقلال. وخلال أكثر من عشر سنوات تجول في مختلف البلاد العربية وباكستان، وكان نشطا رغم تقدم السن به، كما كان محل عرفان وتقدير من بعض الحكومات العربية والإسلامية ومن علمائها ورجالات الثقافة فيها. وكان نشاطه محصورا في مجالين: الحصول على منح دراسية للطلاب الجزائريين والتعريف بالقضية الجزائرية. ورغم النقد الذي وجه إليه في إهمال شؤون جمعية العلماء بالجزائر (باعتباره رئيسا لها) طول غيابه فإنه استطاع أن يكسب مكانة للجزائر وأن يكسب منحا لطلابها.

كما كان الإبراهيمي نشطا في حركة الإخوان المسلمين الذين كانوا يدعمون قضية الجزائر باعتبارها قضية إسلامية حساسة. كما كان بعض أهل القلم من الإخوان يكتبون في جريدة البصائر التي يشرف عليها الشيخ نفسه. وقد

(1) البصائر 276، 25 يونيو 1954.

ترأس الإبراهيمي عدة مؤتمرات وشارك في بعضها سواء في باكستان أو في غيرها. من ذلك رئاسته المؤتمر الإسلامي أوائل ديسمبر 1953. وفي يناير 1954 كان في عمان (الأردن) حيث كان من أعضاء لجنة المؤتمر الأخير، وهي لجنة تضم رجالا من أمثال سعيد رمضان أحد زعماء الإخوان وصاحب مجلة (المسلمون)، والشيخ القليبي التونسي وسيد قطب، والورتلاني، وبعض السعوديين، وقابلوا الملك حسين. وكان الإبراهيمي هو الذي تكلم أمامه باسمهم، رغم أننا نعلم من مصادر أخرى أن الإبراهيمي كان لاذع النقد للفرع الهاشمي بالأردن. كما تجول الإبراهيمي والورتلاني في الكويت ودمشق وبغداد، وعنوان هذه الجولة هو "تفقد البعثات الطلابية الجزائرية والعمل لصالح الدعوة الإسلامية"[1].

أما خلال الثورة فقد تجول الإبراهيمي في عواصم عربية وإسلامية عديدة داعيا للقضية الجزائرية، ولكننا لا نجد جولاته مسجلة ما عدا بعض الخطب والبرقيات والرسائل، وهي مذكورة في الجزء الخامس من آثاره. ولو أنه سجل انطباعاته ودون مشاهداته ونشاطه لحصلنا من ذلك على رحلة ضخمة ذات فوائد جمة. ويجب أن نقول إن مقالاته في البصائر تحت عنوان (من نفحات الشرق) تحمل بذورا طيبة من نوع الرحلة المنشود[2].

رحلة الشيخ التبسي

الشيخ العربي التبسي هو النائب الأول للشيخ الإبراهيمي في جِمعية العلماء، وأحد الأعضاء الخطباء والفقهاء العاملين فيها بكل تفان وصدق. وكان قد درس وتخرج من الأزهر سنة 1927 تقريبا. وأدى فريضة الحج عشية الثورة

(1) للإبراهيمي عدة زيارات وأنشطة سابقة في باريس، بدأها عضوا في وفد المؤتمر الإسلامي الجزائري سنة 1936، وانتهى منها في فاتح 1952، وكلها على ما نعلم، غير مدونة بقلمه في شكل رحلة. البصائر 255، 22 يناير 1954، مقال افتتاحي

(2) انظر نشاط الوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني في فصل آخر.

ومكث في المشرق عدة أسابيع وتجول في مدنه وبعض عواصمه، ولكنه لم يسجل رحلة، حسب علمنا. وقد شارك خلال انتقاله إلى مصر فالحجاز في أنشطة هامة دونها بعض الطلبة، ولو دونها بنفسه لكانت ربما ذات قيمة خاصة، سيما ونحن نعلم أنه عاش في مصر سابقا وله مجال واسع للمقارنة بين ما عرفه في العشرينات وبين ما وجده بعد نحو ثلاثة عقود.

وعلى كل حال فإنه أثناء غياب الإبراهيمي كان التبسي هو الذي يدير شؤون جمعية العلماء في الجزائر وفي أوقات حرجة. وقد اندلعت الثورة وهو الرئيس الفعلي للجمعية، فكان عليه أن يسيرها وسط زعازع وهزات عنيفة، انتهت باستشهاده سنة 1957.

سافر الشيخ التبسي إلى مصر بالجو في 8 يوليو 1954، فوجد في استقباله بالقاهرة الشيخين الإبراهيمي والورتلاني والسيد أحمد بيوض (ممثل حزب البيان) والشاذلي المكي (ممثل حزب الشعب)، وجمعا من أعضاء الجالية الجزائرية والبعثة الطلابية وبعض علماء الأزهر، وربما بعض أعضاء الإخوان المسلمين أيضا. وللأسف لا يوجد وصف مفصل عن تنقلاته ومقابلاته ومشاهداته ما عدا ما كتبه السيد البشير كاشة الذي لخص نشاط الشيخ في المدينة المنورة[1].

كان البشير كاشة من طلاب البعثة الجزائرية، فرصد نشاط الشيخ التبسي في المدينة المنورة، فقال إنه اجتمع مع الشيخ عبد العزيز بن باز (أحد القضاة عندئذ وقد أصبح مفتي المملكة) والأمير سعود الفيصل. وكان السيد أحمد بوشمال (أحد أعيان قسنطينة) مرافقا للشيخ التبسي في أداء فريضة الحج. قضى الشيخ تسعة أيام بالمدينة مقيما في فندق التيسير. وبعد زيارة الأماكن الإسلامية استقبله الملك سعود في قصره بجدة. وفي مكة تعرف على شخصية بارزة من الإخوان المسلمين وهو سعيد رمضان الذي طلب منه المشاركة في المكتب

(1) البصائر عدد 281، أما التاريخ فهو مبتور.

الدائم للمؤتمر الإسلامي العالمي الذي انعقد حديثا بالقدس فقبل الشيخ الدعوة - حسب الراوي -. وفي الحفل السنوي الذي أقامه الإخوان المسلمون حضر الشيخ التبسي، وتكلم علماء مصريون وسعوديون. وفي مناسبة أخرى نظمها الإخوان أيضا تكلم الشيخ التبسي. وبعد الانتهاء من مناسك الحج غادر الشيخ مكة متوجها إلى لبنان للقاء الشيخ الإبراهيمي فكانت جملة أيامه في الأماكن المقدسة شهرا[1].

عاد الشيخ التبسي إلى الجزائر وجاءت الوفود المهنئة إلى مركز الجمعية بالعاصمة. وقد تحدث عن رحلته الناجحة معربا عن رأيه أن الحكومات العربية سائرة في طريق النمو في الحجاز والشام ومصر. وأهم ما روته البصائر بهذه المناسبة هو حديثه عن الشيخين الإبراهيمي والورتلاني. فقد قال عن الأول إنه في الجزائر معروف بالأدب ورجاحة الفكر. . .أما في المشرق فقد وجد من يفهمه، وهو في طليعة رجال العلم والدين والاجتماع . . فهو (أي الإبراهيمي) مستشار المراجع الإسلامية والعربية. أما الورتلاني فقد قال عنه كلاما غامضا وهو أنه منشغل بحل مشاكل الشعوب الإسلامية. فأنت لا تدري هل هذا الكلام يعني المدح أو القدح. وقد نوه التبسي بدور كل منهما وبجهودهما في رعاية البعثات الطلابية، فهما نعم السفيران للجزائر.

وأذكر بهذا الصدد أن الشيخ التبسي قد راسلني برسالتين على الأقل أوائل سنة 1956 عندما كنت في القاهرة، انتقد فيهما زميله ورئيسه الشيخ الإبراهيمي على تصرفاته مع البعثات الطلابية وعلى تفضيله البقاء في المشرق على الرجوع إلى الجزائر في ذلك الظرف العصيب.

ونحن نعرف أن الشيخ التبسي قد استقبل في مصر من قبل رجال الدولة وكان محل رعاية أهل الفكر والسياسة والدين. ولكن الأيام برهنت على أنه كان متفائلا كثيرا في رأيه، فالحكومات العربية لم تكن رشيدة كما وصفها ولا

---

(1) البصائر عدد 285

الشعوب الإسلامية كانت يقظة عارفة بحقوقها وواجباتها، ولا حتى العلاقة مع الشيخين الإبراهيمي والورتلاني كانت على ما يرام بسبب موقفهما من البعثات الطلابية وربما بسبب الوضع في الجزائر عندئذ وحتى بعض التنافس أيضا[1].

رحلة الباهي فضلاء

في العام الأول للثورة سافرت جماعة من أهل الفن إلى القاهرة بقيادة الباهي فضلاء واتصلت بالأوساط المسرحية والسينمائية، كانوا كبقية الفنانين الجزائريين في ذلك الوقت، يحلمون بزيارة مصر لأنها بلغت درجة كبيرة في عالم الفن، ولكن هذه الرحلة خيبت أحلام الجماعة. بدأت المبادرة منذ حلت الفرقة المصرية بقيادة يوسف وهبي في الجزائر قبل عام تقريبا (1954). فقد عرضوا على هذا الفنان الكبير فكرة زيارة مصر فوافقهم على ذلك ووعدهم بتسهيل المهمة. وقد سافر معهم محمد الطاهر فضلاء أحد المعجبين بيوسف وهبي.

كانت الرحلة بالسيارة، مرورا بتونس وطرابلس. وقد سجلت الفرقة بعض الانطباعات والمشاهدات واللقاءات في كل مكان حلت به، ولكنها لم تدون ذلك بالتفصيل. وعندما حلوا بطرابلس التقوا بفرقة ليبية هاوية جديدة بقيادة مصطفى الأمير. رحب بهم الليبيون واستضافوهم، بل طلبوا منهم الاشتراك في تمثيل إحدى المسرحيات فلبوا الطلب، وقدموا رواية (الصحراء) ليوسف وهبي، وهي الرواية التي سبق أن مثلت على مسارح الجزائر، وأحرزت نجاحا باهرا، حسب الراوي.

واصلوا السير نحو القاهرة التي حلوا بها آخر شهر نوفمبر 1955 ونزلوا ضيوفا على يوسف وهبي. وقد أتاح لهم فرصة حضور التدريبات الجارية يوميا

---

(1) البصائر 289 . أنظر أيضا محضر جمعية العلماء في كتابنا أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ج 2.

في مركز فرقته، وطلب من ممدوح أباظة- عميد المعهد العالي للتمثيل- أن يسمح لهم بحضور المحاضرات التي كانت تلقى على الرجال والنساء. انتقد الباهي فضلاء نظام المعهد، ذلك أنهم كانوا يعتقدون أن المعهد مثل الكونسرفتوار الفرنسي، فثبت له أنه لا مقارنة بين الاثنين، ولكنه استثنى من هذا الحكم القاسي بعض الأساتذة المحافظين في نظره، على قيمة الفن في مصر مثل جورج أبيض وأحمد البدوي وأحمد علام وفتوح نشاطي وعبد الرحيم الزرقاني. ولاحظ أيضا أن مستوى الدروس غير رفيع وأن الطلبة يتغيبون عن الدروس، وأن شروط الالتحاق بالمعهد صعبة. وقد أفهمهم جورج أبيض أن الفنانين (شيوخ الفن) قد انصرفوا عنه إلى المادة، وجلس معهم طويلا وشرح لهم سبب تخليه عن إدارة الفرقة المصرية "لأن الفن في مصر يحتضر"... وحضر ثلاثة منهم (الباهي وكشرود ونظيرة) تمثيل رواية (عطيل) ورحب بهم أحمد البدوي المشرف على التمثيل.

ومن الذين قابلوهم أيضا زكي طليمات الذي نصحهم بالرجوع إلى وطنهم والعمل فيه لأن المعهد العالي لا يفيدهم في شيء. ويبدو واضحا أن أفراد الرحلة كانوا ربما يسعون إلى التسجيل في الدراسة في المعهد المذكور ولكنهم وجدوا الشروط غير متوفرة. كذلك قابلوا المخرج صلاح أبو سيف وسعوا لديه إلى المشاركة في بعض الأفلام فرحب بالفكرة ولكنه اشترط عليهم ضمان بيع فيلمه في شمال إفريقيا. وبعد ذلك رجع الفنانون "المغامرون" إلى الجزائر خائبين من شروط صلاح أبو سيف ومن هبوط الفن، واكتفوا بآراء الفنانين الناقمين على الوضع الفني في مصر. وقد اتضح لهم أنهم كانوا يبنون آمالهم على الرمال[1].

---

(1) هنا الجزائر 36، يونيو 1955، من الممكن أن نضيف إلى هذا النوع من الرحلات رحلة محيي الدين باش تارزي إلى تونس والقاهرة وسوريا سنة 1955-1956. أنظر فصل المسرح.

رحلة الشيخ العباس

عندما اشتدت الثورة واختلط الأمر على القادة والسياسيين بالنسبة لاتخاذ المواقف كان على جمعية العلماء أيضا أن تتشاور وأن تنتهي إلى قرار، فأرسلت الشيخ العباس بن الشيخ الحسين الرجل الفقيه والسياسي فيها تحت غطاء الحج يحمل إلى الشيخ الإبراهيمي بعض التفاصيل عن الوضع في الجزائر، وليرجع منه برأي بصفته رئيسا لها. كان الشيخ العباس، معروفا بالجمع بين عضوية الجمعية والتعاطف مع حزب الشعب وأنه رجل زاوية ودهاء سياسي. وقد نشرت البصائر خبرا مختصرا عن عودته إلى الجزائر ومقابلته لرئيس الجمعية في القاهرة ولقائه بالشيخ الورتلاني في بيروت التي كان منفيا إليها لصلته بالإخوان المسلمين، كما سبق. وقابل الشيخ العباس أيضا البعثة الطلابية في مصر واستمع إلى شكواها مما حصل بينها وبين الشيخ الإبراهيمي، ومن سوء تفاهم وشد وجذب بين مكتب الجمعية (بقيادة الإبراهيمي) ومكتب المغرب العربي (بقيادة خيضر)[1].

ومما يذكر أن الشيخ العباس رجع إلى القاهرة في نفس السنة وانضم إلى الوفد الخارجي لجبهة التحرير. وسافر إلى السودان والسعودية وغيرهما لأداء مهمات وطنية، وكان من النشطين المخلصين للقضية. وقد زارني في بيتي في المعادي، والتقينا عدة مرات في القاهرة.

رحلة المختار اسكندر

محمد مختار اسكندر من مواليد المدية سنة 1923، وله رحلة سماها (رحلة إلى الشرق أو ثلاثين يوما في الحرية). وسبب سفره إلى سورية حضوره لمؤتمر كشفي عربي. وقد سجل في رحلته انطباعه وقال إنه يعتبرها وثيقة هامة، وهي ما تزال مكتوبة بقلم الرصاص، ولم يدخل عليها أي تغيير، كما قال. كان

(1) البصائر 355، 24 فبراير 1956.

الشيخ اسكندر مدرسا واعظا في نادي الترقي بالعاصمة عشر سنوات (1946-1956). ومهما كان الأمر فإن الرحلة كانت "قبل اندلاع الثورة". وليته حرر رحلته ونشرها لتعرف وتعم فائدتها[1].

رحلة محمد الصالح رمضان

هذه رحلة ينطبق عليها وصف الرحلات السياحية والاستطلاعية، وهي من رحلات العرب والمسلمين إلى الغرب. وكان سببها المشاركة في ندوة عالمية للشباب جرت في عاصمة بولندا، (وارسو=فارصوفيا) سنة 1955. وقد رجع محمد الصالح رمضان الذي كان من رجال جمعية العلماء ومن تلاميذ الشيخ عبد الحميد بن باديس، رجع من الرحلة وهو مبهور بالحرية رغم أنه كان في بلاد كانت تعيش وراء الستار الحديدي بمفهوم ذلك الوقت.

ولد الشيخ رمضان سنة 1914 بالقنطرة إحدى بوابات الصحراء. ولا ندري كيف وصلت الدعوة إلى أمثاله من رجال الإصلاح، ولكن يبدو أن المشاركة كانت واسعة وكانت في نطاق الكشافة. وكان الشيخ رمضان احد قادة الأفواج الكشفية في الجزائر وله في ذلك أناشيد ومشاركات في المخيمات. وكان الوفد الجزائري كبيرا وممثلا لمختلف الاتجاهات السياسية. ولا ندري هل كانت المشاركة منسقة أو أن كل حزب أو جماعة اتصلت بالدعوة على حدة. ونحن نعرف أن من بين المشاركين في هذه التظاهرة الشيخ الحفناوي هالي، صديق الشيخ رمضان وأحد أعضاء جمعية العلماء أيضا، وأحد المذكورين المنوه بهم في الرحلة، وله مع صديقه مساجلات وحوارات. كما علمنا أن من بين المشاركين مصطفى الأشرف والممثل مصطفى كاتب. وقد استغرقت الرحلة حوالي عشرين يوما.

العنوان الذي اختاره رمضان لرحلته هو (سوانح وارتسامات عابر سبيل)

---

(1) البصائر، السلسلة الثالثة، 262، 14-21 نوفمبر 2005.

وتعنى خواطر ومشاهدات عابر سبيل، وقد قسمها إلى ثلاثة أقسام: الرحلة إلى بولونيا، وفرصوفيا مدينة المهرجان، وأخيرا من وحي الرحلة. أطلق الشيخ رمضان فيها العنان لقلمه الرومانسي عندئذ ليصف الناس والطبيعة وآثار الحرب العالمية الثانية على بولندا، ونهضتها بعد كل ما جرى لها، مع الحلم بأن تستقل الجزائر أيضا وتنهض وتتمتع بالحرية. ولذلك فإن في الرحلة ربطا بين أحداث الثورة (1955) وبين مشاعر عابر السبيل وهو في أوروبا يلتقي بشباب العالم المتحرر. وصف رمضان الرحلة بحرا من الجزائر ثم برا إلى بولونيا ابتداء من 25 يوليو 1955. وقد سحرته الأجواء الأوروبية من ربيع وشباب وحرية، ومر بأجزاء من إيطاليا والنمسا وبراغ. وخص سويسرا أثناء الرجوع، بوصف جغرافي وتاريخي وكأنها هي المقصودة بالرحلة، وقد دخل منها إلى ليون (فرنسا) ثم توجهوا إلى مرسيليا حيث أخذوا الطائرة عائدين إلى الجزائر، يوم 14 أغسطس 1955.

اهتم رمضان بالآثار والمعالم. فوصف ما حدث للعاصمة فرصوفيا على يد ستالين وهتلر، ووصف نهر الفستول، وقصر الثقافة ومتحفه وصوره. وفي الرحلة بعض القصائد الجميلة التي تحرك المشاعر ساجل بها صديقه الشيخ هالي، بعض القصائد يحتوي على 102 بيتا. والظاهر أن رمضان سجل انطباعاته حين كان يقوم بالرحلة ثم حين رجع منها، ولم يحررها إلا خلال السبعينات. ثم نشرها على حلقات في جريدة (الشعب) ابتداء من أول أغسطس 1987.

والشيخ رمضان مثقف بالعربية والفرنسية، وله أسلوب عربي متين وجميل. وله عدة مؤلفات شعرا ونثرا. منها ألحان الفتوة، والناشئة المهاجرة (مسرحية)، وقد اهتم بآثار ابن باديس، وبالأدب العربي. وتولى التعليم والتفتيش وتوجيه التعليم في الحركة الإصلاحية. كما تولى إدارة مدرسة دار الحديث في تلمسان سنوات طويلة قبل الثورة. وبعد الاستقلال تولى إدارة التعليم الديني في وزارة الأوقاف. ولا ندري لماذا تأخر في نشر "ارتساماته"

عن رحلته إلى سنة 1987 [1].

بهذا يتبين أنه رغم تعدد الأماكن التي اختلف إليها الجزائريون وتعدد الأهداف من زيارتهم لها فإنهم (باستثناء النادر) لم يتركوا، حسب علمنا، رحلة مكتوبة نرجع إليها اليوم أو نسجلها في قائمة الرحلات.

الدراسات الفلسفية

مالك بن نبي

جاء في غلاف أحد كتب مالك بن نبي أنه ولد في قسنطينة سنة 1905 من عائلة بقيت فيها المعاني الدينية حية بينما مالت بعض العائلات الأخرى إلى الحداثة. وابن نبي يضع عائلته في هذا الصف، ولم يغادره هذا الشعور سواء في دراسته الإسلامية العالية أو في دراسته التقنية العلمية. ويبدو أن الحداثة التي قصدها ابن نبي تختلف عن تلك التي تشيع اليوم بين جيل من المثقفين، فهي ببساطة تعني عنده مفهوم التقدم والإيمان بالتطور والتغيير.

عندما تسأل مالك بن نبي عن بعض القضايا الاجتماعية والتاريخية قد لا يفصح عن رأيه بكل وضوح، ولكن تأكد من أنه عندما يحلل الاستعمار والفقر فسيكون فصيحا كل الفصاحة. وكل من ابن نبي وفرانز فانون وجد في الاستعمار والفقر موضوعا للبحث في الإنسان الجزائري وحالة المسلمين المحرومين. وكما قلنا إن الثورة لم تلد أديبا عبقريا فكذلك نقول إنها لم تلد فيلسوفا نابغة. فهي لم تنتج فلاسفة ومحللين لتطور الحضارة، ولكنها بالقياس إلى ما أنتجت في التاريخ والأخلاق والسياسة، تفوقت في ميدان الفلسفة، وربما الأدب أيضا. ويكفي أنها فجرت عبقرية مالك بن نبي في الفلسفة ومفدي زكرياء في الشعر، وإن كان كل منهما قد ظهر أثناء المخاض الذي سبق الثورة.

لقد سئل ابن نبي سنة 1953 عن الاتحاد بين الجزائريين في وجه العبث

---

(1) محمد الصالح رمضان، سوانح وارتسامات عابر سبيل، ط.2، الجزائر 2004.

الإداري الاستعماري. كان ذلك في الاستفتاء الذي طرحته جريدة (لمنار)، فقال إنه بإمكانه الجواب على السؤال مباشرة، وهو يبقى على هامش المقصود، وإن الشيء الذي يهم هنا هو إدراك الدستور الذي من شأنه أن يرفع نصب الحياة من الحضيض الذي نشاهده اليوم إلى المستوى الذي يطمح إليه الفرد أو الجمع بطبيعة الشيء المسطر في غريزة بني الإنسان. وفي نظره "أن المشكل قبل كل شيء عائد إلى أصول اجتماعية عامة لا تخص طورا من الحياة البشرية دون الأطوار الأخرى، ولا عنصرا منها دون العناصر الأخرى بل تشملها وتهمها كلها في جميع مراحلها تارة من حضيض إلى حظ وتارة من حظ إلى حضيض"[1].

ألف مالك بن نبي عددا من الكتب قبل الثورة وأخرى أثناء الثورة، والباقي بعدها. فمن الصنف الأول: الظاهرة القرآنية، ولبيك، وشروط النهضة. ومن الصنف الثاني: الآسيوية- الإفريقية(1955) الذي كتبه بالفرنسية ثم ترجم إلى العربية. وفي البناء الجديد (1958) الذي طبع بالعربية في بيروت ولا ندري ما إذا كان قد كتب هذا الكتاب أصلا بالفرنسية، وهو الغالب. ومشكل الثقافة (1957)، لكن الغالب أنه مترجم عن الفرنسية. وصراع الأفكار في البلدان المستعمرة (1958)، وقد يكون كتبه أصلا بالفرنسية. وفكرة كومونويلث إسلامي (1959)، ولعله بالفرنسية أصلا. وميلاد مجتمع (1960). وفي مهب المعركة (1961). وهناك كتيب بعنوان استغاثة الجزائر SOS (1957) . وله من الكتب بعد الاستقلال عدد شبيه بما ذكرنا. وربما يكون ابن نبي أكثر المؤلفين الجزائريين إنتاجا فكريا خلال الثورة، في مجال يتضاءل فيه عادة الإنتاج الفكري وتكثر فيه الحركة والكلام. والملاحظ أن كل الكتب التي ألفها خلال الثورة طبعت في القاهرة ما عدا كتاب في البناء الجديد. كما أن استغاثة الجزائر طبع بالعربية والفرنسية[2].

(1) المنار 17، 6 فبراير 1953. في الأصل من حظ إلى حظيظ.

(2) عن مؤلفات ابن نبي خلال الثورة انظر قائمة مذكرات شاهد القرن!)، المطبوعات الوطنية الجزائرية، الجزائر، 1965.

من مؤلفات مالك بن نبي التي ظهرت مع الثورة كتابه (هوية الإسلام) الذي نشر في باريس 1954، وهو الكتاب الذي كان قد فرغ من تحريره سنة 1950، ولكن مقدمته مكتوبة في يونيو 1954. ويبدو أنه لم يدخل عليه تعديلات رغم الحوادث التي جرت بعد تحريره، ولا سيما حوادث فلسطين، وجاء فيه أن ما يصنع تاريخ العالم الإسلامي اليوم ليس المؤامرات الخارجية التي تشل نهضته مؤقتا ولكن العمل الخفي والمستميت لحركيته العميقة. وقد خصص مالك بن نبي هذا الكتاب للعمل من أجل توجيه هذه الحركية، وأعجب بما قام به المستشرق الإنجليزي هارولد جيب في كتابه (الاتجاهات الحديثة للإسلام) حتى أنه أحال عليه الفصلين الثاني والثالث من هوية الإسلام، ولكنه لم يتابعه في الأفكار، واختار طريقه الخاص في التفكير، فرد عليه مثلا فيما يتعلق (بالأوتوميزم) وقال إنها ليست خاصة بالعقل العربي، كما ذهب إلى ذلك جيب، بل هي ظاهرة بشرية عامة، كما أنه لم يتفق مع جيب في القول ب"الاتجاه الإنساني" للحداثة العربية، وهو الاتجاه الذي استعاره جيب من الثقافة الغربية. وأحال ابن نبي على كتابه (الظاهرة القرآنية)، ولا سيما فصل العلاقة بين القرآن والإنجيل. واتهم الأوربيين بوصف الدول الإسلامية بالمتأخرة دون أن يقولوا إنهم هم الذين تسببوا في تأخرها. وتساءل لماذا كان على المثقفين المسلمين أن يبحثوا عن "الإنسانية" في أوروبا مثلا وفي استطاعتهم أن يجدوها في ثقافتهم وتقاليدهم.

قسم ابن نبي كتابه هوية الإسلام إلى فصول هي: مجتمع ما بعد الموحدين (أو ظاهرة الدورة التاريخية)، والنهضة (أو الحركة الإصلاحية أو الحداثية)، وفوضى العالم الإسلامي الحديث (العوامل الداخلية والخارجية)، وفوضى العالم الغربي، والطرق الجديدة، وإرهاصات العالم الإسلامي. وفي الخاتمة عالج ما أسماه (المستقبل الروحي للإسلام). وفي غلاف الكتاب جاء أن ابن نبي لا ينتمي إلى أي حزب، وأنه يتعاون بانتظام مع جريدة (الجمهورية الجزائرية) لسان حال حزب البيان. كما أنه تعاون مع جريدة (الشاب المسلم)

وهي جريدة الشباب المنتمي إلى الحركة الإصلاحية (جمعية العلماء) والمتعاطفين معها. وجاء في الغلاف أيضا أن هدف الكتاب هو جعل الأوربي يفهم العالم الإسلامي فهما حقيقيا. وقد طلب ابن نبي من القارى المسلم أن يعي مؤهلاته التقليدية والأوضاع الحاضرة لعصره.

استقبل القراء (هوية الإسلام) استقبالا يليق به، فقد جاء في وقت تستعد فيه الأمة كلها لنفض غبار اليأس، وحمل السلاح لاسترجاع الحرية والاستقلال.. فكان الكتاب إدانة منطقية واعية للاستعمار وتبشيرا بإرهاصات نهضة شاملة للإسلام والجزائر. فكتب عنه أحمد توفيق المدني في البصائر، والمولود الطياب في هنا الجزائر، ونوها به أيما تنويه، واعتبرا المؤلف فيلسوفا عالما ومؤرخا دقيقا للحضارة ومنظرا واعيا لمسيرة الإسلام. وانطلاقا من دولة الموحدين التي كانت آخر الحصون الصلبة في نظر المؤلف. وترجم المدني عنوان الكتاب (هوية الإسلام) بينما ترجمه الطياب (رسالة الإسلام)، وأطلق عليه ثالث وجهة الإسلام. ولكن المعنى واحد تقريبا: فقال المدني إن المؤلف متضلع في الهندسة والرياضيات وأنه يحسن الفرنسية أكثر من أبنائها، وإن الكتاب فلسفي علمي يدرس حالة العالم الإسلامي بعد سقوط دولة الموحدين وسقوط العالم الإسلامي تحت الاستعمار ودخوله في حالة جمود وتخلف. وقال إن المؤلف قد أشاد بالنهضة الإسلامية الحديثة التي من آثارها ظهور جماعة الشبان المسلمين والإخوان المسلمين[1].

أما مولود الطياب فقد كان أكثر غمزا لابن نبي حين قال إنه سبق له أن أخرج كتبا عن الإسلام وهي معروفة وإن كانت غير مفهومة. أما في كتابه هذا (رسالة الإسلام) فهو يقدم آراء بطريقة واضحة شافية، وأنه يمتاز بفهم دقيق ولا يصدره إلا بعد تجربة ودراية. وأنه يدقق في مكانة الثقافة ومعناها "وهو أمر نادر عند المفكرين المشارقة". ومالك ابن نبي أكثر فهما للإسلام من الغربيين

(1) البصائر 322، والتاريخ غير متوفر الآن.

باعتباره يكتب عنه من الداخل (وهذا رأي ابن نبي في فرانز فانون- انظر سابقا)، فهو من أهل الدين نفسه. واقترح الطياب ترجمة رسالة الإسلام إلى العربية، وهو ما حصل فعلا بعد حين. إنه كتاب في نظره يتناول قضية التجديد والتقليد ويقدم نظرة شاملة لنهضة الإسلام[1].

ومن الواضح أن رسالة الإسلام أو هوية الإسلام جاء في وقته، لأن الثورة كانت تبحث عن إيديولوجية تقودها؛ وهي تفتقر، إلى ذلك الحين، إلى مرجعية تعتمد عليها في صياغة قوانينها وسير حركتها. ولا ندري الآن مدى رواج ومقروئية مالك ابن نبي في أوساط نخبة الثورة حتى نعرف مدى تأثيره على سير شؤونها وتفكير رجالها. غير أن هناك دلائل تدل على أن فكر مالك بن نبي لم يؤثر على نخبة الثورة بقدر ما أثر عليها الفكر الماركسي ممثلا في كتابات فرانز فانون وأمثاله.

وبعد 1962 أصدر ابن نبي كتابا آخر سماه (آفاق جزائرية) ناقش فيه قضايا هامة كانت ما تزال تشغل أهل الفكر الثوري عامة... ويهمنا أنه ناقش فيه قضايا الحرية والمفهومية وميراث الجزائر من الاستعمار، وعالج فيه مسألة الإنسان الجزائري وكيف خلقت منه الثورة إنسانا جديدا، غير أنه رجع إلى أصله بمجرد وقف القتال وإعلان نهاية الثورة، كما تناول الفرق بين "البوليتيك" (احتراف العمل السياسي) والسياسة. إنه كتاب يعبر عن الروح الثورية التي لم تصمد أمام التهافت على الكسب ورأس المال والسباق إلى المناصب ابتداء من أعضاء الحكومة المؤقتة، حسب تعبيره[2].

أصول الحضارة العالمية

لقد سبق لنا أن تناولنا بعض أعمال عبد الرحمن بن الحفاف في كتابنا التاريخ الثقافي، ولا نود أن نطيل الحديث عنها الآن وإنما نريد أن نذكر ما عثرنا

---

(1) هنا الجزائر 32، فبراير 1955.

(2) طبع هذا الكتاب في القاهرة، في ط2 سنة 1971، ولا ندري متى ظهرت طبعته الأولى.

عليه من معلومات حول المؤلف حتى تكتمل الصورة بعض الشيء. "والمختصر المفيد" عنه هو الذي كتبه أحمد الأكحل في صورة تأبين أو خبر وفاة للشيخ ابن الحفاف سنة 1957 (1376هـ) فهو عبد الرحمن بن الحفاف حفيد الشيخ علي بن الحفاف مفتي المالكية في القرن الثالث عشر الهجري والمتوفى سنة 1307. أما عبد الرحمن فقد توفي عن أكثر من ثمانين سنة، قضى معظمها في المطالعة، وهو من قدماء المدرسة الثعالبية بالعاصمة. وقد دخل سلك القضاء وترقى فيه إلى أن أصبح (باش عدل) أو رئيس العدول في المحكمة المالكية، ولكنه استقال من المنصب وتفرغ للعلم في وضع شبيه بما فعل بعد مالك بن نبي حين تخلى عن وظيفة القضاء وتوجه إلى فرنسا لدراسة الهندسة الكهربائية. كان ابن الحفاف عارفا بالفرنسية والعربية، وكان كثير البحث في الآداب والفلسفة والدين وعلم الاجتماع، وله بالفرنسية عدة كُتب.

من مؤلفاته تمهيد لدراسة الإسلام الذي وضعه ليكون دليلا لمن لا يعرف العربية وتاريخ الإسلام من أبناء جلدته، فهو كتاب صغير الحجم في حضارة الإسلام وتاريخه، وقد رد فيه على بعض الشبهات حول الرسول (صلى الله عليه وسلم) وحول الشريعة. ومن مؤلفاته أيضا تاريخ الحروف الهجائية أو تاريخ الأبجدية، ومنها كتاب أصول المدنية (الحضارة) الذي نحن بصدده[1].

هذا الكتاب تتبع فيه المؤلف تاريخ الحضارات القديمة، ومنها الحضارة الفينيقية والحضارة البابلية، وقدم الرأيين القائلين باتصال أو انفصال الحضارات بعضها عن بعض. وانتهى إلى أن الحضارات متصلة وغير مستقلة عن بعضها، مستدلا بما انتهى إليه غوساف لوبون من تواصل الحضارات. فقد كان ابن الحفاف يبحث عن أم الحضارات ما دامت الفروع والامتدادات واحدة. إن الذين يقولون باستقلال كل حضارة راعوا الخصائص المميزة لكل منها، أما الذين يقولون بتواصل الحضارات فنظروا إلى أخذ بعضها عن بعض والخصائص

(1) أحمد الأكحل، هنا الجزائر 54، مارس- أبريل 1957 / شعبان- رمضان 1376.

المشتركة التي تتضح في مختلف الحضارات مهما تباعدت في الزمان أو المكان. وفي نظره أن الاكتشافات الأثرية المتأخرة تؤكد الرأي القائل بعدم استقلالية كل الحضارة عن الأخرى.

وتعرض ابن الحفاف أيضا إلى أصول سكان شمال إفريقيا وهي المسألة الشائكة التي لم يبت فيها، في نظره، " أكثرية المؤرخين" . وقد انتهى حولها إلى الرأي القائل بأن سكان شمال إفريقيا عرب قدموا من المشرق في إحدى موجات الهجرات القديمة. ووافقه على ذلك الناقد مولود الطياب، لكنه اختلف معه في الاعتماد على دليل اللغة وحدها بالنسبة إلى أهل شمال إفريقيا، والدليل على ذلك أن بعض اللهجات، كالقبائلية "حدث عليها من التطورات ما جعل الكثير من مصادرها عربية"(1).

ولو بحثنا في آثار عبد الرحمن بن الحفاف لوجدنا ربما تراثا هاما ومعلومات مكتوبة تفيد هذا البحث وأمثاله في مرحلة الثورة. فالرجل كان متقدما في السن عندما طبع كتابه أصول الحضارة (1955)، وقد عاش حوالي سنتين فقط بعد ذلك. وتناولت البصائر وغيرها هذا الكتاب وأشاد الكتاب بصاحبه على أنه كان يحمل رسالة وفكرة إلى قرائه في وقت اشتدت فيه قوة الاستعمار واختلطت مفاهيم الحضارات ونكران حق الشعوب الأخرى في التقدم والازدهار. ومن الملفت للنظر أن كتب ابن الحفاف المذكورة قد نشرت في العقد الأخير من حياته، لماذا؟ وهل له كتب أخرى مخطوطة؟

من وحي الثورة الجزائرية

الجنيدي خليفة من جيل الثورة. تولى مسؤوليات على المستوى الطلابي في تونس والقاهرة خلال الخمسينات. وكان عندئذ طالبا في الفلسفة بجامعة القاهرة. وقد عرفناه في جامع الزيتونة فكان كثير المطالعة متحرر الفكر غير ملتزم بما تقدمه البرامج الزيتونية من معارف في التوجه والمعلومات. وهو من

---

(1) هنا الجزائر 37، يوليو 1955.

طلبة حزب الشعب النشطين في تونس قبل الثورة وطلبة جبهة التحرير الفاعلين أثناء الثورة. وقد اعتقل وسجن أثناء الثورة قبل استقلال تونس، ونشر بعض أعماله الفكرية والنقدية في جرائد تونس قبل رحيله إلى القاهرة. وأثناء وجوده في تونس والقاهرة كتب فصولا في شكل رسومات(كما عبر عنها) أو يوميات وقصصا ورسائل وتأملات فلسفية بين 1954و1962. وسجل مع بعضها مكان الكتابة وهو تونس، والباقي سكت عنه، والغالب أنه كتبه في القاهرة. استعمل الجنيدي الأسلوب الفلسفي وطرق مواضيع تتصل بالثورة كتهريب السلاح ودور الطلبة وحياتهم أثناءها والتفجيرات الذرية الفرنسية في الصحراء الجزائرية التي أعطاها عنوانا هو (خلاصة علمية). وبعض هذه المواضيع نشره في مجلة الآداب البيروتية مثل رسالة من سجين جزائري(1958)، وتمثال الحقد (1962)، كما نشر في مجلة الفكر التونسية (1959).

يقول الجنيدي عن عمله إنه كتبه في شكل يوميات ليست بصيغة الماضي بعد أن فصلت بينه وبين هذا الماضي حقبة طويلة. ومناسبة هذه اليوميات كانت إحدى السهرات بين الراوي- وهو المؤلف- وصديق قديم له. بدأها يوم أول نوفمبر 1954 حين دخوله الامتحان في تونس وكيف فوجى بخبر الثورة في الجزائر على صفحات إحدى الجرائد بعد أن طال العهد على ترديد الناس مقولة تقول إن هناك شيئا ما سيحدث في الجزائر، وها قد حدث. وعاش الراوي ردود الفعل الآنية واللاحقة لدى الشباب وهم يتهيأون للانضمام إلى الثورة لأنها قد أرجعت لهم شيئا مفقودا منذ أجيال وهو الكرامة. وتوالت اليوميات في أسلوب قصصي مباشر، وروى فيها كيف التحق بالحرب وكيف تردد بين تونس والمشرق للدراسة. إن أجزاء هامة من كتاب (من وحي الثورة الجزائرية) متصلة اتصالا مباشرا بالثورة، وقد صاغها مؤلفها كما قلنا صياغة فلسفية، ولذلك أدرجناها هنا[1].

---

(1) من وحي الثورة. . . دار الثقافة، بيروت، 1963. وكذلك دراستنا عن هذا الكتاب في كتابنا منطلقات فكرية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.3، 2005. من مؤلفات =

لقد عاش الجنيدي في القاهرة حتى نال الليسانس ثم رجع إلى الجزائر وفيها حصل على الدكتوراه في علم النفس والفلسفة. وساهم في أنشطة اتحاد الكتاب الجزائريين ودراسة أفكار الثورة وتولى عدة مسؤوليات جامعية. وقد أدركه الموت سنة 1993 تاركا عدة بحوث ودراسات في تخصصه ولكن آثاره لم تجمع ولم تدرس حتى الآن دراسة تليق بدور صاحبها في الثورة والثقافة.

كتب فرانز فانون

اعتبر بعض الجزائريين الطبيب النفساني فرانز فانون فيلسوف الثورة الجزائرية وصنفوه ضمن أبنائها المخلصين وأعطوه لقب الأخ والرفيق والمناضل، ولكنهم توقفوا عن وصفه "بالمجاهد" لأنه كان ومات نصرانيا أو ملحدا. وفانون أصبح بعد أن اختار الجزائر وطنا له، مواطنا له نفس حقوق وواجبات الجزائريين. وقد دفن بعد وفاته داخل الحدود الجزائرية، وكان قبل وفاته يداوي المجاهدين واللاجئين، ثم تولى وظائف سامية في الثورة، منها ممثل (سفير؟) الجزائر في أكرا عاصمة غانا، وبهذه الصفة أصبح صلة وصل بين الجزائر وإفريقيا بل و"الكادحين" على وجه الأرض. ولد فانون في جزر المارتينيك حيث يرجع إلى أصول إفريقية وفرنسية. فهو شبيه بسلفه (توماس أوربان)، رجل هجين، أبوه فرنسي وأمه زنجية. وبعد ثقافة طبية ونفسية عميقة جاء الجزائر ومارس فيها الطب النفسي وانضم للثورة سرا لأنه أعجب بها وبأسلوبها في الكفاح وعلق عليها آمالا عراضا في تحرير الإنسان عموما والإنسان الإفريقي خصوصا. فكتب عنها بعض الكتب، منها:

- السنة الخامسة للثورة الجزائرية.
- الكادحون (أو المعذبون) في الأرض. وها نحن نتناولهما باختصار على الترتيب.

= الجنيدي أيضا تمارين على التوبة، وفي انتظار نوفمبر جديد. . . .

عندما صدر هذا الكتاب اعتبر وثيقة دامغة ضد الاستعمار، ووثيقة أخرى تكشف عن تطور المجتمع الجزائري بسبب الثورة، ووثيقة ثالثة لتحرير الإنسان المضطهد حيثما كان. وقد كشف فيه فانون عن أوجه العلاقة المستورة التي كانت بين المستعمِر والمستعمَر. فتخاطفه الناس وترجموه إلى عدد من اللغات وحللوا آراء صاحبه وصوَّبه البعض وخطأه آخرون. ودون أن نرجع إلى ما قاله هؤلاء أو أولئك دعنا نذكر ما قالته جريدة (المجاهد) التي كانت سباقة إلى تبني آراء فانون ونقلها إلى قرائها.

تعرض كما قلنا، لما طرأ على المجتمع الجزائري من تطور بعد الثورة مثل علاقة الابن بالأب. وفي هذا المقال عناوين اهتمت جريدة المجاهد بإبرازها مثل: التناقضات التي نشأت داخل الأسرة وداخل الأمة في نظر فانون الذي جاء على لسانه ذات مرة: هذا أول نوفمبر 1954 وعليك أن تختار... أما عنوان مقال المجاهد كله فهو: (الأسرة الجزائرية في الثورة)[1].

وفي المقال الثاني حللت المجاهد مسألة المرأة في الكتاب: كيف تطورت نتيجة للثورة، لقد كانت البنت، في نظر فانون، دائما خلف الابن، مثل كل المجتمعات التي تقوم على خدمة الأرض بحيث يصبح ميلاد الولد عندها أكثر احتفاء من ميلاد البنت، ذلك أن الأب يرى الطفل رفيقا له في خدمة الأرض وخليفة له بعد وفاته، فالولد هو الذي يصبح الحامي أو الولي على أمه وعلى إخوته. أما البنت فتبقى ثانوية لأخيها. ومن محتويات هذا المقال: الثورة تحرر المرأة، وتجربة المقاومة السرية، وعندما تكون زوجة مناضل مناضلة، والزوجان الجديدان، وغيرها من المواضيع. وعلقت الجريدة على هذا التحليل للواقع الجزائري سنة 1959 بقولها إنه هو الواقع الناتج مباشرة عن الثورة. وافتخرت الجريدة بأنها تنشر منه هذه الصفحات عشية ظهوره، وهي تحاول أن

---

(1) منشورات ماسبيرو، باريس، 1959.

"تتبع المغامرة المعاشة من العائلات الجزائرية في أتون الكفاح"

وقد صدقت المجاهد في ذلك، فقد تتبعت "مغامرة" لا تدري مداها ولا عواقبها، مغامرة فجرتها الثورة التي كانت في حاجة إلى جميع أبنائها، ذكورا وإناثا، مغامرة هوت على التقاليد بفأس من صلب فكسرت أصولا وفروعا وخلقت بذلك واقعا جديدا للجزائر الجديدة. ولم يزد فانون على رصد هذا الوقع، بحكم مهنته، وقدرته على التحليل والصياغة لكتاب يتداوله الناس. وإذا عدنا إلى هذه المغامرة وحديث فانونِ عن تحرر المرأة الجزائرية عرفنا لماذا وجه المفكر مالك بن نبي نقده اللاذع لفانون باعتباره لم يعش ذاتية الشعب الجزائري-حسب تعبير ابن نبي- ولم يحس بشخصيته الدينية والتاريخية، رغم تخصصه في التحليل النفسي الحديث[1].

الكادحون في الأرض

هكذا ترجمت المجاهد كتاب فانون الثاني والأخير الذي ألفه في السنة الأخيرة من حياته. وقد تصدت المجاهد لترجمة هذا الكتاب وقدمته لقرائها عزاء لهم في وفاة صاحبه قائلة إنه لم يمت ولن يموت، واصفة المؤلف بأنه "فقيدنا العظيم" وصاحب مقولة: "هيا بنا يا إخواني... يجب أن نخلق إنسانا جديدا"، في حديث ضمنه "كل حرارة إيمانه الملتهب وعمق فكره النفاذ، وسمو روحه المشرقة، وغزارة تجربته الثورية الفذة" حسب قولها.

لقد كان فانون يعرف -حسب المجاهد- بأن الموت يترصده، وأنه كان يشعر بأن رسالته الثورية لم تكتمل ولن تكتمل إلا إذا أنهاها بعمل يخلد به حياته ومجده يضم خلاصة تجربته ورأيه في بناء المجتمع الجديد بواسطة الكفاح الثوري، فكتب كتابه (الكادحون في الأرض). ورأت في لحظة من المبالغة المفرطة أن الثوار فقدوا فيه أخا ورفيقا، ومناضلا كبيرا ومفكرا عظيما، وانه

---

(1) المجاهد - بالفرنسية - 53-54، أول نوفمبر 1959، وأيضا عدد 55، 16 نوفمبر 1959.

سيبقى حيا بين الجزائريين إلى الأبد، لأنه ترك وراءه هذه الثروة الفكرية الثمينة التي ستفيد العالم الثالث في مسيرته نحو حياة أفضل.

لقد قامت المجاهد بترجمة الكتاب إلى العربية خدمة لقرائها لأنه أحدث دويا في أوربا لم يحدثه كتاب من قبل منذ وثيقة ماركس وأنجلز (تقصد البيان الشيوعي سنة 1848). وقد تولت أسرة المجاهد الترجمة وحفظ الحقوق والنشر حتى في اللغات الأخرى غير العربية. وافتتحت نشر الكتاب بنشر المقدمة التي كتبها له جان بول سارتر الذي وصفته المجاهد بأنه "الفيلسوف الفرنسي الكبير". ثم بعد ترجمة ونشر المقدمة والفصل الأول في جملة من الأعداد بدأت تنشر الفصل الثاني. . .ولكنها توقفت فجأة عن ذلك دون أن ندري هل ظهرت ترجمة الكتاب كاملة في نطاق آخر. إن آخر ما نشر من الكتاب موجود في العدد 120 من المحاهد، وهو الفصل الثاني الذي انتهى بعبارة (يتبع)، ولكن شيئا من ذلك لم يتبع[1].

ويبدو أن فانون قد حظي عند الجزائريين بقسط كبير من الاحترام والتبجيل لأنه نصرهم بالفكر والطب عندما نصرهم الناس بالسلاح والمؤونة، وأنه فهمهم من داخل مجتمعهم بعد أن حلل نفسياتهم وتأكد من آمالهم، وهاجم الاستعمار بقلمه كما هاجموه ببنادقهم. ومن عادة الجزائريين أنهم يعطفون على المغبونين، وقد كان فانون مغبونا، وعلى المستضعفين وقد كان مستضعفا، وإذا أحبوا أحدا أو شيئا أحبوه بكل ما يملكون وإذا نفروا منه أبغضوه بكل ما يملكون أيضا، فلا توسط عندهم في المدح أو في القدح. وقد كان الإنصاف يقتضيهم أن يقدموا عنه معاصره ومواطنهم مالك بن نبي، ولكنهم ربما كانوا يشعرون بالأمن إذا مدحوا أجنبيا أو قدحوا فيه بينما يشعرون بالخوف إذا مدحوا واحدا منهم أو قدحوا فيه. كما كان لسيطرة اليسار على الثورة في وسائل الإعلام بالخصوص نصيبه في رفع فانون إلى سدة الفكر الماركسي بينما ابن نبي كان

(1) المجاهد 111، 25 ديسمبر 1961، والمجاهد 120، 30 أبريل 1962.

يرى أن مرجعية الثورة تتمثل في الإسلام وليس في الشيوعية أو حتى السانسيمونية. وما تزال معظم وسائل الإعلام والتأثير في يد اليسار عندنا إلى اليوم.

الدراسات الإسلامية والاجتماعية والسياسية والقانونية

الشؤون الإسلامية

رغم علمانية الثورة، كما ظهرت في تصرفات وتصريحات قادتها، فإنها أعطت للشؤون الإسلامية اهتماما خاصا. وأهم هذه الشؤون هي التاريخ الإسلامي والقضاء الإسلامي والأوقاف الإسلامية.

التاريخ الإسلامي

فتحت جريدة المقاومة الجزائرية بابا أسمته (صفحات خالدة من الإسلام) نشرت تحته حياة أسماء بنت أبي بكر الصديق "أول مجاهدة عربية"، و "سيف الله خالد بن الوليد"، و"السلام والإسلام" بمناسبة ذكرى مولد السيد المسيح عليه السلام، " وطارق بن زياد"، و ذكرى " الأمير عبد القادر"بمناسبة مرور 57 عاما على وفاته، و "كفاح الجزائريين بين الماضي و الحاضر"، و"مرحبا بك يا رمضان "، و "البطل الخالد الإمام ابن باديس"، و"من غزوة بدر إلى الكفاح الجزائري"، و "لست أبالي حين أقتل مسلما " (مقارنة بين دور الصحابي خبيب بن عدي وأحمد زبانة)، و "أم الأبطال: تماضر الخنساء"، و"خولة بنت الأزور".

وسنكتفي هنا بذكر أعداد جريدة المقاومة الجزائرية التي تناولت المواضيع السابقة، دون ذكر تواريخها. فالأعداد هي: 3، 4، 6، 8، 9، 11، 13، 15، 16، 17، وكلها بين سنتي 1956-1957 ومعظمها تحمل الطبعة الثالثة من الجريدة. إن ربط الثورة الجزائرية بوقائع التاريخ الإسلامي وماقف رجاله ونسائه البطولية كانت تخدم هدفين الأول إعطاء البعد الروحي للثورة تشجيعا

للثوار والجماهير، والثاني اعتبار الثورة امتدادا للتاريخ العربي الإسلامي وأنها جزء من معركة متصلة الحلقات. فالهدف ليس هو فقط التحرير الوطني بل هو أيضا تحقيق انتصار الإسلام.

موقف الطرق الصوفية

يتساءل الدارسون لتاريخ الثورة عن موقف رجال الطرق الصوفية، والعلماء منها، سواء في أولها كرد فعل منهم، أو بعد تمكنها واتضاح برنامجها ومعرفة قادتها. ونحن إلى الآن لم ندرس هذا الموضوع دراسة علمية تاريخية ولم نجد من سلط عليه الأضواء الكافية، ولكننا وجدنا بعض المواقف المتحمسة أو المحسوبة على الاتجاه الإيجابي.

فبعد مرور سنتين على الثورة نشرت البصائر أن ثلاث زوايا وجهت إلى رئيس الحكومة الفرنسية برقية تطلب الاعتراف بالجنسية الجزائرية. وهذه الزوايا هي: الزاوية السحنونية في بني وغليس وشيخها هو محمد السعيد الشريف أمقران، وزاوية تومليكين في تغزيرت وشيخها محمد الطاهر آيت عيسى، وزاوية سيدي منصور في أزفون وشيخها محمد الشريف الضاوي. وجميع هذه الزوايا ترجع إلى الطريقة الرحمانية، وكلها أيضا في القبائل. وقالت الجريدة إن هؤلاء الشيوخ طالبوا رئيس الحكومة (جي موليه) بوجوب استعمال الرحمة والمساواة والتسامح مع سائر "المتساكنين" قائلين إن سياسة الاندماج لا يقبلها المسلمون لأن لهم دينهم وتاريخهم وذاتيتهم... أما الحل فيكمن في الاعتراف بالجنسية الجزائرية لمصلحة الجميع، وفي نظرهم أن هذا لا يتنافى مع الصداقة بين الجزائر وفرنسا.

والملاحظ أن هذه البرقية أرسلت بعد اشتداد الثورة، وبعد إعلان جمعية العلماء عن موقفها في يناير من نفس العام ببيان صادر عن مجلسها الإداري، وكذلك حزب البيان، والنواب، وبعد أن طلبت الجبهة من الجميع اتخاذ مواقف

صريحة وواضحة، أثناء التحضير لعقد مؤتمر الصومام[1].

وصاحب الزاوية السحنونية هو محمد السعيد الشريف السحنوني، كما قلنا، وهو من زعماء الطريقة الرحمانية، ووالد أخينا علي مقران السحنوني، وقد اشتهرت هذه الزاوية بالعلم والكفاح في حوض الصومام. وجد العائلة هو السعيد أمقران الذي قاوم الاحتلال أثناء ثورة 1871 واستشهد في بني يراثن (نات يراثن)، ومن هذه العائلة محمد وعلي السحنوني الذي شارك في الثورة المقرانية وحكم عليه بالنفي من الجزائر، ثم هرب إلى الحجاز (المدينة المنورة) وفيها تزوج وتوفي[2].

أما الشيخ محمد الشريف السحنوني المعاصر لثورة نوفمبر فقد فكر عند اشتداد الضغط عليه، في الهجرة بعائلته إلى الحجاز، وتعرض للتعذيب والإهانة والتشريد ولم يجتمع شمله بأسرته إلا بعد الاستقلال، فدخل السجن عدة مرات، آخرها سنة 1958 حين القوا عليه القبض في منزله بسطيف. وتعرضت زاويته في (تغراست) لهجوم عسكري خرب الزاوية وما فيها، وكان عدد طلابها حوالي خمسين (50) طالبا فساقوهم إلى السجن حيث عذبوا وأهينوا.

تخرج محمد الشريف من الزيتونة، وانتصب للتدريس في زاويتيه (السحنونية والوغليسية). ولم يكن وحده في ذلك، فقد انضم إلى هيئة تدريس الزاويتين عدد من الأساتذة، وجاءهم من تونس الشيخ محمد الحبيب والشيخ الفرشيشي للمساعدة على التدريس. وقد بلغ عدد طلاب الزاويتين خمسمائة وخمسين طالبا (550) وكان فيهما أبناء الجزائر والمغرب وجيبوتي وليبيا.

وجمع الشيخ محمد الشريف مكتبة غنية بالمطبوعات والمخطوطات بحيث بلغت المخطوطات حوالي ثلاثمائة (300) كان قد اقتنى معظمها من تونس من مكتبات الشيوخ المتوفين والتي تباع عادة في المزاد. كما اشترى

---

(1) البصائر 357، 9 مارس 1956.

(2) أنظر عنه كتابنا التاريخ الثقافي، والحركة الوطنية.

بعضها من المشرق أثناء رحلاته. وكان يتردد على المكتبات المعروفة عندئذ مثل مكتبة رودوسي في الجزائر، والثميني والعسلي والأمين في تونس. وبالإضافة إلى ذلك هناك الدوريات التي كان الشيخ يجتهد في اقتنائها والاشتراك فيها. هذه المكتبة الغنية كان مصيرها مصير الزاوية، فقد نهبت وأتلفت ولم ينقذ منها إلا النادر. فغضب الاستعمار على صاحب الزاوية يطال الزاوية ومكتبتها أيضا[1].

ومن جهة أخرى نعرف أن الطريقة التجانية تدخلت بطريقة غير معلنة لإنقاذ حياة الشاعر محمد العيد آل خليفة الذي ألقت عليه السلطات الفرنسية القبض، وكان على وشك تنفيذ القتل فيه، مع آخرين. وبفضل تدخلها تغير الموقف وفرض الفرنسيون على الشاعر الإقامة الجبرية في بسكرة طيلة عهد الثورة. ولكننا إلى الآن لا نملك دليلا قاطعا على تدخل الطريقة التجانية.

إذا سألت اليوم قادة الطرق الصوفية وأتباعها المتحمسين ورجال الزوايا عن موقف طريقتهم أو زاويتهم من الثورة فإنهم لا يترددون في وضع صورة براقة أمامك من التضحية والفداء والقيام بالأعمال السرية والعلنية لصالح الثورة والتعرض من أجل ذلك لأخطار لا تعد ولا تحصى. وهم في ذلك لا يختلفون كثيرا عن إخوانهم المنتمين إلى الأحزاب السياسية حماسة وولاء. وفي غمرة هذا السيل من "الأعمال" الباهرة ينسون علاقتهم السابقة واللاحقة بالسلطات الفرنسية عن رضى ومصلحة أو عن كره وتقية. وأمام ذلك لا يستطيع المؤرخ أن يصل إلى الحقيقة عن دور الطرق الصوفية والزوايا من الثورة. ومن ثمة نكتفي هنا بإيراد بعض الأقوال التي نشك منذ البداية في أصالتها إلا إذا دعمتها الوثائق (رسائل، بيانات، تصريحات، محاضر، مذكرات معاصرة للأحداث...). والواقع أن هذا المنهج يجب أن يطبق على كل الشخصيات والمؤسسات والتنظيمات التي كان وجودها يكتسي طابعا عاما وله صلة بالجماهير من جهة

---

(1) محمد الصالح الصديق، البصائر 24-31 أكتوبر، 2005.

وبالإدارة من جهة أخرى.

كنت أطالع عملا قدمه صاحبه إلى ندوة عقدت هذه السنة (2005) عن دور الزوايا والطرق الصوفية في الثورة، فوجدت صاحب الكلمة، يذكر أسماء أشخاص وتضحيات كثيرة منسوبة إلى بعض رجال الطرق الصوفية، بل إنه جعل عدة رؤساء تولوا حكم الجزائر من أتباع هذه الطرق. (ابن بلة وابن جديد وبوتفليقة، وغيرهم كمصالي وآيت احمد)، قد انتموا إلى طرق صوفية كالهبرية أو الرحمانية أو الدرقاوية. وقد فهمنا من البحث أن الثورة صادفت مشيخة محمد عبد اللطيف للطريقة الهبرية. ففي عهده قدمت الطريقة عددا من المجاهدين تطول قائمتهم. وربما يقال إن مشاركة المريدين في الثورة لم تعد ذات قيمة في حد ذاتها لأن الثورة جندت الجميع، وقد انضموا للثورة كمواطنين لا كمريدين. وإنما نحن نبحث في هذا المقام عما فعلت وقالت وكتبت مشيخة الطرق نفسها كحث الناس على الجهاد أو إعلان مطالبها للسلطات الفرنسية وليس تبني أعمال الآخرين ولو كانوا من المريدين.

ومهما كان الأمر فقد نسب صاحب الكلمة أعمالا للشيخ محمد عبد اللطيف شخصيا مثل جمع السلاح وتحضير الاستفتاء (؟) سنة 1962 وفرز أسماء المرشحين لتولي المهام الجديدة في الجزائر المستقلة. ولا شك أن ذلك -إذا صح- كان بعد وقف إطلاق النار.

كما جاء الكاتب على ذكر الشيخ محمد المدني، من زاوية سيدي عبد الباقي المنتشرة في وهران وغيليزان. وبناء عليه فإن الشيخ المدني تعرض للتعذيب بعد إلقاء القبض عليه سنة 1956. وكان قد انضم إلى منظمة فدائية بوهران، ولم يطلق سراحه إلا سنة 1960. كما طال السجن عددا من أقارب الشيخ المدني (وهو أيضا من الطريقة الهبرية) كانوا من المجاهدين في المنظمة الخاصة[1].

---

(1) كلمة السيد الحبيب بن عدة، التي أعدها تحت إشراف الشيخ محمد عبد اللطيف بلقايد=

وعلمنا من مصادر شفوية أن الشيخ عبد العزيز بن الهاشمي مقدم الطريقة القادرية في سوف قد أهدى محلات يملكها في تونس إلى جبهة التحرير الوطني، ومنها قصر جعلت فيه مكاتبها. والشيخ عبد العزيز بن الهاشمي هو الذي كان قد "تمرد" على فرنسا سنة 1938 في سوف ورحب بوفد جمعية العلماء برئاسة ابن باديس، وأعلن انضمامه إلى هذه الجمعية، فألقت السلطات الفرنسية القبض عليه وعلى من سانده من العلماء وزجت بهم في سجن الكدية بقسنطينة. وقد توفي الشيخ عبد العزيز في تونس بعد الاستقلال.

الأوقاف الإسلامية

أشرنا في البداية إلى أن استيلاء إدارة الاحتلال على الأوقاف الإسلامية بقي مشكلة حية في ذاكرة الجزائريين طيلة العهد الاستعماري. وقد كتبت جريدة البصائر بتاريخ يونيو 1955 خلاصة عن الوقف المعروف بوقف عبد الرحمن القينعي الذي يرجع إلى 1864. والقينعي من المحسنين الجزائريين الأثرياء، ترك للمكتب الخيري الإسلامي وقفا لفائدة الفقراء المسلمين في مدينة الجزائر الذين مسهم الضر بعد مصادرة الفرنسيين للأوقاف الإسلامية. وكان مبلغ الوقف أربعة ملايين فرنك سنويا، وهو مع ذلك غير كاف لأن عدد الفقراء كان يتجاوز العشرين ألفا في العاصمة وحدها. وكان للأوروبيين أوقافهم ومكتبهم الخيري أيضا. وكانوا يفرضون ضريبة على الملاهي لفائدة هذا المكتب بينما لا يستفيد المسلمون من هذه الضريبة شيئا رغم أنهم كانوا يدفعون القسط الأكبر منها بحكم دخولهم للملاهي. وتقدر الضريبة بخمسة وتسعين مليون فرنك ونصف المليون. فطالب المسلمون بتقسيم ضريبة الملاهي بينهم وبين الأوروبيين خصوصا وأنه لا يكاد يوجد عند هؤلاء فقراء. ولكن المسألة جاءت معكوسة فقد كان الأوروبيون هم الذين يطالبون بدمج وقف القينعي في رصيدهم الخيري ليستفيدوا أيضا منه. وقد اتهم المسلمون إدارة بلدية العاصمة بأنها تريد

= وقدمها في ملتقى: دور الزوايا والطرق الصوفية أثناء الثورة، وهران، مايو 2005.

الاستيلاء على ما بقي من الأوقاف الإسلامية في الوقت الذي يطالب فيه المسلمون بإرجاعها كلها إلى جماعة المسلمين، وفي الوقت الذي أعلن فيه الحاكم العام أن إدارته سترجعها إليهم حسب دستور سنة 1947.

وبعد مشادات بين عمر بوضربة رئيس المكتب الخيري الإسلامي والحكومة، وبعد تدخل أطراف فرنسية، رضيت الحكومة بمنح قسط من الضريبة إلى المكتب الخيري الإسلامي. لكن الإدارة الاستعمارية طبقت سياسة التمييز فمنحت المكتب الإسلامي الثلث فقط من تلك الضريبة، أي ثلاثين في المائة من المبلغ المذكور بينما المكتب الأوروبي الذي لا يكاد يوجد له فقراء يأخذ منها سبعين في المائة. وقد علقت البصائر على ذلك بقولها: لو قسمت الضريبة مناصفة بين المكتبين لنال المسلمين منها 47 مليونا بدل أربعة[1].

أما مقالة نور الدين عبد القادر عن أصل وقف القينعى فقد نشرت سنة 1960 واحتوت على معلومات هامة لم نكن قد اطلعنا عليها عند ما كتبنا عن الأوقاف في كتابنا السابق. اعتمد نور الدين على عدة وثائق وعلى ثلاثة معاصرين ممن عرفوا القينعي شخصيا وكانوا من المتقدمين في السن.

ولد القينعي - بناء على أغلب التقدير - في مدينة البليدة في عهد الداي مصطفي باشا (أوائل القرن التاسع عشر) وهو من قبيلة (بني قينع) القاطنة بين بوينان وتابلاط، وبعد رشده اشتغل بالتجارة، قبل الاحتلال، وكان يتردد على العاصمة، فتكفل بعد الاحتلال بصنع السراويل والبرانيس والشواشي للجند الفرنسي - وهي بضاعة عادة تصنع من الملف الملون المطرز، كما تكفل لهم بصنع المصنوعات الجلدية التي يحتاجها فرسانهم ومشاتهم. فوظف القينعي عمالا وراجت تجارته وكثرت أملاكه وماله، واشترى الأراضي في متيجة كما اشترى العقارات. وكان يتعامل بالربا، ويتابع من يستدين منه أو يتأخر في الرد، على يد الحاكم، وكان حريصا كل الحرص على المال. وحين وفاته لم يمش

(1) البصائر 324، 29 يونيو 1955.

في جنازته إلا عدد قليل، وقد سموا عليه شارعا في حارة الجبل بالعاصمة.

كان القينعي يلبس قفطانا، ولا يهتم باللباس إلا في حالات نادرة، ولكنه كان دائما نقي اللباس. وقد أصبح صاحب ثروة ضخمة، وينزل عند صديقه قائد الشمع في البليدة، وكان متواضعا يعيش عيشة بسيطة، ويتصدق على المحتاجين بلا رياء، وكان هدفه هو فعل الخير. وفي كل خميس يذهب إلى ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي ويحضر قراءة بعض الأحزاب، ويعطي لكل قارى مالا وهو ما يسمى (بحزب القينعي) الذي ما يزال منتظما إلى سنة 1960. كما كان يزور ضريح سيدي أحمد الكبير في البليدة.

أوقف القينعي أملاكه على فقراء المسلمين بمقتضى رسم مسجل بالمحكمة المالكية بالجزائر بتاريخ 29 مارس 1860. وبناء عليه فان كل أملاك القينعي وما سيملكه من عقار ودور ومصوغ وأثاث ينتفع به مادام على قيد الحياة، وبعده يؤول إلى فقراء مدينة الجزائر. وقد أوصى لابنه الوحيد الحاج محمود القينعي بمائة وخمسين فرنكا كل شهر وبالسكنى بلا كراء، كما أوصى لأخته الشقيقة عائشة بخمسة وسبعين فرنكا وبالسكنى بلا كراء في دار قرب جامع سفير. وأخيرا أوصى لزوجته عائشة بنت إسماعيل بخمسة وسبعين فرنكا شهريا، وتكفلت(دار الصدقة) بهذا الوقف عوضا عن مفتي وقاضي المالكية، وكلاهما مذكور في رسم الوقف[1].

وهناك معلومات إضافية أوردها نور الدين عن حياة السيد القينعي، منها أنه كان يسكن في زقاق قرب (ضريح) ابن ميمون بحارة الجبل بالجزائر، وأنه توفي في البليدة يوم 9 يناير 1868 وهو في الخامسة والتسعين، وربما كان عمره أقل من ذلك، حسب نور الدين، أما ابنه الحاج محمود فقد توفي قبله بسنوات. وفي سنة 1934 جدد قبر القينعي وأحيت (دار الصدقة) ذكراه بهذه المناسبة.

---

(1) دار الصدقة مؤسسة خيرية أنشئت سنة 1857 في عهد نابليون الثالث، أنظر عنها كتابنا التاريخ الثقافي،ج 3.

وبناء على استنتاج الشيخ نور الدين فإن القينعي كان رجلا حكيما بحيث لم يترك ثروته تتبدد وتضيع في أيدي الورثة، وكانت له خبرة بأمور الدنيا والدين. وهو الذي بنى حمام سيدي عبد الله، وجعل له دكاكين للكراء، وهو الحمام الذي ما يزال موجودا إلى عهد الكاتب نور الدين[1].

وقد اشتركت جريدة المقاومة الجزائرية وجريدة المجاهد-بالفرنسية- في نقد سياسة الاستعمار إزاء الأوقاف الإسلامية أيضا، فالجريدة الأولى قالت إنه إلى سنة 1954 كانت فرنسا تستحوذ على المؤسسات الدينية وتتصرف في رجال الدين وتستولي على الأحباس (الأوقاف)[2].

أما المجاهد فقد نشرت مقالة مطولة استعرضت فيها تاريخ الأوقاف خلال الاحتلال وجعلت عنوان المقالة ملفتا للنظر وهو "استغلال الأحباس (أملاك الحبس) من قبل الاستعمار الفرنسي". بدأت ذلك من تاريخ تشريع الوقف على عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعهد الصحابة وصولا إلى أوقاف مكة والمدينة في الجزائر، وأوقاف المساجد، مستشهدة بأقوال المستشرق الفرنسي شيربونو وسوتيرا Sautayra ، الفقيه فرنسي الذي عمل في الجزائر طويلا، عن أعمال الخير التي يخدمها الوقف مثل المستشفيات والملاجى والأضرحة وبيوت الغرباء والسابلة، والمؤسسات الدينية كالمساجد والزوايا والمدارس القرآنية. وأشارت المجاهد أيضا في الجانب التاريخي إلى قرار الحاكم العام كلوزيل في السابع من ديسمبر 1830، وهو القرار الذي وضع أملاك الوقف تحت نظر الدولة المحتلة (الدومين)، ثم ما تلاه من قوانين حول هذا الموضوع، مثل قانون 9 ديسمبر 1905 في فرنسا الذي قضى بفصل الدين عن الدولة والذي طبق في الجزائر على الديانتين اليهودية والمسيحية فقط واستثنيت منه الديانة الإسلامية.

---

(1) هنا الجزائر 87، مايو 1960.
(2) المقاومة الجزائرية، عدد 8، 11 مارس 1957.

واستعرض صاحب المقال موقف المقاومة الوطنية من إبقاء الأوقاف في أيدي الفرنسيين، حتى وصل إلى القانون المعروف بقانون ميشيل (سنة 1933) الذي سحب دور المساجد من الديانة الإسلامية في العاصمة وأعطى رئاسة المجلس الاستشاري الإسلامي في الولاية إلى أحد الفرنسيين. لقد ظل الجزائريون يطالبون بحقهم في الأوقاف إلى سنة 1947 حين صدر ما يعرف (بدستور الجزائر) الذي لم يجب على مسألة الوقف بأسلوب واضح أيضا، فقد نصت مادته رقم 56 على أن المجلس الجزائري (البرلمان المحلي) هو المخول للنظر والإعلان عن إدارة الأوقاف وتطبيق مبدأ استقلال الديانة الإسلامية عن الدولة، ولكن الحكومة والمجلس عملا على تأخير البتّ في هذا الموضوع إلى اندلاع الثورة.

ومن رأي صاحب المقال أيضا أن جمعية العلماء تقدمت منذ 1950 إلى المجلس بمشروع لفصل شؤون الدين الإسلامي عن الدولة الفرنسية يعكس تصورها، وقدمت للمشروع بمقدمة تاريخية. واقترحت الجمعية تكوين مجلس إسلامي مؤقت مهمته الاتصال بالإدارة إلى أن تتخلى عن أملاك الوقف للمسلمين، لكن المشروع لم يلفت نظر أعضاء المجلس الجزائري لتعارض ذلك مع رغبة الإدارة الاستعمارية ومع "رغبة الشيوخ المأجورين" عندها ورؤساء الزوايا المتعاملين معها إقطاعيا. وأوضح صاحب المقال أن كل الجزائريين متفقون على عدم المساس بمؤسساتهم الخاصة، كما أنهم عازمون على المحافظة عليها بقوة روحهم الوطنية، إن " استعادة أملاك الأوقاف أصبحت من المطالب المبدئية للثورة الجزائرية التي ستسمح للشعب الجزائري، وقد تحرر وطنه، من اختيار مؤسساته".

ويلاحظ الباحث أن المقال انتهى بالربط بين الثورة والأوقاف ولكن لم يقل كيف سينتهي الأمر هل باستعادة العمل بالوقف أو بإلغائه في سبيل الاشتراكية كما حدث في السنوات الأولى للاستقلال ؟ لقد ترك صاحب المقال الباب مفتوحا للاجتهاد والتفكير، كما أن اللحظة لم تكن مواتية للحديث عن

مستقبل المؤسسات الوطنية قبل أن تضع حرب الاستقلال أوزارها[1].

عن القضاء الإسلامي

عند ما أصدرت فرنسا تشريعا تزيد فيه من القيود على الإسلام والمسلمين بادرت جريدة المجاهد إلى استنكاره. فقد كتبت مقالا طويل الذيل انطلاقا من المرسوم الذي أصدره رئيس الجمهورية الفرنسية في الرابع من فبراير 1959 يتعلق بإصلاح القواعد الإسلامية في الزواج والطلاق، وقعه الجنرال ديغول ثم رئيس الحكومة ميشال دوبري والوزير المفوض في الجزائر جاك سوستيل، ووزير العدل إدمون ميشليه. قالت المجاهد في لهجة غاضبة: هكذا يقوم فرنسيون، بقناعات نصرانية ويهودية، بفرض القوانين اللائكية الفرنسية على المسلمين الجزائريين فيما يتعلق بالمجال الأكثر قداسة، وهو الحالة المدنية، وفي ذلك طعنة للقرآن بطريقة مبيتة. ولا شك أن المجاهد قد بالغت في ذلك عن قصد لأنها تعرف أن ردود الفعل الشعبية ستكون قوية على التشريع الفرنسي، وهي تريد أن تجند الرأي العام لا ضد التشريع نفسه ولكن ضد الاستعمار.

وفي نظر المجاهد أن ذلك التشريع الفرنسي ليس هو الأول من نوعه في المساس بالشريعة الإسلامية على يد الاستعمار الفرنسي. وقد ختمت مقالها

---

(1) ثم سردت القوانين الجائرة والخاصة بالمحاكم الإسلامية والقضاة المسلمين، وإخضاع القضاء الإسلامي لقضاة الصلح الفرنسيين (جوج دي بي) ابتداء من سنة 1834 وهو تاريخ قرار الاحتفاظ بالجزائر كبلد مستعمر، كما سردت تواريخ هامة تتعلق بتقليص صلاحيات القضاة المسلمين سنة 1873و 1887، وتواريخ مصادرة الأوقاف الإسلامية ابتداء من الثامن سبتمبر 1830 مرورا بسنوات: 1844، 1851، 1858، مع الإشارة إلى الظهير البربري في المغرب سنة 1930 الذي هزّ المغرب حين ميز بين مواطنيه، فجعل بعضهم يحتكم إلى الشريعة الإسلامية وبعضهم يحتكم إلى العرف المحلي. المجاهد - بالفرنسية- 57، 15 ديسمبر 1959، عن مذكرة جمعية العلماء حول الأوقاف أنظر أيضا عبد الحميد زوزو، محطات في تاريخ الجزائر، 2005.

بقولها إن الجزائريين ليس لهم ما ينتظرونه من الحكومات الفرنسية وإن حريتهم ستكون بأيديهم، وإن هذه ضربة جديدة يتلقاها الإسلام من فرنسا لن تثير ضدها العالم الإسلامي كله فحسب ولكن ستثير ضدها كل المؤمنين بالحرية والمؤمنين بأن الدين ميدان تقرره جماعة المؤمنين نفسها.

ولنلاحظ هنا أن الخاتمة لا تنسجم مع سياق المقال، فقد كان المنتظر أن تنهي الجريدة مقالها بالتأكيد على أن الإسلام وشريعته على رأس الهوية الوطنية، ومن ثمة ينسجم رد الفعل الذي تنشده مع الفعل الذي تستنكره. فمن الواضح أن الذين كتبوا المقال كانوا من العلمانيين الذين يرون أن قضايا الدين يقررها أهل ذلك الدين، وهم الممارسون لطقوسه، وأن المسألة كلها مسألة تحرر وعبودية[1].

القضاء والثورة

إلى الآن لم يدرس القضاء في وقت الثورة دراسة شاملة ومعمقة، وقد صدرت كتب ودراسات عن بعض المجاهدين مثل كتاب سعيد بن عبد الله (العدل عند جبهة التحرير الوطني) وكتاب الصادق مزهود حول المحاكم في وقت الثورة، كما انعقدت بعض الملتقيات حول تاريخ القضاء وشروطه وقت الثورة، منها الملتقى الذي انعقد في قسنطينة، مارس 2005. وهناك بعض الدوريات التي تناولت هذا الموضوع من قريب أو من بعيد. وفي هذا الصدد نشير إلى كتاب محمد بجاوي (الثورة الجزائرية والقانون) الذي ظهر في بروكسل عن الجمعية الدولية للقانونيين الديموقراطيين، سنة 1961، وقد ترجم إلى العربية. وهو كتاب هام لدراسته نصوص الثورة ومؤسساتها مثل المجلس الوطني، والحكومة المؤقتة، وجبهة التحرير، كما تناول مبدأ تقرير المصير وبعض المؤسسات الثورية الأخرى. وفي كتاب فرحات عباس (ليل الاستعمار) الذي

(1) المجاهد - النسخة الفرنسية- 45، 6 يوليو 1959.

ظهر في فرنسا سنة 1962 معلومات قانونية هامة أثناء الصراع مع الإدارة الفرنسية الاستعمارية.

العدل عند جبهة التحرير الوطني

يذهب السيد سعيد بن عبد الله إلى أن الشريعة الإسلامية هي القاعدة الأساسية للإجراءات القانونية بين الجزائريين، إشارة إلى دور الدين الإسلامي في القضاء في عهد الثورة، فالشريعة تتناول حياة الإنسان من المهد إلى اللحد بكل تفاصيلها الاجتماعية والمدنية والعائلية والمعاملات، وكل هذه المسائل لها حلولها، ويوجد في النصوص القرآنية ما يجيب على مختلف التساؤلات والإجراءات، ومن الصعب عند المسلم الفصل بين الروحي والزمني، "إن الإسلام يكوّن الإنسان الثوري". وكان الواجب الأول للمناضل في جبهة التحرير هو تطبيق الإسلام لأنه هو الذي يعلمه الإيمان والانضباط، ثم إن النضال يعني الجهاد، ومن ثمة يصبح المناضل مجاهدا كما أن الإسلام هو الذي يجند الشعب الجزائري وراء الثورة، وهو المكون الأساسي للحضارة الجزائرية[1].

لقد أنشأ جيش التحرير جهازا قضائيا داخل البلاد، فأخذ القضاء مجراه بالتوازي مع الشؤون العسكرية والسياسية للثورة، وقد انتظم ذلك وعمم بعد مؤتمر الصومام 1956، وبذلك تخلى الشعب الجزائري تدريجيا عن اللجوء إلى القضاء الفرنسي وفضل عليه القضاء الإسلامي الذي تطبقه الجبهة، حتى في داخل السجون والمحتشدات. كما كان من عواقب إحداث ذلك الجهاز المحافظة والتمسك بالشخصية العربية الإسلامية للجزائر. ومع ذلك فقد واجه القضاء في عهد الثورة صعوبة في التوثيق لأنه كان يجري في ظروف خاصة وسرية، وكان تاريخه هو تاريخ المناضلين أنفسهم، ذلك أن المداولات لم تسجل إلا نادرا، وكانت الوثائق أحيانا تتعرض للتلف تفاديا للمتابعة، ولا يستطيع أي باحث معرفة حقيقة ما جرى إلا بالرجوع إلى الشهادات الشخصية

(1) سعيد بن عبد الله، العدل عند جبهة التحرير الوطني، ص 72-74.

وإلى بعض الوثائق التي قد تكون قد بقيت في حوزة بعض المناضلين[1].

كان تنظيم القضاء خاضعا لسلم الجبهة في الإيديولوجية والمستوى والممارسة. فقد كان خاضعا للوصايا العشر التي يعتمد عليها جيش التحرير، وذلك يعني حل الجزائريين مشاكلهم بأنفسهم، وعليهم مقاطعة المؤسسات الاستعمارية وعلى رأسها مؤسسة القضاء. وقد أنشأ مؤتمر الصومام المجالس الشعبية لتحل النوازل القضائية، وكانت الثورة دائما خاضعة لمبدأ العمل الجماعي، وكان الإخلاص والنضال من سمات هذه الإيديولوجية، كما أن تطبيق العدالة يجب أن يكون على كل المستويات دون استثناء طبقا للتفصيل التنظيمي الإداري وطبقا للسلم الذي وضعته الجبهة، كما أن إسناد القضاء إلى ذوي الكفاءة والقدرة كان من سمات هذا العهد. أما مصدر هذا القضاء فهو الشريعة الإسلامية ومصلحة الثورة[2].

حددت الجبهة أنواع العقوبات على الجرائم التي يعاقب عليها القانون، وهي عقوبات متدرجة حسب الجرم. فالأخطاء إما بسيطة وإما خطيرة وإما خطيرة فادحة، ومن الأخطاء البسيطة: عدم دفع الاشتراك، وعدم الاستجابة لدعوة جبهة وجيش التحرير، وقطع الأشجار بدون رخصة، وعدم إبلاغ الجبهة والجيش عن الزواج والميلاد والوفاة، والاستماع إلى صوت البلاد (الإذاعة الفرنسية الموجهة) والتدخين، إلخ. ومن الأخطاء الكبيرة أو الخطيرة: محاولة القتل، وإشعال النيران، والكذب، وتقديم شهادة مزورة، ورفض تقديم المساعدة، والتنقل بدون إذن مسبق من الجبهة أو الجيش، والتغيب عن الاجتماع، والسرقة، والاغتصاب، والزنى، واللواط، والسكر، إلخ. أما الأخطاء الفادحة فمنها الخيانة، وإقامة علاقة مع العدو، والتمرد والعصيان،

---

(1) نفس المرجع، الجزائر، 1981، ص14-15.

(2) نفس المرجع : نص الوصايا العشر لجيش التحرير، ص64، وكذلك برنامج طرابلس في المجاهد.

وعدم الانضباط، والجهوية (الفتنة)، وإشاعة روح الهزيمة، والفرار من الزحف، وترك الخدمة، وإفشاء الأسرار، والتخريب المقصود للمعدات، إلخ[1].

هناك نوعان من المناشير: منشور أساسي لا يحتمل التأخير، فهو منشور عام ودائم كالذي يتعلق بالخيانة، ومنشور ظرفي كمنع التدخين سنوات 1955، 1956، 1957 لأن التدخين يجلب الربح للعدو. (نفسه ص65). ويصف أحمد توفيق المدني القضاء في عهد الثورة(وقد كان يكتب عنه سنة 1956) بأنه يتولاه أحد الشيوخ (العلماء أو الطلبة) حسب أهمية السكان ليحكم بين الناس بما أنزل الله، وكان القاضي غالبا ممن تخرج من المدارس الحرة. والغالب هو اختفاء المنازعات لأن الناس اندمجوا في الثورة وتركوا الشجار، وإذا حدث شجار فالقاضي يحله بالإقناع والتراضي[2].

ومن ثمة يظهر أن الجبهة أسست قضاء شرعيا وطنيا لأنه جزء من الشخصية ومقدمة للسيادة المنتظرة. لقد كان الشعب الجزائري حريصا بنفسه على العمل بالشريعة واللجوء إلى العدالة الحقة لأنه عانى من الظلم والجبروت الاستعماري، وكان القضاء شفافا ومعروفا للجميع ومحل احترام من الجميع، بما في ذلك احترام اللغة والعرض، وكان اهتمام الناس بالقضاء المدني أكثر من الجنائي لحاجتهم الماسة إلى القضاء الأول. إن القضاء في وقت الثورة كان أيضا مدرسة للتربية الوطنية ومدرسة لتربية المناضلين وترقية الحياة الاجتماعية بين المواطنين، وأهمها المساواة بين الجميع أمام القانون[3].

وقد استفدنا من تجارب المناضلين ودراسات المختصين أن القضاء في وقت الثورة كان قائما أيضا -(بالإضافة إلى تعليمات الشريعة الإسلامية وممارسات القضاة في دولة الأمير عبد القادر، ومعاملات الفرنسيين)- على

---

(1) نفس المرجع، ص 71.

(2) أحمد توفيق المدني: هذه هي الجزائر، ص226.

(3) المدني، مرجع سابق، ص37، 55، أنظر أيضا مداخلة الصادق مزهود في ملتقى قسنطينة، مارس 2005.

الترغيب والترهيب. إن القاضي كان يعين من قبل المسؤول السياسي ويخضع له، وكان يقوم بعدة وظائف كالتوثيق والتعليم والتفتيش وإصلاح ذات البين والإمامة والإفتاء والتوعية وجمع الزكاة... وفي التطبيق لم يكن هناك مصطلح واحد معتمد، فهناك مصطلح لجنة العدل في بعض الولايات، ولجنة العدالة، واللجنة الشرعية، والمجلس الخماسي... فكل ولاية كانت تتصرف حسب إمكاناتها واجتهاداتها في هذا الميدان، بل وحسب العرف والقضية المطروحة، ولكن ما يميز القضاء هو السرعة في تنفيذ الأحكام خلافا للقضاء الاستعماري الذي كان يترك القضية تنام سنوات طويلة في أدراج المحاكم. وقد رجع القبائل إلى حكم الشريعة بدل العرف. كما منع الحبس لأن الشريعة لا تلجأ إليه لحرمانه رب العائلة من أداء مهمته.

كان القضاء في البداية في شكل تعليمات وأوامر تصدر عن جيش التحرير ولكن مؤتمر الصومام هو الذي أسس قواعد للقضاء وأعطاه بعدا وطنيا شاملا، بينما يرى البعض أن سنة 1958 (بداية الحكومة المؤقتة) هي سنة تأسيس القضاء. وكان القاضي يعين من بين المتخرجين من جامعي الزيتونة والقرويين ومن معهد ابن باديس وبعض الزوايا (والقاضي هو الذي يشرف على الأحوال الشخصية أيضا)، ومما يذكر أنه كان يوجد أكثر من 150 متخرجا من كلية الحقوق، ومع ذلك لم يول أي منهم على القضاء، ومما يذكر أن الولاية الأولى هي التي بدأت تتعامل بالقضاء سنة ١٩٥٨ حسب "تعليمة"، وكانت تقيم المجالس القضائية ذات الخمسة أعضاء: فمجلس القسمة من خمسة، ومجلس المنطقة من خمسة، ومجلس الناحية من خمسة، ومجلس الولاية من خمسة، والخامس هو دائما القاضي نفسه، وهو رجل مدني. وكانت العقوبات تتمثل في الغرامات المالية، والتعزير وحتى الجلد، وليس هناك طعن في الأحكام. ومن الناحية الإحصائية فقد ذكر أن حوالي 300 شخص حكم عليهم بالقتل. وقد ذكر الباحثون أن بعض التجاوزات في الأحكام قد وقعت[1].

(1) الصادق مزهود، مداخلة ملتقى قسنطية، مرجع سابق. ويبدو أن عدد 150 من خريجي كلية الحقوق عدد مبالغ فيه إذا كان المقصود هم خريجو كلية حقوق الجزائر فقط.

عالج محمد بجاوي مسألة القضاء زمن الثورة وأعطاها أهميتها القانونية، فقد جاء في كتابه (الثورة الجزائرية والقانون) أن جبهة التحرير أنشأت في المناطق المحررة عدة مؤسسات منها: جمعية الشعب، وهي نواة لبنيان سياسي إداري كان مؤتمر الصومام قد وضع أسسه وحدد دوره. فقد حلت الجمعية محل الإدارة الفرنسية ومحل الحاكم الفرنسي، وبذلك أصبح الجزائريون في المناطق المختلفة يديرون شؤونهم بأنفسهم. وقد أعلنت قاعدة المؤتمر أن المجالس العمومية والبلدية والجماعات قد انتهت وهي جميعا من رموز الإدارة الفرنسية، وزادت استقالة عدد من الموظفين ومساعدي السلطات الفرنسية مثل القياد وحراس الغابات والمزارع... الفراغ السياسي والإداري، لأنه لم يتقدم أحد ليخلف المستقيلين، وبذلك تلاشت الإدارة الفرنسية فتخلى عنها الشعب، ونشأ حكم ثنائي يشمل جباية الضرائب والتموين وإقامة العدل وتجنيد المجاهدين والسهر على الأمن والتعليم.

أما من حيث التطبيق فقد انتخب كل دوار جمعيته المنصوص عليها المؤلفة من خمسة أفراد، وهي الخلية التنظيمية للدوار، ولهذه الجمعية لجنة اتصال بالسلطات المركزية للجبهة، مؤلفة من ثلاثة أفراد، وهي (اللجنة) المسؤولة على المستوى المحلي على إحصاء السكان واستقبال المجاهدين وجباية الضرائب وتوفير الأمن وحفظ السجلات المدنية وإقامة مخازن أو مستودعات لتخزين المحاصيل وبناء المدارس والسهر على مصادر المياه وافتتاح الورشات، بالإضافة إلى لجان أخرى تسمى اللجان المختصة على مستوى القطاع في الأرياف، ولجان التموين ومهمتها شراء الغذاء والكساء وتوزيع المؤونة... ولجان المعونة لإغاثة المحتاجين والمنكوبين بسبب الحرب، وكذلك اللجان المدرسية لمكافحة الأمية وتعليم الأطفال بين السادسة والعاشرة، فكان في كل دوار مدرسة بالإضافة إلى دروس مسائية للبالغين.

ويهمنا هنا اللجان القضائية التي كانت تتألف من أربعة أشخاص وهي لجان مكلفة بإقامة العدل في سائر القطاع التابع لها. وكانت هناك الشرطة الريفية التابعة للجمعية الشعبية على مستوى الدوار، وهي تتكون من ثلاثة أفراد، وكذلك حراس الغابات من الحرائق وحماية مصادر المياه، أما مصالح الأمن في القطاع فكان يشرف عليها المسؤول السياسي، بحيث هناك شرطيان أو ثلاثة في كل دوار، وهم يختارون من قدماء المجاهدين في جيش التحرير، وكانوا يضيفون إلى مهمتهم التقاط الأخبار والمعلومات[1].

دراسة الصادق مزهود

لقد كان الهدف من إقامة القضاء في الثورة هو منع الشعب من التقاضي أمام القضاء الفرنسي، وقد استجاب الناس لهذا التحول وفهموا مغزاه وأهميته، فكانت قضاياهم البسيطة تحل عن طريق الأقارب والأصهار، أما قضايا العقار ونحوها فقد أجلت. لقد ظهر التشريع الخاص بالقضاء العسكري في 12 أبريل 1958 عن طريق لجنة التنسيق والتنفيذ، وكان القضاء قبل ذلك يمارس عن طريق لجان العدل الثورية، وهي اللجان التي طرحت عليها مسائل بسيطة ومسائل متوسطة وأخرى خطيرة، فحمل البريد والحراسة ودفع الاشتراك عد من المسائل البسيطة، وعدم التوقف عن التدخين والإهمال والتراخي في قتل الكلاب عد من المسائل المتوسطة، أما عدم الاستقالة بعد توجيه الإنذار وإفشاء الأسرار للعدو. . . فقد عدّ من المسائل الخطيرة.

ويتبين من الدراسة أن هناك مرحلتين لإقامة العدل زمن الثورة: مرحلة 1954-1956 ومرحلة 1958 وما بعدها، ففي المرحلة الأولى كانت الثورة منشغلة بالعمل العسكري ولم تعط الجانب السياسي أهمية كبيرة. أما من حيث الهيكلة فالقضاء عرف المنازعات التي يكون المجاهد طرفا فيها، وهذه تحال

(1) محمد بجاوي، الثورة الجزائرية والقانون، ترجمة علي الخش، دار اليقظة العربية، دمشق، 1965، ص74-75.

على القائد مسؤول الفوج، والمنازعات بين المواطنين أنفسهم وهذه وجدت حلها بين مسؤول الفوج ومسؤول الدشرة. أما القضاء في المرحلة الثانية فقد انتظم، كما سبق، بعد مؤتمر الصومام في شكل مجالس شعبية منتخبة مهمتها التموين والسياسة والإعلام والأمن، بالإضافة إلى لجان شعبية أخرى تهتم بمختلف النواحي، وهذا كله كان قبل التشريع الذي صدر عن لجنة التنسيق والتنفيذ في أبريل 1958[1].

مقاصد القرآن

كتاب لمحمد الصالح الصديق صدر عشية الثورة، وتناول مقاصد الشريعة، وفيه ثقافة دينية واجتماعية عميقة، وقد تولى صاحبه مهمات حساسة في الثورة سواء داخل الجزائر أو خارجها، ووقع ما جاء في كتابه على واقع الأمور. وقد استقبل النقاد والمراجعون الكتاب بالثناء على صاحبه وبالتنويه بفائدته، والشيخ الصديق من الذين تخرجوا من الزيتونة وتمتعوا بثقافة أدبية ودينية وتاريخية عالية. وقبل المقاصد كان قد أصدر (أدباء التحصيل). طبع المقاصد في المطبعة العربية بالعاصمة سنة 1956، وكتب عنه الشيخ حمزة بوكوشة في البصائر بالعدد 359 على أنه الجزء الأول من كتاب قيم، وعرّف به أيضا الشيخ محمد منيع فمدحه بإتقان التحقيق والتدقيق في البحث واعتبر الكتاب مفخرة للجزائر، وأنه كتاب يدرس القرآن الكريم ويستخرج أحكامه، وأنه خدم به الوطن والأمة[2].

وفي نظر مولود الطياب أن المؤلف قد يكون سبقه السلف في الموضوع ولكن الاجتهاد وارد، غير أن الطياب استدرك بأنه لا اجتهاد مع العقائد ومعنى الدين، وأن ما يحمد للصديق أنه عالج مواضيع بأسلوب شيق، وجمع بين

---

(1) الصادق مزهود، ندوة قسنطينة، مارس 2005، أنظر أيضا كلمة إبراهيم لونيسي في نفس الندوة.

(2) البصائر 359، 361

الثقافة الدينية والأدبية. وتمنى أن يتناول المؤلف مستقبلا الحياة اليومية لأن فيها مجالا للحديث عن رسالة الإسلام الإنسانية وعدالته الديموقراطية[1].

ايات وأحاديث

كتاب صنفه جلول البدوي، وقيل عنه إنه كتاب ديني مدرسي،

ويبدو من عنوانه أنه كتاب تعليمي موجه إلى تلاميذ المغرب في عهد الاستقلال[2].

تفسير الشيخ بيوض

حياة الشيخ إبراهيم بيوض مبسوطة في عدد من المؤلفات العامة، وأهمها ما كتبه عنه محمد ناصر. ولد بالقرارة (بني ميزاب) سنة 1899 وأنشأ معهد الحياة فيها ومارس التعليم فيه وأداره، وقام بإرسال البعثات الطلابية إلى تونس وغيرها. وتولى القيادة الروحية في المنطقة برئاسته لمجلس العزابة ثم لمجلس عمي سعيد، كما تولى القيادة العلمية والثقافية ودخل عضوا في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. وغرضنا هو النظر في إنتاجه الديني في عهد الثورة. فقد كان للشيخ باع في التأليف أيضا. ابتدأ الشيخ منذ 1935 يفسر القرآن الكريم بطريقة علمية إصلاحية متأثرا، كما قال محمد ناصر بمنهج الشيخ محمد عبده في تفسير المنار. وقد كرس الشيخ بيوض حياته لهذا التفسير حتى أتمه سنة 1980. ويمتاز أسلوبه بالتحليل وتبسيط المسائل اقترابا من عقل القارى المعاصر، قائلا عن منهجه "جعلت كتاب الله عمدتي في الدعوة إلى الله، وكنت حربا على الاستعمار"[3].

وبالإضافة إلى تفسير القرآن شرح الشيخ كتاب (فتح الباري) في الحديث

---

(1) هنا الجزائر 46، مايو 1956

(2) السائحي، روحي لكم، ص 73. وهو مطبوع سنة 1961 في المغرب.

(3) محمد ناصر، البصائر 14-15 فبراير 2005

الشريف لابن حجر الذي ابتدأه سنة 1931، وانتهى منه سنة 1945. وقد احتفل بختمه للقرآن الكريم احتفالا رسميا. وأدركته الوفاة 14 يناير 1981.

وللشيخ بيوض جولات مع الاستعمار تحدث عنها بالتفصيل محمد ناصر. ومما يذكر أن الشيخ كان أحد أعضاء الهيئة التنفيذية التي تولت تسيير شؤون الجزائر بين إعلان وقف إطلاق النار وإعلان الاستقلال، متوليا فيها الشؤون الثقافية والتعليمية. وربما يكون الشيخ بيوض هو الوحيد بين علماء الجزائر الذي استطاع أن يواصل تفسير القرآن وقت الثورة. وربما يذكرنا نضاله في إتمام تفسيره نضال سلفه محمد بن يوسف أطفيش (القطب) قبله بأقل من قرن[1].

في طريق الهجرة

عرفنا أن مالك وارى أديب وصحفي من أدباء فترة الخمسينات، وله إنتاج شعري وقصصي، فقد كان من المساهمين المواظبين في مجلة هنا الجزائر. قام ومرافقه محرر القسم العربي بالإذاعة بزيارة لعدد من المدن الفرنسية واللقاء مع المغتربين الجزائريين. وبعد شهرين كتبا تحقيقا أذيع في الإذاعة الفرنسية بالجزائر. ثم قرر مالك واري نشر التحقيق في كتاب بعنوان (في مسالك الهجرة) تعميما للفائدة وإطلاع من يهمه شأن هجرة الجزائريين إلى فرنسا. في الكتاب حديث عن الحالة النفسية للمغتربين وعن آمالهم ونجاح بعضهم وخيبة آمال الآخرين منهم، وذكاء البعض وسذاجة الباقي. وهو كتاب يذكرنا بأكباش إدريس الشرايبي وغيره من أدباء شمال إفريقيا الذين تناولوا قضية وربما مأساة المهاجرين. وللتحقيق قيمة أدبية أيضا فهو غير مكتوب بأسلوب صحفي فقط بل فيه لمسات شعرية وفلسفية وإنسانية، وكان صاحبه دقيقا في تعبيره، حسب الناقد مولود الطياب.

ولا غرو في ذلك فمالك واري من مثقفي مرحلته، تلقى تعليمه الأبتدائي

(1) محمد ناصر، الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض مصلحا وزعيما، مكتبة الريام، الجزائر، 1426 هجرية.

في مسقط رأسه إيغيل علي، ثم تعليمه الثانوي والعالي في العاصمة، وجمع أشعارا وقصصا شعبية قبائلية وترجمها إلى الفرنسية ونشرها في بعض المجلات، ومنها (هنا الجزائر). وبعد الحرب العالمية الثانية دخل الإذاعة العربية التابعة لإذاعة فرنسا، وأصبح فيها من المحررين كما كان من المعتمدين في المجلس الجزائري، وله كما قلنا أعمال أدبية منها قصة بعنوان (الحَبُّ في الرحا) و (عيشوش الجلابية أميرة تقرت). وكل أعماله كتبت بالفرنسية. وقد راجع أحدهم كتاب مالك واري في القسم الفرنسي من مجلة هنا الجزائر، وهذه المراجعة تحتوي على تفصيل محتوى الكتاب، مع صورة للمؤلف[1].

أما أحمد توفيق المدني فقد راجع الكتاب في البصائر بعد إهداء المؤلف كتابه إليها. ومن رأي المدني أن واري خبير في شؤون الهجرة وأنه انتبه إليها منذ الصغر عندما كان ما يزال في مسقط رأسه حين لاحظ أن زملاءه في الدراسة يغادرون قريتهم إلى فرنسا للعمل، ولذلك عول على زيارتهم والاطلاع على أحوال غربتهم وأسباب هجرتهم، وهكذا زارهم سنة 1953 في أهم المدن التي يتواجدون فيها بفرنسا وخرج بكتابه المذكور عنهم. وقد لاحظ واري أن الهجرة أثرت في عدد كبير من الأسر حتى اضطرت إلى الالتحاق بعائليها لكي تعيش في الغربة أيضا. وكان المدني يعرف واري شخصيا وقد أسماه "الكاتب القدير والصحافي الشهير وصديقنا"[2].

رسائل من السجن

كتب أحمد طالب الإبراهيمي هذه الرسائل بالفرنسية وهو في السجن ثم ترجمت إلى العربية بأسلوب راق بقلم الصادق مازيغ وتقديم رينيه حبشي أحد الذين راسلهم المؤلف. كما أن أحمد طالب كتب مقدمة للترجمة العربية سنة 1966 عندما كان على رأس وزارة التربية الوطنية، أي بعد انقلاب 1965

---

(1) هنا الجزائر؟ انظر أوراقا أخري عن مالك واري وقصصه في القسم الفرنسي؟

(2) البصائر 315، 22 أبريل 1955.

بحوالي ستة أشهر. ومحتوى الكتاب عبارة عن رسائل كتبها المؤلف أثناء سجنه بفرنسا، حيث تنقل على الأقل بين سجنين من أول مارس 1957 إلى 2سبتمبر 1961. والمعروف أن أحمد طالب كان طالبا في فرنسا عندما قامت الثورة في الجزائر، وكان من مؤسسي (الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين) في 1955 وأسندت إليه رئاسته لمدة عام على حد علمنا. وكان وهو طالب يساهم في تحرير جريدة (الشاب المسلم) التي أنشأتها جمعية العلماء باللغة الفرنسية لمخاطبة المثقفين الجزائريين بهذه اللغة.

بدأ الكاتب رسائله بأخيه ثم انصرف إلى المناضلين الجزائريين بدون تحديد، مستعملا عبارة (إلى مناضل جزائري). ومنها رسائل إلى أعلام معروفين، وإلى علماء وكتاب ورجال دين وفلاسفة وقادة، مثل ريني حبشي، وماكسيم رودنسون، وجاك بيرك، وألبير كامو، وحيدر بمات. وهكذا فالرسائل تشمل الإفريقي والأوروبي والآسيوي، والجزائري والفرنسي. وأثناء تصفحي للكتاب لفتت نظري رسالة بتاريخ 6 أغسطس 1960، أي عقب انتهاء المؤتمر الرابع للطلبة المسلمين الجزائريين في تونس (بئر الباي)، وهو المؤتمر الذي حضرته ممثلا لفرع الاتحاد بالقاهرة. والرسالة موجهة إلى حرف (م) الذي لعله مسعود آيت شعلال الذي أعاد المؤتمر انتخابه رئيسا. ومهما كان الأمر فقد هنأه أحمد طالب بنجاح المؤتمر بناء على مقال قرأه في جريدة (لوموند) يوم 4 أغسطس، واستغرب كيف لم يتعرض المؤتمر إلى انتساب الجزائر إلى العروبة والإسلام (وهو التعبير العزيز على والده) بينما تعرض كريم بلقاسم إلى ذلك في تصريح صرح به أصالة عن الحكومة المؤقتة.

واستمر أحمد طالب في نقده لبعض نتائج المؤتمر فقال إنه ليس من حق الاتحاد ملازمة الصمت إزاء هذه القضية لأن الثقافة هي مجال نشاط الاتحاد و"لا مفر من أن يكون لعروبتنا محتوى ثقافي في جوهره"، وأضاف أنه يسلم أن الصمت لم يكن شاملا. ونصح أحمد طالب الاتحاد في هذه المرحلة بالاهتمام بأمرين الأول تكوين الإطارات "وهو ما تفعلونه" وضبط محتوى

للثقافة الجزائرية، وهو ما يحتاج إلى المزيد من جهودكم. ومما يؤسف أنكم تتركون المبادرة لسواكم"[1].

ليل الاستعمار

هذا الكتاب ألفه فرحات عباس في سبتمبر 1960 أو ربما بعد عزله عن الحكومة المؤقتة، ولكنه لم ينشره في حينه ربما لأنه كان يعكس وجهة نظر شخصية بينما الثورة كانت تسير وفق الروح الجماعية. أما نشره فقد حصل بعد وقف القتال. وكان الجرح في نظره قد التأم. والكتاب عبارة عن عجالة تاريخية ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر ابتداء من سنة 1830، ألفه كما قال إنسان مستعمر، ومع ذلك بقي متمسكا بأصوله وأجداده، ولكنه لا ينكر "فضل" فرنسا وأوروبا في بث الحضارة. كما أنه لا يعتبر كتابه تاريخا لأن ذلك من اختصاص المؤرخين- إذن ماذا؟ إنه صفحة إدانة وعرض لما جرى من علاقات ومعاملات غير متساوية (عنصرية) بين الجزائريين والفرنسيين، إنه "شهادة في نظر صاحبه، نزيهة مجردة من كل حقد وضغينة فيما يهم وطنه" . ولذلك لم نتناوله في كتب التاريخ.

وقد تعهد المؤلف أن يشرح لأبناء وطنه من الشباب الأسباب التي حدثْ به وبأمثاله إلى الثورة المسلحة بدل الوسائل السلمية والسياسية، للقضاء على "خرافة الجزائر فرنسية"، وهو يعتبر أن ذلك يخدم البلدين (الجزائر وفرنسا) معا، مستشهدا بمقولة (جان جوريس): إن الشجاعة هي البحث عن الحقيقة والجهر بها. وقد نوه عباس بفضل الثورة الجزائرية على المستعمرات الأخرى لأنها تحملت العبء الأكبر من التضحيات لتحطيم التنين الاستعماري، ولا سيما المغرب وتونس. ولولا الثورة الجزائرية لما تلفظ مسؤول فرنسي بكلمة استقلال.

من أقسام كتاب (ليل الاستعمار) هذه العناوين: ما وراء الحركة الفرنسية،

---

(1) أحمد طالب، رسائل من السجن، تعريب الصادق مازيغ، الدار التونسية للنشر، تونس 1973، ص 145-146.

مائة وثلاثون سنة من التقتيل والقوانين العنصرية في الجزائر، الثورة بالقانون أمر مستحيل أو تجربة جيل المؤلف، وأخيرا من العمل السري إلى تكوين جبهة التحرير الوطني إلى الجهاد في سبيل الاستقلال.

صحراؤنا

في غمرة التجارب النووية الفرنسية في الصحراء الجزائرية، وعقب استقلال تونس والمغرب، وعند بدء الحديث عن البترول وجمهورية الصحراء ونحو ذلك من المشاريع الاستعمارية الضخمة وأطماع الطامعين - قام محمد الميلي الذي كان من أبرز إعلاميي الثورة عندئذ، بتأليف كتاب صغير الحجم كبير الفائدة في وقته، كتبه بأسلوب صحفي شيق عنوانه (صحراؤنا) تحدث فيه عن الصحراء تاريخا وسكانا وآثارا، ثم عن المشاريع الاقتصادية الفرنسية والأجنبية عموما وعن الشركات الطامعة في استغلال بترول الصحراء ومشتقاته وتعقيداته في الوقت الذي كانت فيه الثورة على أشدها. والفكرة الرئيسية في الكتاب هي كشف المخططات الاستعمارية، والدعوة إلى الاستفادة من ثروات الصحراء في نطاق المغرب العربي وإفريقيا[1].

الجزائر: الأمة والمجتمع[2]

كتاب مليى بالأفكار ألفه مصطفى الأشرف من مجموع بحوث نشرها خلال الخمسنيات ما عدا بعضا نشره خلال الفترة الانتقالية أو بعد الاستقلال. وقد قامت بحوث الأشرف على استنطاق التاريخ من كتب ووثائق الفرنسيين أنفسهم. كما تتبع تفاعل البيئة الوطنية مع الاحتلال في المدن والأرياف. فكان كل بحث يثير الكثير من الجدل كما يثير المقارنات مع ما يجري اليوم في العالم من انتهاكات تقوم بها الدول الكبرى لا لشيء إلا لأنها كبرى. أما تفسير الأشرف

(1) محمد الميلي، صحراؤنا، سلسلة كتاب البعث، تونس، فبراير 1958.

(2) ترجمة حنفي بن عيسى، م.و.ك. الجزائر 1983

للأحداث التاريخية والعلاقات الاجتماعية فهو التفسير الماركسي-الوطني.

وهذه عناوين البحوث الرئيسية (ولا نرى داعيا لذكر تواريخ نشرها): بين الاستعمار والإقطاعية، والوطنية في البوادي والأرياف، والجوانب النفسية في الغزو الاستعماري، ومسيرة الجزائر إلى الحرية، ومسيرة القومية التحريرية إلى الوحدة، والاتجاه الثوري في المدن، وتنظيم المقاومة والكفاح، والخط الثابت في سلوك الاستعمار سياسيا وعسكريا، 1830-1960، والجوانب المجهولة من الثورة الجزائرية، والجزائر المستقلة من النكسة إلى الوحدة، ووقائع وآفاق ثورية، ونظرات اجتماعية حول الحركة القومية والثقافة في الجزائر. ومعظم البحوث منشورة في الأزمنة الحديثة التي يصدرها جان بول سارتر، وهناك بحث منشور في مجلة الحضور الإفريقي.

الطب والصحة العامة

لم تظهر كتب في علمنا عن الصحة العامة والنشاط الطبي خلال الثورة. حقيقة أن هناك دراسات طبية وصحية سواء في الأرشيف أو المجلات، وهناك أطباء جزائريون انضموا للثورة وساهموا فيها وهم أصحاب اختصاص أو هم طلاب، ومنهم الدكتور ابن زرجب والدكتور دباغين والدكتور فرنسيس والدكتور هدام وأحمد طالب والأمين خان والعقيد حسن، وعشرات غيرهم كانوا في الميدان السياسي أو في ميدان المعركة نفسها. ولا نعرف أن هؤلاء أو بعضهم كتبوا تجاربهم بعد الثورة أيضا ما عدا جمال الدين بن سالم.

انظروا أسلحتنا! انظروا أطباءنا!

هذا كتاب جمع فيه مؤلفه تجربته كطبيب مناضل في جيش التحرير في الولاية الثالثة خلال الثورة. نشأ جمال بن سالم في بوسعادة وسطيف حيث تلقى التعليم الابتدائي والثانوي، ثم واصل دراسته في الطب بجامعة مونبلييه في فرنسا. وكانت له ثقافة سياسية قبل التحاقه بفرنسا لأن والده الدكتور عيسى بن

سالم، كان عضوا في حزب البيان ونائبا في المجلس الجزائري، وكان من النواب الواحد والستين الذين استقالوا دفعة واحدة من المجلس بعد أن لم يعودوا يمثلون إلا أنفسهم. وقد التحق الوالد بعد ذلك بتونس حيث مارس الطب في مستشفى الحبيب تامر إلى انتهاء الثورة.

في الصيف كان جمال يأتي إلى الجزائر لزيارة الأهل فيخوض فيما يخوضون ويتبادل الرأي معهم فيما يجري في الجزائر وفرنسا. كان الطلبة في الواجهة، وخصوصا بعد 1955، وعليهم أن يقرروا موقفهم من الثورة. فقد أسسوا الاتحاد العام، ثم قرروا الإضراب عن الدراسة والامتحانات في مايو 1956، ماذا يفعلون بعد ذلك؟ التحق بعضهم بالثورة مباشرة، وآخرون بتونس أو المغرب أو البلدان الأوروبية لمواصلة الدراسة، ولكن آخرين كان عليهم أن يلتحقوا بجيش التحرير ويصبحوا من الكوادر الطبية.

كان جمال عندئذ في السنة الثانية رفقة محمد خميستي رئيس فرع الاتحاد العام للطلبة في مونبلييه ورئيس الاتحاد قبل اعتقاله. تعلم جمال مبادى الجراحة في البرج صيف 1955 عند زيارته العائلية. وبنصيحة من والده سمح له الطبيب الجراح (قرانج) بممارسة مبادى الجراحة. وفي هذا الصيف أيضا حدثت أحداث شهر أغسطس (أوت) المعروفة في سكيكدة فكانت موضع الحديث بينه وبين زملائه، وقد انضم إليهم المسؤول السياسي في البرج، وكانت الشائعات تروج حول أعمال الجبهة وحاجتها إلى الممرضين والأطباء، وعن الحركة المصالية، وجماعة مكافحي الحرية الشيوعية. جاء جمال إلى تونس على ظهر سفينة من مرسيليا، كان ذلك في نهاية شهر ديسمبر 1956 بعد أن تبين أن دورة أكتوبر قد انتهت بدون امتحانات. التحق بأبويه اللذين سكنا في سيدي بوسعيد، وانضم إلى جبهة وجيش التحرير. كان أحمد محساس هو ممثل الجبهة في تونس، أما ما يتعلق بالطب فقد كان تحت إشراف الدكتور محمد نقاش. في تونس عوضت الكوادر الطبية الجزائرية عندئذ الكوادر الفرنسية، وقد وجد الجزائريون ترحيبا خاصا من أهل تونس.

وأثناء وجوده في تونس كان جمال يمارس الطب مع الدكتور العقبي في مستشفى سوسة، بعض الوقت. وفي تونس العاصمة التقى بالعقيد عميروش، ووقع تعيينه في الولاية الثالثة، فدخلها في سيارة مغطاة، مع ستة من الطلبة خمسة منهم في الطب وسادسهم في الرياضيات. فمروا بساقية سيدي يوسف ثم سوق أهراس ومنها إلى قلعة بني عباس.

في الولاية الثالثة اشتغل جمال بن سالم في المنطقة الأولى مع الضابط سي حميمي. كان ذلك بطلب من القائد عميروش نفسه. استعان ابن سالم لاستحضار ذكرياته بعناصر من جيش التحرير الأحياء خصوصا سي حميمي (حامد دهيل)، وهو يعتبر كتابه هذا من نوع (الكرونيك) أو ثبتا بالأحداث التي عاشها بين 1954-1962. وأهداه إلى زملائه المكافحين، تلاميذ الثانويات، وطلاب الجامعات الذين التحقوا- رغم أنهم لم يكملوا دراستهم وكانوا يجهلون الأمكنة وظروف العيش في الجبال- ليكافحوا إلى جانب أهل الريف ضد عدو يفوقهم عددا وعدة. وبعض هؤلاء الطلاب- مثل ابن سالم نفسه- كانوا قبل ذلك منعمين يعيشون عيشة راضية، وكان أبوه متزوجا من عائلة تامزالي الغنية.

لا شك أنه لم يكن وحده عندما شعر وهو في الميدان أنه خير وريث للحضارة العربية الإسلامية وخير معبر عن صوت الأجداد، وأنه هو وزملاؤه قد رفعوا التحدي في وجه الاستعمار باسم: المفاوضات هي الحرب. وقد ذكر أنه عندما كان في مونبلييه كان يعرف أنه في كلية أنشئت أصلا من أجل الطب العربي حيث كان يتردد عدد من طلاب العالم، واعتبر ذلك تكريما للإسلام. وكان عدد الطلبة الجزائريين في جامعة مونبلييه كبيرا نسبيا حتى أن اثنين منهم أصبحا عضوين في مكتب الجمعية العامة للطلبة.

أما محتوى الكتاب فهو مقسم إلى قسمين: الأول فيه هذه أسلحتنا وهؤلاء أطباؤنا، والثاني قمة سي حميمي. والواقع أن القسم الأول هو الأكبر حجما (ص7-247)، أما القسم الثاني فيضم من (ص 249-289). ومن

فصول القسم الأول المواضيع التالية: طبيب جيش التحرير، كوكبة من السلاح والأطباء، مجلس المنطقة، مجلس الولاية، أسرى الحرب، معسكرات الاعتقال[1].

عن تاريخ الطب

أما إذا رجعنا إلى الجانب التاريخي فإننا نجد نور الدين عبد القادر قد ترجم لحياة عمر الخيام (الجانب الطبي منه)، وأرجوزة ابن سينا في الطب مع الطبيب الفرنسي هنري جاهيي H. Jahier. وقد نشرت الدراسة عن الأرجوزة في باريس 1954، ثم قدمها نور الدين في مجلة هنا الجزائر[2].

وفي هنا الجزائر أيضا قام نور الدين بترجمة (الطبيب الشيخ ابن حمادوش) كما سماه، وهو عبد الرزاق صاحب رحلة لسان المقال التي حققنا جزأها الثاني، وقاموس العقاقير إلخ. وقد رجع نور الدين في هذه الترجمة لعدة مصادر، منها ابن سينا والأنطاكي والحفناوي وابن البيطار، وذكر من كتب ابن حمادوش كتاب تعديل المزاج وكشف الرموز أيضا، وقال إن الأول يقع في نحو أربعين صفحة، وأما الثاني فهو مطبوع متداول، وإن ابن حمادوش قد توفي في آخر القرن الثاني عشر للهجرة عن نحو ثمانين سنة. ولاحظ نور الدين أن الأدوية التي دونها ابن حمادوش هي التي كان يتداوى بها أهل الجزائر، وأنها معروفة اليوم (وقته) عند العشابين، وإن ابن حمادوش كان يداوي الناس من الحمى، وسمع أن له رحلة إلى الأقطار المشرقية ولكن نسخها قليلة جدا، وإن له تقاييد عن تاريخ مدينة الجزائر. ولا ندري مدى استفادة الناس في الميدان من قاموس ابن حمادوش وأعشابه وأدويته أثناء الثورة[3].

(1) طبع الكتاب في الجزائر، م.و.ك.، 1985.
(2) هنا الجزائر 42، يناير 1956.
(3) هنا الجزائر 56، يوليو 1957، أنظر أيضا كتابنا الطبيب الرحالة: ابن حمادوش، وكذلك تحقيقنا لرحلته لسان المقال.

شارك أحد الجزائريينّ، وهو الشيخ أحمد بن حمودة في مؤتمر عن ابن سينا بطهران سنة 1955، وقدم هذا الجزائري(وهو مدرس سابق بمعهد الدراسات الإسلامية بالجزائر) بحثا عنوانه (مختصر علم الهيئة) لابن سينا. وقد شارك ابن حمودة "باسم الجزائر" رغم أن الجزائر ليست دولة، وكان عدد الدول المشاركة في المؤتمر 26 دولة، بينما تحدث آخرون عن ابن سينا الفيلسوف والطبيب والأديب بمناسبة ذكراه الألفية. وقد أخبر ابن حمودة أن لمختصر علم الهيئة نسختين إحداهما في الجزائر والأخرى في المتحف البريطاني، وتحصل على نسخة من كل منهما، ثم حلل الكتاب بناء على الرسوم الثمانية التي رسمها ابن سينا للعالم بناء على أن الأفلاك تسعة، وأكد ابن حمودة أن الكتاب رغم عنوانه، غير مختص بعلم الهيئة بل يشمل أخبار الفلسفة والطب والهندسة والجغرافيا الطبيعية، وكان ابن سينا قد اعتمد فيه على كتاب المجسطي (بطليموس). وجاء ابن حمودة بخلاصة كتاب بطليموس وهي تقول بنظرية مركزية الشمس وبرأي كوبرنيك التي تقول إن للشمس حركات عديدة منها الحركة الدورانية الدائمة واليومية والحركة الانتقالية السنوية. ومهما كان الأمر فإن هذا النشاط العلمي كان خارج نطاق الثورة عندئذ[1].

وثائق عن الطب في الأرشيف

عثرنا في الأرشيف عن دراسة موثقة عن الصحة العامة بناء على مصادر مختلفة، منها تقارير الأمم المتحدة، ونعني بذلك الوضع الصحي في الجزائر سنة 1957 : المستشفيات وأنواع المرض الشائعة، وأدويتها، والصيدليات. وتناولت الدراسة وضع خطة وطنية للصحة، وإعداد قاعدة مبادئها وتنظيمها ووسائلها وموظفيها، ولكن التقرير لا يتحدث عن الثورة والأطباء فيها إلا قليلا، من ذلك قوله: نظمت الأمور الصحية بالتدرج من قبل مصالح جيش التحرير بالتنسيق مع وضع شبكة سياسية وعسكرية وإدارية في كل الولايات. وفي سنة

(1) هنا الجزائر 32، فبراير 1955.

1956 كانت مصلحة الصحة للثورة تستطيع معالجة المناضلين في المستشفيات، ومن بين ما أشارت إليه الدراسة هو التقرير الطبي للمؤتمر الذي انعقد في مدينة تيارت سنة 1959. ويبدو أن هناك لبسا في التاريخيين المذكورين[1].

بمناسبة إحياء الذكرى 32 لميلاد العالم الفرنسي (باستور) قامت مجلة هنا الجزائر بتلخيص ما قام به المعهد من أعمال في الجزائر، ولهذه الخلاصة جانب تاريخي نتركه الآن، وأما الجانب العملي فإنه تمثل فيما يلي:

1. اكتشاف نقل القمل للأمراض ولا سيما الحمى المزمنة، وإن التيفوس موجود في القملة نفسها، وبداية استعمال غبار د.د.ت لقتل القمل.
2. النجاح في علاج مرض السل عن طريق ب س ج.
3. عرف مرض (القرع) وأسبابه.
4. أمراض العين.
5. اختراع مصل لعلاج سم العقرب.
6. أمراض الإبل من الذباب والماشية، وكذلك مرض بيوض النخلة وتأثير الحشرات والبعوض على النباتات، وعلاج ذلك.

وقام معهد باستور بمحاضرات عن حمى المستنقعات[2].

وحول النشاط الطبي أيضا انعقد المؤتمر السابع والعشرون للأطباء العرب في دمشق سنة 1959 وشارك فيه وفد جزائري برئاسة الدكتور علي مرداسي، وقدم الوفد تقريرا عن وضع اللاجئين الجزائريين في المحتشدات وحرمانهم من وسائل الصحة. وفي النهاية أصدر المؤتمر لائحة حول الجزائر طالبت منظمات الصليب الأحمر والهلال الأحمر في العالم بالسعي لوضع حدّ لمعسكرات الاحتشاد والعمل على احترام ميثاق جنيف لإطلاق سراح الأطباء والصيادلة

---

(1) الأرشيف الوطني، علبة 31، ص 23 من التقرير العام.
(2) المقالة موجودة بنصيها العربي والفرنسي في مجلة هنا الجزائر، 32، فبراير 1955، وهما بقلم مدير المعهد إدوارد سيرجان .E. Sergent

والممرضين الجزائريين الموقوفين، وإبداء تضامن الأطباء المجتمعين مع الشعب الجزائري. وقد أشادت المجاهد بدور سوريا في مساندة الجزائر ودور الروح العربية والعروبة وسخاء سوريا نحو الجزائر سيما عند انعقاد أسبوع التضامن مع الجزائر[1].

اقترح برنامج الصومام خطة لتنظيم المصالح الصحية تشمل:

- جراحين وأطباء وصيادلة ليكونوا على اتصال بعمال المتشفيات.
- تنظيم العلاج والحصول على الأدوية والضمادات.
- إقامة عيادات في الأرياف للإشراف على معالجة المرضى أو من كانوا في دور النقاهة[2].

في تقرير طويل كتب عن الوضع الصحي في الجزائر خلال الثورة جاء وصف لحالة المستشفيات الريفية التي أقامتها الثورة والحاجة إلى الممرضات والنواحي الإيجابية والسلبية في المنظومة الصحية للثورة. فعند ما بدأت الثورة عملية فصل السكان عن الإدارة الاستعمارية في مختلف المجالات بدأ طلب السكان للممرضات والممرضين لأنهم أصبحوا نادرين. كانت الممرضات يعملن في المستشفيات الريفية، وكن يمثلن الاحتياطات في التطبيب، فضاعفن من عملهن بالوسائل المتوفرة مع السكان المدنيين الذين رحبوا بهن كنساء لأن التطبب سابقا كان يقوم به الرجال. لقد لعب ممرضات جيش التحرير دورا حاسما في العمل الصحي، ولا سيما في الأرياف. ونتيجة ذلك النشاط ظهر في مختلف الولايات مشكل إقامة المستشفيات في الأرياف للمدنيين، سيما في الولايتين الثالثة والرابعة.

وهكذا وضعت ميزانية خاصة لدى الجيش للمساعدات الطبية الاجتماعية تخص السكان المدنيين. وبدأت تنظيمات الثورة تدفع أثمان الدواء والإجلاء

(1) المجاهد 45، 29 يونيو 1959.

(2) النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، 1979.

عن المدن أو عن المستشفيات الفرنسية المدنية. وكان على المصلحة الطبية للجيش أن تعيد تنظيم نفسها من جميع الوجوه، فتأتي بالمتطوعين في التمريض والممرضات السابقات والمعاونات التقنيات، والفتيات، والطلبة الذين أضربوا عن الدروس. فكان هؤلاء جميعا يمثلون الإطارات الجديدة في ميدان الطب والتمريض. وهكذا جاء طلبة الطب والأسنان والصيدلة فكانوا هم المؤطرين والمعلمين في نفس الوقت. وتسهيلا لمهمتهم أنشى منصب (مسؤول الصحة في المنطقة)، وأصبح هناك لا مركزية ومواصلات سريعة في حالة الطوارى من نقطة إلى أخرى بعينها. وكان من مهمة مسؤول الصحة نشر وتقديم النصائح الصحية على مستوى جيش التحرير. وفي المجتمع المدني كان كل مسؤول على الدوار أو المجموعة الريفية من السكان أن.يطبق النصائح الطبية لجيش التحرير. وكان أكبر نقص عاناه هذا القطاع هو النقص في المواد الطبية نظرا لحالة الحرب. مثلا هناك فقر في سيارات الإسعاف أو المروحيات لإجلاء مستشفيات تقع في عمق الريف حيث من الصعب ممارسة العمليات الجراحية المستعجلة، بحيث لا توجد إلا الوسائل البدائية[1].

وتشير بعض المصادر إلى وجود مستشفيات ودور نقاهة لجيش التحرير خارج الحدود الجزائرية أيضا. فقد روى الشيخ أحمد توفيق المدني أنه كان للجبهة مستشفى في العرائش (المغرب)، وأنه زار المستشفي شخصيا عندما كان وزيرا للثقافة، كما زار دار النقاهة المخصصة لمرضى جيش التحرير بطنجة. وقال إنه كان حول الدار سبعة عشر هكتارا من الأشجار الباسقة[2].

وقد تطوع بعض الطلبة الذين كانوا يدرسون الطب وجعلوا أنفسهم تحت تصرف النظام. فهناك رسالة بعث بها علي بسطة الذي كان طالبا في الطب في

(1) الأرشيف الوطني علبة 31، ص 24.
(2) المدني، حياة كفاح، ج3، ص 417. حدثت زيارته في مارس 1959.

جامعة باريس أعلن فيها وضع نفسه تحت تصرف جبهة التحرير[1].

وقد انعقد مؤتمر طبي في المغرب المستقل سنة 1959، ولعله هو الأول من نوعه، حضره أطباء من مختلف أقطار المغرب العربي وافتتحه الملك محمد الخامس. ولا ندري من مثل الجزائر فيه، ولكن يبدو أن الأطباء الجزائريين أخذوا منه درسا في التعامل مستقبلا، وهذه الفكرة طرحتها جريدة المجاهد التي نقلت أخبار المؤتمر.

كما انعقد في تونس قريبا من ذلك التاريخ مؤتمر مغاربي خاص بأطباء العيون حضره الدكتور شوقي مصطفاي الذي خطب في جلسة الاختتام، وقال إنه يحمل إلى الأطباء تحيات زملائهم أطباء الجزائر عامة وأطباء العيون خاصة. ولا ندري أيضا هل كان في الوفد الجزائري أعضاء آخرون ومن هم.

وهكذا كانت الجزائر حاضرة في الميدان الصحي في داخل الولايات وحاضرة في المؤتمرات والندوات التي تتعلق بالطب على المستوى الخارجي[2].

(1) الأرشيف الوطني، 1-20- رمز 2. والرسالة بتاريخ 1956 ولكن دون ذكر الشهر.

(2) المجاهد - بالفرنسية- 42، 25 مايو 1959.

الفهارس العامة

1 ـ فهرس الأشخاص

(أ)

(*) لم نفهرس اسم الجزائر وفرنسا، ولا النشرات الولائية والمدرسية وفروع اتحاد الطلبة ونشرات وزارة الأخبار. . .

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(غ)

(ف)

(ق)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

2 ـ فهرس الأماكن

(ن)

3 ـ فهرس الكتب والمجلات والجرائد

4 ـ فهرس الجمعيات والروابط...

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

محتوى الكتاب

الفهارس العامة